عالم المعرفة
265

الثقافة العربية وعصر المعلومات

• رؤية لمستقبل الخطاب الثقافي العربي

تأليف: د. نبيل علي

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

عالم المعرفة

سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت

صدرت السلسلة في يناير 1978 بإشراف أحمد مشاري العدواني 1923 ـ 1990

265

الثقافة العربية وعصر المعلومات

رؤية لمستقبل الخطاب الثقافي العربي

تأليف: د. نبيل علي

يناير 2001

المحتوى

المحتوى
المحتوى
المحتوى

تقديم

هذه الدراسة دعوة إلى المشاركة في جولة معرفية يقوم بها مهندس طيران هجر تخصصه الأصلي منتقلا ـ بفضله ـ إلى عالم الكمبيوتر والمعلومات. وعلى ما يبدو، فقد حكم عليه بدوام التنقل عبر المهن والتخصصات، فكانت النقلة الثانية عندما أتيحت له الفرصة كي يرقى بتخصصه الجديد إلى مجال «هندسة اللغة»، وما كاد يستقر به المقام في رحاب اللغة، حتى وجد نفسه ـ بفضلها، ومن أجلها ـ يخوض في حديث «هندسة الثقافة». لقد باتت الثقافة منظومة شديدة التعقد في أمس الحاجة إلى دعم يأتيها من الهندسة، فهي ـ أي الهندسة ـ ستظل دوما فن التحكم في النظم المعقدة.

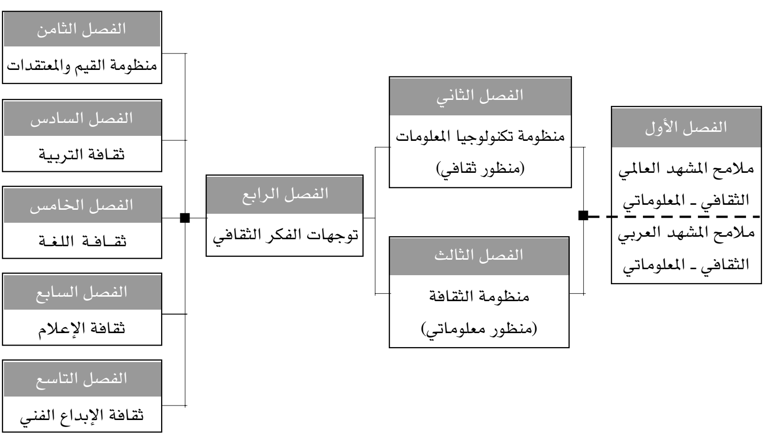
والدراسة الراهنة استكمال لدراسة سبق أن قام بها الكاتب عن «العرب وعصر المعلومات» صدرت في العام 1994 (العدد 184 من سلسلة «عالم المعرفة»)، وأكد فيها أن التنمية المعلوماتية هي قضية ثقافية في المقام الأول. لقد احتاج الأمر منه إلى ما يقرب من ست سنوات ليعيد تثقيف نفسه، ويجدد عتاده المعرفي تأهيلا لشرف الحديث عن الثقافة، وهو الحديث الذي يحتاج اليوم إلى معرفة نظرية وخبرة عملية في توظيف هذه المعرفة. لقد صارت الثقافة في عصر المعلومات صناعة قائمة بذاتها، الأمر الذي أصبحت معه إشكاليتها لا تدين إلى أحاديث الصالونات، وسجال المنتديات ورؤى المقاعد الوثيرة، وتكرار الجدل العقيم حول العموميات

والأمور التي صارت في حكم البدهيات، من قبيل: أصالة أو معاصرة، ثقافة النخبة وثقافة العامة، تعريب التعليم أو لا... وما شابه.

والكتاب ليس كتابا في «الثقافة العلمية» بل في «علمية الثقافة»، بعد أن أصبحت الثقافة علما والعلم ثقافة. إن تناول ثقافة عصر المعلومات يحتاج إلى خلفية معرفية وتكنولوجية مغايرة تماما لما كانت الحال عليه في الماضي، ويهدف الكتاب ـ أساسا ـ إلى اختصار الوقت والجهد اللازمين لاكتساب هذه الخلفية، من أجل أن نضع خطابنا الثقافي على نقطة بداية متقدمة، حتى يركز هذا الخطاب على القضايا الاجتماعية المتعددة والساخنة التي أفرزها المتغير المعلوماتي. وهو يطرح ثقافة عصر المعلومات من منظور عربي، لا يخرج عن كونه مبادرة ضمن مبادرات أخرى عدة، يأمل الكاتب أن يسهم بدراسته هذه في خروجها إلى النور.

لقد أصبحت الثقافة هي «محور» عملية التنمية الاجتماعية الشاملة، في حين أصبحت تكنولوجيا المعلومات هي «محور» التنمية العلمية التكنولوجية، والحوار بين هذين «المحورين» هو محور دراستنا الراهنة. بقول آخر، إن ما نحن بصدده ليس حديث التدخل في مجال الثقافة، بل حديث تداخلها مع تكنولوجيا المعلومات، وما ترتب عليه من اتساع نطاق تداخلها مع المنظومات الاجتماعية الأخرى والفئات الاجتماعية المختلفة.

هذا هو هدف الكتاب أما عن محتواه فيلخصه الشكل أدناه.



إنه حديث خطوط التماس الفاصلة بين التخصصات المعرفية، بكل ما يعنيه ذلك من مجازفة، ومسؤولية مضاعفة لإرضاء توقعات أهل التخصص على جانبي خطوط التماس هذه.

استهلت الدراسة مقدمتها باستعراض ملامح المشهد العالمي الثقافي ـ المعلوماتي متبوعا بنظيره العربي. تتفرغ الدراسة بعد فصل المقدمة إلى طرح منظومة تكنولوجيا المعلومات من منظور ثقافي، وطرح منظومة الثقافة من منظور معلوماتي. يتلو ذلك حديث عن توجهات الفكر الثقافي المعاصر. بعد هذه الخلفية العامة، تكون الدراسة قد تهيأت لحديث أكثر تفصيلا يتناول الفروع المختلفة لمنظومة الثقافة من منظور معلوماتي. ونقصد بها: ثقافة اللغة، وثقافة التربية، وثقافة الإعلام، وثقافة الإبداع الفني، ومنظومة القيم والمعتقدات.

أما عن منهجها، فقد التزمت الدراسة بتوجهين رئيسيين:

- التوجه المنظومي System approach، بالنظر إلى الثقافة كمنظومة مكونة من منظومات فرعية عدة، يتكون كل منها ـ بدوره ـ من مجموعة من العناصر الداخلية، وشبكة من العلاقات التي تربط المنظومة الفرعية بخارجها.

- توجه التناول المزدوج، حيث يبدأ تناول كل مسألة بـ «طرح عام» كخلفية ضرورية لطرح المسألة ذاتها من «منظور عربي».

والكتاب ـ في رأي الكاتب ـ يحتاج إلى مستويين من القراءة، قراءة شاملة تتلوها قراءة متأنية، حيث ترتبط فصول الكتاب بعضها مع بعض ارتباطا عضويا، وذلك تأكيدا لمفهوم التكامل المعرفي الذي ركزت عليه الدراسة بشدة، من أجل مساندة القراءات الانتقائية اللاخطية non-linear. فقد راعى الكاتب في كثير من المواضع أن يحيل القراء إلى فقرات سابقة ولاحقة، ضمانا لتوافر الخلفية أو اكتمال العرض. من جانب آخر، فقد تضمنت الدراسة أشكالا عدة، يوصي الكاتب بضرورة التمعن فيها، حيث تبرز كثيرا من المفاهيم الأساسية التي سعت الدراسة إلى تقطيرها في ذهن القارئ.

بقي لنا من هذا التقديم التعبير عن امتناننا الشديد لأصحاب الفضل ممن ساهموا في صنع الكتاب وعقل كاتبه، وعلى رأسهم أستاذي الجليل الدكتور أسامة الخولي الذي علمني ليثقفني، وثقفني ليعلمني، وكذلك إلى

الأستاذة ماجدة رفاعة، وباحثة اللسانيات الحاسوبية نسرين السلمي اللتين ساهمتا في قراءة مسودة الكتاب. أما الصديق الكاتب أسامة عرابي فقد شمل فضله ـ علاوة على قراءة مسودة الكتاب بالكامل ـ تصويب أخطائه النحوية، والتخفيف من بعض لوازم الكاتب الأسلوبية. ولا يفوت الكاتب هنا أن يعبر عن شكره للزميل علاء حمودة أخصائي برمجة الكمبيوتر، الذي قام بتنفيذ جميع رسومات الكتاب.

أما شقيقتي الدكتورة فاطمة علي فقد كان لتشجيعها الدائم أعظم الأثر، وكان نبوغها العلمي والمهني مثلا للاقتداء ونموذجا نادرا للعطاء، والشكر ـ أيضا ـ لابنتي نانسي التي قامت بتنظيم مصادر المعلومات، والأهم من ذلك أنها أثبتت بمقترحاتها أن الحكمة لم تعد وقفا على الكبار في عصر المعلومات. ويعجز القلم عن التعبير عن عظيم امتنان صاحبه إلى شريكة حياته نبيلة السلمي، لإسهامها المتواصل في صناعة الكاتب، وصناعة كتابه، منذ أن كان مجرد فكرة مبهمة، حتى اكتمل في صورته النهائية، وما أكثر ما نبهت الكاتب عندما يجنح به الفكر، أو يسرف القلم.

وإلى أبي وأمي بالطبع...

نبيل علي
القاهرة–نوفمبر 2000

١ العرب وحوار الثقافة والتقانة

- يا له من مخاض عسير!
- يا له من تحد جسيم!
- العولمة: المنظور المعلوماتي
- حوار المحاور
- إسرائيل كخصم ثقافي ـ معلوماتي
- المثقف العربي وثقافة عصر المعلومات

١ : ١ يا له من مخاض عسير!!

١ : ١ : ١ نهايات وما بعديات

في البداية، ليكن حديث النهاية. وليس ثمة تناقض في ذلك مع عصرنا هذا الذي نسعى هنا إلى تمثله، عصر يلهث فيه قادمه يكاد يلحق بسابقه، وتتهاوى فيه النظم والأفكار على مرأى من بدايتها، وتتقادم فيه الأشياء وهي في أوج جدتها(*1)، عصر تتآلف فيه الأشياء مع أضدادها. فالمعرفة قوة والقوة أيضا معرفة، معرفة تفرزها هذه القوة لخدمة أغراضها وتبرير ممارساتها وتمرير قراراتها. ولهذا التضاد المعرفي رفيق اقتصادي؛ فالمعلومات مال بعد أن أصبحت موردا تنمويا يفوق في أهميته الموارد المادية، والمال بدوره أوشك أن يكون مجرد معلومات؛ نبضات وإشارات وشفرات تتبادلها البنوك في معاملاتها المالية إلكترونيا. وثمة علاقة بين هذا التضاد المعرفي ـ المعلوماتي، والتضاد الحاكم في عصرنا، الذي أصبح فيه العلم هو ثقافة المستقبل(*2)، في حين اقتربت الثقافة من أن تصبح هي علم المستقبل الشامل، الذي يطوي في عباءته فروعا معرفية متعددة ومتباينة.

ودعنا نستطرد في حديث الأضداد، فما أعجب

أضداد عصرنا، ذلك الذي تتعلم فيه الأجيال اللاحقة من أجيالها السابقة، مثلما تتعلم السابقة من اللاحقة، بعد أن أصبحت معرفة من سبق تتهالك بمعدل يفوق في سرعته معدل اكتسابه لها. وثمة صلة ما بين هذا ومعكوس التاريخ لدى ميشيل فوكو، الذي يزعم أن الماضي لا يؤدي إلى الحاضر، والحاضر هو الذي يهب الماضي معناه وجدواه. لقد اختلطت الأضداد وتداخلت في أيامنا حتى أعلن جان بودليار «نهاية الأضداد» (233:267)[(*3)]، نهاية تضاد الجميل والقبيح في الفن، واليسار واليمين في السياسة، والصادق والزائف في الإعلام، والموضوعي والذاتي في العلم، بل ونهاية تضاد «هنا وهناك» أيضا بعد أن كاد «طابع المكان» أن ينقرض وقد سلبته عمارة الحداثة خصوصيته وتميزه. إنها بالقطع، وبكل المقاييس، ثورة مجتمعية عارمة. لقد دان العالم لسيطرة الصغير متناهي الصغر، من جسيمات الذرة وجزيئات البيولوجيا الجزيئية؛ والأخطر من ذلك أنه قد دان لسيطرة «ذرة» المنطق الصوري التي بلغت ذروتها في ثنائية «الصفر والواحد»، الثنائية الحاكمة التي قامت عليها تلك التكنولوجيا الساحقة الماحقة: تكنولوجيا المعلومات.

حقا... نحن نواجه عالما زاخرا بالمتناقضات، يتوازى فيه تكتل دُوَله مع تفتت دويلاته، ولا يفوق نموه الاقتصادي إلا زيادة عدد فقرائه. وها هي شبكة الإنترنت، التي أقيمت أصلا لاتقاء ضربة نووية محتملة ربما يقدم عليها الخصم السوفييتي آنذاك، هاهي تلك الشبكة، وليدة الحرب الباردة، يروجون لها كأداة مثلى لإشاعة ثقافة السلام، ونشر الوفاق والوئام بين الأنام. إنها البشرية تمارس هوايتها الأبدية في مزج الآمال بالأوهام، فلا حرج ولا تناقض بين حديث السلام هذا، والمائة والخمسين حربا التي نشبت منذ الحرب العالمية الثانية (16:65)؛ الأمر الذي يبدو وكأن كبار عالمنا يصدرون لصغاره حروبهم وصراعاتهم وأزماتهم، يفتتونها حروبا أهلية، وصراعات عرقية ودينية ولغوية، وبطالة وتغريبا وتهميشا واستبعادا، وكل درجات هذا الطيف القاتم لاستغلال أيامنا. وربما تساير نزعة تفتيت الكوارث تلك نزعة اللامركزية التي تسود هذا العصر، وتتبدى - أكثر ما تتبدى - في شبكة الإنترنت، شبكة بلا محور وبلا قمة وبلا هرمية أو تراتبية.

وما زال الحديث عن خصائص عصرنا وتناقضاته، ذلك العصر الذي أثار قلق فيلسوف علمه كارل بوبر، فالعقلانية ـ على حد قوله ـ لم تعد من الأفكار العصرية (252:74). وإن جاز لنا أن ننقل هذا إلى نطاق حديثنا ذي الصيغة المعلوماتية، فهل لنا أن نتساءل أين تلك العقلانية في زمن صار فيه من تعرف أهم من ماذا تعرف، ومازال كثيرون فيه أسرى الفكر الثنائي القاطع: إما هذا، وإما ذاك، في الوقت نفسه الذي يسعى فيه عقل الكمبيوتر الآلي إلى التخلص ـ تدريجيا ـ من هذه الصرامة الثنائية، وذلك باللجوء إلى الحدس واتباع رتب أعلى من تلك التي للمنطق الأرسطي القاطع. وأين تلك العقلانية ـ بل أين الإنسانية بأسرها؟ ـ في حاضر يسعى فيه أهله إلى «أنسنة» الروبوت (الإنسان الآلي) بأن يهبوا هذا الغشيم الأبكم ذكاء اصطناعيا يحاكي ذكاء الإنسان، في الوقت ذاته الذي يسعى فيه هؤلاء أنفسهم إلى «روبتة» الإنسان، يفككون مهاراته de- skilling إلى مهارات أصغر فأصغر جاعلين منه ترسا في آلة ضخمة، تحيطه من كل جانب جوقة الصناديق السوداء التي لا يدري شيئا عما بداخلها. لقد حق للإنسان بعد كل هذا أن يرتد ليجتر عقله الأول، عقل أسطورته، عساه يجد في لاعقلانيتها ما يعينه على فهم لغز حداثته، وما بعد حداثته. لقد صنع إنسان هذا العصر عالما يغص بالاحتمالات والتوقعات واللايقين، إلى الدرجة التي أصبح معها يخشى النجاح، قدر ما يخشى الفشل، بل يصل الأمر أحيانا إلى حد تفضيل الفشل. فنجاح العولمة ـ على سبيل المثال ـ في رأي البعض هو الشيء الوحيد الأكثر سوءا من فشلها (256). لقد استدرج التعقد إنسان هذا العصر إلى شباكه حتى كاد يتجاوز قدراته على الحل. فعلى الرغم من كل ما يزهو به عصرنا من ثراء معرفته ووفرة معلوماته، وقدرة نظمه وآلاته ودينامية تنظيماته وسرعة قراراته؛ برغم كل هذا، مازال يستبيح لنفسه أن يسلم أقداره لعبث الأيدي الخفية التي تحرك اقتصاده وعولمته، ومعظم نظمه الاجتماعية، وأمور بيئته وأوضاع جماعاته. وصدق من قال: كم نحن جوعى للحكمة والمعرفة، ونحن غرقى في بحور المعلومات والبيانات!!

إنه عصر حثيث الخطى، يصنع تاريخه وفق قانون «حاصل الجمع الصفري» (159:211)، سلسلة لامتناهية متسارعة الإيقاع من جولات الهدم وإعادة البناء، فكان أن وصف البعض القرن العشرين بـــــ «القرن

القصير»(100). فما إن يظهر مذهب فكري أو نظام اجتماعي، سرعان ما يلحق به ما يقوضه أو ينسفه. فثورة لينين في العشرينيات تقضي عليها بريستوريكا جوربا تشوف في نهاية الثمانينيات، وطور الإنتاج، رابطة عقد نموذج الاقتصاد الماركسي، يحل محله طور إعادة الإنتاج في نموذج الماركسية الجديدة لمدرسة فرانكفورت، بعد أن بات التصور الماركسي الكلاسيكي غير قادر على الوفاء بمستجدات اقتصاد المعلومات وصناعة الثقافة، وبنيوية الستينيات تطيح بها «ما بعد بنيوية» السبعينيات وكمبيوتر الخمسينيات الضخم يلقى حتفه على يد ميكرو كمبيوتر الثمانينيات، وهلم جرا.

يا له من مخاض عسير حقا، ذلك الذي تمر به البشرية وهي على أعتاب مجتمع المعلومات، ومع رهبة الولوج إلى هذا العالم المغاير المثير والمخيف، يحلو حديث النهايات وما بعد النهايات. وفي مقدمتنا هذه، دعنا نرسم صورة لهذا المشهد الحضاري نشكلها من نبضات الرموز وشظايا النصوص، وقد تراءى لنا ذلك صدى لتشظي رسائل المعلومات fragmentation، تلك الرسائل التي تتدفق كفيض منهمر من وميض النبضات، يبعث به المرسل لمستقبله. وإليك ـ يا عزيزي القارئ ويا عزيزتي القارئة ـ نبعث بشظايا ثلاثية: النهايات والمابعديات ومنفيات «بلا»، في رسالة يحملها لك الجدول (1:1) وعليك بعد استقبالها تقع مسؤولية استخلاص ملامح هذا العالم المغاير من هذه الفسيفساء الرمزية. ومعظم بنود هذا الجدول، إما معروف وإما مفهوم من سياقه. ولا يود الكاتب أن يعتذر عما غمض منها، فهو يرى في هذا القدر من الغموض اتساقا مع طابع معرفة عصر المعلومات التي تنأى بنفسها عن بداهة الوضوح وسذاجة الاكتمال.

إن «النهايات» هنا إما بدافع فكر متطرف متسرع، تشابهت عليه الظواهر المؤقتة وكأنها قاربت غاياتها أو استنفدت أغراضها، وإما بدافع الحسرة على ما كدنا أن نفقده أو نودعه خزائن النسيان. أما «مابعد»، فيعلن القطيعة على «ما قبل»، مفضلا ظلمة «آت مجهول» على نور يضلله يبعث به إليه «سالف معروف»، لما يرى ـ أو يتراءى له ـ في هذا السالف من أوجه القصور والتناقض. وتتخذ «منفيات بلا» موقفا وسطا بين النهايات والمابعديات، تكتفي في نفيها باستقطاع عناصر أساسية من الأشياء والظواهر، وقد أمكن ذلك بفضل ذلك الذكاء الاصطناعي الذي تهبه

الجدول (1:1) ثلاثية النهايات والمابعديات ومنفيات «بلا»

نهايات	منفيات «بلا»	ما بعديات
نهاية المكان	مصانع بلا عمال	ما بعد الصناعة
نهاية المسافة	تعليم بلا معلمين	ما بعد الحداثة
نهاية التاريخ	أفلام بلا ممثلين	ما بعد الفوردية
نهاية الجغرافيا	برمجة بلا مبرمجين	مابعد التيلورية
نهاية الدولة	مركبات بلا سائقين	مابعد الكينزية
نهاية القومية	مدرسة بلا أسوار	مابعد الكولونيالية
نهاية المدينة	مجتمع بلا نقد	ما بعد السياسة
نهاية المدرسة	أقلام بلا أحبار	ما بعد الكتابة
نهاية المدرس	هواتف بلا أرقام	ما بعد الرمز
نهاية الكتاب	كتابة بلا أقلام	ما بعد البترول
نهاية المؤلف	مكاتب بلا جدران	ما بعد الإنسانية
نهاية الورق	مكتبات بلا رفوف	ما بعد عصر المعلومات
نهاية الفيزياء	موظفون بلا مكاتب	
نهاية المكتبة	رواية بلا نهاية	
نهاية المتحف	سياسة بلا نواب	
نهاية الميتافيزيقا	ترحال بلا انتقال	
نهاية الأيديولوجيا	حضور بلا وجود	
نهاية الأضداد	جيرة بلا قرب	
نهاية العمل	جنس بلا رفقة	
نهاية الطبقة المتوسطة		
نهاية الوسطاء		
نهاية الذاكرة		

تكنولوجيا المعلومات لغير ذوات العقول. إنه حقا مجتمع التعلم. فكما يتعلم الإنسان ذاتيا، كذلك تتعلم الأدوات والآلات وأجيال الإنسان الآلي والنظم والجماعات والمؤسسات بل الفيروسات أيضا. وها نحن نصبو، من

خلال تضافر تكنولوجيا المعلومات مع هندسة الوراثة، إلى إكساب الخلايا ملكة التعلم ذاتيا؛ كي تدرك خلية السرطان كيف توقف نموها العشوائي، وتذود عن بقائها ضد الضمور خلية الأعصاب غير المتجددة، وتتجدد خلية الشعر تلقائيا لتهزأ بداء الصلع الذي كان يلهو بموتها.

1 : 1 : 2 نهايات أم بدايات؟!!

كل هذا السجل الحافل لنهايات عصر المعلومات يمكن النظر إليه، من الطرف النقيض، على أنه إعلان لبدايات جديدة. فتكنولوجيا المعلومات، ما أن تغلق بابا حتى تفتح آخر أكثر رحابة واتساعا؛ وذلك لما تتيحه من بدائل عديدة لإعادة تشكيل المفاهيم، وإعادة صياغة العلاقات، وإعادة بناء النظم والمنظمات. سنكتفي هنا بأربع نهايات اختيرت من القائمة السابقة كي نوضح ما نقصده بمفهوم «النهاية ـ البداية» الذي نطرحه هنا.

(أ) **نهاية المدرس:** ويقصد بها أن التوسع في استخدام تكنولوجيا التعليم من برامج تعليمية ونظم آلية لتأليف المناهج وتقييم أداء الطلبة، وانتشار مواقع التعلم الذاتي عبر الإنترنت، سيؤديان ـ في نهاية الأمر ـ إلى الاستغناء عن المدرس. تعارض أغلبية المنظرين التربويين هذا الرأي، وتتنامى وجهة النظر المضادة القائلة بأن تكنولوجيا المعلومات ستجعل مهمة المدرس أكثر إثارة وثراء، وسترقى به من مجرد ناقل لشحنة المعارف، إلى مشرف موجه يشارك طلبته مغامراتهم المثيرة في اكتساب المعرفة وتوظيفها. بالإضافة إلى ذلك، سيزداد ارتباط المدرس بواقعه، بفضل شبكات الاتصالات التي ستربط المدرسة بالواقع خارجها، وبفضل نظم المحاكاة الرقمية digital simulation التي ستنقل، إلى داخل قاعات الدرس، النماذج الدينامية الحية لتحاكي هذا الواقع.

(ب) **نهاية الميتافيزيقا:** ويقصد بها أن الفلسفة لم تعد منشغلة بمبحث الوجود وما وراء الطبيعة، وصارت تركز على الشق المعرفي: إمكان المعرفة وحدودها ووسائلها. وهي ـ أي الفلسفة ـ على وشك أن تنعطف حاليا صوب الشق الأخلاقي، بعد أن اقتحمت تكنولوجيا المعلومات والهندسة الوراثية والطبية مناطق غائرة من مخ الإنسان وجسده وخلاياه، وهو ما كادت معه التكنولوجيا أن تصبح فرعا متخصصا من فلسفة الأخلاق؛

وذلك ضمانا لحسن تطبيق هذه التكنولوجيا، وعدالة توزيع خيراتها، والتقليل من أضرارها. وها هي الميتافيزيقا تطل علينا برأسها من جديد، وقد استدرجتها إلى الساحة الفلسفية هذه المرة توابع الوجود الرمزي في فضاء الإنترنت وتكنولوجيا الواقع الخائلي Virtual Reality، وهي التكنولوجيا التي أمكن من خلالها صنع عوالم وهمية يقيمها الكمبيوتر باستخدام أساليب المحاكاة الرقمية السالفة الذكر، عوالم يجوبها الإنسان متحررا من قيود جسده وعقله وواقعه (وهو الموضوع الذي سنوفيه ما يستحقه من إيضاح في الفصل القادم الخاص بمنظومة تكنولوجيا المعلومات). إن أسئلة الوجود الكبرى تطرح نفسها من جديد، بعد أن أثارتها سكنى الإنسان لهذه العوالم الخائلية، وماذا ستفعل تلك السكنى بوجوده الحقيقي في عالم الواقع الفعلي.

(ج) **نهاية الذاكرة**: ويقصد بها أن الإنسان يوشك أن يستغني عن ذاكرته الطبيعية مستبدلا بها وسائل تخزين البيانات الإلكترونية. ووصلت سخرية البعض في هذا الشأن إلى حد القول بأن القلة القليلة الباقية من حفظة جدول الضرب ستكون ضمن قائمة احتياطي الأمن القومي التي يحتفظ بها البنتاجون، وذلك بغرض اللجوء إليها في حالة ما إذا انقطع التيار الكهربي عن شبكة الحواسيب الإلكترونية الهائلة التي أوكل إليها المجتمع الأمريكي إدارة معظم شؤونه [229]. ودعهم يسخرون، فالحقيقة المستقرة أن ذاكرة الإنسان مورد ذهني أساسي لا غنى عنه.

وستتيح تكنولوجيا المعلومات وسائل عديدة لتنمية قدرات هذه الذاكرة وتنظيمها وترشيد استخدامها. ويصل الطموح بعلماء تكنولوجيا المخ إلى البحث في إمكان تعزيزها بذاكرة صناعية من شرائح السيلكون الإلكترونية.

(د) **نهاية الوسطاء**: ويقصد بها سقوط الحلقات الوسيطة من سماسرة ووكلاء سياحة وناشرين وأمثالهم، وذلك من خلال التعامل المباشر عبر الإنترنت، بين البائع والمشتري، وبين طالب الخدمة ومراكز تقديم الخدمات، وبين المؤلف وجمهور قرائه، بل يتوقع البعض أن التمثيل النيابي في طريقه هو الآخر إلى الأفول لتحل محله «الديموقراطية الإلكترونية المباشرة»، حيث يمكن لكل مواطن أن يوصل رأيه مباشرة ـ من خلال الإنترنت أيضا ـ إلى أصحاب القرار. أجل... سيختفي وسطاء قدامى ليظهر وسطاء جدد.

فهناك من يتحدثون عن الوسيط المعرفي الآلي كوسيلة لا بد منها لمواجهة إعصار المعلومات، وهو وكيل برمجي ذكي intelligent agent ينوب عن المرء في زيارة مواقع الإنترنت باحثا عما يحتاج إليه من معلومات. وكما سنحتاج إلى وسيط المعرفة الآلي، فسوف تزداد حاجتنا إلى وسطاء المعرفة من بني البشر، مع نمو اعتمادنا على الخبراء التكنوقراط، والذين أصبحوا قاسما مشتركا بين الجماهير وصناع القرار، وذلك بسبب تعقد الظواهر المتصاعد باطراد، وتزايد أهمية الجوانب الفنية في وضع السياسات واتخاذ القرارات ومتابعتها.

ما قصدناه بأمثلة «النهايات ـ البدايات» تلك، إنما هو التأكيد على ضرورة أن تتناول أمور الثقافة والتقانة من وجهات نظر متعددة ومتباينة، بل متناقضة أحيانا. وما أبهظ الثمن الذي دفعته البشرية نتيجة لأحادية النظرة واختزالية الفكر. ولعل ذلك مرجعه إلى وجود تناقض جوهري بين هذه الصلابة الفكرية، ومرونة تلك العجينة الرمادية الرائعة التي توج بها الخالق أدمغتنا؛ المعجزة البيولوجية بالغة التعقيد، ذات بلايين الخلايا العصبية، التي تنطلق بنا حاليا صوب المجهول، يحف بها رفاق عصرنا من ذوات العقول الإلكترونية الباهرة.

1 : 1 : 3 معا صوب المجهول

لا نريد أن نحرم القراء نصيبهم من رهبة البداية، ونحن نتحرك معا صوب مجهول ثقافة عصر المعلومات، وأصدق ما يعبر عن ذلك المجهول مقولة لإيليا بريجوجين، الحائز على جائزة نوبل، يقول شاعر الديناميكا الحرارية، كما يطلقون عليه: «إن القرن العشرين قد حول كوكبنا بأكمله من عالم متناه من الحقائق اليقينية إلى عالم لامتناه من الشكوك» (81:116). لقد تصور بعض علماء الرياضيات في الماضي[(*4)] أن باستطاعتهم معرفة المستقبل ما إن تتوافر لهم وسيلة يحددون بها مواقع جميع الموجودات، ومعرفة بالقوانين التي تحكم سلوكها (146:299). ما أبعده عن الحقيقة ذلك التصور لـ «كون» يعمل كساعة دقيقة منضبطة. فحتى لو افترضنا ـ جدلا ـ أنه قد توافر لعالمنا نظام معلومات بهذه الضخامة وتلك الدقة، سيظل هذا العالم قادرا على أن يفاجئنا دوما؛ تفاجئنا نظمه بأدائها غير الخطي

non- linear، وجماعاته بأفعالها وردود أفعالها غير المتوقعة، ولغته بمجازها الشارد المتمرد عليها، وبشره بإبداعهم الوثاب الذي لا يمل الانتهاك. خلاصة، لقد حق القول: إن التنبؤ الصادق الوحيد، أمام تقلبات هذا العصر، هو استحالة التنبؤ ذاته. ولتكن لنا عظة من نبوءات الماضي التي أثبت الواقع كم هي بعيدة عن الحقيقة. فلم تكن آلة التسجيل هي آلة التعليم المثلى كما تصور مخترعها، ولم يكن التليفزيون هو الوسيلة المثلى لتوعية الجماهير كما حلم صانعوه وتشيع له مؤيدوه. ولم تقتصر استخدامات الكمبيوتر على التطبيقات الإحصائية كما توقع له مهندسه الأول، وحتما تجاوزت مبيعاته ذلك الرقم المتواضع للغاية (4 كمبيوترات سنويا) الذي استهدفه مؤسس شركة آي. بي. إم. ومن المحتم أيضا أن هاتف جراهام بيل لم يكن ـ كما زعم بعض معاصريه ـ مجرد اختراع مثير ذي قيمة تجارية محدودة. حقا... لقد «كذب المنجمون» ولو ساندتهم آلات الإحصاء العملاقة، ونماذج المحاكاة المعقدة، وسماحة السيناريوهات وتعددها. لقد ولت إلى الأبد عهود البساطة والحتميات وسلاسة المسارات الخطية، وفقدنا رفاهية اقتفاء الآثار انطلاقا من الأسباب، واستنباط النتائج من المقدمات، وتتبع الأمور في هياكل هرمية، ترقى بنا من الفروع إلى الأصول: ومن الأبسط إلى الأعقد، ومن البسيط صوب المركَّب، ومن الجزئي صوب الكلي. لقد بات علينا أن ندرك أن قانون العلة والأثر، وتلك البنى المعرفية من هرميات وتراتبيات وأسس منطقية وما شابه، ما هي إلا أمور من صنع عقولنا، اختلطت علينا من فرط استخدمها ورسوخها، حتى تراءت لنا أزلية مطلقة. وما هي بهذه ولا بتلك.

ذلك يكفي عن مجهول عصرنا. أما كيف نواجهه، فعلينا أن نقر ـ بداية ـ أننا نواجه أخطر ظاهرة اجتماعية واجهتها البشرية على امتداد عصورها، نواجهها دون سند من نظرية اجتماعية متكاملة أو شبه متكاملة. لقد بهرتنا العلوم الطبيعية بإنجازاتها الرائعة، وكانت الطامة الكبرى عندما لجأت الإنسانيات، وعلم الاجتماع بصفة خاصة، إلى الطبيعيات تقترض مناهجها الوضعية وأساليبها الإحصائية. وهكذا، أخفق علم الاجتماع في اللحاق بالواقع الاجتماعي، يلوذ بغيره حائرا بين الاتجاهين الوظيفي والماركسي [2]، وتاهت الحقائق الاجتماعية في غابات الأرقام ودوامة المنحنيات وقوائم استمارات الاستبيان، لنكتشف، بعد ضياع الوقت والجهد، أننا ذهبنا بالعلوم

الإنسانية مذهب الخطأ، وبات من الضروري أن يشق منظروها أخاديد منهجية جديدة ومبتكرة. وليس مستبعدا، إن نجحوا في مسعاهم هذا، أن تقترض العلوم الطبيعية ذاتها بعضا من تلك المناهج، فهي الأخرى تواجه في هذه الأيام نوعا من الأزمة المنهجية.

وحالنا إزاء ظاهرة المعلومات أكثر صعوبة في ظل تقانة هادرة وثقافة ثائرة. لقد أصبحنا نرى العالم بصورة أكثر تجريدا من ذي قبل، وذلك بفعل الوسيط المعلوماتي. فمن خلال شاشات التليفزيون وشاشات الرادار ولمبات الإنذار ولوحات التحكم ونماذج المحاكاة وما شابه، أصبحنا نرى معظم وقائع هذا العالم ونرصد أحداثه ونوجه مساراته. لقد كنا فيما مضى نتعامل مع المحسوسات من عناصر مادية وطرق مواصلات ومسارات ورسائل ونصوص وأوراق مالية وعملات نقدية، والآن صرنا نتعامل، أكثر فأكثر، مع المجردات من رموز وسمات وعلاقات وترابطات ومؤشرات وسيناريوهات وخلافه. لقد كانت الحقائق ترد إلينا في الماضي وهي أقرب ما تكون إلى الاتصال والاكتمال، والآن يقذف بها إلينا شظايا متناثرة، علينا أن نلم شتاتها، ونستخلص الجوهر من قلب فوضاها.

1:2 يا له من تحد جسيم!!

1:2:1 عن بريق الأسئلة الذهبية وصدئها وعتمتها

ويا له من تحد جسيم ذلك الذي ينتظر أمتنا العربية في هذا العالم المغاير الحثيث الخطى، وقد امتد نطاق التحديات ليشمل معظم جوانب حياتنا، تحديات علمية وتكنولوجية واقتصادية، تظل برغم حدتها وقسوتها دون تلك التي نواجهها على جبهتي السياسة والثقافة. وكما خلص الكثيرون، فإننا نواجه معضلة صنعتها أيدينا أكثر مما ساهمت فيها أقدارنا. وقد ألفنا عِشرة تلك المعضلة لطول إقامتها بيننا، وسئمنا معرفة أسبابها، وعزفنا - بالتالي - عن التبصر في آثارها. وإن استمر الوضع على ما هو عليه، فليس أقل من الكارثة، وما أدراك ما الكارثة!!

وفي مواجهة المعضلات يجوز للكاتب أن يلوذ - كما يلوذ غيره - بالأسئلة الذهبية (كما يطلق عليها أهل الإغريق)، أسئلة: ماذا ولماذا وكيف؟ ولا خلاف في أن أكثر هذه الأسئلة بريقا هو سؤال: ماذا؟ ذلك الذي يستدعي

الشواهد البارزة والأمور السافرة والأحداث الجارية، وقد فرعناه في إطار حديثنا الراهن إلى ثلاثة أسئلة فرعية هي:

- السؤال الأول: ماذا يجري من حولنا؟ نستعرض من خلاله بعض تضاريس المشهد العالمي للوضع الثقافي ـ المعلوماتي

- السؤال الثاني: ماذا جرى لنا؟ نورد من خلاله بعض ملامح المشهد العربي إزاء المتغير الثقافي ـ المعلوماتي

- السؤال الثالث: ماذا سيجري بنا؟ نسرد من خلاله بعض توقعاتنا، نضعها أمام القراء بصراحة اللونين الأبيض والأسود

وسنتناول كلا من هذه الأسئلة الفرعية في الفقرات الثلاث التالية:

وأكثر الأسئلة الذهبية صدأ في حالتنا هو سؤال: لماذا؟ فقد فاض بنا الكيل من نوبات التشخيص والتبرير. وليكن كل منا خصيم نفسه ليدرك ـ من فوره ـ كم أهدرنا من مواردنا وأفكارنا وتراثنا. ويشهد تاريخنا البعيد والقريب أننا لم نأل جهدا في عقل العقول، واعتقال أصحابها، وتصفية أجساد حامليها، من طرفة بن العبد، وابن المقفع وبشار بن برد، وغيرهم كثيرون، وكأن «فوق رؤوسنا ـ يا بشار ـ سيوف أقويائنا وقد تكاثفت تظللنا كليل حالك تهاوى فيه كواكب مفكرينا فأصبحت ظلمته أكثر حلكة».

أما أكثر الأسئلة عتمة، فهو سؤال: كيف؟ كيف لنا أن نواجه مجهول ثقافة عصر المعلومات؟ وليكن واضحا من البداية أننا لسنا بصدد وصفة ناجعة ناجزة تبرئنا من إرث الماضي وتلبي لنا توقعات المستقبل. فبحثنا الراهن لا يعطي حلولا، بقدر ما هو دعوة للتفكير في بدائل الحلول. واقتراح الحلول في حالتنا، بجانب كونه ضربا من المجازفة إلى حد السذاجة، فهو ـ أيضا ـ بمنزلة تناقض صريح مع ما أكدنا عليه في فقرتنا السابقة فيما يخص الطبيعية السائلة لهذه الظاهرة الاجتماعية غير المسبوقة التي نحن بصددها. ولن تدين لنا الحلول إلا من خلال التفاعل بين فئات عقولنا على اختلاف مذاهبهم وأعمارهم ودوافعهم من جانب، وبين هذه العقول وحقائق واقعنا من جانب آخر. وهذا ـ بدوره ـ رهن بقدرة نخبتنا الثقافية على أن تفلت من قبضة ثلاثية: البيروقراط والتكنوقراط والثيوقراط. ما يبعث على الأمل هنا، أن هذه النخبة ـ كما سنوضح فيما يلي ـ ستجد في مسعاها هذا عونا صادقا من تكنولوجيا المعلومات.

ومع كل ما أسلفناه، يصعب على المرء أن يترك السؤال المحوري: كيف؟ هكذا حائرا دون بعض أفكار أولية في تناوله، نقترح بشأنها الركائز الخمس التالية:

(أ) **الركيزة الأولى:** تكمن، من جهة في قدرة حكوماتنا على إقناع مواطنيها بضرورة التغيير وحشد الجهود والموارد، ومن جهة أخرى في قدرة هؤلاء المواطنين أنفسهم على توجيه حكوماتهم لتصبح أكثر تجاوبا مع مطالبهم، وأكثر تقبلا لرجع صدى جماهيرها تجاه ممارساتها. ومرة أخرى يمكن لتكنولوجيا المعلومات أن تلعب دورا محوريا في إقامة هذا «الديالوج الاجتماعي» الذي طال انتظاره.

(ب) **الركيزة الثانية:** إقرارنا بأن حجم المشاكل وخطورتها يفرضان علينا تضحيات عديدة وتغييرات جذرية في المواقف والتوجهات. وقد تفاقمت أزمات حاضرنا إلى درجة أصبح معها قدر من «طوبائية» التفكير ضرورة واجبة لمعادلة «ديستوبيا» الواقع الذي نعيشه. ويتوقف تحويل هذا المنحى الطوبائي إلى واقع عملي على مدخلنا الأساسي في تناول الإشكالية. ومرة أخرى، يمكن أن تساهم تكنولوجيا المعلومات، بما تتيحه من فرص عديدة، مساهمة فعالة في عملية التحويل تلك.

(ج) **الركيزة الثالثة:** تحاشي «البداية من الصفر»، وذلك ببعث الحيوية في أوصال المنظمات القائمة بالفعل، وأن نجمع بين علاج القديم وبناء الجديد. ويتطلب ذلك ـ أول ما يتطلب ـ أن نضع على قمة مؤسساتنا الثقافية فيلقا من ديناموهات التغيير من ذوي التوجه العربي القومي، الذين أثبتوا قدرتهم على الإنجاز في ظل ظروفنا الراهنة، واستعدادهم للتكيف مع متغيرات عصر المعلومات، واكتساب معارفه ومهاراته.

(د) **الركيزة الرابعة:** في نهاية كتابه السابق «العرب وعصر المعلومات»، اقترح الكاتب «المدخل المعلوماتي» كتوجه أساسي من أجل تحقيق التكامل العربي؛ وذلك كبديل للمدخل الأمني أو المدخل الاقتصادي (431:119). وهو هنا يزيد هذا الاقتراح تحديدا بحصره في نطاق «المدخل الثقافي ـ المعلوماتي». استطرادا من هذا التوجه، يقترح الكاتب أن تعيد منظمة الجامعة العربية النظر في استراتيجيتها الشاملة. فقد آن لها أن تقر بضيق مساحة المناورة السياسية التي تزداد ضيقا يوما عن يوم، سواء تحت ضغوط الخارج

أو بفعل حساسيات الداخل. وهو يتساءل هنا: ألا يمكن أن يكون المخرج استراتيجية بديلة، تتخذ من الثقافة، لا السياسة، محورا لها؟ خاصة أن هذا التوجه يتوافق مع تعاظم دور الثقافة، إقليميا وعالميا وتنمويا وسياسيا، وللحديث بقية في الفقرة 1:4:1 من هذا الفصل.

ولنترك حاليا سؤال: كيف؟ دون وداع، مدركين أنه سيظل ممسكا بتلابيبنا طيلة بحثنا الحالي.

1 : 2 : 2 ماذا يجرى من حولنا؟

مرة أخرى، نجدد لقاءنا مع شظايا النصوص، نحاول أن نلتقط منها ملامح ما يجري من حولنا على الساحة العالمية الثقافية ـ المعلوماتية:

- ما هذا الذي يشاع عن حال أهل الثقافة والتقانة هذه الأيام، فلا يكاد يلتقي أهل الثقافة حتى يخوضوا في حديث تكنولوجيا المعلومات، ولا يجتمع أهل تكنولوجيا المعلومات حتى ينزلقوا إلى حديث الثقافة. هل نضجت هذه التكنولوجيا وتأهلت للقاء الثقافة؟ أم أن أهل الثقافة قد أدركوا ـ أخيرا ـ مدى خطورة هذه التكنولوجيا الفريدة، بعد أن أصبحت صناعة الثقافة أهم صناعات هذا العصر بلا منازع.

- وما كل هذا الضجيج حول الإنترنت، وطريق المعلومات الفائق السرعة Information Superhighway؟ وكيف أصبحت هذه الأمور، ذات الطابع الفني، قاسما مشتركا في سياسات الحكومات وبرامج الأحزاب السياسية، من الحزب الديموقراطي الأمريكي إلى حزب العمال البريطاني، ومن حكومة سنغافورة إلى حكومة ساحل العاج؟

وهل يقصد آل جور نائب الرئيس الأمريكي، وصاحب مصطلح طريق المعلومات الفائق السرعة، أن يكون هذا الطريق الجديد بمنزلة النظير العصري لسلفه طريق السيارات السريع؟ وكما كان السالف هو شريان نقل «بضاعة» الصناعات الأمريكية التقليدية محليا، فسيكون اللاحق هو شريان نقل «بضاعة» صناعة الثقافة الأمريكية عالميا.

- وهل لنا ـ استطرادا لما سبق ـ أن نعي حرص آل جور على أن ينقل طموحه المحلي خارج حدود بلاده، حيث نادى أخيرا بإقامة بنية أساسية معلوماتية عالمية ينعم بها، سواء بسواء، أغنياء عالمنا وفقراؤه. ولنسترق

السمع إلى تلك الصيحة السامية النبيلة، التي تواترت مثيلاتها منذ ظهور الكمبيوتر[*5]. يقول آل جور: «دعونا نتجاوز الأيديولوجيا، لنتحرك معا صوب هدف مشترك لبناء بنية أساسية معلوماتية عالمية لمصلحة جميع الدول، من أجل خدمة اقتصادنا الحر، ولتحسين خدمات الصحة والتعليم وحماية البيئة والديموقراطية». وكم كان فطنا جون ستراتون (316) عندما لفت نظرنا إلى «سندويتش» آل جور الوارد في دعواه تلك، حينما وضع أحلام التنمية البشرية من صحة وتعليم وحماية بيئة بين شطري هذا السندويتش ونعني بهما «الاقتصاد الحر والديموقراطية»، مسفرا بذلك عن أيديولوجيا النموذج الرأسمالي، الذي يسعى القطب الأمريكي لتعميمه من خلال مخططه للعولمة، ويا لك من «شاطر» يا آل جور ويا له من «شاطر ومشطور!!». ولا يكتمل المخطط العولمي، إلا بدعم من المنظمات العالمية، لإضفاء لمسة الشرعية الدولية على ممارسات العولمة الأمريكية، وها هو الاتحاد العالمي للاتصالات «آي تي يو» يلبي النداء، ويعلن عن استراتيجيته لإقامة هذه البنية التحتية المعلوماتية العالمية ملخصة في التوجهات الخمسة التالية (316):

- تنمية من خلال الاستثمارات الخاصة.
- منافسة وفقا لقوانين السوق.
- قواعد وتنظيمات مرنة لتسهيل عمل مؤسسات الاتصالات وتنظيم المنافسة بينهم.
- لا تفرقة في حق النفاذ إلى شبكات الاتصالات.
- التوجه العالمي لخدمات الاتصالات.

وكما هو واضح، يسير الاتحاد العالمي للاتصالات على الدرب نفسه في تأكيده الصريح على قوانين السوق الحرة، وذلك في شأن بنية تحتية حيوية أصبحت من المقومات الأساسية لتنمية شعوب العالم. ويكفي هذا دليلا على أن المنظمات الدولية ستُستخدم سلاحا في يد القوي لفرض سيطرته وتأمين مصالحه، في إطار تلك الظاهرة المسماة بـ «العولمة»، التي تجوب جميع الديار تحيطها وصيفتاها: الشركات المتعدية الجنسية على جانب، والمنظمات الدولية على الجانب الآخر.

- وماذا يفعل فقراء هذا العالم، وكلفة إنشاء هذه البنية التحتية تقدر

بتريليونات الدولارات. وما دمنا قد عرجنا على حديث التريليونات فلنوفه حقه، بالإشارة إلى حجم معاملات التبادل في العملات والأوراق المالية، والذي يقدر بـ 2,1 تريليون دولار يوميا (نعم يوميا!!)، وتبلغ نسبة ما يخص مضاربات البورصة منه 95٪ (89:81). حقا... إنه ـ وكما أطلق عليه البعض ـ «اقتصاد الكازينو»؛ اقتصاد خائلي virtual مستقل عن اقتصاد الواقع، يفصل ما بين العمل وعائده، وما بين الإنتاج وقيمته، وما بين الاستثمار الفعلي ودوران رؤوس الأموال لمجرد الدوران دونما استثمار، لينتهي بنا الأمر إلى ذلك الاغتراب الذي يعاني منه معظم البشر في هذا العصر.

- لماذا يدعو الكونجرس الأمريكي كاتبا للخيال العلمي ليحاضره في مستقبل صناعة المعلومات، في إطار قيامه بوضع سياسة جديدة لنظم الاتصالات، في الولايات المتحدة؟ (314). هل أصبحت بيانات الواقع غير كافية لاستخراج المؤشرات وتحديد التوجهات؟ وذلك بعد أن تاهت الخطوط الفاصلة بين ثلاثية: الواقعي والمحتمل والخيالي، نتيجة لقدرة الإنجاز الهائلة التي توفرها تكنولوجيا المعلومات؟

- ولنترك الكونجرس الأمريكي لنذهب إلى الكنيست الإسرائيلي، الذي دعا هو الآخر عالمنا الفذ أحمد زويل؛ ليحاضره عن ثمرة خياله العلمي، وقد حوله ابن قرية محافظة البحيرة إلى واقع عملي، بعد أن نجح في سحق الزمن إلى وحدة الفمتو ثانية (واحد على ألف تريليون من الثانية)، التي تتعامل معها آلة تصويره الفائقة السرعة، ولا يجد الكاتب فكاكا من أن يربط بين آلة تصوير زويل العجيبة تلك، التي تستطيع التقاط ما يجري داخل جزيئات أنسجتنا، وتفوق إسرائيل في مجال التكنولوجيا الحيوية، وما لهذه التكنولوجيا من استخدامات عسكرية ومدنية يصعب التكهن بها. وهل لنا أن نتصور ما يعنيه تضافر آلة التصوير الزويلية تلك مع شقيقاتها على متن الأقمار الصناعية الإسرائيلية وأقمار أنصارهم، التي تطوف بسمائنا، تلتقط ما يجري على أراضينا، وما يرقد تحت سطحها؟

- وما هذا الذي أدى إلى انهيار الاتحاد السوفيتي دون حرب، ودون انقلاب عسكري أو تدخل أجنبي؟ هل يمكن أن يكون ذلك ـ كما يزعم البعض ـ بسبب عجز حكومة السوفييت أن تستمر في تضليل شعبها في عصر شفافية المعلومات (الجلاسنوست) (255)؟ وهل لنا أن نصغي ـ بالتالي

ـ إلى ما يردده كثيرون من أن شبكة الإنترنت، وما تنقله من معلومات عبر الحدود، ستكون كفيلة بإسقاط النظم الديكتاتورية والاستبدادية؟ هل آن لحلم البشرية أن يتحقق؟ أم أن هذه النظم ـ كعهدنا بها ـ ستكون سباقة إلى استخدام سلاح الإنترنت لفرض الانصياع والانضباط على جماهيرها المقهورة؟

- ما كل هذا الجدل حول ظاهرة العولمة (ما يزيد على 1500 مؤتمر وندوة)؟ تلك الظاهرة وليدة ثورة المعلومات والاتصالات. هل هي دين الرأسمالية الجديد؛ نوع متطور من الحتمية الاقتصادية لملء فراغ الحتميات، بعد أن خلا بزوال النازية والفاشية والشيوعية؟

- وما هذا الذي يتردد حول مجتمع الوفرة؟ في الوقت نفسه الذي تشكو فيه مناطق كثيرة من عالمنا ندرة المياه وندرة الغذاء. وما صلة ذلك بحروب المواد الغذائية في إطار اتفاقية الجات: حرب الموز الكاريبي والأرز الياباني والأرز الإيراني والذرة الفيلبينية والبطاطس المصرية والتونة المكسيكية؟ وما الذي أقحم صديقنا الدولفين الوديع[*6] في النزاع بين دولة المكسيك والولايات المتحدة الأمريكية؟ والذي حسمته محكمة منظمة التجارة العالمية لمصلحة المكسيك، معطية لها الحق ـ صدق أو لا تصدق ـ في ردود انتقامية ضد جارتها الأمريكية.

- وكم يبدو براقا ذلك الشعار الذي ترفعه حاليا شركات الاتصالات العالمية، الشعار ثلاثي «الأيات» (جمع «أي»): «أي معلومات في أي وقت من أي مكان». وكيف نوفق بين هذه اليوتوبيا الاتصالية، وكل ما نسمعه حاليا من تشفير وتعمية encryption، وما أورده نلسن مانديلا في إحدى خطبه من أن ثلثي سكان العالم لم يجر مكالمة هاتفية واحدة طيلة حياته، وأن نصف أطفال كوكبنا لم يعرف طريقه إلى المدرسة؟... خلط الآمال بالأوهام مرة أخرى.

- وما الذي دفع الولايات المتحدة الأمريكية إلى إجهاض مؤتمر الأرض في ريو دي جينيرو بموقفها المتشدد ضد الحفاظ على التنوع البيولوجي؟ أليس هذا من أجل حماية مصالح شركات التكنولوجيا الحيوية وعمالقة صناعة الدواء الأمريكية؟ وهي نفسها الولايات المتحدة التي وقفت بصرامة ضد الحفاظ على التنوع الثقافي، حماية لمصالح صناعة الاتصالات

والمعلومات هذه المرة، وذلك عندما وأدت ـ في مهده ـ اقتراح منظمة اليونسكو لإقامة نظام معلوماتي عالمي جديد؛ بغية إقامة بيئة معلومات عالمية أكثر عدلا في توزيع مواردها ومنافعها. ثم كان ما كان من انسحابها هي وبريطانيا من منظمة اليونسكو، وبينما جددت بريطانيا عضويتها في المنظمة الدولية، لم تستشعر الولايات المتحدة ـ قائدة قافلة عولمة الثقافة حاليا ـ أي حرج في أن تعلن صراحة أنها في غنى عن منظمة اليونسكو، منتدى الثقافة العالمية. أما في مؤتمر السكان في القاهرة، فكان لا بد للموقف الأمريكي أن يختلف، لتصبح هي نفسها حامية حمى حقوق الإنسان، تحمل على كاهلها حقوق الأقليات، وهموم عمالة الأطفال، وفلاحة النساء في مزارع الأرياف والغابات، ومشكلات ختان البنات، وتوزيع المواريث بين الأولاد والبنات. ووصل حرص حماة الإنسانية هؤلاء إلى أن شرعوا في إقامة مكتب لمتابعة الاضطهاد الديني بالكونجرس، ولم يمنعهم من إقامته إلا اعتراض وزارة التجارة الأمريكية التي كان لزاما عليها أن تتدخل حين تصادمت المعايير الأخلاقية مع مصالح التجارة الخارجية.

- ما كل هذه الاندماجات بين عمالقة صناعة الإعلام وصناعة السينما ودور النشر وشركات برمجة الكمبيوتر والإنترنت؟ (مثال رقم 1: شركة «إم سي إس» لاتصالات الألياف الضوئية، مع مؤسسات روبرت موردوخ الإعلامية ـ مثال رقم 2: شركة «وارنر» للاتصالات مع «التايمز» دار النشر الصحافية، ثم مع «سي إن إن» قطب الإعلام التليفزيوني، وأخيرا مع مؤسسة «إيه. أو. إل» كبرى الشركات الأمريكية لتقديم خدمات الإنترنت).

وما الذي دعا شركة سوني اليابانية إلى شراء شركة «سي بي إس» للتسجيلات الموسيقية، واستوديوهات «كولومبيا» للإنتاج السينمائي؟ وما هذه الأرقام الفلكية التي تتنامى إلى أسماعنا عن عوائد صناعة ألعاب الفيديو (حوالي 70 بليون دولار سنويا) وعما ينفق فيها حاليا من استثمارات ضخمة تقدر بعشرات المليارات من الدولارات سنويا (134: 154)، تساهم بها شركات أمريكية عملاقة أقامت سمعتها على تقديم الخدمات الجادة لمؤسسات الأعمال والأموال (شركة «إيه تي آند تي» على سبيل المثال). هل وقار الكبار وقد ذهب يبحث عن مصروف الصغار، ويزيد من نصيبه من مصروفات المنازل؟ أم أنه التقارب بين اللعب والعمل الذي يشهده مجتمع

المعلومات؟

- وما الذي تفعله تلك الحلقة الكثيفة من الأقمار الصناعية (زهاء 500 قمر صناعي) التي تدور في فلك كوكبنا الأرضي، تشكيلة متنوعة من أقمار البث المباشر والبث غير المباشر، وأقمار المدارات المرتفعة والمنخفضة، وأقمار الراديو الرقمي، وأقمار قنوات الإرسال التليفزيوني المتخصصة؟ وجميعها يصوب وابل رسائله الإعلامية إلى عقولنا. ومع كل هذا نجد لدينا من لا يستسيغ ألفاظا من قبيل الغزو الثقافي، والعنف الترفيهي، وخلل التبادل الإعلامي، وفجوة موجات الأثير بين مالكي المعلومة وفاقديها.

- ما كل هذا السجال الحامي الوطيس، الذي شهدته ساحة اتفاقيات الجات حول أمور الملكية الفكرية؟ وما هذا الموقف الصلب الذي اتخذته فرنسا ضد حليفها الأمريكي القديم؟ حتى منحت ما يعرف بـ «الاستثناء الفرنسي»، حفاظا على صناعة الثقافة الفرنسية، والذي أعطاها الحق في فرض القيود على استيراد منتجات الثقافة الأمريكية وتقديم الدعم لصناعاتها الثقافية الوطنية (10:107). والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: ما مصير غير المستثنين؟ بعد أن أعلنت أمريكا عن نيتها لتطبيق عقوبات رادعة على كل من تساوره نفسه في المساس بحقوق الملكية الفكرية لصناعتها الثقافية، من ترجمة الكتب إلى توزيع الموسيقى واستخدام برامج الكمبيوتر التعليمية والترفيهية. وقد شرعت الولايات المتحدة بالفعل في تطبيق هذه العقوبات، فلوحت بغرامة على الصين تربو على ثلاثة مليارات دولار إن لم تتخذ الإجراءات الكفيلة بمنع نسخ سلع الثقافة الأمريكية من شرائط الفيديو وأقراص السي ـ دي. وتستقطع أمريكا حاليا نسبة معينة، تقدرها جزافا، مما تمنحه وكالتها للتنمية الدولية، وتحصلها من المنبع مباشرة تعويضا عن حقوق الملكية الفكرية لنسخ برامج الكمبيوتر في الدول الممنوحة. وبالطبع تستثنى من ذلك إسرائيل، أكبر متلق للمعونة الأمريكية، وذلك بالرغم مما تشير إليه الإحصائيات من أنها أكثر دول العالم نسخا لبرامج الكمبيوتر.

- ما هذا الذي يجري على جبهة اللغة؟ ثورة في التنظير اللغوي تصاحبها تكنولوجيا متقدمة لا تقل ثورية في تطبيق أساليب الذكاء الاصطناعي، وعلوم المعرفة، وتكنولوجيا الأعصاب، على معالجة اللغات الإنسانية بواسطة

الكمبيوتر، وذلك بهدف إكساب الآلة المهارات اللغوية من اشتقاق وتصريف وإعراب واختصار واستخلاص وفهرسة بل تأليف للنصوص أيضا؟

- وما كل هذا الاهتمام الذي توليه اليابان للترجمة الآلية من أجل كسر عزلتها اللغوية؟ بعد أن أيقنت أن مصيرها في عصر المعلومات يتوقف على نجاحها في التصدي لهيمنة اللغة الإنجليزية في تكنولوجيا المعلومات عموما، والإنترنت بصفة خاصة. ويفسر ذلك ـ أيضا ـ محاولات اليابان لتزعم الدول غير الناطقة بالإنجليزية، عاقدة العزم على تكوين «حلف لغوي» للدفاع عن مصير اللغات القومية ضد الخصم اللغوي الأمريكي. ويا لها من معركة حاسمة.

- ما هذا الذي يجري حاليا في وادي السيلكون الأمريكي؟ هل هي ثورة الإنترنت بعد أن أصبحت الأداة المثلى للتجارة الإلكترونية، ولهفة سكان هذا الوادي الشديدة على تلبية مطالب أهل هذه التجارة، فراحوا يستقطبون عمالة الكمبيوتر من كل حدب وصوب، من مصر والهند والأردن ودول أوروبا الشرقية. إنه اندفاع جديد لاستخراج ذهب جديد a new gold rush، ذهب الأدمغة هذه المرة لا ذهب الأتربة.

- ما هذا القلق الشديد الذي أبداه أهل التربية في أمريكا؟ عندما صدمتهم البيانات الإحصائية عن أداء أطفال الابتدائي الأمريكيين مقارنة بأقرانهم في اليابان والصين ودول جنوب شرق آسيا (204)، لقد عد التربويون الأمريكيون تخلف أطفالهم في المهارات الأساسية في اللغة والحساب أمرا ذا صلة وثيقة بأمنهم القومي، ويذكرنا هذا بقلقهم المماثل عندما شعروا بتهديد لهذا الأمن على أثر تفوق الاتحاد السوفييتي في بداية سباق الفضاء عندما نجح في إطلاق أول قمر صناعي (سبوتنيك) عام 1957. إنه شأن تربية عصر المعلومات بعد أن أصبحت التربية فيه مرادفة للتنمية.

- ما هذا التقابل العجيب بين تكتل الكبار وبلقنة الصغار، من يوغسلافيا السابقة إلى إندونسيا؟ وهم يحومون حاليا حول شمال العراق وجنوب السودان. هل نحن في طريقنا إلى عالم الـ 1000 بلد كما توقع البعض؟ (98:81) وكيف يتوافق هذا مع دعوى العولمة وحلم القرية الكونية الواحدة؟!!

- ما هذا الذي نسمعه عن الوباء الجديد لفيروس الكمبيوتر (تم حصر ما يزيد على 10 آلاف فيروس)؟ وما هي تلك الخسائر الفلكية التي تبلغ

مليارات الدولارات في اليوم الواحد بسبب لهو الصغار في الإنترنت؟ وأي جرم اقترفه هذا الشاب النرويجي الذي أثار الرعب في قلوب أباطرة صناعة السينما في هوليوود، بعد أن نشر في الإنترنت برنامجا من عدة أسطر يمكن به فك الشفرة الرقمية التي تبث بها الأفلام عبر الشبكة. هل هذا الفيروس الإلكتروني، وذلك الاختراق البرمجي نوع من نضال أيامنا، قنبلة مولوتوف الرقمية ضد أباطرة صناعة الثقافة؟ أم أن هذه الفيروسات هي إحدى الوسائل التي تفتق عنها ذهن صانعي البرمجيات حتى يفرضوا بيع نسخ أصلية من برامجهم المعقمة ضد الفيروسات، وأن هذه الاختراقات بداية لانهيار احتكار سلع الثقافة.

- ومن الفيروسات إلى الجراثيم، فما كل هذه الضجة التي أثيرت حول «جرثومة الألفية» التي كان من المتوقع انتشارها كالنار في الهشيم في جميع نظم الحواسيب مع سطوع شمس أول يناير 2000؟ وجاء اليوم ومضى ولا شيء، هل هو خداع البسطاء لشراء الترام؟ أم أن هذا ـ وهو الأكثر احتمالا ـ دليل آخر على أننا لم نعد قادرين على التكهن بما يمكن أن تفعله بنا تلك التكنولوجيا صنيعة أيادينا وعقولنا؟

- ما الذي يدفع شركة ما يكروسوفت، كبرى شركات برمجة الكمبيوتر، إلى إنفاق هذه الأموال الهائلة لمجرد أن ترد في حوار أحد الأفلام إشارة عابرة عن توافر النسخة العربية من نظام تشغيل الكمبيوتر الشخصي المعروف باسم «ويندوز»؟ (187:238) هل أصبحت السوق العربية، أخيرا، مصدر جذب لشركات صناعة المعلومات المتعدية الجنسية؟ وفي هذا الصدد، تجدر الإشارة إلى أن كثيرا من الحكومات العربية قد نشطت أخيرا في القيام بدور شرطي حماية الملكية الفكرية لهذه الشركات. واللهم لا اعتراض، وكل ما نتمناه أن تحظى صناعات المعلومات الوطنية بالقدر نفسه من الاهتمام والحماية.

- ماذا تعنيه هذه الخرائط التي تتوالى للكود الوراثي (مشروع الچينوم) وللمخ البشري؟ هل سيستحيل الإنسان هو الآخر إلى نظام معلوماتي أو قاعدة بيانات تماشيا مع النزعة الرمزية التي تسود حضارة اليوم؟ وما دام هذا الكائن البشري قد دان لسطوة الرمز، هل سيصبح بالتالي قابلا للتحديث وللتعديل، شأنه في ذلك شأن أي نظام للمعلومات؟ وتأتينا الأنباء حاليا عن

وسائل صناعية لتحسين السلالة البشرية وتعزيز ذاكرة المخ وقدراته الذهنية.

- وما كل هذا الاستفزاز الذي تعمَّده ميرفين مينسكي، عالم الذكاء الاصطناعي، عندما شطح به الخيال ليقول: «إن عقول السيلكون، صنيعة الذكاء الاصطناعي، ستنمو إلى درجة نصبح معها ـ نحن البشر ـ في عداد المحظوظين لو قبل أصحاب هذه العقول السيلكونية أن يحتفظوا بنا كحيوانات أليفة» (111:299). إنه لضرب من الإسراف، لكنه لا يخلو من مغزى، ولا يضاهيه في تطرفه إلا إسراف زميله جون مكارثي بمقولته الغريبة: «حتى الترمومترات لها معتقدات». لقد رأينا أن نورد هذه الأمثلة المتطرفة دليلا على النية المبيتة لمحاصرة المخ البشري من قبل علماء المعرفة ومهندسي الذكاء الاصطناعي وتكنولوجيا المخ والأعصاب. لقد استقر المقام أخيرا بظاهرة الذكاء تحت المجهر «المعلوماتي ـ الوراثي» إيذانا بانتهاء احتكار الإنسان لملكة الذكاء، وبالكشف عن طيف متصل يجمع بين ذكاء الإنسان والآلات والنظم والحيوانات والفيروسات والخلايا وغيرها من الكائنات، ليبرز السؤال: كيف يتعايش إنسان عصر المعلومات مع عالمه، محاطا بكل هذا الذكاء من حوله: قرى ذكية، وشوارع ذكية، ومنازل ذكية، ومصاعد ذكية، وأدوات مطبخ ذكية، بل دورات مياه ذكية هي الأخرى. إنها التعاضدية synergism بين الإنسان وآلته، وما أدت إليه هذه الآلة وذكاؤها، مزيج مثير للقاء الطبيعي والصناعي، يصعب التكهن بما سيؤول إليه حتى على المدى القريب.

وفي النهاية، ما كل هذا الذي يجري من حولنا؟ أليس لنا أن نصدق قول الشاعر[*7]: «آن لنا أن نعترف بأن الزمان اختلف». ولكن أين هي يا شاعرنا تلك الخيول التي كان وقع أقدامها يصنع الآمال؟!!. فلم يعد لهذه الخيول موقع قدم على طريق المعلومات الفائق السرعة، ولينج بنفسه من يستطيع، ولا عاصم اليوم من إعصار المعلومات إلا بأن نلهث لنلحق بالمركبة؛ فقد صار شعار هذا العصر: فلتلحق أو انبطح أرضا ليدهمك الركب المنطلق. خلاصة المقال: لحاقا أو انسحاقا.

1 : 2 : 3 ماذا جرى لنا؟

تتضمن هذه الفقرة والفقرات التالية كثيرا من الحقائق المزعجة، والتي

ربما يرى البعض فيها نزعة تشاؤمية متطرفة، وإلى هؤلاء نقول: هل يجدي دفن الرؤوس في الرمال في عصر شفافية المعلومات؟ ويؤمن الكاتب كما يؤمن كثيرون غيره أن زهور التفاؤل تنبت عادة في شقوق الوقائع. ولنستهل حديث «ماذا جرى لنا؟» بقول عام، تؤكده شواهد عديدة، مؤداه: أن أداءنا أدنى بكثير من قدراتنا، وما حققناه أقل بكثير مما أنفقناه، وحماس الأغلبية العربية لإحداث التغيير لا يحتاج إلى دليل، فما من لقاء عربي، إقليمي أو شبه إقليمي أو قطري، إلا وترتفع الأصوات المطالبة بالتغييرات الجذرية وإشاعة الديموقراطية والتصدي للبيروقراطية وما غير ذلك. والسؤال المحير هنا: كيف يتسرب كل هذا الحماس، ويتبدد كل هذا الجهد في السراديب المظلمة؟ وعسى لظلمتها أن تنقشع، تحت الأضواء الكاشفة لتكنولوجيا المعلومات.

والآن عودة إلى حديث تشظي النصوص ممزوجا بآلام الجروح:

- ماذا جرى لنا في وسط هذه الموجة من التكتلات العالمية والإقليمية السياسية والاقتصادية والإعلامية والتكنولوجية، لنعجز حتى الآن عن الوصول إلى صيغة الحد الأدنى لتكتل عربي لم يعد ـ كما يؤكد الكثيرون ـ من قبيل الحمية القومية، بل مقوم أساسي لإحداث التنمية ومواجهة تحديات العولمة؟ ولا يتحرج البعض عندما يصرح بأننا في حاجة إلى «عوربة» لا عولمة، ونحن نتفهم دوافعهم، إلا أننا لا نرى «عوربة دون عولمة» أو «عولمة دون عوربة»، وللحديث بقية في الفقرة 1:3:3 من هذا الفصل.

وكيف فشلنا إلى الآن في إقامة نوع من الحوار الاجتماعي بين حكوماتنا وشعوبها؟ وهل لنا بناء على ذلك أن نصدق ما يتردد على ألسنة البعض من أن حكوماتنا قد باتت في عصر العولمة أصغر من مواجهة ضغوط الخارج، وأكبر من التعامل مع مشكلات الداخل (116: 96).

- ماذا جرى لنا لكي ينضب فكرنا على هذا النحو في معظم مجالات الثقافة: فكر اللغة، وفكر الإعلام، وفكر التربية، وفكر الإبداع؟ ولماذا فشلت مجتمعاتنا في أن تصنع فلاسفة كبارا يقيمون لنا صروحا فكرية شاملة، أو حتى فلاسفة صغارا ينظرون لنا بعض جوانب الخاص العربي؟ وهل تكفي تلك المبادرات الفردية الجسورة على يد الناحتين في الصخر، من أمثال عابد الجابري وأمين العالم وحسن حنفي وبرهان غليون ومحمد أركون

وتركي الحمد وجورج طرابيشي وأمثالهم؟

- وكيف نجد من بيننا من لا يزال يرى حقوق الإنسان والديموقراطية أمرا غربيا لا شأن لنا به؟ في حين يسعى العالم حاليا إلى توسيع مفهوم الديموقراطية، وتأصيله بما يتفق ومطالب عصر المعلومات ووسائله، وترتفع رايات الديموقراطية في أفريقيا وجنوب شرق آسيا وأوروبا الشرقية، في حين نرضى نحن بديموقراطية الحد الأدنى أو ديموقراطية «اللاديكتاتورية» إن جاز التعبير. لقد فشلنا في أن نلحق بموجات الديموقراطية المبكرة، فهل لنا أن نزج بأنفسنا في حشد جموعها المتأخرة، وأن ندرك أن هناك تناقضا جوهريا بين غياب الديموقراطية، ووفرة المعلومات، وهو ما يمثل تهديدا حقيقيا لاستقرار النظم، ولتكن لنا عبرة من انهيار الاتحاد السوفييتي.

- وما هذا الذي يفوق مؤسساتنا الإعلامية عن أن تدرك هي الأخرى مغزى تكتلات الإعلام العالمية فلم نر حتى الآن اندماجا ولا حتى تعاونا، ومصدر قلقنا هو أن تتحول مؤسساتنا الإعلامية تدريجيا ـ بشكل مباشر أو غير مباشر ـ إلى وكلاء لمؤسسات هذه التكتلات. ألم يحن الوقت بعد لنؤمن بأن نهضة الإعلام ليست فقط في إقامة القنوات الفضائية، وإطلاق الأقمار الصناعية، واستيراد أحدث المطابع الصحافية؟ فالأهم من ذلك هو القدرة على إنتاج رسالة إعلامية مبتكرة ونافذة. فلا يخفى على أحد أن صحفنا عالة على وكالات الأنباء العالمية، وأن استيراد البرامج التليفزيونية هو الوسيلة الوحيدة لملء ساعات الإرسال لدينا، وأن معظم إذاعاتنا الموجهة تبث ولا تستقبل.

- وما كل هذا الحديث الذي استهوانا عن النمور الآسيوية، حتى نسينا معه ذلك النمر العلمي ـ التكنولوجي المتربص بنا على بعد كيلومترات من حدودنا في فلسطين المغتصبة؟ وكيف جعلنا منه ثقبا أسود يعرف عن شؤوننا أضعافا مضاعفة عما نعرفه نحن عن شؤونه. ما نخشاه هنا أن تكون العتمة المعلوماتية التي نعشى بها داخل ديارنا، قد وجدت طريقها خارج حدودنا، تعوقنا عن معرفة غيرنا، ومعرفة ذاتنا بالتالي.

- لماذا تنسخ بعض دولنا استراتيجية أمريكا فيما يخص الإنترنت وطريق المعلومات الفائق السرعة؟ وهي الاستراتيجية التي تعطي الأولوية لأمور التجارة الإلكترونية، لا أمور التنمية الاجتماعية الأكثر أهمية. في الوقت

نفسه الذي أبدى فيه الكثيرون في أوروبا تحفظات شديدة على هذا النموذج الأمريكي، مطالبين باستراتيجية مغايرة للإنترنت، تعطي الأولوية الواجبة للاعتبارات الاجتماعية، والتنمية الثقافية (330). بل ترتفع الأصوات داخل أمريكا نفسها، مطالبة بحلول أقل كلفة، تقوم الحكومة بدعمها لتضمن قدرا من المساواة في حقوق الاتصال، والاستفادة من تكنولوجيا المعلومات(253).

- وما كل هذا الانزعاج من وجود روافد ثقافية فرعية تصب في المسار الثقافي العربي العام؟، في حين يزهو الجميع بتنوعهم الثقافي من كندا إلى إسرائيل، ومن سويسرا إلى ترينداد. إن خوفنا من الإقرار بوجود هذه الروافد لدليل على مدى هشاشة أوضاعنا الثقافية بصفة عامة، ناهيك عما ينطوي عليه ذلك من منافقة الذات.

- ما كل تلك المآتم التي ننعى فيها معظم أمور ثقافتنا: شعر يموت، ومسرح يحتضر، وقراءة تنقرض، ومعدل إنتاج سينمائي يتناقص إلى ما دون عشرة الأفلام سنويا بعد أن كان بالمئات (تنتج الهند ما يقرب من 900 فيلم سينمائي سنويا، وما يقرب من هذا الرقم تنتجه البرازيل مع المكسيك). ونقدنا الأدبي الذي طالما هاجم التبعية الفكرية والإبداعية، ها هو نفسه ـ باستثناء نزر قليل ـ يقع في فخ التبعية، يلوك نظريات غيره دون تطويع لخصوصيتنا العربية، ودون تطبيق عميق على إبداعنا المحلي. ورضينا بالتبعية ولم ترض هي بنا، فها هو جابر عصفور يلفت نظرنا إلى تلك المفارقة الدالة في أن صعود المد البنيوي في الممارسات النقدية العربية لم يبدأ إلا بعد انحسار مسار المد البنيوي نفسه في فرنسا، موطنه الأصلي (90:117). وهكذا يُحرم المبدع العربي من أحد حقوقه الأساسية.

- ماذا جرى لنا حتى نهمل لغتنا الأم كل هذا الإهمال، تنظيرا وتعليما واستخداما وتوثيقا؟ ومجامعنا اللغوية مشتبكة في حرب ضروس مع المصطلح على حساب أمور اللغة الأخرى، وجامعاتنا ومراكز بحوثنا تجاهلت إلى الآن ثورة علوم اللسانيات منذ منتصف الخمسينيات، ولولا بعض مبادرات مغربية في مجال التنظير اللغوي، وتونسية في مجال المعجمية، وسورية في مجال التعريب، ومصرية في مجال النقد الأدبي، لكاد المشهد اللغوي لدينا أن يخلو من أي جديد.

- وما كل هذه الخصومة التي تصل إلى حد القطيعة بين فرق فكرنا القومي والديني والسلفي والعلماني؟ كل فريق يضع شروطا مسبقة للحوار تنسف لنظيره قواعد انطلاقه، ومعاركنا الثقافية ما بين الضجيج وتصفية الحسابات.

- ولماذا لا يرى الكثيرون ـ كما يقول الجابري ـ نهضة عربية أو إسلامية إلا في غيبة الآخر أو إلغائه؟ (79:59). يحدث ذلك في عصر الحوار عبر الإنترنت، فهل نستسلم إلى ما يشيعه الآخرون عنا، من أننا نفضل المونولوج على الديالوج، سواء بين أهلنا أو مع غيرنا؟

- كيف تركنا إسرائيل تلتف حول رفضنا المعلن للتطبيع معها؟ وذلك بصيغ مختلفة من التطبيع الصامت، أو الخافت، لنجد أنفسنا دون أن ندري وأسنانها الصناعية في أفواهنا [*8]، وبذور ثورتها الخضراء في تربتنا، وأزياؤها إنتاج مناطقنا الحرة تدور دورتها عبر التصدير غير المباشر، لتستقر في واجهات بوتيكاتنا، وما خفي كان أعظم!!

- كيف لم يدرك مثقفونا إلى الآن أهمية الثقافة العلمية، في حين تخطط الهند لإقامة 1000 متحف للعلوم في خطتها العشرية للتنمية البشرية؟ (116: 209) وكيف، وإلى متى، يظل التكنوقراط لدينا لا يعيرون التفاتا للجوانب الاجتماعية والثقافية لتكنولوجيا المعلومات؟ وكيف فرضنا على كثير من علمائنا هجرة العلم ليقعوا فريسة لشبه العلم، أو وهم أن يصبح الحديث عن العلم هو العلم ذاته؟

- وما تلك الأرقام الهزيلة للغاية لإنتاجنا في مجال الترجمة؟ مع كوننا مستوردين للعلم أصلا، لا منتجين له. فإجمالى ما يترجمه العالم العربي سنويا في حدود 300 كتاب، أقل من خمس ما تترجمه اليونان. والإجمالي التراكمي لكل ما ترجمناه منذ عصر المأمون إلى الآن، في حدود عشرة آلاف كتاب، وهو يساوي ما تترجمه إسبانيا حاليا في عام واحد (78:82). وهل ثمة صلة بين هذا الانكماش المعرفي في نقل فكر الآخرين بعد أن عجزنا نحن عن إنتاجه، وبين غياب حرية الفكر لدينا، كما أوضح لنا يوسف زيدان؟ [94].

- وإلى متى، وفي عصر تكنولوجيا المعلومات، الذي يعتمد على الشباب أساسا، يظل كبار مفكرينا ومديرينا متشبثين بمقاعدهم ومواقفهم؟ وكيف

استبحنا لأنفسنا أن نترك مبدعينا، أثمن موارد صناعة الثقافة، لقمة سائغة لفئران المكاتب المنتشرين في بعض إدارات مؤسساتنا الثقافية؟ حتى بحت أصوات هؤلاء المبدعين وخمدت هممهم وهم يواجهون عالما أقرب ما يكون لعالم كافكا العبثي.

- وكيف ارتضينا أن ينوب عنا غيرنا في صناعة صورة ثقافتنا، وصورتنا بالتالي؟ فالمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم قام به مستشرق ألماني، والمعجم المفهرس للأحاديث النبوية قام به مستشرق هولندي، وترجمة ألفاظ القرآن إلى الفرنسية قام بها مستشرق فرنسي، ولا ننسى هنا فضل جارودي في الدفاع عن الإسلام، وفضل مؤلف «أثينا السوداء» التي تشع ضياء في أروقتنا الثقافية. وكيف تركنا نصوصنا نهبا لغيرنا؟ فنسمع عن مركز الدراسات الشرقية في بطر سبرج (لينجراد سابقا) يخوض في علاقة النص القرآني بالشعر الجاهلي، في حين يسعى منظرو الشعر اليهود إلى تفكيك شعرنا في البطولة والرثاء وطقوس عاشوراء في كربلاء العراق، في محاولة منهم لتفسير ظاهرة الاستشهاد بين ثوار منظمة حماس (120: 185).

وأخيرا، ما أشد حاجتنا إلى الثوار وما أكثر حديثنا عن الثورات، في عصر غاب فيه الثوار، ينظر فيه إلى الثورية كظاهرة اجتماعية غير مستحبة ونزعة فكرية شاذة، حتى خلت الساحة من الثوار، خلا ثوار عالم التكنولوجيا، من رجال الأعمال وسدنة التكنوقراط، وانضم إليهم أخيرا ثوار «الطريق الثالث» من قادة الدول الكبرى (123: 157)[*9]، وكيف ـ باللّه عليكم ـ للهيب الثورة أن يندلع في جليد قمم السياسة؟!!

1 : 2 : 4 ماذا سيجري بنا؟

بادئ ذي بدء يقر الكاتب بأن ثمة تناقضا بين ما ذكره فيما سبق عن صعوبة التنبؤ في عصر المعلومات، وما ينوي أن يورده في هذه الفقرة عن توقعات المستقبل بالنسبة لنا، ولكنه ارتضى لنفسه هذا التناقض، عن أن يكتم ما يدور بخلده من مخاوف هي أشبه بالكوابيس، لو ظل تجاوبنا مع متغيرات عصر المعلومات كما هو الآن. وربما يخفف من الشعور بالتناقض تلك الحكمة الصينية القائلة: إن كل أزمة هي مشكلة وفرصة مواتية في آن. ويزعم الكاتب أن هذه الحكمة لم تكن صادقة قدر صدقها في ظل

تكنولوجيا المعلومات؛ لما تتيحه من بدائل وحلول عديدة. يكفي هذا مبررا. وإلى شظايا التوقعات:

- ستتقلص سيادة حكوماتنا على حدودنا ومواردنا بفعل العولمة ومؤسساتها المتعدية الجنسية، والمنظمات الدولية المساندة لها. وربما تجد بعض هذه الحكومات في هذا الوضع ذريعة لإحكام قبضتها على جماهيرها تحت دعوى الأمن القومي، ومواجهة التدخل الأجنبي.

- ربما تمنعنا قلة مواردنا، التي تتآكل باطراد، عن إقامة البنى التحتية لطريق المعلومات الفائق السرعة، لنعاني من طبقية اتصالية ينعم في إطارها القادرون بالتفاعل الإيجابي ـ أخذا وعطاء ـ مع مراكز خدمات المعلومات، في حين نظل نحن تحت رحمة التلقي السلبي لما تلقيه علينا أقمارهم الصناعية.

- ستتقلص فرص العمل بفعل العولمة أمام أجيالنا سواء كانوا كبارا أو صغارا، وسيزداد نزيف عقولنا «عن بعد» عبر الإنترنت، وهو ما يحدث حاليا بمعدلات متزايدة خاصة بالنسبة إلى مهندسي الكمبيوتر ونظم المعلومات والاتصالات.

- ربما تعجز مؤسساتنا التربوية عن تلبية المطالب المتجددة لسوق العمل؛ بفعل جمود التنظيم وقلة الموارد، خاصة أن ميزانيات التعليم في ازدياد مستمر بسبب الكلفة العالية لتكنولوجيا التعليم.

- ستتفاقم تبعيتنا الفكرية والإبداعية والتكنولوجية من المعمار حتى النقد الأدبي، ومن مناهج التربية حتى تعريب البرامج وتطوير برامجنا التعليمية والترفيهية.

- ستخترق إسرائيل سوقنا الثقافية، مستغلة في ذلك أساليب التجارة الإلكترونية عبر الإنترنت، وما أكثر أساليبها الملتوية.

- سيواجه إنتاجنا الإبداعي صعوبات جمة أمام تسويقه عالميا، تماما كما يحدث حاليا بالنسبة إلى إنتاجنا الزراعي والصناعي.

- سندفع كلفة باهظة لرسوم الملكية الفكرية، وسوف يضيق أصحابها الخناق علينا فيما يخص الهندسة العكسية، وتعريب برامج الكمبيوتر، وترجمة الكتب العلمية.

- ستحدث فجوة لغوية حادة تفصل بين لغتنا العربية ولغات العالم

المتقدم: فجوة في التنظير، وفجوة في المعاجم، وفجوة في تعليم اللغة وتعلمها، وفجوة في استخدام اللغة وتوثيقها، وفجوة في معالجة اللغة وترجمتها آليا، وربما يؤدي ذلك ـ في النهاية ـ إلى انتكاس تعليمنا كسابق عهده مرتدا إلى اللغات الأجنبية.

- ستتمادى إسرائيل في تشويه صورة ثقافتنا العربية والإسلامية على الإنترنت، مستغلة في ذلك تفوقها الحالي في تكنولوجيا المعلومات، وشبكة تحالفاتها مع المراكز الأكاديمية والتنظيمات الثقافية والدينية عبر العالم.

- ستضمر ثقافتنا أمام جحافل ثقافة العولمة الوافدة، وستسلب منا نصوصنا وتراثنا ونتاج إبداعنا، تحت دعوى مزج الثقافات وحوار الحضارات. وتكفي الإشارة هنا إلى ما فعلته الشركات الأمريكية في استغلال منتجات الصناعات اليدوية في الدول النامية، من إندونيسيا إلى المكسيك، جاعلة منها تجارة عالمية لا يتجاوز نصيب الصانع المبدع فيها ١٥٪، فلا حماية حتى الآن للملكية الفكرية الجماعية المتعلقة بروائع التراث الشعبي، والتي لم تهتم بها منظمة اليونسكو إلا أخيرا.

١ : 3 العولمة: المنظور المعلوماتي

١ : 3 : ١ يالها من ظاهرة !!

العولمة مصطلح حقبة التسعينيات بلا منازع، وقد تواتر استخدام مصطلحها، حتى شبهت تلك الظاهرة الكونية بالغانية التي تطوف بجميع الموائد، موائد الساسة ورجال الإعلام ورجال الأعمال والأموال والتكنوقراط. والأهم من ذلك، في مقامنا الحالي، أنها ـ أي العولمة ـ قد أصبحت شاغلا أساسيا للتنظير الثقافي من الإعلام إلى الإبداع، ومن تربية الأطفال إلى إعداد الدعاة الدينيين. ويقود عولمة أيامنا أباطرة المال وكهنة تكنولوجيا المعلومات، ومن ورائهم أهل السياسة.

هناك من لا يرى في العولمة أي جديد، وهناك من يراها ظاهرة إنسانية جديدة تماما، لم تعهد البشرية مثلها من قبل ويتفق مع ذلك الرأي الجابري الذي يراها أيديولوجيا تطرح «حدودا أخرى» غير مرئية، ترسمها الشبكات العالمية بقصد الهيمنة على الاقتصاد والأذواق والفكر والسلوك [23]، فإن كانت جديدة بحق ـ مثلما يرى خلدون النقيب ـ فلك أن تختار في وصفها ما

شئت: رأسمالية تكنولوجية، رأسمالية معلوماتية، رأسمالية ما بعد الصناعة، رأسمالية ما بعد الفوردية. على النقيض من ذلك، هناك من يرى في العولمة ظاهرة قديمة قدم الإمبراطوريات، من إمبراطورية إغريق الإسكندر إلى إمبراطورية التاج البريطاني، مرورا بإمبراطوريات الرومان والأتراك، وكدنا أن نضيف هنا فتوحات الإسلام، إلا أننا خشينا أن نمس بذلك وترا حساسا لدى من يؤكدون على ضرورة التفريق بين العولمة وعالمية الإسلام.

يفضل الكاتب، بدافع من توجهه المعلوماتي، أن يرى العولمة من منظور أكثر تأصيلا، وأكثر صلة بالثقافة والمعلومات معا، ألا وهو منظور ثنائية الوجود: الزمن والمكان. في البداية، كانت «عولمة الزمن» باتباع توقيت جرينتش الشهير، بعد أن كان لكل مدينة قبله توقيتها الخاص بها، وجاءت تكنولوجيا المواصلات والاتصالات ممثلة في النقل الجوي والاتصالات السلكية واللاسلكية لتدخل المكان في دائرة العولمة. والآن ماذا بقي بعد ليدخل مضمار العولمة؟ لم يبق إلا الأحداث التي تجري في إطار هذا الزمن وفي نطاق ذاك المكان، وهو ما تسعى إليه عولمة هذه الأيام، في أن تشمل كل أنشطة الإنسان وممارساته الاجتماعية: اقتصادية كانت أو سياسية، تجارية كانت أم ثقافية، عامة كانت أم خاصة. فهي تشمل ـ ضمن ما تشمل حاليا ـ عولمة المعاملات المالية والتجارية والأزياء وموضات قص الشعر ورياضة الجري ووجبات الطعام، بل عولمة الأجساد أيضا، حيث تسعى صناعة الرشاقة وأدوية التخسيس إلى أن تجعل من مقاييس جسد المرأة الكاليفورنية نمطا معولما تحلم به الفتيات والنساء. وحتى عالم الشر لم يحرم، هو الآخر، نصيبه من العولمة من جرائم المافيا والاختلاس وغسيل الأموال واغتصاب النساء وفساد الحكومات والمؤسسات. وهناك كثيرون ممن يعتقدون بشدة أن الجنس البشري لديه القدرة على بناء مستقبله، لا على أوهام أيديولوجية سقيمة، بل على مجموعة من القيم العامة المشتركة بين البشر جميعا (73:116).

وفي حقيقة الأمر، فإن العولمة مفهوم مجرد مركب يعني الكثير، ويختلف معناها لدى الكثيرين. وربما يكون ذلك هو ما حدا جون جراي على.. أن يخصص فصلا في كتابه المهم «الفجر الكاذب» بعنوان: «ما لا تعنيه العولمة» (81:81). وما أكثر ما تعددت وجهات النظر بشأنها، ما بين سياسية واقتصادية

وثقافية وبيئية وفلسفية وتربوية ودينية. وهناك آخرون يتخذون موقفا وسطا، يرون في العولمة الراهنة مجرد مرحلة انتقال من حداثة غاربة إلى ما بعد حداثة بازغة. في حين يعتبرها الماركسيون نوعا جديدا من الإمبريالية، الإمبريالية التكنولوجية. أما بالنسبة لأمين العالم فهي أعلى مراحل الإمبريالية، وهي ذات دلالات أيديولوجية تختلف باختلاف الرؤى والمواقف كما تختلف بمدى الاستيعاب المعرفي للثورة العلمية ومنجزاتها التكنولوجية[41]. لقد انفردت العولمة بأن أفرزت نسختها المضادة وهي مازالت في مهدها، وقد تناولت دراسة عبدالسلام المسدي الجوانب الثقافية والإعلامية والسياسية والاقتصادية لظاهرة التضاد العولمي تلك(6:48). وقد أعفانا روادنا الثقافيون من أمثال سيد ياسين وصادق العظم، وغيرهما كثيرون، من إقحام أنفسنا في متاهة العولمة، ليقتصر دورنا هنا على إيجاز هذه الظاهرة من المنظور المعلوماتي.

1 : 3 : 2 العولمة: محركان ومتحركان (ناتجان)

لم أجد تلخيصا للعولمة من المنظور الثقافي المعلوماتي أفضل من ذلك الذي خرج به روند لوبرز رئيس وزراء هولندا الأسبق. حيث أوجز فأوفى، بعرضه ظاهرة العولمة في صورة مصفوفة رباعية (مصفوفة: 2*2 كما أطلق عليها)، ويقصد بذلك أن ظاهرة العولمة قد أحدثها محركان أوليان، أديا بدورهما إلى متحركين أو ناتجين أو تأثيرين (273). يمكن تلخيص المحركين الأوليين في:

(أ) **المحرك الأول**: الابتكار التكنولوجي في مجال تكنولوجيا المعلومات والاتصالات أساسا.

(ب) **المحرك الثاني**: سيطرة الليبرالية الجديدة ويقصد بها انتصار أيديولوجية اقتصاد السوق الحر والنمط الاستهلاكي وإعلام الترفيه والخصخصة وما إلى ذلك. وتقدم الديموقراطية في هذا الإطار كتوأم لاقتصاد السوق الحر (سندويتش آل جور، هل مازلنا نذكره؟) واللذان يكونان معا استراتيجية النموذج الغربي للرأسمالية في صياغته الأمريكية، وهو النموذج الذي حظي بدفعة قوية على أثر الانهيار المدوي للمعسكر الاشتراكي. ويؤكد مؤيدو العولمة أنها ستعود بالخير على الجميع، سواء من حيث النمو

الاقتصادي والتقدم التكنولوجي، أو إشاعة الديموقراطية والدفاع عن حقوق الإنسان. لا يكفي، كما يقول لوبرز، لفهم أو وصف عملية العولمة أن يتم التركيز على محركاتها الأولية. فعلى الدرجة نفسها من الأهمية، ومن أجل استيعاب ديناميات، يجب دراسة نتائجها وردود أفعالها والتي تتلخص في النتيجتين الرئيسيتين التاليتين:

(أ) **النتيجة الأولى**: تقلص سيادة الدولة وتهميش دورها، ففي ظل العولمة تصبح أمور إدارة الدولة شأنا تتقاسمه الحكومة مع المنظمات الدولية والمنظمات غير الحكومية، وهل لنا أن نغفل المؤسسات المتعدية الجنسية التي تعمل عادة من وراء ستار، وأحيانا أخرى تضطر إلى أن تسفر عن دورها بصورة مباشرة.

(ب) **النتيجة الثانية**: ردود الفعل أو العولمة المضادة من قبل الجماعات والمؤسسات، سواء تحت دوافع عرقية أو دينية أو اقتصادية أو سياسية أو لغوية أحيانا.

إن التحليل الدقيق لشبكة التفاعلات التي تسري خلال رباعية العولمة هذه، لا بد أن يؤدي بنا إلى رؤية متوازنة تري وجهي عملة العولمة لنهدئ ولو قليلا من حدة الهوس بها من جانب، ومن جانب آخر، تجعلنا أكثر إدراكا لآثارها السلبية كمدخل أساسي لتداركها أو للتخفيف منها على الأقل.

1 : 3 : 3 العولمة: الوجه الآخر

على الرغم من أن الليبرالية الجديدة كانت القوة الدافعة وراء العولمة فإن بعض نتائج تلك العولمة لم تكن مرغوبة أو متوقعة من قبل من روجوا لها وما أكثرهم (273). وما أكثر ما طرح السؤال الأساسي: هل العولمة دين الحداثة أم نذير نهايتها؟ وإلى أين يذهب بنا هذا الاقتصاد العولمي معصوب العينين، الذي جعل من مصير البشر لعبة تتقاذفها أياديه الخفية وتقلبات أسواقه وقصر نظر إستراتيجياته وتكتيكاته؟ أليس من الجائز ألا يكون هناك أياد خفية أصلا، وما هي إلا لعبة من ألعاب اللغة التي تعمل في سراديب اللاوعي الاجتماعي لإخفاء القوى السياسية ـ الاقتصادية الكامنة وراءها؟ فمن وجهة نظر جون جراي، ما هذه الأيدي الخفية إلا وسيلة لإخفاء يد السلطة التي صنعتها (22:81)، سلطة الداخل متضافرة مع مصادر

السلطة خارجها. فكيف لنا أن نفسر هذا التناقض الحاد بين هذا النمو الاقتصادي الهائل (إجمالي الناتج العالمي 33 ألف مليار دولار سنويا) وتزايد عدد الفقراء وطوابير البطالة وانتشار المجاعات؟ وفوق هذا وقبل ذاك، كيف أدى هذا الاقتصاد إلى بؤس الإنسان واغترابه؟ بدلا من رفاهية هذا الإنسان، غاية الاقتصاد في الأساس. إن أخطر أسباب اغتراب عمالة العصر هو نزعة سحق المهارات، أي تفكيكها إلى مهارات أصغر فأصغر ليتلاشى، مع عملية التفكيك الدؤوبة تلك، الطابعُ الشخصي للمهارات الإنسانية. ولا شك في أن تكنولوجيا المعلومات تلعب دورا حاسما في الإسراع بعملية تفكيك المهارات تلك. ولا غرابة في هذه النزعة التفكيكية لتكنولوجيا المعلومات، فهل لنا أن ننسى أن جميع المشكلات يتم «تفكيكها» معلوماتيا في نهاية الأمر إلى ذرات «الصفر والواحد»، في حين يعرف بعض علماء الكمبيوتر عملية الذكاء الاصطناعي بأنها تلك العملية التي نظل من خلالها نفتت ونفتت حتى لا يبقى هناك ذكاء.

وهكذا أطاحت تكنولوجيا المعلومات وأتمتتها بفرص العمل، وأصبح العامل، شأنه شأن قطع الغيار، يمكن استبدال غيره به من أصحاب الياقات الزرقاء أو من أصحاب الياقات المعدنية من فصيل الروبوتات. لقد اكتملت فصول تراجيديا العمالة الإنسانية على مرأى ومسمع من الجميع، بعد أن تم استقطاب المهارة إلى أعلى، وقد احتكرها أصحاب الياقات البيضاء من نخبة التكنوقراط المدججين بنظم المعلومات من مخططين ومصممين ومحللين اقتصاديين ومسوقين محليين وإقليميين وعالميين. وعلى ما يبدو فإن عهدنا بالتكنولوجيا ـ كما قال قائل ـ أن تنحاز إلى صف الكبير على حساب الصغير. إن الاقتصاد الرأسمالي ـ في نظر ماركس ـ ذو ميل طبيعي للتوسع الجغرافي، وهو ما أطلق عليه هارفي نزعة التوسع المكاني spatial fix (316). وقد وجد هذا الاقتصاد في تكنولوجيا المعلومات اليد الطولى المثلى لإرضاء نزعته تلك؛ فقد سمحت هذه التكنولوجيا لاستثماراته ومعاملاته أن تطوف العالم تطويه طيا، ولمنتجاته أن تنطلق من مراكز إنتاجها إلى مصادر طلبها لترتد إليه بالسرعة نفسها حاملة عوائد تسويقها. ونقلت نظم المعلومات له ـ أي الاقتصاد الرأسمالي ـ نبض أسواقه وميول مستهلكيه وأداء منافسيه. إنها السرعة الهائلة التي يمكن أن نطلق عليها

«نزعة الإسراع الزمني» كمقابل لنزعة التوسع المكاني، ومفهوم السرعة هنا يتجاوز بكثير ما درجنا أن نسميه سرعة دوران رأس المال، فهو سرعة دوران كل عناصر المنظومة الاقتصادية: استثمارا وإنتاجا وتسعيرا وتسويقا وتحصيلا وتنظيما. ودعنا ندلي هنا بدلونا في مجاز ميكانيكا السوائل «الهيدروليكا» الذي شاع استخدامه في مجال الاقتصاد (من أمثلته: سيولة نقدية ـ فيض نقدي ـ تجميد الأسعار ـ إغراق الأسواق ـ غسل الأموال ـ تعويم الجنيه)، دعنا نسترسل في هذا المجاز الهيدروليكي لإبراز كيف تتضافر هاتان النزعتان: التوسع المكاني والإسراع الزمني، ودوامة حركة الاقتصاد الهادرة التي تحدثانها لتعملا معا كمضخة أعماق هائلة، آلية «شفط» كونية لا تهدأ ولا ترحم، تضخ إلى أعلى القيمة المضافة، وعوائد الاستثمار الضخم، التي تسحب معها أموال صغار المستثمرين. ألا ينهض هذا دليلا على مدى الخلل الجوهري في أداء منظومة الاقتصاد العالمي؟ وكم كان رائعا الاقتصادي الهندي العظيم أمارتيا سن، الحائز على جائزة نوبل عن بحوثه في اقتصاد الفقراء، في نقده اللاذع للنظريات الاقتصادية السائدة ضمن مقاله المثير بعنوان «العقلانيون الحمقى» قاصدا بهم هؤلاء الاقتصاديين من أصحاب النظرة الضيقة (108). وربما يفسر ذلك لماذا حرص «جيمس ميد»، الحائز هو الآخر جائزة نوبل في الاقتصاد، على ألا يكون ضمن هؤلاء الحمقى فهو القائل: لقد سعيت طيلة حياتي لأن أفهم ظاهرة الاقتصاد الحديث، إلا أن بداهة الحس الطبيعي كانت على الدوام تسد الطريق أمامي. حقا لقد باتت البشرية في أمس الحاجة إلى اقتصاد مختلف، أشد مايكون عليه الاختلاف عن «اقتصاد الكازينو» هذا الذي ابتلينا به، وذلك ضمن نظام اجتماعي مختلف هو الآخر، يخلصنا من «بربرية التكنولوجيا المتقدمة»، بربرية ثقافية في غلاف من وهم التقدم المادي، ومن «بربرية التخصص» ـ كما أطلق عليها الفيلسوف الإسباني خوسيه أوتيجا جاست [37] ـ التي جعلت من علم المتخصصين سدا منيعا يحجز عن هؤلاء «الجهلاء الجدد» كل ما دون تخصصهم من معارف وخبرات، وحتما فإن «آفة التخصص» تلك وراء عجزنا عن فهم مجتمعنا واقتصاده.

حذر الكثيرون من المصير المشؤوم الذي تدفع العولمة إليه دول الأطراف، فهي تقلص من سلطات هذه الدول وتضيق الخناق على مناورتها، وهكذا

تظل سيادتها تتآكل إلى أن تصبح هذه الدول عاجزة عن الوفاء بالتزامات العقد الاجتماعي تجاه مواطنيها. يحدث هذا تدريجيا ولكن بصورة متسارعة، لتجد تلك الدول نفسها وقد تحولت من راعية لمصالح هؤلاء المواطنين إلى حارسة لليبرالية السوق الجديدة، حامية لرأس المال الخارجي والمحلي.

وما إن يشتد عود العولمة حتى تجد الحكومات المحلية نفسها أضعف من أن تفي بواجباتها الاجتماعية كالتأمينات الاجتماعية والخدمات التعليمية والرعاية الصحية وحماية البيئة وما شابه. ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل تصبح هذه الحكومات المحلية عاجزة أيضا عن تقديم العون لرأس المال العالمي فيما يخص تأمين حقوق الملكية بأنواعها، والحفاظ على الأمن الاجتماعي، وحماية الاستثمارات ضد الجريمة المنظمة وضد ردود أفعال المقهورين. وهنا تشيح المؤسسات المتعدية الجنسية بوجهها عن الحكومات، لتستدير صوب المنظمات الدولية طالبة دعمها، دعما يخترق الحدود وينتهك السيادات ويهزأ بالنظم المحلية والهويات القومية. ويتنامى الشعور بإمكان حكم الدول من خلال تلك المنظمات الدولية، ويزداد سخط الشعوب على حكوماتها بالتالي، والتي لا تجد مخرجا لتبرير عجزها إلا التعلل بضرورة الخضوع لقوانين المنافسة الأجنبية وفتح الأسواق المحلية على مصاريعها. وهكذا تتوالى خسائر العولمة، خسارة اجتماعية في تبخر فرص العمل ومزيد من الاختلال في توزيع الدخول والثروات، وخسارة أخلاقية من أبرز مظاهرها تحقيق الثروات بطرق غير مشروعة وتقويض العلاقات الأسرية، وخسارة أمنية في نمو جرائم الكبار بدافع الجشع وجرائم الصغار بدافع غريزة حب البقاء، وخسارة بيئية في استنزاف الموارد الطبيعية وانتشار الملوثات - كما يقول خلدون النقيب - بما فيها تلك التي بدأ تأثيرها يظهر على مظاهر الرجولة أو ما يعرف بظاهرة «تأنيث الطبيعة». ولا تكتمل قائمة الخسائر دون ذكر للخسارة الثقافية من تسطيح الثقافة وابتذالها[63]، وطرد الثقافة الرديئة للثقافة الجيدة، ناهيك عن الرفيعة. إن العولمة، كما توقع الكثيرون، لن تؤدي في العالم النامي إلى تهميش الأقليات فقط، بل إلى تهميش الأغلبية أيضا. وتحضر الكاتب هنا مقولة لمحمود الإمام وزير التخطيط الأسبق في مصر، حيث يقول: «إن اقتصاد الرأسمالية الجديدة لن يؤدي فقط إلى استغلال الدول النامية بل إلى الاستغناء عنها كلية»،

ودعنا، مراعاة للدقة وعلى سبيل سخرية الواقع أيضا، نستثني من هذا الاستغناء الكلي استيراد قطع الغيار البشرية!!

خلاصة، لم يعد شعار «التقدم الاقتصادي بأي ثمن» ينطلي على أحد، ولم يعد العالم مستعدا لأن يصغي مرة أخرى لآدم سميث جديد يبشر الإنسانية بخير عميم في ظل سوق عالمية جديدة، ويسعى إلى إقناعها ـ كما يحاول البعض ـ بأن حل مشاكل الرأسمالية هو مزيد من الرأسمالية. وعلى الإعلام ـ إن صدق ـ أن يعمل على زيادة وعي الفرد بتلك الأكاذيب الكبيرة والصغيرة حول اتفاقية الجات، وكيف تؤثر على رزقه وعمله وصحة أطفاله وكباره. ولكن كيف لإعلام العولمة أن يصدق، وأن ينطق بما لا يروق لأباطرته ورعاته من أصحاب الإعلانات ذوي الهوس الشديد بالعولمة كوسيلة مثلى لزيادة الربحية والإنتاجية، وأمضى أسلحة السيطرة في ترسانة الشركات المتعدية الجنسية؟!!

ودعونا ننتقل بحديثنا، الذي ساده حتى الآن الطابع الاقتصادي، إلى وجه آخر من أوجه العولمة أكثر صلة بتوجهنا الثقافي ـ المعلوماتي، ونقصد به موضوع الهوية القومية التي تتعرض لتهديد شديد في ظل عولمة أعطت لنفسها الحق في تجنيس ثقافات العالم وطمس ملامح خصوصياتها. فهم على ما يبدو ـ يريدون لنا بعولمتهم تلك أن نكون عالميين لا مكان وبلا تاريخ، وكأن تكنولوجيا المعلومات التي سحقت الزمان والمكان قد عمقت لدى أهلها استخفافا بالمكان من ناحية، ممثلا في إضعاف الارتباط بأرض الأهل وفقدان الأمكنة لطابعها الخاص(*15)، ومن ناحية أخرى استخفافا بالزمان ممثلا في نسيان تاريخ الأجداد وإهدار تراثهم. ويجرنا هذا إلى شأن العرب ذوي التاريخ التليد، وكيفية مواجهتهم لظاهرة العولمة. نوجز لنقول إن بعضا يرى فيها تعارضا جوهريا مع عالمية الإسلام، في حين يراها بعض آخر خيرا لأمة العرب والمسلمين، بل يتمادى عدد غير قليل من أصحاب الرأي القائل بأن هذه الأمة أكثر حاجة من غيرها للعولمة من أجل إشاعة الديموقراطية وحقوق الإنسان والإسراع في حركة التنمية وتوطين التكنولوجيا المتقدمة في التربة العربية. وبالطبع هناك من لا يهمه أمر العولمة في شيء؛ فقد قصر نظره إلى الداخل ناظرا إلى العولمة بوصفها تغريبا. وتتردد في أرجاء وطننا العربي صيحات المثالية وشعارات الحمية

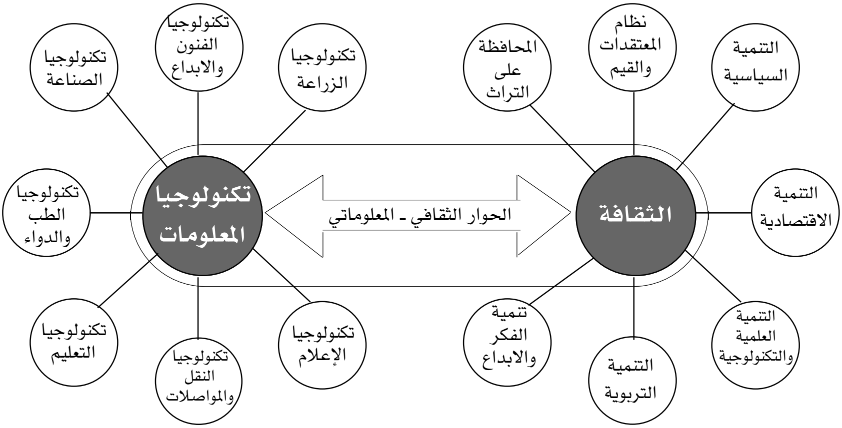
القومية، ولا يجد البعض - ولهم بعض الحق - خلاصا من واقع الأمور حولهم، إلا في الملاذ الروحي والصحوة الإيمانية. وفي كل بلد عربي، من سوريا إلى المغرب، ومن لبنان إلى الجزائر، ومن الكويت ودول الخليج إلى السودان، تتكرر مشاهد هذا الحلم الطوبائي، والموقف الرافض للعولمة شكلا وموضوعا. ولسنا وحدنا في هذا الأمر، فهذا الموقف الرافض ذاته، نجده لدي الهندوس الراديكاليين، ولدى كثيرين من أبناء جيفارا الثوريين من جزر الكاريبي حتى الأرجنتين.

وننهي لنؤكد أن العولمة باتت واقعا لا مفر من التعامل معه، فليست هي بالفجر البازغ ولا بالفخ الخادع. وعلى عاتقنا تقع مسؤولية العيش في ظل ما تفرضه من قيود وما تتيحه من فرص، ولن يتأتى لنا ذلك إلا إذا تفهمنا بعمق شديد علاقة منظومة الثقافة بمنظومة تكنولوجيا المعلومات، خاصة ظاهرة الإنترنت. لقد شاعت مقولة «إن علينا إن نفكر عالميا ونتصرف محليا»، لكن الكاتب يعارض بشدة مثل هذا الفصل بين ما هو عالمي وما هو محلي، وهو يفضل «أن نفكر عالميا ومحليا ونتصرف عالميا ومحليا معا». خلاصة المقال: «عولمحلية Glocalism» لا «عولمة» ولا «عروبة» فقط.

1:4 حوار المحاور

1:4:1 عن محوري التنمية والتكنولوجيا

بعد أن ظهر للعيان ما فعله الاقتصاد في غيبة الثقافة بمسيرة التنمية المجتمعية، كان لا بد للثقافة من أن تصبح هي محور التنمية. فاحتلت بذلك ـ كما يوضح الجانب الأيمن من الشكل (1:1) ـ موقع القلب المحرك الذي تدور حوله عمليات التنمية القطاعية: سياسية واقتصادية وتربوية وعلمية وتكنولوجية، وذلك علاوة على التنمية الفكرية والإبداعية. وتكتمل منظومة التنمية المجتمعية تلك بإضافة نظام المعتقدات والقيم والمحافظة على التراث، في المقابل. وبالطبع لا نقصد بمحورية الثقافة هنا ما أسماه سمير أمين بـ «الثقافوية المضادة» بمعنى الانغلاق في الخصوصيات الثقافية الموروثة، حيث يرى أن هذه النزعة الثقافوية تجعل أصحابها غير قادرين على مواجهة تحدي العصر، والثقافوية بهذه الصورة ـ في رأيه ـ هي بمنزلة رد فعل للمركزية الأوروبية، أي انغلاق الفكر الأوروبي على نفسه دون غيره (93:68).



الشكل (1:1) حوار المحاور بين الثقافة وتكنولوجيا المعلومات

على الجانب الأيسر من الشكل المشار إليه، تظهر تكنولوجيا المعلومات هي الأخرى كمحور للمنظومة التكنولوجية الشاملة، فهي ـ أي تكنولوجيا المعلومات ـ قد أثبتت جدارتها في كل الميادين إلى أن غدت قاسما مشتركا بين جميع التكنولوجيات دون استثناء: تكنولوجيا الزراعة، وتكنولوجيا الصناعة، وتكنولوجيا الطب والدواء، وتكنولوجيا التعليم، وتكنولوجيا الإعلام، وتكنولوجيا النقل والمواصلات، ويتنامى ـ حاليا ـ دور تكنولوجيا المعلومات في مجالي الفنون والترفيه.

تلتقي الثقافة مع تكنولوجيا المعلومات أساسا على جبهة الرمز، وأوجه التناظر بينهما تتضح للباحثين يوما بعد يوم. لقد أصبحت تكنولوجيا المعلومات أهم أدوات صناعة الثقافة وأهم قضاياها الاجتماعية. توازى مع ذلك أن أصبحت صناعة الثقافة أهم تطبيقات تكنولوجيا المعلومات. فبينما كانت التطبيقات التجارية والإدارية والصناعية هي السائدة في أجيال الكمبيوتر السابقة، فإن تطبيقات الثقافة من تربية وإعلام وترفيه، قد صارت الآن هي التطبيقات الحاكمة التي تدفع بتكنولوجيا المعلومات؛ عتاد وبرمجة واتصالات، إلى مشارف جديدة، وذلك تحت ضغط المطالب الفنية القاسية التي تتسم بها التطبيقات الثقافية. فالفنان التشكيلي يحتاج إلى

شاشة كمبيوتر ثرية الألوان دقيقة التحليل، ومصمم البرامج التربوية يحتاج إلى كمبيوتر أكثر ذكاء ليتجاوب مع المتعلم بصورة دينامية وطبيعية، وأرشفة التراث الثقافي: المكتوب والمسموع والمرئي، تتطلب وسائل تخزين إلكترونية عالية السعة، بالإضافة إلى آليات استرجاع تتصف بالمرونة والسرعة.

ولكن دعونا حاليا من كل هذه التفاصيل، لنضع. أيدينا على جوهر العلاقة المحورية بين هذين المحورين، علاقة الثقافة بتكنولوجيا المعلومات. ويبدو منطقيا أن يكون مدخلنا في ذلك هو تعريف الثقافة وتعريف المعلومات اللتين تعددت أوصافهما وتعريفاتهما . لم نجد أفضل في مقامنا الحالي من تعريفين لشقي العلاقة الثقافية - المعلوماتية بالغي الإيجاز وبالغي الدلالة معا، وإليك التعريفين:

- الثقافة: هي ما يبقى بعد زوال كل شيء.

- المعلومات: هي المورد الإنساني الوحيد الذي لا يتناقص بل ينمو مع زيادة استهلاكه.

فهل نعي ـ نحن العرب ـ مغزى ثنائية التعريف هذه، فلن يبقى لنا، في نهاية الأمر، إلا ثقافتنا ومواردنا البشرية، صائغة هذه الثقافة وصنيعتها. وليس أمامنا بعد كل ما استهلكناه وأهدرناه من مواردنا المادية إلا مورد المعلومات المتجدد دوما، وإنتاج المبدعين العرب صغارا وكبارا، نخبة وعامة، قادرين وبسطاء. ولا تغير من الوضع شيئا، فيما يخص أهمية هذه الثنائية الثقافية المعلوماتية، رؤية إسلامية تعرف الثقافة بـ «أنها الإسلام حين يصبح حياة» (15:50)، ففي ظل هذه الرؤية نكون قد مضينا بالثقافة قدما نحو مزيد من الرمزية والمعلوماتية بالتالي. إن أهم تحدياتنا الفكرية قاطبة، بغض النظر عن توجهنا الفكري، في سبر أغوار هذه العلاقة المحورية من منظور تنموي، وإقناع أولي الأمر وقادة الرأي لدينا بأهمية حوار المحاور: حوار الثقافة والتقانة.

1:4:2 طبيعة الحوار

تقود عولمة الاقتصاد قافلة العولمة حاليا جارَّة وراءها عولمة الثقافة. لقد نجح الاقتصاد متضامنا مع السياسة في التهوين من قدر الثقافة، مستغلا في ذلك حقيقة مهمة مرتبطة باختلاف إيقاع سرعة التغير بين الأنشطة

الاجتماعية المختلفة، ودعنا نوضح ما نقصده هنا في ضوء متغيرات عصر المعلومات، حيث تشير شواهد كثيرة إلى أن التكنولوجيا قد أصبحت ـ حاليا ـ أسرع من العلم. فالتكنولوجيا حاليا تملي مطالبها في كثير من الأحيان على العلم. في ضوء ذلك نلخص فيما يلي سلسلة التتابع في عملية التغير المجتمعي، وليغفر لنا القراء قدرا من التبسيط من أجل مزيد من التوضيح:

ـ التكنولوجيا في أحوال كثيرة أسرع من العلم.
ـ العمل أسرع من الاقتصاد.
ـ الاقتصاد أسرع من السياسة.
ـ السياسة أسرع من الثقافة.

ويبدو ـ منطقيا ـ وجود الثقافة في ذيل سلسلة التتابع، وذلك لسبب بسيط مؤداه أن الثقافة ظاهرة اجتماعية، لا بد لها كي تؤتي ثمارها أن تختمر وتنصهر وتتفاعل وتترسخ. أين هذا كله من سرعة تغير السياسات، وتسارع حركة الاقتصاد، وانطلاقة العلم اللاهث صوب مشارف جديدة، ولهفة التكنولوجيا على تلبية مطالب أسواقها المتقلبة.

والسؤال الأساسي في إطار العلاقة المحورية بين الثقافة والتكنولوجيا، والاقتصاد القائم على هذه التكنولوجيا بالتالي هو: من يكون له حق القيادة؟ أو بتعبير آخر: هل الثقافة تابعة للتقانة، أم التقانة تابعة للثقافة؟ ويثق الكاتب في قدرة القراء على توقع إجابته في ضوء ما فات. فلا بديل، في رأيه ورأي كثيرين غيره، إلا أن تسلم القيادة المجتمعية لقاطرة الثقافة. فالثقافة، كما تقول لوردس أريزب المدير العام المساعد لليونسكو لشؤون الثقافة، بحكم طبيعتها ترفض التهميش والاختزال، ولا يمكن لها أن تكون مجرد عامل مؤازر لعملية التنمية التكنولوجية، كما هي الحال عادة. فليس دورها، ومازال الحديث للوردس أريزب، أن تكون خادما من أجل تحقيق الغايات المادية، بل يجب أن تكون الثقافة هي الأساس الاجتماعي الذي تقوم عليه هذه الغايات نفسها. إن أي تنمية تكنولوجية منزوعة من سياق مجتمعها وثقافته هي تنمية بلا روح (203)، ومهما زادت سطوة التكنولوجيا كما هي الحال بالنسبة لتكنولوجيا المعلومات، فيجب ألا يكون المجتمع تابعا لها، بل يجب أن تكون هي التابعة له، الملبية لمطالبه، المتوائمة مع ظروفه

وقيمه وإمكاناته. إن تكنولوجيا المعلومات، من فرط قدرتها وتداخلها وانصهارها داخل الكيان المجتمعي، تبدو في نظر البعض وكأنها استقلت بذاتها، ليظن هذا البعض خطأ أنها قادرة، بمفردها ودون تدخل من أحد، على أن تحمينا من مآسي السياسة ودوجمائية الفكر، وقصر نظر التخطيط الاقتصادي. وكم من الجرائم ترتكب باسمك أيتها التكنولوجيا!! ومع ذلك، علينا أن نقر بأنه لا توجد تكنولوجيا محايدة، وعلينا أيضا ألا نجري وراء هذه الأقاويل الخادعة من قبيل: التكنولوجيا كبديل للأيديولوجيا، والتكنولوجيا متحررة من القيم، وما إلى ذلك.

إن علاقة تكنولوجيا المعلومات بالتنمية تتضح أكثر ماتتضح في إطار تعريف التنمية البشرية الحديث الذي وضعته منظمة الأمم المتحدة لمشاريع التنمية UNDP وخلاصته أن التنمية لم تعد تقاس بالتقدم التكنولوجي والاقتصادي في المقام الأول بل إن الأساس فيها هو توسيع نطاق الخيارات أمام الناهضين بالجهد التنموي (20:116). هنا يتضح لنا جوهر العلاقة بين التنمية، في تعريفها الجديد الأكثر توسعا، وتكنولوجيا المعلومات، باعتبار هذه التكنولوجيا وسيلة فعالة لتوفير بدائل الخيارات، وتعدد الحلول والتصدى للقيود. من جانب آخر، فإن انتشار تكنولوجيا المعلومات، وانصهارها في الكيان المجتمعي، سيجعل من المعرفة أهم أسس السلطة وأبرز عوامل الترابط الاجتماعي. يعني ذلك أن غياب المعرفة وعتمة المعلومات، سيؤديان في النهاية إلى تفكك المجتمع وتفسخه. إن إشاعة المعرفة وإتاحة المعلومة تزيدان من فاعلية المجتمع وحيويته ومنسوب ديموقراطيته، ومناعته ضد أساليب الاستبداد والغزو الثقافي.

ولكي تحقق تكنولوجيا المعلومات هذا الدور الاجتماعي الحيوي، علينا أن نحسن استغلال مواردها. فالذكاء الجمعي للمجتمع لا يتوقف فقط على توافر المعلومات بل على مداومة تحديثها وتنظيمها وأرشفتها. وفوق ذلك كله، يتوقف على إشاعة قيم مجتمع المعلومات وأخلاقياته. لقد صار في حكم اليقين عدم إمكان الفصل بين قضايا التنمية وأمور الأخلاق، مثل تلك المتعلقة بشؤون العمالة والسياسة الاجتماعية وتوزيع الدخول والثروات والمساواة بين الرجل والمرأة، وكلها ـ كما هو واضح ـ أمور ذات جوانب أخلاقية. وتشير جميع الدلائل إلى أن صلة تكنولوجيا المعلومات بالأخلاق

ستزداد وثوقا باطراد، خاصة بعد لقائها الوشيك والمثير مع التكنولوجيا الحيوية وهندستها الوراثية.

هل يكفي كل ما ذكر آنفا لتأكيد حاجتنا الماسة إلى تمحيص علاقة ثقافتنا بتكنولوجيا المعلومات، متخذين من الثقافة منطلقا لنا وليس العكس. ويترتب على ذلك، ضمن ما يترتب، ضرورة التنسيق الدقيق بين سياساتنا الثقافية وسياساتنا العلمية التكنولوجية. فهل من مدكر؟!!

١ : 5 إسرائيل كخصم ثقافي ـ معلوماتي

١ : 5 : ١ إسرائيل كخصم معلوماتي

على رغم ما يبديه الكثيرون لدينا من حماس شديد لثورة المعلومات وأهميتها، إلا أنه مازال بيننا من لا يطيب له حديث يكشف بالمعلومات عما يجري داخل إسرائيل. حجتهم في ذلك أنه حديث غالبا ما يبعث على تثبيط الهمم، ويشغلنا بردود الفعل عن الفعل ذاته[*11]. وإلى هؤلاء نتساءل: هل من بديل؟ وكيف لنا أن نتحاشى مثل هذا الحديث وقدر أمتنا أن يمر كل جهد يتصدى إلى مشكلات حاضرنا من هذا «الممر غير الآمن» لصراعنا مع إسرائيل. وإن جاز أن نتغاضى عن ذلك في بعض الأمور، فلا يجوز ـ بالقطع ـ في المجال الثقافي المعلوماتي. وذلك لعدة أسباب من أهمها: الدور المهم الذي تلعبه الثقافة، سواء بالنسبة لنا أو بالنسبة للخصم الإسرائيلي. ويكفي مثالا هنا ما للغة والدين من أهمية لدينا ولديهم. أضف إلى ذلك الموقع البارز الذي تحتله التكنولوجيا الرفيعة بصفة عامة، وتكنولوجيا المعلومات بصفة خاصة، في عقل ساسة إسرائيل وعلمائها ومخططيها وموجهيها. ولعل البعض يذكر ما ورد في كلمة شيمون بيرير عند توقيع اتفاقية القاهرة « من أن المعلومات أقوى من المدفع»، وبلغ به الكرم مداه وهو يتسلم جائزة نوبل للسلام، فأفصح عن نيته تعميم تجربة إدخال الكمبيوتر في المدارس الإسرائيلية على كل البلدان العربية. هذا عن الحمائم، فما بال حديث الصقور؟ ولنعط مثالا مما تكرر ذكره على لسان نتانياهو عن عظمة وادي السيلكون الإسرائيلي الذي يربط بين مراكز البحث والتطوير المعلوماتي في مثلث: تل أبيب ـ القدس ـ حيفا، والذي لا يفوقه ـ على حد زعمهم ـ إلا وادي السيلكون الأمريكي. (والآن، يراود إسرائيل ـ

على حد تعبير البعض ـ حلم الخروج من دائرة اقتصاد «القلعة المحاصرة»[*12] المعتمدة على التمويل الأجنبي والمساعدات الخارجية. سبيلها إلى تحقيق ذلك هو مخططها الشرق أوسطي. وهو المخطط الذي برع في محاباة إسرائيل فيما يخص تقسيم العمل بينها وبين العرب؛ فهو يكفل لإسرائيل دوام تفوقها العلمي - التكنولوجي؛ حيث اصطفاها بصناعات التكنولوجيا المتقدمة، تاركا للعرب الصناعات التقليدية من صناعات الأسمدة والأسمنت والصناعات الكيماوية، وكل ما يطلق عليه أحيانا مصطلح «الصناعات القذرة» بسبب نسبة التلوث العالمية التي تنجم عنها. وربما يفاجأ البعض بأنه، وبالرغم من تعثر هذا المخطط الشرق أوسطي ـ حاليا على الأقل ـ على المستوى الرسمي، إلا أن إسرائيل قد شرعت في تنفيذه بالفعل من جانب واحد. فها هي تستغني تدريجيا عن صناعاتها التقليدية لتقيم بدلا منها قاعدة من الصناعات ذات التكنولوجيا الرفيعة الشحيحة العمالة، ويتلاءم ذلك مع قلة عدد سكانها، وارتفاع نسبة ذوي المؤهلات العليا بينهم. ويداعب خيال إسرائيل حلمها القديم، ونقصد به حلم إسرائيل الكبرى، ذلك الحلم البعيد المنال، الذي يعبر عن نفسه في سباقنا الحالي في رباعية مكونة من النفط السعودي، والأيدي العاملة المصرية، والمياه التركية، تقود مسيرتها بالطبع العقول الإسرائيلية. ويزعم الكاتب أنه يمكن لإسرائيل أن تجعل من باقة الموارد الرباعية تلك خماسية، وذلك بأن تضم إليها رؤوس الأموال العربية التي يمكن أن تصل إليها يد إسرائيل الطولى من خلال وسيط أمريكي أو أوروبي أو أفريقي، يساعدها في ذلك نشاطها الكبير في سوق المعاملات المالية، ناهيك عن عملاء الداخل من أعضاء الطابور الخامس لتطبيع إسرائيل الصامت [*13].

ومن فور نشأتها، سعت إسرائيل إلى إقامة قاعدة علمية - تكنولوجية ضخمة لدعم مجهودها الحربي في المقام الأول، وكانت ركيزتها شبكة من معاهد البحوث المتقدمة، على رأسها معهدا وايزمان وتيكنون، اللذان يحظيان بتقدير كبير في الأوساط العلمية العالمية. وتغطي مجالات البحوث معظم فروع العلم والتكنولوجيا المتقدمة ويشمل ذلك على سبيل المثال لا الحصر: التكنولوجيا النووية ـ التكنولوجيا الحيوية والبيولوجيا الجزيئية ـ تكنولوجيا المعلومات والاتصالات والذكاء الاصطناعي ـ بحوث الطاقة ـ

بحوث زراعة الصحراء ـ بحوث اللسانيات ـ بحوث الطب والدواء. وتؤكد الإحصائيات الأداء العالي لهذه المراكز البحثية. فعلى سبيل المثال، يبلغ معدل النشر العلمي عشرة أضعاف المتوسط العالمي، وتعد الجامعات الإسرائيلية من أعلى الجامعات في معدلات تسجيل براءات الاختراع. والأهم من ذلك ـ وكنتيجة لعلاقات جهات البحوث والتطوير بالمجهود الحربي كما أسلفنا ـ هو تلك الروابط الوثيقة بينها وبين مراكز الإنتاج، وهي الروابط التي ازدادت وثوقا بعد تحول كثير من الصناعات الحربية الإسرائيلية إلى المجال المدني.

أما بالنسبة للموارد البشرية، فتأتي إسرائيل عالميا في المرتبة الثانية بعد اليابان فيما يخص نسبة عدد العلماء والفنيين إلى إجمالي عدد السكان. وقد ضاعفت الأعداد الكبيرة من المهاجرين الوافدين من الاتحاد السوفييتي السابق، من رصيد إسرائيل من العلماء والمهندسين. ومعظم هؤلاء المهاجرين لم يأت خالي اليدين، فقد حمل معه حصاد المعرفة المتراكمة، بل الأسرار أيضا، في أكثر فروع البحث العلمي والتطوير التكنولوجي تقدما في الاتحاد السوفييتي السابق (130)، وما إن تطأ أقدام تلك النخبة العلمية أرض الميعاد، حتى تتولاهم هيئات متخصصة لإكسابهم المهارات والخبرات اللازمة لاستثمار جهود البحوث والتطوير، بما يتفق مع نمط الاقتصاد الحر الذي لم يعتادوا عليه في ظل المركزية السوفييتية. ويتم ذلك من خلال مجموعة من ساحات الأعمال، أو الحضانات business incubators الموزعة على مدن إسرائيل الرئيسية.

على صعيد آخر، تعد إسرائيل من أكثر الدول نشاطا في إقامة العلاقات العلمية، واتفاقات التبادل الأكاديمي ومشاريع التعاون البحثية، خاصة مع الولايات المتحدة الأمريكية. هذا عن القنوات الرسمية، والتي تتضاءل في أهميتها إذا ما قورنت بتلك غير الرسمية عبر يهود الشتات المنتشرين في الجامعات ومراكز البحوث الأمريكية والأوروبية، وهي القنوات التي برعت إسرائيل في استخدامها لأغراض التجسس العلمي.

ما ذكرناه حتى الآن، هو بعض ملامح المشهد العلمي - التكنولوجي الإسرائيلي بصفة عامة. أما فيما يخص مجال تكنولوجيا المعلومات فيمكن القول إن إسرائيل قد نجحت في تأمين مواقع متقدمة لها في معظم فروع

هذه التكنولوجيا المحورية، سواء في مجالات العتاد hardware أو البرمجيات software أو الاتصالات. فعلى جبهة العتاد، بدأ معهد وايزمان تجاربه في بناء الحواسيب الإلكترونية في وقت مبكر منذ عام 1954، ونجحت إسرائيل في تطوير ميكروكمبيوتر للأغراض العسكرية. أما على جبهة الاتصالات فقد برزت إسرائيل في مجال الألياف الضوئية، ذات الأهمية الخاصة في إقامة شبكات طرق المعلومات الفائقة السرعة. وتقوم إسرائيل كذلك بصناعة قواسم الهواتف (السنترالات). وقد أطلقت إسرائيل أول قمر صناعي للاتصالات عام 1996 ليغطي الشرق الأوسط ووسط أوروبا. وفيما يخص تطوير البرمجيات، فقد تنوعت مجالاتها من البرمجيات التعليمية وبرمجيات قطاع السياحة، إلى تطبيقات البحث في الإنترنت والنشر عبرها. ولإسرائيل باع طويل في مجال نظم نقل المعلومات، من برامج المحافظة على السرية (أو التعمية) وبرامج ضغط البيانات data compression. وعلى صعيد شبكة الإنترنت، تأتي إسرائيل، رغم قلة عدد سكانها النسبي، في المرتبة العشرين على مستوى العالم فيما يخص عدد المواقع على الشبكة (323 :252)، ويضاهي عدد المواقع الإسرائيلية على الإنترنت إجمالي مواقع الدول العربية مجتمعة.

وتبدي إسرائيل اهتماما خاصا بتطبيقات المعالجة الآلية للغات الإنسانية بواسطة الكمبيوتر، وعلى رأسها العبرية بالطبع. ويأتي على قائمة هذه التطبيقات نظم الترجمة الآلية. ووصل الأمر إلى حد أن تقدمت إسرائيل إلى منظمة الوحدة الأوروبية لتطوير نظم للترجمة الآلية من لغات دول السوق المشتركة إلى العربية (لا العبرية..!!)، ويجب ألا ننسى أن إسرائيل يمكن أن تستغل في تنفيذ مخططها الطموح هذا، العرب الفلسطينيين المقيمين داخل إسرائيل. والأدهى من ذلك، أن إسرائيل قد سعت جاهدة ـ ولم توفق حتى الآن لحسن الحظ ـ إلى إقامة مشاريع تطويرمشترك في مجالات نظم المعلومات بينها وبين الأردن. بمشاركة أطراف أمريكية، وحاولت اختراق نشاط تطوير البرمجيات في مصر بصورة مستترة تجتذبها إلى ذلك العمالة المصرية الرخيصة في تخصصات الكمبيوتر. بالإضافة إلى ما سبق، تعرض الشركات الإسرائيلية لتطوير البرامج خدماتها على الشركات العالمية لتعريب نظمها وبرامجها حتى تتأهل لدخول الأسواق العربية. أما شركة مايكروسوفت فتقوم استراتيجيتها الشرق أوسطية على ضم اللغتين

العربية والعبرية تحت إدارة واحدة. وهو الوضع الذي يتيح للموظفين اليهود في هذه الإدارة حق النفاذ المباشر للتفاصيل الفنية الدقيقة لتعريب نظم المعلومات، وعندما يحين وقت العودة إلى أرض الميعاد سيحملون معهم، كما حمل غيرهم، كل هذه الأسرار التكنولوجية الدقيقة لتعريب نظم المعلومات. ما يريد الكاتب أن يؤكده هنا هو مدى خطورة أن تتولى إسرائيل نيابة عنا مهمة معالجة اللغة العربية آليا. فعندئذ تكون قد حلت بنا كارثة ثقافية كبرى.

وكمؤشر آخر لتقدم إسرائيل التكنولوجي، يتم حاليا تداول أسهم أكثر من مائة شركة إسرائيلية في بورصة نيويورك للأوراق المالية المتخصصة لشريحة الشركات العاملة في ميادين التكنولوجيا المتقدمة والمعروفة باسم Nasdaq، ولا يفوق إسرائيل في عدد الشركات المسجلة في هذه الشريحة إلا الولايات المتحدة نفسها [130]. وأخيرا وليس آخرا، فإن معظم الشركات العالمية الرائدة في مجال تكنولوجيا المعلومات، لها تمثيل قوي داخل الكيان الإسرائيلي، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: شركة آي. بي. إم. رائدة صناعة العتاد عالميا، وشركة «إينتل» رائدة صناعة الشرائح الإلكترونية عالميا، وشركة مايكروسوفت رائدة تطوير البرمجيات عالميا، وشركة جي تي إي من كبرى شركات الاتصالات في العالم.

1 : 5 : 2 إسرائيل كخصم ثقافي

لنستهل حديثنا عن إسرائيل كخصم ثقافي بما نشرته إحدى المجلات الأمريكية أخيرا حول خيبة أمل علماء الآثار الإسرائيليين، عندما فشلت جهود التنقيب المضنية، داخل إسرائيل وداخل سيناء والأراضي المحتلة، في العثور على أي دليل بدعم تفسيرهم لما ورد في التوارة بخصوص مزاعمهم عن دولة إسرائيل الكبرى، وهيكلهم المقدس وشعبهم المختار، وحقهم الإلهي في أرض فلسطين. الغريب في الأمر، هو ما جاء على لسان أحد هؤلاء العلماء الذي واتته الشجاعة ليعلن صراحة «أن فشلهم في العثور على دليل أثري لا يمثل كارثة بالنسبة لهم، فلم تعد إسرائيل، وقد شبت عن الطوق، في حاجة ـ على حد قوله ـ إلى سند من حفريات الآثار». ونحن نقول إن ما تفشل فيه آثار الواقع يعوضه خيال المؤرخين ومصممي مدن الملاهي. ومازال

عالقا بأذهاننا ما أثاره جناح إسرائيل من ردود فعل عربية غاضبة في حديقة الألفية لوالت ديزني، والذي عرضت فيه إسرائيل تاريخ مدينة القدس عبر العصور، بعد أن أعادت بناء هذا التاريخ بما يتفق مع مخططاتها وأحلامها بشأن مدينتنا العربية المقدسة. قصدنا بذلك أن نشير إلى المدى الذي وصلت إليه إسرائيل في استخدام سلاح الثقافة في حروبها الساخنة والباردة ضد العرب، وستزداد ضراوة استخدامها لهذه الأسلحة حربا أو سلما، أو لاسلما ولا حربا.

تقدم إسرائيل نفسها ثقافيا للعالم على أنها بلد صغير المساحة عظيم الشأن في دنيا الثقافة، ثقافة ممتدة ـ كما يزعمون ـ عبر 4000 سنة من اليهودية، 1000 سنة من الصهيونية، وخمسين عاما منذ إنشاء إسرائيل. وبينما كانت تسعى، في بداية نشأتها، إلى انصهار الثقافات المتعددة، الوافدة إليها من مواطن الشتات، في كيان إسرائيل الموحدة (مايقرب من 70 جماعة ثقافية وعرقية)، فقد انقلب الوضع حاليا، حيث تعرض نفسها عبر الإنترنت كموزاييك من التنوع الثقافي، باقة من ثقافات أصيلة جُمِّعت من البساتين الثقافية لدول الشتات. ولا يفوتهم ـ بالطبع ـ أن يؤكدوا على أن تنوعهم الثقافي وليد الشتات أبعد ما يكون عن التشتت، حيث تتناغم روافده وتتفاعل في سيمفونية الثقافة اليهودية الأم وابنتها الثقافة الصهيونية، ملمحين إلى أن صراعهم مع العرب وراء هذا الوئام الثقافي، بما يتطلبه من حشد لجميع القوى الاجتماعية. من جانب آخر، فإن ما يعطي هذا التنوع الثقافي الإسرائيلي مغزى خاصا بالنسبة لنا هو اشتماله على رافد عربي يمثله العرب سكان إسرائيل، وهو يتيح للمنظر الثقافي الإسرائيلي معملا هائلا للتجريب الأنثروبولوجي والاجتماعي المفصل علينا تفصيلا.

علاوة على ما سبق، فلدى إسرائيل مقومات أساسية أخرى تجعل منها خصما ثقافيا عنيدا، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

- تعدد اللغات داخل الكيان الإسرائيلي، ويلزم التنويه هنا إلى أهمية اللغة الروسية، حيث تعطي لإسرائيل ميزة تنافسية ثقافية ممثلة في إمكان التعامل المباشر مع الجمهوريات الإسلامية التي انفصلت عن الاتحاد السوفييتي السابق، حيث تتكلم هذه الجمهوريات اللغة الروسية كلغة أولى حتى الآن على الأقل.

- خبرة إسرائيل الطويلة ـ كما أسلفنا ـ في استخدام الأسلحة الثقافية خلال صراعها الطويل والممتد مع العرب.

- كثرة العلماء اليهود في جامعات أمريكا وأوروبا العاملين في مجال علوم الإنسانيات، كاللسانيات وعلم الاجتماع ونظرية الأدب وعلم الآثار. وكثير من رواد التنظير الثقافي الحديث من اليهود، نذكر منهم على سبيل المثال: إميل دوركايم مؤسس علم الاجتماع الحديث، ونعوم تشومسكي صاحب أكبر مدرسة في علم اللسانيات الحديث، وجاك داريدا رائد الفكر الفلسفي ما بعد البنيوي. ومعظم هؤلاء العلماء العالميين قد سموا بأنفسهم فوق الاعتبارات الدينية والقومية، ولكن ما أعنيه هنا أن الباحث الثقافي اليهودي المعاصر لا بد سيجد وسط هؤلاء المفكرين العظام من بني جلدته نوعا من القدوة والثقة بالنفس والاعتزاز، مما يشجعه على المزيد من البحث والجهد.

- ذخيرة علاقات التبادل الثقافي وجمعيات الصداقة التي أقامتها إسرائيل، من اليابان إلى البرازيل، ومن بولندا إلى جنوب أفريقيا.

وتتحرش إسرائيل بالثقافة العربية والإسلامية عبر الإنترنت، وقد نجحت في إقامة شبكة ممتدة من التحالف الثقافي والديني الرسمي وغير الرسمي لحشد العداء ضد العرب والمسلمين. وتشير دلائل عديدة إلى نية إسرائيل في استخدام تكنولوجيا المعلومات لتشويه تراثنا الثقافي البعيد والقريب، ولنأخذ المثل والعبرة مما سمعنا عنه أخيرا من قيام إسرائيل بتمصير أفلام الجنس العالمية، باستخدام أحداث أساليب المونتاج الإلكتروني الرقمي، والذي تمكنت بواسطته من إحلال صور أوجه بعض الممثلين المصريين والممثلات المصريات محل أوجه الممثلين والممثلات الأصليين. وما هي إلا مجرد بداية لهذا التزييف الرقمي الذي في طريقه لأن يصبح من أمضى أسلحة التشويه الثقافي. ولن يكون التشويه من أجل التشويه فقط، بل من أجل التسويق أيضا. فمما لا شك فيه أن الذين قاموا بتمصير أفلام الجنس قد وضعوا نصب أعينهم الإحصائيات المذهلة عن السوق الرمادية لأفلام الجنس في بعض البلدان العربية.

ولننتقل بحديثنا الآن إلى إبراز بعض ملامح سريعة للمشهد الثقافي الإسرائيلي، نبدؤه بالتعليم الذي توليه إسرائيل عناية فائقة بدءا من حضانة الأطفال حتى الدراسات ما بعد الجامعية، وتوجد على الإنترنت مواقع

عديدة لتعليم أبناء الجاليات اليهودية في مهاجرهم، تربط بين التعليم وترسيخ روح الثقافة اليهودية لدى الصغار. وقد أقامت إسرائيل بنية تحتية تقانية قومية من دور النشر والمكتبات ومراكز التوثيق والمتاحف والمعارض الثابتة والمتنقلة والمسارح وغيرها. وتأتي إسرائيل في المرتبة الثانية، بعد الدنمارك، في معدل نشر الكتب بالنسبة لعدد السكان (152). وذلك علاوة على حركة ترجمة هائلة إلى العبرية من الإنجليزية والروسية والألمانية والفرنسية والإسبانية والبولندية والعربية بالطبع، وتولي إسرائيل ـ كما أسلفنا ـ اهتماما خاصا بالترجمة الآلية. ولدى إسرائيل 120 متحفا تتم المساهمة في تمويل بعضها من «متاحف صديقة» خارج إسرائيل، ومن نيويورك على وجه الخصوص. وترتبط متاحف الداخل بشبكة المتاحف اليهودية المنتشرة في معظم العواصم الأوروبية والمدن الأمريكية. ولفن الموسيقى موقع متميز في منظومة الثقافة الإسرائيلية سواء في مجال الموسيقى الأكاديمية أو الشعبية، ولديها - أيضا - حركة مسرحية نشطة، تشمل المسرح الكلاسيكي والمعاصر والتقليدي والتجريبي. وكانت نواة هذه الحركة المسرح اليهودي الذي أنشئ في موسكو العام 1917، وتم نقله إلى فلسطين العام 1931 (250). وأما فنون الأداء الحركي الاكاديمي والشعبي فتحظى، هي الأخرى، بقسط وافر من الاهتمام في النشاط الثقافي الإسرائيلي، خاصة لارتباطها بالتراث الديني والأعياد اليهودية.

1 : 6 المثقف العربي وثقافة عصر المعلومات

1 : 6 : 1 مثقف جديد لعالم جديد

عالم مغاير يعني بداهة مثقفا جديدا. ولم تكن هذه الحقيقة البسيطة صادقة قدر ما هي عليه الآن مع قدوم عصر المعلومات، عصر صناعة الثقافة وإعادة بناء المجتمعات. وفيما يلي سيدور نقاشنا حول خمسة أسئلة حاكمة عن مثقف عصر المعلومات: دوره وقدره وسمته العام.

(أ) **السؤال الأول**: والذي ربما يختلج في نفوس البعض، خلاصته: هل ستعيد تكنولوجيا المعلومات للمثقف مجده القديم؟ بعد أن همشت تكنولوجيا الصناعة دوره حتى كاد أن يصبح المثقف ديكورا اجتماعيا: أو خادما للسلطة، أو مناضلا بسيوفه الخشبية، ينزف أحبارا وألوانا وأنغاما يودعها سجون

الأوراق واللوحات والشرائط والأقراص.

هل ستعيد له مجده القديم، أم ستحيله تكنولوجيا المعلومات وصناعة الثقافة وتسليعها إلى مثمن أو مروج، أو في أحسن الأحوال، إلى مورد للمواد الثقافية الخام ونصف المصنعة، بعد أن أصبحت مسؤولية التصنيع النهائي لمواد الثقافة مسؤولية القابضين على زمام القوى الرمزية داخل المجتمع من أباطرة مؤسسات الإعلام، وبيروقراط مؤسسات التربية والتعليم، ولنضم إليهم حراس القديم من ثيوقراط حاضرنا، الذين ما فتئوا يحصنون قلاعهم، ويوسعون نطاق سلطاتهم وتحالفاتهم مع السلطة الرسمية وغير الرسمية. ويا ليت هؤلاء الحراس القدامى يدركون الدور الحاسم للدين، الدين الحق، في منظومة مجتمع المعلومات، ليكتشفوا بأنفسهم على الفور مدى قصور معرفتهم، ومدى حاجة مؤمني أرضنا الطيبة لهداية تطهر النفوس وتحترم العقول في آن. فما أخطر أن تهدر العقول في عالم بات مصيره رهنا بنتاج العقول.

لقد اختلفت قوانين اللعب في الساحة الثقافية، بعد أن صار الأداء الكلي للمجتمع هو محصلة الخطابات التي تسري بداخله: الخطاب السياسي والاقتصادي والديني والإعلامي والتربوي والعلمي والتكنولوجي... وهلم جرا. لقد انقضّت تكنولوجيا المعلومات على الثقافة من عليين، من فضاء طبقات الأثير خلال نظم الإعلام الجماهيري الحديث، وها هي توشك أن تنقض عليها من فضاء عوالم الرمز الخائلية عبر شبكة الإنترنت، التي تتحول تدريجيا إلى وسيط إعلامي جديد ومثير وخطير. وعلى المثقف أن يواجه خياره المصيري، فإما أن يدرك ما تعنيه تكنولوجيا المعلومات له ولجماهيره، وأن يتقن استخدام أدواتها، وإلا ففناؤه لا محالة، تاركا وراءه فراغا ثقافيا أعدت له منصات هوائيات الثقافة الجماهيرية ـ أو محطاتها ـ كل ما يتطلبه سد هذا الفراغ من مضخات الملأ وإعادة الملأ.

(ب) **السؤال الثاني**: أين يكمن جوهر العلاقة بين المثقف وتكنولوجيا المعلومات..؟ وسيلتنا للوصول إلى هذا الجوهر هي: إقرارنا بأن مهمة المثقف الحقيقية هي تطبيق الفكر على الواقع من حوله، واقتراح تكتيكات عملية تعين جماهيره على التعامل مع تناقضات هذا الواقع، من أجل تحسينه أو تغييره. ولا شك في أن تكنولوجيا المعلومات يمكنها أن تكون خير عون

للمثقف للإحاطة بواقعه، واستخدام بدائل عديدة لابتكار تكتيكات جديدة. لنأخذ مثلا من الإنترنت في كونها وسيلة فعالة لكي يجدد المثقف عدته المعرفية، ويحدث رصيد مهاراته، ويشحذ قدراته التواصلية. والأهم من ذلك، في رأي الكاتب، التصدي لتشرذم نخبتنا الثقافية على مستوى الوطن العربي، من خلال إقامة الحوار عن بعد ابتغاء لم الشمل وحشد الجهود. وعلى المثقف أن يعي بوضوح تام أنه يواجه تركيبة جديدة من القوى الاجتماعية، وساحة جديدة للرأي العام. وكلها أمور تتطلب مثقفا من نوع جديد، ولا مفر من أن يستأنس مقامه في بيوت العناكيب، شبكة الإنترنت، الشبكة العنكبوتية كما تسمى أحيانا.

(ج) **السؤال الثالث:** أي نوع من المثقف تحتاج اليه أمتنا العربية في هذه الفترة الحاسمة من تاريخها...؟ هل هو:

- المثقف الناقد الراصد مناضل المقاعد الوثيرة؟ (أم)
- المثقف المناضل المشتبك مع واقعه، والمساهم في تغييره والمتحدث باسم جماعته؟ (أم)
- المثقف صانع الأيديولوجيا وحارسها وشرطيها أحيانا؟ (أم)
- مثقف أمريكا اللاتينية الذي لا يفرق بين صراعه مع قوى الداخل، وصراعه مع الجار الأمريكي المتداخل؟ (أم)
- مثقف الناصرية المتشبث بأحلام عصره الذهبي برغم إدراكه لتناقضاته؟ (أم)
- مثقف الثورة الإيرانية حامل رسالة الإمام؟ (أم)
- مثقف الفكر الإسلامي المدافع عن التراث والهوية بكل طيف مواقفه من فكر الغرب؟ (أم)
- مثقف الأكاديمية المنشغل بالقضايا النظرية والنظرة الكلية وتحليل الخطابات الاجتماعية؟

ولا تكتمل الصورة دون أن نزج بمثقف السلطة، ذلك البارع في تشويه الواقع، ووأد الأصيل والبديع والمختلف، المتمرس في مقايضة نتاج الأقلام وزرع الأوهام باحتلال المناصب واقتسام الأنصبة، واحتكار المنابر وانتزاع سلطة المعرفة، ولن نسمي، فتسميم أجواء ثقافتنا صار مفضوحا في غير حاجة إلى تسمية.

(د) السؤال الرابع: كيف الخروج من تلك المتاهة مع ندرة الدراسات العربية الجادة التي تتناول موقف مثقفنا العربي إزاء ظاهرة المعلومات، وتحديد بروفيل هذا «التكنو مثقف» كما يطلقون عليه؟ ولا سبيل أمامنا إلا الرحيل إلى ديار غيرنا عبر الإنترنت، بحثا عن علاقة المثقف بتكنولوجيا المعلومات، عسانا نجد زادا نحمله معنا في شوط إيابنا. وما إن أبحرنا حتى فاجأتنا آلات البحث في مصادر معلومات الإنترنت بعدد كبير من الوثائق التي تتناول هذه القضية شبه الغائبة عن ساحتنا الثقافية، ولا بديل أمام إفراط المعلومات هذا من أن ننتقي ونرشح ونلخص، مركزين الحديث على ثنائية مثقف الحداثة وما بعدها. تفرق هذه الثنائية بين المثقف المهموم بكبريات السياسة (الماكروبولتيك) والذي يمثل له بمثقف سارتر الناقد الملتزم، ومثقف صغريات السياسة (الميكروبولتيك) ويمثل له بمثقف ما بعد الحداثة كما عرفه ميشيل فوكو (257).

مهمة المثقف الناقد لدى سارتر هي أن يشارك في ساحة الرأي العام بكتاباته ومداخلاته، وأن يحارب القهر ويواجه الظلم أينما كان، ويسعى إلى إقامة العدل وحماية حقوق الإنسان، والقيم الإنسانية الأخرى. في إطار هذه المهمة على المثقف أن يرصد ويحلل ويعرض وينقد نطاقا عريضا من الأوضاع الاجتماعية، ويواجه القوى السياسية والاقتصادية على جبهة عريضة ممتدة. أما مثقف ما بعد الحداثة، فعلى النقيض من ذلك الناقد المناضل الملتزم؛ حيث يعيبون عليه مثاليته وعموميته ونضاله من أجل قيم مجردة، مثل الحق والحرية والاغتراب وما شابه ذلك، ويأخذون عليه ـ أيضا ـ أنه يتكلم باسم البشرية جمعاء. وفي رأيهم أن مثقف ما بعد الحداثة لابد أن يكون أكثر تواضعا وتخصصا، فتأثيره يتضح على مستوى الميكرو لا الماكرو. وعليه ـ إذن ـ أن يتناول قضايا محددة، من قبيل: وضع المرأة وأمور الأقليات ودور النقابات وشؤون البلديات والتفرقة العنصرية وما إلى ذلك. إن على مثقف ما بعد الحداثة، أن يهجر عالم «الماكروبولتيك» ليقتفي مسارات نفاذ السلطة في أرجاء منظومة المجتمع، وكيف استقرت هذه المسارات في كيان التنظيمات الميكروية والممارسات اليومية. فغاية ما يصبو إليه مثقف ما بعد الحداثة هو أن يضع أيدينا على انعكاسات القوى السياسية والاقتصادية والرمزية على منظمات اجتماعية محددة مثل

المدارس والمستشفيات والمصانع، بل السجون أيضا.

وفي رأي الكاتب أن هذا الفصل بين الماكرو والميكرو ينطوي على خطورة شديدة خاصة بالنسبة لنا، وقد انتقد كثيرون موقف مثقفي الغرب في فترة الثمانينيات التي شهدت تغيرات اجتماعية جذرية، لم يعرها هؤلاء المثقفون آذانا صاغية، فراحوا ينشغلون بهموم نظرية ولهو فكري عقيم، وما أن أفاقوا من سباتهم حتى فوجئوا بعالم مغاير تماما، بعد أن أتت التاتشرية والريجانية على الأخضر واليابس. هذا عن حال مثقفي الغرب، بشأن ثنائية الماكرو والميكرو السياسي. والموقف بالنسبة لنا حتما أكثر صعوبة وحرجا، فجل شؤوننا يصب في هذا الماكرو السياسي الذي يدور الجميع في فلكه.

(هـ) **السؤال الخامس والأخير:** كيف يجمع التكنومثقف العربي بين انشغاله مع الأصول، وضرورة رصده للفروع الخاضعة لهذه الأصول؟ حتى يمكنه الارتداد إليها مزودا بصيد ثمين من الحقائق والتناقضات وأدوات السجال ودروع التصدي. إن على التكنومثقف العربي أن يكتسب القدرة على تفكيك هيكلية القوى الاجتماعية المسيطرة وهي تعمل في إطار الممارسات التفصيلية، وأن يستمر في قيامه بمهمة الناقد المناضل، لا يتحدث باسم جماهيره بل يشاركهم حديثهم، ويكسبهم القدرة على التعبير، ويذكي فيهم روح النضال، ويخلصهم من الشعور بفقدان الثقة، ويلفت نظرهم إلى مواضع الضعف الكامنة في هياكل القوة الاجتماعية وتناقضاتها. وما من سبيل أمام المثقف لتحقيق هذه الغايات أفضل من استغلال تكنولوجيا المعلومات ليجدد وسائله وتكتيكاته، وهو الأمر الذي يفرض على نخبتنا التقانية أن تشرع من فورها في إقامة علاقة وثيقة بينها وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات، وإلا تركتها نهبا لنخبة التكنوقراط، وما عرف عن هذه النخبة من قابلية الاستقطاب، ناهيك عن قصور رؤيتهم الثقافية والاجتماعية.

ضربا من الطوبائية!!؟ لا .. ولم لا؟ ونحن في مقام توجيه الحديث إلى نخبتنا المثقفة، كي تبعث الأمل في وجدان أمتنا، ولماذا لا ننجح في مسعانا هذا؟ وقد نجح من قبلنا في استخدام تكنولوجيا المعلومات ثوار زاباتيستا جنوب المكسيك الفلاحون البسطاء، وكذلك الطلبة الصينيون المناهضون للنظام، والأمريكيون الأفارقة الذين تزداد مهارتهم يوما بعد يوم في استخدام

الإنترنت للذود عن مواقفهم ومصالحهم ضد القوى المركزية، وفئات الضغط والمصالح. ختاما نقول: فلتشمري عن ساعدك يا نخبتنا الثقافية العربية، فما أكثر التحديات وما أكثر الفرص أيضا.

1:6:2 تحديات المثقف العربي

مرة أخرى، تلوذ جماهير أمتنا العربية بنخبتها المثقفة لانتشال تلك الأمة العظيمة من كبوتها الراهنة، وهي تدرك أن حال تلك النخبة لا يقل بؤسا ـ إن لم يزد ـ عن حال جماهيرها. ولكن ليس أمامها من بديل خلا نهضة عربية شاملة تكون طليعتها تلك النخبة المثقفة والتي لا بديل أمامها هي الأخرى، إلا أن تتجاوز أزمتها الراهنة. وهو الأمر الذي يتطلب ـ أول ما يتطلب ـ أن تجمع شتات تشرذمها، حتى يمكن لها أن تحطم قيود الداخل وتصمد أمام ضغوط الخارج، وما أكثر هذه وأشد تلك. وقد رأى الكاتب أن يلخص هنا في نقاط محدودة تصوره عن التحديات الراهنة التي تواجه المثقف العربي من منظور ثقافة المعلومات، وقد رأى أن يسردها تحت ثلاثة عناوين فرعية هي:

ـ تحديات الداخل

ـ تحديات الخارج

ـ تحديات إعداد المثقف لنفسه

(أ) **تحديات الداخل**

- حشد التكتل العربي ضد محاولات الفرقة والتفرقة، سواء من الداخل أو الخارج.

- لم شمل النخبة المثقفة، وإعادة قنوات الحوار بين فئاتها المختلفة: قومية وإسلامية وعلمانية وغير ذلك، وتحاشي الانزلاق إلى القضايا الجانبية، واستثارة الحساسيات دون داع، حتى لا تغيب عن أنظارها القضايا الأساسية.

- التصدي للروح السلبية، وفقدان الثقة التي تعاني منها معظم جماهير أمتنا العربية في ظل أوضاعنا الراهنة.

- إجهاض محاولات بعض النظم لتحريم الحديث في الأمور السياسية، فكل أمورنا تمر من بوغاز السياسة.

- تفعيل قنوات التواصل بين مثقفي المشرق والمغرب، واستثمار فكر مثقفي المهجر على اختلاف توجهاتهم وتخصصاتهم، من أمثال: إدوارد سعيد وإيهاب حسن وجورج طرابيشي ومحمد أركون.

- التصدي لمظاهر إهدار العقل العربي بدءا من الأمية وانتهاء بنزيف العقول، وما بينهما من فكر الخرافة، وشبه العلمية، واللاعلمية والانتهازية الفكرية والسرقات العلمية والاستبعاد المعرفي، وهادر إنتاجنا التعليمي والبحثي.

- التخلص من الثنائيات الفكرية التي تكبل فكرنا العربي وتعوق تكتله.

- التمسك بحقها في توجيه سياسات المؤسسات الثقافية ورصد أدائها، وعلى رأسها سياسة الإعلام وسياسة التربية.

- التصدي لأزمة اللغة العربية، تنظيرا وتعليما واستخداما، والمساهمة في بلورة سياسة لغوية قومية، باعتبار اللغة هي أفضل وسائل التكتل العربي، والمدخل الطبيعي إلى إحداث النهضة الثقافية المطلوبة، علاوة على كونها من أهم مقومات تكنولوجيا المعلومات وصناعة الثقافة.

- نزع فتيل الخصومة التي يفتعلها البعض بين ديننا والعلم، وعدم إساءة فهم مفهوم عالمية الإسلام على أنها تعني الاستغناء عن فكر الآخرين، فالمقصود بالعالمية في رأي أهلها هو استيعاب فكر الآخر لا تجاهله أوتجهيله.

- الاهتمام بسواقط مجتمعنا التقليدية (الطفل والمرأة وكبار السن)، والوقوف بحسم ضد التنويعات الجديدة من طبقية عصر المعلومات.

- ترسيخ التوجه التنموي الاجتماعي لتوطين تكنولوجيا المعلومات في تربتنا العربية.

- تشجيع إقامة صناعة ثقافية عربية تقوم على ركيزة قوية من صناعة المعلومات.

- تنمية الوعي بأهمية التراث كمورد ثقافي تتنامى أهميته في عصر المعلومات، وضرورة مداومة تجديده، وإعادة قراءته وتوظيفه من منظور حاضرنا.

- العمل على إحياء الفكر الفلسفي، والتصدي لنظرة البعض المتدنية للفلسفة، بل للفكر النظري عموما، تحت وقع انبهار هذا البعض بالإنجازات العلمية والتكنولوجية.

- ويرتبط بما سبق ضرورة مساهمة نخبتنا المثقفة في الجهد العالمي الذي ما زال في بداية الذي مشواره، لتأسيس علوم الإنسانيات، وبلورة نظرية اجتماعية مغايرة تستوعب متغيرات عصر المعلومات والتكنولوجيا الحيوية.

(ب) تحديات الخارج

- تهيئة الشعوب العربية للصراع الثقافي - المعلوماتي مع الخصم الإسرائيلي.
- التوعية بسلبيات العولمة واتفاقية الجات.
- المساهمة في صياغة صورة الثقافة العربية والإسلامية على الإنترنت، وتحسين صورتها الراهنة.
- اكتساب المهارات والمقومات اللازمة لإقامة حوار متكافئ مع ثقافة الغير.
- مراجعة شاملة لنتائج الحوار الإسلامي المسيحي، وتجديد منطلقاته في ضوء تجارب العشرين سنة الماضية.

وعلينا أن نقر بأن الكنيسة المسيحية الغربية حريصة على جدية هذا الحوار، خاصة مع الرغبة المتزايدة لدى معظم رجال الدين، لتضافر الجهود عالميا ضد سلبيات العولمة وطابعها المادي الاستهلاكي. بقول آخر: فلنرجئ حاليا حديث التنصير والتبشير والأسلمة، فالعالم في حاجة اليوم إلى الأنسنة، وستظل روعة الدين في قدرته على أن يدفع بفصائل البشرية صوب هدفها المشترك، وليس كما يريد له البعض أن يجر وراءه قطعانها.

(ج) تحديات المثقف في إعداد نفسه

- التعرف على خريطة الفكر العربي الراهن وتوجهاته الرئيسية.
- التخلص ـ كما يوصي تركي الحمد (169:28) ـ من عزلته الذهنية المفاهيمية زمانا ومكانا وهي العزلة التي تنعكس سياسيا على موقفه من الأحداث ومن تقييمها.
- استيعاب الجوانب الثقافية والاجتماعية للمتغير المعلوماتي، وهو الهدف الرئيسي من بحثنا الحالي. وعليه أن يسبق مثقف الحكومة في ذلك، والذي ـ عادة ـ ماتستعين الحكومة في تأهيله بالخبراء الفنيين، وهنا نقطة ضعفه.
- تجديد عدته المعرفية، من نظرية الأدب إلى نظرية المعلومات، ومن

اقتصاد الماكرو إلى البيولوجيا الجزئية، ومن فلسفة العلم إلى الذكاء الاصطناعي وخائلية عوالم الإنترنت.

- اكتساب مهارات التواصل عبر الإنترنت وإجادة «اتيكيت» التحاور عن بعد.

الحواشي

(*1) خذ مثلا طرازات الهاتف المحمول التي تتوالى بمعدل يقاس بالأشهر.
(*2) عنوان كتاب الدكتور أحمد شوقي، عالم الوراثة المصري. ورئيس تحرير «كراسات مستقبلية»، مسعى جاد لثقافة عملية عربية جديدة.
(*3) الرقمان داخل القوسين يشير أولهما إلى رقم المرجع كما ورد في قائمة المراجع في نهاية الكتاب، ويشير ثانيهما إلى رقم الصفحة، إن كان المرجع كتابا لا مقالة حيث سيكتفى برقم مرجع المقالة دون ذكر رقم الصفحة. وقد رتبت المراجع العربية ابتداء من رقم 1، والمراجع الأجنبية ابتداء من رقم 200.
(*4) مفهوم بيردي ـ بلاس عالم الرياضيات الفرنسي ـ 1814.
(*5) من أبرز الأمثلة دعوة المفكر الفرنسي جين جاك سيرفان شريبر، في نهاية السبعينيات، لاستخدام الميكروكمبيوتر لمحو ثلاثية: الفقر والجهل والمرض، من على وجه البسيطة بتضافر عقول الغرب والموارد المادية لمجموعة دول الأوبك.
(*6) اتهمت الولايات المتحدة المكسيك باتباع أساليب صيد تهدد بانقراض الدولفين، واتخذت من ذلك ذريعة لفرض قيود على تصدير المكسيك لإنتاجها السمكي.
(*7) الشاعر: محمد إبراهيم أبو سنة.
(*8) ورد في تعقيب د. حمدي مرزوق في مؤتمر حول «الإسلام والعولمة» أنه عندما نزع ورقة الإستيكر عن أحد أطقم أسنان من صناعة سويسرا وجد مكتوبا تحتها «تل أبيب».
(*9) يقول سيد ياسين في «العولمة والطريق الثالث» ص 123 إنه دهش لراديكالية الأفكار التي طرحها كلينتون وتوني بلير في ندوة موضوعها «الطريق الثالث» عقدتها كلية الحقوق بجامعة نيويورك 1998.
(*10) كمثال هنا التشابه العمراني للمدن. فلم نعد نستطيع أن نميز بين أحياء وسط مدينة طوكيو وأحياء مانهاتن نيويورك، أو بين مطار فرانكفورت ومطار مدينة دبي.
(*11) في دراسة قام بها الكاتب كلفته إجراءها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم عن «صورة الثقافة العربية والإسلامية على الإنترنت»، رأى ضرورة أن تضمّن دراسة ـ على سبيل المقارنة ـ صورة التنظير اليهودي بصفته خصما ثقافيا ومصدرا أساسيا لتشويه صورة الثقافة العربية والإسلامية، وكانت المفاجأة في نقد وجهته للدراسة رائدة من قممنا الأكاديمية ترى أنه ليس هناك داع للتطرق لموقف الخصم الثقافي، «دع الكلاب تعوي» على حد تعبيرها، وإلى رائدتنا الأكاديمية نقول: سيظل عواء الكلاب هذا يزعجنا أشد الإزعاج!
(*12) ورد هذا التعبير في إحدى الدراسات التي صادفها الباحث إلا أن المصدر قد تاه منه، لذا يود أن يعتذر عن غفلته لصاحبها.
(*13) استعرت تعبير «التطبيع الصامت» من دراسة نادر فرجاني القيمة بعنوان «العرب في مواجهة إسرائيل: القدرات البشرية والتقانية» والتي سأحيل إليها فيما بعد.

2 منظومة تكنولوجيا المعلومات: منظور ثقافي عربي

- تكنولوجيا المعلومات: عصورها الحجرية وأفكارها الذهبية
- منظومة تكنولوجيا المعلومات
- منظومة الإنترنت: المنظور الثقافي
- الخاتمة

2: 1 تكنولوجيا المعلومات: عصورها الحجرية وأفكارها الذهبية

2: 1: 1 تاريخ وجيز لتكنولوجيا المعلومات (الطرح العام)

احتكر التكنوقراط لدينا سلطة الخطاب المعلوماتي، لتطغى المصطلحات على المفاهيم، وتتوه القضايا الثقافية في متاهة التفاصيل الفنية. ذلك هو شأننا، في الوقت الذي باتت تحتل فيه هذه المفاهيم وتلك القضايا موقعا بارزا على خريطة الفكر الغربي، وتحظى باهتمام الكثيرين من منظري الثقافة وفلاسفة العلم واللغة والأخلاق وعلماء الاجتماع واللاهوت والتربية والإعلام، وانضم إليهم أخيرا علماء البيولوجيا، ليضيفوا بعدا مثيرا للمشهد المعلوماتي: علميا وفلسفيا وتكنولوجيا. سنحاول في هذا الفصل التركيز على الأفكار المحورية لتكنولوجيا

المعلومات، وذلك كتمهيد ضروري لتناول أمور ثقافة المعلومات وليدة هذه التكنولوجيا في فصولنا القادمة، ونستهل الحديث باستعراض تاريخي وجيز لمراحل تطور تكنولوجيا المعلومات.

بعد أن نجح الإنسان في صنع آلته البخارية والكهربائية لتنوب عنه «عضليا» سعى إلى بناء آلة تخفف عنه «عقليا».

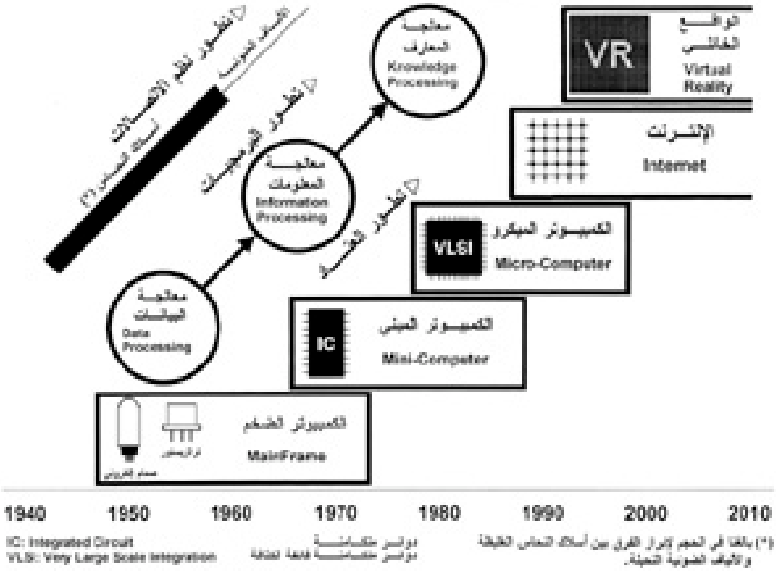
وقد شهد القرن التاسع عشر محاولات عدة لبناء آلة حاسبة، تعمل بعناصر ميكانيكية من التروس والروافع وما شابه.

إلا أن هذه المحاولات لم تكلل بالنجاح، بسبب عدم توافر الأسس العلمية، وربما أيضا بسبب هذا التناقض الجوهري بين ميكانيكية تلك العناصر وصلابتها، ورهافة المعلومات وسيولتها المتدفقة.

وما إن توافرت هذه الأسس العلمية والوسيلة التكنولوجية المناسبة لبناء تلك الآلة الحاسبة، حتى تحقق الحلم المنتظر في نهاية أربعينيات القرن العشرين، وخرج إلى الوجود الكمبيوتر الرقمي digital computer، ثمرة لالتقاء علوم الفيزياء والرياضيات المنطقية والهندسة الإلكترونية. وقد أدى ذلك بدوره إلى ثورة تكنولوجيا المعلومات، صنيعة الامتزاج الخصب لثلاثية: عتاد الكمبيوتر hardware والبرمجيات software وشبكات الاتصالات communication networks .

وعلى مدى نصف القرن المنصرم، ارتقت هذه التكنولوجيا بصورة غير مسبوقة، خلال سلسلة من النقلات النوعية لتتوالى أجيال تكنولوجيا المعلومات ويتسارع معدل ظهورها وانقراضها، حتى جاز لبعض مؤرخي هذه التكنولوجيا ذات «الخمسين ربيعا» أن يتحدث عن عصورها الحجرية وحفرياتها الرمزية، وهم يشيرون بذلك إلى الوسائط البدائية لتبادل المعلومات، مثل الكروت المثقبة وشرائط التيكرز الورقية، وعناصر العتاد العتيقة من صمامات إلكترونية وعناصر ذاكرة مغناطيسية، وكذلك إلى الأساليب المتخلفة للبرمجة الموصومة بالقطعية والخطية وعدم المرونة وافتقارها إلى الأسس المنهجية والهندسية، إضافة إلى النظم التقليدية لمعمارية عتاد الكمبيوتر، ذات الطابع المركزي المتلاحق الذي حد كثيرا من سرعة الآلة وحدة ذكائها الآلي.

يوضح الشكل (2: 1) المراحل المختلفة ـ كما لخصها الكاتب ـ لتطور



الشكل (2: 1) المراحل المختلفة لتطور تكنولوجيا المعلومات

المكونات الرئيسة الثلاثة لتكنولوجيا المعلومات السالفة الذكر (العتاد والبرمجيات والاتصالات). ولنبدأ هنا بشق العتاد، حيث تمثل النقلات النوعية من الكمبيوتر الضخم إلى الكمبيوتر الميني ثم إلى الكمبيوتر الميكرو، أبرز ملامح تطور عتاد الكمبيوتر. كان الفيصل في إحداث هذا التطور الهائل هو العنصر المادي الأساسي المستخدم في بناء ذاكرة الكمبيوتر ووحدة معالجته المركزية التي تقوم بالعمليات الحسابية والمنطقية. لقد كان اختراع الترانزيستور، أو أشباه الموصلات، في العام 1957 إيذانا ببدء رحلة مثيرة للتصغير المتناهي، أو النمنمة كما يطلق عليها البعض أحيانا، حيث قضى هذا العنصر صغير الحجم على الصمام الإلكتروني الضخم «نسبيا». وسرعان ما واجه الترانزيستور المصير نفسه بعد أن أجهزت عليه الدوائر الإلكترونية المتكاملة IC: Integrated Circuits، وهي الشرائح المصنوعة من رقائق السيلكون النقي المستخلص من الرمال، والتي يمكن تمثيلها بمصفوفة متراصة من وحدات الترانزيستور. تنقش هذه المصفوفة على الشريحة الرقيقة بطرق تكنولوجية معقدة، تشكَّل من خلالها بنية بلورات السيلكون

غير الموصلة للكهرباء. وفي ثنايا هذه البلورات، يوزع قدر محسوب من الشوائب المعدنية الموصلة كهربيا. وهكذا تكتمل ثنائية أشباه الموصلات، التي تعمل كمفاتيح كهربية، حيث تتصل وتنفصل عناصرها الترانزيستورية بإثارتها بتيار كهربي خافت. وتمضي قافلة التصغير المتناهي في خطى متسارعة، من الدوائر المتكاملة ذات الكثافة المحدودة إلى الدوائر المتكاملة ذات الكثافة العالية VLSI: Very Large Scale Integration، وهي غابة كثيفة من مفاتيح أشباه الموصلات، أو بوابات الوصل والفصل وفقا للمصطلح الفني. لقد تضاعفت كثافة هذه الشرائح السيلكونية بفعل التضاعف التكنولوجي بمعدل شبه سنوي عبر العشرين سنة الأخيرة. نتيجة لهذا التطور المذهل ـ في وحدة البناء الأساسية ـ تقلص حجم الكمبيوتر، وزادت سرعته من آلاف العمليات الحسابية في الثانية إلى سرعة «النانو ثانية»، أو بلايين العمليات في الثانية الواحدة. وبنهاية الثمانينيات أصبح كمبيوتر صغير في حجم راحة الكف يساوي ـ بل يفوق أحيانا ـ إمكانات كمبيوتر الخمسينيات الضخم. بناء على ما سبق، يمكن لنا أن نهتدي إلى الفكرة الذهبية التي قام عليها عتاد الكمبيوتر، وهي ـ بلا شك ـ ثنائية الوصل والفصل بعد أن دانت تماما لتكنولوجيا التصغير المتناهي. إن هذه الثنائية هي المقابل الفيزيائي الذي يمكن من خلاله تجسيد نظام الأعداد الثنائي القائم على ثنائية «الصفر والواحد» دون غيرهما، وهو النظام الذي اكتشفه الفيلسوف الألماني ليبنتز في القرن السابع عشر، وأخضعه من بعده للمعالجة الرياضية جورج بول الإنجليزي ـ وكان يعمل في بدايته قسيسا ـ ليصبح الأساس العام لتكنولوجيا المعلومات: عتادا وبرمجيات واتصالات. ولا شك في أن فيلسوفنا وقسيسنا هذين، ومعهما البشرية جمعاء، يدينان بالفضل إلى هذا الهندي العظيم المجهول الذي اكتشف مفهوم «الصفر»، ذلك الفاصل الجليل بين عالم الإيجاب وعالم السلب. وقد نهل من فضله أحفاده هنود اليوم، الذين تزداد «أصفار يمين» ناتجهم القومي من عوائد تكنولوجيا المعلومات!

أما فيما يخص مسار تطور البرمجيات، فقد كان الفيصل فيه هو طبيعة الاستخدامات السائدة لنظم الكمبيوتر. وكما هو معروف، فقد استخدم الكمبيوتر في «عصره الحجري» كآلة حاسبة ضخمة لمعالجة

البيانات Data Processing، واقتصرت تطبيقاته على المجالات الإدارية والتجارية، كسجلات الأفراد واستخراج قوائم المرتبات وكشوف الحسابات وخلافه. وقد تطور الكمبيوتر بعد ذلك ليصبح آلة لمعالجة المعلومات Information processing متجاوزا العمليات الحسابية البسيطة الخاصة بمعالجة البيانات الخام، ليبرز العلاقات بينها من أجل استخلاص المعلومات مصفاة في صورة كليات ومؤشرات وتحليلات إحصائية. من أمثلة تطبيقات معالجة المعلومات: نظم دعم القرار وبنوك المعلومات والخرائط العلمية والثقافية وما شابه. ومع تطور أساليب الذكاء الاصطناعي، ارتقت هذه الآلة الصماء لتصبح آلة لمعالجة المعارف Knowledge Processing. وعليه يمكن القول: إن الفكرة الذهبية وراء تطور البرمجيات هي إدراك الفروق الجوهرية بين البيانات والمعلومات من جانب، والمعلومات والمعارف من جانب آخر.

فهناك فرق كبير بين البيانات التفصيلية الخام والمعلومات الإجمالية المستخلصة الجاهزة لدعم القرارات وإجلاء التوجهات. وشتان هو الفرق بين المعلومات والمعارف، فهي ـ أي المعارف ـ تسمو فوق المعلومات باشتمالها، بجانب المعلومات، على الخبرات والقدرة على الاستنتاج، واستخلاص الحكمة من قلب ضوضاء تلك المعلومات. وهكذا خرج إلى الوجود مفهوم «هندسة المعرفة» و «نظمها الخبيرة Expert Systems» التي تحاكي الخبير البشري، كتلك المستخدمة في تشخيص الأمراض وتصحيح النصوص وتلقين العلوم. وتوالى ظهور النظم الذكية، من نظم تقرأ وتسمع وترى وتميز المسافات والأشكال، ونظم تفهم وتحلل وتحل المسائل وتبرهن النظريات وتتخذ القرارات، بل تؤلف النصوص وتولد الأشكال أيضا. ومنها إلى نظم ذكية ذات قدرة ذاتية لتطوير نفسها بنفسها، نظم تتكيف مع البيئة المحيطة، وتتعلم تلقائيا من أخطائها كما تتعلم من متغيرات ما يجري حولها. وعلى الرغم من عظمة الفكرة الذهبية للتفرقة بين البيانات والمعلومات والمعرفة، تظل الفكرة دون الاكتمال، إلا إذا نجحنا في إدراك الفروق الجوهرية بين المعرفة والحكمة، فما أكثر ما تتوافر المعرفة وتغيب الحكمة؛ أصفى رحيق يقطِّره عقل الإنسان!

أما على جبهة الاتصالات، فكانت النقلة النوعية في استخدام الألياف الضوئية النحيلة للغاية، وذات السعة الهائلة لنقل البيانات التي تفوق سعة

أسلاك النحاس الأغلظ، بعشرات، بل بمئات الآلاف من المرات. ويخطط البعض حاليا لبناء شبكات ألياف ضوئية تصل سرعة تدفق البيانات عبرها إلى بليون (بالباء) نبضة في الثانية؛ وهي السرعة التي تتيح نقل مائة ألف صفحة لدائرة معارف ـ مثلا ـ في ثانية واحدة (253). والأهم من ذلك، أنها ستتيح ضخ سلع صناعة الثقافة من إعلام مرئي وأفلام وأغان وموسيقى، والتي تحتاج ـ بحكم طبيعتها ـ إلى سرعة عالية لبثها. نستخلص مما سبق، أن الفكرة الذهبية وراء تطور شق الاتصالات تكمن في استخدام التدفق الضوئي النقي ذي السعة العالية، بدلا من التيار الكهربي محدود السعة، المعرض للتشويش والضوضاء والتنصت. مع المعدل الهائل في تبادل المعلومات الذي وفره الوسيط الضوئي، لم تعد المشكلة هي «شح المعلومات - under information» كما كانت الحال في الماضي، بل النقيض منها، ويقصد به «إفراط المعلومات over - information»، وهي مشكلة لا تقل، إن لم تزد، صعوبة عن سابقتها.

كان شق العتاد حتى الجيل الرابع من نظم الكمبيوتر والمعلومات، هو صاحب الكلمة العليا في مملكة تكنولوجيا المعلومات، في الوقت ذاته الذي كانت تعمل فيه العناصر الأساسية لتكنولوجيا المعلومات: العتاد والبرمجيات وشبكات الاتصال، بصورة شبه مستقلة عن بعضها البعض. ابتداء من الجيل الخامس، وما بعده، اندمجت هذه العناصر الثلاثة، وانتقلت السيادة من شق العتاد إلى شق البرمجيات، وأصبح من يقبض على زمام نظم البرمجيات هو الحاكم بأمره. وهكذا انزوت شركة «أي بي إم» رائدة قافلة العتاد، لتبرز شركة «ميكروسوفت» رائدة مسيرة البرمجيات، وبهذا تبوأ العنصر الذهني موقعه على قمة منظومة تكنولوجيا المعلومات مؤكدا بذلك ارتقاء الفكر عن المادة، وأهمية المعلومات كمورد تنموي يفوق في أهميته الموارد المادية، طبيعية كانت أو مالية. وبهذا ولهذا، تأهلت تكنولوجيا المعلومات للقاء الثقافة، ويا له من لقاء!

وأخيرا، حلت بنا شبكة الإنترنت تتويجا لهذا الاندماج بين مكونات العتاد والبرمجيات والاتصالات. وكغيرها من شبكات المرافق الأخرى، توارت عن الأنظار تلك المكونات المندمجة في إطارها، ليظهر للعيان ما ينقل خلال الشبكة، أي المعلومات السارية في جنباتها، التي طفت على السطح كاشفة

عن أسرارها وإشكالياتها. لقد أصبحت الإنترنت ـ بحق ـ نافذة الإنسان على عالمه الصاخب المضطرب، ووسيطه الجديد الذي يرى من خلاله واقعه ويتعامل معه، ويمارس فيه عن بعد، معظم أنشطته العملية والذهنية. فعن بعد، يسترجع المعلومات وينشرها، يشتري ويبيع، يعلم ويتعلم، يتفاوض ويتسامر، يعقد الصفقات ويقيم الصداقات، يفض المنازعات ويحشد تحالفات الوفاق والعداء. ومن خلال الشبكة أيضا ينقل حضوره دون ترحال، ليشارك الآخرين أحداثهم وأعمالهم متحررا من قيود المكان، ومطالب التواجد السافر المعلن. وقد وفرت تكنولوجيا المعلومات ساحة مثيرة لعمل الثقافة ولقاء الثقافات، وفاقا كان هذا اللقاء أم صراعا! إن الفكرة الذهبية، وراء النجاح المذهل الذي حققه الإنترنت في هذا الوقت القصير للغاية تكمن في أن التكنولوجيا لا تحقق أهدافها إلا إذا انصهرت في الكيان المجتمعي، وأصبحت متاحة لجميع الأعمار على اختلاف قدراتهم. سبيلها إلى تحقيق ذلك فتح قنوات الاتصال إلى أقصاها، وهو ما قامت به الإنترنت، هذه الشبكة الطفيلية التي سادت شبكات معلومات لا تملكها، لالشيء سوى أنها تكفلت بمهمة الربط بين الشبكات المتدرجة في إطارها. إنه بحق عصر الطفيلي يعلو فوق ما أقامه الآخرون بسد النقص وإقامة همزة الوصل.

ومن الذكاء الاصطناعي إلى العوالم الاصطناعية، حيث تسعى تكنولوجيا المعلومات حاليا من خلال ما يعرف بتكنولوجيا الواقع الخائلي Virtual Reality لبناء عوالم خائلية، وذلك من أجل محاكاة عالم الواقع، أو إقامة عوالم خيالية لا وجود لها في دنيا الواقع. إنها عوالم وهمية تولدها الأرقام والرموز، ينغمس فيها المستخدم بفعل خداع الحواس ومؤثرات التفاعل الآلية،ليمارس خبرات يصعب عليه ممارستها في عالمه الحقيقي، كأن يتدرب على« قيادة الطائرات، أو يجوب الفضاء الخارجي، أو يرحل زمنيا عبر العصور الجيولوجية يستحضر عوالمها السحيقة، باعثا حياة صناعية فيما ولى زمانه وانقرض، أو يتخذ من هذه العوالم الخائلية «حضانات معرفة» يتعلم في ظلها من خلال التجربة والخطأ دونما خوف أو قيد أو رقيب. وهكذا تطرح تكنولوجيا المعلومات على الثقافة أسئلة غير مسبوقة، فيما يخص سكنى هذه العوالم الخائلية، وصلتها بعالم الواقع، وما يترتب على ذلك من مسائل ميتافيزيقية ومعرفية وأخلاقية.

تاريخ وجيز لتكنولوجيا المعلومات (المنظور العربي)

والآن، ماذا يعنيه هذا التاريخ الوجيز المثير لتطور تكنولوجيا المعلومات بالنسبة لنا؟ يقينا، إنه ينطوي على الكثير من الدروس المستفادة، بقدر ما ينطوي على تحديات جسام علينا مواجهتها، وآفاق مرتقبة علينا أن نندفع في سبيل استغلالها. إن توالي أجيال الكمبيوتر، وتسارع إيقاعها، سلاح ذو حدين. فلكل جيل من أجيال الكمبيوتر أباطرته واقتصاداته والنوعية الخاصة لعمالته وتطبيقاته. وكما قيل عن المعلومات إنها تنبت في شقوق الاحتمالات، يمكن لنا القول إن فرصها تبرق ما بين فواصل النقلات النوعية. فمع ظهور كل جيل جديد، تلوح في الأفق فرص عدة. ونحن لا نتحدث هنا عن اليابان عندما استغلت النقلة النوعية للإلكترونيات الميكروية لتلحق بأمريكا في مجال صناعات العتاد والاتصالات، إلى الحد الذي كادت أن تصبح معه صناعة المعلومات الأمريكية رهينة لإنتاج «المسابك» اليابانية لإنتاج الشرائح الإلكترونية، ولا نتحدث أيضا عن فرنسا، التي كادت، قبل ظهور الإنترنت، أن تصبح رائدة العالم في إقامة مجتمع الاتصالات. بقول آخر، نحن لا نتحدث عن اللعب بين الكبار، بل عن لعب الصغار في ساحة الكبار، نحن نتحدث عن سنغافورة، التي جعلت من تكنولوجيا المعلومات أحد المصادر الأساسية لدخلها القومي وتنميتها الاجتماعية، وعن إسرائيل التي أمنت لنفسها موقعا حصينا على خريطة تكنولوجيا المعلومات المتقدمة ـ انظر الفقرة 1: 5: 1 من الفصل السابق، وعن الهند التي نجحت خلال فترة لا تزيد عن عشر سنوات في أن تصبح ثالثة، أو رابعة، دول العالم في صناعة البرمجيات، بل يساهم علماؤها حاليا في وضع الأسس النظرية لتكنولوجيا «البيوسيلكون» لدمج العناصر البيولوجية مع شرائح السيلكون الإلكترونية، والتي يتوقع لها الكثيرون أن تحدث ثورة عارمة في مجال صناعة الحواسيب الإلكترونية [291].

إن ملحمة تطور تكنولوجيا المعلومات، على مدى نصف القرن الأخير، لتؤكد أن بقدرة الصغير السريع القضاء على الكبير البطيء، الذي يعوق انطلاقه ثقل تنظيماته، وتصلب أفكاره، وتفضيل إدارته ـ عادة ـ نمط التطور المتدرج على النمط الثوري المندفع لمنافسة الصغير السريع. والصغير هنا لا يعني الصغير التنظيمي والاستثماري فقط، بل يعني أيضا الصغير

سنا. فصناعة المعلومات تقوم على أكتاف الشباب، إدارة وتصميما وبرمجة وتشغيلا، وتدين تكنولوجيا المعلومات بالفضل في تطورها إلى إبداع الشباب، فعلى سبيل المثال لا الحصر: كان الشباب هم مخترعي الدوائر المتكاملة، وأسلوب البرمجة الجدولية، وقنطرة جيفرسون للتوصيلية الكهربية الفائقة superconductivity ذات الأهمية القصوى في بناء السوبر كمبيوتر، ولا يمكن أن نغفل هنا تاريخ شركة ميكروسوفت، كبرى شركات البرمجيات عالميا، والتي شرع «بيل جيت» في تأسيسها حينما كان في الرابعة عشرة من عمره. فهل لنا ـ في ضوء ذلك ـ أن نستسمح شيوخنا في أن يفسحوا في الطريق أمام شبابنا، خاصة أن مجتمعاتنا العربية تصنف ضمن تلك «الرضيعة ديموغرافيا» (43٪ أقل من 14 سنة). وهنا يبرز التحدي الحقيقي أمامنا، وهو: هل يمكن أن نخلق هذه النوعية من التنظيمات وقيادتها الشابة، القادرة على ملاحقة هذا المسار المتسارع للتطور التكنولوجي ـ الثقافي؟ ولا ثورة بلا ثوار، ولا أمل لدينا إلا تلك الطيور النادرة من «ديناموهات» التغيير، التي آثرت حتى الآن ـ لأسباب عدة ـ مبدأ السلامة، أو على الأقل مبدأ «انتظر لترى»، وأين لنا مثل هذا الانتظار! إن علينا أن ندرك مدى اختلاف تكنولوجيا المعلومات عن سوابقها، ومدى خطورة أن ننظر إليها بالتالي، بصفتها مجرد مرحلة من مراحل التطور التكنولوجية سوف يسري عليها ما سرى على ما قبلها، وكما تكيفنا مع ما سبق سنتكيف بالمثل مع ما سيجيء. ويا له من موقف متخاذل وخاطئ معا. ومن وجهة نظر أخرى، ليس بقدرتنا أن نخوض بمواردنا المحدودة، وتحت ضغط الوقت الشديد، جميع مجالات التنمية المعلوماتية، ويقترح الكاتب هنا التركيز على شق البرمجيات لكونها ـ كما أوضحنا ـ الركن الركين في منظومة تكنولوجيا المعلومات، خاصة بعد أن أصبحت صناعة العتاد والاتصالات محتكرة من قبل حفنة قليلة من الشركات المتعدية الجنسية، مما يتعذر علينا الدخول في مضمارها. وفي المقابل، علينا أن نقف بحزم ضد احتكار صناعة البرمجيات التي تشير دلائل عدة إلى تحركها هي الأخرى صوب الاحتكارية، وإن استسلمنا لذلك فنتيجته ـ على المدى القريب لا البعيد ـ أن يصبح إعلامنا وتعليمنا وإبداعنا وتراثنا ولغتنا تحت رحمة «عولمة البرمجيات»، وهنا مكمن الخطر الحقيقي.

2: 1: 2 عن فضل «التصغير والرقمنة» (الطرح العام)

(أ) **تحقيق المعادلة الصعبة**: نجحت تكنولوجيا المعلومات، وربما لأول مرة، في تحقيق المعادلة الصعبة، ونعني بذلك نجاحها في أن تجمع بين الأكفأ والأعلى قدرة، وبين الأرخص والأكثر سهولة في الاستخدام. لقد ارتقت نظم المعلومات على جبهات عدة، من زيادة سرعة تنفيذ العمليات الحسابية والمنطقية، إلى زيادة سعة التخزين للوسائط الإلكترونية، ومن زيادة كفاءة ملحقات الطباعة وشاشات العرض ومولدات الصور، إلى زيادة إمكانات لغات البرمجة الراقية التي تقترب رويدا رويدا من مرونة اللغات الإنسانية وقدرتها الفائقة على التعبير. في الوقت نفسه الذي تتهاوى فيه كلفة تكنولوجيا المعلومات بصورة غير مسبوقة: كلفة الكمبيوتر وملحقاته، ومعدات الاتصال وإقامة شبكات الاتصالات، بل كلفة إطلاق الأقمار الصناعية أيضا، بعد أن دخلت الصين في حلبة المنافسة العالمية. ولم يقتصر الأمر على انخفاض كلفة اقتناء نظم الكمبيوتر والمعلومات، بل زادت سهولة استخدامها حتى أصبحت في متناول الأطفال من محدودي التعليم. وخير شاهد على ذلك، سهولة استخدام شبكة الإنترنت التي تقترب حاليا من أن تصبح في سهولة استخدام جهاز التليفزيون أو الهاتف النقال. لقد تمكنت تكنولوجيا المعلومات من تحقيق تلك المعادلة الصعبة بفضل عدد محدود مما أسميناه بـ «الأفكار الذهبية»، وتأتي على رأس هذه القائمة الذهبية، على مستوى تكنولوجيا المعلومات ككل، فكرتان أساسيتان شديدتا الصلة ببعضهما، ألا وهما «التصغير المتناهي miniaturization» و «الرقمنة digitization».

(ب) **عن فضل التصغير**: شمل التصغير كل شيء: وحدة البناء الأساسية الممثلة في شرائح السيلكون فائقة الكثافة (مائة مليون ترانزيستور في سم مربع واحد)، وسعة التخزين، حيث يمكن لقرص الليزر، قرص السي ـ دي، أن يسع ما يوازي ألف كتاب بحجم القرآن الكريم وعما قريب 10 آلاف كتاب في مثل حجمه، وطابعات في حجم علبة الكبريت، وعما قريب سوبر كمبيوتر في حجم راحة الكف، وحديقة ملاه مثل حديقة والت ديزني في مقصورة واحدة لألعاب الفيديو يمكن برمجتها بحيث تشمل جميع الألعاب ورحلات المغامرات التي تشتمل عليها الحديقة الشهيرة المقامة على آلاف الأفدنة.

لقد كان التصغير وراء سرعة انصهار تكنولوجيا المعلومات داخل كيان المجتمع، بعد أن أصبحت بفضله ذات قابلية هائلة للاندماج مع غيرها، من مركبات الفضاء إلى لعب الأطفال، ومن محطات توليد القوى الكهربية إلى منظمات دقات القلب. لقد تناثرت «منمنمات» تكنولوجيا المعلومات في كل اتجاه، وظلت تقوى وترهف في آن، حتى اخترقت جسد الإنسان وأوشكت اليوم أن تنفذ خلال جدار خلاياه، وهكذا اتسعت جبهة لقاء تكنولوجيا المعلومات مع منظومة الإنسان ومجتمعه، بعد أن أصبحت هذه التكنولوجيا قادرة على التعامل مع دخائل الجسد والمخ، علاوة على كونها عاملا أساسيا في تنمية جميع عناصر المنظومة المجتمعية: المأكل والملبس، المنتجات والأفكار، القيم والنظم، سلوك الأفراد وأداء المؤسسات والعلاقات بينهما.

(ج) **عن فضل الرقمنة**: من أهم إنجازات تكنولوجيا المعلومات إسقاط الحواجز الفاصلة بين أنساق الرموز المختلفة من نصوص وأصوات وأنغام وأشكال وصور ثابتة ومتحركة. يرجع الفضل في ذلك، إلى تكنولوجيا «الرقمنة»، التي نجحت في تحويل جميع هذه الأنساق الرمزية إلى سلاسل رقمية قوامها «الصفر والواحد»، حتى تتواءم مع نظام الأعداد الثنائي أساس عمل الكمبيوتر كما سبق وأشرنا. وتقوم الرقمنة على مفهوم بسيط مفاده: إمكان تحويل جميع أنواع المعلومات إلى مقابل رقمي، فحروف الألفباء التي تصاغ بها الكلمات والنصوص، يعبر عنها بأكواد رقمية تناظر هذه الحروف رقما بحرف، والأشكال والصور يتم مسحها إلكترونيا لتتحول إلى مجموعة هائلة من النقاط المتراصة والمتلاحقة. يمكن تمثيل كل نقطة من هذه النقاط رقميا سواء بالنسبة إلى موضعها أو لونها أو درجة هذا اللون. فبالنسبة إلى الموضع، يُعبَّر عنه بدلالة الإحداثين: السيني والصادي، كما في الهندسة التحليلية، وبالتالي تمثيله رقميا بقيمتي هذين الإحداثين. أما بالنسبة للون، فيعبَّر عنه بكود رقمي، تغطي «باليتته» جميع الألوان، وطيف ظلالها ودرجة بريقها أو لمعانها. تمثل رقمنة الطيف الموجي للأصوات والكلام والموسيقى ـ مقارنة بما ذكر ـ أكثر أمور الرقمنة تعقيدا، حيث يتسم هذا الطيف الموجي، الحامل لهذه الإشارات المسموعة، بدرجة عالية من عدم الانتظام. تتم عملية الرقمنة عن طريق أخذ عينات من هذا الطيف على فترات زمنية قصيرة، بحيث تمثل هذه العينات نمط التغير الذي

يحدث في شكل الموجة الحاملة لهذه الأصوات. تُمثل هذه العينات رقميا بالقيمة الكمية لسعة الموجة مقرونة بزمن انتقائها، وهكذا.

لقد شبه البعض ما فعلته الرقمنة في مجال أنساق الرموز بما فعلته الحرارة في صهر عناصر الفلزات في سبائك معدنية مختلفة. وهكذا خرجت إلى الوجود تكنولوجيا الوسائط المتعددة multi-media التي يمكن أن تتعامل بيسر مع تلك «السبائك الرقمية»، لا تفرق بين حرف وصوت، أو بين نص وشكل، فجميع أنساق الرموز قد استحالت فيضا متدفقا من سلاسل «الصفر والواحد»، أقصى درجات التجريد الرياضي والمنطقي. وهناك من يعتبر الرقمنة آخر صيحة في الإنتاج الرأسمالي حيث جنبته كثيرا من قيود المكان والزمان والعمالة وتوافر المواد الخام.

وكان لا بد أن تفضي الرقمنة، بطابعها النبضي المتقطع، إلى مظاهر أخرى من مظاهر التجزئة والتقطع، فكانت تجزئة بناء البرامج من وحدات برمجية صغيرة تقوم كل منها بمهمة محددة، وتشظي النصوص fragmentation في هيئة «سلخ» متفرقة، ورزمنة رسائل الاتصالات بتقطيعها في هيئة رزم من «قصاصات» رقمية متعاقبة يبعث بها متفرقة عبر مسارات الشبكة المختلفة ليعاد تجميعها لحظة استقبالها. وكما أدى «التصغير» إلى اندماج تكنولوجيا المعلومات مع خارجها، كانت «الرقمنة» وراء اندماجها الداخلي، ويقصد به ذلك الاندماج بين الكمبيوتر الرقمي، وشبكات الاتصالات الرقمية، والبرمجيات التي هي بحكم طبيعتها رقمية، فكل شيء فيها يؤول ـ في نهاية الأمر ـ إلى ثنائية «الصفر والواحد» والأهم ـ في مقامنا الحالي ـ هو اندماج أنساق الرموز الذي أشرنا إليه، وهو اندماج بعيد الأثر، يؤهل تكنولوجيا المعلومات لكي تكون الوسيلة الفعالة لتحقيق الحلم الثقافي القديم، حلم تكامل العلوم والفنون وامتزاج المعارف والخبرات، وجميعها ـ في الأساس ـ ذو أصل رمزي، فهنيئا للرمزية وفلسفتها وعلومها.

عن فضل التصغير والرقمنة (المنظور العربي)

(أ) **عن انخفاض الكلفة**: لا شك في أن انخفاض كلفة تكنولوجيا المعلومات كان عاملا حاسما في سرعة انتشارها، وإتاحتها لقاعدة كبيرة من المستخدمين. إلا أن قدرا لا يستهان به من هذه الميزة الاقتصادية يضيع

بسبب تسارع دورة الإهلاك أو التقادم غير الفني، حيث يستغنى عن المنتجات لا بسبب عدم صلاحيتها الفنية، بل لظهور طرازات أحدث وأكفأ وأرخص. وكم من مرة اقتنت دول عربية نظما للمعلومات، طاعنة في عمرها الفني، سرعان ما تقادمت مما استلزم إحلالها بالجديد، وهو الأمر الذي يتطلب تنمية قدرات عربية في مجال التقييم التكنولوجي technology assessment لتعقب مسارات التطور الفني، وتوجهاته الرئيسة، وذلك حتى لا تقع فريسة لتقلبات هذه التكنولوجيا الجامحة التي لا ترحم. من جانب آخر، فإن رخص معدات استخدام تكنولوجيا المعلومات يقابله ـ كما تشير الأرقام ــ ارتفاع كلفة بنيتها التحتية، ويكفي مثالا هنا شبكة طرق المعلومات الفائقة السرعة التي تبلغ كلفة إنشائها مئات المليارات من الدولارات، وهو مأزق اقتصادي يتطلب حلولا مبتكرة، ومشاركة في الموارد من قبل جميع الدول العربية. وليس من المستبعد أن تجد بعض الدول العربية نفسها مضطرة إلى أن توكل إلى الشركات المتعدية الجنسية مهمة إقامة هذه البنية التحتية الحيوية برمتها، من التخطيط والإنشاء حتى التشغيل والتحديث.

(ب) **عن سهولة الاستخدام:** وهي الأخرى، سلاح ذو حدين، فالتعقد ـ إن جاز القول ـ لا يفنى ولا يستحدث، فما ينتقص منه على مستوى الاستخدام، أو التعامل على مستوى السطح، يغوص إلى جوف المعدات والنظم، لتزداد بالتالي تعقدا وانغلاقا. وهكذا، تتوازى الزيادة في سهولة الاستخدام مع تفشي الصناديق السوداء، التي لايستطيع فهم أسرارها إلا من قاموا بتصنيعها. وكم من مرة استدعينا خبراء الصيانة والإصلاح الأجانب، ودفعنا لهم المبالغ الطائلة، مقابل قيامهم بأتفه الأعمال التي استعصت علينا لعدم حوزنا مفاتيح تلك الصناديق السوداء المنغلقة.

(ج) **فيما يخص الرقمنة:** تعد الرقمنة أحد المطالب الفنية الأساسية للمحافظة على تراثنا العربي، الثابت والمنقول، المكتوب والشفاهي. وستزداد أساليب الرقمنة تعقيدا وكلفة، وربما نضطر، بسبب ذلك، إلى مقايضة بعض كنوز تراثنا مقابل حصولنا على خدمات الرقمنة تلك. وعلينا أن ندرك أن كل تراث لن تتم رقمنته، سيظل بمنأى عن المعالجة المعلوماتية الآلية، ليفقد ـ بالتالي ـ قيمته تدريجيا إلى أن يندثر تماما.

2: 2 منظومة تكنولوجيا المعلومات

2: 2: 1 الإطار العام للمنظومة

يوضح الشكل (2: 2) الإطار العام لمنظومة تكنولوجيا المعلومات، ويشمل المكونات الرئيسة التالية [*1]:

- العناصر الداخلية لمنظومة تكنولوجيا المعلومات.

- شبكة العلاقات التي تربط منظومة تكنولوجيا المعلومات بما هو خارجها من تكنولوجيات، وفئات اجتماعية، ومنظومات اجتماعية، وقد اكتفينا منها هنا بمنظومتي السياسة والاقتصاد.

- عناصر البنى التحتية لمنظومة تكنولوجيا المعلومات، وسنكتفي هنا بشأنها بذكر أنها تتضمن سياسات المعلومات الوطنية والإقليمية، ومحتوى المعلومات الذي يمثل المادة الخام لصناعة المعلومات، علاوة على الموارد البشرية من مصممين ومخططين ومديرين لقواعد البيانات ومواقع خدمات الإنترنت، ومن يريد مزيدا من التفصيل يمكن له الرجوع إلى كتاب المؤلف «العرب وعصر المعلومات» (119: 13).

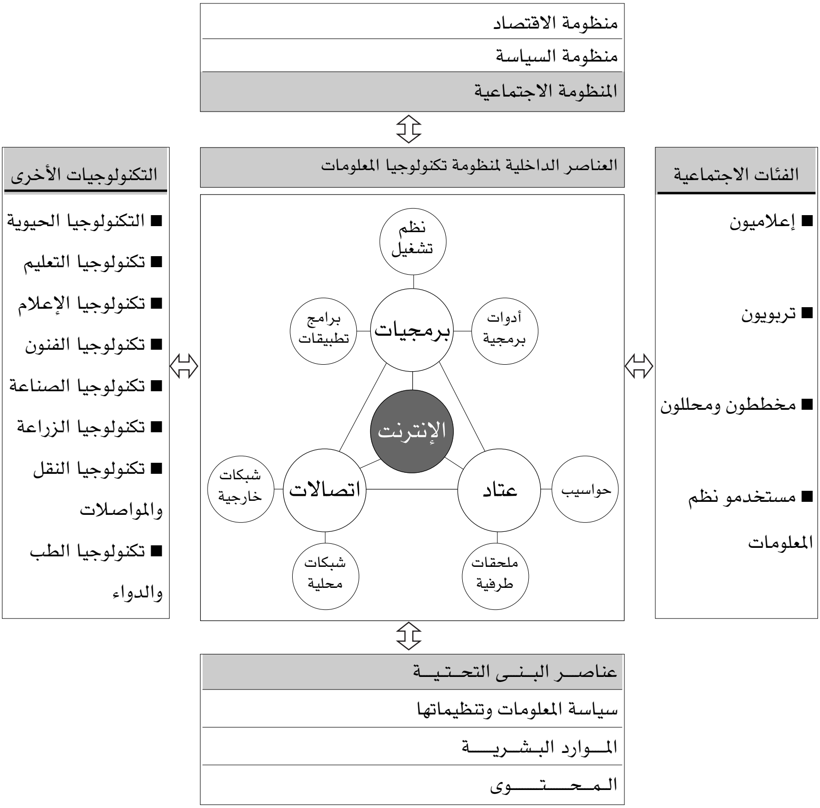
وسنتناول فيما يلي كلا من المكونين الأولين.

2: 2: 2 العناصر الداخلية لمنظومة تكنولوجيا المعلومات (الطرح العام)

كما يوضح الشكل، تمثل ثلاثية العتاد والبرمجيات والاتصالات الركيزة الأساسية للعناصر الداخلية لمنظومة تكنولوجيا المعلومات، والتي اندمجت ـ كما أشرنا سلفا وكما يوضح الشكل ـ في شبكة الإنترنت. سنحاول هنا، بإيجاز شديد، استعراض أهم توجهات هذه العناصر، في حين سنخص الإنترنت بحديث منفرد في الفقرة القادمة؛ وذلك نظرا لأهميتها في إطار الدراسة الحالية.

(أ) **عنصر العتاد**: وينقسم ـ كما يوضح الشكل ـ إلى فرعين أساسيين: الكمبيوتر، وملحقاته. يمكن تلخيص توجهات تطور شق العتاد في القائمة التالية:

- **التوجه الأول**: نحو الأصغر والأسرع والأرخص والأسهل استخداما، وقد سبق لنا تناول هذا التوجه في الفقرة السابقة.

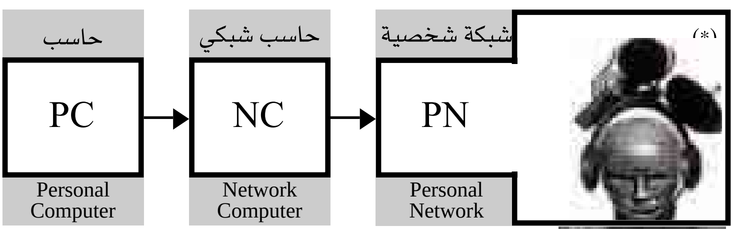


الشكل (2: 2) الإطار العام لمنظومة تكنولوجيا المعلومات

- التوجه الثاني: من المركزية والتلاحق إلى اللامركزية والتوازي. لقد ظلت معمارية الكمبيوتر أسيرة النموذج القائم على مركزية الذاكرة (ذاكرة وحيدة) ومركزية المعالجة الحسابية والمنطقية (وحدة معالجة وحيدة). ويسعى مهندسو الكمبيوتر منذ فترة إلى تخليصه من وصمة المركزية هذه، التي حدت من سرعته ومن ذكائه الآلي على حد سواء. وسيلتهم الأساسية في مسعاهم هذا هي استحداث معمارية موزعة، لامركزية، تقوم على شبكة كثيفة من عناصر المعالجة الآلية، وعناصر الذاكرة. تعمل المعمارية اللامركزية بأسلوب التوازي لا التلاحق، ويقصد بالتوازي هنا إمكان قيام الكمبيوتر بعمليات حسابية ومنطقية عدة في الوقت نفسه، وكذلك التعامل آنيا مع

مصادر عدة للبيانات: دخلا وخرجا. وهكذا تقترب معمارية الكمبيوتر خطوة أخرى نحو بنية المخ البشري، المكونة من شبكة هائلة من بلايين الخلايا العصبية المترابطة،ذروة اللامركزية والتوازي بلا منازع.

- **التوجه الثالث:** حدة التنافس بين الكمبيوترالشخصي والكمبيوتر الشبكي، حيث تدور معركة حاليا بين فريقين، أحدهما يتبنى فكرة أن يكون الحاسب الشخصي PC: Personal Computer هو أداة المستخدم للنفاذ إلى شبكة الإنترنت، ويتزعم هذا الفريق شركة «مايكروسوفت»، وفريق آخر، تتزعمه شركة «صن ميكروسيستيم»، يرى أن زمن الكمبيوتر الشخصي قد ولى إلى غير رجعة، فما يحتاج إليه المستخدم فعلا هو كمبيوتر شبكي NC: Network Computer تسم بالبساطة، بلا وحدات تخزين، أو نظم تشغيل معقدة، كمبيوتر يتعامل مع الإنترنت مباشرة باعتبارها مستودع معلوماته، يستدعي منها ـ وفقا لحاجة مستخدمه ـ ما يلزمه من بيانات وخدمات معلومات وبرامج. وهناك فريق ثالث يتوقع أن يندمج الكمبيوتر النقال والهاتف النقال وشبكات الاتصال في شبكة معلومات شخصية PN: Personal Network الشكل (2: 3) تربط الإنسان أينما كان بالشبكات المحلية والعالمية؛ لتمده بما يلبي مطالبه المتجددة، ويتفق مع أهوائه الشخصية وبروفيله المعرفي، ويبعث إليها برسائله ووثائقه، ويتصل من خلالها بمن يريد، حيثما يكون وحينما يشاء.





(*) الشكل بغرض إبراز المفهوم ولا يقصد به بالطبع أن الإنسان سيرتدي «غطاء للرأس» مثل هذا الموضح بالشكل.

امتزاج الهاتف النقال مع الحاسوب الصغير النقال مع شبكات الاتصال

الشكل (2 : 3) من الحاسوبية إلى الشبكية

الشكل (3:2) من الحاسوبية إلى الشبكية

- **التوجه الرابع:** نحو ملحقات طرفية أكثر تنوعا وكفاءة، حيث تتطلب برامج التطبيقات الحديثة بصفة عامة، والتطبيقات الثقافية على وجه الخصوص، ملحقات طرفية تتجاوز ثنائية لوحة المفاتيح والفأرة، ملحقات تتعامل مع النصوص والرسوم والصور والموسيقى والكلام، وشاشات عرض ثرية الألوان عالية التحليل لتلبية مطالب فنون التشكيل، ناهيك عن ملحقات التعامل، مع نظم الواقع الخائلي، والذي سنخصه هو الآخر بحديث منفرد في الفقرة 2: 4 من هذا الفصل.

(ب) **عنصر البرمجيات:** مصطلح الشق الذهني software، ومقابله الشائع حاليا هو البرمجيات، يعني ـ في مدلوله الواسع ـ كل ما هو ذهني، أي ما ليس ماديا. فهو لا يقتصر على برامج الكمبيوتر فقط، بل يشمل أيضا الدراسات والمخططات والتصميمات وما شابها، ويشمل كذلك ـ وهو الأهم بالنسبة لمقامنا الحالي ـ محتوى الموسيقى والأفلام والنصوص والتسجيلات المسموعة والمرئية. كما هو وارد بالشكل، تنقسم البرمجيات إلى ثلاثة فروع رئيسة:

- **برمجيات التحكم في تشغيل الكمبيوتر وشبكات الاتصالات:** وهي تناظر آلات التشغيل ووسائل الإنتاج في الصناعات التقليدية، وتشمل ـ أساسا ـ نظم التشغيل، ومثالها الشهير نظام «ويندوز»، ونظم التحكم في شبكات نقل البيانات.

- **أدوات برمجية:** وتشمل لغات البرمجة وأدوات زيادة الإنتاجية، من نظم تنسيق الكلمات، وقواعد البيانات، وبرمجيات العرض وأدوات تصميم الرسوم، وتحرير الموسيقى وخلافه.

- **البرامج التطبيقية:** وتغطي من منظور الثقافة مجالات أساسية عدة هي: الوسائط المتعددة والنشر الإلكتروني ونظم خدمات المعلومات ومعالجة اللغة العربية آليا. وسنتناول هذه المجالات التطبيقية في فصولنا القادمة.

لا يتسع المجال هنا لمناقشة توجهات البرمجيات وسنكتفي منها بتوجه واحد ذي مغزى ثقافي عميق، ونقصد به ذلك لتجميع البرامج من أجزاء برمجية سابقة التجهيز توفر من قبل موردي برمجيات التشغيل عادة، وهكذا سلبت عملية البرمجة ذات الطابع الذهني جوهر إبداعها، بعد أن أصبحت في أغلبها بمنزلة عملية تجميع لا أكثر، تماما كما تجمع الدوائر

الكهربية من المقاومات والملفات والمكثفات وما شابه.

(ج) **عنصر الاتصالات:** يتعاظم دور عنصر الاتصالات داخل منظومة تكنولوجيا المعلومات، فقد ارتقى من كونه عنصرا مكملا إلى دور الشريك الكامل، وقد حولته شبكة الإنترنت، وطريق معلوماتها الفائق السرعة، من مجرد وسيلة للاتصال إلى وسيلة لنقل منتجات صناعة الثقافة. ويمكن تلخيص أهم توجهات عنصر الاتصالات فيما يلي:

- **التوجه الأول**: رقمنة في كل اتجاه (شبكات رقمية ـ سنترالات رقمية ـ معدات اتصال رقمية ـ هواتف رقمية...) وهو ما أدى إلى توسيع نطاق الخدمات الهاتفية وتنوعها.

- **التوجه الثاني**: الانتقال من كابلات النحاس إلى الألياف الضوئية، كما سبق وأوضحنا.

التوجه الثالث: انتشار المعدات النقالة من هواتف محمولة وحواسيب جيب وكتب ومذكرات إلكترونية.

- **التوجه الرابع**: اندماج خدمات الهواتف، مع خدمات الفاكس والبريد الإلكتروني، والبحث عن المعلومات والإبحار في الإنترنت.

- **التوجه الخامس**: خصخصة مؤسسات الاتصالات الوطنية، وهي الظاهرة التي انتقلت من أمريكا عبر الباسيفيكي والأطلنطي إلى اليابان ومعظم دول أوروبا. وقد صاحب عملية الخصخصة إطلاق المنافسة بين مؤسسات الاتصالات وشركات تليفزيون الكابل، بل شركات الكمبيوتر، لتقديم قائمة الخدمات الهاتفية والمعلوماتية والإعلامية نفسها، بعد أن تداخلت هذه الخدمات بفضل الرقمنة أساسا.

العناصر الداخلية لمنظومة تكنولوجيا المعلومات (المنظور العربي)

(أ) **عنصر العتاد:** يمثل التطور في عتاد الكمبيوتر وملحقاته، أهمية خاصة لتطبيقات الثقافة العربية، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

- إمكان تطوير برامج تعليمية ذكية تتجاوز تلك للبرامج ذات الإمكانات المحدودة المتوافرة حاليا بالأسواق، والتي تستخدم ـ عادة ـ الأسئلة متعددة الخيارات وملء الفراغ وما شابه.

- إمكان استغلال السرعة الهائلة والمعالجة اللامركزية المتوازية لتطوير نظم ذكية لمعالجة اللغة العربية آليا، كالترجمة الآلية والفورية، وتحليل

مضمون النصوص، وفهم الكلام الإنساني أوتوماتيا.

- استغلال الإمكانات العديدة لعتاد الكمبيوتر وملحقاته في دعم المبدع العربي، والمحافظة على تراثنا الأدبي والموسيقي والتشكيلي، وكذلك تراثنا الحي من أغان وأناشيد وتواشيح دينية ووطنية.

(ب) **عنصر البرمجيات:** فيما يخص برمجيات التشغيل وكذلك الأدوات البرمجية، فهي محتكرة ـ حاليا ـ من قبل كبرى شركات تطوير البرامج، وعلى رأسها شركة مايكروسوفت. وقد كانت هناك محاولات لتعريب نظم التشغيل، وتنسيق الكلمات، وقواعد البيانات، إلا أن هذه الجهود قد توقفت في الوقت الراهن حيث يصعب على العالم العربي المنافسة في هذا المجال أمام المنافسة الشرسة من قبل شركة مايكروسوفت، التي تسعى ـ من أجل السيطرة على السوق العالمية ـ إلى جعل منتجاتها قادرة على التعامل مع تعدد اللغات. وما أكثر ما يتم ذلك على حساب الخصائص المميزة للغات القومية. ويزداد الموقف سوءا كلما اختلفت هذه اللغات عن اللغة الإنجليزية، كما هي الحال بالنسبة للعربية والصينية واليابانية. وفي هذا الصدد، تجدر الإشارة إلى أن نظم التشغيل تتعامل حاليا مع اللغة العربية، مثلها مثل اللغات الأخرى، على مستوى عنصر الحرف. مع زيادة تفاعل نظم التشغيل مع اللغة، وهو توجه حتمي خاصة في المجال الثقافي، لابد من أن تتعامل هذه النظم لغويا مع مستوى أعلى من الحرف. مع الكلمة العربية (أي صرفيا)، ومع الجملة العربية (أي نحويا). نظرا لأن شركة مايكروسوفت ليس لديها الإمكانات، ولا الدوافع للخوض في اللغة العربية بمثل هذا العمق، فإن هناك فرصا حقيقية، بل واجبا قوميا، لمساهمة الباحثين والمطورين والمستثمرين العرب في هذا المجال. من جهة أخرى، يرى الكاتب ضرورة تعليم صغارنا مبادئ البرمجة باللغة العربية، وذلك نظرا إلى العلاقة الوثيقة بين البرمجة والفكر من جانب، والفكر واللغة الأم من جانب آخر. وقد عُرِّبت لغات برمجة سهلة للصغار مثل لغة «اللوجو» ولغة «البيسك»، إلا أن جهود التعريب هذه قد توقفت هي الأخرى، في ظل غياب الحماس للتعريب عموما، علاوة على المفهوم الخاطئ لدى البعض أن تعليمات البرمجة تشبه المعادلات الرياضية والكيميائية، والتي تكتب ـ عادة ـ باستخدام الرموز الإنجليزية أو اللاتينية، وإن جاز هذا بالنسبة للغات البرمجة المتقدمة، فإنه

لا ينطبق على المستوى الذي نقصده هنا، وهو لغات برمجة لاستخدام الصغار.

أما بالنسبة لبرامج التطبيقات، فهناك عدد لا بأس به من شركات تطوير برامج الوسائط المتعددة والنشر الإلكتروني، ومعظمها من شركات تطوير البرامج، وعدد محدود من دور النشر التعليمي والصحافي. وهناك جهود مثمرة فيما يخص معالجة اللغة العربية آليا، أفرزت بعض تطبيقات مطروحة حاليا في الأسواق، وقد شملت بحوث الكاتب خلال العشرين عاما الأخيرة مجالات متعددة في ميدان معالجة اللغة العربية آليا: الصرف الآلي والإعراب الآلي والتشكيل التلقائي وبناء قواعد البيانات المعجمية.

أما بالنسبة لخدمات المعلومات، فأقل ما يقال عنها إنها متدنية على مستوى الوطن العربي، لضعف الموارد من جانب، وضعف الطلب على مثل هذه الخدمات من جانب آخر، وذلك إما بسبب ضعف التسويق، وإما بسبب ضمور نزعات البحث عن المعلومات لدى معظم المديرين والمهنيين العرب، وذلك لعوامل تربوية وإدارية.

ويود الكاتب في نهاية حديثه عن عنصر البرمجيات من المنظور العربي، أن يلفت النظر إلى التوجه الذي أشرنا إليه في طرحنا العام، بخصوص تجميع البرامج من أجزاء برمجية سابقة التجهيز، وهو ما أدى إلى تسهيل عملية البرمجة ـ كما أسلفنا ـ وزيادة إنتاجية المبرمجين بلا شك. ولكن علينا أن نحذر بشدة مما يعنيه بالنسبة لنا هذا التوجه، الذي يعد أحد المحاور الأساسية في إستراتيجية مايكروسوفت لاحتكار صنعة البرمجيات عالميا؛ فمن خلاله تستقطب مهارات البرمجة نحو قمة الهرم الفني، على حساب ضمور هذه المهارات للمستويات الفنية الأدنى؛ حيث تنحصر مهمة تطوير البرامج ـ كما أسلفنا ـ في عمليات التجميع البسيطة المشار إليها. وحتما سنجد أنفسنا قريبا، تحت رحمة توريد قطع الغيار البرمجية، كما حدث لنا في مجال تكنولوجيا الصناعة، وهكذا تحتكر ملكة الإبداع التي لا يدانيها في أهميتها، وعدالة توزيعها، أي فضل آخر مما أنعم الخالق به على خلقه.

(ج) **عنصر الاتصالات:** يمكن القول ـ بصورة عامة ـ إن مجال الاتصالات في العالم العربي أسرع من نمو خدمات المكتبات والمعلومات في كل البلدان

العربية باستثناء بعض الدول العربية التي مازالت دون الحد الأدنى في مجالات الاتصالات عن بعد، وهي: موريتانيا والصومال والسودان (60:323). وقامت بعض الدول العربية الأخرى، مثل دول الخليج وتونس ومصر، بتطوير شبكاتها القومية لنقل البيانات، ويأمل الكاتب أن تلتزم الدول العربية بمبدأ المشاركة في الموارد في إقامة مشاريع قومية لإقامة البنية الأساسية لطرق المعلومات الفائقة السرعة، بصورة تتفق والأهداف القومية لاستغلال تكنولوجيا المعلومات في دفع حركة التنمية، علاوة على الكلفة العالية لإقامة هذه البنية، والتي لا يقدر عليها إلا عدد قليل من الدول العربية.

2: 2: 3 علاقة منظومة تكنولوجيا المعلومات بخارجها (الطرح العام)

نظرا إلى انتشارها وانصهارها في الكيان المجتمعي، فإن علاقات منظومة تكنولوجيا المعلومات بخارجها، لا بد من دراستها بنفس درجة أهمية العناصر الداخلية لمنظومتها. ومما لا شك فيه، أن دراسة هذه العلاقات الخارجية أكثر أهمية في إطار طرحنا الثقافي.

(أ) **علاقة منظومة تكنولوجيا المعلومات بمنظومة السياسة:** تزداد العلاقة المعلوماتية ـ السياسية وثوقا بشكل مطرد، فلم تعد ـ كعهدنا بها فيما مضى ـ شاغل السياسات القطاعية كالتعليم والإعلام والصحة والصناعة والزراعة وما غير ذلك، بعد أن أصبحت تحتل موقعا بارزا في فكر القيادات السياسية للدول، بل تجاوزت ذلك لتصبح أحد البنود الأساسية في أجندة السياسات الإقليمية والعالمية.

من أبرز ملامح العلاقة المعلوماتية ـ السياسية هو مايتعلق بالديموقراطية مفهوما وممارسة، حيث يزعم الكثيرون أن الإنترنت ستفضي إلى إعادة النظر في مفهوم الديموقراطية من أساسه. لقد وفرت الإنترنت ساحة جديدة للرأي العام تسمح بظهور أشكال جديدة للممارسات الديموقراطية، سواء في عمليات اتخاذ القرارات، أو متابعة ما ينجم عنها من نتائج إيجابية أو سلبية. وعلى مستوى السياسة العالمية، فمن المتوقع أن تناصر القوى السياسية الكبرى مؤسساتها الاقتصادية، بممارسة ضغوط هائلة على منافسيها على مستوى المحافل الدولية.

(ب) عن علاقة منظومة تكنولوجيا المعلومات بالمنظومة الاقتصادية:

تبرز أهمية المعلومات اقتصاديا في ضوء تعدد الأدوار الاقتصادية لها، فالمعلومات سلعة اقتصادية، وخدمة اقتصادية، وبرامجها وبنوك بياناتها ومحتواها بمنزلة أصول اقتصادية، وذلك علاوة على كون المعلومات موردا حيويا مساندا لجميع الأنشطة الاقتصادية الأخرى. لقد أدت تكنولوجيا المعلومات وفيضها الزائد إلى زيادة فيض الإنتاج بالتالي، مما حدا البعض إلى أن يتساءل: هل أصبحت الرأسمالية الحديثة منتجة أكثر من اللازم...؟ وكما يقول محمود عبد الفضيل فإن التوسع الهائل في إمكانات الإنتاج سيصحبه تقلص فرص العمل وارتفاع معدلات البطالة بشكل دائم مما يؤدي إلى قصور الطلب ثم الركود والكساد الاقتصادي (109). هذا بصفة عامة، أما أهم ملامح العلاقة المعلوماتية ـ الاقتصادية، في رأي الكاتب، فهي:

- الاندماجات الاقتصادية الضخمة التي تتم حاليا في قطاعي المعلومات والإعلام، وما ينجم عن ذلك من خلل في توزيع فرص العمل والإنتاج والإبداع إلى حد الاحتكار.

- الأمور المتعلقة بالملكية الفكرية، وتسعير خدمات الإنترنت، خاصة فيما يتعلق بشق المحتوى، المادة الخام لصناعة المعلومات ـ انظر الفقرة 2: 3: 2 من هذا الفصل.

- التغيرات الجذرية المتوقعة في اقتصادات النشر الطباعي والسينما والترفيه.

وكعهدنا بها، لا تتوقف تكنولوجيا المعلومات عن كشف آفاق معرفية جديدة، وها هي تخرج إلينا بمفهوم اقتصادي جديد، ونقصد به «اقتصاد الانتباه والتركيز attentional economy»[320]، والذي يهدف إلى ترشيد استخدام الإنسان لحواسه البصرية والسمعية، وقدرته على التركيز، واستخدامه موارد ذاكرته القصيرة ومتوسطة المدى. لقد ظهرت أهمية هذا التوجه إزاء ظاهرة «حمل المعلومات الزائد» السابق الإشارة إليها. لقد زادت سرعة المعلومات ومعدل تدفقها، في حين ظلت حواسنا وقدراتنا الذهنية ثابتة كما هي، وهو ما يتطلب استخداما أفضل لهذه الموارد، حتى لا ينسحق الإنسان أمام إعصار المعلومات الجارف.

(ج) **علاقة تكنولوجيا المعلومات بالفئات الاجتماعية:** نظرا إلى سرعة انتشارها، يزداد تعامل الفئات الاجتماعية المختلفة مع تكنولوجيا المعلومات وعلى الرغم من هذا، يظل تعامل معظم هذه الفئات معها على المستوى السطحي، دون التغلغل في أبعادها الاجتماعية والثقافية، وتظل الغالبية العظمى من المستخدمين، أسيرة ما يتفضل به عليهم موردو البرامج الجاهزة، وما عليهم بعد ذلك إلا الضغط على المفاتيح والأزرار، والتحرك في حدود ما تتيحه قوائم الخيارات. وعلى صعيد آخر فإن أسلوب الإدارة الذي وضعه تايلور لتكنولوجيا الصناعة على أساس دراسة حركة العامل والوقت الذي يأخذه في تأدية المهام التفصيلية لم يعد ملائما لتكنولوجيا المعلومات حيث التوجه الآن حول الهندسة السيكولوجية ضمانا لإنتاجية عمالة المعلومات الكثيفة المعرفة القائمة على الإبداع.

على صعيد آخر، فإن تكنولوجيا المعلومات ستؤدي بلا شك إلى ظهور نوعيات جديدة من الوظائف، أبعد ما تكون عن تلك التي أفرزتها التكنولوجيا الصناعية، ولكنها في الوقت ذاته، ستمحو من الوجود كثيرا من الأعمال التقليدية. إن فرص العمل آخذة في النقصان يوما بعد يوم، حتى كاد العمل يصبح ـ هو الآخر ـ نوعا من الرفاهية لن تنعم بها إلا القلة القادرة.

(د) **علاقة تكنولوجيا المعلومات بالتكنولوجيات الأخرى:** أصبحت تكنولوجيا المعلومات، لكونها تكنولوجيا أساسية مغذية، مقوما أساسيا لجميع التكنولوجيات الأخرى دون استثناء، ويتزايد ـ باطراد ـ الدعم الذي تقدمه تكنولوجيا المعلومات للتكنولوجيات ذات الصلة المباشرة بقطاع الثقافة، وهي تكنولوجيات التعليم والإعلام والفنون. يشمل هذا الدعم ضمن ما يشمل: شبكات الاتصالات والوسائط المتعددة والنشر الإلكتروني والبرامج التعليمية والترفيهية، ومعالجة اللغة آليا، والبحث في النصوص والأرشفة الإلكترونية، علاوة على الأدوات البرمجية لدعم فنون التشكيل والموسيقى وغيرها من الفنون الأدائية.

من أكثر المواضع إثارة في علاقة تكنولوجيا المعلومات بالتكنولوجيات الأخرى، هي تلك التي تتوثق أوصالها حاليا مع التكنولوجيا الحيوية القائمة على علم البيولوجيا الجزيئية. فعلى ما يبدو، قد قاربت خط نهايتها رفقة تكنولوجيا المعلومات للفيزياء، بذراتها وبلورتها وشرائحها السيلكونية. إن

علم البيولوجي يكاد يحسم لمصلحته، معركته العلمية والتكنولوجية مع الفيزياء.

وبينما كان علم البيولوجي ـ فيما خلا ـ يستعير مناهجه من الفيزياء، كتفسيره للعلميات الفسيولوجية بدلالة تفاعلات الكيمياء الحيوية، وفسيولوجيا الأعصاب بدلالة الإشارات الكهربية، نشاهد اليوم بوادر التحرك في الاتجاه العكسي، حيث ينظر البعض إلى الفيزياء كحالة خاصة من البيولوجي، حالته الدنيا الخالية من الحياة lifeless biology.

إن تكنولوجيا المعلومات تتأهب للقاء البيولوجي كما يتأهب هو للقائها. فمن جانبه، يلوذ علم البيولوجيا الجزيئية الحديث بالنهج المعلوماتي ليعينه على كشف أسرار الجينات ولغتها، ونصوصها الوراثية الكامنة في كروموسومات نواة الخلية. وفي هذا الصدد، تعتبر نظرية المعلومات مدخلا أساسيا فيما يمكن أن نطلق عليه «البيولوجيا الجزيئية الرمزية». كما هو معروف، تقوم نظرية المعلومات بقياس كمية المعلومات على أساس حصرها في نطاق مقيد الاحتمالات الممكنة، حيث تزداد كمية المعلومات عكسيا مع درجة احتمالها أو توقعها، وقد رأى علماء الوراثة في ذلك التوجه الإحصائي المقيد تفسيرا أفضل لعملية التطور من ذلك التفسير على أساس نظرية دارون الكلاسيكية، القائمة على عشوائية الانتخاب الطبيعي ومبدأ البقاء للأصلح.

في المقابل، تصبو تكنولوجيا المعلومات إلى محاكاة الوظائف البيولوجية، واستخدام الآليات الوراثية، خاصة فيما يتعلق بالتكيف مع البيئة المحيطة، وهي خاصية أساسية في إكساب الآلة القدرة على التعلم ذاتيا. علاوة على ذلك - وكما سبق وذكرنا - هناك توجه لاستخدام العناصر البيولوجية الحية كوحدة أساسية لبناء كمبيوتر أكثر سرعة وذكاء ومرونة. وهكذا، ولأول مرة في تاريخ البشرية، أمكن للتكنولوجيا أن تجمع ما بين الفيزيائي المتمثل في عتاد الكمبيوتر، والذهني المتمثل في برمجياته، والبيولوجي المتمثل في استخدام العناصر البيولوجية في بناء الكمبيوتر ومحاكاة الآليات الوراثية في تطوير برامجه. حتما، لقد تأهلت تكنولوجيا المعلومات للقاء مثير مع الثقافة، للقاء مثير مع الإنسان صانع هذه الثقافة وصنيعتها، ولقاء لا يقل إثارة مع مجتمع هذا الإنسان الذي أفرز هذه الثقافة وتلك التقانة.

علاقة منظومة تكنولوجيا المعلومات بخارجها (المنظور العربي)

(أ) علاقة منظومة تكنولوجيا المعلومات بالمنظومة السياسية: لقد اكتشفت المجتمعات المتقدمة كم هي بعيدة تلك الديموقراطية السياسية الشكلية السائدة حاليا، عن تلك التي شهدتها ساحات أثينا القديمة، أوتلك التي بشرت بها حداثة التنوير. إن كانت هذه حال من سبقونا في مجال التنمية السياسية، فما بالنا نحن، وتدني مستوى الأداء الديموقراطي في معظم مجتمعاتنا العربية لا يحتاج إلى مزيد من التأكيد؟ هل لنا أن نتفاءل مع من يزعمون أن الإنترنت سوف تسقط الحلقات الوسيطة بين الحكام ومواطنيهم محققة بذلك نوعا جديدا من الديموقراطية المباشرة، التي يشارك فيها الجميع في عملية اتخاذ القرار، دون حاجة إلى تمثيل نيابي يوكل إليه هذه المهمة؟ أم هل لنا أن نقلق أشد القلق، مع من يرى في ديموقراطية الإنترنت هذه ضربا من الفوضى، سيؤدي إلى مزيد من تدخل الحكومة من أجل السيطرة على جماهيرها، خاصة أن الإنترنت توفر الوسائل العملية الفعالة لإحكام هذه السيطرة، حيث تسجل للمواطنين مواقعهم وأفعالهم لتكشف ـ بالتالي ـ عن أهوائهم السياسية والفكرية، مما يجعلهم أكثر عرضة لهذه الرقابة الإلكترونية التي لا تغفو لها عين.

(ب) علاقة منظومة تكنولوجيا المعلومات بالمنظومة الاقتصادية: تمتلئ منطقة التداخل بين منظومتي تكنولوجيا المعلومات والاقتصاد بالعديد من القضايا الساخنة بالنسبة لنا، من أبرزها:

- ارتفاع كلفة البنى التحتية، وكذلك تكنولوجيا التعليم وتكنولوجيا صناعة الثقافة، مما يحتم ضرورة المشاركة في الموارد على مستوى الوطن العربي.
- الأمور المتعلقة بالملكية الفكرية، ولكون العالم العربي مستوردا لتكنولوجيا المعلومات على نحو أكثر بكثير مما هو منتج لها، علينا أن ننظر إلى مسألة الملكية الفكرية من منظور المستورد دافع رسوم الاستخدام، لا المنتج صاحب براءة الملكية.
- نزيف العقول العربية في عمالة المعلوماتية، وما يعنيه ذلك من كلفة باهظة، مباشرة وغير مباشرة.
- التصدي لمحاولات إسرائيل لاختراق السوق العربية في مجال تكنولوجيا المعلومات والسلع الثقافية.

(ج) **علاقة تكنولوجيا المعلومات بالفئات الاجتماعية:** هناك من يقول إن الإنترنت، بإتاحتها المعلومات والمعرفة للجميع على حد سواء، سوف توفر مناخا أفضل لتحقيق العدالة الاجتماعية، وتمنح فرصا متكافئة للتعليم والتعلم، مما يضيق الهوة الفاصلة بين العالم النامي والعالم المتقدم، ويقلل من الفوارق الاجتماعية المختلفة. على النقيض من ذلك، هناك من يؤكد أن الإنترنت ستزيد من حدة الاستقطاب الاجتماعي، وستؤدي إلى ظهور نخبة جديدة تجمع بين القوة المادية لرأس المال، والقوة الرمزية المتمثلة في المعارف والمعلومات. وقد أشار أنطوان زحلان إلى أن الوظائف المتوافرة للعمال غير المهرة آخذة في الاختفاء بسرعة. وظهر من دراسة حديثة أن استثمارات الولايات المتحدة الخارجية لم تعد تجتذبها العمالة الرخيصة [93].

على صعيد آخر، مازال معظم الإعلاميين لدينا غير ملمين بالقدر الكافي بالأبعاد الاجتماعية والثقافية لتكنولوجيا المعلومات، ولم ينجح التربويون العرب إلى الآن في دمج هذه التكنولوجيا في صلب المؤسسة التعليمية العربية. علاوة على ذلك، فإن ارتفاع نسبة الأمية، والتفاوت الشديد في الدخول، يفرضان على واضعي السياسة المعلوماتية اتخاذ الإجراءات الكفيلة التي تضمن ألا تصبح تكنولوجيا المعلومات وسيلة للاستبعاد الاجتماعي.

ولنا أن نتساءل هنا أيضا إذا كانت الإنترنت ستؤدي إلى علاقة أكثر توازنا بين الرجل والمرأة لدينا؟ أم ستزيد من اختلال هذه العلاقة لمصلحة الرجل؛ بحكم كونه أكثر نفاذا لشبكة الإنترنت؟ في الوقت ذاته، لا يمكن إغفال ما تتيحه هذه الشبكة من فرص لتنمية المرأة العربية في منزلها.

2: 3 منظومة الإنترنت: المنظور الثقافي

2: 3: 1 عن ظاهرة الإنترنت (الطرح العام)

(أ) **الإنترنت أو شبكة الشبكات:** تحدث كثيرون، مفكرون وإعلاميون وفنيون، عن الإنترنت ذلك «المأموث» الشبكي الكوكبي، ذي الفضاء المعلوماتي المتناهي الضخامة، الدائم الامتداد والانتشار، والذي يقدر عدد رواده بـ800 مليون نسمة بحلول العام 2004. إنها تلك الغابة الكثيفة من مراكز تبادل المعلومات التي تختزن وتستقبل وتبث جميع أنواع المعلومات في شتى

فروع المعرفة وفي جوانب الحياة كافة، من قضايا الفلسفة وأمور العقيدة إلى أحداث الرياضة ومعاملات التجارة، ومن مؤسسات غزو الفضاء وصناعة السلاح إلى معارض الفن ونوادي تذوق الموسيقى، ومن الهندسة الوراثية إلى الحرف اليدوية، ومن البريد الإلكتروني إلى البث الإعلامي، ومن المؤتمرات العلمية إلى مقاهي الدردشة وحلقات السمر عن بعد، ومن صفقات بورصة نيويورك إلى مآسي المجاعات والأوبئة في أرجاء القارة السوداء.

إن الإنترنت، بلا منازع، هي شبكة الشبكات أو «الشبكة الأم» التي طوت في جوفها مئات الآلاف من شبكات تبادل المعلومات، سواء كانت عالمية أو إقليمية أو محلية، وعلى الرغم من كل هذه الضخامة، وتلك السطوة لا يمكننا تجاهل حقيقة أن شبكة الإنترنت ـ كما أسلفنا ـ هي في جوهرها كيان طفيلي، فهي تطفو فوق موارد مادية وغير مادية من شبكات ومعدات وبرامج وقواعد بيانات ليست ملكا لها بل ملكا لغيرها (97 : 24)، فقد أقامت شبكة الإنترنت مجدها على نجاحها في وضع بروتوكول بسيط وموحد التزمت به جميع الشبكات التي تريد الانضمام إلى عضوية الشبكة الأم، ضمانا لتدفق المعلومات فيما بينها، بالإضافة إلى استحداث وسائل مبتكرة من أجل سهولة التنقل ما بين مراكز خدمات المعلومات وما بين وثائقها، وانسياب مرور البيانات عبر الشبكات بما يضمن أقصى استغلال لموارد هذه الشبكات، التي ظلت مهدرة فيما مضى.

(ب) **الإنترنت كساحة ثقافية:** على الرغم من انتشارها الهائل، وتعدد استخداماتها، مازالت الإنترنت في مهدها. ومع عمرها القصير، باتت تشكو من الاختناقات، وفوضى المعلومات وتلوثها وأزمة قمامتها. وتتوالى على أسماعنا أنباء حول قرب ظهور جيلها الثاني، الذي سيفوق جيلها الأول بقدر كبير، سواء من حيث السرعة أو الإمكانات الفنية، حيث سيوفر مسارات أوسع بكثير لتدفق المعلومات، وذلك باستخدام الألياف الضوئية ذات السعة الهائلة، والتي سبقت الإشارة إليها. بفضل هذه السرعة الهائلة لإرسال البيانات، يمكن للإنترنت نقل الأفلام ورسائل الإعلام الحية وصور الفيديو، فيض متدفق من المعلومات ينقل إلى الفرد أينما كان نبض الحياة اليومية في أي بقعة من العالم، أو ينقل حضور هذا الفرد ذاته حيثما يريد، ليشارك في اللقاءات، ويستمع إلى المحاضرات وما شابه. إنه فضاء رمزي جديد،

يطلقون عليه مجازيا «فضاء السيبر cyberspace». ونحن نفضل هنا مصطلح «فضاء المعلومات» أو «الفضاء الرمزي». إنه فضاء تقطنه الجماعات، وتقام فيه المؤسسات، وتمارس فيه الصفقات، وتعقد فيه التحالفات، وتحاك المؤامرات، بل ترتكب من خلاله أيضا جرائم المافيا، وسرقات الأموال والأفكار والمعلومات. وهكذا أصبحت الإنترنت ـ كما قلنا ـ نافذة الإنسان، يواجه من خلالها العالم على اتساعه، بحيويته المتدفقة، ودينامياته الهادرة، وإشكالياته المتجددة المتشابكة والمتراكمة، إن شبكة الشبكات هذه تعيد صياغة العلاقة بين الإنسان وعالمه، بين الفرد ومجتمعه، بين ثقافة المجتمع وثقافات غيره. لقد أصبحت الإنترنت ـ بكل المقاييس ـ ساحة ثقافية ساخنة، ووسيطا إعلاميا جديدا، ومجالا للرأي العام مغايرا تماما لما سبقه.

(ج) **حيرة المجاز**: لقد حارت اللغة إزاء ظاهرة الإنترنت الفريدة غير المسبوقة، ولا بديل أمام اللغة، بعد أن عجز معجمها ومصطلحه، سوى اللجوء إلى المجاز. وقد رأى الكاتب أن يورد هنا بعضا من أمثلة هذا المجاز ، أولا: لمغزاها المباشر بالنسبة لطرحنا الثقافي الحالي، وثانيا: لتأكيد مفهوم «ألعاب اللغة» الذي ستتضح لنا أهميته كلما أوغلنا في حديثنا عن ثقافة عصر المعلومات.

لقد تعددت الاستعارات المجازية في وصف هذه الشبكة الديناصورية، من مجاز المكان، إلى مجاز الحشرات، إلى مجاز الكوارث. كل منها يرى فيها وجها من أوجهها المتعددة، فمجاز المكان يراها مواقع لخدمات المعلومات، وطرقا سريعة لنقل رسائلها، وبوابات ومنافذ للولوج إليها، ومحلات وبوتيكات وساحات عامة ومدنا خائلية، وما مثل ذلك من طوبوغرافيا القرية الإلكترونية. ولا يكتمل المشهد المكاني دون إضافة مصطلحات من قبيل معابر المعلومات وأزقتها وملاجئها ومخابئها وأحيائها الأرستقراطية (نوادي المعلومات الخاصة) ومناطقها العشوائية. إن مجاز المكان (أو الطوبوغرافيا) يرى الإنترنت ـ تارة ـ فضاء رمزيا خائليا موازيا لفضاء عالم الواقع، وتارة أخرى، طريقا فائق السرعة لنقل بضاعة صناعة الثقافة.

أما مجاز الحشرات فقد حظي بموضع الصدارة في وصف شبكة الإنترنت، وما يجري على جبهتها، فكانت استعارة «بيت العنكبوت Web»، تشبيها للشبكة بهذا النسيج البالغ الرهافة، المكون من مسارات المعلومات

التي تقطعها طولا وعرضا، وغابة حلقات الربط التي تصل بين مواقعها ووثائقها وناشريها ومطوريها ومستخدميها، متاهة هائلة من مسالك التشعب وعلاقات الاندماج المتطايرة المتجددة، بلايين من خطوط الاتصال في رهافة خيوط العنكبوت، قد غزلت هذا النسيج الرمزي الذي لا تُعرف له بداية أو نهاية. ولم يقتصر مجاز الحشرات على «العناكب» بل توسع ليشمل «النمل» أيضا، حيث يشبهون قوافل الروبوتات المعرفية knowbots بـ «مملكة النمل»، وهي روبوتات برمجية، تجوب الشبكة ذهابا وإيابا، تنقل المعلومات وتتبادلها فيما بينها، وتوزعها وتحورها وتوظفها، وللحديث بقية في الفقرة القادمة.

وإزاء ظاهرة كونية بحجم وخطورة الإنترنت، تتباين فيها الآراء إلى حد التناقض، كان لا بد لاستعارة «الكوارث» أن تساهم هي الأخرى في مجاز المصطلح الرمزي، لتضيف إلى قائمته عبارات من قبيل: «إعصار المعلومات» و«زلزال البيانات» و«انفجار المعرفة» و«الفناء الرقمي» و«الداروينية الاجتماعية» و «الداروينية اللغوية»، وذلك علاوة على ما يرتبط بذلك من «قائمة الهلاك» التي أوردناها في حديث النهايات، في الفقرة ١:١:١ من الفصل السابق.

عن ظاهرة الإنترنت (المنظور العربي)

لا تفوق جسامة التحديات العلمية والتكنولوجية التي يواجهها عالمنا العربي إزاء ظاهرة الإنترنت، إلا تلك التحديات الاجتماعية والثقافية المصاحبة لها، ولا تفوق هذه وتلك، إلا الفرص العديدة التي تتيحها للإسراع من حركة التنمية العربية. لقد أوضحنا في مواضع عدة كيف أثبتت أفكار المبدعين أنها بأهمية الموارد الأخرى من أموال الاستثمار والموارد المادية الطبيعية وغير الطبيعية، ولكي تأخذ زمرة الإبداع العربي أهبتها لمعركتها الراهنة على جبهة الإنترنت، عليها ألا تمل اعتلاء أرجوحة التفاؤل والتشاؤم، فذلك قدرها وسر عظمتها. لقد تأرجح الرأي في شأن الإنترنت بين حديث النعم وحديث النقم، ومنه نستل بعضا من تأرجحاته ذات المغزى لواقعنا العربي:

- ديموقراطية أم مزيد من سيطرة الحكومات
- عدالة اجتماعية أم استقطاب اجتماعي

- ألفة جماعات الإنترنت أم غربة عن الواقع
- حوار ثقافات أم صراع حضارات
- معلومات أكثر أم معرفة أقل
- إبداع الجديد أم اجترار القديم
- بيروقراطية غاربة أم معلوقراطية بازغة
- عمالة أكثر أم بطالة أكثر

وسنتطرق لهذه القضايا في مواضع متفرقة من هذا الفصل والفصول القادمة.

2 : 3 : 2 التوجهات الرئيسية للإنترنت (الطرح العام والمنظور العربي معا)

نظرا إلى التطور السريع لشبكة الإنترنت، فسبيلنا إلى استيعاب الظاهرة هو تعقب توجهاتها المحورية، من المنظور الثقافي - المعلوماتي، والتي من أهمها من وجهة نظر الكاتب:

(أ) من المنتدى العلمي إلى سوق التجارة الإلكترونية
(ب) من تبادل البحوث إلى تسليع الثقافة
(ج) نحو مزيد من الاندماج صوب الاحتكار
(د) من النصوص إلى التناص، ومن الخطية إلى التشعب
(هـ) من الإستاتي إلى الدينامي
(و) من الباحث البشري إلى الوكيل الآلي
(ز) من الواقعي إلى الخائلي

سنتناول فيما يلي كلا من هذه التوجهات المحورية باختصار، وقد رأينا تسهيلا على القراء أن يأتي الطرح العام لكل من هذه التوجهات متبوعا بمنظور العربي مباشرة.

(أ) **من المنتدى العلمي إلى سوق التجارة الإلكترونية:** كانت الإنترنت ـ في بداية نشأتها ـ بمنزلة المنتدى العلمي للربط بين المؤسسات الأكاديمية كالجامعات ومراكز البحوث. وقد وقف مؤسسوها الأوائل موقفا حازما ضد أي نشاط تجاري أو تسلل إعلاني أو إعلامي. ولم يقدر لهذه «الطهارة المعلوماتية» أن تستمر، فسرعان ما أدركت القوى الاقتصادية التقليدية

المزايا العديدة لهذه الشبكة، يكفينا منها هنا قدرتها الفائقة على ربط مصادر الإنتاج بمنابع الطلب، وكونها وسيلة فعالة لنقل بضائع صناعة الثقافة، عبر طرق معلوماتها الفائقة السرعة. وكان ما كان، ووطئت مؤسسات المال والتجارة والإعلام بأقدامها الثقيلة هذا «الحرم الأكاديمي»، محيلة إياه إلى متجر إلكتروني، وبوق إعلاني، ومنافذ للتوزيع، وساحة لبحوث التسويق.

المنظور العربي: لقد سيطرت التجارة الإلكترونية على الإنترنت، وأصبحت بنيتها الأساسية رهنا بما يقدمه تجارها من دعم في صورة إعلانات مباشرة وغير مباشرة. ومن المعروف أن من يقبض على زمام البنية التحتية للشبكة سيكون هو المسيطر على ما يجري فوقها، سواء من حيث نوعية خدمات المعلومات أو نظم تسعيرها. وعلينا ـ بالتالي ـ أن نطرح جانبا تلك الوعود المسرفة، رافعة شعار «المعلومات كالماء والهواء، وهي حق للجميع». في الوقت نفسه، علينا ألا نرضخ إلى استقطاب الشبكة نحو أمور التجارة الإلكترونية، أو اعتبارها مجرد مقهى للدردشة وساع للبريد الإلكتروني، وأن نتمسك بمهمتها الأصلية في توفير موارد المعلومات اللازمة للإسراع من عملية التنمية الشاملة والمستدامة في وطننا العربي.

(ب) من تبادل البحوث إلى تسليع الثقافة: تسعى المؤسسات الاقتصادية إلى إكساب المنتج الثقافي والإبداعي طابع السلعة التجارية، وبالتالي إلى إعادة تشكيل المؤسسات الثقافية في القالب النمطي للتصنيع والتنظيم الاقتصادي، والذي يعد الفيصل فيه ميزان المكسب والخسارة، فهو لا يعرف بدوره إلا القيم العينية قصيرة المدى ولا تعنيه ـ من قريب أو بعيد ـ القيم غير العينية، ولا الخسائر الاجتماعية طويلة الأجل، وما أكثر هذه واحتمال تلك في اقتصاد عصر المعلومات.

المنظور العربي: كما هو معروف تقوم صناعة الثقافة على ثلاثة مقومات رئيسية هي: المحتوى content الذي يمثل مواد التصنيع المعلوماتي ومعالجة المعلومات التي تمثل أدوات الإنتاج، وشبكات الاتصالات التي تمثل قنوات التوزيع. وفي هذا الإطار، علينا أن نضع نصب أعيننا أن أهم مقوم في تلك الثلاثية هو ذلك الخاص بالمحتوى، والذي يعني في حالتنا موارد تراثنا الرمزي، من نصوص وموسيقى وأفلام وقواعد بيانات، وكذلك الطاقات

الإبداعية الخلاقة القادرة على إبداع المحتوى الجديد. ولإبراز أهمية عنصر المحتوى نورد في الجدول (2: 1) مدى مساهمته في إجمالي الدخل لصناعة المعلومات في كل من الولايات المتحدة ومجموعة دول السوق الأوروبية المشتركة، وذلك كما أورده تقرير اليونسكو السنوي عن المعلومات العام 1988 (323: 276).

الجدول (2: 1) حجم صناعة المعلومات في أوروبا والولايات المتحدة (وفقا لأرقام 1994 بوحدة المليار دولار)

قطاع صناعة المعلومات	المجموعة الأوروبية	الولايات المتحدة
محتوى المعلومات	186 (34٪)	255 (45٪)
توزيع المعلومات	165 (30٪)	160 (28٪)
معالجة المعلومات	193 (36٪)	151 (27٪)
المجموع الكلي	544	566

وكما تشير الأرقام فإن نجاح صناعة الثقافة يتوقف ـ في المقام الأول ـ على التحكم في مصادر اقتناء المحتوى، خاصة فيما يخص التراث الذي عادة ما ينظرون إليه كمورد عالمي مشاع. تسعى الولايات المتحدة ومؤسساتها الإعلامية العملاقة حاليا بجميع السبل إلى إحكام قبضتها على موارد المحتوى، بصفتها المادة الخام لصناعة الثقافة، تمهيدا لوضع قيود مجحفة على حقوق النشر وحقوق الملكية الفكرية. وهكذا يضيق الخناق على غيرها وبخاصة الدول النامية، لتحرم من الدخول في مضمار التصنيع الثقافي، الذي يعتبرونه صنعة العالم المتقدم، ووسيلتهم لزيادة فرص العمل لديهم على حساب تصدير البطالة إلى شعوب العالم الثالث، وتجدر الإشارة إلى أن هناك حاليا محاولات من قبل مؤسسات عالمية لشراء التراث الفني العربي من أفلام وأغان وموسيقى. هذا فيما يخص الموارد الثقافية والتراثية القائمة بالفعل، أما فيما يخص إنتاج محتوى جديد، فيكفي أن نشير هنا، إلى الضمور الشديد الذي نعاني منه حاليا في مجال الإنتاج التليفزيوني والسينمائي، ناهيك عن إنتاج مواد الصحافة التي نستورد معظمها من وكالات الأنباء الأجنبية.

(ج) **نحو مزيد من الاندماج صوب الاحتكار:** نظرا لشدة المنافسة في مجال صناعة الثقافة التي تزداد ضراوة يوما بعد يوم، تشهد الساحة المعلوماتية هذه الأيام حركة محمومة لاندماج الأعمال والتكامل الرأسي ما بين شركات البرمجيات وخدمات الإنترنت، وشركات إمداد المحتوى من دور نشر وإنتاج موسيقي وسينمائي، وكذلك مع شركات التوزيع وخدمات المعلومات كشركات الاتصالات وفيديو الكابل. وكعهدنا به لابد لهذا الاندماج أن يجر وراءه توأمه، ونعني به ذلك الاحتكار الذي ظننا يوما أنه لن يطول أمور الثقافة بخصوصيتها وإبداعها، وها هي الإحصاءات تكشف لنا عن وجهه البغيض، حيث تشير بيانات استخدام الإنترنت إلى أن ما يقرب من 100 موقع فقط تستحوذ على 80٪ من حجم الطلب (عدد الزوار)، في حين توزع نسبة الـ 20٪ المتبقية على ملايين المواقع الأخرى.

المنظور العربي: لا بديل لتكامل معلوماتي إعلامي عربي، يقوم على حشد الإمكانات والمشاركة في الموارد المعلوماتية، من أجل مواجهة التكتلات العملاقة، والتصدي للنزعة الاحتكارية، خاصة في مجال صناعة البرمجيات. ومن المعروف أن من أمضى أسلحة الاحتكار في المجال التكنولوجي هو سلاح التوحيد القياسي، وهو غالبا ما يتم عن طريق فرض المعايير القياسية بحكم الأمر الواقع de - facto standards من قبل الشركات المهيمنة على الأسواق. وما أكثر هذه المعايير في شبكة الإنترنت، خاصة تلك المتعلقة ببروتوكولات تبادل المعلومات، ومواصفات تسجيل البيانات من نصوص وموسيقى وأشكال وفيديو. وهو الأمر الذي يستلزم مداومة رصد التوجهات الفنية، واتباع أقصى درجات الحرص في اقتناء موارد المعلومات، علاوة على ضرورة اتباع أساليب مرنة في التخطيط والتصميم لضمان الانتقال السلس مع تغير المواصفات القياسية.

(د) **من النصوص إلى التناص، ومن الخطية إلى التشعب:** أتاحت تكنولوجيا معالجة النصوص آليا أدوات فعالة للحرث طولا وعرضا في متن النصوص، وتحليل مضمونها، واستظهار ما يستتر في ثنايا سطورها، من معان وإيحاءات وعلاقات تربط بين ألفاظها وجملها وفقراتها. وهكذاحررت النصوص من قبضة تلك الخطية linearity الصارمة التي فرضها عليها جمود الورق وثبوت الطباعة؛ فليست النصوص كما تبدو - في ظاهرها -

تلك السلاسل المتعاقبة من الحروف والكلمات والجمل والفقرات، بل هي ـ في جوهرها ـ شبكة كثيفة من العلاقات المنطقية والتركيبية والموضوعية. وهي العلاقات التي تتجلى في صور مختلفة من القرائن اللغوية، معجمية وصرفية وتركيبية ونحوية ودلالية ومقامية. حتى يمكننا تتبع مسارات هذه الشبكة من العلاقات، استحدثت تكنولوجيا معالجة النصوص ما يعرف بتكنيك «حلقات التشعب النصي hypertext». لقد قضى هذا التكنيك على خطية السرد النصي. حيث يمكن من خلاله الربط بين أي موضع وآخر داخل النص أو الوثيقة. فعلى سبيل المثال، يمكن أن نربط بين كلمة «خطية» التي تكرر ذكرها في بداية هذه الفقرة وفي وسطها وبالقرب من نهايتها. وذلك كمثال لعلاقة التطابق اللفظي، وأن نربط بين كلمات «الخطية» و«المتعاقبة» و«السلاسل» الواردة في مواقع متناثرة من الفقرة ذاتها، وذلك كمثال لعلاقة الترابط بين الكلمات على أساس تقارب المعنى، ويمكن كذلك أن نربط بين صفة «التقنية» في بداية الفقرة وكلمة «تكنولوجيا» في وسطها، كمثال لعلاقات الترادف المعجمي. بالإضافة إلى كشف مسارات التشعب داخل النص المفرد، هناك وسائل آلية لربط النص بخارجه، أو ما يعرف بعملية «التناص inter-textualiy»، وقد وسعت تكنولوجيا الوسائط المتعددة من مفهوم التناص، الذي لم يعد مقصورا على الربط بين وثائق النصوص، بل بينها وبين الوثائق الإلكترونية الأخرى، من أشكال وأصوات وصور ثابتة ومتحركة، وما إلى ذلك.

المنظور العربي: هل يخفى على أحد كون معظم نصوصنا ووثائقنا شرانق منغلقة على نفسها، طرقا مسدودة مقطوعة الصلة بخارجها، ويتضح ذلك، بشكل سافر، عند مقارنة نصوصنا الثقافية بغيرها عبر الإنترنت، فما أندر ما بها من حلقات التشعب ومسارات التناص. لقد نقلنا غفل خطية السرد المطبوع إلى شبكة الإنترنت، وهو ما يتناقض جوهريا مع طبيعتها، المصممة أصلا للإبحار غير المحدود والتسكع الحر. إن هذا الانغلاق النصي يؤدي إلى انعزالية وثائقنا الإلكترونية، وسرعة اندثارها، وضعف فاعلية مواقعنا العربية. يرجع غياب علاقات التشعب والتناص إلى أسباب عدة من أهمها: قصور خدمات المعلومات، ونقص الدراسات عبر التخصصية، والدراسات المقارنة، إضافة إلى حواجز الاستبعاد المعرفي تحت دعوى التصدي للتغريب

أو تفردنا الثقافي والحضاري. ولا يمكن أن نغفل هنا ما نعانيه من نقص في نظم فهرسة النصوص آليا، ويقصد بها تلك المستخدمة في اختزال النصوص إلى الكلمات المفتاحية، والمفاهيم الأساسية الكاشفة عن مضمونها، والتي يربط من خلالها ـ عادة ـ بين الوثائق المختلفة. لقد أصبحت الفهرسة الآلية وسيلة لا غنى عنها بعد أن أصبح من المتعذر الاعتماد على وسائل الفهرسة اليدوية، نظرا إلى التضخم الهائل في معدل إنتاج الوثائق.

(هـ) **من الإستاتي إلى الدينامي:** في البداية، كان تبادل المعلومات عبر الإنترنت من خلال تبادل الملفات والوثائق ذات الطابع الإستاتي، أو للعرض فقط، إن جاز القول. مع ارتقاء الشبكة فنيا، ساد الطابع التفاعلي المتمثل في حلقات النقاش وعقد المؤتمرات عن بعد، وذلك علاوة على إمكان تفاعل المتلقي ديناميا مع المادة المعروضة على الشاشة، حيث لم تعد الوثائق الإلكترونية مقصورة على النصوص والأشكال الثابتة، بل يمكن أن تشمل أيضا عناصر برمجية تسمح للمتلقي بالتفاعل معها: أخذا وعطاء.

المنظور العربي: شتان الفرق بين برودة وجمود التلقي السلبي، حرارة وحيوية التفاعل الإيجابي، لذا فإن الغلبة في النهاية ستكون لصاحب الرسالة الثقافية التي تتسم بالتفاعل، وتحث على المشاركة الجماعية، وتشكل ديناميا وفقا لرجع الصدى الذي يعكس مطالب المتلقين وأهواءهم. بناء على ذلك، لم يعد كافيا، في نقل رسالتنا الثقافية عبر الإنترنت، أن يقتصر الجهد على عرض الجوانب المختلفة لمادتها، بل يجب علينا مراعاة جاذبية تصميمها، ومداومة تحديث مضمونها، وأن نراعي كذلك كيف يتلقى المستقبل هذه الرسائل، وكيف يستوعبها، وكيف يدمجها في روتين حياته اليومية وممارساته العملية.

(و) **من الباحث البشري إلى الوكيل الآلي الذكي:** لقد فتحت الإنترنت بوابات الفيضان المعلوماتي على مصاريعها، لتصبح مشكلة الإفراط المعلوماتي ـ كما أشرنا سلفا ـ من أخطر المشاكل التي نواجهها حاليا. وأصبح في حكم المؤكد استحالة التعويل على الوسائل البشرية وحدها لمسح الشبكة دوريا بحثا عن المعلومات المطلوبة، وكان لا بد من أتمتة هذه العملية، وذلك باللجوء إلى ما يسمى بالروبوت المعرفي knowbot، أو البرمجي softbot، بصفته

«وكيلا آليا» يحال إليه القيام بهذه المهام الروتينية الشاقة. إن الروبوت المعرفي هو «شغال» الإنترنت، المطيع الدؤوب الدائم التجوال بين أرجاء الشبكة لتنفيذ المهام الموكلة إليه. والوكيل الآلي ليس بالروبوت الغشيم بل له نصيب من الذكاء الاصطناعي يمنحه القدرة على التحليل والاستنتاج والتوقع، وله أيضا استقلاليته في اتخاذ القرارات وفقا للسلطات المخولة إليه، وإقامة الحوار مع زملاء عشيرته ليعملوا كفريق عمل متكامل أقرب ما يكون إلى عمل «مملكة النمل» كما أشرنا سلفا.

علاوة على ما سبق، ونتيجة للمعدل المتسارع لتضخيم حجم المعلومات، سيتزايد اللجوء إلى الوسائل الأتوماتية للبحث والتحليل والتنظيم، نذكر منها على سبيل المثال:

- آليات البحث الفائق meta- search التي تمزج بين البحث بمدخل الموضوع (كأن نبحث عن موضوع «العمارة الإسلامية» مثلا) والبحث عن لفظ بعينه، أو مجموعة ألفاظ بعينها في متن النصوص (كأن نبحث عن لفظ «الكعبة» أو «الحرم المكي» مثلا).

- منظمات المعلومات الفائقة hyper-organizers التي تقوم بفهرسة المعلومات وتبويبها وتخزينها.

- روبوتات الأرشفة archive crawlers التي تقوم بأرشفة مواقع الشبكة بصفة دورية.

المنظور العربي: على ما يبدو، فنحن لن نواجه، في معركتنا الثقافية الضارية على ساحة الإنترنت، أفرادا ومؤسسات فقط، بل جيوشا جرارة من روبوتات المعرفة تقتحم علينا مواقعنا عبر الشبكة لتستنزف منها المعلومات، وتحللها وتتبادلها، وتضيف إليها، وتعيد صياغتها، وتكيفها وفقا لأهواء أصحابها. ولا يخامر الكاتب أدنى شك في أن إسرائيل ستكون سبّاقة ـ كعهدنا بها ـ إلى استغلال التكنولوجيا الرفيعة في توظيف تكنولوجيا «الوكالة الآلية» لتعويض عجزها الشديد في الطاقة البشرية، وعلينا أن نفكر من الآن: كيف نحصن مواقعنا من هذا «التطفل الإلكتروني»، ونحرس تراثنا بحيث لا ينهب في غيبة منا من قبل «زوار الليل الجدد»، وعلينا ـ أيضا ـ أن نبحث عن حلول لكيفية مواجهة هذا التلاحم العجيب بين الذكاء الاصطناعي، وتكنولوجيا الوكالة الآلية، وأن نلحق بهما، وهما مازالا في

المراحل الأولى لتطورهما.

(ز) **من الواقعي إلى الخائلي:** يزداد استخدام مفهوم الخائلية virtuality يوما بعد يوم في دنيا الإنترنت ونظرا لحداثته وتنامي أهميته خاصة في المجال الثقافي رأى الكاتب أن يخصه بحديث منفرد.

2: 4 الخائلية

2: 4: 1 موسم الهجرة إلى «الخيال»

يتردد كثيرا على الألسنة هذه الأيام مفهوم «الخائلية»، من جماعات خائلية ومؤسسات خائلية ومدن خائلية ومعابد خائلية ومعامل خائلية وهلم جرا، ونعت «الخائلي virtual»[(2*)] نعني به هنا كل ما يحاكي الواقع أو يناظره إلى درجة يخيل لنا معها أنه واقع، ونعني به أيضا ما يتجاوز هذا الواقع لكنه وعلى الرغم من تجاوزه يؤخذ مأخذ الواقعي، ويُتعامل معه على أنه في حكم الفعلي القائم. في ظل هذا التعريف. فصورة المرآة خائلية لتناظرها مع الواقع، والأفلام السينمائية التي تحاكي الواقع هي نوع من الخائلية، والأسطورة المتجاوزة للواقع هي أيضا خائلية ما دامت رسخت في أذهان من يتداولونها. بناء على ذلك ـ كما خلص البعض ـ لكل عصر خائليته virtuality يمارس فيها الإنسان قهر الطبيعة، ويحلم بإرادة لا تتحقق له في دنيا الواقع [(329)]. وتتنوع الخائليات وتتعدد مصادرها بين خائليات من صنع السحر أو وليدة خيال الشعراء، تلك التي من صنع طوبائيات الإيديولوجيا أو أحلام التكنولوجيا. ومن يهوى تعقب الخائلية تاريخيا واجتماعيا فربما يهتدي في ذلك بنظرية أوجست كونت عن ثلاثية التنمية المجتمعية: من اللاهوتية إلى الميتافيزيقية إلى العلمية. أما من يريد أن يغامر مستدرجا «الخائلية» إلى قلب الديار، فعليه أن يتعرض لها بكل دقة وحرص. وذلك إن راق له حديث محمد أركون عن مراحل تكوين العقل العربي الإسلامي، ونقصد بها ثلاثية المرحلة الكلاسيكية وهي: مرحلة التأسيس والبدايات، والمرحلة المدرسية وهي مرحلة تكريس التقليد والاجترار، والمرحلة المعاصرة لما يعرف بالنهضة الإسلامية. وهي المراحل الثلاث التي لا يفصل بينها محمد أركون. حيث يعاد إنتاجها ويختلط فيها ـ وفقا لتصوره ـ العقل بالأسطورة والخيال [(144)]، وربما يعثر هذا المغامر، أو يتعثر في صلة ما، وهو

يناظر بين العلمية في ثلاثية أوجست كونت، وأسلمة العلوم التي ينادي بها بعض مفكري النهضة الإسلامية.

وإن جاز أن تكون لكل عصر خائليته الخاصة به، فلا وجه للمقارنة بين خائلية الماضي وخائلية عصر المعلومات. وذلك نظرا إلى قدرة التوليد الخائلي الهائلة للتكنولوجيا المعلوماتية، وهي القدرة التي ترجع بدورها إلى قدرة هذه التكنولوجيا على التجريد والمحاكاة والتمثيل الرمزي، علاوة على ما توفره من إمكانات هائلة للتفاعل ديناميا مع الواقع، أو ما يحاكيه أو يماثله من نظم ونماذج. لقد اتخذت خائلية عصر المعلومات ـ على الرغم من طفولتها ـ أشكالا متعددة ودرجات متفاوتة من حيث مدى محاكاتها للواقع، وكذلك من حيث البيئة التي تسكنها الكائنات الخائلية. فالإنترنت ـ على سبيل المثال ـ تمثل فضاء عاما تسكنه خائليات عدة، جماعات خائلية virtual communities تتآلف وتتآلف عن بعد، وتجارة إلكترونية خائلية للبيع والشراء عن بعد، ومعارض خائلية لبيع الكتب تُقتنى المطبوعات منها، ومكتبات رقمية خائلية virtual digital† Libraries تُجمع فيها الوثائق الإلكترونية وهكذا. إنه بلا شك «موسم الهجرة إلى الخيال»، هجرة جماعية ينزح خلالها مواطنو الإنترنت ـ قابعين في أماكنهم ـ إلى مواقعها العديدة، يتصفحون محتوياتها، ويتفاعلون مع ما تعرضه صفحات «الويب» من معلومات وخيارات. وعلى الرغم مما في ذلك من إثارة، يظل هذا المستوى من خائلية الإبحار والتصفح قاصرا في جوهره، فشتان الفرق بين زيارة موقع متحف اللوفر، مثلا. من خلال تصفح قوائم مقتنياته، والقيام بزيارة نموذج يحاكي هذا المتحف باستخدام أسلوب الواقع الخائلي Virtual Reality، حيث يتنقل خلالها الزائر بين ردهات المتحف، ويشاهد مقتنياته بصورة أقرب ما تكون إلى الواقع ليخال له وكأنه هناك بالفعل. فما إن يغير اتجاه مساره حتى يتغير المنظر بأكمله أمام عينيه، وتكبر الصور ما إن يقترب منها، وتصغر مع بعده عنها، ويتغير منظور التماثيل مع حركة رأسه، بل ربما أيضا مع حركة عينيه. إن الواقع الخائلي هو الرتبة الثانية على سلم الخائلية، وهو يمثل ذروة ما وصلت إليه تكنولوجيا المحاكاة الرقمية. إنه ثمرة «هندسة الخيال imaginering» التي تجمع بين العلم والفن والتكنولوجيا، مستغلة خداع الحواس من أجل إقامة عوالم وهمية من صنع الرموز.

من غرابة ما سلف من حديث الخائلية، ربما يظن بعض القراء أنه من قبيل الخيال العلمي، مما يستوجب التأكيد على أنه واقع عملي يمارسه الباحثون في معاملهم، ويندفع إليه مستثمرو رأس المال المغامر لشدة اقتناعهم بجدواه الاقتصادية، واتساع مجالات تطبيقاته: من الترفيه إلى التصميم، ومن أمور العلاج والجراحة إلى التعليم والتدريب.

2: 4: 2 الجماعات الخائلية

لا يختلف اثنان على أن الرغبة في التواصل مع الغير هي نزعة متأصلة لدى الإنسان، ومهما قيل عن حوار الإنسان والآلة، والإبحار في محيطات الإنترنت، فليس هناك ما هو أروع لهذا الإنسان من أن يقيم حوارا مع إنسان مثله على الطرف الآخر، يشاركه اهتماماته وهمومه، ويتبادل معه معارفه وخبراته. لقد اقترب اليوم الذي لن يبقى فيه شيء يصعب على الإنسان أن يشارك فيه غيره. وذلك بفضل تكنولوجيا المعلومات. ومن الطبيعي أن تنمو الرغبة في التواصل مع ما نشهده في زمننا هذا من تفاقم ظاهرة الاغتراب، والانكفاء على الذات، وانقطاع الصلة مع جار السكن وجار العمل، بل مع رفقاء البيت الواحد أحيانا. ربما يفسر ذلك سرعة انتشار الجماعات الخائلية في الإنترنت التي تجمع بين أصحاب الاهتمامات المشتركة وأهل التخصص الواحد، وأصحاب الرأي وجماعات المنافع، وجماعات السمر والدردشة وتبادل المعلومات والنوادر. يمكن لأي عضو من الجماعة الخائلية أن يبث حديثه لجميع أعضائها دون استثناء، أو يختص به فريقا منهم، أو يسر لشخص بعينه ما يريد أن يحجبه عن غيره. ويمكن للعضو أيضا إن يقدم نفسه تحت أسماء مستعارة، بل يمكنه أن يتنكر في شخصيات متعددة، وما أكثر ما تقمصت النساء شخصيات الرجال، وتقمص الصغار شخصيات الكبار، والمشاهير شخصيات النكرات. إنها بحق لعبة الذات الواحدة والهويات المتعددة، كرنفالات عصر المعلومات وحفلاته التنكرية في ضيافة وسيط الإنترنت للتواصل عن بعد. لقد تطورت أساليب الجماعات الخائلية بصورة كبيرة، سواء من حيث أساليب الحوار وأماكن اللقاءات، وتشمل مقارها حاليا: صالات للاجتماعات العامة، وغرفا للقاءات الخاصة، وأركانا للمقابلات الثنائية. ويمكن للشخص أن يزور تلك القاعات دون أن يعلن عن

نفسه (طاقية الإخفاء الرقمية)، أو يتواجد في أكثر من مكان في وقت واحد. أما فيما يخص الحوار بين أعضاء الجماعات الخائلية، فيتم غالبا من خلال البريد الإلكتروني، ويمكن أيضا استخدام كاميرات الفيديو المركبة على قمة شاشات الكمبيوتر لتحقيق التهاتف المرئي. وعما قريب، تضيف تكنولوجيا الأشكال المجسمة ثلاثية الأبعاد holography «الرؤوس المجسمة الناطقة»، لتنوب عن أصحابها في لقائهم الخائلي للحوار عن بعد، وهو بمنزلة خطوة أخرى لجعل هذه الجماعات الخائلية أقرب إلى الواقع. يرى البعض في ذلك ثورة حقيقية في عملية التواصل الإنساني. إنها ـ على حد قولهم ـ شفاهة عصر المعلومات، وقد تخلصت من قيود المكان وقيود الجنس (ذكرا أو أنثى) واللون والفوارق الاجتماعية الأخرى، لتطلق يد الفرد في إقامة شبكة علاقاته على اتساع العالم بأسره. وعلى الطرف النقيض من هذه النظرة المتفائلة، هناك من يشكك في جدوى هذا النوع من التواصل، فشتان هو الفرق بين التواصل الحي المليء بالانفعالات والإيماءات، وذلك التواصل البارد من خلال الوسيط الإلكتروني الذي يحد من قدرة الفرد على نقل أفكاره وأحاسيسه، علاوة على كونه عرضة للخداع والتنكر وإمكان استغلاله لأغراض غير مشروعة قانونيا أو أخلاقيا. إن الشعور بالانتماء إلى جماعة ما لا يتم بالتواصل فقط، بل من خلال الاهتمامات المشتركة، ومعايشة الظروف نفسها. ويطرح هـؤلاء المتشككون تساؤلا لا يخلو من وجاهة، مؤداه: كيف لإنسان هذا العصر أن يتواصل مع غيره عن بعد، في حين أنه قد فقد القدرة على التواصل عن قرب مع الجار والشريك والزميل. ألا يمكن أن يؤدي ذلك الإبحار في الفضاء المعلوماتي إلى انعزال الفرد عن واقعه ومجتمعه وجماعته الفعلية، تحت وهم الانتماء إلى جماعات الإنترنت الخائلية التي تتشابه عليه وكأنها بديلة الواقع. بقول آخر: هل التواصل خلال الإنترنت منفذ لتحرير الفرد؟ أم قوقعة تعفيه من التصدي للواقع، أو مهرب لتفريغ شحنة إحباطاته من هذا الواقع؟

2: 4: 3 الواقع الخائلي

الواقع الخائلي مفهوم آخر من تلك المفاهيم المثيرة التي أضافتها تكنولوجيا المعلومات إلى قاموس حياتنا المعاصرة، ويمكن النظر إليه على

أنه بيئة اصطناعية لممارسة الخبرات بصورة أقرب ما تكون إلى تلك في دنيا الواقع. أما مثاله النمطي الشائع، فهو محاكي الطيران flight simulator المستخدم في تدريب الطيارين على الأرض قبل تدريبهم في الجو. ولتكن نقطة بدايتنا في تقريب المفهوم إلى ذهن القراء أن نعقد مقارنة بين نظام لتدريب الطيران يعمل بأسلوب النظم الخبيرة، ونظير له يعمل بأسلوب الواقع الخائلي. يسجل النظام الخبير حصيلة تجارب الطيارين المخضرمين في الطيران، وكيفية تصرفهم في المواقف الطارئة والصعبة، وذلك من خلال صياغة ما يتخذونه في مثل هذه المواقف من إجراءات وقرارات، في مجموعة من القواعد على نمط «ماذا تفعل لو حدث هذا الطارئ أو ذلك؟». تُخزن هذه القواعد في قاعدة معارف knowledge Base تُستشار بواسطة الطيار المتدرب، وذلك عن طريق توجيه الأسئلة وتلقي الإجابات. وشتان الفرق بين قاعدة معارف الخبرات تلك، السابقة التسجيل، والإحساس الفعلي بهذه الخبرات من خلال ممارستها عمليا باستخدام محاكي الطيران الذي يعمل بأسلوب الواقع الخائلي، وهو ـ بصورة مبسطة ـ نظام أرضي يحاكي كل ما يحدث في واقع الطيران، يضع الطيار المتدرب في بيئة أقرب ما تكون إلى الظروف العملية التي سيواجهها في طيرانه الفعلي. إن نافذة نموذج الطائرة في هذا المحاكي الخائلي ليست زجاجا عاديا بل شاشات عرض متصلة بكمبيوتر مخزن فيه جميع بيانات الطائرة ومحركها، وكذلك مسارات الرحلات الجوية وطبيعية الأجواء وبيانات المطارات وممرات الهبوط والإقلاع وطرق الاقتراب إليها. أثناء تشغيل محاكي الطيران، يتوالى عرض الصور على شاشة النافذة بشكل دينامي، يتغير وفقا لوضع الطائرة وموضعها، ومعدل هبوطها أو صعودها، وتسارعها أو تباطئها.

والآن، دعنا نتخيل نافذة محاكي الطيران هذه، وقد تحولت إلى نظارة مركبة على قلنسوة، متصلة بجهاز الكمبيوتر يرتديها الشخص المتفاعل مع النظام الخائلي، سواء كان محاكيا للطيران أم لغيره. بالطريقة نفسها يتغير شكل ما يعرض على شاشة هذه النظارة، مع تغير حركة الرأس (وهو ما يناظر حركة الطائرة في مثال محاكي الطيران) ليخيل لهذا الشخص وكأن العالم يتحرك من حوله مع حركة رأسه، كما يحدث في الواقع. تمثل هذه النظارة الفريدة، أو «الوهَّامة»(3*)، بداية لصنع سلسلة من وحدات التفاعل

والتعامل مع نظم الواقع الخائلي التي تعمل بأسلوب المحاكاة الرقمية (2: 4). تشمل هذه السلسلة بجانب الوهامة، القفاز الحساس ذا الأسلاك الذي يرتديه المتعامل مع النظام ليلمس أو يمسك به الكائنات الخائلية، والحلة الحساسة التي تنقل حركة جسده وأعضائه إلى النظام الذي ينقل بدوره لها ـ أي الحلة الحساسة ـ ردود فعله، لتضغط حلة البيانات ـ كما تسمى أحيانا ـ على مواضع جسده وعضلاته. ونستسمح القراء في إشارة عابرة لما يخطط له البعض من استخدامات عجيبة لتلك الحلة الحساسة، وما يمكن أن تشارك في صنعه من أوهام فيما يطلقون عليه بـ«الجنس الخائلي virtual sex»، ورفاقه من أصحاب الأجساد الرقمية digital flesh.



نظارة شاشة الرؤية | القفاز الحساس ذو الأسلاك | الحلة الحساسة

(الشكل 2: 4) أمثلة من معدات التعامل مع نظم الواقع الخائلي

وبغض النظر عن تعدد أشكال نظم الواقع الخائلي وطرق التعامل معه، تظل الفكرة المحورية لتكنولوجيا الخائلية هي مفهوم الشعور بالانغماس في تلك العوالم الصناعية المشيدة من الأرقام والرموز، وتعليق إدراكنا بعدم واقعيتها. يتولد الشعور بالانغماس بفعل ثلاثة عوامل متضافرة هي: خداع الحواس، وتوليد الأشكال المجسمة ثلاثية الأبعاد، ورد فعل النظام ديناميا مع حركة الرأس، أو حركة العين أحيانا، أو حركة الجسد أو الأطراف أو الأصابع. أما تعليق الإدراك بغرض توهم الخائلي كأنه حقيقي، فليس بالأمر العسير. فهو تجربة نفسية يمارسها الإنسان كثيرا، سواء عند مشاهدته الأفلام أو المسرحيات أو قراءة الروايات أو تقبل النوادر والمبالغات.

لقد أسقطت نظم الواقع الخائلي الحاجز الرابع. لينفذ مستخدمها إلى ما وراء شاشة الكمبيوتر، يجوب عوالم الوهم متحررا من قيود الجسد

وقيود قوانين الطبيعة وقيود قوانين المجتمع. والحال هكذا، فلا عائق يعوقه من أن يخترق الحوائط، ويهوي من أعلى الشواهق ليرتطم بالأرض دون أن يصاب بخدش، وأن يتجول داخل المفاعل النووي من دون أن تصهره حرارته العالية، أو يبيده إشعاعه المميت. وكما يُمكن الواقع الخائلي الإنسان من الإبحار في المكان، يُمكنه ـ أيضا ـ من الإبحار إلى أزمنة الماضي الغابرة، واقتحام أزمنة المستقبل القادمة، أو الخلط بينها فيما يعرف بالخلط الزمني time scrambling.

إن تكنولوجيا الواقع الخائلي ليست مجرد تكنولوجيا أخرى، بل نقلة نوعية من مرحلة أساسها المعلومات إلى مرحلة أكثر تطورا أساسها نظم المحاكاة الرقمية. إنها المعلومات وهي تعمل، وقد تجسدت في هيئة كائنات خائلية تدفع وتلمس ويضغط عليها، وقوى فعلية تجذب وتضغط، وأصوات تعلو وتخفت، وأضواء تتوهج وتخبو. وتجدر الإشارة هنا، إلى أنه حين انحازت الشفاهة إلى حاسة السمع، وانحازت الطباعة إلى حاسة النظر، فإن الخائلية تستهدف هذا المزيج المتكامل من حواس السمع والنظر واللمس. ومن المعروف أن المحاكاة تتم من خلال نماذج رياضية أو من خلال تمثيل رمزي آخر، ولا خلاف في أن دقة محاكيات النظم الخائلية من دقة نموذجها الرياضي أو التمثيلي، وستظل ـ دوما ـ دون طبيعية الواقع الذي تحاكيه. وعلى الرغم من هذا الفارق، تظل نظم المحاكاة مؤثرة مثيرة ومهمة. تماما كما كانت الطائرة مؤثرة ومثيرة وعلى الرغم من أنها لا تحاكي في طيرانها ثابتة الأجنحة، طبيعة الطيور برفرفة أجنحتها، وكما كان الكمبيوتر مؤثرا ومثيرا على الرغم من أنه يعمل بصورة تختلف اختلافا جوهريا عن تلك التي يعمل بها المخ البشري. إنها تكنولوجيا انقلابية لا ريب، سوف تغير بصورة جذرية كيف نعمل ونلعب، وكيف نفكر ونتواصل.

ودعنا نخفف من انبهارنا بهذه التكنولوجيا المثيرة المؤثرة، لنشير إلى ما ينذر به البعض من أن الخائلية يمكن أن تصبح كعقاقير الهلوسة، نوعا من الهروب من الواقع [242]. ليقع المستخدم في فخ ملاذه الرقمي كي تنسيه أوهامه حقائق الواقع ومشكلاته وتحدياته، ويبدي بعض آخر قلقه مما يمكن أن ينجم عن ممارسة العنف ـ دونما رابط ولا وازع ـ في مغامرات العوالم الخائلية ومعاركها الإلكترونية. وأخيرا وليس

آخرا، هناك من يتوقعون أن العوالم الخائلية ستعاني مما عانى منه عالم الواقع، من استعمار واستبعاد واستغلال وتفرقة عنصرية وطبقية (296: 350).

خلاصة القول: لا يمكن أن نمتلك القوة، تكنولوجية كانت أم غير تكنولوجية، من دون القبول بمخاطرها.

2: 4: 4 أمثلة من تطبيقات الواقع الخائلي

هناك العديد من تطبيقات تكنولوجيا الواقع الخائلي (296: 11) اخترنا منها هنا ذات المغزى الثقافي، وهي:

(أ) **محاكاة واقع قائم**: من أمثلة ذلك: التدريب على قيادة المركبات، أو إجراء التجارب في المعامل الخائلية. حيث يمكن للطالب التعرف على دقائق الذرات والجزيئات والجينات، والتحليق في فضاء المجرات، والغوص في أعماق المحيطات، بل يمكنه أيضا أن يقلص من حجمه ليسري ـ على سبيل المثال ـ مع الدماء في رحلتها عبر مسالك الدورة الدموية. بالإضافة إلى ما سبق، تستخدم تكنولوجيا الواقع الخائلي في إقامة عوالم ميكروية، أو حضانات معرفة، كما تسمى أحيانا، يمارس فيها الطالب حرية التعلم بالاكتشاف، ومن خلال التجربة والخطأ.

(ب) **خلق عوالم من صنع الخيال**: لتحاكي، أو تعيد بناء، ما ليس له مقابل في عالم الواقع، كأن تحاكي عمليات التطور البيولوجي عبر العصور الجيولوجية، أو تعيد بناء قصر الرشيد في بغداد، أو الطقوس الجنائزية في معبد الكرنك. بل يمكن لنا أيضا أن نفارق عالم الماديات. لنقيم عوالم رمزية من أبجديات الأشكال والأرقام والمفاهيم وما شابه، لتتجسد تلك المجردات أمام ناظرينا في حيوية دافقة، كاشفة لنا عن أسرارها ومغزاها وعلاقاتها. وقد استخدم بالفعل هذا الأسلوب الخائلي الرمزي لتجسيد تقلبات بيانات البورصة ومعاملاتها العديدة السريعة التغير.

(ج) **تعزيز حواسنا وحدود قدراتنا الجسمانية**: حيث يمكن أن يمدنا الواقع الخائلي ـ على سبيل المثال ـ بعيون نرى بها الأشعة تحت الحمراء أو الأشعة فوق البنفسجية، وبآذان نلتقط بها ما هو خارج نطاق الذبذبات المسموعة، وبأطراف نطول بها ما لايطال، وبأصابع دقيقة نحيلة نمسك

بها الدقيق والمائع.

علاوة على ذلك، هناك تطبيقات عدة لتكنولوجيا الواقع الخائلي في مجال الفن، حيث توفرهذه التكنولوجيا بيئة فنية طيعة تتسم بمرونة هائلة، سواء بالنسبة للفراغ أو الألوان أو الخطوط أو مواضع الإضاءة والظلال. بالإضافة إلى ذلك كله، فالفن الخائلي يتيح للمتلقي أن يرى العالم بعيون مختلفة، وأن يضع نفسه في موضع الفنان. أما عن تطبيقات الواقع الخائلي في مجال الترفيه وألعاب الفيديو فحدث ولا تخف، فهي ـ كما تتفق معظم الآراء ـ أكثر المجالات جاذبية للاستخدام، والاستثمار بالتالي. إن أجيال الصغار التي شبت وترعرعت في صحبة الأجيال الأولى من ألعاب الفيديو الإلكترونية، تتلهف على شيء أكثر إثارة وأقرب محاكاة للواقع، وليس هناك حاليا ما هو أفضل من العوالم الخائلية. ليمارسوا فيها مغامراتهم في غزو الفضاء وسباق السيارات ومعارك الطائرات المقاتلة وحكايات ألف ليلة وليلة والبساط السحري، أو لينطلقوا في دنيا الخيال العلمي يتنافسون مع بشره الآلي، ويلهون بكائناته الخرافية.

2: 4: 5 الواقع الخائلي: المغزى الثقافي

رأى الكاتب، تسهيلا للعرض، أن يلخص تصوره عن المغزى الثقافي لتكنولوجيا الواقع الخائلي في النقاط الرئيسية التالية:

- تعميق معرفتنا بحواسنا
- تعميق معرفتنا بذاتنا وبغيرنا
- تعميق معرفتنا بعالمنا
- المساهمة في سبر أغوار المخ البشري
- تنمية القدرات الذهنية
- سرعة اكتساب الخبرات
- كسر احتكار الصفوة العلمية لظاهرة التعقيد

وسنتناول فيما يلي بإيجاز كلا من هذه النقاط:

(أ) **تعميق معرفتنا بحواسنا**: على الرغم من كل ماندعيه من معرفتنا للدقيق والدفين، والبعيد والسحيق، والضئيل والهيولي، وعلى الرغم من كل هذا فنحن لاندرك بدرجة كافية أكثر الأمور التصاقا بنا، فنحن لا نعرف

على وجه الدقة كيف تعمل حواسنا؟ وكيف تعمل لغاتنا؟ ولاندرك طبيعة العلاقة بيننا وبين أجسادنا. ناهيك عما نجهل من أسرار مخنا البشري، وعلاقته بتلك الحواس والأجساد واللغات. فبالنسبة للحواس، مازالت معرفتنا قاصرة عن فهم كيف تدرك العين الأشكال في تفاصيلها وكليتها؟ وكيف تتذوق الأذن الموسيقى في أنغامها وإيقاعها ومعماريتها؟ وكيف تشعر أناملنا بتلك الفروق الدقيقة في ملمس الأشياء ودرجة استوائها؟ وفوق ذلك، كيف تتناغم هذه الحواس؟ وكيف تعمل متضافرة مع المخ البشري كي ندرك من خلالها العالم من حولنا ونتعامل معه؟ إن تكنولوجيا الواقع الخائلي يمكن النظر إليها بصفتها معمل تجريب لإعادة اكتشاف حواسنا في امتزاجها وتعاضدها. فهذه التكنولوجيا تتعامل مع الحواس بصورة مباشرة، وتوفر في الوقت ذاته وسائل آلية لمحاكاة هذه الحواس وتعزيزها. مما يتيح فرصا عدة للكشف عن أسرارها.

(ب) **تعميق معرفتنا بذاتنا وبغيرنا**: تعمق الخائلية معرفتنا باللاوعي نتيجة ممارستنا الحياة في عوالم الواقع الخائلي بلا خوف وبلا خجل، فتطفو خبايا اللاوعي على السطح وقد تحرر من قيود النفس والجسد وضغوط المجتمع. أما علاقتنا بأجسادنا، فقد حان الوقت لإعادة اكتشافنا لها هي الأخرى. لقد أخذنا أجسادنا كقضية مسلم بها لا نتذكر وجودها إلا إذا أصابتها العلل، أو فرضت علينا تواجدها فرضا ونحن نمارس تمارين لياقتنا البدنية. إن الواقع الخائلي ـ ولأول مرة ـ سيقيم علاقة مباشرة بين الكمبيوتر والجسم البشري، لكي نرصد نبض عروقه، وفعل عضلاته، وحركة أطرافه، وكيف يتجاوب مع المؤثرات الخارجية وردود الفعل الإرادية واللاإرادية. والأهم من هذا وذاك، أن الواقع الخائلي سيدعونا إلى إعادة اكتشاف ذاتنا من خلال العلاقات التي تربط بيننا وما هو خارجنا من كائنات واقعية وخائلية، وهي العلاقات التي ستبرز وتتكشف من خلال وسائل التفاعل العديدة التي توفرها التكنولوجيا الخائلية.

(ج) **تعميق معرفتنا بعالمنا**: بفضل أساليب المحاكاة، سيقدم الواقع الخائلي العالم، بصورة يسهل علينا تمثلها. سيضخم لنا الصغير الذي يصعب على عيوننا المجردة التمعن في دقائقه، ويقلص لنا الكبير الذي يتعذر علينا احتواؤه، ويطمس لنا التفاصيل ليسهل علينا استخلاص الجوهر،

ويبرز تفاصيل الأجزاء إن كانت شرطا لاستيعابنا طبيعة الكل الشامل. إن أساليب المحاكاة تمكننا من التعامل بمرونة مع ثنائية الوجود: الزمان والمكان، مع متناهيات الكبر من الفضاءات الكونية والأزمنة الجيولوجية، وكذلك متناهيات الصغر من الجسيمات المادية والبيولوجية «والزمينات» (جمع زمين صيغة التصغير من زمن - إن جاز الاشتقاق) من وحدات النانو ثانية والفمتو ثانية. علاوة على ذلك، فالواقع الخائلي وعوالمه الميكروية هو بمنزلة «ماكيت» نقيم فيه نماذج المستقبل، ونختبر فيه سيناريوهات توقعاتنا عما يحمله لنا هذا المستقبل.

على صعيد آخر، فإن تكنولوجيا العالم الخائلي ستجعلنا نرى العالم بصورة مختلفة، حيث ستخلصنا ـ أخيرا ـ من أسر منظور عصر النهضة القائم على أساس النظر إلى الأشياء من موضع ثابت وحيد، وهو المنظور الذي رسخ في أذهاننا رؤية الأمور من جهة نظر واحدة. على العكس من ذلك، سيسمح لنا الواقع الخائلي أن نرى الأشياء من وجهات نظر متعددة ومتغيرة في الوقت نفسه. لقد علَّمنا أينشتين أن خبراتنا نسبية، بمعنى أن ما نعرفه يتوقف على موضع المكان الذي ننظر منه وكذلك على موضعنا على محور الزمن. وقد حاول بيكاسو، متأثرا في الغالب بنسبية أينشتين، أن يرسم أشكالا من مواضع نظر مختلفة: من الأمام ومن الجانب ومن الخلف، بل من الداخل أحيانا، إلا أن مبدعنا التشكيلي الفذ كانت تحده في مسعاه شبه المستحيل إستاتية لوحاته، وفسيولوجية إبصاره وقدرات يده، ومدى تخيله. وكل هذه القيود بات من السهل على الواقع الخائلي تجاوزها. ليوفر لنا رؤية الأشياء من موضع نظر يتغير بصورة دينامية لانهائية. ويظل السؤال على الرغم من كل ما قيل: هل يمكن أن يغير هذا بالفعل من رؤيتنا للعالم، ومن نظرتنا إلى الآخرين؟!

(د) **المساهمة في سبر أغوار المخ البشري**: كما أشرنا سلفا، فإن تكنولوجيا الواقع الخائلي ستميط اللثام عن كيفية عمل حواسنا وعلى رأسها حاسة الإبصار، وهي بذلك تساهم مساهمة فعالة في سبر أغوار المخ البشري، الذي تشغل وظائف الإبصار قدرا كبيرا من نشاطه الكلي. وسيتضافر الواقع الخائلي مع رفيقه الذكاء الاصطناعي الذي يسعى من جانبه إلى إماطة اللثام عن وظائف المخ اللغوية، والتي تشغل هي الأخرى قدرا كبيرا

من نشاطه، ربما يفوق ذلك لحاسة الإبصار. وهكذا نكون قد قطعنا شوطا لا بأس به في فك طلاسم المخ البشري التي حارت فيها عقول السابقين واللاحقين.

(هـ) تنمية القدرات الذهنية: مما لاشك فيه، أن الإنسان يفضل ـ أو لنقل تسهل عليه ـ الرؤية والتجسيد والتعامل مع المحسوس. ومهما قيل عن الرقمنة، وروعة مرونتها ومزايا تقطعها، فستظل العين ترى معظم الأشياء متدرجة ومستمرة ومنسابة في غير تقطع أو تغيرات فجائية. لقد فرض علينا تعقد العالم أن نجرده في هيئة أرقام ورموز وعلاقات، ولكننا نظل في حاجة إلى أن نتمثل مضمون هذه الأرقام الجافة، نراها أمامنا تنمو وتتزوي وتتراكم وتتلاشى، ونريد أن ندرك مغزى الرموز، نراها مقرونة بمعناها ودلالتها داخل أسيقتها الفعلية، وأن نقتفي أثر العلاقات في نشأتها وصيرورتها، وهي تعلو وتهبط كالأمواج، وتتفرع كأخاديد المياه. وكم من مرة، أعلن فيها أينشتين، أنه يرى أفكاره حول ظواهر الطبيعة متجسدة أمامه، قبل أن يجرد هذا الأفكار في صورة معادلات رياضية (296: 23)، وقد حذا حذوه عالم البيولوجيا جيمس واطسون، عندما قام مع زميله فرانسيس كريك، ببناء نموذج من الرقائق المعدنية والأسلاك لحلزونهما الثنائي الشهير لجزيء الدنا DNA، قبل تجريد هذه الظاهرة البيولوجية في رمزية لغة الوراثة وأبجديتها الرباعية.

لقد أبدع العقل البشري وهو يحول المحسوس إلى المجرد، وحان الوقت لهذا العقل أن يمارس الإبداع المعكوس، ونقصد به تحويل المجرد إلى المحسوس (296: 293)، أي كيف تتحول الأرقام والرموز إلى شواهد قائمة، والعلاقات إلى جسور عابرة، والبنى المعرفية إلى بنى حقيقية نتجول في سراديبها، ونصعد ونهبط على سلميات تراتبياتها. لقد حولت مطبعة جوتنبرج الأفكار إلى نقوش غائرة في مادة الورق، وجاءت تكنولوجيا المعلومات لتسلب من الورق ماديته بعد أن حولته إلى وثائق إلكترونية. وتساؤلنا هنا: هل يمكن لتكنولوجيا العالم الخائلي أن ترجع بنا من اللامادي إلى المادي مرة أخرى؟ وهل يمكن أن يكون ما نسمعه عن تكنولوجيا «الطباعة ثلاثية الأبعاد»، التي تحول الصور والأشكال إلى مقابلها المجسم، هي بداية رحلة العودة إلى عالم الماديات والمحسوسات؟ إن هذا الترحال المستمر بين

المحسوس والمجرد سيكون بمنزلة «تدليك ذهني»، يحفظ للعقول حيويتها، ويحميها ضد داء التصلب والجمود، وربما تضيق معه تلك الفجوة، التي تفصل حاليا بين النظرية والتطبيق، وبين الخبرة والعلم، وبين الإبداع والتلقي.

من جانب آخر، فإن عوالم الواقع الخائلي، يمكن أن تكون مجالا خصبا لفهم إشكالية المعنى اللغوي، التي حيرت الفلاسفة والعلماء عبر القرون. لقد أوضح لنا فلاسفة اللغة أن المعنى ينشأ ويتحور، ضيقا واتساعا، حرفيا ومجازيا، مرتبطا بممارساتنا الحياتية، واكتسابنا الخبرات العملية والذهنية. مصدر الصعوبة هنا أن المعنى يزوغ منا في متاهة تلك الممارسات والخبرات. لقد أمكننا فهم الظواهر الطبيعية المعقدة من خلال تبسيطها والتدريج من البسيط نحو المعقد.

على المنوال نفسه، ربما يمكن لنا فهم ظاهرة المعنى بصورة تعليمية متدرجة، من خلال نماذج وجود (أنطولوجيات) مبسطة نقيمها في دنيا الواقع الخائلي، تتدرج فيها العلاقات والظواهر، من الأبسط إلى الأعقد، بصورة مدروسة ومخططة. من خلال هذا التدرج الأنطولوجي، ينمو فهمنا شيئا فشيئا لكيفية انصهار المعاني في صلب أفكارنا وخبرات حياتنا. تجدر الإشارة هنا إلى أن مفهوم الأنطولوجيات المبسطة المشار إليه، يستخدم ـ بالفعل ـ في بحوث المنطق الحديث الخاصة بالمعنى اللغوي.

(و) **سرعة اكتساب الخبرات:** لم يعد لدى إنسان هذا العصر الذي تتهالك فيه الخبرات بمعدل يفوق سرعة اكتسابها. لم يعد لديه رفاهية الوقت لاكتساب هذه الخبرات عن طريق الأسلوب النمطي لثلاثية: اكتساب الخلفية النظرية، ثم التدريب العملي، فإتقان المهارات من خلال التكرار والممارسة في الواقع العملي. بالإضافة إلى ذلك، فإن تعقد الخبرات واتساع نطاق فاعليتها، يجعل من ممارستها على أرض الواقع مباشرة أمرا لا يخلو من المجازفة في كثير من الأحيان، ناهيك عن الكلفة المباشرة وغير المباشرة. إن الواقع الخائلي سيوفر لنا مجالا عمليا لسرعة اكتساب الخبرات، وتضييق الفجوة بين المعرفة وتطبيقها، وبالتالي بين حقائق الواقع والوعي بها. فعلى سبيل المثال، سيسمح التدريب الخائلي بأن يكتسب الجراح خبرة إجراء الجراحات الدقيقة، والراقص خبرة القيام بالحركات الصعبة، والمدير خبرة اتخاذ القرارات السريعة والحرجة، وذلك في بيئة تجريبية سمحة يقومون

فيها ببروفاتهم إلى أن يصلوا إلى درجة المهارة الواجبة. لقد دانت لسيطرة الآلة ثلاثية: البيانات والمعلومات والمعارف، وحان للخبرات التي تقوم على هذه الثلاثية أن تخضع هي الأخرى لسيطرتها. وما إن ننجح في ذلك حتى يصبح بالإمكان تخزين خبرات البشر وهي تعمل. بنوك للخبرات الحية لا مجرد قائمة من الوصايا يتركها المحتكون لغير المجربين.

(ز) **كسر احتكار الصفوة العلمية لظاهرة التعقد:** لقد أصبحت المعرفة العلمية معقدة للغاية، لا يقدر على الإلمام بها إلا صفوة المتخصصين، في الوقت نفسه الذي أصبحت فيه الثقافة العلمية من المطالب الأساسية للحياة في عصر المعلومات واقتصاد المعرفة. إن تكنولوجيا الواقع الخائلي يمكن أن تساهم في «دمقرطة التعقد» المعرفي بأن نجعل ظواهره في متناول العامة، وذلك من خلال أساليب المحاكاة مرة أخرى إن هذه الأساليب ستمكن الإنسان العادي من أن ينفذ، ببصره وبصيرته، إلى ما يجري داخل نواة الذرة، ويشاهد العمليات الكيميائية التي تحدث داخل الخلايا، ويتتبع مسار الإشارات الكهربية التي تسري خلال الجهاز العصبي، وأن يرنو ببصره إلى أعلى ليراقب الأجرام في أفلاكها، ويلاحظ من حوله كيف تتغير البيئة، وتتولد الأعاصير، وتتآكل الصخور، وتنشأ الزلازل. إن تكنولوجيا الواقع الخائلي هي لغة تواصل جديدة، لغة أكثر قدرة من كل اللغات على توصيل الحقائق وزرع المفاهيم الصحيحة وإزالة المفاهيم الخاطئة، وهي وسيلتنا القادمة للتخلص من السطحية وممارسة متعة التعامل المباشر مع التعقد، الذي هو حق للجميع.

نتهي هذه الفقرة عن المغزى الثقافي لتكنولوجيا الواقع الخائلي بتساؤلين:

- هل ستخفف سكنى الإنسان لعوالم الواقع الخائلي من قلقه الأزلي الذي يفصل بين إرادته ورغباته وحقيقة واقعة؟.

- هل لنا أن نعير سمعا لهؤلاء الذين يتحدثون عن الخلود الرقمي، وإعادة البعث الخائلي، بمعنى أن تفنى أجسادنا في عالم الواقع، ونظل مع ذلك أحياء خالدين «رقميا»، في سرمدية العوالم الخائلية، بعد أن نُختزل إلى قواعد بيانات ومعارف، يسجل فيها كل تفاصيل أجسادنا وعقولنا وسلوكنا وأحداث حياتنا؟.

2: 4: 6 الواقع الخائلي (المنظور العربي)

نوافق الرأي القائل إن الحديث عن تكنولوجيا الواقع الخائلي، يفوق ـ حاليا ـ ما تحقق منها على أرض الواقع، ولكن مما لا شك فيه أنها تتقدم بخطى واسعة، وتنهار كلفة تطويرها واستخدامها بمعدلات متزايدة. وقد حاولنا، فيما سبق، أن نؤكد مدى أهمية هذه التكنولوجيا في المجال الثقافي: فكرا وتعليما وإعلاما وترفيها وتراثا، وهو ما يستوجب أن نلحق بها في بدايتها. فكم هو قاس على المرء أن يسمع أن حرب الخليج كانت أول تجربة عملية شهدها كوكبنا لتكنولوجيا الواقع الخائلي (119: 19)، وأن إسرائيل تسعى حاليا إلى بناء نماذج خائلية لمدينة القدس العربية، وأن جامعة كارنيجي ميلون ومتحف اللوفر يجريان تجاربهما الخائلية على كنوز مصر الفرعونية. وما أخطر أن يطول انتظارنا، لنجد أنفسنا في النهاية فئران تجارب لمغامراتهم الخائلية، أو سوقا مستهدفة لبضاعة الجنس الخائلي، بعد أن أغرقوا أسواقنا بعري أفلامهم المحرمة، وأحاديث الغواية المدفوعة عبر الخدمات الهاتفية.

إن مدارسنا العربية في حاجة إلى معامل خائلية لتعويض النقص في المعامل الحقيقية، أو القيام بما يتعذر القيام به في تلك المعامل، ومتاحفنا في حاجة إلى بيئة خائلية لعرض مقتنياتها في سياق تاريخي ومعرفي أوسع وأشمل، حتى لا تظل تلك المقتنيات حبيسة الجدران والصناديق الزجاجية، وحتى يتحول التاريخ إلى مادة حية تساهم في صنع الحاضر وعقل حاضريه. ونحن في حاجة أيضا إلى اكتساب القدرة على إعادة بناء مدننا القديمة وجوامعنا ومعابدنا وقصور خلفائنا وملوكنا وما شابه، وإلا أعاد بناءها غيرنا، في إطار مخططاتهم لصناعة سياحة خائلية موازية لسياحة الواقع. وأخيرا وليس آخرا، نحن في حاجة إلى تكنولوجيا الواقع الخائلي لسرعة تدريب الكادرات المتخصصة في تكنولوجيا المعلومات، وغيرها من فروع التكنولوجيا المتقدمة.

الحواشي

(*1) سيراعى الالتزام بهذا الإطار في كل ما يُتناول من منظومات عبر فصول الكتاب.

(*2) تعددت المصطلحات العربية المقابلة للمصطلح الإنجليزي Virtual Reality، من الواقع الافتراضي إلى العالم الوهمي والواقع الخيالي، وكلها ـ في رأي الكاتب ـ لا تعبر عن المفهوم المحوري، علاوة على كونها جميعا مصطلحات مركبة يصعب الاشتقاق منها. ونظرا إلى أن المفهوم يعد من المفاهيم الأساسية في تكنولوجيا المعلومات حاليا، ومن المتوقع انتشار استخدامه بسرعة، فقد رأى الكاتب أن يختار اسم الفاعل «خائل» كمقابل «virtual» مما يسمح باشتقاق: خائلية، خائلي، يخيئل، مخيئل، خيئلة وخائليات وقد مارس الكاتب في هذا حقه في توسيع فعل «خال» المتعدي (في مثل: خال السراب ماء) إلى معنى التعدية بأداة (خال له الأمر كائنا) وهو المعنى الدقيق الذي يعبر عنه المصطلح الإنجليزي.

(*3) على صيغة اسم الآلة «فعالة» كنظارة، فهي أداة صنع الوهم بالانغماس في عالم الخيال.

3 منظومة ثقافة المعلومات

- مقدمة عن المعلومات ودورها الثقافي
- المعلومات كمحور للثقافة وأداة لها
- منظومة ثقافة المعلومات
- صورة الثقافة العربية على الإنترنت

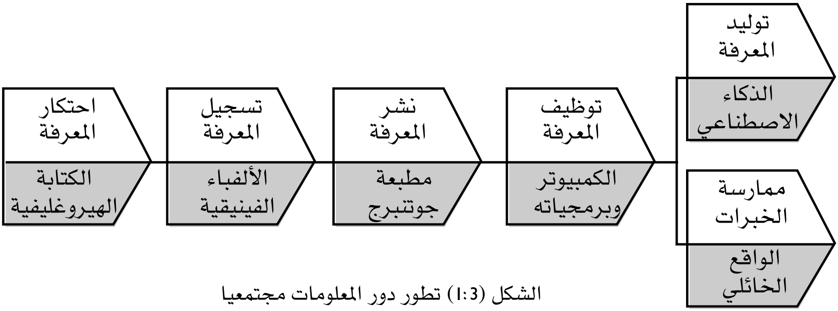
3 : 1 مقدمة عن المعلومات ودورها الثقافي

3 : 1 : 1 تاريخ وجيز لدور المعلومات مجتمعيا (الطرح العام)

أينما ذهبنا، وحيثما نظرنا، وكيفما بحثنا وتبصرنا، نجد أنفسنا في مواجهة المعلومات؛ نجدها في جسيمات الذرة ونواة الخلية، كما نجدها في المحيط الأرضي والمجرات الفضائية. وكما تكمن المعلومات في بنية الكائن البشري، الذي أوشك ـ كما أسلفنا ـ أن يتحول إلى قاعدة بيانات، عن طريق الخرائط الوراثية والمخية، كذلك تكمن في بنية المجتمع البشري، سواء نظرنا إليه ككائن بيولوجي تتفاعل بداخله «أعضاؤه» من مؤسسات الحكم والاقتصاد والدين والتربية والإعلام وأجهزة الأمن والرقابة والقانون، أو نظرنا إليه كنسق رمزي وليد الخطابات المعرفية التي تسري داخل بنيته ما بين أفراده وجماعاته ومؤسساته، ودعنا ننحو بحديثنا منحى تاريخيا نتمعن فيما ذهب إليه البعض من أن الحضارة بأسرها هي ـ في جوهرها ـ نظام للمعلومات، ويموت الإنسان وتطوى صحيفته ولا يترك وراءه إلا معلومات. وكلمات الإنسان ـ كما قيل ـ هي أكثر مخلفاته مقاومة للزمن. وكذلك

تموت الحضارات وتبقى نظم معلوماتها ومعارفها. فالحضارة الرومانية، وريثة الحضارة اليونانية، أسست أصلا على تكنولوجيا الرومان وفكر الإغريق، وهو الفكر الذي مازال يعيش بيننا حتى أيامنا هذه على الرغم من القرون الخمسة والعشرين التي تفصل بيننا وبينه.

وكما استهللنا حديثنا في الفصل السابق عن تكنولوجيا المعلومات بتاريخ وجيز لتطورها، فنستهل حديثنا هنا عن ثقافة المعلومات بتاريخ وجيز عن تطور دور المعلومات داخل المنظومة المجتمعية، والذي لخصه الكاتب في سلسلة من المراحل الزمنية وفقا لنظام المعلومات السائد في المجتمع الشكل (1:3). ولنبدأ بالكتابة الهيروغليفية، وتعني النقوش المقدسة في لغة المصريين القدامى، والتي كانت حكرا على كهنة الفراعنة لتصبح ـ بالتالي ـ وسيلتهم لـ «احتكار المعرفة» سواء فيما يخص أمور دنياهم من معلومات توزيع الأراضي وخيراتها، أو أمور آخرتهم فيما يخص أسرار التحنيط ودفن الموتى وطقوس المعابد. ولقد ساد هذا النسق الرمزي الهيروغليفي، القائم على كتابة الصور قرونا عديدة، حتى ظهر عجزه عن الوفاء بمطالب أهل التجارة في العصور القديمة، حتى لتخرج إلى الوجود الأبجدية الفينيقية تلبية لتلك المطالب. لقد استطاعت هذه الأداة الرمزية، بفضل طابعها الألفبائي، أن تعبر عن المفاهيم المجردة للنشاط التجاري من بيانات المكسب والخسارة ومعلومات الملاحة لرحلات التجارة، وبهذا يمكن القول إن الغرض الأساسي من نظام المعلومات القائم على الأبجدية الفينيقية كان «تسجيل المعرفة» بواسطة الكتبة والكهنة، وهو ما أدى إلى صعود سلطة أصحاب التجارة على حساب سلطة أهل الدين.



الشكل (1:3) تطور دور المعلومات مجتمعيا

وكسابقتها، سادت الأبجدية الفينيقية الألفبائية، بنسخها وناسخيها وألواحها ولفائفها، إلى أن ظهرت آلة الطباعة في منتصف القرن الخامس عشر على يد يوهانس جوتنبرج. ويا ليته كان يدري، ذلك الكاثوليكي المخلص، ما الذي سوف يفعله مارتن لوثر، مؤسس المذهب البروتستانتي، بآلة طباعته تلك التي وصفها بـ «أنها أسمى فضائل الرب على عباده» (15:299). وحق له القول، فلولاها ما استطاع أن يوزع في غضون أيام قلائل منشوره الشهير على معظم مدن أوروبا، ولولا طبع الإنجيل مترجما إلى اللغات القومية، ما تحرر الفرد المسيحي من سلطة رجال الدين القائمة على احتكار المعرفة الدينية وغيرها. ولا شك في أن فضل الطباعة على الحضارة البشرية أكثر من ذلك بكثير، فقد غيرت وظيفة المعلومات إلى «نشر المعرفة» لا مجرد تسجيلها، وهو ما أدى بدوره إلى سقوط سلطة الكنيسة، وسلطة الإقطاع، وسلطة المتحدث على مستمعه التي منحه إياها التواصل الشفاهي لما قبل عصر الطباعة. وهكذا تحققت للإنسان خلوته مع كتابه المطبوع، وسيلته لإغناء معرفته، وفرصته للتمعن المتأني في مضمون نصوصه. لتنمو لديه النزعة النقدية العقلانية. لقد أدت الطباعة ـ فيما أدت ـ إلى تسارع جهود محو الأمية، وتطور التعليم، وتوالي الاكتشافات العلمية. ولم يقتصر فضل الطباعة على نشر المعرفة فقد أعطت بمنتجها المتكرر المتطابق أول نظام تكنولوجي يطبق مفهوم انتاج الجملة [293]، وهو النظام الذي تبناه فيما بعد أهل الصناعة. واكتملت بذلك للحداثة ركيزتاها: الطباعة، وصناعة الإنتاج الضخم، لتمضي قدما في تنفيذ مخططها الحضاري بفضل المعرفة التي أشاعتها الطباعة، وتكنولوجيا الصناعة التي أفرزتها هذه المعرفة. لقد قام المخطط على ثلاثية: «الديموقراطية والعلمانية وحرية الفكر». وبعد خمسة قرون من اختراع جوتنبرج، يظهر الكمبيوتر في منتصف القرن العشرين ليثبت في سنوات قلائل جدارته كآلة مثلى لمعالجة المعلومات، قادرة على «توظيف المعرفة» لا مجرد نشرها، وذلك بعد أن نجحت ـ للمرة الأولى ـ عن طريق البرمجة، في تحويل المعرفة الخامدة سجينة الأوراق إلى معرفة حية فعالة؛ المعرفة وهي تعمل بالفعل: وهي تصمم المباني والمحركات والرسوم والأزياء، وهي تضبط الحسابات وتراقب الميزانيات وتدعم القرارات وتعلم الصغار والكبار، وهي توجه الصواريخ وتطلق الأقمار الصناعية وتتحكم في

المفاعلات النووية. وبات الأمل معقودا على المعرفة، وقد تحررت وانصهرت في كيان المجتمع الإنساني بفضل نظم المعلومات الآلية، في أن تعيد لهذا المجتمع توازنه وتسترد للإنسان إنسانيته ووفاقه مع مجتمعه وبيئته. عساها تهب بذلك لعصر المعلومات حداثة جديدة؛ حداثة تقوم على ثلاثية مغايرة لتلك المذكورة أعلاه، تحل فيها المشاركة الإيجابية محل الديموقراطية الشكلية، والعلمية محل العلمانية بمعناها الأيديولوجي، وحرية الثقافة الأشمل محل حرية الفرد، متجاوزة إياها إلى حرية المجتمع ككل، ونعني بذلك حقه في التمسك بخصوصية ثقافته، والمحافظة على هويته، واختيار نمط تنميته وحماية بيئته. وهكذا، وبافتراض حدوث ذلك، تتقلص هيمنة الأقوياء على الضعفاء، والمراكز على الأطراف، وتسقط سلطة النظم والمؤسسات، وسيطرة الإنسان على الطبيعة التي أبادت الكائنات، ولوثت الهواء والمياه والأخلاق. وكما أسقطت تكنولوجيا الطباعة سلطة المتحدث على مستمعه، فربما يكون بمقدور تكنولوجيا المعلومات أن تسقط سلطة المؤلف على قارئه، لينتزع هذا القارئ حقه في حرية قراءة نصه وفقا لرؤيته وغايته. وعلى المنوال نفسه، يتحرر المتلقي من قبضة الفنان ليرى اللوحات بعيون مختلفة ومن منظور مختلف، ويتحرر المشاهد من سلطة القابض على بث الرسالة الإعلامية، ليشاهد ما يحلو له في الوقت الذي يناسبه، ويختار لنفسه وبنفسه نوعية الرسائل التي تتواءم مع «بروفيله المعلوماتي». ولم يتوقف طموح أهل تكنولوجيا المعلومات عند حدود «توظيف المعرفة»، فها هم مهندسو الذكاء الاصطناعي، بعد أن نجحوا في إكساب آلة المعلومات القدرة على حل المسائل وبرهنة النظريات، ها هم يسعون حاليا إلى إكساب هذه الآلة القدرة على التعلم ذاتيا؛ بحيث تصبح قادرة على «توليد المعرفة الجديدة» لا مجرد توظيفها. ويتوازى مع طموح الذكاء الاصطناعي طموح آخر لا يقل جسارة وإثارة في مجال تكنولوجيا الواقع الخائلي التي تسعى ـ كما أوضحنا في الفقرة 5:4:2 من الفصل السابق ـ إلى سرعة اكتساب الخبرات وتخزين الخبرات نفسها، أي «تعليب المعرفة سابقة التوظيف» ـ إن جاز التعبير -، في صورة خبرات عملية تعمل رهن إشارتنا كخبراء تحت الطلب؛ وذلك لمواجهة المواقف الصعبة والطارئة، وحل المشاكل ودعم اتخاذ القرارات. إنها وسيلة لنقل حكمة السابقين إلى

اللاحقين؛ حتى يستطيع إنسان هذا العصر مواجهة الكم الهائل من المشاكل التي تواجهه، فلا تفوق قدرة الإنسان على حل المشاكل ـ كما يقول مؤسس منتدى روما الفكري ـ إلا قدرته على خلق مشاكل جديدة.

وننهي هذا التاريخ الوجيز لتطور دور المعلومات في منظومة المجتمع بالقول: إن التكنولوجيا، على مدى مسار تطورها، قد تحولت من تكنولوجيا كثيفة الطاقة إلى تكنولوجيا كثيفة العمالة، حتى ارتقت ـ أخيرا ـ إلى تكنولوجيا المعلومات الكثيفة المعرفة. وهنا مكمن الخطر نظرا لأن المعرفة الإنسانية مازالت في قبضة الأقوى الذي يجيد استغلال تكنولوجيا المعلومات لإحكام قبضته، وفرض عولمته، وإعادة إنتاج عالمه.

تاريخ وجيز لدور المعلومات مجتمعيا (المنظور العربي)

دورة تفعيل المعرفة داخل منظومة المجتمع هي حلقة متصلة، مكوّنة من ثلاثة عناصر أساسية هي: اقتناء المعرفة فاستيعابها ثم توظيفها. ولا نضيف جديدا إذ نقر بتفكك هذه الحلقة المعرفية لدينا، فعادة ما يغيب عنها شق توظيفها في حل مشكلات المجتمع وتنمية أفراده وموارده. وفي كثير من الأحيان يتوقف الجهد عند حدود اقتناء المعرفة دون استيعابها في إطار الظروف المحلية. ولا يرجع ذلك فقط إلى النزعة اللاعلمية المتمثلة في معاداة العلم والتشبه الزائف به، بل يرجع ـ أساسا ـ إلى ضعف امتصاص مجتمعاتنا العربية للرحيق المعرفي؛ وذلك لأسباب عدة: تربوية وتنظيمية وسياسية واقتصادية، ولا يجب أن نغفل هنا تلك الأسباب المتعلقة بالغوغائية الدينية والإرهاب الفكري. والأمل معقود مرة أخرى على تكنولوجيا المعلومات في تفتيح مسامنا المعرفية، بما تتيحه تلك التكنولوجيا من وسائل عدة لاقتناء المعرفة واستيعابها وتوظيفها. ولا عذر لنا إن تقاعسنا في استغلال هذه الفرص، فالنتيجة الأكيدة لذلك أن تظل المعلومات وحلول المشاكل تأتينا من مصادرها التقليدية، وما يترتب على ذلك من رسوخ هيكلية السلطة الكامنة وراءها، ناهيك عن كبح جهودنا في توليد معرفة جديدة. وسنظل نشكو من «أنيميا معرفية» حادة مهما تعددت لدينا نظم الكمبيوتر وانتشرت مواقعنا ومقاهينا على الإنترنت، ومهما كثر حديثنا عن أهمية المعلومات وضرورة اللحاق بركبها. على صعيد آخر، فإن المعلومات ـ بحكم طبيعتها ـ

تود أن تظل حرة طليقة، تتغير دوما وتهلك لتتجدد من جديد. وقد أثبت التاريخ، قديمه وحديثه، أن حراس الدين وبيروقراط الحكم وتكنوقراط التربية هم الأشد حرصا على تقييد حرية المعلومات وتداولها. والمعلومات ـ من جانبها ـ لا تغفر للمجتمعات حرمانها من حقوقها الطبيعية في الحرية والانطلاق.

وما أبهظ الكلفة التي يمكن أن تدفعها مجتمعاتنا العربية بسبب تناقض جوهري يقام بينها وبين تكنولوجيا المعلومات. وهو الأمر الذي يوجب علينا أن ندرس بكل عناية العوامل الاجتماعية المؤثرة في التنمية المعلوماتية من جهة، والآثار الاجتماعية المترتبة على هذه التنمية من جهة أخرى. على الرغم من كل ما قيل عن أهمية المعلومات، إلا أنه يلزم التنويه هنا إلى أن «العافية المجتمعية» في عصر المعلومات لا تتوقف فقط ـ كما يتصور البعض ـ على الموارد المعلوماتية، بل على تلك القدرة التضاعفية لامتزاج هذه الموارد مع عناصر القوة المجتمعية، على رغم ما للمعلومات من أهمية قصوى في دفع عجلة التنمية.

3 : 1 : 2 ثقافة الإنترنت (الطرح العام)

كما هي العادة في كل التكنولوجيات المؤثرة في صياغة المجتمع الإنساني، ينصرف الحديث ـ في البداية ـ إلى جوانبها الفنية، والتي سرعان ما تتوارى لتبرز جوانبها الاجتماعية والثقافية. وكان من الطبيعي أن تكون تكنولوجيا الإنترنت أسرع مما سبقها في نزع قناعها التقني؛ لتكشف عن مغزاها الثقافي بصفتها ساحة ثقافية في المقام الأول، بجانب كونها بنية تحتية لصناعة الثقافة. وكيف لا، وشبكة الإنترنت تتعامل مع جميع عناصر المنظومة الثقافية، سواء بوصفها ـ أي الثقافة ـ تراثا قوميا أو بوصفها إبداعا وتعبيرا أو بوصفها منتجة للسلع والخدمات والأصول الرمزية. إضافة إلى ذلك، فالشبكة تساهم في تشكيل وعي الفئات الاجتماعية، وتلعب دورا حيويا في تكامل منظومة الثقافة مع منظومات التربية والإعلام والاقتصاد، والأهم من ذلك كله أن هذه البنية المعلوماتية الجديدة توفر ـ وربما لأول مرة ـ بيئة مثالية لحوار الثقافات والتهجين الثقافي.

وكما كان شاغلنا في الماضي هو العلاقة بين التنمية والبيئة، وكيف

نحمي «التنوع البيولوجي» من الانقراض بسبب التطبيق الأعمى لتكنولوجيا الصناعة دون مراعاة لآثارها الجانبية، أصبح شاغلنا الآن هو كيف نحمي «التنوع الثقافي» هو الآخر من الانقراض؛ بسبب إساءة استخدام تكنولوجيا المعلومات، وهيمنة «القطب المعلوماتي ـ الثقافي» الأوحد، ونقصد به الولايات المتحدة الأمريكية، وهيمنة لغتها الإنجليزية وثقافاتها الجماهيرية على لغات العالم وثقافاته. لقد باتت هذه القضية المحورية هي شاغل الجميع بعدما اتضح ما لوسائل الاتصال الحديثة، وعلى رأسها الإنترنت، من إمكانات تؤهلها لتصبح أمضى أسلحة الهيمنة الثقافية والاقتصادية والسياسية بل الأمنية أيضا.

لقد جثم هذا الهاجس المخيف على المؤتمر الأخير الذي عقدته منظمة اليونسكو حول الثقافة والتنمية، في مارس 1998 بمدينة استكهولم، والذي خلص إلى ضرورة النظر إلى تكنولوجيا المعلومات من منظور ثقافي تنموي، وضرورة تكاتف الشعوب والأمم من أجل التصدي لظاهرة التجنيس الثقافي الجاري حاليا على قدم وساق.

ثقافة الإنترنت (المنظور العربي)

تمثل الإنترنت بالنسبة لنا ـ نحن العرب ـ تحديا ثقافيا قاسيا على الجبهات جميعها، سواء فيما يخص مضمون رسائلنا الثقافية، وقيمة تراثنا عالميا، وفاعلية مؤسساتنا الثقافية الرسمية وغير الرسمية، أو فيما يخص أساليب حوارنا فيما بيننا ومع الغير. ونحن معرّضون لحالة فريدة من الداروينية الثقافية؛ أصبحنا مهددين في ظلها بفجوة لغوية تفصل بين العربية ولغات العالم المتقدم، تنظيرا وتعليما واستخداما وتوثيقا، مثلما نحن مهددون بضمور شديد في إنتاجنا الإعلامي والسينمائي وإبداعنا الفني، ومهددون ـ أيضا ـ بسلب تراثنا من فنون شعبية وأغان ومقامات موسيقية وأزياء وطرز معمارية. وفي المقابل، تفتح الإنترنت أمامنا فرصا عدة لتثبيت دعائم ثقافتنا العربية بصفتها ثقافة إنسانية عالمية أصيلة وتعويض تخلفنا في كثير من مجالات العمل الثقافي. إن الموقف يتطلب إعادة النظر بصورة شاملة في سياساتنا الثقافية تجاوبا مع ثقافة الإنترنت. وذلك في إطار الإستراتيجية الشاملة للثقافة العربية التي أعدتها المنظمة

العربية للتربية والثقافة والعلوم، ووفقا لتوصيات مؤتمر اليونسكو باستكهولم المشار إليه.

3:2 المعلومات كمحور للثقافة وأداة لها

3:2: 1 تعريفات الثقافة (الطرح العام)

شُبهت الثقافة بالنسبة إلى مجتمعها كالرائحة للزهرة، لكن «تلك الرائحة» ظلت تفوح وتتكثف وتورق وتتشعب فروعا وأغصانا حتى أوشك أن يختلط أمرها مع أمر الزهرة ذاتها، وتعددت ـ بالتالي ـ أوصاف الثقافة في «باقة» من التعريفات زادت على 150 تعريفا، تؤكد في مجملها أن الثقافة تجمع بين كونها منتجا وإنتاجا، أو اسما وفعلا باستخدام المقابل اللغوي، ولا مجال هنا لاستعراض هذا الكم الهائل من التعريفات، وسنكتفي في ذلك بتصنيف موجز قام به الكاتب لهذه التعريفات وفقا للجانب الذي نركز عليه من ظاهرة الثقافة، وقد أتبعنا كل تصنيف مغزاه المعلوماتي.

(أ) **الثقافة كنسق اجتماعي:** قوامه القيم والمعتقدات والمعارف والفنون والعادات والممارسات الاجتماعية والأنماط المعيشية، وصلة هذه المقومات بالمعلومات لا تحتاج إلى دليل، فكل منها ـ في جوهره ـ هو نوع من أنساق الرموز.

(ب) **الثقافة كأيديولوجيا:** تعرف الثقافة في إطاره بصفتها المنظار الذي يرى الفرد من خلاله ذاته ومجتمعه، وبصفتها ـ أيضا ـ معيار الحكم على الأمور أيضا. وتتضح صلة هذا التعريف بالمعلومات حين ندرك كيف أصبحت تكنولوجيا المعلومات هي الأخرى منظارا نرى العالم من خلاله؛ عبر شاشات التليفزيون وشاشات الكمبيوتر ولوحات التحكم ونماذج المحاكاة وما شابه، وذلك علاوة على كون تكنولوجيا المعلومات أداة فعّالة للحكم على الأمور بفضل وسائلها الكمية وإحصائيات قياس الرأي وخلافه.

(ج) **الثقافة بوصفها انتماء:** تعبر عن التراث والهوية والحمية القومية وطابع الحياة اليومية للجماعة الثقافية. وتكنولوجيا المعلومات هي الوسيلة الفعّالة للمحافظة على هذا التراث، ورصد حصاد تلك الحياة اليومية، علاوة على ما تقدمه من خدمات في مجال اللغة؛ ركيزة الهوية ورمز الحمية القومية.

(د) **الثقافة بوصفها تواصلا**: من خلال نقل أنماط العلاقات والمعاني والخبرات بين الأجيال. وهذا التعريف ـ بلا شك ـ أقرب تعريفات الثقافة إلى تكنولوجيا المعلومات، حيث اللقاء المباشر بين اتصالات المعلومات ونظمها، والتواصل الثقافي وأنساق الرموز التي يتم من خلالها انتقال المعاني والخبرات من جيل إلى جيل.

(هـ) **الثقافة بصفتها دافعا**: على الابتكار والإبداع والنضال ضد القهر والتصدي لصنوف الظلم. وهنا يبرز دور تكنولوجيا المعلومات كأداة للمبدعين من جانب، ودور الإنترنت كسلاح في يد المناضلين والمناهضين للظلم من جانب آخر، حيث يمكن من خلالها أن تسمع أصوات المهمشين والضعفاء. وكدليل على أهمية المعلومات في العمل النضالي، نشير هنا إلى أن الحركات النضالية، والتي لم تعد تطالب فقط بعدالة توزيع الدخول والثروات وفرص العمل، بل أصبحت تؤكد أيضا على الحقوق الرمزية للجماعات التي تتحدث باسمها؛ مطالبة بإعلام أكثر شفافية، ولغة أكثر تعبيرا عن الواقع[*1] وتربية أكثر صلة بهذا الواقع.

(و) **الثقافة بوصفها حصادا متجددا**: يتم استهلاكه وإعادة إنتاجه والتفاعل معه وإدماجه في مسار الحياة اليومية. وسأستلُّ من قلب هذا التعريف مفهوم «إعادة الإنتاج»، ويقصد به ـ ثقافيا ـ إعادة النشر والتسجيل ونسخ البرامج وتجديد استخدام التراث وما شابه؛ وذلك لكي أشير إلى كيف أصبح هذا المفهوم ـ بلا منازع ـ المحور الرئيسي الذي يدور حوله اقتصاد عصر المعلومات، والعامل الأساسي في إعادة تشكيل العلاقات بين المنتج والمستهلك والمبدع والمتلقي والناشر والمؤلف.

وتتعدد التعريفات، وتتلاقى وتتباين، وتظل الثقافة ذلك الشائع الغامض، الواقع خارج حدود الوعي الفردي والجمعي، الغائر في العادات وأنماط السلوك التي تؤخذ عادة ـ كقضايا مسلّم بها (9:234)، ويأتي المتغير المعلوماتي ليضيف إلى الثقافة تعقيدا على تعقيد؛ لتجعل هي بدورها من التنمية إشكالية شائكة للغاية.

لقد نجم عن إغفال الجوانب الثقافية في عملية التنمية عديد من المشكلات في المجتمعات المتقدمة، مثل: البطالة والاغتراب واتساع الفوارق بين الطبقات. أما في المجتمعات النامية، فلا أقل من أن يوصف ما حدث،

ويحدث بالكوارث التنموية.

خلاصة القول: لقد أيقن الجميع أن لا بديل لأولوية الثقافة، التي أصبحت منظومتها تشمل التنمية بأسرها كعنصر ضمن عناصرها الأخرى.

تعريفات الثقافة (المنظور العربي)

أورد المسدي وصفا جامعا مانعا للثقافة العربية، معرّفا إياها بأنها مناط الشخصية العربية، ومستودع قيمها ووعاء حكمتها، وحقيقة هويتها الحضارية. وأسهب في الحديث عن خصائصها ومزاياها، نصطفي منه تلخيصا مفاده: أنها ثقافة إنسانية أصيلة، شاملة لمظاهر المادة والروح، ذات عراقة تاريخية، تتميز بقيم فكرية عالية وقيم الحق والعدل والمساواة واحترام المعرفة، ثقافة تتمثل الثقافات الأخرى دون إذابة أو ذوبان، تنفرد بجهاز لغوي ليس له مثيل في السعة والمرونة (48:80). لا حاجة بنا لنؤكد المغزى المعلوماتي لهذا التعريف الشامل والأبعاد الرمزية العديدة لتلك الخصائص والمزايا.

ولسنا وحدنا الذين نزعم تفرد ثقافتنا، فمعظم شعوب العالم شديدة الاعتزاز بثقافتها، تسمو بها فوق كل ثقافة أخرى، حتى رأى البعض في هذه النزعة الشوفينية شرطا ضروريا لتكوين الهوية فردية كانت أم جمعية.

بقدر ما نزهو بتفرّد ثقافتنا، بقدر ما نهاب الحديث عن تنوعها، هذا يحدث في الوقت الذي يزهو فيه غيرنا ـ كما أشرنا في الفصل الأول ـ بتنوعه الثقافي؛ وذلك بعد أن أدرك أهمية هذا التنوع في تقوية النسيج الاجتماعي، ودعم صناعة الثقافة، وزيادة القدرة على إقامة حوار ثقافي مع الغير، وهو ما أكده عصام الخفاجي بشأن خرافة تقول إن الحديث عن التنوع يخدش الوحدة الوطنية والعربية (29). وليس ثمة فرقة أو تفرقة في ذلك. فما أكثر القواسم المشتركة التي بقدرتها أن تصهر هذا التنوع في بوتقة الثقافة العربية.

3:2:2 المعلومات كأداة للثقافة (الطرح العام)

(أ) **المعلومات كأداة لمواجهة التعقد المجتمعي:** لقد أصبح التعقد سمة غالبة من سمات الوجود الإنساني. والنظم الاجتماعية ـ شأنها في ذلك

شأن كل النظم المفتوحة ـ تتحرك دوما صوب مزيد من التعقد. وقد جاءت تكنولوجيا المعلومات لتزيد الأمر صعوبة، فقد جعلت من جل أمور حياتنا إشكاليات تستوجب إعادة النظر إليها: من الترفيه إلى الإعلام، ومن اللغة إلى الهوية، ومن سلطة الحكم إلى مفهوم الديموقراطية. وهناك من يرى أن نظم الكمبيوتر والمعلومات لم تجعل حياتنا أكثر تجانسا، كما توقع البعض، بل كانت هذه النظم مصدرا لتوليد الاختلاف، وزيادة الخيارات والبدائل، مما أضاف إلى الإشكالية المجتمعية مزيدا من التعقيد.

نستخلص، مما قيل، أن تكنولوجيا المعلومات هي الداء وهي الدواء؛ فهي أمضى الأسلحة في مواجهة ظواهر التعقد؛ وذلك بفضل قدرتها على احتواء الكم الهائل من البيانات اللازمة للتعامل مع الظواهر المعقدة، بجانب توفيرها الوسائل العملية من برامج وأساليب إحصائية ونماذج محاكاة لمعالجة هذا الكم الهائل؛ لاستخلاص الجوهر وانتزاع النظام من وسط الفوضى. لقد فرض علينا فيما مضى أن نختزل تعقد الواقع حتى يدين لقدرة وسائلنا الذهنية. وآن الأوان لكي نواجه التعقد على حقيقته وجها لوجه، عسى أن يؤدي ذلك بنا إلى وضع أيدينا على «الأيدي الخفية» التي استسلمنا طويلا لأقدارها.

(ب) **المعلومات كأداة للتكامل المعرفي:** بجانب كون تكنولوجيا المعلومات معول هدم للحواجز الفاصلة بين فصائل العلوم: طبيعية كانت أم إنسانية، فهي تعمل في الوقت ذاته، وبلا هوادة، على تضييق الفاصل بين العلوم والفنون، وكذلك بين المعارف والخبرات، فلم تعد لدينا رفاهية الوقت كي نمارس الخبرة أولا ثم نعي المعرفة الكامنة وراءها ثانيا. ويكتفي الكاتب هنا بمثال لإيضاح قدرة المعلومات على إحداث هذا التكامل المعرفي؛ وذلك بالإشارة إلى تطبيق نظرية المعلومات حاليا في كثير من بحوث الفيزياء والبيولوجيا واللغة ونظرية الاحتمالات ونظرية الاتصالات وعلم النفس والفلسفة وعلوم الكمبيوتر وعلم الاجتماع والنقد الأدبي والفني.

(ج) **المعلومات كأداة للتوازن المجتمعي:** يمكن القول إن المعلومات تعمل داخل المجتمع كوسيلة للضبط الذاتي. ويقصد بذلك كونها وسيلة للتغذية المرتدة، أو رجع الصدى feedback بمفهوم نظرية التحكم. تنشأ هذه التغذية المرتدة، عن سريان المعلومات في مسارات مقفلة تربط بين القرارات

والممارسات وبين النتائج وردود الأفعال. وبفضل الرسالة التي تحملها التغذية المرتدة، تستشعر منظومة المجتمع مدى الحيود والانحرافات عن الأهداف المرسومة أو المعايير المقررة.

في ظل هذا المفهوم، فإن المجتمع الرأسمالي ـ مقارنة بنظيره الاشتراكي على سبيل المثال ـ كان أكثر قدرة، بفضل فاعلية نظم معلوماته وسرعة تداولها، على التكيف وتصحيح أوضاعه ذاتيا تجاوبا مع المتغيرات الاجتماعية. والسؤال هنا: هل يمكن للمعلومات وتغذيتها المرتدة أن ترأب الصدع في المجتمع الإنساني الحديث، بعد أن أصبح أشد اختلالا وتناقضا، يعاني مما يمكن أن نسميه بحضارة الانفصال: انفصال بين الفكر والسلوك، وبين النظرية والتطبيق، وبين التعليم والتربية، وبين التنمية والمحافظة على البيئة، وبين التقدم الاقتصادي وتحقيق الرفاهية الحقة، وبين قدرات التكنولوجيا الممكنة ونتائجها المتحققة فعليا. ولا مفرّ من أن يؤدي بنا تيار الانفصال هذا إلى انفصال الإنسان عن واقعه، ليفضي في نهاية المطاف إلى انفصال الإنسان عن الإنسان. إن دور نظم المعلومات المجتمعية ـ في المقام الأول ـ هو إبراز حدة التناقضات الناجمة عن هذا الانفصال، والكشف عن علاقات الترابط بينها؛ وذلك كمطلب أساسي من أجل مجتمع أكثر توازنا وتواؤما وتكيفا.

(د) **المعلومات أداة لصناعة الثقافة:** تمثل المعلومات أهم مقومات البنى التحتية لصناعة الثقافة. فبجانب توفيرها المواد الخام التي تقوم عليها هذه الصناعة، ونقصد بها موارد المعلومات الثقافية، تمثل تكنولوجيا المعلومات الشق الأساسي في معظم التكنولوجيات الثقافية: تكنولوجيا التعليم وتكنولوجيا الإعلام وتكنولوجيا هندسة اللغة (معالجتها آليا بواسطة الكمبيوتر) وتكنولوجيا الفنون، وتكنولوجيا صيانة ومعالجة التراث. ولنا هنا وقفة قصيرة نوجز فيها ما ورد في تقرير التنوع البشري الخلاق بخصوص فهم التراث والذي رأى أنه يخضع لرؤية أحادية تسيطر عليها المعايير الجمالية والتاريخية (116: 197)، رؤية ترى الأثر الضخم لا البسيط المكتوب أو الشفاهي، تحتفي بالاحتفالي لا العادي وبالمقدس لا الدنيوي. ومرة أخرى فإن تغيير هذه النظرة إلى التراث يتطلب سندا قويا من تكنولوجيا المعلومات بعد أن أصبح واسع الانتشار دائم التجدد.

(هـ) **المعلومات أداة للتنظير الثقافي:** لم تعد الثقافة خاصا أكاديميا بل شاغلا أساسيا للجميع؛ بعد أن اتضحت أولويتها في عملية التنمية، وذلك علاوة على كونها ـ قائمة بذاتها ـ من أهم صناعات عصر المعلومات. لقد تاهت إشكالية الثقافة في فكر القرن العشرين الذي استهواه عمق التخصص الضيق؛ فقرر الانسحاب من الأسئلة العامة التي عادت تلح علينا من جديد؛ وذلك بفعل المتغير المعلوماتي الذي راح يطرح من الصفر معظم القضايا الثقافية والاجتماعية. إن التنظير الثقافي، أو علم الثقافة، كما سنوضح في الفقرة القادمة، هو مزيج من الفروع المعرفية المختلفة. ومن المعروف أن الامتزاج المعرفي يتطلب سندا معلوماتيا أقوى، لكي يمكن احتواء غابة التداخلات بين الفروع المعرفية المختلفة

من جانب آخر، فإن التنظير الثقافي الحديث لا يستسيغ الفصل بين ثقافة النخبة وثقافة العامة، ويتجه نحو دراسة الثقافة وهي تعمل بصورة دينامية، في إطار الهياكل الاجتماعية القائمة والممارسات الفعلية داخل المجتمع. مرة أخرى، لا تتأتى للتنظير الثقافي هذه القدرة على هذه المواجهة الاجتماعية العريضة، دون سند معلوماتي قوي، في صورة خرائط ثقافية، ومسوح إحصائية، وقواعد بيانات لتسجيل ظواهر الواقع الاجتماعي، والخصائص الثقافية للفئات الاجتماعية المختلفة: عامة كانت أم نخبوية. وتأتي العولمة لتضيف إلى التنظير الثقافي خاصية جديدة تتطلب ـ هي الأخرى ـ مزيدا من المعلومات فيما يخص الدراسات الثقافية المقارنة، اللازمة لتناول الجوانب العديدة المتعلقة بحوار الثقافات وتصادمها وامتزاجها.

المعلومات كأداة للثقافة (المنظور العربي)

(أ) **عن تعقدهم وتعقدنا:** يزعم الكاتب أن العقل العربي المعاصر ليست لديه عدة معرفية كافية لمواجهة تعقد عصر المعلومات سواء على مستوى القضايا العامة أو المسائل المتخصصة، وهو ما سنوليه مزيدا من التفصيل في الفقرة 3:3:4 من الفصل القادم الخاص بمنظومة الفكر الثقافي. مما يزيد الموقف صعوبة أن تعقد معظم ظواهرنا الاجتماعية يمكن أن نصفه ـ إن جاز التعبير ـ بالتعقد الخبيث، تعقد شرس، ليس كتعقد المجتمعات

المتقدمة الذي يُستأنس وتُكسر شوكته بوسائل وآليات اجتماعية عدة. فمن خلال التنظيمات والتشريعات والنظم وآليات قياس الأداء ومؤشرات قياس الرأي وتقييم نتائج القرارات تُوجه الموارد الاجتماعية اللازمة، وكذلك المناورة بها؛ من أجل احتواء التعقد وإخضاعه لسيطرة النظم القائمة، وما إن يظهر التعقد حتى تتولد الخطابات التي تسعى إلى تفكيك مظاهره وتفتيتها ومحاصرتها بالتالي.

ولكن، أين نحن من هذا التعقد الحميد المستأنس السريع الامتصاص، فتعقدنا الخبيث في أغلب أحواله يمثل عجينة جهنمية من خليط التراكمات والعشوائيات، وتشتت الاتجاهات وتضارب الأفكار المضطربة والمتصارعة. وما أكثر الحالات التي يبقى التعقد فيها، معلقا دونما حسم، جاثما على البنى المعرفية والنظم الاجتماعية القائمة، حتى يغوص فيها رويدا رويدا ليختلط مع ما سبق لهذه البنى والنظم أن ابتلعته في جوفها من تعقيدات. وهكذا دواليك، حتى يصل الوضع إلى حد الانفجار أو الوقوع في دوامة الدوائر الخبيثة. ومرة أخرى، نؤوب إلى تكنولوجيا المعلومات بحثا عن مخرج، فلا «يفل» خبث التعقد إلا فيض المعلومات الذي يعمل على تحليل تشابكاته وتفتيته وإذابته.

لقد أصبحت مواجهة التعقد واجبا أساسيا للفكر الثقافي العربي، فما أخطر أن يسلم بسطاؤنا أقدارهم ومصائرهم للأقوياء، بعد أن تجاوز التعقد قدرتهم وقدرة من يقف بجانبهم. فسرعان ما تتحول القضايا الاجتماعية والسياسية في أيدي هؤلاء الأقوياء إلى مسائل تكنولوجية يتكفل بها أصحاب القرار يؤازرهم المستشارون والخبراء وسدنة البيروقراط، ولتهدأ السلطة بالا؛ فالوضع يبدو كأنه بفعل قانون طبيعي مؤداه أن لا بديل في مواجهة التعقد إلا السلطة دون غيرها.

(ب) **عن تكاملهم وتشتتنا**: خريطة الفكر العربي سلسلة من الجزر المنعزلة، خالية من الجسور، مليئة بالفجوات والمناطق المجهولة. وقد أظهرت ـ وستظهر ـ تحديات عصر المعلومات مدى تشتتنا المعرفي، ولنأخذ مثالا لهذا التشتت ـ وما أكثر الأمثلة ـ حالة التشرذم المعرفي الشديد التي يعيشها فكرنا اللغوي الراهن، والمتمثلة في انعدام الحوار بين اللغويين والمعجميين والتربويين والإعلاميين وعلماء النفس والكمبيوتر ولتضم إليهم حديثا علماء

البيولوجي، بعد أن تنامت علاقتهم بقضايا اللغة. ويرى الكاتب أنه لا حل للتشتت والتشرذم إلا باللجوء إلى المعلومات، كأداة مثلى للإسراع في عملية التكامل المعرفي.

(ج) **عن توازنهم المجتمعي واختلاله لدينا:** لن يدين لنا النجاح في توطين تكنولوجيا المعلومات في تربيتنا العربية إلا إذا نظرنا إلى التكنولوجيا بمفهومها الواسع، الذي لا يقتصر على الأمور الفنية فقط، بل يشمل أيضا الجوانب الاجتماعية والثقافية والتنظيمية لاقتناء التكنولوجيا وتطبيقها وتطويرها.

أما إذا فشلنا في تحقيق ذلك، فمن المحتم أن المعلومات لن تؤدي إلى توازن المجتمعات العربية، بل ستؤدي ـ على العكس ـ إلى مزيد من الخلل والاختلال، ونقصد بذلك اتساع الهوة بين من يملك ومن لا يملك، وبين من يعرف ومن لا يعرف، ويزداد الانفصال بين فكرنا وواقعنا، وبين حكامنا وجماهيرنا، وبين تربيتنا ومطالب عصرنا، وبين أجيالنا السابقة وأجيالنا اللاحقة.

(هـ) تنظيرهم وتنظيرنا: لا يخفى على أحد مدى قصور تنظيرنا الثقافي، وهو إحدى النتائج المنطقية لغياب التكامل المعرفي، خاصة بعد أن تعددت الفروع المعرفية المغذية لعلم الثقافة. ونحن نوافق الرأي القائل إننا نجهل الكثير عن أمور ثقافتنا الشعبية، ومازلنا ننظر بعين ملؤها الشك ـ كما أشرنا سلفا ـ إلى تنوعنا الثقافي بروافده المختلفة، التي تصب في مسار الثقافة العربية.

يتطلب كل هذا سندا معلوماتيا قويا لإقامة الخرائط الثقافية، وقواعد البيانات اللازمة لثقافتنا الشعبية، ومظاهر تنوعنا الثقافي، ناهيك عما تضيفه العولمة من مطالب لمواجهة غزوها الثقافي.

خلاصة المقال، من كل ما قيل وما سيقال، أن لا غنى عن المعلومات في مواجهة إشكاليات ثقافتنا وحسن استغلالنا لمواردها.

3:2:3 علم الثقافة وثقافة العلم (الطرح العام)

(أ) **علم الثقافة:** لقد أصبحت الثقافة علما قائما بذاته تساهم فيه فروع علمية مختلفة، على رأسها علم الإناسة (الأنثروبولوجيا) الرمزية،

وعلم اجتماع المعرفة، وكلاهما، كما يدل مصطلحاهما، ذو صلة وثيقة بالمعلومات. فالأنثروبولوجيا الرمزية تطبق الأسس اللغوية، والمنهج البنيوي الذي يرتكز هو الآخر على اللسانيات في تحليل التراث الثقافي: نصوصه وبناه المعرفية ومؤسساته الاجتماعية. يقوم علم اجتماع المعرفة بدراسة علاقات الترابط بين المعرفة والسياقين الثقافي والاجتماعي اللذين أفرزا هذه المعرفة، أو اللذين تطبق فيهما. إن دارسي علم اجتماع المعرفة يشغلهم في ـ المقام الأول ـ تعقب المعرفة وقد تجسدت في تنظيمات المؤسسات الاجتماعية ومواثيقها، وتجلت في أداء هذه المؤسسات وسلوك أفرادها.

كما هو واضح، سيمضي وقت ليس بقصير قبل أن يستقر علم الثقافة على خريطة المعرفة الإنسانية، خاصة أن الأمر في هذا يتوقف على مدى الشوط الذي قطعته علوم الإنسانيات، المغذية لعلم الثقافة، في طريقها نحو الوصول إلى رتبة العلوم الدقيقة. وفي هذا الصدد، علينا أن ننوه إلى أن بلوغ الموضوعية في علوم الإنسانيات أصعب بكثير عنه في العلوم الطبيعية. تتضمن الفقرة 3:3:3 من هذا الفصل مزيدا من التفاصيل عن فروع علم الثقافة ومناهل التنظير الثقافي.

(ب) **ثقافة العلم**: طوت فلسفة القدماء العلم في عباءتها، وظل هكذا إلى أن انفصل عنها بصورة حاسمة على يد إسحاق نيوتن؛ حيث كان كتابه «الأسس الرياضية للفلسفة الطبيعية»، بمنزلة إعلان رسمي لهذا الانفصال (224:74)، على الرغم من استقلال العلم عن الفلسفة، إلا أن صلته بها لم تنقطع؛ حيث أصبحت للعلم فلسفته الخاصة به من جانب، وتزايد تأثير العلم في الفكر الفلسفي من جانب آخر. فمنذ أن طالب جون لوك، صاحب النزعة العلموقراطية، فلاسفة عصره أن يأخذوا في اعتبارهم أثر الاكتشافات العلمية، وصلة العلم بالفلسفة تزداد وثوقا بشكل مطرد، وأصبح من الأمور المعتادة ـ حاليا ـ أن نرى كثيرا من الفلاسفة ومنظري الثقافة المعاصرين يلجأون إلى النظريات العلمية كمنهل أساسي لتنظيرهم، فبينما تستعين جوليا كريستيفا ـ على سبيل المثال ـ في نظريتها عن الشعر بنظرية فيزياء الكم (الكوانتم)، يلجأ جاك دريدا في تفكيكيته إلى الرياضيات المنطقية لكورت جودل. وما أكثر هؤلاء المنظرين الثقافيين الذين جعلوا من نظرية المعلومات ونظرية النظم منطلقا أساسيا لجهدهم البحثي. لقد أوشك العلم

أن يتجاوز دوره كأداة للفلسفة، كي يصبح ذاته ضربا من الفلسفة. فكما أشرنا سلفا تقترب التكنولوجيا الحديثة من أن تصبح فرعا من فلسفة الأخلاق، وأن يصبح العلم الحديث هو الآخر نوعا من الأيديولوجيا، ومثالنا في ذلك ما كتبه ر. س. ليونتن عن «البيولوجيا كأيديولوجيا» (عقيدة الدنا DNA) (136)، ولنضف هنا في شأن تعاظم دور العلم في الفكر الفلسفي حقيقة أن فلسفة العلم، وفلسفة اللغة بوجه خاص، قد أصبحتا صلب الفلسفة المعاصرة إلى حد أشبه بالتطابق. وفي حاضرنا الراهن، وعصر معلوماته البازغ، تكاد علموقراطية فرانسيس بيكون أن تتحول على يد فرنسوا ليوتار إلى ما يمكن أن نطلق عليه «معلوقراطية». مجتمع ما بعد الصناعة؛ حيث لمح ليوتار في «شرط ما بعد الحداثة» إلى أن العلم لا يستوفي شروط جدارته العلمية إلا إذا دان هذا العلم للمعالجة الآلية بواسطة الكمبيوتر؛ وذلك حتى يكون قابلا للاندماج في الكيان المعرفي الأشمل (4:274). بقول آخر: لقد أصبحت المعالجة الآلية الحاسوبية شرطا لعضوية «النادي العلمي». وفي رأي الكاتب إن ما خلص إليه ليوتار لا يخلو من إسراف، فهو يعني بالتبعية أن المعالجة الآلية لابد وأن تغطي المجالات كافة التي تتناولها العلوم جميعها: طبيعية كانت أو إنسانية، ونحن ننحاز إلى الرأي القائل إن هناك جوانب عدة، ستكشف عنها بحوث العلوم الإنسانية، لن تصل إليها اليد الطولى لتكنولوجيا المعلومات.

علم الثقافة وثقافة العلم (المنظور العربي)

(أ) **علم الثقافة**: ربما كان ابن خلدون، في مقدمته، هو أول من نبّه إلى «المعنى العام لمفهوم اجتماعية المعرفة؛ وذلك عندما أكد على علاقة الارتباط بين الثقافة والعمل، وأن المعرفة تتطبع بطبيعة المناخ الاجتماعي الذي تنطلق منه (34:87). هذه لمحة مما خلفه لنا السلف العظيم فيما يخص علم اجتماع المعرفة بمفهومه الحديث، والذي يجب على مفكرينا أن يساهموا فيه بصورة جدية ومتعمقة؛ حيث تشير دلائل عدة إلى أن هذا العلم سيصبح بمنزلة المظلة المعرفية لكثير من العلوم الإنسانية خاصة في مجال نظرية التربية ونظرية الإعلام ونظرية القيم. يتطلب ذلك ـ أول ما يتطلب ـ إحياء الفكر الفلسفي وتنمية التوجه عبر النوعي أو التخصصي، والتخلص من تلك

الثنائيات التي تنخر في كيان الثقافة العربية. ولا شك في أن أزمة فكرنا الفلسفي هي نتيجة طبيعية لتدني وضع الفكر والعلم عموما في مجتمعاتنا، وضعف الطلب على نتاج الفكر الفلسفي. ومازال الكثيرون من العلميين لدينا يعدون هذا الفكر ضربا من اللغو الأكاديمي وقد فاتهم، في غيهم هذا، أنه لا بديل للفلسفة إن عجز العلم ـ وكثيرا ما سيعجز ـ عن مواجهة تحديات عصر المعلومات، ولا ملاذ للعلم إلا الفلسفة وهو يقف حائرا عندما يدنو من أقصى مشارفه، باحثا عن مناهل جديدة ينفذ منها إلى أراض بكر، ولن ينفذ إليها إلا «بسلطان» الفلسفة.

ويرى محمد عمارة، في رؤيته الإسلامية لإنتاج المعرفة، ضرورة الفصل بين فلسفة العلوم الطبيعية وفلسفة العلوم الإنسانية، بمعنى أن يقتصر جهد أسلمة العلوم على شق الإنسانيات: اجتماعية وسياسية واقتصادية وتربوية[(*2)] ويتساءل الكاتب هنا: هل يمكن أن يصمد هذا التوجه أمام التداخل الشديد في خريطة المعرفة الإنسانية، ويشهد تاريخ الفكر الفلسفي والاجتماعي بتأثره دوما بما يحدث على جبهة العلوم الطبيعية، وتؤكد دلائل عدة على أن علاقة التأثير والتأثر بين الطبيعيات والإنسانيات ستزداد وثوقا في عصر المعلومات؟ علاوة على ما سبق، فإن فكرنا الثقافي ـ بصورة عامة ـ يسوده فكر الأدب والنقد الأدبي. وقد نجحت السياسة في تشتيت فكرنا الثقافي، فغاب عنه النظر في الأمور العديدة الأخرى للتنظير الثقافي، من اجتماع واقتصاد لسانيات وفلسفة علم ومعلوماتية. وما أشد حسرة الكاتب على الجهد الذي تبذله عقول عربية نادرة، في لهاثها التنظيري شبه المستحيل، كي تقيم من شتات الفكر العربي والإسلامي صروحا فلسفية ونظريات علمية ذات حد أدنى من التماسك. وذلك بدلا من أن يطوعوا ـ أسوة بغيرهم ـ حصاد هذا الفكر ليصب في مسار الفكر الإنساني العام.

خلاصة القول: لابد من تفريخ فلاسفة ومنظرين عرب جدد، فما أشد حاجتنا إليهم في عصر المعلومات، وهو الأمر الذي يحتاج إلى إعادة النظر في جميع مناهج أقسام الفلسفة واللغات والاجتماع والإعلام؛ بما يتفق وتنوع الفكر الثقافي واتساع نطاقه.

(ب) **رطانة ثقافتنا العلمية:** في بحثه بعنوان «الثقافة العلمية في الوطن العربي: هل من جديد؟» خلص أسامة الخولي إلى أننا مازلنا دون تعريف

واضح، وليس بالضرورة بالغ الدقة، لمصطلح الثقافة العلمية [31]. ومازال الكثيرون يقصرون مفهوم هذه الثقافة على أمور تبسيط العلوم والإلمام بآخر إنجازات العلم والتكنولوجيا ويدرج البعض ضمن هذا ـ أحيانا ـ مظاهر الإعجاز العلمي في القرآن. وينظر الكاتب إلى الثقافة العلمية، استهداء بما أوضحه الخولي، كقضية ذات وجهين، ويقصد بذلك أنها تتطلب تثقيف غير العلميين علميا، وتوعية العلميين ثقافيا، بل وعلميا أيضا. فلا يخفى على أحد أن كثيرا من علمائنا باتوا أنفسهم في حاجة إلى تثقيف علمي يحررهم من أسر تخصصهم الضيق، ويسد فجوات الفراغ الفكري لديهم. وكما هو متوقع، لا يقر هؤلاء العلماء المتخصصون بسهولة بوجود مثل هذا الفراغ الفكري، وغالبا ما يملأونه بمط نطاق تخصصهم العلمي، متخذين منه نوعا من «الأيديولوجيا الشاملة» يفسرون بها العالم من حولهم. ومآل ذلك ـ في النهاية ـ هو الانغلاق في ثقافة أحادية الأبعاد، واختزال العالم ومشكلاته في عدد محدود من المقولات والمسلمات، أو الوقوع في فخ «شبه العلم quasi-science» والسطحية العلمية.

أما عن اهتمام الإعلام العربي بالثقافة العلمية، فمن حسن الطالع أن صحفنا العربية باتت تولي اهتماما أكبر بها، وعلى رأسها جريدة «الحياة» اللندنية، والصفحة الثقافية في ملحق جريدة الأهرام المصرية، ومجلة العربي الكويتية.

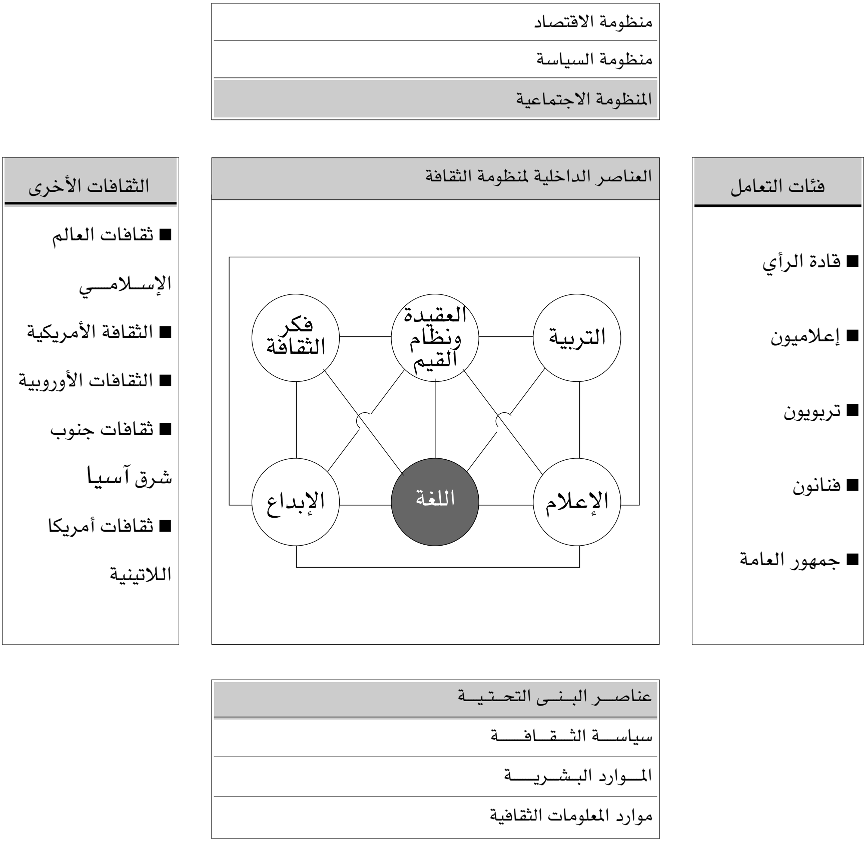
3:3 منظومة ثقافة المعلومات

3:3: 1 الإطار العام لمنظومة ثقافة المعلومات

يمثل الشكل (2:3) الإطار العام لمنظومة ثقافة المعلومات. وكما يوضح الشكل يشتمل هذا الإطار على ثلاثة مكونات أساسية هي:

- العلاقات الخارجية التي تربط منظومة ثقافة المعلومات بخارجها.
- العناصر الداخلية لمنظومة ثقافة المعلومات.
- البنى التحتية لمنظومة ثقافة المعلومات، والتي تشمل السياسة الثقافية والإعلامية وموارد المعلومات الثقافية، والموارد البشرية التي تشمل عمالة صناعة الثقافة ومديري المؤسسات الثقافية.

وسنتناول فيما يلي المكونين الأولين.



الشكل (2:3) الإطار العام لمنظومة ثقافة المعلومات

2:3:3 علاقة منظومة ثقافة المعلومات بخارجها (الطرح العام)

(أ) علاقة منظومة الثقافة بمنظومة المجتمع ككل: أحسب أن لا حاجة بنا إلى تأكيد الطابع التبادلي لعلاقة التكنولوجيا بالمجتمع، فكما أن للتكنولوجيا دورا حاسما في تشكيل مجتمعها، يمكن القول، إذا ما نظرنا في الاتجاه العكسي، إن المجتمع يفرز التكنولوجيا التي يحتاج إليها. ويزعم الكاتب أن هذه العلاقة التبادلية قد فقدت قدرا كبيرا من توازنها؛ وذلك نتيجة للمعدل السريع لتطور تكنولوجيا المعلومات التي تنطلق بأقصى سرعة يلهث وراءها المجتمع ويسعى جاهدا للحاق بها. وتلوح في الأفق فجوة تزداد

اتساعا بين سرعة تطور التكنولوجيا المعلوماتية وقدرة المجتمع الإنساني على استيعابها. دليلنا على ذلك أن هناك كثيرا من الاستخدامات التكنولوجية الممكنة فنيا قد أرجئت انتظارا لنمو الطلب الاجتماعي عليها، أو توافر المناخ الملائم لتطبيقها. يفسر ذلك ما يبديه مخططو التنمية المعلوماتية، سواء في أوروبا أو الولايات المتحدة، من اهتمام زائد بالعوامل الاجتماعية، وضرورة تطويع تكنولوجيا المعلومات اجتماعيا، قبل المجازفة بالإلقاء بها في دوامة التفاعل المجتمعي.

لقد صدق من قال إن المجتمع لا تشكله السياسة أو الاقتصاد، بقدر ما يشكله نظام التواصل السائد بين الأفراد والجماعات والمؤسسات ـ انظر الفقرة 3:1:1 من هذا الفصل. وقد جاءت تكنولوجيا المعلومات لتزيد هذا المفهوم رسوخا، ودعنا نلهو قليلا برطانة الأوصاف التي ما فتئوا يخلعونها على هذا الإنسان الضائع، الحائر بين عصور الأحجار والمعادن والمداخن والمفاعلات والمعلومات. فالإنسان ـ بناء على مفهومنا الحالي ـ ليس هو الهموبوليتك (الإنس ـ سياسي) ولا هو الهموإيكونوميك (الإنس ـ اقتصادي) بل هو في حقيقة أمره الهموكومونيكيك (الإنس ـ اتصالي). ما قصدته بلهو «الهمو ـ تيك» هو أن ألفت الأنظار إلى مدى الخطورة التي تنطوي عليها تبعية الإنسان للتكنولوجيا، وليس العكس. نحن في أمس الحاجة إلى أن تتبعنا التكنولوجيا لا أن نلهث وراءها، لتصطبغ بصفاتنا نحن لا أن تدمغنا هي بصفاتها. نحن نريد تكنولوجيا إنسانية تعيد إلى الإنسان إنسانيته، وتكنولوجيا اجتماعية تعيد للمجتمع الإنساني توازنه وعقلانيته. ولا شك في أن تكنولوجيا المعلومات بفضل مرونتها الهائلة ستكون أكثر قابلية للتوجيه الاجتماعي. يستلزم ذلك ـ بداية ـ نظرية اجتماعية جديدة تماما، نظرية لا ترى الثقافة مجرد عامل مساعد يدفع المجتمع صوب غاياته، كما في نموذج ماكس فيبر، ولا تختزل الثقافة إلى ناتج فرعي لطور الإنتاج السائد، كما في نموذج كارل ماركس ذي التمركز الاقتصادي، ولا تقصر دور الثقافة على كونها مؤسسة ضمن مؤسسات اجتماعية أخرى، كما في نموذج إميل دوركايم. إجمالا، نحن ننشد نظرية لا تتعامل مع «طور إعادة الإنتاج» بل «طور المعلومات» كما طالب مارك بوستر (298). و«طور المعلومات» يعني ـ في جوهره ـ «طور إعادة الإنتاج». فكل ما ينتجه مجتمع المعلومات، من

نصوص وصور وأفلام وموسيقى وبرامج، قابل للنسخ، أو إعادة الإنتاج، بل يمكن أيضا إعادة إنتاج الخبرات والخبراء، كما سنوضح في الفقرة 4:1:1 من الفصل القادم. وشتان الفرق بين ما نعنيه هنا بالإنتاج وإعادة الإنتاج اقتصاديا وثقافيا وسياسيا.

وقناعة أهل الحتمية التكنولوجية أنه ما إن تخترع آلة جديدة، إلا وتصبح قدرتها على تحويل المؤسسات الاجتماعية مسألة وقت (325). وكلما تقدمت المجتمعات وارتقت التكنولوجيا، قصر الوقت اللازم لإحداث عملية التحويل تلك. وخير دليل على ذلك ما نشهده حاليا على ساحة الإنترنت من السرعة الهائلة التي تُحوّل بها معظم مجالات الأنشطة الاجتماعية لتعمل عبر الشبكة. هناك من يعارضون بشدة الحتمية التكنولوجية على أساس أن المؤسسات الاجتماعية تعمل وفقا لمنطق داخ0لي ويسيطر عليها نسق راسخ من المعايير والقيم. من الآراء الشائعة أن تكنولوجيا الصناعة قد أفرزت مجتمع الرأسمالية ومفهوم الدولة ومؤسساتها، والسؤال الآن: ما شكل المجتمع الإنساني الذي ستفرزه في المقابل تكنولوجيا المعلومات؟ ويصعب بالطبع التكهن به، إلا أنه على ما يبدو سيكون ـ بصورة أو بأخرى ـ صيغة وسطى ما بين العالمية والمحلية، وما بين العام والخاص، وما بين الحكومي وغير الحكومي، وما بين المؤسسي والفردي، مجتمعا عازفا عن مركزية الإدارة والسلطة والحكومات المتضخمة، مفضلا عليها الإدارة اللامركزية والإنتاج الموزع والحكومات المتضائلة، مجتمعا ينأى عن التعامل مع «الكتل المتجانسة massification» المتمثل في إنتاج الجملة والإعلام الجماهيري وتعليم المجموعات الغفيرة[*3]، من

حازا إلى «اللاكتلي» في الإنتاج والإعلام والتعليم، بل ربما في أمور السياسة أيضا. وكما يقول بيير ليفي فإننا نواجه ظاهرة اجتماعية جديدة تماما قاصدا بذلك الذكاء الجمعي الكلي الذي يتضاعف بصورة أسية مع زيادة التفاعل وزيادة معدل إنتاج المعرفة وتداولها واستهلاكها، وزيادة التفاعل بين عناصر المنظومة المجتمعية، وهو يزعم أن هذه الظاهرة الاجتماعية لم يسبق للدين أو القانون أو الاقتصاد التقليدي أن تناولها (40:269).

(ب) **علاقة منظومة الثقافة بالمنظومة السياسية:** من أبرز ملامح العلاقة الثقافية المعلوماتية، إعادة طرح المفاهيم الأساسية للديموقراطية والعدالة

الاجتماعية وحماية الخصوصية الفردية. من وجهة نظر أخرى، فقد أصبحت القوانين وحدها، بفعل المتغير المعلوماتي، لا تكفي لفرض الالتزام في أمور مثل: صحة البيانات والأمانة العلمية واحترام الملكية الفكرية والمسؤوليات الأدبية للخبراء والمستشارين والعلماء وما شابه؛ الأمر الذي يقتضي تضافر القوانين مع وسائل إلزام أخرى، كتقاليد المهنة والوازع الأخلاقي والرقابة الذاتية. ونود أن نشير هنا إلى ما خلص إليه تقرير اليونسكو من أن خيالنا السياسي والاجتماعي يتسم بالخمول والبُعد تماما عن الطفرات التي يحققها خيالنا العلمي، وهو الأمر الذي أدى بدوره إلى قصور ثقافي بين العلم والتكنولوجيا من ناحية، وبين مؤسساتنا الاجتماعية والسياسية من ناحية أخرى (116: 96). لقد حان الوقت لهذا الفكر أن ينزل من برجه العاجي، وأن يتخلص من براجماتياته، وأسلوب إدارة الأزمات، وبرودة تجاوبه مع مشكلات الجماهير بحجة الحرص على سلامة الإجراءات، وشرعية المؤسسات.

(ج) **علاقة منظومة الثقافة بالمنظومة الاقتصادية:** فرضت ثقافة المعلومات وصناعتها، وطابع إعادة الإنتاج الذي تقوم عليه هذه الثقافة وتلك الصناعة، فكرا اقتصاديا مغايرا فيما يخص نظرية القيمة والملكية الفكرية وحساب المكاسب والخسائر الثقافية. فلم يعد كافيا في تقييم مشاريع التنمية أن يقتصر الأمر على حساب العائد المباشر أو الكلفة المادية المحسوسة والمباشرة، اللذين يُحسبان ـ عادة ـ على المدى القصير، دون مراعاة لتلك غير المباشرة، والتي تظهر غالبا على مدى زمني أطول. وكما هي الحال في شأن السياسة، فالعالم في أمس الحاجة إلى نظرية اقتصادية مغايرة، نظرية لا تحاكي مناهج علوم الطبيعيات، بل تنحاز إلى جانب الإنسانيات؛ من أجل تحقيق الهدف الأساسي للاقتصاد، ألا وهو تحقيق الرفاهية الحقة للمجتمعات والأفراد.

لقد نجح نظام الدولة في عصور ثروات الأراضي وثروات الأموال، فهل سينجح في عصر الثروة المعرفية والعمالة الذهنية؟ هناك من يشكك في ذلك متوقعا فشل الدولة في حماية الملكية الفكرية، مما سيقوض مركزها ويهدد بانهيارها. لقد تغير دور الدولة ـ كما خلص البعض ـ من الدولة الحارسة المدافعة ضد أنواع التهديد من خارجها، إلى الدولة الآمرة المنظمة

للعلاقات بين الأفراد والمؤسسات، وأخيرا أوشكت الدولة أن تصبح مجرد مدبرة منزل، حارسة لما يجري بداخلها، وما يفد إليها من خارجها.

(د) **علاقة منظومة الثقافة بالثقافات الأخرى:** لا ريب في أن عولمة الثقافة مازالت في بدايتها، وكل ما نسمع عنه بشأن تأصيل الأسس الثقافية لظاهرة العولمة، ما هو إلا محض تصورات وآراء متسرعة لمساندة عولمة الاقتصاد في المقام الأول. وبينما يمكن لثقافة النخبة أن تسرع من عملية تكيفها مع الثقافة العالمية، لا يمكن للثقافات الشعبية ـ وهي الأهم هنا ـ التكيف بالمعدل نفسه، نظرا إلى جذورها الضاربة في أعماق المنظومة المجتمعية. إن أمر عولمة الثقافة مازال معلقا، ويشتد وطيس السجال بشأنه. هناك من يزعم أن ثقافة عصر الإنترنت هي المدخل لتحقيق حلم البشرية الذي طال انتظاره في إرساء ثقافة تمهد لسلام حقيقي ودائم، تنعم في ظله البشرية في «هيتروطوبيا» من تنوع الثقافات وتعددها. لقد بنوا تصورهم هذا على أساس أن هناك في تنوع الثقافات وحدة كافية من القيم والمعاني تسمح بوجود أخلاقيات عالمية؛ فليس هناك إنسان لا يرغب في تخفيف المعاناة، ولا يرفض الممارسات غير الإنسانية من قبيل حرق الأرامل ووأد البنات واستغلال عمالة الأطفال والسخرة الجنسية والعبودية وما شابه (14:116)، ولكن القضية بلا شك أعقد من ذلك بكثير خاصة فيما يتعلق بعلاقة الثقافة بالعقائد الدينية. على النقيض من وجهة النظر المتفائلة تلك. هناك آخرون يراهنون على حتمية الصراع واستحالة الوفاق العالمي والاجتماعي، وأن الثقافة ستظل نسبية متشبثة بخصوصياتها المحلية، بل هناك من يؤكد أن الإنترنت ستؤدي إلى جرف حاد يفصل، سواء بين الثقافات، أو ما بين الفئات الاجتماعية، وستعيد فرز المجتمعات الإنسانية وفقا لمعايير عصر المعلومات، وأن العالم سيشهد «داروينية ثقافية» شرسة تلتهم فيها الثقافات الأقوى ـ والثقافة الأمريكية تحديدا ـ ما دونها من الثقافات.

(و) **علاقة منظومات الثقافة بالفئات الاجتماعية:** تتطلب ثقافة المعلومات إعادة طرح العلاقة بين الإنسان والمجتمع، وموقف الفئات الثقافية المختلفة من منظومة الثقافة. إنها تستدعي نظرة جديدة نحو الذات الإنسانية، نظرة متحررة من حتمية المثلث الأوديبي تتجاوز رباعية الجسد والغرائز والعقل والروح، جاعلة من النضوج النفسي نتاجا لتفاعل

الفسيولوجي مع الرمزي، وترى الذات مشروعا رمزيا يتحقق من خلال التفاعل الإيجابي الحي مع عالم الواقع وعوالم الفضاء المعلوماتي، ومن خلال الممارسة والمشاركة وتقبل المخاطر، والقدرة على اتخاذ القرارات والوعي ببدائل الخيارات، ولابد لهذه النظرة الجديدة تجاه الذات الإنسانية أن تتعرض لعلاقة الإنسان بالآلة بعد امتزاجهما في توليفة «تكنو ـ حيوية»، ذات طابع جدلي تكاد تفقده السيطرة على آلته، وبالتالي على عالمه وعلى ذاته أيضا. ومن المسلّم به أن هذا لن يتحقق إلا إذا أدركت الفئات الاجتماعية المختلفة من قادة الرأي والإعلاميين والتربويين والدعاة الدينيين ماذا تعنيه ثقافة المعلومات بالنسبة للمجتمع ككل: أفراده وجماعاته ومؤسساته وعلاقاته، علاوة على تحدياته وفرصه وتوقعاته.

على صعيد آخر، يؤكد الكثيرون أن الإنترنت يمكن أن تكون أداة في يد الأقليات والفئات الاجتماعية المهمشة، وقد أبدى البعض تخوفه من ارتباط القوة بالقدرة على استغلال موارد المعلومات، لا بالغلبة العددية، مما يمكن معه أن ينقلب الوضع إلى ما يمثل خطورة على حقوق الأغلبية ذاتها.

علاقة منظومة الثقافة بخارجها (المنظور العربي)

(أ) **علاقة منظومة الثقافة بمنظومة المجتمع ككل:** لا شك في أن علاقة مجتمعاتنا العربية بمنظومة ثقافتها أكثر حساسية وتعقيدا. ويميل الكاتب إلى اعتبار نمط هذه العلاقة بمنزلة النقيض لوجهة النظر التي تبنتها يوما المدرسة البريطانية لعلم الاجتماع، والقائلة باستقلالية الثقافة أو عدم حساسيتها للعوامل الاجتماعية. وتبرز بشكل واضح أهمية علاقة ثقافتنا بمجتمعاتها، في ظل التعريف الأشمل لمفهوم التنمية الاجتماعية، والذي حل محل التعريف التقليدي الذي حصرها في أمور التقدم الاقتصادي والتكنولوجي. يرى هذا التعريف الجديد التنمية بصفتها عملية جدلية لدعم حرية من يقومون بالجهد التنموي في اختيار ما يرونه ذا قيمة بالنسبة لهم [203]، والثقافة ـ كما هو معروف ـ هي مصدر كل القيمة، في حين أن تكنولوجيا المعلومات تعد من أهم الوسائل لإرشاد القائمين بالتنمية إلى بدائلها الممكنة. وقد تحدث كثيرون عن حالة الفوران الاجتماعي التي تعيشها حاليا معظم أوطاننا العربية، وطور المراهقة الثقافية التي تعاني منها.

وبالرغم من هذا وذاك، تظل الثقافة هي الملاذ الوحيد لمواجهة سلبياتنا، وهي طليعة ركب تحريرنا من دوامة الدوائر الخبيثة التي تحيط بنا من كل جانب.

(ب) علاقة منظومة الثقافة بالمنظومة السياسية: تتجه شعوب العالم المتقدم إلى تقليص حجم حكوماتها وتحجيم سلطاتها نتيجة للتوسع في الخصخصة، وزيادة مشاركة المنظمات غير الحكومية في صنع القرار. والسؤال هنا: ألا يمكن أن يؤدي تقليص حكوماتنا ودورها في تحقيق الرعاية الاجتماعية إلى أن تترك الشعوب العربية تحت رحمة القطاع الخاص، والمؤسسات المتعدية الجنسية، والمنظمات الدولية وعلى رأسها منظمة التجارة العالمية؟ وفي المقابل، فإن تضخيم حكوماتنا سيفضي بالضرورة إلى مزيد من تدهور الأداء الديموقراطي ناهيك عن ربقة البيروقراطية وأسلحة الإعلام الرسمي الذي عادة ما تناصره باقي القوى الرمزية.

ليس من قبيل المبالغة القول إن نجاح المجتمعات العربية في دخول عصر المعلومات يتوقف ـ بالدرجة الأولى ـ على نجاحها في إعادة تشكيل العلاقة بين السياسة ومنظومتي الثقافة والمعلومات، ومدى الدور الذي يمكن أن تلعبه تكنولوجيا المعلومات في إشاعة الديموقراطية وترسيخها وتنميتها، وترشيد العلاقة بين الحكام والمواطنين. وقد صادف الكاتب خلال بحثه دراسة إحصائية أجريت على عيّنة مختارة من بعض دول العالم فيما يخص علاقة الارتباط بين توافر المعلومات ومدى شفافيتها، وبين مستوى الأداء الديموقراطي [(255)] وكما هو متوقع، فقد خلصت هذه الدراسة إلى تدني هذا الأداء في بعض الدول العربية؛ بسبب التعتيم المعلوماتي والسيطرة التامة، أو شبه التامة، لأجهزة الحكم على القوى الرمزية: إعلامية وتربوية ودينية، ومع موافقتنا جزئيا على ما انتهت إليه هذه الدراسة، إلا أننا نود أن نؤكد حقيقة أن إشاعة الديموقراطية في مجتمعات مثل مجتمعاتنا، لا تتوقف ـ فقط ـ على توافر المعلومات، بل تتدخل فيه عوامل أخرى اقتصادية ودينية وأمنية بالطبع. وستظل الديموقراطية تعني قبل كل شيء إتاحة المشاركة الفعلية لا مجرد إتاحة المعلومات.

(ج) **علاقة منظومة الثقافة بالمنظومة الاقتصادية:** ليس سرا أن البلدان العربية تواجه حاليا أزمات اقتصادية طاحنة. وعادة ما تكون الثقافة هي

أول ضحية لضغط الإنفاق. يأتي ذلك، ونحن في أمسّ الحاجة إلى جعل الثقافة محورا لعملية التنمية، وإلى إقامة صناعة ثقافية عربية يمكنها المنافسة عالميا، أو على الأقل تحقيق نوع من الاكتفاء الذاتي. المشكلة الحقيقية أنه يصعب ـ كما توهم البعض ـ عزل العامل الاقتصادي العربي عن الخلافات السياسية العربية. بالقدر نفسه يصعب قبول الرأي القائل إن تراجع تدخل الدولة في أمور الاقتصاد سيحقق الازدهار، ويزيد من فرص العمل بمفعول التساقط Trickling down effect ومقتضاه ـ كما أوضح إسماعيل صبري عبدالله في مقام رفضه له ـ أن تزايد ثراء الأغنياء، ونمو نزعة فعل الخير لديهم سيصفي تدريجيا من ظاهرة الفقر وسيضاعف من فرص العمل، ليقتصر دور الدولة على حفظ النظام وتخفيف وطأة الفقر(110). وفي رأينا أن مبدأ التساقط هذا غير متسق مع ظاهرة استقطاب الأعمال من السفح إلى القمة كما سبق وأشرنا في الفقرة 1 :3:3 من الفصل الأول. إن ترك الحبل على الغارب أمام خصخصة البنى التحتية لتكنولوجيا المعلومات سيؤدي بالحتم إلى عدم المساواة في النفاذ إلى المعلومات ما بين القادرين والمحرومين، وهو الأمر الذي أثار قلق الكثيرين في الولايات المتحدة نفسها ـ فما بالنا نحن ـ مما دفعهم إلى اقتراح بدائل لعملية الخصخصة تلك ضمانا لحد أدنى من فرص النفاذ لغير القادرين (253).

وعلى صعيد آخر، وفيما يخص اقتصاد الثقافة، فنحن في حاجة إلى مؤسسات ثقافية تتسم بالدينامية، وسرعة التكيف واتخاذ القرار، ماهرة في استخدام الوسائل الحديثة لتكنولوجيا المعلومات والاتصالات، ونقل الغايات والمخططات إلى واقع عملي ملموس، يمكن رصده وقياسه وتصويبه وتقويمه كميا، وتحديد عائده المباشر وغير المباشر. نحن في حاجة إلى مؤسسات لا تحتكر الثقافة بل تشيعها وتؤازرها، قادرة على أن تدير صناعة الثقافة بأسلوب يختلف عن إدارة المصانع والمتاجر، وعن بيروقراطية المكاتب وإستاتية المتاحف.

(د) **علاقة منظومة الثقافة بالثقافات الأخرى:** يمثل حوار الثقافات تحديا حقيقيا لثقافتنا العربية، خاصة في ضوء ما يقال عن عالميتها، وقاعدتها الذهبية في اتخاذ المواقف الوسطى المتوازنة بين ثقافات العالم المختلفة. ولا يهم الكاتب في حديثه هنا كون حوار الثقافات وفاقا أم صراعا،

بقدر ما يهمه الاستفادة من ثقافات الغير؛ لتجديد فكرنا الثقافي، وشحذ رسائلنا الثقافية، وتقوية دروعنا ضد غزو الثقافات الوافدة، وفي هذا الصدد يوصي الكاتب بما يلي:

- دراسة الثقافة الأمريكية بصفتها الثقافة المهيمنة على ثقافة عصر المعلومات؛ وذلك بهدف تفكيك وسائلها، وتفهم الأسباب التي أدت ببعض رواد هذه الثقافة إلى المطالبة بضرورة المراجعة الشاملة للأسس التي قامت عليها بشكل عام، والفكر الإغريقي وفكر الديانة المسيحية تحديدا.

- دراسة السياسات الثقافية لدول الاتحاد الأوروبي، فيما يخص كيفية تعاملهم مع ظاهرة التنوع الثقافي، خاصة في المجال اللغوي (17 لغة)، وكذلك في أساليب تصديهم للغزو الثقافي الأمريكي. وعلينا أن نستفيد في ذلك من اتفاقيات الشراكة الأوروبية ـ العربية، التي أدرجت للمرة الأولى في اتفاقية برشلونة الجوانب الثقافية والتربوية، بعد أن كانت مقصورة على الجوانب الاقتصادية.

- دراسة ثقافة دول أمريكا اللاتينية، فيما يخص أوجه التشابه الثقافي اللافتة بينهم وبيننا، فيما يخص وحدة اللغة (اللغة الإسبانية) والفوارق الاقتصادية والاجتماعية، بين الدول البترولية وغير البترولية. فضلا عن ذلك، فالدين يحتل موقعا بارزا بين الروافد المغذية للثقافتين وقد اقترنت عملية التحديث الاجتماعي في كل منهما بظهور حركات احتجاج اجتماعي واسعة تحت شعار الدين [39]. والأهم من هذا وذاك، كيفية مواجهة الضغوط الأمريكية الثقافية؛ حيث تمثل دول أمريكا اللاتينية خط المواجهة الأول مع هذه الثقافة.

فضلا عن ذلك، ومما لا شك فيه، أن العلاقة التاريخية الخاصة التي تربط العرب بإسبانيا يمكن أن تساهم في توطيد العلاقات الثقافية بيننا وبين شعوب أمريكا اللاتينية.

- دراسة ثقافة دول جنوب آسيا: فيما يخص نجاحهم في التوفيق بين خصوصيات ثقافاتهم المحلية ومطالب التنمية التكنولوجية والمعلوماتية.

(هـ) **علاقة منظومة الثقافة بالفئات الاجتماعية:** بينما تستطيع الحكومات العربية، بصورة أو بأخرى، حماية مصالحها في ظروف التغيرات المجتمعية الهادرة المصاحبة لدخول عصر المعلومات، يظل الإنسان العربي

في أمسّ الحاجة إلى توفير الحد الأدنى من الحماية بعد أن انطلقت المردة من قماقمها: مردة الاقتصاد والإعلام ومن ورائهم سماسرة الثقافة، البارعون في أمور الانتهازية الفكرية والتلاعب بعقول الأغلبية. ولن تتوافر للإنسان العربي هذه الحماية والذود عن حقوقه الإنسانية، بمفهوم عصر المعلومات، إلا بتضافر قادة الرأي العرب، ومن ورائهم التربويون والإعلاميون والدعاة الدينيون من ذوي النزعة الوطنية والقومية. ومن أولى المهام الواجبة هي تخليص وجه الثقافة العربية من وصمة الأمية الأبجدية، والعمل كذلك على محو أميات عصر المعلومات، ونقصد بها: أمية الكمبيوتر والمعلومات، وأمية الشكل والرمز، وأمية الثقافة العلمية. بقول آخر: نحن بصدد مفهوم جديد لمحو الأمية يهدف إلى توفير الحد الأدنى من المعارف والمهارات والخبرات، التي تلزم إنسان العصر كي يتكيف مع متغيرات العصر، ومطالب العيش فيه. وعلينا ألا ننسى هنا أن استفادة الإنسان من المعلومات تحتاج إلى حد أدنى من التعليم يظل من دونه تحت رحمة أجهزة الإعلام كمصدر رئيسي - إن لم يكن وحيدا - لمعلوماته.

3:3:3 العناصر الداخلية لمنظومة ثقافة المعلومات (الطرح العام)

كما يوضح الشكل (2:3) تشمل العناصر الداخلية لمنظومة الثقافة، بجانب نظام القيم والمعتقدات، الفكر الثقافي واللغة والتربية والإعلام والإبداع. وقد اهتدى الكاتب في تحديد هذه العناصر بما ورد في الخطة الشاملة للثقافة العربية التي أعدتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، والتي نظرت إلى الثقافة بوصفها تراثا قوميا وإبداعا وتعبيرا، وأكدت على علاقة الثقافة بالفئات الاجتماعية وتكاملها مع منظومات التربية والاتصال والإعلام، علاوة على كونها تراثا إنسانيا[54].

وفيما يلي استعراض موجز للعناصر الداخلية لمنظومة الثقافة:

(أ) **الفكر الثقافي**: كنتيجة منطقية لمحورية الثقافة في منظومة المجتمع الإنساني، فقد نشطت - بصورة كبيرة - جهود التنظير الثقافي في ربع القرن الأخير؛ وذلك من أجل استيعاب الظواهر المستجدة لمجتمع المعلومات الذي حل بنا بالفعل. ليس في نيتنا هنا استعراض طوبوغرافية الشبكة الكثيفة لمسارات التنظير الثقافي المعاصر؛ فهو عمل يتجاوز قدرة الكاتب

وحدود مجالنا الحالي. ولا يبدو من اللائق في الوقت ذاته أن نحدد لطليعة الثقافة العربية ما يجب القيام به من أجل تحديث قاعدتهم المعرفية والارتقاء بمهاراتهم العملية، وسنكتفي هنا بأن نضع أمامهم قائمة العلوم والنظريات والخبرات التي أُسس عليها صرح التنظير الثقافي الغربي المعاصر الجدول (1:3) والتي جُمعت من خلال دراسة إحصائية قام بها الكاتب اعتمد فيها على ما ورد في قاموس حديث لمنظري الثقافة المعاصرين [214].

الجدول (1:3) مصادر التنظير الثقافي المعاصر

فلسفة العلم	علم الاجتماع	نظرية النقد
فلسفة اللغة	علم النفس	نظرية التطور
فلسفة التاريخ	علم القراءة	نظرية الجمال
الرمزية (*)	علم البيئة	نظرية المعلومات (*)
اللسانيات (*)	الإناسة (الأنثروبولوجيا) الرمزية	نظرية الأدب (*)
سوسيولوجيا المعرفة	الجغرافيا الثقافية	نظرية السرد (*)
سوسيولوجيا العلم	علم اللاهوت	نظرية الاعتماد
سوسيولوجيا الثقافة	علم العرقيات (الإثنووجرافيا)	نظرية الاتصالات (*)
هندسة النظم (*)	الاقتصادالسياسي	نظرية النظم الاجتماعية
الإحصاء الثقافي (*)	اقتصاد الماكرو والمايكرو (*)	نظرية التربية
تخطيط المدن (*)	الإقتصادالاجتماعي	نظرية السياسة
ديناميات الجماعة	علم الاستشراق	نظرية السيطرة

ومعظم هذه الفروع المعرفية ذات صلة وثيقة بتكنولوجيا المعلومات، خاصة تلك المقرونة بـ (*)، وهو ما يؤكد أهمية المدخل المعلوماتي في التنظير الثقافي. يضاف إلى تلك القائمة ضرورة الوعي بالآثار الاجتماعية لتكنولوجيا المعلومات والهندسة الوراثية، ومن البدهي أن تتصدر هذه القائمة، في حالتنا، علوم الفقه والدين؛ نظرا لمحوريتها في تشكيل عقل الإنسان العربي ووجدانه.

نكتفي هنا بهذا القدر عن التنظير الثقافي، على وعد بحديث أكثر تفصيلا عن توجهات الفكر الثقافي المعاصر في الفقرة 4:1:2 من الفصل القادم.

(ب) **لغة الثقافة:** يتناول الفصل الخامس الأمور المتعلقة بثقافة اللغة من منظور عربي معلوماتي، أما لغة الثقافة فيقصد بها لغة وصف الثقافة،

والتي تشمل المصطلحات العلمية من قبيل: الاتصال الثقافي ـ الاحتواء الثقافي ـ الامتصاص الثقافي ـ التقاطع الثقافي ـ النسبية الثقافية ـ الحتمية الثقافية ـ اجتماعية المعرفة ـ ازدواجية اللغة ـ والتاريخ الكمي ـ الداروينية الاجتماعية، وذلك على سبيل المثال لا الحصر، ومعظم هذه المصطلحات ذو صلة وثيقة بتكنولوجيا المعلومات وثقافتها كما سيتضح على مدى فصول الكتاب. وتشمل لغة الثقافة ـ أيضا ـ لغات فنون إبداعها: لغة الموسيقى ولغة التشكيل ولغة الشعر ولغة الأدب ولغة المسرح ولغة الأداء الحركي ولغة المعمار. وقد كان من أهم نتائج تطبيق تكنولوجيا المعلومات في مجال الإبداع، خاصة تكنولوجيا الوسائط المتعددة، إبراز القواسم المشتركة بين لغات الإبداع تلك، في إطار علم الرمزية؛ وكذلك اعتبار اللغة الإنسانية نسقا رمزيا عاما يمكن تطبيقه على باقي لغات الفنون المذكورة.

(ج) **تربية الثقافة**: يتناول الفصل السادس الجوانب المختلفة لثقافة التربية، وسنكتفي هنا بحديث موجز عن تربية الثقافة. لقد أصبحت الثقافة ـ كما أسلفنا ـ علما مستقلا وصناعة قائمة بذاتها، وهو الأمر الذي يتطلب فرعا متخصصا من فروع التربية، وقد زادت الحاجة إليه مع تنامي ظاهرة العولمة، وما صاحبها من تداخل أمور الثقافة في أمور الاقتصاد والسياسة. تركز تربية الثقافة على توعية الفرد بالجوانب الاجتماعية للتنمية المعلوماتية، ودور القوى الرمزية في أداء المنظومة المجتمعية ككل، وإلمامه بحصاد الفكر الثقافي المقارن ومناهجه، وما تعنيه مفاهيم الإنثروبولوجيا فيما يخص النسبية الثقافية، ومنظومة القيم، والقضايا الحالية المتعلقة بعولمة الثقافة فيما يخص حقوق الإنسان والأقليات وانقراض اللغات وما شابه. بجانب الخلفية النظرية، يجب على المهني الثقافي في عصر العولمة أن يكتسب مهارات التفاوض، وحوار القرب، والحوار عن بعد عبر الإنترنت.

(د) **إعلام الثقافة**: يتناول الفصل السابع الأمور المتعلقة بثقافة الإعلام، ونكتفي هنا بحديث موجز عن إعلام الثقافة. يغطي هذا الفرع الإعلامي الأمور المتعلقة بالثقافة العلمية والمعلوماتية والثقافة اللغوية والثقافة الدينية وثقافة الفنون والتراث. يحظى إعلام الثقافة ـ حاليا ـ باهتمام متزايد من قبل جميع وسائل الإعلام. وتوفر تكنولوجيا الوسائط المتعددة وسائل عدة

لوضع الرسالة الإعلامية الثقافية في سياق أشمل وأوقع، فلم يعد كافيا على سبيل المثال ـ أن تعرض روائع تراث ثقافة ما، دون طرحها في سياقه التاريخي، وإبراز صلتها بالمسار العام للحضارة الإنسانية، وإمكانات تجديده ومزجه مع تراث الثقافات الأخرى.

(هـ) **قيم الثقافة:** يتناول الفصل الثامن الجوانب المختلفة لثقافة منظومة القيم ونظام المعتقدات، ونكتفي هنا بحديث موجز عن قيم ثقافة المعلومات، والتي على رأسها تلك الخاصة بالحرية الثقافية، ويقصد بها حرية الجماعات في أن تختار ثقافتها، وتحدد هويتها وفقا لما تراه ملائما لواقعها وتاريخها. وتتفرع من هذه القيمة المحورية قيم فرعية أخرى مثل: احترام ثقافة الغير، والامتناع عن إصدار أحكام قيمية على هذه الثقافات، والحفاظ على التنوع الثقافي، وإشاعة قيم التسامح الثقافي.

(ز) **إبداع الثقافة:** يتناول الفصل التاسع الجوانب المتعلقة بثقافة فنون الإبداع، في حين تناولت الفصول الأخرى (فصول اللغة والإعلام والتربية ونظام القيم) شق الإبداع الخاص بها. ونكتفي هنا بحديث موجز عن إبداع الثقافة، ونقصد به إبداع الفكر الثقافي ذاته، وقد أظهر عصر المعلومات شدة الحاجة إلى هذا النوع من الإبداع الذي يشمل ضمن ما يشمل:

- استحداث تنظير ثقافي جديد قادر على التعامل مع متغيرات عصر المعلومات.
- ابتكار مناهج جديدة في المزج بين الثقافات، فكرها وإبداعها وقيمها ولغاتها، وكذلك فيما يخص حوار الأديان، والمقارنة بين اللغات العالمية.
- كيفية بعث الحياة في التراث الثقافي؛ بحيث يساهم بالفعل في معترك الحياة المعاصرة، وكيفية إعادة بناء التاريخ الإنساني باستخدام تكنولوجيا المعلومات، خاصة تكنولوجيا الواقع الخائلي والوسائط المتعددة الأخرى.

هناك من يقول إن الإنترنت ستزيد من قدرة الإبداع والابتكار من خلال مداومة الإبحار اللامحدود في فضاء المعلومات وتوفير العديد من وسائل التعلم الذاتي وتنمية القدرات الذهنية، خاصة أن التعامل مع النظم الآلية والبرمجيات يساعد على نمو التفكير المنطقي والمنهجي. في المقابل هناك من يقول إن الإنترنت ستحيل عملية الإبداع إلى نوع من الاجترار (أو إعادة الإنتاج) لينحو الأدب إلى الوثائقية والفن التشكيلي إلى الكولاج (القص

واللصق) والموسيقى إلى نوع من المزج الإلكتروني، ويصبح إبهار العرض واستغلال إمكانات وسيط الإعلام عوضا عن مضمون الرسالة التي ينقلها تحقيقا لمقولة «الوسيط هو الرسالة» التي أطلقها مارشال مكلوهان رائد التنظير الإعلامي.

العناصر الداخلية لمنظومة ثقافة المعلومات (المنظور العربي)

(أ) **الفكر الثقافي**: منذ ما يربو على قرن بأكمله، وفكرنا الثقافي يدور حول الأسئلة العقيمة ذاتها، مثل: الأصالة والمعاصرة، المحلية والعالمية، ماذا انحدر إلينا من الماضي وماذا وفَدَ علينا من الغرب؟ [29]. لقد آن الأوان لتجاوز هذه البدهيات الثقافية، فما من ذي عقل يرفض أن نجمع بين أصالة هويتنا الحضارية ومعاصرة حياتنا الراهنة، وما من أحد يقبل أن نقف تائهين نصطنع تلك الحيرة بين اللاتاريخ واللاحاضر. لقد حسم غيرنا أمره في مواجهة هذه الأسئلة المفتعلة، رافضا الإقرار بتناقضها الذي يوحي به ظاهر صيغتها، فها هي اليابان، رائدة تكنولوجيا العصر، تتباهى بمسرح الكابوكي وتتمسك بقيمها وطقوسها. وهل لنا أن ننسى عدم إذعانها لأوامر المحتل الأمريكي باستخدام الحروف اللاتينية في كتابة اليابانية. لقد استسلمت اليابان ولم تستسلم اللغة اليابانية. وها هي تماثيل بوذا وتعليمات كونفوشيوس تصادفنا في أروقة مسابك الشرائح الإلكترونية في تايوان وهونج كونج. وهناك حركة نشطة في الصين حاليا لإعادة بناء الثقافة الصينية على أسس التعاليم الكونفوشيوسية، وما أكثر هؤلاء الشباب الإسرائيليين من مرتدي «طاقية نصف الرغيف»، الذين يغادرون مكاتبهم في وادي السيلكون الإسرائيلي ليتهدجوا بتعاويذهم أمام حائط المبكى. ولماذا نذهب بعيدا؟ ألم ينجح مُنظّرنا اللغوي القدير عبدالقادر الفاسي النهري في أن يجمع بين آخر ما وصلت إليه مشارف علم اللغة الحديث وخصائص لغتنا العربية؟ وألم ينجح باحثو المغرب العربي في علم الخطاب، وأقرانهم في مصر من أمثال صلاح فضل، في أن يطوعوا آخر إنجازات علم النص لمطالب نصوصنا؟ وألم ينجح رواد تعريب العلوم في سوريا أن يثبتوا جدار ة العربية في التعامل مع جميع فروع المعرفة الحديثة؟ وألم ينجح شعراء العراق وسوريا ومصر في أن يجددوا إبداعنا الشعري؟ وأخيرا

وليس آخرا، هل لنا أن نغفل كيف نجح نجيب محفوظ في أن يجعل من أزقة الحارة المصرية ساحة حضارية تسع العالم بأسره، راهنه وماضيه.

إن الفكر الغربي مازال ـ كما يقولون ـ يطارد «شبح ماركس». قصدنا من هذا التنويه هو التأكيد على الكيفية التي يتحاور بها هنا الفكر مع الفكر المناهض له، والمتناقض معه، بغية المراجعة والاستكمال والبحث عن مناهل جديدة لتناول إشكالية الثقافة المعاصرة. فهذا الفكر لا يجد حرجا في التنقيب في مخلفات الفكر الماركسي على الرغم من الفشل المدوي لتطبيقه عمليا؛ وذلك سعيا إلى استخلاص بعض جوانبه العلمية التي تستطيع الصمود في مواجهة مستجدات الواقع. هل لنا أن نقارن ذلك بالكيفية التي نتعامل بها نحن مع الفكر المناهض، سواء كان هذا الفكر نابعا منّا أو من غيرنا؟ وهل لنا أن نشير إلى القطيعة المعرفية التي أعلنها بعض مفكّرينا مع معظم المدارس الفكرية الغربية إما بإدراجها ضمن قائمة المحرمات، وإما باختزالها إلى عدد قليل من المقولات المسرفة في بساطتها وسذاجتها. إن التنظير الثقافي الغربي يستغل رصيده الفكري، وناتج تجاربه الاجتماعية المتراكمة؛ من أجل الوصول إلى تكييف جديد لمنظومة المجتمع الإنساني الحديث. على النقيض من ذلك نحن نشكو من فجوة تنظيرية تتسع يوما عن يوم تفصل بين أصولنا الثقافية وواقعنا الراهن، وبين تراث ماضينا وفكر حاضرنا.

فيا أيها الراقدون تحت «التراث»(4*) ما التراث برمم القبور، بل ماء للحياة وإكسير لإحياء العقول والنفوس، فلتضيفوا إلى هذا التراث مضامين من حاضركم، ولتنزعوا عنكم دثاركم الزائف. ولا يستطيع الكاتب، في موضع حديثه هذا، مقاومة إغراء المجاز اللغوي، فليسمح له قراؤه أن يسترسل في استعارة الجسد الإنساني، والتي لجأ إليها قديما أفلاطون في جمهوريته لتشييد مدينة فاضلة رأسها نخبة الفلاسفة، وحديثا منظري علم الاجتماع من أصحاب التوجه البيولوجي. نقول بلغة المجاز: نريد فكرا نافذا يخترق مسام الجلود، وصولا إلى نخاع ثقافتنا، وهذا الماء الرائق الدافق بين صلب العقائد وترائق النصوص، مرورا بأحشاء نظمنا الاجتماعية، ورئة ثقافتنا، وهوائها الذي نتنفسه لغة وشعرا ونثرا، وبذلك الإبداع الذي يرجف بين ضلوعنا: أشكالا وأنغاما وأداء ونقدا. إن جسد ثقافتنا العربية

يتفسخ أمام ناظرينا، ولن يبرئه إلا «طبيب» التراث و«طب» العقول و«تطبيب» النفوس. ولنترك «المجاز» إلى، ما قصدناه «حرفيا» من القائمة الواردة في الجدول (3:1)، من إيضاح مدى اتساع نطاق المعارف، وتعدد الروافد التي تصب في مجرى التنظير الثقافي المعاصر، وهو الأمر الذي يوجب بدوره تعدد الرؤى، وتداخل التخصصات، والمزج بين المناهج والمعارف والخبرات. ويبقى السؤال: هل نحن قادرون على أن نرقى بخطابنا الثقافي من عموميات الإنشاء الأدبي إلى منهجيات البحث العلمي والميداني المنضبط، ناظرين إلى الثقافة بوصفها علما والعلم بوصفه ثقافة؟

(ب) **عن لغة ثقافتنا:** تشكو الثقافة العربية من ضمور شديد في لغة وصف الثقافة meta-language of culture، سواء على مستوى المصطلح، أو المفاهيم الأساسية. إننا ندين إلى روادنا الثقافيين من أمثال عبدالرحمن بدوي ومحمد عابد الجابري وبرهان غليون وإدوارد سعيد وإيهاب حسن ومحمد أركون: بإغناء ذخيرة مصطلحاتنا الثقافية. وقد أضاف سامي خشبة بمسرده المهم «مصطلحات فكرية» مرجعا أساسيا كانت المكتبة العربية في مسيس الحاجة إليه. ويلزم هنا أن نشير إلى أن المصطلح الثقافي بطبيعته يميل إلى التجريد، وإلى تناول مفاهيم تجمع بين الدقة والشمولية في آن؛ وهو الأمر الذي يزيد من صعوبة صكه، خاصة بعد أن تعقدت المفاهيم الثقافية وتفرعت وتداخلت بفعل المتغير المعلوماتي. وقد استسهل الكثيرون في ترجمة المصطلحات الأجنبية الحديثة استخدام المصطلحات المركبة من أكثر من كلمة. والمصطلح المركب كما هو معروف يسد الطريق أمام الاشتقاق منه وتطويعه سياقيا. أما بالنسبة للغات الإبداع، فمازلنا بعيدين عن تناولها نظرا لتخلفنا في معظم مجالات الفنون علاوة على تبعيتها المعمارية والنقدية. وفي وسط هذا الركام يبرز حسام الدين زكريا، مهندس البحرية المتقاعد، ليهدي إلى المكتبة العربية أول معجم شامل لمصطلحات الموسيقى العالمية ومفاهيمها وأعلامها، يجمع بين عباقرة الموسيقى العالميين والمحليين ويوثق مآثر تراثنا الموسيقي، الذي كاد أن يندثر، إلى جانب التراث العالمي.

(ج) **عن تربية ثقافتنا:** تحتاج مؤسسات الثقافة العربية، الرسمية وغير الرسمية على حد سواء، إلى تطوير كوادر ثقافية قادرة على إقامة حوار

متكافئ مع الثقافات الأخرى. ويقترح الكاتب هنا إدراج ثقافة المعلومات ضمن مناهج الدراسات العليا في أقسام الفلسفة والإعلام واللسانيات وعلم الاجتماع وعلوم الكمبيوتر.

(د) **إعلام ثقافتنا**: تبدي وسائل إعلامنا المطبوع والمسموع والمرئي اهتماما لا بأس به بأمور الثقافة، إلا أنها لم تمس بعد الجوانب المتعلقة بثقافة المعلومات، ومازالت أساليبها مقصورة على الأحاديث والمقالات وكتابة عروض الكتب. ولاشك في أن الإعلام الثقافي، خاصة عبر الإنترنت، يحتاج إلى وسائل مبتكرة، وهو ما سنتعرض له عند تناولنا صورة الثقافة العربية على الإنترنت في فقرتنا القادمة.

(هـ) **قيم ثقافتنا**: تختلف الحرية الثقافية عن الحرية الفردية في كونها تخص الجماعة ككل، ولكن لا يمكن أن تتحقق الحرية الثقافية ما لم تتوافر الحرية الفردية. فلا حرية ثقافية لأي جماعة في غيبة من حرية أعضائها. معنى ذلك أن حرمان الإنسان العربي من حقوقه سيكبل من حرية مجتمعاتنا العربية؛ مما يجعلها عاجزة عن التصدي للغزو الثقافي.

4:3 صورة الثقافة العربية على الإنترنت

4:3: 1 الملامح البارزة للصورة الراهنة

بداية نقول إنه لا يمكن أن تكون صورة الثقافة العربية على الإنترنت إلا انعكاسا ـ أو نتاجا فرعيا ـ للمشهد الثقافي العام، وموقف التأزم الحضاري الذي يسود عالمنا العربي. ولا يمكن لحوارنا مع الآخرين عبر الإنترنت أن ينفصل عن أحوالنا الداخلية وأوضاعنا السياسية والاقتصادية. فشبكة الإنترنت ـ بوضعها الحالي على الأقل ـ ما هي إلا أداة لطرح نتاج الفكر، وأنشطة المؤسسات الثقافية والعلمية، وحصاد المؤتمرات والندوات، ومناهج الدراسات والبحوث. وهي تعد بذلك مرآة كاشفة لمدى حيوية المجتمعات وهمة أفرادها، وواقع ظروفها ونوعية الخطابات التي تتفاعل بداخلها. بقول آخر، لا يمكن أن تنشأ الرسالة الثقافية من فراغ، بل لابد من توافر البنى التحتية القادرة على إنتاجها ومداومة تحديثها، ورصد وتحليل ما يقوم به الآخر: المعادي والموالي، المتقدم والنامي، العالمي والإقليمي. ولا نقصد هنا أن خطتنا لتحسين صورة الثقافة العربية على الإنترنت يجب أن

تنتظر حتى تتوافر البنى التحتية المساندة والظروف الاجتماعية المواتية. فبجانب كونها عملية مستمرة ودائمة، فإن المتوافر حاليا في عالمنا العربي من البنى التحتية، والموارد الثقافية البشرية والفكرية والمادية، يكفي ـ في رأي الكاتب ـ لتحسين هذه الصورة بشكل جذري [120].

ويمكن تلخيص الملامح البارزة لصورة الثقافة العربية والحضارة الإسلامية على الإنترنت في النقاط الرئيسية التالية:

- غياب عنصر التنسيق والمشاركة في الموارد.

- المشهد الحزين لثقافتنا العربية ناتج عن تقاعسنا واسترخائنا، أكثر من كونه نتاجا لما يقوم به الآخرون من تشويه وطمس.

- تساهم في تشكيل صورة الثقافة العربية والحضارة الإسلامية على الإنترنت فرق متنوعة، تختلف طبيعة رسالتها وأهدافها بصورة كبيرة، من أبرزها: مؤسسات الصحف والإعلام الرسمية العربية ـ مؤسسات الإعلام السياحي ـ غرف التجارة ـ مواقع المجلات العربية ـ الدوريات الثقافية الصادرة باللغة الإنجليزية ـ المتاحف العالمية المالكة لمقتنيات إسلامية وعربية ـ مواقع شركات تطوير البرمجيات العربية ـ منافذ بيع الكتب العربية وأشرطة الكاسيت والفيديو والموسيقى العربية ـ أقسام الإذاعات العربية في الإذاعات الأجنبية ـ أقسام الدراسات واللغات الشرقية والآسيوية والأفريقية واللاهوتية بالجامعات الأمريكية والأوروبية ـ مواقع اتحادات الطلبة العرب بالجامعات الأمريكية والأوروبية ـ أفراد مسلمون غيورون على دينهم ينشرون مبادئ الإسلام وعباداته وشعائره للجاليات الإسلامية بالخارج.

- من حيث مدى التغطية لعناصر منظومة الثقافة، تطغى الأمور المتعلقة بالعقيدة ونظام القيم (خاصة تلك المتعلقة بوضع المرأة في الإسلام) على كل النواحي الأخرى، وباستثناء فنون الزخرفة والعمارة، تظل غائبة، أو شبه غائبة، تلك النواحي المجهولة والمهملة من ثقافتنا وحضارتنا، كالموسيقى والأدب والشعر والسينما والمسرح واللغة والتراث الشعبي والحرف. ويتركز معظم الحديث في تناول إسهاماتنا الثقافية والحضارية على الماضي، وإغفال شبه تام لحاضرنا الثقافي.

- يعيب خطابنا الثقافي على الإنترنت انعزاليته المعرفية والتاريخية،

فهو ينأى عن الدراسات التقابلية الجادة منطويا على ذاته لا يطرح قضاياه في سياقات ثقافية وحضارية وإنسانية أوسع. هذا عن مضمونه بصفة عامة، أما عن أساليب عرضه فتتسم بالبدائية وعدم استغلال الإمكانات العديدة التي تتيحها ثقافة الإنترنت.

- يسود نشاطنا الثقافي عبر الإنترنت طابع رد الفعل والانفعالية، وتعوزه ـ بشكل واضح ـ مهارات الحوار، ومناورات التفاوض، ومعظمه يتجاهل نوعية المتلقي المستهدف.

- يمكن القول بصفة عامة إن خطابنا الثقافي، خاصة فيما يخص الجدل الديني، ذو طابع تصادمي، على العكس تماما من نظيره اليهودي كما سيتضح في الفقرة القادمة.

- كثيرا ما يتناقض خطابنا الثقافي مع نفسه، ليس فقط لغياب عنصر التنسيق، بل بسبب تبرع البعض منا في نقل خلافاتنا الداخلية حول كثير من القضايا ـ وما يكمن وراءها من دوافع ـ إلى ساحة الجدل العالمي.

- غالبية المعلومات المتداولة عبر الإنترنت باللغة الإنجليزية، عادة ما تُعد أو تُترجم من مصادر عربية من قبل عرب ومسلمي المهجر. وهؤلاء، على الرغم مما لهم من فهم لا بأس به لعقلية المتلقي الغربي، يعوزهم ـ بلا شك ـ المحتوى العميق والنظرة الأكثر شمولا لتجديد الخطاب الثقافي العربي. ولسوء الحظ، فإن معظم المحاولات الجادة لتجديد وجه الثقافة العربية ما زالت حبيسة اللغة العربية لضعف الترجمة من العربية إلى الإنجليزية. ومما يزيد الموقف سوءا أن غالبية المفكرين والمبدعين العرب الجادين مازالت صلتهم بالإنترنت ووسائل الاتصال الحديثة شبه معدومة.

2:4:3 الملامح البارزة لصورة النظير اليهودي

أصبح الرصد الدائم والمتعمق لموقف إسرائيل، ومن يقف وراءها، أحد المطالب الأساسية لكل جهد عربي قومي، سواء على مستوى التخطيط أو التنفيذ أو التقويم. ولا شك في أن هذا الرصد على جبهة الثقافة يتخذ أهمية خاصة تفوق نظيراتها في المجالات الأخرى، وتضاهي ـ في رأي الكاتب ـ ما يجري على الصعيد الأمني. ويمكن تلخيص الملامح البارزة في صورة النظير اليهودي في النقاط التالية:

- يساهم في تشكيل صورة الثقافة اليهودية عديد من الجماعات والأفراد من أبرزها: المؤسسات العلمية والمراكز البحثية داخل إسرائيل وخارجها ـ أقسام الدراسات اليهودية والعبرية بالجامعات الأمريكية والأوروبية ـ مواقع الجاليات اليهودية المنتشرة في جميع الولايات الأمريكية وبلدان أوروبا ـ اتحاد الطلبة اليهود بالجامعات الأمريكية والأوروبية ـ مواقع المعابد اليهودية المنتشرة جغرافيا ـ مواقع المتاحف اليهودية المنتشرة في أمريكا ـ بعض مواقع الكنائس المسيحية التي تدعو إلى حسم الخلافات التاريخية بين المسيحية واليهودية ـ أفراد ورجال دين من اليهود المتحمسين ـ الأنشطة اليهودية الثقافية العديدة التي تقيمها إسرائيل والمؤسسات والجاليات اليهودية خارجها، كالمهرجانات الثقافية والسينمائية والمسرحية والمسابقات والمؤتمرات والندوات والمسارح المتنقلة وخلافه.

- من حيث التغطية، يغطي الخطاب الثقافي اليهودي عبر الإنترنت معظم عناصر منظومتي الثقافة والحضارة، من الفلسفة إلى الفولكلور، ومن نظرية الأدب إلى قصص الأطفال، ومن معالم التراث الثابت إلى أيقونات المعابد وطقوس المناسبات، ومن التاريخ: سحيقه وقديمه وحديثه، إلى قضايا الحاضر، ومن شعر الجاهلية لدى العرب، إلى شعراء اليهود في أندلس الإسلام، ومن النواح والبكاء على ضحايا الهولوكوست إلى طلب الدعم لأصدقاء الجولان من السكان اليود، والدعاء لهم بالخلاص من عدوان سوري وشيك الوقوع «لاغتصاب الهضبة!».

- يعكس الخطاب اليهودي على الإنترنت ـ بوضوح ـ اهتمامه الشديد بجميع المراحل العمرية، من المشكلات الصحية لكبار السن إلى الأزمات النفسية لأحفاد ضحايا الهولوكوست، والمطالب التربوية لأطفال الحضانة، ومن رعاية الشباب وتوجيه شباب الدعاة الدينيين ومرشدات الكشافة إلى رعاية المعوقين ومرضى الإيدز.

- تظهر الصورة بوضوح التنسيق الشديد بين مواقع بث وتبادل معلومات الثقافة اليهودية عبر الإنترنت، مما يؤكد أن وراء ذلك إستراتيجية متكاملة يجري تنفيذها بدقة، وتُوزع من خلالها الأدوار ويُكثف الحضور اليهودي في فضاء الإنترنت.

- يتحاشى الخطاب الديني اليهودي المواجهة السافرة مع نظيره المسيحي،

بل يسعى إلى التنسيق والتحالف معه، ضد التيار الإسلامي، ويتجنب مواضع الاختلاف، ويحث على اللغة المشتركة، ويضع نصب عينيه عقلية المتلقي المسيحي وحدود معرفته، والمواضع الحساسة في عقله ووجدانه. والحوار اليهودي ـ المسيحي ـ كما هو معروف ـ ذو أهداف عملية محددة، فهو يسعى إلى انتزاع شوكة الخلاف، ويواصل الضغط على الكنيسة الكاثوليكية لإرغامها على إدخال التعديلات في التاريخ المسيحي لخدمة الإستراتيجية اليهودية[*5].

- حشد التأييد للشعب اليهودي وقضاياه، وذلك بإقحام العنصر اليهودي قسرا في معظم الأمور التي تحظى بالتعاطف العالمي. فكل ممارسة إنسانية ضد حقوق الإنسان يختلق لها شقها الخاص بمعاداة السامية. ولا نضيف جديدا هنا بذكرنا أن هذا اللوبي الثقافي اليهودي يقوم في الوقت نفسه بالعملية العكسية لتكثيف حدة العداء ضد الإسلام والمسلمين؛ بافتعال وجود الصلة بين الإسلام ومعظم مشاكل العصر، وإرجاع كثير من الممارسات المرفوضة إنسانيا إلى جذور عربية وإسلامية.

- تسعى إسرائيل إلى هندسة صورتها الثقافية على أنها «موزاييك من الناس والأفكار والثقافات واللغات». وعلى حد قولهم، فإن إسرائيل تجمع بين القديم (قديم القدس بالطبع) والجديد (جديد تل أبيب في المقابل)، وبين صحراء النقب والوادي الخصيب في أرض الجليل، وبين روحانيات الشرق وثقافة الغرب، ناهيك عمّا تزعمه من كونها مهد الحضارات، وصاحبة التاريخ التليد الممتد عبر كل العصور والممالك.

الحواشي

(*1) رفعت حركة الطلبة الفرنسيين العام 1968 شعار «لغة الحياة الواقعية لا اللغة كما يتصورها منظروها».

(*2) ورد هذا في تعليق د. محمد عمارة على الدراسة الخاصة بـ «الموقف من الفكر والمؤسسات الحديثة والتقليدية» في إطار ندوة «الحوار القومي ـ الديني». مركز دراسات الوحدة العربية، ديسمبر 1989.

(*3) هناك من يضيف إلى هذه القائمة «الإبادة الجماعية»، نمط حروب عصر الصناعة.

(*4) ورد هذا النداء في كتاب «فرائد أبي الزبائد» لعبداللطيف الزبيدي (36)، المبدع التونسي الذي يسعى إلى إحياء أدبنا الساخر الذي كاد ينقرض.

(*5) كان آخرها التقرير الذي نشرته لجنة العلاقات بين الأديان في الفاتيكان عن الكاثوليكية ومعاداة السامية والهولوكست (في مارس 1998).

4 منظومة الفكر الثقافي: منظور عربي معلوماتي

- فكر ثقافة المعلومات: آلاته وتوجهاته
- علاقة الفكر بمنظومة الثقافة
- منظومة فكر ثقافة المعلومات
- الاحتفاء بـ «السلب» وإعادة الهيبة إلى «السالب»

4 : 1 فكر ثقافة المعلومات: آلاته وتوجهاته

4 : 1 : 1 آلة الفكر وفكر الآلة (الطرح العام)

رأى الكاتب قبل الخوض في الحديث عن الفكر الثقافي أن يمهد له بتقديم موجز عن المخ البشري، آلة الفكر الإنساني، وعن فكر آلة الكمبيوتر وذكائها الاصطناعي. وهو لايرى في ذلك افتعالا أو انحيازا إلى مجال تخصصه، فقناعته الراسخة أن تطور الفكر الثقافي في عصر المعلومات رهن بالتفاعل بين نتاج آلة الفكر الإنساني، والفكر الصناعي لتلك الآلة، وهو التوجه الذي لاحت بوادره ـ كما سيتضح في الفقرة القادمة ـ في الدور الذي تلعبه تكنولوجيا المعلومات حاليا في إعادة صياغة الفكر الثقافي المعاصر.

(أ) **آلة الفكر:** كان عقل الإنسان ــ ومازال، وسيظل في غالب الأمر ـ مصدر حيرة شديدة للفلاسفة والعلماء على حد سواء، وانضم إليهم حديثا في حيرتهم تلك ، علماء الذكاء الاصطناعي وهندسة المعرفة. وهم جميعا يسعون إلى إماطة اللثام عن أسرار المخ البشري: كيف يعمل؟ كيف

يدرك المعاني، وكيف يولد العبارات، وكيف يقيم العلاقات مع الحواس، وكيف يدرك حقائق الواقع، وكيف يتعامل مع هذه الحقائق بصورة مرنة ومتغيرة، وكيف يكتسب المعرفة الجديدة، وكيف يدمجها مع ما سبق له أن اكتسبه، وكيف ينظم تلك المعرفة ويوظفها؟ وما حدود ذاكرته وقدراته الذهنية على حل المسائل؟ وما مفردات أبجديته الذهنية التي يقوم منها هياكله المعرفية؟

لقد جعلت مثالية أفلاطون من العقل مستقبِلا يتلقى مُثُله العليا من السماء، وأحاله جون لوك لوحا أبيض تسجل عليه حقائق الواقع، ويأتي إيمانويل كانط ليرقى بآلة الفكر الإنساني، من كونها مجرد لوح أبيض ذي طابع تسجيلي محض، إلى آلة ذات قدرة ذاتية كامنة، قوامها عدد من الآليات الذهنية التي تتعامل مع مفاهيم الوجود الأساسية، كإدراك مغزى الزمان والمكان، وتطبيق قانون العلة والأثر. أما ديفيد هيوم فقد جعل من العقل مسرحا لحوار الانطباعات والأفكار، آلة لتجميع هذه الانطباعات وتلك الأفكار من عناصر أصغر بصورة شبيهة بأسلوب «القص واللصق». ويأتي هيجل فيجعل منه آلة لمنطقه الجدلي الدينامي، في حين يحيله كارل بوبر إلى آلة لمنطق الاستقراء induction، تنقل الحقيقة من المقدمات إلى النتائج. ولايمكن للصورة أن تكتمل من دون أن يدلو أهل الكمبيوتر بدلوهم في شأن هذا العقل، الذي يجاهدون ـ ما وسعهم الجهد ـ أن يحاكوا بعضا من قدراته، فنرى ميرفين مينسكي، عالم هندسة المعرفة، يتصور العقل مجتمعا مكونا من «مؤسسات» ذهنية متخصصة (24:286) تذكرنا بالنموذج البيولوجي الوظيفي الذي وضعه علماء الاجتماع لتمثيل بنية للمجتمع الإنساني. أما أهل الذكاء الاصطناعي، فيرون المخ البشري شبكة كثيفة من عناصر الذاكرة ومعالجة المعلومات ، يمكن محاكاتها بآلة ذكية، ذات مصفوفة هائلة من الحواسيب الميكروية، تبصر بعيون صناعية، تسمع بآذان صناعية، وتتفاعل مع المحسوسات بأطراف آلية، وتعالج المعلومات بأساليب تحاكي مهارات اللغات الإنسانية.

وتأتي ثقافة المعلومات لتضفي أهمية كبرى على دراسة المخ البشري، فثمة تشابه كبير بين بنيته، وبنية شبكة المعلومات التي قامت عليها هذه

الثقافة، وثمة علاقة غامضة ـ على ما يبدو ـ بين هذه العجينة الرمادية و«رماديات» ثقافة المعلومات المتمثلة في تداخل عناصرها وغموض توجهاتها ونسبية قيمها وتعقد ظواهرها.

سنحاول هنا إلقاء الضوء على العوامل المرتبطة بتكنولوجيا المعلومات، التي أضافت مزيدا من الأهمية إلى دراسة بنية المخ (أو شق العتاد hardware) وملكة العقل (أو شق البرمجيات software)، إن جاز لنا ـ على سبيل المناظرة ـ أن نستخدم مصطلحات هذه التكنولوجيا، التي أقصى غاياتها أن تحاكي تلك البنية، وأن تسمو إلى تلك الملكة. وأهم هذه العوامل في رأي الكاتب:

- في مجتمع التعلم الذكي وليد عصر المعلومات، لم تعد ملكة الذكاء مقصورة على الإنسان فقط، بل أصبحت خاصية موزعة على الآلات والأدوات والنظم والمؤسسات. ومجتمع التعلم المنشود له ذكاؤه الجمعي، وذاكرته الجمعية، وشبكة أعصابه الجمعية (شبكة الإنترنت)، وله كذلك وعيه الجمعي المتمثل في معارفه ومدركاته وخبراته، بل وله لاوعيه الجمعي أيضا، الذي يعمل تحت طبقات من القيم والعقائد والأيديولوجيات والأعراف وماشابه.

- هناك من يربط بين تطور فكر المجتمعات وتطور العقل البشري(27:230)، فإذا أخذنا، كتطبيق لهذا المبدأ، تطور العقل عبر مراحله الثلاث كما تصوره جان بياجيه، يمكن القول ـ على سبيل التبسيط ـ إن مرحلة الحس الغريزي المباشر يناظرها مجتمع الأسطورة البدائي، ومرحلة التعامل مع المحسوسات تناظرها مجتمعات عصور الأحجار والمعادن وتكنولوجيا الماديات من سوائل وغازات وذرة وما شابه، ومرحلة التعامل مع المجردات، يناظرها في حالتنا مجتمع المعرفة.

- بينما كان العقل ، فيما مضى، يتعامل مع الواقع مباشرة؛ أصبح ـ حاليا ـ يتعامل مع هذا الواقع من خلال وسيط تكنولوجيا المعلومات، ودراسة العقل تعد مدخلا أساسيا للكشف عما تنطوي عليه هذه الثلاثية، ويقصد بها ثلاثية: العقل ـ وسيط المعلومات ـ الواقع.

- أظهرت البحوث المتقدمة، في علم نفس الذكاء وعلم النفس التربوى واللغوي، ضرورة الغوص في متاهة التفاصيل الداخلية للمخ البشري وآلياته الذهنية. يفسر ذلك هذا التضامن الذي نشهده حاليا بين علماء النفس ومهندسي الذكاء الاصطناعي، في سعيهم الحثيث إلى تحليل ظاهرة الذكاء

وسبر أغوار المخ البشري، وذلك من أجل أن ندرك كيف تتولد التصورات وتصفى المفاهيم، كخطوة أساسية لتحديد أنسب الطرق لتقديم مواد التعليم النظرية واكتساب المهارات العملية ، وكذلك من أجل أن ندرك كيف تختزن أركيولوجيا المخ تراث حضارة الإنسان وقد ترسب في طبقات اللاوعي الجمعي وفقا لتصور كارل يونج ، ومن أجل أن ندرك كيف يكتسب الطفل لغته الأم، وذلك في إطار النموذج الذهني لنعوم تشومسكي عالم اللسانيات الشهير، وهوالنموذج الذي أطاح بالنموذج السلوكي الذي وضعه فردريك سكينر للمخ البشري، متبنيا فرضية جون لوك في كونه لوحا أبيض تسجل عليه المعارف اللغوية من خلال ثنائية الإثارة والاستجابة، وأخيرا وليس آخرا، من أجل أن ندرك كيف يستقبل المتلقي رسالته الإعلامية، وكيف يدمجها في مسار حياته اليومية؟ وكيف يتذوق الفنون، وكيف يستمتع بلذة هذا التذوق، سواء من خلال الإشباع التلقائي الفوري المباشر، أو الأشباع الذهني المرجئ لشبق تلك اللذة.

- ولا شك في أن لقاء علم الوراثة بجيناته genes وعلوم الرمز بميماتها memes[(1*)]، سيزيد من أهمية دراسة المخ البشري؛ ذروة اللقاء بين الجينات والميمات.

- من دون الخوض في جدل المثالية والمادية ، وما إذا كانت الحقائق التي ندركها بعقولنا أكثر، أو أقل، واقعية مما ندركه بحواسنا، دعنا نؤكد هنا أن ما سندركه بعقولنا، بفضل تكنولوجيا المعلومات، سيكون أكثر بكثير مما سوف ندركه بحواسنا. سندنا في ذلك أن المعرفة تتسامى في تجريدها، والمنطق يوغل في صوريته، والمجاز يزاحم الحرفية في قدرته على تجسيد الواقع والتعبير عن حقائقه، حيث أصبحت معظم الأمور تصاغ في صورة رمزية، من الإنثر وبولوجيا الرمزية إلى الفن الرمزي، ومن البيولوجيا اللغوية إلى الديناميكا الحرارية الإحصائية.

(ب) **فكر الآلة:** ما أكثر المصطلحات التي تتوارد على أسماعنا هذه الأيام دلالة على امتزاج الطبيعي مع الصناعي، ويكفينا من تلك المصطلحات هنا باقة من أوصاف نسب الصناعة والاصطناع: ذكاء اصطناعي ـ حياة صناعية ـ عوالم خائلية ـ هندسة المعرفة ـ تكنولوجيا اللغة ـ هندسة السيكولوجي ـ تكنولوجيا الوعي ـ تكنولوجيا الأعصاب، وإن دلت هذه

العينة على شيء فإنما تدل على أن التكنولوجيا قد اقتحمت ـ بالفعل ـ عالم الإنسان من داخله، بعد أن أصبح قلبه ومخه وجسده في متناول تلك التكنولوجيا النافذة الساحقة.

لقد خطت تكنولوجيا المعلومات خطوات واسعة لصنع آلة ذكية تبصر وتسمع، وتستنتج منطقيا، وتحل المسائل وتبرهن النظريات، وتجردالمفاهيم، وتؤلف المقالات، آلة مزودة بنظم لفهم الكلام آليا ونطقه صناعيا بحيث تستطيع أن تحاور الإنسان بصورة أقرب ماتكون إلى حوار الإنسان مع أخيه الإنسان. إن تكنولوجيا المعلومات ـ كما أشرنا سلفا ـ قد كسرت احتكار الإنسان لملكة الذكاء، بعد أن نجحت في استخلاص هذا الذكاء من قلب لغته وآليات حواسه ووظائف مخه وحصاد خبراته. لقد استخلصت تكنولوجيا المعلومات الذكاء لتعيد توزيعه منثورا على الآلات والأدوات والروبوتات والنظم والمؤسسات. وهكذا ظهر إلى حيز الوجود مصطلح «مجتمع التعلم»، المجتمع الذي يتسم بسرعة تجاوبه وتكيفه، ونهمه الشديد في استهلاك المعرفة وقدرته العظيمة على إنتاجها.

وترد الأنباء من شبكة الإنترنت تتحدث عن وكيل آلي ذكي مهمته أن يجوب أرجاء الشبكة، ليلتقط المعلومات وينظمها ويرشحها، ثم يعرضها وفقا لمطالب الإنسان الذي منحه حق الوكالة ـ انظر الفقرة 2:3:2 من الفصل الثاني ـ وتحدثنا أنباء الإنترنت أيضا عن «دوبلير» خائليavatar ينوب عن الإنسان في حضور اللقاءات عن بعد، ليشارك هذا النائب الإلكتروني برأسه المجسم الناطق في الحوار مع الحاضرين: ماثلين بالفعل أم كانوا مثله خائليين. وتتوالى أجيال الإنسان الآلي، كل جيل يفوق ماقبله ذكاء وفطنة وحنكة. عما قريب، سيحل بالديار هذا الروبوت الذي يفهم الكلام ويتعلم ذاتيا، ويدرك بحواسه الصناعية العالم من حوله. وهكذا يصبح العمل قسمة مابين هؤلاء الرفقاء الجدد، أصحاب الياقات المعدنية، من فصيل الروبوتات الذكية، وأقرانهم من أصحاب الياقات الزرقاء والبيضاء.

والآن إلى المغزى الثقافي الذي قصدناه من كل هذا الحديث عن ذكاء الآلات وقدرة الروبوتات، وخلاصته:أن تكنولوجيا المعلومات، كما نجحت في إعادة إنتاج سلعها من برامج وأفلام وموسيقى، فإنها ستعيد إنتاج العمال أنفسهم، وقد نُسخوا في نظم آلية وآلات ذكية، بكل ما يعنيه ذلك

من إعـادة صياغـة علاقـات الإنتـاج ومواصفات الأعمال، وحساب قيمتها المضافة.

وياليت تكنولوجيا المعلومات توقفت في طموحاتها عند هـذا الحـد مـن محاكاة ذكاء الإنسان وحواسه، فها هـي، متضافـرة مـع الهـندسـة الـوراثيـة وتكنولوجيا الأعصاب، تحاول أن تتعامل مباشرة مع ما بداخل جسد الإنسان ودماغه؛ وذلك بتعزيـز مخـه بأنسجـة صناعيـة، وتوسيـع ذاكرتـه بشرائح إلكترونية.ولا يستبعد بعد ذلك أن يأتي الدور على العضلات والحواس. إنها ـ بلغة الخيال العلمي ـ «سبرجنة» البشرcyborgenization[2*]، تطعم الحيوي بالصناعي، وتمزج البشري بالآلي. إن أهل التكنولوجيا المعلوماتية والحيوية وتكنولوجيا الإثارة الحسية يريدون أن يشقوا طريقا مباشرا مختصرا إلى مراكز الإثارة بالمخ، من دون وسيط من المؤثرات الخارجية، كالمناظر المثيرة أو العقاقير أو الصور الخائلية. ويؤكد عدد غير قليل من علماء الذكاء الاصطناعي أن هذه الأمور أصبحت ممكنة، ولا يحد من استخدامها إلا الوازع الأخلاقي والخوف من المجهول . إنه ـ بحق ـ عالم مملوء بالاحتمالات، عالم بقدر مافيه من إثارة بقدر مافيه من مخاطر ومخاوف، عالم تتهاوى فيه الفواصل بين الإنسانية والآلية، يتناغم فيه ذكاء الإنسان، مع ذكاء الآلة، في مزيج «حيوى ـ آلي» مثير، تبدو فيه الآلات كالبشر، ويتخذ البشر فيه ـ دون أن يدروا غالبا ـ سمت الآلات، بعد أن اختزنوا عادات استخدام التكنولوجيا كالغرائز في طبقات لاوعيهم العميقة، وسمحوا لهذه التكنولوجيا بأن تنفذ إلى عمق أنسجتهم وخلاياهم.

آلة الفكر وفكر الآلة (المنظور العربي)

(أ) **تجديد العقل العربي:** تجاوز تجديد العقل العربي مرحلة كونه مطلبا ثقافيا، بعد أن أصبح مقوما تنمويا لتأهيل المجتمعات العربية لدخول عصر المعلومات. ولا مجال هنا للمجاملة، فمجمل العدة المعرفية لجمهرة العقول لدينا باتت دون الحد الأدنى اللازم لمجتمع المعرفة والتعلم وحوار الثقافات. وقد عفانا من الخوض في تشخيص العقل العربي، وتوصيف وعكاته وعاهاته، عدد لابأس به من البحوث الرائدة قامت بها باقة من خيرة مفكرينا من أمثال محمد عابد الجابري ومحمد أركون وحسن حنفي

والعفيف الأخضر وبرهان غليون، وكم يتمنى الكاتب أن تتفرع هذه البحوث،

الجدول (1:4) انماط فر عصر المعلومات

أنماط فكر عصر المعلومات		عينة من أنماط الفكر العربي	
فكر ابتكاري	Creative	فكر تقليدي	Traditional
فكر مفهومي	Conceptual	فكر سطحي	Superfical
فكر خلافي	Controversial	فكر دوجمائي	Dogmatic
فكر تفنيدي	Contradictive	فكر استسلامي	Submissive
فكر علمي	Scientific	فكر لاعلمي	Nonscientific
فكر منظومي	Systematic	فكر دمجي	Monolithic
فكر استشرافي	Progressive	فكر رجعي	Retrospective
فكر حدسي	Intuitive	فكر قاطع	Deterministic
فكر مبادر	Initiative	فكر سلبي	Passive
فكر محدد	Concrete	فكر غير محدد	Non - concrete
فكر متواز	Concurrent	فكر توفيقي	Compromising
فكر جمعي	Collective	فكر فردي	Individualistic
فكر عولمي	Global	فكر محلي	Local
فكر بدائلي	Combinatorial	فكر أحادي	One-dimensional
فكر حوسبي	Computational	فكر سردي	Narrative
فكر تواصلي	Communicative	فكر انطوائي	Introversive
فكر توليدي	Generterative	فكر الأمثلة	Exemplative

التي تناولت العقل العربي في إجماليته، إلى دراسات تفصيلية عن عقول الفئات الاجتماعية المختلفة : عقل المدني والبدوي والفلاح والمهني والمدير والموظف والمدرس والطالب وهلم جرا . لقد أصبح ذلك مطلبا ملحا مع زيادة الاهتمام بالثقافات الشعبية عند تناول إشكاليات ثقافة المعلومات، والتوجه نحو عدم الفصل بين ثقافة النخبة وثقافة العامة . إن تكنولوجيا المعلومات تتيح لنا وسائل عدة لرصد عقول تلك الفئات الاجتماعية، حتى

لاتقتصر مهمتنا على العقل العربي العام المجرد أو المتصور SPECULATIVE. من جانب آخر، فنحن في حاجة، بجانب دراسة بيئة العقل العربي وتكوينه ومطالب تجديده، إلى تحليل نتائج هذا العقل ـ كما أوحى لنا عاطف أحمد [7] ـ حتى تتضح لنا ملامح الخريطة المعرفية العربية. ومرة أخرى يمكن لتكنولوجيا المعلومات أن تساهم مساهمة فعالة في إجراء هذا المسح الثقافي الشامل.

وقد قام الكاتب بتجميع أنماط فكر عصر المعلومات التي صادفها على مدى دراسته الراهنة، ورأى أن يوردها هنا في جدول (1:4) مقرونة بعينة من أنماط الفكر العربي السائدة، وقد استخلص معظمها من بحث للعفيف الأخضر عن عوائق الفكر العربي [12]. ونترك للقراء الحكم على ما يعانيه فكرنا من العثرات والعلل.

ولاشك في أن مهمة تجديد العقل العربي مهمة شاقة للغاية، سواء على المستوى الأكاديمي أو التنويري أو الإعلامي. ويرى الكاتب ضرورة استغلال تكنولوجيا المعلومات كأداة لتعميق الفكر الثقافي، واستغلال الفكر الثقافي كأداة لتوطين تكنولوجيا المعلومات في التربية العربية. ويقترح هنا مداخل أساسية عدة للإستراتيجيات السياسية والاقتصادية والثقافية والإعلامية والتربوية والمعلوماتية، على الوجه التالي:

الإستراتيجية السياسية : حرية الفكر

الإستراتيجية الاقتصادية : النظر إلى المعلومات والثقافة كمورد اقتصادي، وتبني مبدأ المشاركة في الموارد

الإستراتيجية الثقافية : اللغة العربية كركيزة أساسية

الإستراتيجية اللغوية : التركيز على شق المعنى والاستخدام الفعلي للغة.

الإستراتيجية الإعلامية : إعلام تنموي لاترفيهي فقط

الإستراتيجية التربوية : التخلص من آفة التلقين السلبي

الإستراتيجية المعلوماتية : معالجة اللغة العربية آليا، كركيزة أساسية للتنمية المعلوماتية

(ب) **العرب والذكاء الاصطناعي:** في حواره أو صراعه مع غيره، لن يواجه العقل العربي عقلا آخر أعزل، بل سيواجه عقلا يؤازره ذكاء الآلات والنظم والروبوتات المعرفية، بل ربما أيضا عقلا أدخلت عليه التحسينات

والإضافات باستخدام أساليب اليوجينيا (علم تحسين سلالة الإنسان) الإلكترونية. إن علينا أن نتدارك هذا الموقف من الآن؛ حتى لانفاجا بعد فوات الأوان بأننا قد أصبحنا لقمة سائغة لتعاضد الذكاء الحيوي ـ الآلي.
يتطلب منا ذلك على سبيل المثال لا الحصر:

- التوسع في تطبيق أساليب الذكاء الاصطناعي على معالجة اللغة العربية آليا.
- دراسة أثر الروبوتات في فرص العمل المتاحة أمام أصحاب المهارات الدنيا (كعمالة البناء على سبيل المثال) والتي تمثل نسبة لايستهان بها من العمالة العربية.
- الاهتمام ببحوث تكنولوجيا المخ والأعصاب.
- إقامة الجسور العلمية والتكنولوجية بين المعلوماتية والهندسة الوراثية.

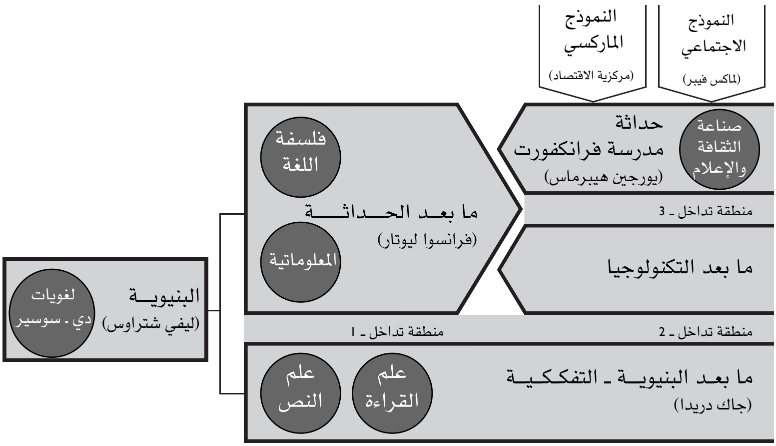
4: 1: 2 التوجهات العامة للفكر الثقافي (الطرح العام)

(أ) نظرة عامة للفكر الثقافي عالميا: نحلق هنا فوق المشهد الثقافي الراهن، نتفحص بنظرة الطائر أهم المدارس الفكرية عالميا، وخطوط المواجهة ومناطق التداخل بينها كما لخصها الكاتب في الشكل (4:1). تشير مجموعة الدوائر الواردة بالشكل إلى الأسس المعلوماتية، أو الرمزية بتعبير أعم، التي قامت عليها تلك المدارس، وهو ما يؤكد ـ بصورة سافرة ـ أهمية الأساس المعلوماتي كمدخل لاغنى عنه لفهم التوجهات الرئيسية للفكر الثقافي المعاصر. ويرجو الكاتب أن يغفر له أهل التخصص، من أصحاب الخلفية الفلسفية ونظرية الأدب والنقد، قدرا من عدم الدقة لم يستطع تفاديه، وذلك حرصا منه على التقاط منظر الغابة دون تفاصيل أشجارها.

تشمل خريطة الفكر الثقافي المعاصر المدارس الفكرية التالية: البنيوية ـ ما بعد البنيوية (التفكيكية) ـ مابعد الحداثة ـ حداثة مدرسة فرانكفورت ـ مابعد الكولونيالية. كل من هذه المدارس، كما سيتضح فيما يلي، ذات صلة بمفهوم الحداثة؛ فهي إما امتداد للحداثة في صيغتها الغربية وإما رد فعل لها، أو رد فعل لرد فعل لها، إن جاز القول. وهي الظاهرة التي تؤكد مدى خصوبة التوليد الفكري الذي تشهده حاليا الساحة الثقافية العالمية.

فيما يلي استعراض موجز من منظور معلوماتي لهذه المدارس الفكرية، رأينا أن نستهله ـ استنادا إلى ما ذكرناه أعلاه ـ بتقديم لمفهوم الحداثة.

(ب) **الحداثة**: الحداثة ـ كما يحلو للبعض أن يدللها ـ هي وريثة النهضة



الشكل (1:4) ملخص توجهات الفكر الثقافي المعاصر

وحفيدة التنوير ، تلك الموجة الحضارية التي أثرت في فكر الغرب، ومن بعده فكر العالم بأسره. لقد نجحت الحداثة في أن تخلص أوروبا من فكر العصور الوسطى، وشحذت وعي الفكر الأوروبي بواقعه، وحثته على أن يلتقط ويسجل ويقنن ظواهر هذا الواقع، وأن يستحدث أدوات معرفية جديدة للوصول إلى الحقيقة والكشف عن الزيف. لقد نسف فكر ديكارت جميع الدعائم التي قام عليها فكر القرون الوسطى[*3]، ليقيم محله صرحا فلسفيا متكاملا، أساسا مطابقة العقل بالواقع، فكما يتطابق هذا العقل مع الأشياء، كذلك تتطابق الأشياء معه. لقد ورثت الحداثة عن فلسفة الإغريق احتفاءها الزائد بالعقل والعقلانية، ونزعتها إلى رؤية الإنسان وعالمه في صوره كلية، وإن كان سقراط ـ كما قيل ـ قد أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض، فالحداثة قد جعلت من الإنسان ـ أسمى كائنات هذه الأرض محورا للفلسفة. لقد انطلقت شرارة الحداثة ما إن أعلن المجتمع الإنساني مسؤوليته عن مصيره ، وأنه صانع تاريخه. ويأتي تنوير كانط ليحث الإنسان على

تحمل هذه المسؤولية. وسيلته في ذلك هي تحرير العقل من جميع العوائق، فلاشرط لإعمال العقل سوى الحرية. وقد لخص بيتر برجر الحداثة في نقاط خمس، هي :الفكر القائم على المعرفة المجردة ـ الفردية ـ الليبرالية ـ التوجه المستقبلي ـ العلمانية.

وفي موجة اندفاعه، تمادى الإنسان في ثقته بعقله وقدراته، فكان اليقين العلمي القاطع، وموضوعية المعرفة العلمية التي لايرقى إليها الشك، والتطابق شبه الميكانيكي بين الفكر والواقع، والإفراط في عقلنة النظم والمؤسسات. فكل شيء يخضع للتقنين المنضبط، من الحسابات الفلكية إلى قياس مستوى ذكاء الإنسان، ومن قوانين الطبيعة الصارمة إلى قوانين السوق التي تدانيها صرامة وقطعا، ومن إنتاج الورش ذي الطابع الشخصي إلى إنتاج الجملة الذي يعمل كالساعة، تحت إدارة مركزية حازمة وتوحيد قياسي دقيق. وكان ما كان من جراء تلك العقلانية المفرطة، وتحول شعار «المعرفة من أجل المعرفة» تدريجيا إلى «المعرفة من أجل التكنولوجيا» حتى وصلت بنا الحال إلى ما يمكن أن نسميه «التكنولوجيا من أجل التكنولوجيا». لقد طغت الوسائل على الغايات ـ كما خلص إلى ذلك ماكس فيبر ـ لتضطرب الأمور ويصبح كل شيء غير قابل للتوقع. ووسط هذه الفوضى التي تراكمت وتواكبت عبر القرون، تخرج إلى الوجود تكنولوجيا المعلومات؛ لتهزأ بعلاقات الإنتاج الصناعي، وتخلخل الركائز الأساسية لمنظومته الاقتصادية، وتكشف عن مدى الخلل في نظمه السياسية، في الوقت نفسه الذي وفرت فيه التكنولوجيا المعلوماتية وسائل عملية للتعامل مع تعقد ظواهر الواقع. لقد ظن فكر الحداثة في غمرة اندفاعه أنه قادر على احتواء تعقد تلك الظواهر بصورة تامة، ولكنه ـ في غالب الأمر ـ كان يقتص من تعقدها حتى تدين لأدواته الذهنية والعملية، وكانت نتيجة ذلك الاختزالية والحتمية وما جرته على البشرية من كوارث. ختاما لحديث الحداثة، كان لابد من مخرج: إما «حداثة جديدة» تمد في عمر سابقتها، وإما «ما بعد حداثة» تقتلع تلك الحداثة من جذورها.

(ج) **مابعد الحداثة**: كما رفض سقراط غوغائية الفكر الذي كان سائدا في أثينا القديمة، ورفض ديكارت فكر العصور الوسطى ليفتح بتنويره الباب على مصراعيه أمام حداثة الغرب كما عهدناها، ها هم مفكرو ما

بعد الحداثة، يعاودون الكرة في تصميمهم على نسف جميع الأسس التي قام عليها فكر التنوير وحداثته. ويا أيها الفكر مابعد الحداثي «هيا بنا صوب الفوضى» كما نادى نيتشه الذي استند هذا الفكر إلى فلسفته بصورة أساسية، تلك الفلسفة التي أعلنت رفضها الصريح لكل ما ساهم في نشأة فكر الحداثة وتطوره. إن «ما بعد الحداثة» ترفض النظرة الميكانيكية للعالم وترفض المفاهيم السائدة عن الحرية والديموقراطية والموضوعية والهوية وماشابه، وترفض جميع السرديات الكبرى التي قامت عليها الحضارة الإنسانية، وترفض الصروح الفلسفية التي أقامها ديكارت وكانط وماركس وهيجل وكركيجارد وسبينوزا وغيرهم، كما ترفض مثالية أفلاطون، بل ومنطق أرسطو، ولاتقر بموضوعية ما قام على هذا المنطق من علوم وأفكار. وفقا لهذا التوجه، كان لابد أن يشمل تيار الرفض هذا جميع النصوص التي قامت عليها الديانات السماوية، بصفتها هي الأخرى نوعا من السرديات الكبرى التي يتخذ منها الفكر مظلة عامة يلجأ إليها بحثا عن المنطلقات وحسما للتناقضات. يبرر الفكر ما بعد الحداثي هذا الموقف المتطرف من السرديات الكبرى، بأنها جميعها دون استثناء ـ كما يزعم ـ ما هي إلا نوع من ألعاب اللغة كما طرحتها فلسفة لودفيج فيتجنشتاين. فعلى حد زعمهم، مهما بلغت هذه السرديات الكبرى من قدرة على التعبير والتوصيف والتحليل، ستظل عاجزة عن تجاوز التناقضات الجوهرية الكامنة في صلب اللغة ذاتها، وهو ما سنتناوله بمزيد من التفصيل في الفقرة 4:2:2 من هذا الفصل.

ولم تكن لفلسفة مابعد الحداثة أن تحظى بكل هذه الأهمية، لو توقف مشروعها الفكري عند حدود الرفض دون سواه. إن مفكري مابعد الحداثة قد أرادوا بنسفهم فكر الماضي أن يحرروا الفكر الإنساني من قيوده؛ كي ينطلق صوب آفاق غير محدودة لتأسيس معرفة جديدة أكثر صلابة، وأن يعي الإنسان عالمه على حقيقته لا كما يصوره له فكر نخبته، وأن يتحرر من سلطة الخطاب بالكشف عن التكتيكات التي تلجأ إليها اللغة عند التعبير عن الواقع، وكيف يساء استخدامها في خدمة القوى الاجتماعية المسيطرة. بقول آخر، غاية مابعد الحداثة هو البناء من الصفر. لايقصد بـ «مابعد» أن مابعد الحداثة تتبع الحداثة من حيث الزمن؛ حيث لايقر الفكر مابعد

الحداثى بهذه الخطية الزمنية، ولابغيرها من أنواع الخطية، ولايضيره في شيء أن يلجأ إلى ما قبل الحداثة منقبا عما يؤازر توجهاته ويعضد مواقفه. إن فكر ما بعد الحداثة يقوم - في الأساس - على مفهوم الاختلاف والتباين لا الائتلاف والتطابق، وهو يرى أن تناقضات المجتمع الإنساني باقية مابقي المجتمع؛ فهي تستعصي على الحسم، وكما يستحيل الوفاق بين طبقات المجتمع، كذلك الأمر مابين ثقافات العالم المختلفة. والآن دعنا نركز حديثنا على صلة مابعد الحداثة بالمعلوماتية، وهي الصلة التي تتجلى، في أوضح صورها، لدى جان بودليار الذي يزخر خطابه الفكري بمفاهيم الكود والشفرة والحوسبة والرقمنة وما شابه. إن بودليار يؤمن بأن مفهوم الكود - سواء كود برمجة الكمبيوتر أو الكود الوراثي - قد أحدث نقلة نوعية حاسمة، ويقصد بها تلك النقلة من طور الإنتاج إلى طور إعادة الإنتاج (233:267). وفي ظل طور الإعادة هذا، تُنسخ جميع سلع المعلوماتية من برامج وموسيقى وأفلام ونصوص وأفكار . ولا تتوقف إعادة الإنتاج عند حد السلع، بل تمتد - كما ذكرنا سابقا - إلى نسخ العمالة البشرية أيضا؛ وذلك من خلال الروبوت والنظم الذكية والخبيرة. كما هو الشأن بالنسبة لكود البرمجة، تُعاد عملية الإنتاج البيولوجي من خلال آليات نسخ الكود الوراثي القائمة أساسا على الانقسام الجيني. تشير دلائل كثيرة إلى أن تكنولوجيا المعلومات ستظل تدفع بطور إعادة الإنتاج إلى مشارف جديدة صوب حدوده القصوى، من بوادر ذلك ماسبق أن تحدثنا عنه في الفقرة 2:4 من الفصل الثاني فيما يتعلق بنسخ عالم الواقع عن طريق نظم المحاكاة الرقمية باستخدام التكنولوجيا الخائلية. في ضوء ما سبق، يتطلب طور إعادة الإنتاج نظرة مغايرة تماما إلى مفهوم القيمة والملكية، وعلاقة المنتج بالمستهلك، وعلاقة صاحب رأس المال بعمالته: ذهنية كانت أو يدوية. وأهم من ذلك، كما خلص ميشيل فوكو، أن هذا التطور الاجتماعي الجديد يتطلب مراجعة شاملة لعلاقة المعرفة بالقوى الاجتماعية المختلفة؛ فمصدر القوة لم يعد الموارد المادية بل الموارد الرمزية من إعلام وتربية وقيم وأفكار وخلافه.

وكان لا بد أن تثير مابعد الحداثة موجة عارمة من النقد، فهناك من لايرى فيها جديدا، وهناك من يراها، مثل بيتر برجر، مجرد رد فعل مؤقت [247]. ولكن أخطر نقادها قاطبة، وأكثرهم تأثيرا، هو بورجين

هيبرماس ممثلا للحداثة الجديدة كما تطرحها مدرسة فرانكفورت، ويمثل السجال الفكري بين هيبرماس وفرانسوا ليوتار، رائد تنظير مابعد الحداثة، واحدا من أبرز ملامح المشهد الثقافي العالمي.

(د) **حداثة مدرسة فرانكــفـورت:** يمكن القول ، بصفة عامة، إن فكر مدرسة فرانكفورت هو مزيج من الفكر الاجتماعي لدى ماكس فيبر، وفكر كارل ماركس ممثلا في نموذجه القائم على طور الإنتاج، والذي يرى الثقافة ناتجا فرعيا، أو بنية فوقية، لهذا الطور. إن حداثة مدرسة فرانكفورت ـ كما يمثلها فكر هيبر ماس ـ تريد أن تخرج الحداثة الغربية من أزمتها الراهنة؛ وذلك بتخليص النموذج الماركسي من محوريته الاقتصادية، آخذة في الاعتبار متغيرات عصر المعلومات، خاصة فيما يتعلق بنظم الإعلام الجماهيري. لذا، فحداثة مدرسة فرانكفورت لا ترى الثقافة مجرد ناتج فرعي، بل صناعة قائمة بذاتها، مؤسسة اجتماعية ذات درجة من الاستقلالية تتفاعل مع غيرها في إطار منظومة المجتمع كما في نموذج ماكس فيبر. إن هيبرماس يريد بهذا أن نطيل من عمر الحداثة، بل ربما يرمي إلى ما هو أبعد من ذلك. ففي رأيه، أن الحداثة لا ترتبط بمرحلة تاريخية معينة، ولكنها تتجدد دوما كلما تجددت العلاقات بالقديم، والوعي بخصائص ما هو قادم. بقول آخر: إن الحداثة لدى هيبرماس هي الوعي بالمرحلة التاريخية التي تقيم علاقة مع الماضي وهي ـ أي الحداثة ـ لانهاية لها ولاتعلن عن نمط نهائي فهي في تطور مستمر منفتح على المجهول (8:4). ولاينكر هيبرماس وجود تناقضات وسلبيات في موقف الحداثة الغربية الراهنة، ولكنه يرى ـ في الوقت ذاته ـ صعوبة أن يتجاهل المرء ما أدت إليه هذه الحداثة من إنجازات في العلوم والنظم والأخلاق والقانون والحريات.

وتبرز علاقة حداثة هيبرماس مع المعلومات وتكنولوجيا المعلومات في جوهر الحل الذي يتصوره لأزمة الحداثة الراهنة؛ فهو يؤمن بأن حل أزمة الحداثة هو مزيد من الحداثة، ويقصد بذلك مزيدا من الاحتكام إلى العقل، وتحقيق درجة أعلى من شفافية التواصل، سواء داخل المجتمع الواحد، أو بينه وبين المجتمعات الأخرى. وقناعة هيبرماس أن تكنولوجيا المعلومات قادرة على أن تخلق مجالا جديدا للرأي العام يمكن أن تتوافر فيه هذه الدرجة في الشفافية الاتصالية؛ وذلك بفضل سرعة سريان المعلومات،

وهي تقطع المجتمع طولا وعرضا حاملة معها رجع الصدى الذي يعكس واقع المجتمع الحقيقي، ويظهر النتائج المترتبة على ما يتخذ من قرارات ومبادرات وممارسات. إن هذه الشفافية المعلوماتية من خلال رجع صداها الفوري المتجدد، لكفيلة - في رأي هيبر ماس - بأن تكسب المجتمع الحديث القدرة على تصويب أخطائه ذاتيا، والتكيف ديناميا مع المتغيرات الاجتماعية. وهنا يقترب فكر كارل بوبر من فكر هيبرماس في هذا الشأن؛ حيث يعتقد بوبر أن الحضارة الغربية، على الرغم من رصيد أخطائها هي الأكثر تحررا، وهي الأفضل من غيرها، لكونها الأكثر قدرة على تصويب نفسها بنفسها (252:74).

(هـ) مابعد الكولونيالية: تمثل ما بعد الكولونيالية[(*4)] الموقف المناهض الذي اتخذه مفكرو العالم النامي من فكر ما بعد الحداثة؛ فهم ينظرون بعين ملؤها الشك إلى الدوافع الدفينة التي تحرك الفكر مابعد الحداثي؛ ذلك على الرغم من اشتراكهم معه في بعض التوجهات الرئيسية. إن الفكر مابعد الكولونيالي يرى في صميم فكر ما بعد الحداثة بقايا نزعات استعمارية ورواسب إمبريالية، يمكن أن نطلق عليها كولونيالية مجتمع مابعد الصناعة، ويتهمون الفكر مابعد الحداثي كذلك بأنه يفضي إلى ترسيخ الأوضاع، وبالتالي يعيد إنتاج المجتمع الرأسمالي، بطبقاته وطبقيته، وطابعه الاستهلاكي. وسنكتفي هنا بإيجاز بعض مواضع بين الصدام بين الفكر مابعد الكولونيالي ومابعد الحداثي:

أولا: يتخذ الفكر مابعد الكولونيالي الموقف ذاته المناهض للحداثة الغربية، ولكنه يرى ضرورة استفادة المجتمعات النامية من إنجازات هذه الحداثة بغرض الإسراع من عملية التنمية.

ثانيا: كما في الفكر مابعد الحداثي، يقوم الفكر مابعد الكولونيالي على مبدأ الاختلاف والتنوع، لكنه يختلف معه فيما يزعمه من استحالة الوفاق والتواصل نتيجة لهذا الاختلاف؛ حيث يرى فكر مابعد الكولونيالية في تلك الاستحالة نوعا من التهرب من الحسم يؤدي بنا حتما - كما تقول ماري تيريز عبد المسيح - إلى الانغلاق في دائرة اللاحسم الذي يكبح إرادة التغير، وفيه ما يؤكد دوام الحال والتغيير المحال [(111)]. معنى ذلك، في التحليل النهائي، أن مابعد الحداثة يخفي نوايا إمبريالية مستترة في شكل

جديد.

ثـالـثـا: يؤمن مفكرو ما بعد الكولونيالي بالتنوع الثقافي والنسبية الثقافية، لكنه لا يصل إلى حد النسبية المطلقة كما في الفكر مابعد الحداثي. فمع إيمانهم بضرورة الحفاظ على الخصوصية الثقافية لمجتمعاتهم، إلا أنهم يؤمنون ـ مع ذلك ـ أن هذه الخصوصيات يمكن أن تمتزج ، وتندمج، كروافد تصب في المسار الأشمل للحضارة الإنسانية.

إن مفكري مابعد الكولونيالية ينشدون عالما يخلو من أنواع الهيمنة: خارجية كانت أم داخلية. ولذا فهم عادة ما يلجأون إلى التفكيكية في تحليل خطاب السلطة وقراءة التراث، في الوقت نفسه الذي يستلهمون فيه بعض جوانب حداثة مدرسة فرانكفورت، فيما يخص تشبث ماركسيتها الجديدة باستمرارية النضال والتحرير، دون حتمية الثورة كأداة للتغيير.

(و) **البنيوية**: أحدث فرديناند دي ـ سوسير، في تأسيسه لعلم اللسانيات الحديث، مايمكن وصفه بالثورة المعرفية الشاملة في معالجة إشكالية اللغة. فاللغة من بعده لم تعد تلك الظاهرة المتمثلة في التجليات السطحية من الألفاظ والعبارات والنصوص. فتحت ظاهر سطحها، ترقد بنية عميقة متعددة العناصر والمستويات؛ نسق معرفي من العلاقات التي تربط بين الألفاظ والمعاني، وبين مكونات تركيب الجمل والفقرات، وبين المعنى والسياق، وبين أصل اللفظ ومشتقاته، وبين تنغيم الكلام ونية المتكلم، وهلم جرا. وهذه العلاقات في طبيعتها ليست علاقات اعتباطية عشوائية، بل يحكمها عدد من المبادئ العامة التي تشترك فيها جميع اللغات. لقد أصبح شاغل الفكر اللغوي بعد دي ـ سوسير هو الكشف عن ماهية البنية اللغوية العميقة، وتفسير عمل الآليات الدفينة لمنظومة اللغة.

وهكذا وضع دي ـ سوسير بذرة البنيوية في الفكر الإنساني، وكان من المحتم أن تمتد نظرية اللغة لدي ـ سوسير إلى مجالات معرفية أخرى، وكيف لا؛ واللغة هي رابطة العقد في خريطة المعرفة الإنسانية. وكان أن طبقت البنيوية في مجالات علم النفس ونقد الأدب وعلم الإناسة ونظرية الشعر، بل في مجال السياسة والتنظيمات الاجتماعية أيضا. فنجد لاكان يطبق البنيوية في دراسة ظاهرة نمو الوعي لدى الأطفال، ليضيف تعديلا جوهريا إلى وجهة النظر الفرويدية؛ فيما خلص إليه من أن وعي الطفل

لاينمو من خلال علاقته بثدي أمه فقط، بل بعلاقته بلغة الأم أيضا؛ مؤكدا بذلك أهمية العلاقة النفسية الرمزية.

لقد قامت البنيوية اللغوية لدى «دي ـ سوسير» على ثنائية الرمز ومدلوله، ليمهد بهذه الثنائية للقاء اللغة مع المعلوماتية وجوهرها الثنائي المعروف. وتتضح علاقة البنيوية بالمعلوماتية ـ بصورة أكثر صراحة ـ في فكر ليفي شتراوس، مؤسس الأنثروبولوجيا الرمزية. حيث قام ، متأثرا بفكر دي ـ سوسير، بتطبيق البنيوية في تحليل أساطير الشعوب؛ ليثبت لنا أن هذه الأساطير ليست شطحات خيال من عبث العقول البدائية، بل هي بنى معرفية على درجة عالية من التماسك والاتساق، وقد ذهب شتراوس إلى ما هو أبعد من ذلك ، عندما خلص إلى أن الأساطير ـ على الرغم من تطورها المستمر عبر العصور، واختلافها عبر الأماكن ـ شأنها شأن اللغة ، تعمل وفقا لعدد من المبادئ العامة المتمثلة في علاقات الاختلاف، من قبيل تلك بين الوجود والواقع، والواحد والمتعدد، والحرية والاحتياج، والمتطابق والمتباين، والخير والشر، والإنسان والطبيعة ، والرجل والمرأة، وهلم جرا. انطلاقا من هذا التصور، مادامت أن هذه المبادئ، وثنائيات تباينها، عامة تشترك فيها جميع الشعوب ، فلابد في رأي شتراوس أنها تعكس ـ بصورة أو بأخرى ـ ما يجري داخل عقل الإنسان ليمضي استنادا إلى ذلك مؤكدا أن العقل هو الآخر يعمل بصورة ثنائية.

أما ميشيل فوكو فينقل النهج البنيوي من منظومة اللغة إلى منظومة المجتمع ككل؛ فقد قام بتطبيقه في تحليل علاقة ظاهر المؤسسات الاجتماعية بالبنى المعرفيةالكامنة وراءها. لقد انشغل فوكو ـ في المقام الأول ـ بالكشف عن علاقات السيطرة التي تحيكها قوى السلطة داخل كيان المؤسسات الاجتماعية من المصانع والمدارس حتى السجون ومستشفيات الأمراض العقلية، وعن الكيفية التي تستغل بها هذه القوى أسلحة المعرفة واللغة بالتالي، في تحقيق أهدافها وتقوية مواقفها. كتطبيق عملي لنهجه البنيوي، قام فوكو، بدراسة تاريخية عن أساليب العقاب وكيف تغيرت من آلات التعذيب إلى السجون والمعتقلات ثم إلى الحرمان من الحقوق السياسية. وعلينا إذن، وفقا لهذا النهج، أن نتوقع أساليب جديدة للعقاب في عصر المعلومات ذلك بحرمان الفرد من حقوقه الاتصالية مثلا، ومعاقبته رمزيا

عن طريق برمجته ذهنيا. لقد كان هدف فكر التنوير هو حث العقل على التفكير العلمي المنهجي، ومنعه من تجاوز حدود المنطق، وجاء الفكر الماركسي ليجعل من الفلسفة أداة لتغيير الواقع لا مجرد رؤية نظرية مجردة، أما ميشيل فوكو، الذي ينسب إلى البنيوية تارة، ولما بعد الحداثة تارة أخرى، فيحصر فكره في مراقبة السلطات ورصد مسار تطورها وهي تفرض على المجتمع ما يلائمها من أساليب العقلانية. والتساؤل هنا: هل يمكن لتكنولوجيا المعلومات أن توقف، أو ترشد على الأقل، نفاذ قوى السلطة قبل أن ترسخ وتتعتق في كيان المؤسسات الاجتماعية.

(ز) **مابعد البنيوية**: قامت البنيوية على ركيزتين أساسيتين، هما وجود علاقة عضوية بين الرمز اللغوي ومعناه، ومبدأ الفصل بين الموضوع، رهن التحليل البنيوي ـ أسطورة كان هذا الموضوع أم تنظيما اجتماعيا ـ وبين وجهة النظر الذاتية للشخص القائم بعملية التحليل؛ وذلك ضمانا للموضوعية. تختلف ما بعد البنيوية مع هذين التوجهين؛ فالرمز اللغوي ـ أو اللفظ على سبيل التبسيط ـ لا يحيل إلى معنى بعينه، كما في البنيوية، بل يحيل إلى رمز آخر . ليظل يدور في حلقة مفرغة يستحيل معها الوصول إلى معنى نهائي، والمعنى ـ بالتالي ـ مرجأ دوما. بناء على هذه الاستحالة وذلك الإرجاء، أطلقت مابعد البنيوية حرية قراءة النصوص ، فهناك عدد لانهائي من القراءات المحتملة لكل نص، وفقا لخلفية القارئ، وهدفه من وراء قراءة النص.

وعلى صعيد آخر، فقد انشقت مابعد البنيوية على فكر دي ـ سوسير، والذي اعتبر اللغة المنطوقة هي أساس التنظير اللغوي، ناظرا إلى كتابة النصوص على أنها مجرد مقابل جرافيكي للأصل المنطوق. لقد أعادت مابعد البنيوية الهيبة إلى النص المكتوب، فكانت نظرية القراءة التي أسسها جاك دريدا، والذي استحدث منهجا لتفكيك النص يكشف عن تناقضاته الكامنة وثغرات فكر مؤلفه ومناوراته اللغوية. ومن التفكيكية إلى الفلسفة حيث اتخذ جاك دريدا من نحو القراءة مدخلا لمناقشة إشكالية الذاتية فلسفيا، باعتبار علاقة المؤلف بنصه مقابلا لثنائية الذات والموضوع.

نهي هذا الحديث عن توجهات الفكر الثقافي عالميا، بالإشارة إلى أن المشهد النقدي الحاضر ـ كما تقول فريال غزولي يشي بتعددية المداخل

النظرية، وتجاورها وتفاعلها وتداخلها؛ مما يؤدي إلي إلغاء الحدود الفاصلة بينها [124]، وهنا تبرز أهمية ما أكدنا عليه من كون معظم توجهات الفكر الثقافي الحديث كثيفة اللسانيات كثيفة المعلوماتية؛ فقد أثبتت اللغة والمعلوماتية ـ منفردتين أو متضامنتين ـ أنهما أداة فعالة لإحداث التفاعل والتمازج بين التوجهات المعرفية المختلفة، ووسيلة السيطرة على تعددها، ومعول هدم للحدود الفاصلة بينهما، ويسري ذلك على النقد الأدبي، كما يسري على جميع مجالات العلوم والفنون.

توجهات الفكر الثقافي (المنظور العربي)

(أ) **عن طوبوغرافية فكرنا الثقافي**: يوجز الكاتب في الشكل (2:4) توجهات الفكر الثقافي العربي من نظرة «طائر حزين»، يطوف ببقاع قاحلة باهتة التضاريس، فلا يجد إلا تيارين للفكر: علمانيا ودينيا لا يتحاوران إلا لماما، وإن تحاورا فحوار الطرشان . فبينما يتهم التيار الديني غيره من التيارات الفكرية بأنه يجهل عنه الكثير[*5]، يتهم العلماني نظيره الديني بأنه يجهل فكر عصره وواقعه. ويقول طارق البشري إن الانفتاح على الآخر لدينا أضحى نوعا من التفريط في الذات [15]. وبين هذين التيارين المتصارعين يتخذ التيار القومي موقعا وسطا، برافديه : البعثي المائل صوب الفكر العلماني، والناصري المائل صوب الديني بحكم نشأته المصرية في حضن معسكر «الإخوان المسلمون»، ويندفع التياران: البعثي والناصري للقاء بعضهما، تحت واقع الحمية القومية، من دون مهاد فكري، ودون معرفة كافية ومتكافئة بالمواقف والتوجهات والممارسات والتنظيمات، لتحدث الطامة الكبرى بانهيار الوحدة بين مصر وسوريا. من هذا ، نخلص إلى أن فكرنا العربي، المفكك الأوصال يعاني من حالة مزمنة ومتفاقمة من نقص المعلومات وتبادلها؛ وذلك على عكس الفكر الغربي الذي يتسم ـ كما أوضحنا في طرحنا العام ـ بكثافة المعلومات والمعلوماتية.

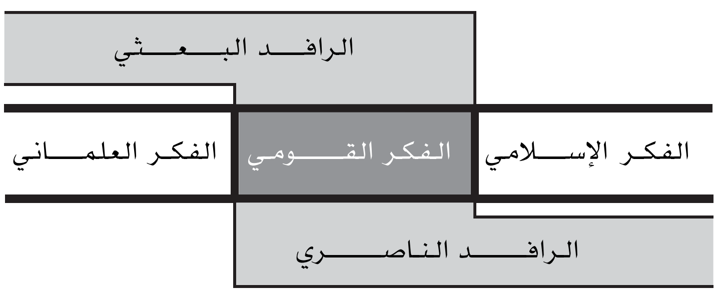
مما يبعث على الأمل أن كلا من التيارين: القومي والإسلامي، يدرك ـ كما أوضح طارق البشري ـ أن التيار الآخر هو السبيل الوحيد المتاح تاريخيا وحضاريا وسياسيا [15]، وقد أكد أحمد كمال أبو المجد على الحاجة الماسة إلى إيجاد صيغة تضبط العلاقة بين التيارين [3]. ويرى الكاتب ـ استكمالا

لذلك ـ أن من مصلحة الفكر العلماني أن يجد هو الآخر صيغة عملية لضبط علاقته مع الفكر القومي حتى تزداد فاعليته على الساحة العربية.

وفي رأي حسن حنفي «أن الفكر العربي سيظل عاجزا عن الدخول في التحديات الر ئيسية في الواقع العربي مالم يتحول إلى فكر جذري قادر على صياغة مفاهيم جذرية للواقع المأساوي الذي يتفاعل معه ويعيش فيه. ويتطلب ذلك إعادة تأسيس جذوره الثلاثة في التراث القديم، وفي التراث المعاصر، وفي الواقع العربي المعاصر ذاته (86). مرة أخرى، لايمكن أن تنجح عملية التأسيس تلك إلا بدعم هائل من تكنولوجيا المعلومات، يتعذر من دونه احتواء الكم الهائل من البيانات اللازمة لمتابعة مسارات هذه الجذور تاريخيا واجتماعيا ومعرفيا. مما يجعل هذا الجهد التأسيسي الطموح أكثر طلبا للمعلومات، هو ضرورة قيامه بالعديد من الدراسات المقارنة والتقابلية مع فكر الآخرين ، وبخاصة مع الفكر الغربي، وإلا أصبح ـ كما ترى يُمنى الخولي ـ نوعا من التأسيس السلبي لهوية الذات عن طريق نفي الآخر (32).

تطفو فوق هذه القاعدة المعرفية الهشة بعض مبادرات فردية لتطبيق المدارس الفكرية العالمية التي أوردناها في طرحنا العام؛ وذلك على مجالات جزئية من قضايانا في مجالات اللغة والنقد الأدبي وعلم اجتماع المعرفة، وقد كاد التنظير الثقافي المغربي أن يصل إلى مستوى الكتلة الحرجة بالقدر الذي يكفي لإقامة صرح فكري عربي يمزج مابين فكرنا وفكر الغرب.

مما يزيد هذا الوضع البائس لفكرنا الثقافي العربي تهالكا وتشرذما،



الشكل (2:4) ملخص توجهات الفكر الثقافي العربي

ما يتردد على ساحته من اتهامات متبادلة؛ فهناك من يتهم الفكر المصري بالشوفينية، وما يتبعها من نزعات الفرعونية و البحر أوسطية، إلى حد التشكيك في أصالته العربية (45:44)، ولمفكري دول الخليج نصيبهم من تهم القطرية وشبه الإقليمية ، ويصل السخف والسفه أحيانا ببعض ذوي الهوى والغرض إلى حد استخدام أوصاف من قبيل : فكر النفط وفكر الرمال والخيام. ولاشك في أن هذه لاتخرج عن كونها دعاوى زائفة وزائلة.ولكن مايستحق أن يؤخذ مأخذ الجد ، بشأن تكامل الفكر العربي، هو ما أشار إليه المسدي من أن أهل المشرق يجهلون فكر أهل المغرب، في حين يحرص مفكرو المغرب بشدة على متابعة فكر المشرق واستيعابه (57:48). ولاشك في أن لقاء رافدي الفكر العربي: المشرقي والمغربي، بجانب كونه واجبا قوميا، فهو ـ أيضا ـ ضرورة إبستمولوجية. ففكر المشرق ـ في رأي المسدي ـ ينحو نحو الإبداع والروحانية، في حين يركز فكر المغرب على الدراسات الجادة في مجال الإنسانيات تأثرا بالفكر الفرنسي.

(ب) أزمة فكرية على جميع الجهات: يعاني الفكر الثقافي العربي من أزمات طاحنة على جميع الجهات؛ أزمات في فكر اللغة، وفكر التربية، وفكر الإعلام، وفكر الإبداع، والفكر الديني، فكر القيم، وفكر معالجة التراث. والأدهى من ذلك هو ذلك الفقر الشديد الذي يعاني منه الفكر الفلسفي العربي، والتنظير الثقافي بالتالي. وفي ظلمة الخواء ترتع خفافيش الانتهازية الفكرية، ويتحول أنصاف الفلاسفة وأنصاف العلماء إلى أشباه أنبياء، ذوي سلطة معرفية أقرب ماتكون إلى السلطة الغيبية.

وقد استهلك المحللون في وصف راهن الفكر الثقافي العربي جميع مصطلحات التقاعس والسلبية، من تلقين وتبعية وترديد وردة ثقافية، وعزلة معرفية وجمود فكري وانكماش حضاري، وغيبوبة أكاديمية، وغيبة الحوار وغربة الأصالة، وإجهاض الإبداع ، وفوضى الساحة الثقافية. لقد تفاقم الوضع حتى بدا ـ في نظر البعض ـ وكأن الفكر العربي قد فقد الرغبة في إنتاج المعرفة، وكأنه بذلك يؤكد ما زعمه ماكس فيبر في تجنيه من أنه لن تقوم للحداثة الإسلامية قائمة نتيجة لما أسماه بالاستبداد الشرقي، ناهيك عما يشيع في خطاب الاستشراق من مزاعم باطلة عن عجز فكري متأصل في صلب ثقافتنا، متهمين إياها بالسلبية والآخروية والانغلاق على الذات

ورفض مبدأ الحوار، على عكس ثقافة الإغريق التي قامت على الحوار والمحاجاة وتبادل الآراء والأفكار. فهل لنا بعد كل هذا أن نلحق بثورة تجديد الفكر الثقافي التي فجرها عصر المعلومات، وهل لدينا جرأة الإقدام على مراجعة شاملة لأصولنا الفكرية، وعدتنا المعرفية، وتنمية مبادراتناالتنظيرية. وإن لا، فهل هناك من بديل؟!

2:4 علاقة الفكر بمنظومة الثقافة

2:4: 1 مواضع التقاء الفكر بالثقافة

فكر الثقافة عنصر أساسي في منظومتها، وكغيره من العناصر، يرتبط الفكر بباقي عناصر منظومة الثقافة من خلال مجموعة من العلاقات التبادلية تلخصها ثنائيات التقابل التالية:

- لغة الفكر : فكر اللغة
- تربية الفكر : فكر التربية
- إعلام الفكر : فكر الإعلام
- إبداع الفكر : فكر الإبداع
- تراث الفكر : فكر التراث
- قيم الفكر : فكر القيم والمعتقدات

سنتناول في هذا الفصل عناصر الشطر الأيمن من ثنائيات التقابل تلك، أما عناصر الشطر الأيسر فسنتناولها في الفصول القادمة في مجال الحديث عن علاقة كل عنصر من عناصر منظومة الثقافة بالعناصر الأخرى.

2:2:4 لغة الفكر الثقافي (الطرح العام)

(أ) **العلاقة الوطيدة بين اللغة والفكر الثقافي**: علاقة اللغة بالفكر هي ـ بلا منازع ـ أبرز علاقات الفكر في منظومة الثقافة، وكان لابد للغة ـ بحكم تلك العلاقة الوطيدة مع الفكر ـ أن تكون منهلا أساسيا لنتاج هذا الفكر على اختلاف مجالاته وتوجهاته. ولذا؛ فقد أقامت اللغة علاقات وطيدة مع جميع فصائل المعرفة الإنسانية: فلسفة وعلما وفنا، بل هندسة أيضا، بعد أن حظيت اللغة بفرع للهندسة خاص بها (هندسة اللغة). لقد تطفل علم اللغة فيما مضى على العلوم الأخرى؛ بحثا عن مناهجه. أما

الآن، فقد نضج الفكر اللغوي حتى أصبح نهجا عاما paradigm يتبناه غيره من العلوم. فعلى سبيل الاستشهاد، وكما أشرنا في الفقرة السابقة، لم يكن علم اللسانيات الحديث، كما أسسه فرديناند دي ـ سوسير، مقصورا على اللغة، بل تجاوزها إلى علم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم الإناسة، ونظريات الفن والأدب والشعر والميثولوجيا، ويمثل المفكرون من ذوي الخلفية اللغوية أعلى نسبة من منظري الثقافة، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: رومان جاكبسون وفردريك جيمسون ونعوم تشومسكي وجاك دريدا وجوليا كريستيفا وإدوارد سابير وإدوارد سعيد.

لقد كانت اللغة، منذ قديم الأزل، شاغل الفلاسفة على اختلاف مذاهبهم، ومعظم الفلاسفة ـ قدامى ومحدثين ـ بلاغيون في المقام الأول ، وما من إشكالية من إشكاليات الفلسفة إلا ولها مقابل أو شق لغوي، فإن أخذنا مثلا «إشكالية الذات والموضوع»، فسنجد أن وظيفة اللغة الأساسية هي توصيل ما تفكر فيه الذات داخليا إلى موضوع يعيه من هم بخارجها ، وثنائية ضمير المتكلم وضمير المخاطب (أنا وأنت) هي بمنزلة التجسيد اللغوي لثنائية التوصيل تلك، وهي الثنائية التي اتخذت منها جوليا كريستيفا، وآخرون، مدخلا أساسيا لإعادة النظر في مسألة «الذاتية» فلسفيا.

على صعيد آخر، وكدليل على محورية اللغة في الفكر الثقافي، نشير هنا إلى اقتراب فلسفة المعرفة من أن تصبح مرادفة لفلسفة اللغة، والتي كادت ـ بدورها ـ أن تشمل معظم فروع الفلسفة التحليلية؛ فالفلسفة في نظر مدرسة «الوضعية المنطقية»مجرد منهج للبحث هدفه التحليل المنطقي للغة التي نستخدمها في حياتنا اليومية، وقد صرح كارناب بأن الفلسفة الحقيقية لا تعدو أن تكون مجرد تحليلات تركيبية للغة (50: 140). وكما أوضحنا في الفقرة 4: 1: 2 من هذا الفصل، فقد أصبحت اللغة ـ بلا ريب ـ إحدى الركائز الأساسية للفكر الثقافي الحديث بمدارسه المختلفة. وهناك شق لغوي لكثير من روافد التنظير الثقافي الواردة في الفقرة3: 3: 3 من الفصل الثالث، نذكر منها على سبيل المثال: نظرية النقد، ونظرية الجمال، وسوسيولوجيا المعرفة، وديناميات الجماعة، وعلم الاستشراق، ونظرية المعلومات، ونظرية الأدب، ونظرية السرد، ونظرية الاتصالات، ونظرية التربية.

ويكمن جوهر العلاقة بين اللغة وفكر الثقافة في العديد من أوجه التقابل بينهما ، نذكر منها ـ على سبيل المثال ـ التقابل بين قدرة اللغة على التجريد، الطابع التجريدي الذي يتسم به الفكر الثقافي، والتقابل بين لانهائية اللغة المتمثلة في لانهائية تعبيراتها واستمرارية التوسع في معانيها ومجازها، وبين لانهائية الفكر وديمومة توسعه. وأخيرا وليس آخرا، التقابل بين استحالة الوصول إلى المعنى النهائي للرمز اللغوي ـ كما أشرنا سلفاـ واستحالة اكتمال الفكر النظري، كما أثبته كورت جودل بمبدأ عدم الاكتمال الرياضي.

وتأتي تكنولوجيا المعلومات لتجعل من اللغة «سندريلا» علوم الكمبيوتر؛ فلم تعد اللغة مجرد أداة للاتصال أو نسق رمزي ضمن أنساق رمزية أخرى، بل أصبحت أهم العلوم المغذية لتكنولوجيا المعلومات وأخطر ظواهر مجتمع المعلومات قاطبة، ورابطة العقد ـ بلا منازع ـ بين جميع أنساق الرموز الأخرى التي تسري في كيان هذا المجتمع.

(ب) **اللغة بين الشفافية والعتمة:** كنتيجة منطقية لمحورية اللغة في الفكر الإنساني عموما، والفكر الفلسفي بصفة خاصة، أصبح مدى مطابقة اللغة للواقع الذي تعبرعنه، ومدى نقائها وصفائها كوسيط للتواصل الاجتماعي، من أهم إشكاليات البحث الفلسفي والتنظير الاجتماعي والثقافي. والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا الصدد هو : هل اللغة وسيط شفاف نقترب من خلاله صوب الحقيقة دوما: من الصائب إلي الأصوب، أو من الزائف إلى الأقل زيفا، أم أنها ـ أي اللغة ـ أداة عتمة وتضليل وتزييف تبعدنا عن الحقيقة وتعزلنا عن الواقع؟ من ظاهر الحال، كما يمكن للغة أن تكون أداة التفسير والتوضيح والإبانة، يمكن لها ـ بالقدر نفسه ـ أن تكون أداة للتضليل والطمس والاقتصاص من الحقائق. وكل أنواع الخطابات الاجتماعية اللغوية: سياسية كانت أم اقتصادية، تربوية كانت أم إعلامية، تجيد استخدام حيل اللغة وتكتيكاتها. هدفها في ذلك هو توصيل مانريد أن نوصله من رسائلها، والسكوت عما تريد أن تحجبه منها، فنجد هذه الخطابات تعمم في مقام التخصيص، وتخصص في مقام التعميم، وتصمت حين يجب الإفصاح، وتسهب من أجل إثارة الضوضاء حول ما تريد أن تطمسه أو تمرره.

وقد استفز غموض اللغة هذا فيلسوفها الشهير لودفيج فيتجنشتاين، فراح يضع الضوابط التي تضمن وضوح اللغة وإجلاء اللبس من معاني ألفاظها ودلالات تراكيبها . وفي رأيه «أن ما يجب أن يقال، يجب أن يقال بوضوح»، ودون ذلك فليس هناك إلا الصمت. ولكن كيف لنا أن نصل إلى هذا الوضوح، وأن نزيل اللبس ونتحاشى الغموض، وهو أمر مستحيل ، كما يقول كارل بوبر في صدد نقده لفكر فيتجنشتاين، فمهمة الفلسفة ـ في نظره ـ ليست هي فك ألغاز اللغة وإزالة غموضها، وذلك على الرغم من إقراره بأهمية التخفيف من الغموض، والتقليل من اللبس؛ بغية الاقتراب من الحقيقة (216:74). ويتكرر مشهد تأرجح وجهات النظر حول شفافية اللغة وعتمتها، على المستوى الاجتماعي العام هذه المرة، متمثلا في السجال الفكري ـ الذي أشرنا إليه في الفقرة 4:1:2 من هذا الفصل ـ بين هيبرماس ممثلا لحداثة مدرسة فرانكفورت، وليوتار ممثلا لما بعد الحداثة. فبينما يرى الأول إمكان تحقيق درجة عالية من شفافية التواصل الاجتماعي من خلال التفاعل والحوار والتصويب الذاتي ، يري خصمه ليوتار تحقق تلك الشفافية ضربا من المستحيل، وأن هذا الوفاق اللغوي ـ كغيره من أنواع الوفاق الاجتماعي ـ ماهو إلا أضغاث أحلام.

وعلى الرغم من كل ما أسلفناه، يظل أخطر ما قيل عن استحالة الشفافية اللغوية هو ما أثاره نيتشه بشأنها؛ فقد خلص إلى أن اللغة تحمل في جوفها بذرة الغموض وعلة اللبس وداء الزيف. حجته في ذلك هي إسراف اللغة في استخدام التضاد الثنائي (مثل: الماضي والحاضر ـ المعلوم والمجهول ـ الحرفي والمجازي). في الوقت نفسه الذي تدعي فيه ـ أي اللغة ـ أنها تعبر عن الواقع الذي لا يعرف أصلا مثل هذا التضاد الحاد (38:230)، ولايمكن إخضاع ظواهره لصرامة ثنائياته. فغالبا ما تكون أمور الواقع طيفا مستمرا من تنويعات الاختلاف، ومستويات التدرج التي تصل بين أطراف هذه الثنائيات[*6] . من وجهة نظر أخرى، فإن اللغة ترسخ في عقل مستخدمها أن لكل فعل فاعلا، ولكل علة سببا . وهي أمور ـ في جوهرها ـ ليست من صميم الواقع، بل هي من مستلزمات اللغة ومطالب المنطق اللغوي. لقد ذهب نيتشه إلى القول بأن هذا التناقض الجوهري، الكامن في موضع القلب من منظومة اللغة، هو السر وراء أزمة الحداثة الغربية ، وتمادى

نيتشه في توجيه إصبع الاتهام إلى اللغة، ليقول بنبرة إلحادية : إننا لم نستطع التخلص من فكرة وجود الإله لأننا مازلنا نثق في النحو.

ويتفق الكاتب مع الرأي القائل إن الغموض واللبس خاصتان أصيلتان في صلب اللغة، فلا لغة من دون لبس أو غموض ونضيف إلى ذلك: ولا لغة ـ أيضا ـ بلا حشو زائد redundancy، ولو اتسمت اللغة بشفافية خالصة ، وخلت من الحشو؛ لأصبحت لغة ميكانيكية، أو اصطناعية، كتلك المستخدمة في برمجة الكمبيوتر. وسيظل الشعر، مزهوا بتاج الغموض، قائدا لمسيرة تطور اللغة، ليلقي على كل ما وراءه سحبا كثيفة من فيض غموضه، وفضل مجازه، وسماحة معانيه. بقول آخر، فإن جميع اللغات الطبيعية ـ سواء اللغات الإنسانية أو لغات جينات الوراثة أو لغات الإبداع الفني ـ ستظل تدين للغموض والحشو الكامن فيها بديمومة توسعها وتطورها وابتكاريتها، ومرونتها وسرعة تكيفها مع الواقع ومتغيراته.

لغة الفكر الثقافي (المنظور العربي)

(أ) العلاقة الواهية بين اللغة العربية والفكر الثقافي: في بنية العقل العربي، التي أقامها على ثلاثية البيان والعرفان والبرهان، سعى الجابري إلى إبراز الصلة بين نظام البيان ونظام العقل، وبين النصوص التراثية والفكر المولد لها، وكان لابد أن يؤدي به ذلك إلى طرح إشكاليات اللفظ والمعنى، وأن يتعرض ، في صدد تأصيله أسس القياس البياني، إلى منطق اللغة والآليات اللغوية للتعليل والسببية (41:22). وفي تناول الجابري لقضايا التراث يتخذ من اللغة ـ مرة أخرى ـ مدخلا لمنهجه البنيوي. أما محمد أركون، فقد جعل من علوم اللغة ركيزة أساسية لإسلامياته التطبيقية، كما اتخذ منها إدوارد سعيد مدخلا أساسيا لكشف ما يستتر وراء الخطاب الاستشراقي، وموقف الإعلام الأمريكي المنحاز في استخدامه أسلحة اللغة ضد العرب والمسلمين. الشيء اللافت للنظر هنا هو ضعف مساهمة اللغويين الكلاسيكيين لدينا في علاقة الفكر باللغة؛ وهو ما أدى بدوره إلى ضمور شق المعنى والدلالة، سواء في جهود المجامع العربية، أو تعليم اللغة العربية وتعلمها، وما تبع ذلك من ضعف مساهمة اللغة في تنمية الفكر، بعد أن تاه المعنى في لفظية الصرف، وصورية الإعراب وشكلية المحسنات البديعية.

وعلينا أن نقر بأن علاقة اللغة العربية بالفكر الثقافي مازالت واهية، إذا ما قيست بما يفعله الآخرون في هذا الشأن، وبمدى أهمية الدور المتعاظم الذي تلعبه اللغة في الفكر الثقافي الحديث. ويأمل الكاتب أن يتصدى بعض باحثينا اللغويين والنفسيين لمعالجة الجوانب اللغوية المرتبطة بأنماط الفكر التي أوردها في الجدول (1:4) من هذا الفصل.

(ب) **اللغة العربية بين الشفافية والعتمة:** لايستطيع أحد أن ينكر قدرة اللغة العربية على الإبانة، من دون أن نحرمها من حقها الطبيعي في التحلي بالغموض ومظاهر اللبس والتوسع في المجاز. ويساهم الدارسون العرب، في مجال علم النص وتحليل الخطاب، مساهمة جادة في تفكيك الخطاب السياسي والأدبي، بهدف إبراز المفارقات والتناقضات الجوهرية الكامنة فيه. ولاشك في أن جهدهم المثابر هذا يحتاج إلى دعم من بحوث اللغة على المستوى التنظيري والاستخدامي، خاصة في تحليل ظاهرة المجاز، وللحديث بقية في الفصل القادم.

3:2:4 تربية الفكر الثقافي (الطرح العام)

يدور جدل عنيف في أوساط الأكاديميين الأمريكيين حول ما يعتبرونه أزمة حادة في تربية الفكر الأصيل لدى الطلاب، فهناك من يدين المناهج التربوية الحالية في كونها قد أتلفت عقول هؤلاء الطلاب، وأفقدتهم صلتهم بماضيهم، وقدرتهم على رؤية حاضرهم، واستشراف مستقبلهم بالتالي. ويطالب هذا الفريق بضرورة العودة إلى الأصول، وتدريس تاريخ تطور الفكر الإنساني، وقراءة أمهات الكتب (209)؛ فهي بمنزلة المنارة التي نرى من خلالها الكثير عن عالمنا وذواتنا، أما الفريق المعارض لهذا التوجه، فيرى ضرورة أن توضع الأسئلة الكبرى جانبا، ويُركز على إشكاليات الثقافة الراهنة، من قبيل تلك المتعلقة التفرقة العنصرية والعرقية، والبطالة، والقضايا النسوية، وحقوق الإنسان وخلافه. من السهل علينا أن ندرك صلة هذا الجدل الأكاديمي التربوي بما سبق وأوردناه في الفقرة 1:6:1 من الفصل الأول، في مقام الحديث عن مثقف الحداثة وما بعدها. ولاشك في أن واضعي مناهج تعليم الفلسفة والإنسانيات يمكن أن يجدوا صيغة وسطى، لاغنى عنها، للتوفيق بين هذين الموقفين المتناقضين، أو هكذا يبدوان.

تربية الفكر الثقافي (المنظور العربي)

لايخفى على أحد أننا نواجه تحديا حقيقيا في تدريس علوم الإنسانيات عموما، والفلسفة بصفة خاصة، ويكفي برهانا على ذلك، مقارنة سريعة بين قائمة المعرف المغذية للتنظير الثقافي، الواردة في الفقرة 3:3:3 من الفصل السابق، ومناهج أقسام الفلسفة وعلم الاجتماع وأقسام اللغات. وربما يقول قائل إن ما ورد في القائمة المذكورة من مجالات العلوم وتنوعها وتباينها، يصعب تغطيته في منهج دراسي واحد. فلو تعذر ذلك ، فعلى الأقل لابد لهذه المناهج أن تغطي الخلفية الأساسية من علوم اللغة وفلسفتها، ومناهج الفكر الحديث، وفلسفة العلم ونظرية النظم ونظرية المعلومات. وبغض النظر عن تفاصيل المقررات والمناهج، يظل التحدي في شأن ذلك هو توافر كوادر هيئات التدريس القادرة على عبور حواجز التخصص، واستيعاب مغزى المتغير المعلوماتي، واللحاق بما يجري حاليا في تطوير مناهج البحث في علوم الإنسانيات. من جانب آخر، علينا التصدي بحزم ضد تلك الفئة القليلة من أصحاب النظرة القاصرة لمفهوم أسلمة المعرفة، من بين أعضاء هيئة التدريس، والذين عادة ـ ما يلقنون طلبتهم مايعتقدونه، لا ما يحتاج هؤلاء الطلبة إلى أن يعرفوه.

4:2:4 إعلام الفكر الثقافي (الطرح العام)

يحظى الفكر الثقافي في أوروبا، خاصة في فرنسا وإنجلترا وألمانيا، بقدر وفير من الاهتمام الإعلامي، وقد أقامت فرنسا وألمانيا قناة ثقافية تليفزيونية مشتركة هدفها إغناء الحوار الثقافي الفرنسي ـ الألماني. وكما هو معروف، فقد لعب الفكران الفرنسي والألماني دورا رئيسيا في نهضة أوروبا وصراعاتها على حد سواء. أما في الولايات المتحدة فتسود أمور العلم والتكنولوجيا ساحة الإعلام الثقافي، وكما هي الحال مع غيره من أنشطة الإعلام الأمريكي، تسيطر قوانين السوق على الإعلام العلمي التكنولوجي، فنراه يركز على الجوانب الفنية والإيجابية، من دون التطرق إلى الجوانب الاجتماعية والآثار السلبية؛ حرصا منه على علاقته بممولي الإعلانات من عمالقة مؤسسات الصناعة، خاصة في مجالات صناعات الأدوية والهندسة الوراثية وشركات الاتصالات. من ناحية أخرى ، فقد

أدرك العلماء، في عصر العلم المؤسسي الضخم، أهمية العلاقات العامة في صنع صورتهم الإعلامية؛ من أجل اكتساب الدعم الجماهيري والحصول على مصادر التمويل. وكاد العلماء أن يصبحوا، مثلهم في ذلك مثل الساسة، نجوما إعلاميين. وهكذا أصبح للعلم ثقافته، وطابعه الإعلاني، ورسالته الإعلامية المقننة الخاضعة لقواعد هندسة الصورة ومعايير الجدوى الاقتصادية.

إعلام الفكر الثقافي (المنظور العربي)

يحظى الأدب والنقد الأدبي بالقسط الأكبر من إعلامنا الثقافي، إلا أنه ـ في الآونة الأخيرة ـ أخذ ينحو إلى التنوع، خاصة في مجال الإعلام العلمي. تعد المعلوماتية والهندسة الوراثية من أكثر الموضوعات جاذبية في إعلام الثقافة العلمية لدينا. وباستثناء عدد قليل من البرامج الثقافية، المسموعة والمرئية، والأبواب الثابتة للثقافة العلمية في الصحف والمجلات العربية، مازال حديث إعلامنا العلمي يسوده طابع الانبهار والإثارة والفانتازيا العلمية، من دون محاولة لتقطير المفاهيم الأساسية في أذهان جماهير القراء والمستمعين والمشاهدين. يرجع ذلك إلى عجز كثير من علمائنا عن تبسيط المعرفة العلمية، خاصة بعد أن أصبحت تتسم بالتعقد الزائد، ويندر وجود أمثال الدكتور أحمد مستجير عالم الوراثة، وعضو مجمع اللغة المصري، الذي يجمع بين أصالة المعرفة، ودقة المصطلح، وسلاسة الأسلوب العلمي الأدبي، وقد أهدى المكتبة العربية ما يربو على الثلاثين كتابا، في مجالي الثقافة العلمية وفلسفة العلم.

5:2:4 إبداع الفكر الثقافي (الطرح العام)

كان الإبداع الفكري، في القرنين السابقين، منصبا على الابتكارات العلمية والتكنولوجية. وفي رأي الكاتب أن القرن الحادي والعشرين سيكون قرن إبداع الفكر الثقافي، فسوف يزداد الطلب على هذا النوع من الإبداع في الوقت ذاته الذي ستزداد فيه فرصه ووسائله، وذلك لأسباب عدة من أهمها:

- هناك العديد من الإشكاليات الثقافية التي تنتظر حلولا مبتكرة؛ فجميع فروع فكر الثقافة في أمس الحاجة إلى إبداع جديد، في مجالات

اللغة والتربية والإعلام والفنون وتجديد التراث، بل على صعيد نظم القيم أيضا.

- كما أشرنا سلفا، تبحث علوم الإنسانيات، في سعيها إلى الدخول في مصاف العلوم الدقيقة، عن مناهج جديدة تختلف بصورة جذرية عن تلك العلوم الطبيعية.

- ستوفر تكنولوجيا المعلومات وسائل عدة لدعم إبداع الفكر الثقافي، في حين تمثل الإنترنت معمل تجارب مثالي لاختيار نتاج هذا الإبداع.

- تزايد أهمية صناعة الثقافة كمورد أساسي للدخل القومي سيؤدي ـ حتما ـ إلى زيادة الطلب على إبداع الفكر الثقافي؛ من أجل إنتاج سلعة ثقافية مبتكرة ذات قدرة تنافسية عالية.

إبداع الفكر الثقافي (المنظور العربي)

لدى المبدعين العرب فرصة حقيقية للإبداع الثقافي، وستتعرض المجتمعات العربية لتحديات ثقافية قاسية ومستحدثة، لاتجدي معها الحلول المستوردة، ولا يقدر عليها إلا إبداع أبنائها، خاصة فيما يتعلق بإيجاد حلول مبتكرة، للتوفيق بين نقص الموارد وأهداف التنمية الاجتماعية. ولاشك في أن اللغة سيكون لها دور مهم في إشعال جذوة الإبداع الثقافي، مما يستوجب اعتبارها مدخلا أساسيا لتنمية الإبداع الفكرى، ويقترح الكاتب في هذا الصدد إنشاء عدد من المراكز المتخصصة في بحوث ثقافة المعلومات، وإعادة النظر في إستراتيجيات المراكز القائمة بالفعل.

6:2:4 عن حوار الدين والقيم مع الفكر (الطرح العام)

(أ) عن حوار الدين مع الفكر: الدين ـ بحكم طبيعته وأهميته ـ وثيق الصلة بالفلسفة والعلوم والفنون، وها هو حاليا يوطد علاقته بالتكنولوجيا بعد أن طفت على السطح جوانبها الأخلاقية . هناك العديد من الكتب والأدبيات التي تناولت العلاقة بين الدين والفكر الثقافي، وسنكتفي هنا باستعراض موجز لتطور نظرة الفلاسفة تجاه الدين وصولا إلى وضعنا الراهن، فيما يخص تأثير المتغير المعلوماتي على الحوار الديني الفكري.

كان فرانسيس بيكون هو صاحب الرأي القائل إن ضحالة الفكر تؤدي

بالإنسان إلى الإلحاد، في حين أن التعمق فيه ينتهي بالعقول إلى الإيمان. وكان جون لوك يعتقد في قدرة عقل الإنسان على إثبات وجود الله؛ في حين يعتبر ديكارت حقيقة وجوده من قبيل البدهيات؛ فمن أين تأتي الأفكار المثالية ـ في نظره ـ إن لم تأت من الله؛ حيث لايمكن أن تأتي من الإنسان، المحكوم عليه سلفا بعدم الكمال والاكتمال. وقد حاولت الفلسفة المسيحية التوفيق بين النظر العقلي والمعتقد الديني؛ فالعقل في نظرها سابق على الإيمان، والإيمان أيضا سابق على العقل. وجاء كانط ليفصل فصلا تاما بين الفلسفة والدين، ففي رأيه أن استخدام العقل في دراسة اللاهوت هو محاولة عقيمة لاجدوى من ورائها. أما نيتشه فقد بلغ به التطرف المناهض للدين إلى حد اعتبار الدين والمعرفة كالماء والنار لايجتمعان أبدا. وحديثا ، يأتي الفكر ما بعد الحداثي لينزع عن النصوص السماوية، كغيرها من السرديات الكبرى، مشروعيتها. وهكذا أصبح كل شيء قبض الريح؛ ليظل عقل الإنسان ومصيره معلقين في الهواء، بلا سند من نبع الروح أو الفكر. ومن دون سابق إنذار، تخرج إلينا المعلوماتية لتضيف لمستها الميتافيزيقية باستعلائها الرمزي وبعوالمها الخائلية التي تستثير العقل الإنساني كي يعيد النظر في جميع أمور وجوده، وعلاقته مع سمائه وأرضه وأمور دينه وآخرته.

وفي نهاية حديثنا الموجز عن حوار الدين والفكر تجدر الإشارة إلى فرضية ميرتون التي تقول إن المذهب البروتستانتي كان وراء التقدم الهائل الذي حققه العلم الطبيعي في إنجلترا، وبقية بلدان أوروبا، بعد التخلص من القيود، على العقل، التي فرضتها الكنيسة الكاثوليكية (431:87).

(ب) **عن حوار نظام القيم والفكر:** كنهجنا السابق في تناول حوار الدين مع الفكر، سنستعرض هنا ـ بإيجاز ـ تطور علاقة نظام القيم مع الفكر الفلسفي وصولا إلى وضعنا الراهن فيما يخص قيم ثقافة المعلومات. يدور حوار القيم والفكر حول ثلاثة أسئلة محورية:

السؤال الأول: هل القيم مطلقة خالدة أم نسبية تختلف من مكان إلى مكان، ومن زمن إلى آخر؟

السؤال الثاني: هل القيم منزلة من السماء، أم هي من صنع الإنسان الكائن على الأرض؟

السؤال الثالث: ما مصدر الإلزام الأخلاقي؟ الإنساني من داخله، أم

قوانين المجتمع وأعرافه من خارجه؟

كانت الأخلاق في فلسفة سقراط معايير لانهائية مطلقة، على خلاف السُفسطائيين الذين يرونها متغيرة من مكان إلى مكان، ومن جيل إلى جيل. وتمضي قرون عدة تأتي بعدها فلسفة الأخلاق لسبينوزا لتفترض عالما خاليا من القيم في أصل نشأته، وعلى الإنسان تقع مسؤولية ملء هذا الفراغ الأخلاقي، فهو الذي يضيف القيم على الأشياء. أما كانط، فكما جعل الإنسان مركزا للمعرفة، فهو يبوؤه أيضا موضع المركز في منظومة القيم.

فالإنسان ـ في رأيه ـ هو المشرع للأخلاقيات، تماما كما هو المشرع لقوانين الطبيعة. والحسيون من أمثال لوك وهيوم يعتبرون اللذة والألم هما مقياس كل قيمة، في حين يعتبر البراجماتيون المنفعة هي أساس القياس.

وفي رأي الكاتب، أن كارل بوبر هو الذي أقام همزة الوصل بين أخلاقيات الماضي، وأخلاقيات عصر المعلومات؛ وذلك باعتباره الحقيقة الموضوعية هي أعلى قيمة أخلاقية، وربما كانت هي أهم القيم على الإطلاق، وكذلك باعتباره أن تحرير الذات، من خلال اكتساب المعرفة والوعي ، هو الوسيلة التي يمكن من خلالها إضفاء المعنى على الحياة ؛ فنحن ـ كما يقول كارل بوبر ـ لم نولد أحرارا ولكننا ولدنا وعلى عاتقنا مسؤولية حرية القرار(74: 244). على هدي من هذا الرأي، فإن سؤال: ماذا عليّ أن أفعل في ظل البدائل العديدة التي يطرحها عصر المعلومات؟قد أصبح سؤالا أخلاقيا في جوهره. فالأخلاق في عصر المعلومات ـ كما يراها البعض ـ هي فن ممارسة الحياة، وكيف نحدد غاياتنا في وسط غابة البدائل والاحتمالات التي تحيط بنا . من جانب آخر، فإن أخلاقيات عصر المعلومات لاتقوم على مبدأ الإكراه والإلزام بالقوانين، بقدر ماتقوم على أساس أن ضمير الفرد هو سلطته الأخلاقية الأولى. لذا؛ فمن المتوقع أن تضطلع أخلاق المهنة، ومواثيق المنظمات غير الحكومية، بدور أكبر في بلورة الأسس الأخلاقية لثقافة المعلومات، والتي تشمل ضمن ما تشمل تلك المتعلقة:

- عدالة توزيع موارد المعلومات واتساع الفوارق في الدخول والثروات وفرص العمل.
- عدم إساءة استخدام سلطة المعرفة من قبل الخبراء والمهنيين.

- تجنب الآثار السلبية لتكنولوجيا المعلومات، فيما يخص تهديد التنوع الثقافي.

- حماية الإنسان من استغلال نظم المعلومات، واستغلالها كسلاح إيديولوجي.

عن حوار الدين والقيم مع الفكر (المنظور العربي)

(أ) **عن حوار ديننا مع الفكر الحديث**: تناول كثيرون غيرنا حوار فكرنا مع الدين. مايود الكاتب أن يوكده هنا هو ضرورة إغناء هذا الحوار في ظل المتغير المعلوماتي، ويقترح في هذا الصدد:

- فض الخصومة المفتعلة بين ديننا الحنيف وتوجهات الفكر الثقافي الحديث، وعدم التسرع في إعلان القطيعة معه.

- التصدي لمن يزعمون أن الدين الإسلامي مضاد للعقلانية.

- حسم علاقة الدين الإسلامي بالفنون المختلفة، خاصة فنون الموسيقى والتشكيل والأداء، وذلك عن طريق إلقاء الضوء على مدى أهمية المعرفة الكامنة وراء تلك الفنون؛ وهي المعرفة التي يتعذر من دونها تحقيق التكامل المعرفي في عصر المعلومات، وللحديث استفاضة واجبة في الفصل التاسع الخاص بثقافة الإبداع. توفر تكنولوجيا المعلومات منطلقات جديدة لإغناء حوارنا الديني الفكري سنتناول بعضا منها في الفصل الثامن.

(ب) **عن حوار قيمنا والفكر**: سيكتفي الكاتب هنا بطرح بعض القضايا الواقعة في نطاق علاقة نظام القيم بالفكر:

- التصدي لأنواع التحالفات، المعلنة وغير المعلنة، بين السلطات السياسية والدينية، والتي تعمل عادة على الحد من الحرية الفكرية.

- تنمية الشعور بالمسؤولية الاجتماعية لدى روادنا الثقافيين تجاه جماهيرها وهي تواجه التحديات الجسام التي ينطوي عليها عصر المعلومات.

- إشاعة قيم الأصالة الفكرية، والتصدي للسرقات العلمية التي شاعت في الأوساط الأكاديمية. ناهيك عن استغلال بعض الكتاب للإنترنت في الحصول على المعلومات من دون إشارة إلى مصادرها.

- التصدي للانتهازية الفكرية والتي تنمو عادة في فقرات الانتقال، وفي

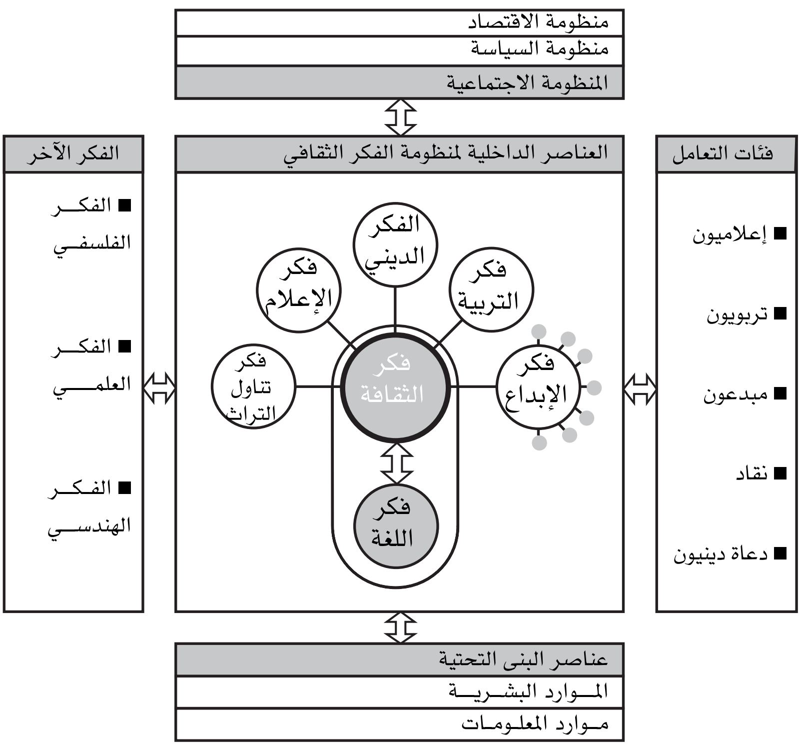
خضم الإنجازات العلمية والتكنولوجية المثيرة، وما أكثر مظاهر هذه الانتهازية في أرجاء مجتمعاتنا العربية هذه الأيام.

4: 3 منظومة فكر ثقافة المعلومات

4: 3: 1 الإطار العام لمنظومة فكر الثقافة

يوضح الشكل (4: 3) الإطار العام لمنظومة فكر ثقافة المعلومات وفقا للنمط العام الذي تبناه الكاتب. ويتضمن الإطار العام المكونات الرئيسية التالية:

- العلاقات الخارجية التي تربط منظومة فكر الثقافة بخارجها
- العناصر الداخلية لمنظومة فكر الثقافة



الشكل (4 : 3) الإطار العام لمنظومة الفكر الثقافي

- عناصر البنى التحتية لمنظومة فكر الثقافة، وتشمل:
ـ الموارد البشرية من المنظرين الثقافيين وأخصائيي معالجة المعلومات الثقافية: اللغوية والتربوية والإعلامية
ـ موارد المعلومات الثقافية من قواعد بيانات وقواعد ذخائر النصوص والخرائط الثقافية وما شابه وسنتناول فيما يلي المكونين الأولين

4: 3: 2 العلاقات الخارجية لمنظومة فكر الثقافة (الطرح العام)

(أ) **علاقة الفكر بمنظومة المجتمع ككل:** كان فرنسيس بيكون هو أول من بشر بأن العلم وتطبيقاته سيكونان أداة البشرية لتحقيق الرفاهية والرخاء(38:299). وقد دفعت البشرية ثمنا باهظا لإيمانها بالطوبائية التي تنطوي عليها علموقراطية بيكون تلك، وما أكثر الكوارث والحروب والصراعات ومظاهر العداء التي سببها الفكر الفلسفي، وهو يمضي في غيه فارضا تصوراته وأخيلته وأحلامه وانحيازاته على تضاريس الواقع الوعرة، وهو ما عبرت عنه خير تعبير ديستوبيا هاكسلي وجورج أورويل، وتعبيرية جويا، وعبثية كافكا، وتجريدية بيكاسو.

ولطوبائية بيكون «العلموقراطية» نسختها «المعلوقراطية» أيضا، حيث يزداد ضجيج فكر عصر المعلومات وعولمته مبشرا بمجتمع الوفرة المادية والمعرفية، وبسلام عالمي دائم، بفعل الوفاق الرمزي والشفافية المعلوماتية. وكما هو واضح لاتمل البشرية اجترار أحلامها وأخطائها.

ولندع جانبا مايزعمه البعض من أن التكنولوجيا أصبحت بديلا للأيديولوجيا؛ فأيديولوجيا رأسمالية الحاضر وعولمتها، تحيط بنا من كل جانب ، وقد صدق من قال أن لا فكاك من الأيديولوجيا. ولم تكن العلاقة بين الفكر والمجتمع أخطر مما هي عليه الآن. فقد تسللت المعرفة، وانسابت في كل أرجاء المجتمع الإنساني، ودخل الفكر والمعرفة في علاقة جدلية مثيرة مع كل القوى الاجتماعية الأخرى، بصورة واعية أحيانا، ولاواعية في كثير من الأحيان. لقد برعت هذه القوى في التهذيب من فجاجة وسائل السيطرة السافرة، مستبدلة بإياها فاعلية الوسائل الرمزية المستنيرة؛ وهو الأمر الذي يستوجب كشف الغطاء عن هذه العلاقات الخفية بين الفكر والمجتمع؛ وذلك باستخراجها من أعماق اللاوعي الاجتماعي

لتبدو سافرة ظاهرة للعيان. وهو ما يسعى إليه علم اجتماع المعرفة. فلكل مجتمع، بل لكل فرد، نظامه المعرفي، والمعرفة ـ بحكم طبيعتها ـ ظاهرة اجتماعية ونفسية، ورسالة علم اجتماع المعرفة هي الكشف عن ارتباط المعرفة بالواقع الاجتماعي، وتوصيف الآليات التي تمارس من خلالها المعرفة تأثيرها الاجتماعي.

مثلها مثل كثير من العلاقات الثقافية ـ الاجتماعية، تعد علاقة الفكر بمنظومة المجتمع مسألة خلافية، فقد تراوحت الآراء بشأنها مابين إنكار وجود علاقة أصل، وبين التطابق التام بينهما، وكذلك مابين كون المجتمع هو الذي يولد فكره ونظمه المعرفية، وبين كونه صنيعة هذا الفكر وتلك النظم. وقد عجز الفكر الإنساني حتى الآن عن أن يقدم جوابا شافيا للسؤال المحوري: من أين تنشأ الأفكار؟. فهي تارة إلهام يهبط علينا من السماء، وتارة أخرى وليدة العقل الإنساني والمغامر.

المعرفة ـ كما يقول كانط ـ متأصلة في العقل تنمو كما تنمو النباتات من البذور، وكما يراها الصينيون والرومانسيون، ما هي إلا نماذج عليا تسعى إليها كل الثقافات. وهو ما يعترض عليه، بشدة، أهل النسبية الثقافية بأنواعها: نسبية تاريخية ترى أن لكل عصر فكره وأنماط معرفته، ونسبية طبقية تصنف العلم إلى علم بروليتاري وعلم بورجوازي وعلم أرستقراطي (38 : 116)، ونسبية أيديولوجية تقسم صنوف الفكر إلى فكر اشتراكي وفكر رأسمالي وفكر إسلامي وفكر مسيحي... وهلم جرا.

هناك الكثير من المدارس الفكرية التي ترى أن الفكر وليد منظومته الاجتماعية، وأن الوعي الإنساني انعكاس للوجود الاجتماعي، والمجتمع ـ وهو في ضوء ذلك ـ يولد أيديولوجيته بنفسه، وليس ـ كما يعتقد أهل الحتمية التاريخية ـ مسوقا إلى غاية بعينها، يصل إليها طال الوقت أو قصر. فكما يرى كارل مانهايم فإن الظروف السائدة هي التي تحدد النماذج المعرفية العليا. والمقولات من في نموذج المجتمع لإميل دور كايم، ذات أصل اجتماعي، وينطبق على جميع المقولات من دون استثناء، حتى على مقولة الزمن وتقسيمه إلى سنوات وفصول، حيث يردها دور كايم إلى إيقاع حركة المجتمع المتمثلة في مواسم حصاده ومناخه وطقوسه الدينية وأعياده الوطنية (38 : 80). ولدى التجريبيين، فكل معرفة إنما تستمد من التجربة، أي من

خلال التفاعل بين الفرد والمجتمع. أما البراجماتيون ـ ورثة التجريبيين ـ فلا يعنيهم من تفاعل الفكر والمجتمع إلا الآثار والنتائج العملية لتطبيق الآراء والأفكار في البيئة المجتمعية. وتصل تبعية الفكر للمجتمع إلى أقصى مداها في النموذج الماركسي، حيث ثقافة المجتمع وحصاد أفكاره ما هما إلا ناتج فرعي لطور إنتاجه ونمط اقتصاده.

ويرى أوجست كونت أن تطور المجتمع تابع لفكره، وهو يحدد ذلك بثلاث مراحل للتطور:

- المرحلة الأولى: الطور البدائي أو الديني
- المرحلة الثانية: الطور الإعلائي أو الميتافيزيقى
- المرحلة الثالثة: الطور الوصفي أو العلمي

وهو ما أكده سان سيمون في ربطه بين النظم الاجتماعية ونظم المعرفة السائدة. فعلى سبيل المثال، ترتبط النظم العسكرية ـ في رأيه ـ بالمعرفة الدينية. في حين ترتبط النظم الصناعية بالمعرفة الفنية ذات الطابع التكنولوجي (38: 78). ودعنا نضيف هنا أن نظم ما بعد الصناعة مرتبطة بالمعرفة الرمزية المجردة، وهناك من منظري علم الاجتماع من يزعم بوجود توافق تام بين الواقع الاجتماعي، والنسق المعرفي السائد. ووفقا لهذا الرأي، يتبع الفكر تطور الإنسان بالقدر نفسه الذي يتبع تطور الإنسان فكره. وهكذا تعددت أوصاف الإنسان عبر الأزمنة، من الإنسان القناص، إلى الرعوي، إلى الزراعي، إلى الصناعي (38: 77)، حتى آل به مصيره في عصر المعلومات إلى أن يوصف بالإنسان الاتصالي، وهناك من يصفه بالإنسان النحوي، تأكيدا للدور الذي تلعبه اللغة في وراثة الإنسان. ومن يدري، فربما نسمع قريبا عن الإنسان التكنوحيوي أو البيو إلكتروني.

ولا خلاف في أن علاقة الفكر بمنظومة المجتمع أبعد من أن تكون أحادية الاتجاه، فهي ـ من دون شك ـ ذات طابع تبادلي جدلي عنيف. وفي هذا الصدد، ربما يمثل مبدأ التآخي الاختياري elective affinity موقفا وسطا بين الموقف الذي يرى الفكر صنيعة مجتمعه، والموقف النقيض الذي يرى المجتمع صنيعة فكره (87: 55). وفقا لمبدأ التآخي الاختياري، فإن نشوء الأفكار ليس مرتبطا بالضرورة بشروط اجتماعية معينة، فهي ـ أي الأفكار ـ يمكن أن تكون من نتاج مغامرات العقول، ولكن لا بد من توافر ظروف

اجتماعية معينة لكي تصبح هذه الأفكار فعالة ومؤثرة. ويزعم الكاتب أن مجتمع المعلومات يمثل بيئة مثالية للتحقق من صحة مبدأ التآخي الاختياري هذا، وذلك بعد أن أصبح الأداء الكلي لمجتمع المعلومات رهنا بأفكار المغامرين الجدد، من أصحاب الأفكار والنظم والبرامج، في الوقت الذي يتوقف فيه نجاح معظم هذه الإنجازات التكنولوجية على توافر الطلب الاجتماعي عليها.

ويبدو منطقيا أنه كلما تقدم المجتمع وتسارع إيقاعه، أصبح أكثر قابلية لدمج الفكر في نسيجه، وقد أثبتت السرعة الفائقة التي انتشرت بها الإنترنت ـ خاصة في المجتمعات المتقدمة ـ في جميع أنشطة المجتمع صحة هذا الرأي بصورة قاطعة.

(ب) **علاقة الفكر بمنظومة السياسة:** عندما جعل أفلاطون من الفلاسفة حكاما في جمهوريته المثالية، كان ـ على ما يبدو ـ مدركا لحجم المخاطر التي يمكن أن تنجم عن انفصال الفكر عن السياسة. وما إن أصبح الساسة من غير الفلاسفة، حتى راحوا يبحثون عن سند فكري يؤازر قراراتهم وممارساتهم: تارة يجدون هذا السند في الفكر الديني من أجل الحفاظ على القيم والعقائد، وتارة في الفكر العسكري من أجل الدفاع عن التراب الوطني المقدس، وثالثة في الفكر الاقتصادي من أجل الإسراع في عملية التنمية (فاشستية التنمية...!). وأخيرا اهتدى الساسة إلى الفكر العلمي وسيلة مثلى لعقلنة ممارساتهم وتمرير قراراتهم. وقد برعوا في أن يتخذوا من شبه العلم ومن بريقه، وسائل للتضليل والتشويش. وما إن صارت المعرفة والفكر في خدمة السياسة حتى برز السؤال المحوري: المعرفة مِمَنْ ؟ ومن أجل من؟. ومن كتاب الأمير لميكيافيللي إلى آخر ما أنتجه الفكر السياسي الحديث، يطالعنا هذا الفكر بطابعه البراجماتي المسرف. لقد تخلف الفكر السياسي عن تطور المجتمع الإنساني، وأصبحنا في حاجة ملحة إلى مراجعة شاملة لعلاقة الفكر بمنظومة السياسة. نحن نحتاج إلى فكر سياسي جديد، يكشف عن وهم الديموقراطية الزائف، ويحرر «سجناء الهواء الطلق» ـ على حد تعبير أدورنو ـ الذين يعتقدون أنهم أحرار وما هم بأحرار، يساقون إلى صناديق الانتخابات كالقطيع، وتحصد آراءهم ومواقفهم إحصائيات قياس الرأي العام، وتتغذى على معاناتهم إدارات تلقي الشكاوى، ونظم الرد

الآلية على رسائل المواطنين، سواء بالبريد العادي أو بنظيره الإلكتروني.

إن الفكر السياسي قد بات أسير الفكر الاقتصادي خادما لأباطرته، وحان لهذا الفكر أن يبحث عن فلسفة اجتماعية جديدة ترد له طابعه الأخلاقي، وذلك حتى يتسنى للسياسة القيام بدورها، من أجل فرض حد أدنى من النظام وسط فوضى وشيكة ينذر بوقوعها مجتمع المعلومات.

إن العولمة السياسية الحالية ـ كما يقول سمير أمين ـ تحاول ما وسعها الجهد أدلجة رأسماليتها المتقدمة. ويتأرجح الفكر السياسي كغيره ما بين فكر الحداثة وما بعدها، وبينما يؤمن الكثيرون بحاجة الفكر السياسي الحداثي إلى التغير، يعتقد كثيرون غيرهم أن «ما بعد الحداثة» مازالت في حاجة إلى نظرية سياسية أكثر تماسكا وواقعية.

(ج) **علاقة الفكر بالاقتصاد:** من المنطقي، في عصر اقتصاد المعرفة وصناعة الثقافة، أن ترقى علاقة الفكر بالاقتصاد إلى درجة عالية من الأهمية، لقد صارت الموارد الرمزية أكثر أهمية من الموارد المادية، وفاقت أهمية رأس المال الذهني intellectual capital تلك رأس المال المادي. وبات الجميع ينتظر، في لهفة، التغيرات التي سوف تطرأ على منظومة الاقتصاد من جراء ما تفعله بها تكنولوجيا المعلومات، والتي ما فتئت تحفر حول عُمُد الأساس التي قامت عليها هذه المنظومة، وعلى رأسها مفهوم القيمة ومفهوم الملكية، فالقيمة لم تعد مقصورة على ثنائية «قيمة المنفعة وقيمة التبادل»، بعد أن وسعها بودليار لتصبح رباعية، وذلك بإضافة القيمة الرمزية (قيمة التهادي مثلا)، وقيمة الرمز (أو الإشارة) حيث أصبحت المعلومة ذات قيمة يمكن قياسها، وحساب عائدها المادي (267: 234). بالطريقة نفسها، اتسع مفهوم الملكية ليشمل الملكية الفكرية، بكل ما ينطوي عليه ذلك من قضايا اقتصادية شاملة تحتاج إلى فكر اقتصادي جديد، فكر مناهض لفكر عولمة الاقتصاد، الذي تتم بلورته حاليا بهدف إعادة إنتاج المجتمع الرأسمالي، بطبقاته وتناقضاته، وسوء توزيع موارده وطابعه الاستهلاكي المسرف، فالعالم في أمس الحاجة إلى اقتصاد يهدف إلى تنمية حقيقية ومستدامة، لا تبتغي ـ فقط ـ تعظيم العائد المادي وزيادة الكفاءة الإنتاجية، على حساب فرص العمل ورفاهية العمال.

(د) **علاقة الفكر الثقافي بأنماط الفكر الأخرى:** كما يوضح الشكل،

يرتبط الفكر الثقافي بالفكر الفلسفي والفكر العلمي والفكر الهندسي. وقد تناولنا، فيما سلف، علاقته بنظيريه الفلسفي والعلمي، وبقيت لنا كلمة موجزة عن علاقته بالفكر الهندسي. لقد أصبحت الثقافة منظومة معقدة غاية في التعقيد، وتعرف الهندسة بأنها فن التحكم في النظم المعقدة. بناء على ذلك، فمن المتوقع أن تزداد صلة الفكر الثقافي بالفكر الهندسي، وقد لاحت في الأفق بالفعل بوادر هذا الالتقاء الثقافي ـ الهندسي، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: هندسة اللغة، هندسة الحوار ـ هندسة المعمار الخائلي ـ وهندسة الخيال imagineering، وما شابه.

(هـ) علاقة الفكر الثقافي بالفئات الاجتماعية: من أخطر القضايا المتعلقة بعلاقة الفكر الثقافي بالفئات الاجتماعية، كسر احتكار النخبة لهذا الفكر، إتاحته للعامة في صور مختلفة ومستويات متدرجة. فيما يخص موقف النخبة من مجتمعها، هناك من يرى أن المجتمع يجب أن يوجهه فكر نخبته الثقافية القادر على أن يسمو بنفسه فوق واقع مجتمعه، متجاوزا تناقضاته، محققا طموحاته وتوقعاته. وفي رأي هؤلاء، أن تسليم الأمور إلى النخبة الثقافية ضرورة من ضروريات المجتمع الديموقراطي. في حين يرى فريق آخر، أن تسليم الأمور إليها توجه مناف لمفهوم الديموقراطية، يؤدي ـ في نهاية الأمر ـ إلى حرمان الأغلبية من حقوقها الثقافية. ويعترف الكاتب بأنه لا يستطيع تحديد موقفه في هذه المسألة، ولكنه على الرغم من ذلك، يريد أن يكشف عن انحيازه مغلفا بمقولة اقتطفها مما صرح به حديثا ميلان كونديرا[*7]: يقول الأديب التشيكي المرشح لجائزة نوبل: «لقد اختزلت أوروبا نفسها إلى خمسين عملا عبقريا لم تفهمها أبدا، انتبهوا جيدا إلى هذا التفاوت المثير للحنق، ملايين من الأوروبين لا يمثلون شيئا، مقابل خمسين اسما يمثلون كل شيء.

التفاوت الطبقي حادث ضئيل إذا ما قورن بهذا التفاوت الميتافيزيقي، الذي يحول البعض إلى ذرات رمل، بينما ينسب إلى البعض الآخر معنى الكائن».

علاقة منظومة الفكر الثقافي بخارجها (المنظور العربي)

(أ) **فكرنا الثقافي ومنظومة مجتمعنا:** كان صاعد الأندلسي، أحد كبار

علماء الشريعة في الأندلس، وهو أول من وضع الحجر الأساس لعلم اجتماع المعرفة بمبادرته في كتاب «طبقات الأمم»، وذلك بتفسير العلوم والمعارف بالرجوع إلى الواقع الإقليمي والواقع الجغرافي (38: 47). يؤكد ابن خلدون على تلازم التقدم العمراني والحضاري مع التقدم العلمي والمعرفي. هذا عن فكر السلف في علاقته بالشأن المجتمعي، أما علاقة فكر الخلف بواقع مجتمعه، ففي حيرة شديدة من أمره، ومن الصعوبة بمكان تتبع مسارات علاقات الفكر بمنظومة مجتمعاتنا العربية لأسباب عدة، منها أن خريطة الثقافة العربية غير واضحة المعالم، تشكو من التصحر الفكري، ويكفي مثالا هنا مدى الضمور في فكر إبداعنا الثقافي في مجال التشكيل والموسيقى وفنون الأداء والمعمار. هذا على جانب الفكر. أما على جانب المجتمع، فمنظومة مجتمعاتنا العربية لم تخضع حتى وقتنا هذا للتحليل المنهجي الدقيق، ومعظم مجتمعاتنا في حالة من الغليان الاجتماعي يجهض معها أي حديث عن علاقتها بالفكر، بفعل الحساسيات المفرطة التي يصعب عليه احتواؤها. أما عن علاقة فكرنا الثقافي بأدائنا المجتمعي فشبه غائب، وحتى لا يبدو هذا تجنيا، دعنا نتساءل مع من يتساءلون: أين الدراسات الجادة عن علاقة فكرنا التربوي بأدائنا الاقتصادي؟ وأين علاقة فكرنا اللغوي بخطابنا السياسي؟

وأين علاقة فكرنا الديني بصناعة ثقافتنا؟ ، وبالقطع لم يعد يكفي هذا النزر القليل من المبادرات الفردية، فنحن في حاجة إلى شبه حملة قومية لإعادة الوئام بين فكرنا ومؤسساتنا الاجتماعية. ومصدر التحدي الحقيقي في ذلك، أن هذه الحملة لا بد أن يقودها فكرنا الثقافي المحاصر داخليا وخارجيا، وهذا قدره!!

(ب) علاقة فكرنا الثقافي بمنظومة السياسة: فكرنا الثقافي مستقطب سياسيا، وسياستنا بدورها مستقطبة في دوامة الصراع العربي ـ الإسرائيلي. لقد أدى هذا الاستقطاب المزدوج إلى أن يغفل فكر الثقافة جوانب عدة في علاقته بمنظومة السياسة، لا سيما ما يخص علاقته بأجهزة الإعلام. ولن نضيف جديدا بقولنا: إن فاعلية فكرنا الثقافي رهن بتوافر الحرية السياسية، ولا ينمو الفكر إلا بنمو الطلب المجتمعي على منتجاته وخدماته، ولن ينمو هذا الطلب بدوره إلا إذا أصبح مفكرونا قادرين على تسويق نتاج فكرهم

وإبداعهم. إن فكرنا الثقافي في مهمة سياسية رباعية. عليه أولا: أن يشتبك مع أمور السياسة الداخلية، وثانيا: أن يساهم في بلورة سياسة عربية قومية، وثالثا: أن يتصدى لاستغلال إسرائيل لأسلحة الثقافة من أجل دعم سياستها التوسعية، ورابعا: أن يشارك في بلورة التوجهات الحديثة في مجال علوم الإنسانيات. وهناك ـ كما هو واضح ـ ترابط شديد بين هذه العناصر الأربعة.

(ج) **علاقة فكرنا الثقافي بمنظومة الاقتصاد:** كان استقطاب السياسة لفكرنا الثقافي على حساب علاقته بمنظومة الاقتصاد، وهو وجه القصور الذي يجب تداركه في ضوء متغيرات العولمة، وتزايد أهمية صناعة الثقافة. وفي هذا الصدد يجب أن يركز الفكر الاقتصادي العربي على الجوانب الأخلاقية لمنظومة الثقافة. وأهمية مراعاة العوامل الاجتماعية غير الكمية في القرار الاقتصادي، وذلك علاوة على تجديد الحوار مع الفكر الاقتصادي الإسلامي من منظور معلوماتي.

(د) **علاقة فكرنا الثقافي بأنماط الفكر الأخرى:** طغت علاقة فكرنا الثقافي بالأدب على علاقته بأنماط الفكر الأخرى، خاصة الفكر العلمي، ومازال فكرنا الثقافي يعاني من تلك الثنائية الثقافية بين فكر العلوم الطبيعية وفكر الإنسانيات، وهي الثنائية التي يمكن أن تساهم تكنولوجيا المعلومات مساهمة فعالة من أجل التخلص منها. أما علاقته بالفكر الهندسي فهناك بعض المبادرات لهندسة اللغة العربية من أجل تأهيلها للمعالجة الآلية بواسطة الكمبيوتر. وتشمل هندسة اللغة العربية، ضمن ما تشمله، صياغة قواعدها النحوية رياضيا وتنظيم معجمها على هيئة قواعد بيانات وشبكات دلالية بواسطة الكمبيوتر.

(هـ) **علاقة فكرنا الثقافي بالفئات الاجتماعية:** فكرنا الثقافي في سمته الغالبة فكر نخبوي، وربما يفسر ذلك عدم فاعليته على ساحة العمل الاجتماعي. وكل فكر نخبوي يفشل في إقامة الصلات بينه وبين فكر ثقافته الشعبية مصيره حتما إلى الزوال. وهنا مكمن التحدي: كيف يمكن لفكرنا الثقافي العربي أن يفتح قنوات غير رسمية للحوار مع جماهيره، موازية للقنوات الرسمية. وكما اقترح الكاتب ـ سابقا ـ تعد الإنترنت أحد البدائل العملية المطروحة في هذا الصدد.

4: 3: 3 العناصر الداخلية لمنظومة فكر الثقافة (الطرح العام)

فكر الثقافة، وفقا لطرحنا الحالي، يمكن تقسيمه إلى شقين أساسيين:

الشق الأول: فكر الثقافة قائمة بذاتها، وهو ما تعرضنا له في الفقرة 3:3:3 من الفصل السابق، الخاصة بالتنظير الثقافي، وكذلك في الفقرة 3:2:3 من الفصل ذاته التي تناولنا فيها ثنائية علم الثقافة وثقافة العلم. الشق الثاني: روافد فكر فروع الثقافة المختلفة، ويقصد بها: فكر اللغة ـ فكر التربية ـ فكر الإعلام ـ الفكر الديني ـ فكر معالجة التراث، مضافا إليها فكر الإبداع، الذي يتفرع بدوره إلى فكر الفنون المختلفة من أدب وموسيقى وتشكيل وشعر ومسرح وأداء حركي وعمارة. كما يوضح الشكل (4: 3) يمثل رافد فكر اللغة أهم روافد الفكر الثقافي. سنتناول في الفصول القادمة كلا من روافد الفكر الثقافي هذه، وسيقتصر حديثنا هنا على بعض الخصائص العامة التي تشترك فيها هذه الروافد جميعها، والتي أهمها في رأي الكاتب:

- فكر غير خطي
- فكر غير استاتي
- فكر غير ثنائي
- فكر غير تخصصي

وسنتناول كلا من هذه الخصائص فيما يلي بإيجاز.

(أ) **فكر غير خطي**: اتسم فكر الماضي بالطابع الخطي، ذلك الطابع الذي يرى معظم الظواهر في هيئة سلاسل متلاحقة متدرجة، تتحرك من نقطة بداية صوب غايات محددة مسبقا، ففكر الإنسان ـ كما ورد سابقا ـ ينمو خطيا من التفكير الحسي الغريزي، إلى إدراك المحسوسات، ثم التعامل مع المجردات. ومعرفة المجتمعات ـ في نظر البعض ـ ترتقي هي الأخرى خطيا، من الأسطورة إلى السحر إلى الميتافيزيقا إلى العلم. وعلى صعيد علاقة التكنولوجيا بالمجتمع، فقد طرحها فكر الماضي في خطية صارمة مؤداها: العلم يكتشف، والتكنولوجيا تطبق، والمجتمع عليه أن يتكيف معها. أما خطية الفكر التاريخي فسافرة في أحداثه المتعاقبة وسرده ذي التتالي الزمني والمتسلسل، وتأتي فلسفة هيجل لتضيف الغائية إلى الخطية، حيث أحالت التاريخ إلى مسار جدلي متصل يتحرك خطيا نحو غايات مطلقة.

إنها النزعة الخطية التي سادت فكر الماضي، والتي يرجعها البعض إلى طبيعة تكنولوجيا الطباعة، ونصوصها ذات التتابع الخطي الصارم: من الحروف إلى الكلمات، ومن الكلمات إلى الجمل فالفقرات فالنص الكامل. يمثل الطابع الخطي تناقضا جوهريا مع الواقع، فمعظم ظواهر هذا الواقع ذات طابع غير خطي، حيث النقلات الفجائية والتغيرات العشوائية ومسارات التفكير المتوازية والمتداخلة. ويعتقد الكثيرون أن تكنولوجيا المعلومات قادرة على تخليص الفكر الإنساني من ميكانيكية التفكير الخطي، وقوانين العلة والأثر الكامنة وراءه، وقد بنوا اعتقادهم هذا على أساس أن تكنولوجيا المعلومات لا تتعامل مع النصوص فقط، بل مع الصور والأشكال أيضا، والتي هي ـ بحكم طبيعتها ـ غير خطية. علاوة على ذلك، توفر نظم معالجة النصوص آليا وسائل عدة يمكن من خلالها القفز فوق خطية النصوص، مثل: حلقات التشعب النصي hypertext التي تسمح بالتنقل الحر من أي موضع في النص إلى أي موضع آخر ـ انظر الفقرة 2: 3: 2 من الفصل الثاني.

(ب) **فكر غير استاتي**: سريع التكيف مع ديناميات الواقع، قادر على استيعاب ظواهر الأزمنة الكبرى: تاريخية وجيولوجية وبيولوجية، وظواهر الأزمنة الصغرى متناهية الصغر. إن الفكر غير الاستاتي لابد أن يتعامل مع ظاهرة الزمن بصورة مرنة، يرى التاريخ من منظور الحاضر، ويحاصر المستقبل بسيناريوهاته وبدائل احتمالاته، ويمكنه ـ إضافة إلى ذلك ـ استيعاب مفهوم «الخلط الزمني» الذي يخلط بين السابق والراهن والمرتقب. مرة أخرى، يمكن لتكنولوجيا المعلومات أن تخلصنا من الفكر ذي الطابع الاستاتي، بعد أن صار عنصر الزمن طوع بنانها. فباستطاعتها أن تسحقه في وحدات زمنية متناهية الصغر، وأن تكمشه وتطيله وتمزجه من خلال نماذج المحاكاة الرقمية.

(ج) **فكر غير ثنائي**: يرى الظواهر في مسار متصل، يستطيع أن يميز مناطق التدرج بين أطراف الثنائيات التي رسخت في أذهاننا، من قبيل: ثنائية المثالية والمادية، ثنائية الذاتية والموضوعية، ثنائية العلوم والفنون.

وبزعم الكاتب أن الفارق الحاسم بين تكنولوجيا المعلومات، وغيرها من التكنولوجيات، يكمن في قدرتها الفائقة على تحطيم كثير من الثنائيات

الراسخة والتي أهمها في رأيي:

- ثنائية المادي وغير المادي
- ثنائية العضوي وغير العضوي
- ثنائية الجمهري واللاجمهري
- ثنائية الواقعي والخيالي

وهناك العديد من الثنائيات الأخرى التي يمكن إدراجها كفروع لهذه الثنائيات الأربع الحاكمة، أو كنتائج مترتبة عليها، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: ثنائية الإنتاج والاستهلاك، ثنائية الرمز والمدلول، ثنائية المجازي والحَرفي، ثنائية المكتوب والمنطوق، ثنائية البشرى والآلي، ثنائية التعليم والتعلم، ثنائية التعليم والتربية، ثنائية المدرسة والعمل، ثنائية الفرد والجماعة. لقد سيطرت هذه الثنائيات، ومثيلاتها، على فكرنا في الماضي، وتشابهت علينا: نتخذهاـ تارة ـ هدفا أسمى لسعينا المعرفي، وتارة أخرى، أداة الوصول إلى هذا الهدف.

وسواء كانت قيدا أو منطلَقا، مدخلا أو مخرجا، فقد كان لهذه الثنائيات أثرها البالغ في صياغة غاياتنا، وتوجيه أدائنا، وتشكيل علاقتنا وتصوراتنا عن ذاتنا وعن عالمنا. إن هذه الثنائيات ذات قدرة اختزالية خادعة، تحصر التفكير بين بديلين لا ثالث لهما، تطمس الطيف المعرفي الذي يربط بين طرفيها ليتعذر بالتالي فهم طبيعة العلاقة الجدلية بينهما.

(د) **فكر غير تخصصي**: قادر على عبور الحواجز بين نوعيات المعرفة المختلفة، ومحاصرة غابة التداخلات التي تربط بينها. ومرة أخرى، فإن تكنولوجيا المعلومات تعمل، بلا هوادة، على تحطيم الحواجز المعرفية. ويمكن إرجاع ذلك إلى أن المعالجة الآلية لفصائل المعارف المختلفة تتطلب مستويات أعلى من التجريد، وكلما تصاعد التجريد تلاشت الفوارق بين المعارف المتخصصة، وأصبحت هذه المعارف بالتالي أكثر قابلية للتلاقي والتلاقح.

العناصر الداخلية لمنظومة فكر الثقافة (المنظور العربي)

الفكر العربي ـ في مجمله ـ ينزع إلى الخطية المفرطة، وذلك لعدم اكتسابه مهارات النهج المنظومي system approach القادر على التعامل مع تعدد العناصر والعلاقات، ومهارات التفكير الشبكي القادر على التعامل مع

المدخلات والمخرجات وتعدد المسارات التي تربط بينهما، علاوة على تشبث الفكر العربي بالثنائيات واحتفائه الشديد بقانون العلة والأثر ناظرا إليه كأسمنت عقلانيته. وكمثال لهذه النزعة الفكرية ما سعى إليه فكرنا اللغوي في إحدى فتراته إلى أن يجعل لكل قاعدة نحوية سببا وعلة من خارجها، وربما يكون لذلك صلة بأسباب نزول الآيات القرآنية. أما فيما يخص تعامله مع الخاصية الزمنية، فالفكر العربي ذو طابع إستاتي يفتقر إلى الحد الأدني من الدينامية المطلوبة للتكيف مع الإيقاع السريع لعصر المعلومات.

وقد قصد الكاتب ـ في طرحه العام ـ أن يصوغ الخصائص العامة لروافد فكر الثقافة في صيغة النفي أو السلب، دافعه إلى ذلك اقتناعه بأن الفكر العربي في سمته العام إيجابي أحادي الاتجاه، ينأى عن التعامل مع ظواهر «السلب». وقد رأى الكاتب أن يقدم فيما يلي مثالا مفصلا لكيفية تقديم هذا المفهوم إلى المثقف العربي، ولم يسعفه الوقت ولا المجال، كي يطبق المنهج نفسه على أنماط فكر عصر المعلومات الواردة في الجدول (4:1)، ومن أهمها بالنسبة للثقافة ـ في رأيه ـ الفكر المنظومي والفكر التفنيدي والفكر الجمعي.

4: 4 الاحتفاء بـ «السلب» وإعادة الهيبة إلى «السالب»

4: 4: 1 الاحتفاء بـ «السلب»: لماذا؟

يزعم الكاتب أن من أهم متطلبات تجديد فكرنا العربي ضرورة استئناس العقل العربي لظاهرة «السلب» بمفهومها الواسع، والذي تتصدر قاموسه مفردات عالم النفي، تلك التي تحمل في رحمها، أو تستهل بذلك المقطع الساحر الأخاذ، مقطع «لا»، من قبيل: اللانهائية ـ اللاوعي ـ اللاذروة ـ مصانع بلا بشر ـ مكاتب بلا أوراق ـ ارتحال في فضاء المعلومات بلا انتقال. ويشمل القاموس أيضا كل ما ينتسب إلى «السلب» في معناه، أو مغزاه، مثل: المعارضة والرفض ـ الإغفال والإلغاء ـ الغير والضد ـ النقد والخلاف ـ الغياب والعدم ـ العشوائية والفوضى ـ الهلامية والتعقد. ولسنا بحاجة إلى أن نؤكد أن عودتنا للاحتفاء بـ «السلب» وإعادة الهيبة إلى «السالب» لا تنطوي ـ من قريب أو من بعيد ـ على أي دعوة إلى فوضوية أو

سلبية أو عدمية، بل هي على ـ النقيض من ذلك تماما ـ تهدف لتنمية النزعة الإيجابية بإدراج السلب، لا إسقاطه، من قوائم حساباتنا، وذلك بالحث على اقتحام المناطق المهجورة واختراق أسيجة والتحريم، وعبور الأخاديد الفاصلة بين فصائل المعرفة، وإقامة الجسور بين المتناقضات أو ما يبدو متناقضا. إنها دعوة إلى الاكتمال والتكامل والتوازن، حتى لا نواجه عالم اليوم بـ «بتر» معرفي يقعدنا عن اللحاق والتصدي، فلا بد لعقلنا العربي أن ينطلق من عقاله شرطا أساسيا لتهيئة أمتنا لمعركتها الحضارية الراهنة والحاسمة. نضيف هنا لنؤكد أننا نقف في طرحنا الحالي مع ما قاله نيتشه في «العلم المرح»[*8]: نحن ننزع إلى السلب ولا بد لنا من فعل ذلك، لأن ثمة أشياء بداخلنا تصر على البقاء، وتصبو إلى الإيجاب.

وفي رأي الكاتب أن فكرنا العربي قد غلب عليه، في معظم مراحله وإنجازاته وانحيازاته، النزوع إلى الموجب والقاطع والمحدد والمحكم. لهذا، فهو يفزع في مواجهة الزائغ والمحتمل والمتداخل والمتشابه، ينحاز إلى الثابت على حساب المتغير، والسائد على حساب المتجدد، يلح على الإجماع وينفر من الاختلاف والتعدد والغموض، حتى كاد يحرم معجمه من رفاهية المجاز، ومجامعه من حقوق الصك والنحت والمزج، ونصوصه من حرية التأويل وتعدد القراءات. وهكذا استعصى علينا استيعاب الواقع المعقد من حولنا، فعجزنا عن فهم البنية الاجتماعية والبنية الفكرية والبنية اللغوية، وفشلنا في وضع أيدينا على الآليات الدفينة التي يتعذر من دونها فهم تجليات الظواهر، وإدراك حيل السياسة وألاعيب الإعلام وألعاب اللغة وتقلبات الاقتصاد وتحولات البيئة. لقد أدى بنا امتهاننا لـ «السلب» إلى صعوبة تقبلنا للانهائية الفكر وتفهم الكثير من إشكالياته الراهنة، وإلى عدم استساغة كيف يمكن أن يكون للفوضى نظريتها، وللتعقد هيكليته وأنساقه ومظاهر اتساقه، وأدى بنا ـ أيضا ـ إلى أن نستهجن غموض الشعر ولاموضوعية الفن التجريدي، ولا مقامية الموسيقى الجادة. لقد وقعنا حيارى، أسرى البساطة المفرطة، لا نعي ما يزخر به عالمنا من ظواهر عدة مضادة للحس الطبيعي، لا تدين للمنطق المباشر لقانون العلة والأثر أو ميكانيكية الفعل ورد الفعل. ولا شك في أن ثمة صلة بين هجرة «السلب» هذه وقائمة الثنائيات التي كبلت فكرنا العربي ومازالت تكبله، من قبيل: السلفية

والمعاصرة، والعالمية والمحلية، والشكل والمضمون، والرمز والمعنى. إن تمسكنا بهذه الثنائيات هو بمنزلة عُصابة على أعيننا تحجز عنا طيف الرماديات، وتعمينا عن رؤية مسارات الاتصال التي تربط بين أطرافها، وعلى ما يبدو، فإننا لم نستوعب بعد حقيقة أن فكر الغرب لم يكن له أن ينطلق دون أن يتخلص من أسر هذه الثنائيات، ناظرا إليها على أنها وسائل لتنظيم الفكر لا غاية له، ولم تكن حاجتنا إلى إعادة النظر في هذه الثنائيات قدر ما هي عليه الآن، في ضوء ما نشهده حاليا من انهيار الحواجز الفاصلة بين كثير من الثنائيات المستقرة واحدة تلو الأخرى كما أشرنا في الفقرة السابقة.

وهكذا، وفي ظل سيادة الموجب وانفراده بالساحة، استرخينا ننعم بسلام معرفي زائف، وما علينا إلا أن نلحق بقوائم العبث والفوضى كل ما يتجاوز قدرة عقولنا من نظم ومنظومات وظواهر وإشكاليات، وليس لنا من عاصم أمام تيار الفكر الهادر إلا أن نحتمي بالسدود المعرفية. وهكذا تتراكم طبقات الجهل لدينا، ولا يهدأ بال البعض منا إلا وهو يمارس الإسقاط، يرمي الآخرين بوصمة الجهالة، حتى تفد إليه ـ من ذوي الجهالة هؤلاء ـ الحقائق والمعارف والنظريات القائمة على استيعاب ظاهرة السلب، وقد اندرجت في إطار الخطط والإستراتيجيات، وشُكلت على هيئة وسائل عملية في كل ما يمارس علينا من أفعال، وما يسمح به لنا من ردود أفعال، ولا يبقى لنا أمام هذا «الماموث» المعرفي الحامل للسلب في جوفه إلا الاستعانة بالخبراء، وانتظار المعونات والهبات، أو تدخل قوات الطوارئ أو فرق الانتشار السريع.

فكيف لنا ـ إذن ـ دون إدراج السلب ضمن عناصر تفكيرنا أن نواجه الفكر الغربي، الذي ينمو دوما من خلال ترحاله المستمر بين الإيجاب والسلب، وسعيه الدؤوب إلى مراجعة الآراء والمواقف، لا يجد غضاضة في استكشاف الفكر المناهض، ويكفي، دليلا على ذلك، ما يقوم به مفكرو الغرب حاليا من التنقيب في الفكر الماركسي الكلاسيكي، وعلى الرغم من الانهيار المروع لتطبيقه عمليا، وذلك بحثا عن منطلقات جديدة، يغْني بها الجدل القائم الذي يدور ـ حاليا ـ بين معسكري الحداثة وما بعدها.

4: 4: 2 مسار جولة البحث عن «السلب»

والآن، وبعد هذا التمهيد، علينا أن نخفف من سخونته، لنتهيأ لجولة

في رحاب «السلب»، نجوب فضاء المعرفة الإنسانية. نقتفي مسالكه المختلفة: من العلم إلى الفن، ومن التربية إلى الإعلام، ومن الفلسفة إلى الهندسة، كي يتضح لنا الدور الذي قام به في إغناء المعرفة الإنسانية على اختلاف مداركها ومراحلها، وقد رأى الكاتب في استعراض مجالات المعرفة أن يتبع التسلسل التالي، الذي بدا له منطقيا، وأن ينهي كل حديث ـ عن السلب ـ في كل من هذه المجالات بتساؤل قصد به استدراج العام إلى ساحة الخاص العربي.

تسلسل مسار الجولة: نظرية الوراثة ـ المخ البشري ـ الفلسفة ـ تاريخ العلم ـ اللغة ـ الفيزياء ـ الرياضيات ـ المنطق ـ علم النفس ـ الفنون ـ منظومة المجتمع ـ التربية ـ الهندسة ـ المعلومات.

4: 4: 3 حصاد جولة البحث عن «السلب»

(أ) **السلب ونظرية الوراثة:** تبوأ السلب موقعا متميزا في قلب منظومة الوراثة منذ أن اتخذت نظرية دارون الكلاسيكية من «عشوائية» الصدفة أساسا لفرضية الانتخاب الطبيعي التي قامت عليها، وكان من الطبيعي أن يرفض الكثيرون هذه العشوائية كتفسير لتطور الكائنات الحية بكل تنوعها وروعتها، وهو ما دفع بالبعض أخيرا إلى وضع نماذج رياضية لمحاكاة عملية التطور هذه باستخدام الكمبيوتر لإثبات عدم صحة هذه الفرضية إحصائيا، وظل عنصر السلب العشوائي يبحث عن رفيقه الموجب ليكتمل به ويتكامل معه، إلى أن أتاه على يد علم البيولوجيا الجزيئية الحديث الذي أماط اللثام عن سر الكود الوراثي الذي أودعه الخالق كروموسومات نواة الخلية. إن هذا الكود الوراثي رباعي الأبجدية يتألف من مقاطع وكلمات، يصاغ بها التعبير الوراثي الذي يختزن معادلات توليد البروتين، مادة الحياة الأساسية، لقد أثبتت بحوث علم البيولوجيا الجزيئية أن النص الوراثي الكامن في النواة يتضمن فائضا أو حشوا زائداredundancy ، بل يتضمن لبسا وتكرارا أيضا. إن هذا الفائض هو مصدر حدوث «الخطأ الوراثي» المؤدي بدوره إلى تنوع الكائنات وتطورها. لكن عملية التطور تلك ليست بالعشوائية المحضة، بل هي نوع من حرية التعبير الوراثي ـ إن جاز التعبير ـ محكومة بنظام نحوي دقيق يحدد نطاق تلك الحرية، ويجعل معالجة المعلومات الوراثية

تسير في اتجاه معين، بل ربما صوب غاية معينة. إن هذا النص الوراثي ونظامه النحوي هما السر وراء تنوع الكائنات الحية وارتقاء الكائن البشري، فالنص الوراثي للإنسان يتضمن فائضا لغويا أكثر غزارة من ذلك لغيره من الكائنات، أما نحوه الوراثي فأكثر «بلاغة» ومرونة، هو الآخر، من غيره، وهو الأمر الذي يزيد احتمالات الصدفة من جانب، ويزيد في قدرة الكود الوراثي على «التعبير البيولوجي»، بفضل ثرائه النحوي من جانب آخر.

هل لنا بعد ذلك أن نطرح جانبا انزعاج البعض لدينا من النظرية القائلة بانحدارنا من سلالة القرود، فلا مانع لدى الكاتب أن يحيل هذه القضية برمتها إلى قائمة القضايا الخلافية، فقد أصبح لزاما علينا أن نتمعن في الإنجازات الباهرة للبيولوجيا الميكروية الرمزية، وأن نعي مغزى القواسم المشتركة بين لغة الجينات واللغة الإنسانية، وكيف أصبح تطور الكائنات وليد هذا الامتزاج المثير بين «السلب» و «الإيجاب»، بين عشوائية الصدفة وانتظامية النحو، بين حرية التعبير والقيود التي تحكم الاحتمالات الممكنة.

ونحن نلوذ بحكمة علمائنا من أهل الدين والعلم نسأل ونتساءل: أين مواضع التعارض، إن كان ثمة تعارض، بين ما أوردناه هنا وقوله تعالى «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين»، وهل هناك ما هو أكثر إثارة من تأملنا في كيف انتظمت، بقدرته الإلهية، عشوائية الطين، وكيف انبثقت العضوية من اللاعضوية في أبهى صورها، متمثلة في ذلك الكائن الرائع الذي يتسنم ذروة كائناته الحية.

(ب) **السلب والمخ البشري:** السلب عنصر ملازم لمخ الإنسان، سواء في تطوره أو بنيته العامة أو وظائفه، فإن اعتبرنا البطء ضربا من السلب، فالمخ البشري يدين لهذا البطء بتميزه، سواء في تطوره عبر العصور الجيولوجية، أو في نموه الفسيولوجي منذ لحظة ولادته حتى اكتمال نضجه. فبينما تولد صغار الحيوانات بمخ مكتمل النمو، يحتاج مخ الإنسان إلى سنوات عدة، وذلك حتى يتأهل للقيام بالوظائف الذهنية الراقية التي تتجاوز غريزة المؤثر وردود الأفعال، مثل القدرة على الخيال والتجريد والتعامل مع الرموز وما شابه. هذا فيما يخص تطوره ونضجه، أما في بنيته العامة، فيفترق المخ البشري عن مخ الحيوان في عدم تماثله، حيث يختلف نصفه

الأيمن عن نصفه الأيسر، سواء من حيث المهام الموكلة إلى كل منهما أو الكيفية التي تُنظم بها هذه المهام، وربما يعزى ذلك إلى أن الإنسان ليس في حاجة إلى مثل هذا التماثل والتطابق، خلافا للحيوانات التي هي في أمس الحاجة إليه ليقيها مفاجآت سكنى الغابات، حيث يمكن للمعتدي أن ينقض عليها من أي صوب. بقول آخر: إن تماثل مخ الحيوانات هو بمنزلة جهاز الرادار الذي تحدد به هذه الحيوانات مصدر الاعتداء المرتقب، من خلال مقارنة الإشارات التي يتلقاها نصفا المخ المتماثلان تماما. إن الإنسان، نتيجة لعدم تماثل مخه، أقل ترقبا وأقل حذرا من الحيوان، ولكن «سلب» عدم التماثل هذا هو نوع من التكامل، حيث يكسبه تكامل النصفين غير المتماثلين المرونة والقدرة على المزج بين المنطقي والحدسي، والواقعي والخيالي، والتعامل مع الشيء ونقيضه.

والآن إلى وظائف المخ البشري، التي تؤهل صاحبه للتكيف مع مطالب حياته وبيئتها وواقعها، وجميعها أمور تجعل من التعامل مع «السلب» أمرا أساسيا، حيث يمكن القول إن الوجود برمته هو قسمة ما بين الموجب والسالب. يساهم عنصر السلب في وظائف المخ على اختلاف مستوياتها: الدنيا والوسطى والعليا. في مستواها الأدنى، تعمل الخلايا العصبية، وحدة البناء الأساسية للمخ، بمبدأ الإثارة والإحباط، وأداء الوظائف الذهنية الأولية ـ بالتالي ـ هو حاصل تفاعل ثنائية الإيجاب والسلب تلك: موجب الإثارة وسلب الإحباط. وقد ثبت عمليا أن عدد الخلايا العصبية المحبطة أو المطفأة ـ باستخدام المصطلح الكهربي ـ يفوق في أي وقت ـ وبكثير ـ ذلك للخلايا المثارة أو المتوهجة. إنه ـ بقول آخر ـ اقتصاد الفسيولوجي يعمل على ترشيد استخدام الموارد البيولوجية.

تمثل معالجة المخ للمعلومات ـ سواء تلك التي تغذى إليه عبر الحواس، أو التي تنتقل إليه من الذاكرة ـ الآلية الأساسية التي يعتمد عليها المخ البشري في تأدية وظائفه الوسطى. ولنسمع ما يقوله لنا ـ في هذا الصدد ـ ميشيل واتانكا عالم اللسانيات الأعصابية، حتى يتبين لنا الدور الحاسم الذي يلعبه عنصر السلب في تأدية وظائف المخ الوسطى، يقول واتانكا: «إن قدرة العقل على معالجة المعلومات تعتمد بصورة أساسية على «فقد» المعلومات لا الاحتفاظ بها». فقدرة العقل على التجريد ـ مثلا ـ تعتمد على

حذف التفاصيل، من أجل إبراز الجوهر واستخلاص المغزى من شواش الضوضاء التي تغلفه. إن الفقد الذي نعنيه هنا هو عملية الاختزال التي تصوغ المعلومات الغفل في هيئة بنى وأنماط مفهومية، فالمفاهيم ـ كما هو معروف ـ هي لبنة المعمار الفكري التي يمكن لها أن تتفاعل فيما بينها لتوليد المعرفة الجديدة، ويا لها حقا من خاصية فريدة لمخنا البشري، تلك التي تحيل السلب: فقدا واختزالا، إلى الانتظام: بناء وأنماطا، لتزيد بذلك من قيمة المعلومات وتفاعلها، وهي تلك الخاصية الذهنية نفسها التي يحلم بها مهندسو الذكاء الاصطناعي في محاولتهم إضفاء نوع من الذكاء على آلتهم الصماء، فهم منشغلون حاليا بكيفية إكسابها «فضيلة النسيان»، حتى يمكنها التعامل مع الواقع خارجها بمنطق إحصائي، منطق يتحلى بذلك «الكذب النبيل» الذي ينطوي عليه التعميم الإحصائي الذي يحجب عمدا بعض تفاصيل الحقيقة، بحثا عن الكليات والمؤشرات وذلك بتجاهله الشارد وغير المطرد، واختزاله للمتواتر والمتقارب.

وأخيرا، وفي ذروة أدائه الإبداعي، وهو يبادر ويخترع ويكتشف، يزداد تعامل المخ البشري مع عنصر السلب، فالإبداع من منظور علم النفس هو وليد ذلك التوازن الدقيق بين الالتزام بالقواعد وانتهاكها. ،إقامة الفروض وتفنيدها، وتحطيم البنى من أجل إعادة بنائها. إنه ـ أي الإبداع ـ ناتج رحلة التضاد الرائع التي ينتقل خلالها العقل ما بين التركيب بالتحليل تارة، والتحليل بالتركيب تارة أخرى.

وقبل أن ننهي حديث السلب والمخ البشري، هل لنا أن نسأل ونتساءل مرة أخرى: هل يحق لأحد بيننا ـ مربيا كان أو داعية ـ أن يحرم تلك العجينة الوردية، كما يطلق عليها أهل الفرنسية، ذات بلايين الخلايا العصبية من حقها في أن تلهو دوما بموجبها وسالبها، لتنأى بنفسها عن أحادية الفكر ودوجمائيته وإستاتيته؟. وهل من تعارض بين ذلك والمهمة الأساسية التي أوكلها إلى الإنسان خالقه الأعظم؟ ونقصد بها «الإبداع» ولا شيء سواه.

(ج) **السلب والفلسفة**: يمكن القول ـ بصفة عامة ـ إن تاريخ تطور الفلسفة منذ عهد أرسطو وأفلاطون هو سلسلة متعاقبة للتأرجح بين الانحياز إلى الإيجاب، كما نلحظه في فكر فلاسفة مثل سبينوزا وبرجسون، والانحياز

إلى السلب كما في فلسفة هيجل التي قامت على التضاد الديالكتيكي، وفلسفة نيتشه القائمة على نسف ما قبلها ومداومة البداية من الصفر. وهي الفلسفة التي استلهمها ـ كما أشرنا سلفا ـ فكر ما بعد الحداثة القائم على مبدأ «التباين»، على النقيض من فكر الحداثة القائم على مبدأ «التطابق». إنه هذا التأرجح بين مثالية العقل في سعيه إلى فرض إرادته وتشوقه إلى رؤية حلمه واقعا، وبين ارتداده صاغرا يؤرقه الشك، مقرا بضعف النفس وحقائق الواقع وقوانين الكون. وفي تأرجحه هذا، وعلى الرغم منه، يظل الفكر يسلك مساره الحلزوني المتصاعد نحو الأعمق والأصدق والأشمل والأجدى، مؤكدا قدر الإنسان المحتوم في سعيه الحثيث للإمساك باليقين الذي سيظل يفلت منه دون لحاق أو اكتمال. وقد قيل في علاقة السلب مع الفكر، وما أكثر ما قيل، إن سقراط هو أكثر الناس حكمة لأنه أكثرهم جهلا، ومن لم يشك لم ينظر لدى الغزالي، وقيل حديثا «من لم ينتقد لا يعتقد»(*9).

هل يكفي ما ورد في سردنا السابق من مفردات قاموس السلب دليلا على رسوخ أقدامه في عالم الفلسفة؟ وهل لنا كعادتنا أن نتساءل كيف لنا أن نواجه عالم اليوم بعدتنا المعرفية المتهالكة، ألسنا في حاجة إلى فكر فلسفي جديد يمارس حقه في حرية التنقل بين الإيجاب والسلب، بين العلم والميثولوجيا، بين نظرية النظم ونظرية الفوضى، بين نظرية المعلومات ونظرية النقد، بين نظرية التربية ونظرية السيطرة، بين العولمة والعولمة المضادة وهلم جرا؟

(د) السلب وتاريخ العلم: في «بنية الثورات العلمية» أوضح لنا توماس كون أن رحلة تقدم العلم هي نفسها رحلة أخطائه، جاعلا من «سلب» الخطأ شرطا لعلمية العلم، فلا يعد العلم علما ـ كما أوضح لنا كارل بوبر ـ إلا إذا كان قابلا للتفنيد، يحمل في جوفه بذرة تخطئته، ويرفض كارل بوبر كذلك وضعية مدرسة ڤيينا التي ترفض أن يندرج في نطاق العلم إلا ما يمكن إثباته علميا، فالعلم في رأيه ليس رهينة الإثبات، بل يتقدم من خلال إقامة الفروض ومداومة نقضها، أو الإثبات بالسلب كما يطلق عليه، ويقصد به إثبات الشيء باستحالة إثبات ما يناقضه. فالمعرفة كما يقول لنا هي وليدة التجربة والخطأ، وخطأ النظرية ـ كما يقول لنا لاكاتوش ـ لا يعني

بالضرورة رفضها ما إن نكتشف الخطأ، بل يجوز لنا الاحتفاظ بها خاطئة كما هي، حتى يتم إحلال أخرى صحيحة محلها أو لنقل أقل خطأ. بقول آخر: إن النظريات لا يحكم عليها بميزان الصواب والخطأ، بل ما يهم هو أن نظل نبحث عن حقائق جديدة لتعضيدها أو لتقويضها. لقد أثبت تاريخ العلم أن مسار تطوره يتسم بدرجة عالية من عدم الخطية، فهو ـ كما أوضح باشلار، وأوردت يُمنى الخولي ـ يسير عبر عقبات وقهرها، كل عقبة تُقهر تتبعها قطيعة معرفية مع الفكر القديم انطلاقا صوب الجديد، وترى يُمنى الخولي في «سلب» القطيعة المعرفية هذا تجسيدا رائعا وبلورة متألقة لفعل الإنجاز والإبداع وإضافة الجديد والانتقال إلى مرحلة أعلى [32].

وتساؤلنا هنا سبق أن طرحه فؤاد زكريا عن مدى الخطورة في اندفاع البعض منا، في نوبة تحمسه لإثبات الإعجاز العلمي في القرآن، إلى مطابقة بعض نصوصه بمقولات العلم المحكوم عليها سلفا أنها ستظل دوما راهنة عارضة، ولابد أن يأتي من بعدها ما يقوضها، ويا لها من مجازفة محفوفة بأشد المخاطر أن نسقط العلم «حمّال الأخطاء» دوما، كما أسلفنا، على كتابنا الشريف وهو «حمّال أوجه» كما أرشدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

(هـ) **السلب واللغة:** تتفشى مظاهر السلب في أرجاء منظومة اللغة على اختلاف الوحدة اللغوية التي تتعامل معها هذه المنظومة: حرفا أو صوتا أو جملة أوسياقا. ففي سعي اللسانيات الحديثة إلى الارتقاء إلى مصاف العلوم الدقيقة، اهتدت بعلم الصوتيات، الذي كان قد سبقها في الاهتداء بعلم الفيزياء، حيث صُنّفت الأصوات اللغوية بدلالة قائمة من سمات الإيجاب والسلب، كالجهر والهمس، المتحرك والساكن، الشدة واللين، الصائت والصامت، وماشابه. وسرعان ما سرى هذا التوجه الثنائي في فروع اللغة الأخرى كالاشتقاق والجمود في الصرف، والتقديم والتأخير في النحو، والحرفي والمجازي في الدلالة، والأصيل والدخيل في المعجم. لقد كانت هذه التقابلات المتضادة بمنزلة أداة اصطلاحية لصياغة الظواهر اللغوية بطريقة صورية ومنضبطة، حتى تدين للتنظير الرياضي والمنطقي في البداية، وللمعالجة الآلية بواسطة الكمبيوتر فيما بعد.

بظهور علم اللغة الحديث، على يد دي ـ سوسير، تجاوزت علاقة السلب

باللغة مستوى الاصطلاح، أو لغة وصف اللغة meta language كما يقولون، لتنفذ إلى علاقة الدال بمدلوله، أو بصورة أبسط، علاقة الرمز بمعناه، وهي العلاقة المحورية التي تحكم أداء المنظومة اللغوية برمتها، بصفتها ـ أي اللغة ـ في جوهرها وسيلة لنقل المعنى. لقد خلصنا دي ـ سوسير من الفكرة التي سادت في الماضي، والتي يبدو من خلالها الرمز وكأنه غلاف يحوي المعنى في جوفه، فمعنى الرمز ليس كامنا بداخله بل تحدده العلاقات التي تربطه بخارجه، أو بقول آخر: معنى الرمز هو حصيلة اختلاف مدلوله عن مدلولات باقي الرموز الأخرى. فمدلول كلمة «كوكب» ـ على سبيل المثال ـ هو ما يستنتج من إدراكنا للفروق بينه وبين الأجرام السماوية الأخرى التي تكبره أو تصغره، وهي الفروق التي تؤدي بدورها إلى إدراك تلك التي تفصل بين الأجرام السماوية وموجودات الكون الأخرى.

ومن أجل مزيد من توضيح فكرة قيام المعنى على أساس الاختلاف، نلجأ هنا إلى المثال التقليدي لمعاني قطع لعبة الشطرنج، فمعنى «قطعة الحصان» مثلا يحدده اختلاف حركته عن حركات القطع الأخرى مثل «الفيل» و«الطابية»، بقول آخر «ليس هناك معنى لـ «حصان الشطرنج» كامن بداخله بل يحدد معناه في اختلافاته مع خارجه.

وهكذا زرع دي ـ سوسير بذرة «سلب» الاختلاف في قلب منظومة اللغة، التي ظلت تكشف يوما بعد يوم عن عناصر السلب الغائر في كيانها بما يتجاوز حدود الاصطلاح والعلاقات. لقد مضى السلب قدما ليصل إلى الآلية الأساسية للنشاط اللغوي توليدا واستيعابا (أو إرسالا واستقبالا). فكما هي الحال بالنسبة إلى اللغة الوراثية، والتي أسلفنا القول فيها، تعتمد اللغات الإنسانية دون استثناء على مفهوم الفائض أو الحشو، ويقصد بالفائض اللغوي تلك العلاقات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية والمقامية التي تربط بين الحروف والكلمات والجمل والفقرات، والتي يمكن الترخص فيها لكونها فائضا مع احتفاظ التعبير اللغوي بقدرته على نقل المعنى، ونستسمح القراء هنا في مثال بسيط لتوضيح هذه الفكرة الأساسية للفائض اللغوي. فلنفرض مثلا أنه بدلا من أن نلتزم بالقواعد اللغوية في قولنا «اشترى أخوها تفاحتين من أحد الباعة»، ترخصنا في علاقات الإعراب، فنصبنا الفاعل ورفعنا المفعول به، وأهملنا بعض النقاط، وأضفنا

من لدينا همزة إلى ألف الوصل، وأغفلنا وجوب التذكير في «أحد»، لتصبح الجملة «أشترى أخاها تفاحتان من إحدى الباعة»، فعلى الرغم من مجموعة الأخطاء تظل هذه الجملة الممسوخة، أشد ما يكون عليه المسخ، مفهومة، يمكن لنا قراءتها. والفضل في ذلك يرجع إلى الفائض اللغوي، فائض العلاقات والقرائن التي يشتمل عليها التعبير اللغوي. إن فائض اللغة، أو حشوها الزائد، ليس بعيب ينتقصها، بل هو سند لمرونتها ومصدر لقوتها، فهو الذي يكسبها المناعة ضد التشويش والضوضاء والخطأ واللبس والغموض، وهو يساهم أيضا في قدرتها على قلب المعنى، جاعلة من الوعد وعيدا، ومن المدح ذما، لتظل قادرة على توصيل المعنى بين المتكلم والسامع.

وتعزيزا لحديث السلب واللغة، نورد هنا لمحة من فكر فيلسوفها لودفيج فيتجنشتاين، وهو يواجه إشكالية المعنى اللغوي، الذي استعصى على الفهم وحير الفلاسفة والعلماء من عهد الإغريق إلى يومنا هذا، لقد رأى فيلسوفنا الفذ أن يكون مدخله في تناول هذه الإشكالية هو الانطلاق من «السلب»، عندما قرر أنه بالإمكان وضع نظرية للمعنى دون شرط مسبق بضرورة فهمنا لماهيته.

ومرة أخرى، هل لنا أن نتساءل هنا: كيف لنا أن نهيئ لغتنا العربية لمطالب عصر المعلومات؟! كيف نبعث الحياة في كيان هذه اللغة العظيمة، تنظيرا وتعليما واستخداما، وهو الأمر الذي يتطلب ـ أول ما يتطلب ـ تحريرها من احتكارية متخصصيها، ونزعتهم التي يطغى عليها الجانب التقريري، وذلك بعد أن صارت إشكالية اللغة من الشمولية بحيث يستحيل تناولها انطلاقا من منظور التخصص، فعلم اللغة الحديث يستند ـ فيما يستند ـ إلى الرياضيات والمنطق والإحصاء والبيولوجي والفسيولوجي والسيكولوجي وعلم الاجتماع، وأخيرا علم الكمبيوتر ونظم المعلومات، وكلها مجالات تزخر بالسلب كما أوضحنا وكما سنوضح.

(و) **السلب والفيزياء**: بداية، نحن لا نقصد بالسلب هنا تلك المفاهيم البسيطة فقط المرتبطة بـ «الموجب والسالب» في الكهرومغناطيسية و«الفعل ورد الفعل» في الميكانيكا. إن ظاهرة السلب في الفيزياء أبعد من ذلك بكثير. إنها قابعة في أغوار المادة، تساهم في تشكيل بنيتها وسلوكها وتفاعلها. في بداية القرن، وتحت تأثير نظريات نيوتن القاطعة لحساب حركة الأجسام

وسرعتها، شاعت النظرة بأن العالم يتحرك وفقا لقوانين محكمة، يعمل كالساعة بانتظام تام وبإيقاع ثابت ودائم. ويأتي آينشتين ليقلب قوانين نيوتن رأسا على عقب، فكما أن سرعة الأجسام تتوقف على كتلتها، فالكتلة هي الأخرى تتوقف على سرعتها، جاعلا من الزمن، الذي طال افتراض ثبوته، متغيرا هو الآخر، وهكذا ظهرت «النسبية» لتنزوي قطعية فيزياء نيوتن، وكل ما جرته وراءها من حتميات البيولوجي والتاريخ والجغرافيا واللغة والثقافة. ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد، حيث خرج إلينا هيزنبرج بمبدأ «عدم اليقين» لتفسير سلوك الجسيمات شبه الذرية في حركتها المرتعشة التي لم تخضع لقوانين نيوتن الصارمة، حيث يستحيل تحديد موضعها وسرعتها بصورة قاطعة، وهكذا أصبح عدم اليقين مدخلا أساسيا لتفسير الظواهر الطبيعية لترتفع بذلك هامة «السلب»، بعد أن دان له موقعه المتميز في نواة الذرة، وحدة البناء الأولية لمواد الكون. وها هو هيزنبرج في تأسيسه لنظرية الكم (الكوانتم) يدفع بالسلب إلى مشارف جديدة، عندما أطاح بسلاسة واستمرارية الموجات والأطياف مستبدلا بالسلاسة والاستمرارية عنصر المفاجأة والتدفق المتقطع. فليس الضوء في جوهره ذلك الشعاع الموجي الساري المستمر والمتصل بل دفقات متعاقبة متقطعة من مزيج الكتلة والطاقة. هذا على مستوى الميكرو المادي، أما على مستوى الماكرو فللسلب أيضا نصيبه في النظريات المختلفة لنشأة الكون التي تتبنى معظمها مفهوم المادة والمادة المضادة anti-mather. لقد نجم عن ذلك ما يشبه الانقلاب في نظرتنا الكلية إلى الكون، الذي لم يعد تلك الآلة التي تعمل في خطية واستمرارية بانتظام الساعة، بل هو نظام يعمل في ظل قوانين غير خطية، تجعله دوما عرضة لعدم الاستقرار والتقلبات والنقلات النوعية والتعدد، وعلى الرغم من كل هذه الظواهر، التي تبدو من فرط اضطرابها، وكأنها الفوضى، تظل طبيعة كوننا مستقرة بفعل نظامها الداخلي، وآليات التصحيح الذاتي الكامنة بها، إنه - مرة أخرى - ذلك اللقاء المثير بين العشوائية والانتظام، تتوالى مشاهده من الفيزياء إلى الكيمياء، ومن الميكانيكا إلى الديناميكا الحرارية، ومن علم البيولوجي إلى علم اللسانيات.

وتساؤلنا هنا: هو كيف لعدم اللايقين هذا ألا يروعنا، فيحجب عنا رؤية

الواقع بصورة أصدق وأعمق؟ وكيف نفض الخصومة التي يفتعلها البعض بينه وبين يقين العقيدة وديمومة النواميس الطبيعية؟

(ز) **السلب والرياضيات**: الإيجاب والسلب هما بلا منازع توأما علوم الرياضيات سواء في الحساب أو الجبر أو الرياضة المنطقية أو الإحصاء الرياضي. فلم تكتمل منظومة الحساب إلا بعد اكتشاف «الصفر» رأس حربة السلب بلا جدال، ولم يكن لعلم الجبر أن تقوم له قائمة، لولا إشارة الموجب والسالب التي تسبق حدود معادلاته وتكافؤاته، وما نفذت الرياضيات إلى عالم الفيزياء الموجبة (كهرباء وضوء وصوت) إلا بعد اكتشافها الأرقام غير الحقيقية أو التخيلية. أما مقولات الرياضة المنطقية فمآلها ـ في النهاية ـ إلى الحكم بكونها صوابا أو خطأ. وهل لنا أن ننسى في حديث السلب هذا فضل أهل القمار ـ نعم أهل القمار ـ على تطور علم الإحصاء الرياضي الذي اتخذ من عبث زهرة النرد وعجلة الروليت مدخلا أساسيا له.

ولا يمكن لنا أن نوفي السلب حقه في عالم الرياضيات، لو اقتصر الحديث على دوره في صياغة الأبجديات الرياضية، دون أن نتناول علاقة هذا السلب مع جوهر الإشكال الرياضي، والذي كشف لنا عن طبيعته كورت جودل مؤسس علم الرياضة المنطقية، وهو العلم الذي لعب دورا حاسما في تطوير تكنولوجيا الكمبيوتر ونظم المعلومات. لقد أثبت جودل، باكتشافه مبدأ «عدم الاكتمال»، لانهائية الإشكال الرياضي، بمعنى أنه ما إن نقيم نظرية رياضية جديدة لحل إشكالية قائمة، إلا وتنتج عن هذه النظرية ذاتها إشكاليات رياضية جديدة، وهكذا دواليك. لقد أطاح مبدأ عدم الاكتمال بحلم طالما راود علماء الرياضة، ألا وهو اكتشاف معادلات أو قوانين جامعة مانعة تجب كل ما دونها. وإن كان قد حرمهم من حلمهم القديم، فقد فتح بمبدأ «عدم الاكتمال» الباب على مصراعيه أمام علماء الرياضيات، بل العلماء كافة، لكي ينطلقوا دوما في فضاء معرفي لانهائي بحثا عن الأصوب أو الأقل خطأ، والأشمل أو الأقل ضيقا، والأعمق أو الأقل ضحالة. لقد ترددت أصداء نظرية عدم الاكتمال في جميع نواحي المعرفة الإنسانية: من البيولوجي إلى السيكولوجي، ومن الفيزياء إلى الفلسفة ومن علم الاجتماع إلى علم الفلك ومن نظرية المعلومات إلى نظرية النقد

وعلم القراءة[*15]. لقد أكد «عدم الاكتمال» أو «السلب في روعة اكتماله» ـ إن جاز التعبير ـ أن لا حق لأحد أن يزعم امتلاكه ناصية الحقيقة المطلقة، في أي من مجالات المعرفة الإنسانية، التي أسقطت من قاموسها كلمة «نهائية» ليصبح الإبداع هو هبة الخالق لكل أجيال البشر على مر العصور.
وتساؤلنا هذه المرة: عن مدى تقبل كهنوتنا العلمي والثقافي لما يعنيه مبدأ «عدم الاكتمال»، وكيف يمكن أن نخفف من قبضة قديمنا على حديثنا، ومن سطوة كبارنا على صغارنا؟

(ح) **السلب والمنطق**: يبدو منطقيا أن يكون للمنطق الصوري علاقة محورية مع عنصر السلب، من حيث كونه ـ أي المنطق ـ هو ميزان الحكم على صدق المقولات من زيفها، والمنطق المعكوس، أي استخلاص المقدمات من النتائج والإثبات بالنفي، هو مجرد أمثلة ـ ضمن أخرى كثيرة ـ تؤكد الموقع الحصين الذي يحتله عنصر «السلب» في المجال المنطقي، وشأن السلب والمنطق لا يقف عند حدود هذه الأمور التفصيلية، بل يتعداها إلى ما هو أعم وأشمل. فبعد ثلاثة عشر قرنا من ظهور المنطق الأرسطي، ظهر مدى قصوره في التعامل مع كثير من القضايا الذهنية واللغوية والهندسية والاجتماعية. يرجع هذا القصور إلى قطعية المنطق الصوري الذي لا يتعامل إلا مع المجرد والمحدد واللازمني. لا يعرف حكمه إلا القطع بالصواب أو الخطأ ولا شيء غيرهما أو بينهما، لا يميز إلا الأبيض والأسود دون طيف التدرج الممتد عبرهما. (مثال: كل إنسان ميت، سقراط إنسان، إذا: سقراط ميت)، وهو بسبب صوريته وإستاتيته وصرامته منقطع الصلة بالواقع: كائناته وأزمنته وديناميـاته واحتمالاته. فعلى سبيل المثال، ثبت قصور منطق الرتبة الأولى لأرسطو في التعامل مع اللغة بحذفها ولبسها ومجازها وفائضها. ولهذه الأسباب مجتمعة، كان لابد للمنطق الصوري ذي الرتبة الأولى أن يتنازل عن مثاليته، مقرا بضرورة التعامل مع مظاهر السلب كالتميع وعدم القطع وعدم الاكتمال.

وتساؤلنا: هل يقدر علماؤنا ومهندسونا الدور الذي يلعبه هذا المنطق الجديد في مجالات اللغة والفيزياء وعلم النفس والبيولوجي وعلم الاجتماع وعلوم الكمبيوتر وفي صناعة نظم التسليح والاستطلاع والدفاع الجوي، وفي فنون التكتيك، وإقامة نماذج المحاكاة لأغراض التخطيط والتصميم

والاختبار؟

(ط) السلب وعلم النفس: ليس بغريب أن يجد «السلب» له مرتعا في خفايا النفس ونوازعها وغرائزها، يضاد الوعي باللاوعي، والأنا بالآخر، والانفتاح بالانطواء، ونوازع الخير بنوازع الشر، وهلم جرا. ويسهل علينا اقتفاء آثار «السلب» في مجال علم النفس ما إن نستوعب ما تضمنته قائمة منفياته من اللامحسوس واللاشعوري واللاإرادي واللاعضوي وما شابه. وكما هذبت رمزية علم الوراثة من عشوائية الانتخاب الطبيعي، ها هو لاكان يهذب من بدائية الغرائز وعشوائيتها التي ركز عليها فرويد في تحليله لظاهرة النضوج النفسي؛ حيث يضيف لهذة النظرية الأحادية بعدا آخر؛ جاعلا عملية النضوج تلك نتاجا لتراكم وتداخل فعل الغرائز مع نمو ملكة اكتساب الأنساق الرمزية: من لغة وأشكال وموسيقى ومجردات.

ويستهوي الكاتب هنا، بحكم تخصصه، الجانب النفسي لعملية اكتساب الطفل للغته الأم، كشاهد للدور الذي يلعبه «السلب» في عملية النضج الذهني بصفة عامة. لقد حير أهل علم النفس التربوي كيف يكتسب الطفل بهذة السرعة لغته الأم على الرغم من صعوبتها وتعقدها، وذلك من خلال تعرضه لعينة عشوائية من كلام الكبار، الذي يزخر بالخطأ والضوضاء والاقتضاب والتغير والتنوع. لقد رفض نعوم تشومسكي تفسير علماء النفس السلوكيين لهذة الظاهرة، على أساس اكتساب الخبرات عن طريق المؤثرات وردود الفعل؛ فهو يزعم أن الطفل يولد بملكة لغوية أو حد أدنى من العموم اللغوي المتمثل في المبادئ اللغوية العامة والمشتركة بين جميع اللغات. بفضل هذه الملكة الذهنية يستطيع الطفل أن يستخلص أنماط اللغة ومفرداتها من خلال الاستنتاج المنطقي والتفكير المنهجي بتطبيق هذه المبادئ العامة، موجها هذا العموم اللغوي ومخصصا إياه بما يتفق ومطالب لغته الأم. ومرة أخرى، وليست أخيرة، يلتقي سلب العشوائي مع إيجابية القواعد والمبادئ.

وتساؤلنا الذي ننهي به استعراضنا لعلاقة السلب وعلم النفس ذو طابع نفسي وعملي في آن: لماذا اتخذ كثير من علمائنا هذا الموقف السلبي من علم النفس عموما، ومن ذلك لفرويد بوجه خاص، حتى بعد محاولات تهذيبه على أيدي من تبعوه ابتداء من يونج حتى لاكان؟ وكيف يتسق ذلك مع ما نشهده حاليا من تداخل علم النفس في علوم الاجتماع واللغة والإعلام

والإدارة وهندسة الوراثة وهندسة الذكاء الاصطناعي؟ وماذا تكون عليه حالنا إذا ما طبق أهل اليوجينيا (علم تحسين السلالة البشرية) إنجازات الهندسة الوراثية وعلم النفس الحديث جاعلين من مورد الذكاء ـ أكثر الموارد الإنسانية عدالة في التوزيع ـ هو الآخر مصدرا لطبقية جديدة، قوامها الذكاء هذه المرة، لتضاف إلى قائمة الطبقيات التي تهتك بنا؟

(ي) **السلب والفن:** ليس هناك في مجالات المعرفة الإنسانية أكثر من الفن احتفاء بالسلب. فخلافا للعلم، يستأنس الفن بفكرة الانبعاث من العدم والانطلاق من اللاشيء، ولهذا ارتبط السلب بالفن التشكيلي في علاقة حميمة، بحكم كونه أكثر تمردا وانطلاقا، وسنقصر الحديث هنا على جانب التصوير.

في طوره الموضوعي، كان هدف الفن التشكيلي هو تصوير الواقع المجسم ثلاثي الأبعاد، ونقله إلى مسطح اللوحة ثنائية الأبعاد، وتعني عملية التسطيح تلك إلغاء البعد الثالث، وذلك إما بالإيهام بوجوده بخداع المنظور وإما بإسقاطه تماما كما نشاهده في أعمال موندريان وفازاريللى وبعض أعمال ماتيس وغيرهم. ويتبدى لنا «السلب» في أوج تألقه بانتقال الفن التشكيلي إلى مرحلة التجريد، حيث سعت التجريدية التحليلية في البداية إلى تحطيم الأشكال، وإعادة ترتيب حطامها، حتى سمت بها «سلبا» إلى اللاموضوعية المحضة، لتنفصم علاقة العمل الفني عن الواقع المباشر.

وعلاقة السلب بموضوع الفن التشكيلي لا تقل إثارة عن علاقته بأسلوبه. فبعد أن ظل فن عصر النهضة مقصورا على رسم ما اتفق على أنه جميل ومتسق وسام، هائما ما بين القصور والكنائس، خادما لأهلها، نجده يتخلص من تلك النظرة التقليدية لمفهوم الجمال ووظيفة الفن بالتالي، وهكذا أصبح للقبح، أو ما يعتقد أنه قبيح، نصيبه من جدران المتاحف والمعارض، وما أجملها لوحة الرجل ذي الأنف القبيح لـ «رمبرانت»، وما أبدع تصوير هذا الهولندي العبقري في توازنه الخلاب بين «سلب» الظلال و «موجب» الضياء، ونسترسل في حديثنا عن ذلك القبح لنقول: إذا كان نيتشه في إحدى مقولاته قد كشف عن عدم نيته إعلان الحرب ضد القبح، فها هو بيكاسو عبقري الفن التشكيلي يجعل من القبح غاية تبتغى، فهو القائل «إن كنت بصدد إنجاز عمل فني جليل، فعليك أن تخطط من البداية بحيث يكون

مآله في النهاية إلى القبح». وليهدأ «السلب» بالا، وقد أصبح شاغل الفن هو أن يحتفظ ببراءة نظرته. ولتحقيق تلك المهمة التي يراها البعض مستحيلة، شرع الفن الحديث يحاكي فنون القبائل البدائية ورسوم الأطفال، أليس بيكاسو أيضا هو القائل: «لقد احتجت إلى 12 عاما لأرسم مثل رمبرانت و60 عاما لأرسم كطفل». وتجدر الإشارة هنا إلى أن جماليات ما بعد الحداثة لا تقوم أساسا على «الجميل» بل على «الجليل»: المروع والمقزز والمستفز، وكل ما يستنفر المتلقي كي يعيد النظر في الواقع من حوله.

والآن ننتقل بحديثنا عن «السلب» في مجال الأدب، السمة الغالبة في رصد توجه الحديث، وهي تلك التي تفصح عن نفسها في ظاهرة لفظة «لا» التي أصبحت لازمة متواترة في مصطلحات النقد الأدبي والفني، أدب اللاأدب ـ رواية اللارواية ـ مسرح اللامعقول ـ قصة بلا حبكة ـ واللاذروة ـ واللاموضوعية ـ وهلم جرا. وربما تعبر عن الظاهرة ذاتها مصطلحات أخرى لكنها لاتختلف عما ذكرناه. من أمثلة ذلك: مسرح العبث، وأدب الصمت والفن ضد الفن، والذروة المضادة و وموت الرواية وموت المؤلف وما شابه. وهل لنا أن ننسى كيف كان غيث أدب كافكا أكثر قدرة في التعبير عن الواقع من غيره مما يطلقون عليه الأدب الواقعي وفي رأي إيهاب حسن أنها ـ جميعها ـ تشير إلى رفض الأدب واقع العصر، وإلحاحه على ضرورة تغييره، وعلى الأدب أن يتخذ شكلا جديدا، فلم تعد وظيفته ملء الفراغ بالوهم المصنوع أو بالأكاذيب المريحة على حد قوله، وستظل ـ على ما يبدو ـ وظيفة الفن دائما هي الانتهاك ـ على حد تعبير لورانس داريل، وتبدأ الحداثة ـ كما يقترح رولان بارت ـ مع البحث عن أدب مستحيل، وعلى الأدب أن يرفض النظام المفروض والمكتشف، والفن لا يصبح فنا إلا في كونه ضد الفن ذاته، والفن هو أن نستمر نسأل بإلحاح: ما الفن؟

وأكاد أزعم أن النظريات الحديثة لتحليل النص الأدبي قد شغفها «السلب» فراحت تستكشف أسرار ما وراء النص وكتابه «الصفر»، ودلالات مواضع الصمت به، وكشف النقاب عما سكت عنه مؤلفه وما تبطنه معاني ألفاظه وعلاقات جمله وفقراته. وحان لنا هنا أن نستدعي الحمقى وأدب حمقهم ليساهموا في رائعة موزاييك السلب والأدب، فقبل أن يخرج علينا إرازموس بكتابه «في مديح الحماقة»، ومنذ الكوميديا اليونانية ـ كما يقول سامي

خشبة ـ مرورا بالجاحظ، وشخصية الأحمق، بذكائها الفطري وطيبتها ونقدها اللاذع، تستخدم للكشف عن رذائل الادعاء والكبرياء الكاذب ولا أخلاقية المجتمع ووحشيته (87: 49). وعلى ما يبدو ـ وكما قيل ـ فكل لاعقلانية، حمقا كانت أم أسطورة أم عبثا، تتضمن قبسا من العقلانية، كما أن لكل عقلانية نصيبا من اللاعقلانية.

ولا يكتمل حديث السلب والفن دون إشارة إلى الموسيقى، أرقى الفنون وأكثرها تجريدا، فبعد أن ظلت تعتز بأنساقها وتناغمها على مدى العصور، ها هي مدرسة ڤيينا الثانية بزعامة أرنولد شونبرج، تسمو بالموسيقى «سلبا» إلى طورها اللانغمي الحديث، أو الامقامي إن شئنا الدقة، تطرح أنساق التوافق المعتادة جانبا. بل والأكثر سلبا من ذلك أن موسيقى اليوم تكاد تتخلص من آلاتها، بعد أن أصبحت مركبات الأصوات التي تعمل بالكمبيوتر قادرة على توليد أنغام الآلات المعروفة، بل واستحداث أنغام لم يسبق لآلات أن أخرجتها، موسيقى بلا مقامات وبلا آلات، هل من أحد مازال في حاجة إلى مزيد من «السلب»؟

وتساؤلنا هذه المرة نوجهه إلى العقاد في غيبته، لنستوضح منه مبررات موقفه الرافض بصرامة للشعر الحر في تمرده على القافية، وكذلك للفن التجريدي وقد قرر أن يتخلص من حدوتة الأدب. ولنخفف عن مفكرنا العظيم حرجه، إن كان ثمة حرج، لنقول له: إن سقراط هاجم نظام الكتابة عند اختراعها مفضلا عليها أسلوب الشفاهة الذي كان سائدا في عهده.

(ك) السلب ومنظومة المجتمع: منذ نشأته، انقسم أهل علم الاجتماع إلى فريقين: فريق ينحاز إلى الإيجاب يؤمن تطور النظم الاجتماعية، من خلال الوفاق وذوبان الخلاف والتوفيق بين الخطابات السارية في كيان المنظومة المجتمعية، من خلال التفاعل والبحث عن القواسم المشتركة، وفريق آخر يؤكد حتمية الصراع بين الطبقات والقوى الاجتماعية المختلفة، واستحالة الوفاق بين الخطابات. وفي نظر كارل بوبر أن المجتمع الذي يخلو من الصراعات هو مجتمع لا إنساني.

هذا على المستوى العام، والآن دعنا نغوص قليلا في عمق منظومة المجتمع لنتبين موقع «السلب» منها والذي يتضح لنا في استعراض علاقته مع كل عنصر من عناصر هيكلية القوى الاجتماعية المختلفة، والممثلة هنا

برباعية القوى السياسية والاقتصادية والعسكرية والرمزية، ويقصد بالقوى الرمزية كل ما يتعلق بالتربية والإعلام ونظام القيم وأمور الثقافة الأخرى، ولنبدأ بالقوة العسكرية التي يمكن إدراجها - بجيشها وشرطتها - في نطاق «السلب»، حيث تقوم أساسا، سواء داخليا أو خارجيا، على الردع والقمع وفرض الأمور بقوة السلاح. أما القوة السياسية فلها في توظيف عنصر السلب أسلوبها الخاص، فبعد أن أحالت إلى الشقيقة العسكرية فجاجة استخدام القوة وصرامتها، تلجأ هي - إرضاء لهوى أصحابها - إلى الحيل وأساليب التمويه وأقنعة الكياسة الدبلوماسية، وذلك من أجل مراوغة الخصم، والتآمر مع الحليف، ومقايضة من هو بين الخصم والحليف. إن السياسة، وهي تقتنص الممكن في ظل الموازين والقوانين والقيود، عليها أن تتعامل مع السلب أكثر ما تتعامل مع الإيجاب، خاصة في عالم اليوم الزاخر بالاضطرابات والصراعات.

وفيما يخص الاقتصاد، فالسلب شطر في معادلته المحورية التي توازن بين «سلب»: الاستهلاك و«إيجاب» الإنتاج، جاعلا آليات السوق ويدها الخفية (سلب الاستتار) وسيلة ضبط طرفي المعادلة هذه، ويكفي الاقتصاد «سلبا» ثبوت خطأ مقولته الأساسية، التي أضفت عليه شرعيته، في كون التقدم الاقتصادي لا يعني بالضرورة تنمية اجتماعية حقيقية وراسخة.

وللسلب أيضا مملكته الخاصة في مجال القوة الرمزية، فآفة المتلقي السلبي ضاربة بأطنابها في ساحتي الإعلام والتربية، وكما يمكن للإعلام أن يصمت عما يريد أن يحجبه من رسائله عن جماهيره، فالتربية أيضا يمكن أن تحجب بمناهجها المخططة مسبقا المعرفة التي لا تريد لطلابها أن يلموا بها.

وتساؤلنا هنا: هل بقدرة علماء الاجتماع العرب الخروج بنظرية اجتماعية تستوعب متغيرات العصر، تميط اللثام عما يجري داخل مجتمعاتنا التي تموج بالبراكين النشطة والوشيكة والخامدة، نظرية تجعل من الثقافة محورا للتنمية، والإعلام منارة لخدمة المواطنين، لا هراوة في أيدي الحكام، وبوقا إعلانية لخدمة التجار؟

(ل) **السلب والتربية**: في ظل متغيرات عصر المعلومات، ارتفعت الأصوات، هنا وهناك، تنادي بفلسفة تربوية مغايرة ليس هدفها الإبقاء

على ما هو قائم، بل تنمية النزعة إلى التغيير، ومداومة نقد الواقع، من أجل تصويبه وإغنائه، من أجل أن يسترد الإنسان إنسانيته والمجتمع عقلانيته واتساقه وتوازنه.

ولنترك الفلسفة لنقتفي مظاهر «السلب» في عملية التعليم نفسها، ففي عصر انفجار المعرفة وتسارع حركة العلم، أصبح ضروريا أن تتعامل مناهج التربية مع «سلب» الإهلاك، الذي يتطلب مداومة إحلال المعارف والخبرات والمهارات، بأخرى جديدة وذلك لسرعة تقادمها. وهكذا أصبح هدف التعليم هو أن نعلم الإنسان كيف يتعلم ذاتيا، أي كيف يهلك قديم ما يعرفه ويتقنه ليستوعب جديده ويمارسه.

وأخيرا، وفيما يخص علاقة السلب بجوهر عملية التعلم ذاتها، فقد أثبت لنا علم النفس التربوي أن الإنسان يتعلم من خلال التجربة والخطأ، وقد أصبحت أنواع التفكير المنطلقة من السلب، كالتفكير الخلافي والتفكير النقدي والتفكير التفنيدي، من المفردات المستقرة في قاموس التربية المعاصرة.

أعتقد أن تساؤلي هنا يطرح نفسه، في كونه متعلقا بمدى المسافة التي تفصل بين ما قلناه وبين فلسفتنا التربوية السائدة، وما يجري داخل فصولنا ومنازلنا وأجهزة إعلامنا. ما أشد حاجتنا لثورة تربوية شاملة يقودها المعلم والمتعلم سويا.

(م) **السلب والهندسة**: على الرغم من كون الهندسة هي وسيلتنا للتحكم في النظم المعقدة، وذلك بفضل إيجابيتها في تحويل الأفكار إلى واقع، إلا أنها على الرغم من هذا وذاك، ليست بمنأى عن «السلب»، بل هي ـ بحكم هذه الطبيعة ذاتها ـ أصبح تعاملها مع السلب شرطا أساسيا كي يمكن لها مواجهة التعقد، واحتمالات واقع الاستخدام والتشغيل ومفاجآته. وتجدر الإشارة هنا إلى موقع السلب في هندسة التحكم التلقائي، حيث تعمل نظم التحكم بمفهوم الدائرة المغلقة لقياس مدى الخطأ، أو الحيود بين الأداء المتوقع والأداء الفعلي، ويتم قياس هذا الحيود من خلال وسائل التغذية المرتدة، أو رجع الصدى كما يقولون، ليغذي هذا الحيود، أو الخطأ كما يسمى أحيانا، إلى آليات التحكم التي تعمل على تلاشي هذا الفرق بين المتوقع والفعلي.

هذا من جانب، ومن جانب آخر، وبسبب نزعتها العملية الطاغية لا تفترض الهندسة اكتمال النظريات ولا القواعد الرياضية المحكمة، وهي تعوض هذا النقص باتباع الأسس الإمبريقية التقريبية التي رسخت بالخبرة، وكثيرا ما تلجأ الهندسة إلى الحدس إن تعذر القطع، حتى أصبح للحدس بها نهج هندسي مستقر، يعرف بالحدسيات heuristics. وليس عامل الأمان الذي يدرجه التصميم الهندسي في حساباته إلا ضربا من ضروب التعامل مع الجهل، جهل المعرفة وجهل التوقعات.

وكأن كل هذا القدر من مزاحمة السلب لها لم يشفِ غليل الهندسة، فنجدها تتوق في حداثتها إلى مواجهة مع السلب أكثر صراحة ومباشرة، وذلك بنسف المبادئ الهندسية الراسخة. فها هي هندسة المعمار، التي ظلت تزهو بتوازنها وتماثلها وبخطوطها المستقيمة والمتوازية، ها هي تحطم الأشكال deconstruction يحدوها الحنين نحو المائل والمنحرف وغير المتماثل، لعلها تعثر في هذا الركام على ما يخلص المعمار الحديث من برودته ورتابته، ليسترد روعة الطراز وخصوصية المكان وألفة الداخل.

وننهي حديثنا عن السلب والهندسة بدعوة أكثر منها تساؤلا، نحث فيها على ضرورة النظر إلى الهندسة بصورة أشمل، فقد كاد أن يصبح لكل مجال فرع الهندسة الخاص به: من الهندسة الطبية إلى هندسة اللغة، ومن هندسة البرمجيات إلى هندسة الصورة. وبعد أن دخلت الهندسة مجال الجغرافيا بهندسة البيئة وهندسة الزلازل، ها هي تقتحم علم الاجتماع لتطرح الهندسة المجتمعية كبديل ليبرالي للتخطيط المركزي الذي ساد النظم الاشتراكية.

(ن) **السلب والمعلومات:** ليس هناك ـ في رأي الكاتب ـ ما هو أكثر عمقا من لقاء «السلب» مع المعلومات: نظرية وتطبيقا، وكيف لا وتكنولوجيا المعلومات هي وليدة ثنائية «الصفر والواحد»، وكمية المعلومات ـ كما حددها كلود شانون في نظريته ـ تتناسب تناسبا طرديا مع عدم التوقع، فكلما كانت المعلومات أقل توقعا زادت كميتها والعكس. وتحفل هندسة الكمبيوتر والبرمجيات بالعديد من مظاهر السلب، كاللامركزية واللاقطعية، وخاصية ترخص النظم الآلية في أخطاء المدخلات المغذاة لها وما شابه. والأهم من ذلك ـ في رأي الكاتب ـ أن المعلومات تكاد تغير نظرتنا إلى مفهوم السلب

من أساسه، فموارد المعلومات ـ خلافا للموارد المادية ـ تزداد قيمتها مع زيادة استهلاكها، حيث يؤدي هذا الاستهلاك بدوره إلى توليد معلومات جديدة وهكذا، وهو ما يؤكد قدرة العقل على أن يحيل السلب إيجابا.

ولتكن نهاية المطاف في جولة السلب، تساؤلا أصبح ملحا هذه الأيام، في ظل ظاهرة الإفراط المعلوماتي التي نشهدها حاليا، بعد أن فتحت علينا بوابات الفيضان عبر الإنترنت، والتساؤل هو: هل توافر المعلومات بهذه الصورة المفرطة نعمة أم نقمة؟!

4: 4: 4 عن سلبيات الاستهانة بـ «السلب»

والآن، وبعد هذه الجولة في رفقة السلب ـ فاعلا ومتفاعلا ـ مع المادي واللامادي، والفيزيقي والرمزي، والفردي والجماعي، وهو بهذا الشيوع يجعل من ظواهره وكأنها رابطة عقد بين مجالات معرفة الإنسان المختلفة، بل وبين الإنسان وعالمه. إنه «السلب» يعلن عن عدم اكتماله لبحثنا على مداومة السعي صوب الكمال، ويحمل راية الاختلاف من أجل مزيد من الاكتشاف، ويفك ويحطم من أجل تركيب أكثر اتساقا وبناء أكثر رسوخا. ولا شك في أن امتهاننا للسلب له أسبابه التربوية والنفسية والاقتصادية والاجتماعية، ونحن نترك لغيرنا مهمة البحث فيها. ما نود أن نشير إليه في ختام حديثنا هو ما أدى إليه هذا الموقف السلبي من السلب إلى وقوع البعض في فخ الاستعارة الانطولوجية كما يقول أهل اللغة، وقد تشابه على هذا البعض ظاهر اللفظ، فبات يبجل «الكبير والكثير وما فوق» ويستهين بـ «الصغير والقليل وما دون»، فهل لنا أن نذكر هؤلاء بحقيقة أنه لم يكن لحضارة اليوم أن تقوم لها قائمة لولا أن غيرت نظرتها إلى «ثلاثية الاستهانة» هذه ونوجز بشأنها فنقول:

(أ) **على جبهة الصغير:** تدين إنجازات العلم الحديث إلى اكتشافه مدى خطورة الصغير، واستغلالها لقدراته الكامنة، سواء الصغير المادي من خلايا وجزئيات وذرات وجسيمات وفيروسات وجينات وما شابه، أو الصغير الزمني (زمنيات) المتمثل في تقلص وحدة الزمن التي يتعامل معها العلم والتكنولوجيا، والتي تقاس بالميكروثانية والنانو ثانية والفمتو ثانية، والصغير الرمزي من فونيمات الأصوات وسيسيمات الدلالة وسمات النحو، صعودا إلى ذروة

الصغير الرمزي، المتمثل في وحدة البناء المنطقية متناهية الصغر ونقصد بها ثنائية «الصفر والواحد»، التي فجرت ثورة المعلومات التي نعيشها حاليا، والتي أدت ـ بدورها ـ إلى الإقرار بروعة الصغير التنظيمي، بعد أن ثبت فشل التنظيمات الضخمة في التجاوب مع طابع السرعة الذي يميز عصر المعلومات، بل ترتفع الأصوات حاليا للارتداد من العولمة إلى ما هو أصغر، إقليميا كان أم أكثر محلية.

(ب) على جبهة القليل: انفصمت العلاقة في عصرنا بين القلة وقلة الشأن، بعد ما أثبت البيولوجي والفيزياء وعلوم اللغة، وعلوم أخرى غيرها، إمكان توليد المتعدد واللانهائي من القليل والمحدود، ويكفي مثالا هنا سلسلة التفاعلات الكيميائية والانشطار النووي على الصعيد المادي، ولانهائية التعبيرات اللغوية على المستوى الرمزي، فاللغة كما يعرفها أهلها هي «الاستخدام اللامحدود لوسائل محدودة». بقول آخر: لم يعد القليل يشكو من الضآلة بعد أن وجد طريقه إلى المتعدد واللانهائي، وذلك بفعل آليات التكاثر والتفاعل والتوليد الرمزي، يؤازره معدل النمو الأسي للتضاعف الهندسي.

(ج) وعلى جبهة «ما دون»: مرة أخرى ظهرت أهمية ما يرقد تحت الظاهر وتحت السطح وتحت النص، فلا يمكن فهم تجليات «ما هو فوق» دون اكتشاف البنى العميقة والآليات الدفينة التي تكمن وراء هذه التجليات. لقد سعت المدرسة البنيوية وما بعدها، بل النظريات الحديثة للديناميكا الحرارية، إلى اختراق حاجز التعقد الذي يفصل بين الظاهر والباطن، التعقد الذي يبدو وكأنه ذو قدر ثابت، فكل تعقد يغيب عن ظاهر الأشياء لا يضيع سدى، بل يغوص ليستتر في طبقات باطنها، وهو الأمر الذي يفرض علينا ضرورة اقتفاء أثره أيا كان غور باطنه، حتى يدين لنا فهم تجليات ظاهره.

الحواشي

(*١) «الميم» بالنسبة لتكاثر المفاهيم يناظر ـ وفقا لريتشارد دوكيند البيولوجي الإنجليزي ـ «الجين» بالنسبة للتكاثر البيولوجي، وهو أنماط من المعلومات تتكاثر ذاتيا في بيئة المخ البشري.

(*2) مثال للسيبورجcyborg في روايات الخيال العلمي «المرأة البيونيك bionic woman».

(*3) كان قوس قزح قبل عصر ديكارت يعد من قبيل المعجزات الإلهية التي لاتفسير لها.

(*4) يدين الكاتب بالفضل في تناوله لـ «مابعد الكولونيالية» إلى دراسة د. ماري تريز عبد المسيح عن خطاب «الما بعد»: مواجهة أم التقاء (قضايا فكرية ـ أكتوبر 1999)، وهي الدراسة التي جمعت بين أصالة الفكر وشجاعة الرأي، ناهيك عن سلاسة العرض وجزالة الأسلوب.

(*5) انظر تعليق محمد عمارة في مناقشة دراسة طارق البشري حول «العروبة والإسلام» في ندوة «الحوار القومي ـ الديني»، مركز دراسات الوحدة العربية ـ ديسمبر 1989.

(*6) كمثال من تدرج الحرفي صوب المجازي: علاج المريض ـ علاج الجروح ـ علاج الداء ـ علاج النفوس ـ علاج الأفكار ـ معالجة البيانات ـ معالجة المواقف.

(*7) أخبار الأدب القاهرية: العدد 373, 3 ديسمبر 2000، ص 31.

(*8) للكتاب ترجمة عربية تحت عنوان « العلم المسرور» لم يستسغها الكاتب لعدم دقة مطابقتها مع الأصل الألماني.

(*9) وردت هذه المقولة على لسان محمود أمين العالم في محاضرته في الموسم الثقافي لدار الكتب المصرية للعام 2000.

(*10) أشرنا سابقا كيف استعان جاك دريدا في منهجه التفكيكي بفكر كورت جودل.

5 ثقافة اللغة:
منظور عربي معلوماتي

- نحو نظرة أشمل للغة
- علاقة اللغة بفصائل المعرفة
- اللغة في إطار منظومة الثقافة
- منظومة اللغة

5: 1 نحو نظرة أشمل للغة

5: 1: 1 اللغة: ذلك الشائع المجهول (الطرح العام)

(أ) **عن شمولية اللغة وشيوعها:** يزخر العالم بآلاف اللغات، وكل لغة تحمل العالم في جوفها. واللغة هي الهواء الذي نتنفسه(*1)، وهي حولنا، تحيطنا من كل حدب وصوب، فهي وسيلتنا لإدراك العالم، وواسطتنا التي تحدد المسافة بيننا وبين واقعنا، وأداة تعاملنا مع هذا الواقع، التي نحيل بها المحسوس إلى المجرد، ونجسد بها المجرد في هيئة المحسوس إنها الجسر الواصل بين خصوصية الذات وعمومية الموضوع؛ فهي التي تترجم ما في ضمائرنا من معان ـ كما يقول ابن خلدون في مقدمته ـ لتستحيل إلى أدوات تشكل الحياة، وتوجه أداء المجتمع وسلوك أفراده وجماعاته ومؤسساته. واللغة هي قدر الإنسان الاجتماعي، فكما تكشف عن طبقته وجذور نشأته، تكشف ـ أيضا ـ عن عقليته وقدراته وميوله الفكرية. وكما أن اللغة ظاهرة وشائعة، فهي ـ بالقدر نفسه ـ دفينة

ومستترة، غائرة في ثنايا النسيج الاجتماعي ومتاهة العقل البشري، تمارس سلطتها علينا من خلال أياديها الخفية، تعمل عملها في طبقات اللاوعي على اختلاف مستوياته: من اللاوعي الفردي النفسي إلى اللاوعي الجمعي التراثي والسياسي.

ونظرا إلى شيوعها وشموليتها، فهي مسؤولية الجميع: مسؤولية المجمع والجامع، ومؤسسات التربية وأجهزة الإعلام والمنظمات الثقافية، مسؤولية وجهاء النخبة وبسطاء العامة، مسؤولية الشاعر والعامل والناشر والكاتب والقارىء والمدرس والطالب. إن اللغة هي الأم التي ترعى كل ناطق بها وكأنه طفلهاالوحيد والأثير، تزهو وتنمو إن تمرد عليها شعراؤها، ولا تضيق ذرعا بصرامة علمائها، وتغفر للعامة تجاوزها، ولا تحرم النخبة من تميزها.

(ب) عن أهمية اللغة: يقول أهل النسبية اللغوية: «لغتي هي عالمي، وحدود لغتي هي حدود عالمي»، وهو نفسه ذاك العالم الذي انتزعه محمود درويش ممن أرادوا أن يسلبوه إياه، فارضين عليه أن يفارقه، حاملا معه «لغته» تحمل معها «عالمه». لقد قرر شاعر الأرض السليبة أن يكون «وطنه هو حقيبة سفره»، وليس هناك خير من اللغة زادا لسفره هذا، فاللغة هي الذات وهي الهوية، وهي أداتنا لكي نصنع من المجتمع واقعا، كما يقول بتر برجر (51:214). وثقافة كل أمة كامنة في لغتها، كامنة في معجمها ونحوها ونصوصها. واللغة ـ بلا منازع ـ أبرز السمات الثقافية. وما من حضارة إنسانية إلا وصاحبتها نهضة لغوية، وما من صراع بشري، إلا ويُبطن في جوفه صراعا لغويا، حتى قيل إنه يمكن صياغة تاريخ البشرية على أساس من صراعاتها اللغوية. وتشهد حضارة اليوم حركة نشطة لـــ «لغونة» الكثير من جوانبها: السياسية والمعرفية والاقتصادية والأخلاقية. وجاءت تكنولوجيا المعلومات، والهندسة الوراثية، لتضع اللغة على قمة الهرم المعرفي. وهكذا أصبحت اللغة رابطة العقد للخريطة المعرفية، والركيزة الأساسية لفلسفة العلم، وما من مذهب فلسفي إلا وله شقه اللغوي (انظر الفقرة 4: 1: 2 من الفصل السابق)، وما من فرع من فروع الفن، إلا ويشارك اللغة كثيرا من سماتها، وما من فروع من فروع العلم، إلا وله صلته باللغة، فما من ظاهرة طبيعية، إلا ولها نصيب من السرد، كما يقول إيليا بريجوجين[*1](7:281).وعلى صعيد السياسة والاقتصاد، أصبحت اللغة من أشد الأسلحة الأيديولوجية

ضراوة، وذلك بعد أن فرضت القوى السياسية وقوى المال والتجارة سيطرتها على أجهزة الإعلام الجماهيري، التي أصبح وابل رسائلها وهوائياتها يفعل ماكانت تفعله في الماضي منصات الصواريخ الموجهة. ولا يناظر ضراوة اللغة إلا صمودها، فهي القلعة الحصينة للذود عن الهوية والوحدة القومية، ولا يناظر جبروت اللغة إلا حنوها؛ وكيف لا، واللغة الأم هي شريكة ثدي الأم في إيضاح وعي الصغير، وهي راعية المتعلم، وملهمة المبدع وهادية المتلقي.

وخير ختام لحديثنا عن أهمية اللغة هو ما قاله في حقها شاعر صقلية إجنازيو بوتيتا: إن الشعوب يمكن أن تكبل بالسلاسل، وتسد أفواهها، وتشرد من بيوتها، ويظلون مع ذلك أغنياء. فالشعب يفتقر ويستعبد ما إن يسلب اللسان الذي تركه له الأجداد، عندئذ يضيع إلى الأبد (116: 200).

(ج) **عن تعدد وجهات النظر بشأنها**: وعلى الرغم من كل هذه الأهمية والمحورية، ورفقة الحضارة الإنسانية، ظلت اللغة ـ وربما ستظل ـ ذلك الشائع المجهول، لغزا حير الفلاسفة عبر القرون، قابعة ـ هناك ـ تحت طبقات اللاوعي، متدثرة بأردية اللبس والغموض. وهذه حالها، كان لا بد أن تتعدد وجهات النظر بشأنها؛ بعض ينظر إليها بصفتها سلوكا يكتسب، وبعض آخر يؤكد كونها غريزة نولد بها، فريق يراها ظاهرا سطحيا قوامه التجليات المحسوسة والقرائن السافرة، وفريق آخر يرى تحت هذا الظاهر السطحي «بنية عميقة» من علاقات الألفاظ والتراكيب والنصوص. وأخيرا وليس آخرا، هناك من يرى اللغة نظاما للتواصل، ومن يراها آلة للفكر ومرآة للعقل، ومن يراها لعبة مجتمعية وراءها صراع القوى الاجتماعية المختلفة.

ومع بزوغ عصر المعلومات، تعاظم الدور الذي تلعبه القوى الرمزية، وعلى رأسها اللغة، في صياغة شكل المجتمع الإنساني الحديث، وباتت اللغة في أمس الحاجة إلى منظور جديد، منظور يعيد النظر في جميع جوانب المنظومة اللغوية: من أعمق الجذور إلى أدق الفروع.

اللغة: ذلك الشائع المجهول (المنظور العربي)

(أ) **عن أهمية اللغة العربية**: اللغة العربية ـ بلا شك ـ هي أبرز ملامح

ثقافتنا العربية، وهي أكثر اللغات الإنسانية ارتباطا بالهوية، وهي اللغة الإنسانية الوحيدة التي صمدت 17 قرنا، سجلا أمينا لحضارة أمتها في ازدهارها وانتكاسها، وشاهدا على إبداع أبنائها، وهم يقودون ركب الحضارة، ودليلا على تبعيتهم وقد تخلفوا عن هذا الركب. والحرص على العربية، ليس من أجل الناطقين بها فقط، بل هو واجب إنساني وروحي تجاه جميع المسلمين من غير العرب، خاصة في ظل الحملة المسعورة لتفتيت التكتل الإسلامي في ظل العولمة، وهو ـ أيضا ـ واجب قومي تجاه عرب المهجر؛ حيث أصبحوا يمثلون كتلة بشرية لا يستهان بها، يمكن أن تلعب دورا حاسما في التنمية العربية، والدفاع عن الحضارة العربية والإسلامية من مواقع أقوى تأثيرا واتصالا.

(ب) عن أزمة العربية: يقر الجميع بأننا نعيش أزمة لغوية طاحنة، تفشت حتى كادت تصبح عاهة ثقافية مستديمة. وكما يقول أمين الخولي: «إن آفات حياتنا في جمهرتها تعود إلى علل لغوية، تصدع الوحدة وتحرم الدقة، وتبدد الجهد، وتعوق تسامي الروح والجسم، والعقل والقلب»[(2*)]. وعلى الرغم من وضوح أعراض أزمتنا اللغوية، وجسامة آثارها، وكثرة المؤتمرات والندوات واللجان والتوصيات التي عقدت بشأنها، تظل تلك الأزمة مستعصية على الحل. ويعكس جهد الإصلاح اللغوي في القرن الماضي، وخطابنا اللغوي الراهن، قصور معرفتنا بلغتنا، ويرجع ذلك إلى أسباب عدة، من أهمها في رأي الكاتب:

- عدم إلمام الكثيرين لدينا بالجوانب العديدة لإشكالية اللغة، حيث يقتصر تناولنا لهذة الإشكالية ـ في أغلب الأحوال ـ على الجوانب التعليمية والمصطلحية. بقول آخر: إننا نتصدى لمعضلة اللغة على مستوى الأطراف الهامشية؛ تجنبا للخوض في المناطق الحساسة التي تتداخل فيها قضايا اللغة العربية مع قضايانا الاجتماعية وأمورنا الدينية، وسياساتنا الوطنية والقومية، وهو ما تسعى هذه الدراسات إلى الكشف عنه، مع إدراكنا لما ينطوي عليه ذلك، من مخاطر الانغماس في حديث لا يروق للحرس القديم من سدنة اللغة العربية التقليديين، من حيث فحواه ونبرته، بل ربما من حيث الهدف من ورائه أيضا.

- قصور العتاد المعرفي لمعظم منظرينا اللغويين، بعد أن أصبحت مسألة

اللغة ساحة ساخنة للتداخل الفلسفي والعلمي والتربوي والإعلامي، بل التكنولوجي أيضا.

- القطيعة المعرفية التي يقيمها البعض لدينا، على اختلاف ميولهم الفكرية، مع التوجهات الفلسفية الحديثة، والتي تولي جميعها اهتماما شديدا بأمور اللغة تنظيرا واستخداما. وتشتد حدة القطيعة ـ كما هو متوقع ـ مع المدارس الفكرية التي تتخذ موقفا سلبيا من الدين، كما في «ما بعد الحداثة» على سبيل المثال. إن عدم إقرارنا بفكر هذه المدارس، لا يجب أن يحرمنا من الإلمام بحصادها النظري الهائل على صعيد اللغة، خاصة في غياب تنظير لغوي عربي حديث.

- خطأ التشخيص لدائنا اللغوي، فتارة يوجه الاتهام إلى مدارسنا، وتارة إلى مجامعنا، وتارة أخرى إلى إعلامنا، بل وصل الأمر بالبعض إلى إدانة اللغة العربية نفسها؛ تحت زعم أنها تحمل بداخلها كوامن التخلف الفكري والعجز عن تلبية مطالب العصر. ويا له من اتهام جائر لهذه اللغة الإنسانية العظيمة. لقد حان الوقت للتصدي لمثل هذه المفاهيم الخاطئة التي لا أساس لها من الصحة، ولا سبيل إلى تحقيق ذلك إلا من خلال التحليل الدقيق للعلاقة بين منظومة اللغة ومنظومة المجتمع من منظور ثقافي ـ معلوماتي. في ضوء ما قيل، فإن راهن العربية في أمس الحاجة إلى نظرة أشمل تتجاوز حدود الخطاب اللغوي الراهن، سواء من قبل اللغويين وأهل المعاجم وأئمة المجامع، أو من قبل نقاد الأدب والتربويين والإعلاميين. لقد باتت إشكالية اللغة العربية، من المحورية والشمولية والتعقد، بحيث يستحيل تناولها انطلاقا من منظور التخصص الضيق، أو النظرة الاجتماعية القاصرة، ومن الخطورة والأهمية، بحيث يصعب إرجاؤها أو تناولها، من دون إستراتيجية واضحة للإصلاح اللغوي الشامل؛ وذلك في إطار خطة قومية أكثر شمولا، لإعداد مجتمعاتنا العربية لدخول عصر المعلومات.

5 : 1 : 2 تعاظم اللغة في عصر المعلومات (الطرح العام)

تلعب اللغة في مجتمع المعلومات دورا أكثر خطورة عن ذي قبل، ويمكن إرجاع ذلك إلى أسباب رئيسية عدة هي:

(أ) **محورية الثقافة في منظومة المجتمع، ومحورية اللغة في منظومة الثقافة:** أشرنا ـ سلفا ـ إلى أن الثقافة قد أصبحت محور عملية التنمية في مجتمع المعلومات، في حين أكدت اللغة، بفضل المتغير المعلوماتي كونها، محور منظومة الثقافة بلا منازع، في الوقت نفسه، ونتيجة لذلك، فقد أصبحت معالجة اللغة آليا بواسطة الكمبيوتر هي محور تكنولوجيا المعلومات، خاصة أن اللغة هي المنهل الطبيعي الذي تستقي منه هذه التكنولوجيا أسس ذكائها الاصطناعي، والأفكار المحورية بلغات البرمجة.

وتزداد ـ يوما بعد يوم ـ مساهمة اللغة في تحديد الأداء الكلي للمجتمع الحديث، سواء من داخله، أو بالنسبة إلى خارجه. ويقصد بالداخل هنا أنماط وحصاد نتاجه المعرفي والإبداعي، وكذلك الانتاجية الشاملة لأفراده ومؤسساته. أما ما نقصده بـ «الخارج» فهو العلاقات التي تربط المجتمع بغيره من المجتمعات، والعوامل التي تحدد ثقله الإستراتيجي في إطار العولمة أو التكتلات الإقليمية. لم يقتصر تعاظم دور اللغة في مجتمع المعلومات على مجالي التربية والثقافة، وهو الدور الذي لعبته اللغة دوما على مر العصور، فقد استحدثت اللغة لنفسها أدوارا جديدة بعد أن تداخلت مع التكنولوجيا بصورة كبيرة؛ ليبرز دورها الاقتصادي والسياسي. ويزعم الكاتب أن هذه الأدوار المستجدة، قد باتت من أهم العوامل في رسم الخريطة الجيو ـ اقتصادية والجيو ـ سياسية.

(ب) **الأبعاد اللغوية لظاهرة العولمة:** سواء كانت العولمة وفاقا أم صراعا، فللغة ـ في كلتا الحالين ـ شأن خطير. فإن كانت «وفاقا»، فاللغة ذات شأن جليل في حوار الثقافات؛ حيث من المتوقع أن يتخذ أنصار العولمة من علوم اللغة مرتكزا أساسيا لعولمة الثقافة، فهؤلاء العولميون لا يقرون بالخصوصيات الثقافية للأمم والشعوب، ويقفون بشدة ضد النسبية الثقافية، والنسبية اللغوية بالتالي. وهم ـ بلا شك ـ سيجدون ضالتهم في التنظير اللغوي الحديث؛ حيث تتدرج جميع اللغات الإنسانية في إطار النظرية العامة للغة. لقد استوعبت هذه النظرية القواسم المشتركة بين اللغات، وكذلك مواضع اختلافها وتباينها. علاوة على ذلك، فقد تبنت هذه النظرية النموذج الذهني للغة الذي يفترض كونها غريزة إنسانية، يشترك فيها البشر كافة.

أما إن كانت العولمة «صراعا»، فدعنا نستهدي هنا بما أورده محمود

أمين العالم في صدد دفاعه عن الخصوصية اللغوية، يقول: أخذت العولمة السائدة تفضي بالضرورة إلى سيادة لغة من لغات هذه الدول المهيمنة في العلاقات التجارية والاقتصادية، وما يستتبع ذلك من سيادة ثقافتها وقيمها الخاصة. إن معنى ذلك هو تهميش اللغات والثقافات القومية، واحتواؤها، واستتباعها كمدخل لاستتباعها اقتصاديا وثقافيا [42]. يؤكد المشهد اللغوي العالمي صحة ما خلص إليه محمود أمين العالم، لا سيما في مجال الإعلام والمعلومات. وجاءت الإنترنت لتفتح بوابات الفيضان أمام تدفق معلوماتي هادر تطغى عليه اللغة الإنجليزية؛ وهو الأمر الذي أثار الفزع لدي جميع الأمم غير الناطقة بالإنجليزية، وقد انتابها قلق شديد على مصير لغاتها القومية وهي توشك أن تنسحق أمام الاعصار المعلوماتي الإنجليزي الجارف تحت ضغوط اقتصادية وسياسية وثقافية هائلة. إنها الصيغة اللغوية لمصطلح «الإمبريالية الثقافية» الذي شاع استخدامه هذه الأيام، ويفضل الكاتب وصف هذه الظاهرة بـ «الدراوينية اللغوية» بعد أن باتت معظم لغات العالم، متقدمه ونامية على حد سواء، مهددة بالانقراض، وللحديث بقية في الفقرة 5: 3: 6 من هذا الفصل.

(ج) **المدخل اللغوي للتكتل الإقليمي**: صاحب انتشار ظاهرة العولمة تنامي نزعة التكتل الإقليمي، ولم يكن ذلك لمجرد المحافظة على الهوية والخصوصية الثقافية، بل تحركه دوافع اقتصادية وسياسية وأمنية في المقام الأول. وفي هذا الصدد، تشهد أوروبا ـ حاليا ـ توجهين متناقضين. أحدهما يقوم على أساس التنوع اللغوي، والآخر يميل إلى الانغلاق في إطار التوحد اللغوي. فبينما تعتبر كتلة الوحدة الأوروبية التنوع اللغوي لدولها (17لغة) مصدرا لقوتها الإستراتيجية في مواجهة القطب الأمريكي المتشبث بأحاديته اللغوية[*3]، تسعى ألمانيا إلى إقامة حلف لغوي ألماني يجمع بينها وبين النمسا وسويسرا. ولمجموعة الدول الإسكندنافية مشاريع مشابهة للتكتل اللغوي. وعلى مستوى ما فوق الإقليمي، يسود الساحة السياسية العالمية ـ حاليا ـ نشاط متزايد لإحياء التحالفات اللغوية مثل «الأنجلوفونية» و«الفرانكفونية» و«الإسبانوفونية»، أما على مستوى الدولة الواحدة ، فيعد موقف اليابان من لغتها اليابانية، نموذجا للنضال ضد هيمنة القطب اللغوي الأوحد، ونقصد به الولايات المتحدة الأمريكية فبرغم

كل إنجازاتها في مجال صناعة العتاد والاتصالات والإلكترونيات الميكروية، فقد أيقنت اليابان أن مصيرها في عصر المعلومات عموما، والإنترنت بصفة خاصة، رهن بمصير اللغة اليابانية. وتوالت جهود اليابان لتأمين موقع حصين لها على الخريطة الجيو ـ لغوية، وكانت البداية في مشروع الجيل الخامس الذي أطلقته اليابان في بداية الثمانينيات بمنزلة رد فعل تكنولوجي؛ بهدف كسر هيمنة اللغة الإنجليزية. وتوقف مشروع الجيل الخامس لأسباب عدة، على رأسها ما تعرضت له اليابان بشأنه من ضغوط أمريكية تكنولوجية واقتصادية وسياسية. ولم تتوقف جهود أهل اليابان عند الذود عن «اليابانية»، فراحوا يركزون على تكنولوجيا الترجمة الآلية من جانب، ومن جانب آخر، نراهم ـ حاليا ـ يستغلون تفوقهم التكنولوجي في مجال المعلوماتية؛ من أجل انتزاع الزعامة اللغوية لتكتل الدول غير الناطقة بالإنجليزية.

(د) **تواصل لغوي أوسع نطاقا وأكثر تنوعا**: تشير جميع الدلائل إلى أن التواصل عن بعد، عبر الوسيط الإلكتروني، سيقلب، مفهوم التواصل اللغوي الذي اعتدنا عليه رأسا على عقب، سواء من حيث طبيعة العلاقة بين المرسل والمستقبل، أو من حيث تنوع أشكال التواصل، واتساع نطاقة، وتعدد مطالب فاعليته. ولنأخذ ـ كمثال ـ التواصل «كتابيا» عبر الإنترنت من خلال البريد الإلكتروني أو حلقات «النقاش». إن هذا التواصل عن بعد، يتم باستخدام ما يمكن أن يطلق عليه أسلوب «الكتابة المحضة» التي تختلف عن شفاهة التواصل وجها لوجه، وذلك لسبب بسيط، مؤداه: أن شفاهة الحوار المباشر تزخر بالانفعالات، وتؤازرها ـ عادة ـ ألوان متعددة ومتضافرة من أفعال الكلام speech acts، مثل: حركات اليد والعينين، وخلجات الشفاة، وتغيير ملامح الوجه وأوضاع البدن. ولا شك في أن أسلوب «الكتابة المحضة» هذا، سيكشف النقاب عن مناطق، بقيت مجهولة ليومنا هذا، في علاقة الشفاهة بالكتابة، وهي العلاقة التي ما زالت محصورة ـ في أغلبها ـ في جوانبها الإملائية، من دون التعرض للجوانب الاتصالية الأخرى، سواء الذهنية أو النفسية أو المعلوماتية.

على صعيد آخر، يتفق الجميع على أن التواصل الحالي عبر الإنترنت، والذي يسوده الطور الكتابي، هو مرحلة بدائية وانتقالية تمهد لتواصل

أوسع نطاقا، تواصل «مابعد الكتابة» الذي يمتزج فيه المكتوب مع المسموع، بالإضافة إلى المرئي من الصور الثابتة والمتحركة، مكونا رسالة اتصالية كثيفة المعلومات. نحن - بلا شك - إزاء نقلة نوعية، أقل ما يقال عنها، إنها ثورة في أسلوب التواصل الذي اعتاده البشر منذ الأزل. وليس لدينا تصور واضح عن طبيعته وتوجهاته وآثاره النفسية والاجتماعية، واستخداماته الشخصية وغير الشخصية، ولكنه - بالحتم - سيطرح عديدا من الأسئلة المحورية حول العلاقات بين أنساق الرموز المختلفة: نصوصا وأصواتا وأشكالا. نذكر من هذه العلاقات على سبيل المثال: العلاقات بين نبر الكلام وتنغيمه، وبين إيقاع الموسيقى ونغميتها، أو تلك الخاصة بمساهمة الصور في فهم النصوص، واستغلال تحليل النصوص لغويا في فهم الصور ذاتها، حيث ما تتضمن النصوص - عادة - إيضاحات تساعد على فهم القارئ للصور الواردة بها.

وكما سيتواصل الإنسان مع أخيه الإنسان عبر الوسيط الإلكتروني، سيتحاور الإنسان مباشرة مع الآلة، وهو الحوار الذي يؤكد البعض أنه سيفوق - عما قريب - التواصل بين البشر. لن يقتصر الحوار البشري - الآلي على إنسان يسأل، أو يسترجع المعلومات، وآلة تبحث عن المعلومات لتظهرها له على الشاشة؛ فهو حوار أعمق من ذلك بكثير، حوار تبدو فيه الآلة أقرب ما تكون إلى «النديم البشري» آلة تجادل وتناور وتغازل وتتجاوب مع أهواء متحدثها وتكتيكات حواره. وكما هو واضح، فإن هذا الديالوج «الإنس - آلي» يتطلب فهما عميقا للعلاقة بين لغة الإنسان الطبيعية ولغة الآلة الاصطناعية؛ وهو الأمر الذي سيقتضي - بدوره تمعنا دقيقا في كيفية اكتساب الآلة المهارات اللغوية من جانب، وكيفية اكتساب الإنسان لغته الأم من جانب آخر. والأهم من ذلك - في رأينا - هو دراسة الأبعاد النفسية والاجتماعية لهذا التواصل الذي يتناصفه الإنسان مع الآلة، لقد أثرت تكنولوجيا الطباعة في الشفاهة والكتابة، وأثر التليفزيون في لغة الصحافة والحوار، سيكون لهذا التواصل «الإنسالي» - إن جاز لنا صك المصطلح بأسلوب المزج - نتائجه التي يصعب التكهن بها. يفسر ذلك سر اهتمام مهندسي اللغة حاليا، بفهم آليات المحادثة وتحليل بنيتها من أجل الوصول إلى ما أطلق عليه «هندسة الحوار» conversational engineering.

وختاما لحديثنا عن التواصل اللغوي في عصر المعلومات، دعنا نتساءل مع من يتساءلون: هل سيؤدي التواصل نصف البشري هذا إلى ضمور التواصل بين البشر، أم سيعيد لهم تشوقهم إلى ود الحوار مع نظرائهم من بني البشر؟!

تعاظم دور اللغة في عصر المعلومات (المنظور العربي)

(أ) **عن تقاعسنا اللغوي:** لم نقصر ـ يوما ـ في إظهار الحمية على لغتنا القومية، وضرورة الحرص عليها، ومداومة تطويرها؛ إلا أننا، في الوقت ذاته، نعاني حالة مزمنة من غياب إرادة الإصلاح اللغوي. لقد استرخينا واستكنا إلى ما آلت إليه لغتنا، وكأن لغات الشعوب تنمو بشكل تلقائي، وتبرأ من عللها دون تدخل من أحد. إننا نشكو من أزمة لغوية حادة تلطخ جبيننا الحضاري؛ أزمة على جميع الصعد تنظيرا وتعليما، نحوا ومعجما، استخداما وتوثيقا، إبداعا ونقدا. وجاءت تكنولوجيا المعلومات لتضيف إلى هذه الأزمة بعدا فنيا متعلقا بمعالجة اللغة العربية آليا بواسطة الكمبيوتر. ولا يخفى على أحد أن وضعنا اللغوي الراهن ينذر بفجوة لغوية تفصل بيننا وبين كثير من الأمم التي تولي لغاتها القومية أقصى درجات الاهتمام؛ بصفتها ـ أي اللغة ـ شرطا أساسيا للحصول على عضوية «نادي المعلومات العالمي». ومظاهر تقاعسنا اللغوي عدة، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

- سياسات لغوية حبيسة الأدراج لا ترى النور، يكفينا من مشاهد الواقع المأساوي المعارضة الشديدة التي تواجهها حركة التعريب في الجزائر، وعجز الحكومة المصرية عن فرض الالتزام بما أصدرته من تشريعات، بخصوص عدم استخدام اللغات الأجنبية في لافتات المحلات العامة، ناهيك عن تكرار المحاولات ـ من دون جدوى ـ للالتزام بتوحيد المصطلحات، ولنقارن ذلك بما تقوم به إسرائيل في هذا الشأن؛ حيث تحرم استخدام المصطلح الأجنبي ما إن يتم إقرار مقابله العبري. ومن يرد التعرف على مدى الهوة الفاصلة بين سياساتنا اللغوية وواقعنا اللغوي فما عليه إلا أن يقارن بين ما تضمنته الخطة الشاملة العربية للثقافة، التي أعدتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، من توجهات وتوصيات ومشاريع، وبين

مدى جدية الدول العربية في وضعها موضع التنفيذ.

- مجامع لغوية ضامرة السلطات، محدودة الموارد، تنتقي من إشكالية اللغة العربية ما تقدر على تناوله، لا ما تحتاج إليه اللغة بالفعل. وتجاوب هذه المجامع مع المتغير المعلوماتي ما زال دون مطالب الحد الأدنى. أما إقامة مجمع لغوي عربي موحد، تكون له سلطة التشريع اللغوي، فما زال حلما بعيد المنال(*4).

- تعليم غير متجاوب، لا تعكس إستراتيجياته ومناهجه وسلوك مدرسيه وأداء طلبته، ما للغة الأم من أهمية في أمور التعليم والتربية، وينحصر جهد الإصلاح التربوي ـ عادة ـ على مناهج تدريس اللغة العربية، دون مراعاة لعلاقتها بتدريس المواد الأخرى. ويا ليت هذا الجهد قد حقق الحد الأدنى من النجاح؛ فهو لم يثمر ـ في الواقع ـ إلا مزيدا من عزوف الطلاب عن مداومة تعلم لغتهم الأم، وتذوق مآثرها.

- تعريب متعثر يواجه معارضة شديدة من قبل كثير من الأكاديميين، بل من بعض الرواد الثقافيين أيضا. وهناك ـ بلاريب ـ صلة وثيقة بين هذا التخاذل الأكاديمي في شأن اللغة العربية، وآفة التلقي السلبي التي تسود طرق تعليمنا. فما الذي يمنع أن يتم التدريس باللغة الأم لترسيخ الفهم وتأصيل المفاهيم ويستكمل الطالب بنفسه معرفته من خلال المراجع الأجنبية ليجمع بذلك بين الحسنيين؟ وهذا الذي نقترحه ـ هنا ـ أمر يفرضه منطق الأمور في عصر انفجار المعرفة، التي لايمكن حصرها فيما يلقنه المدرس في قاعات الدرس، أو يودعه مذكراته المطبوعة. وتحية منا نهديها ـ هنا ـ إلى رواد تعريب التعليم الجامعي السوريين، وإلى الأطباء السوريين الذين تلقوا تعليمهم الجامعي باللغة العربية، والذين تفوقوا على كثير من أقرانهم العرب، ممن تلقوا تعليمهم باللغات الأجنبية، وذلك في الاختبارات التي عليهم اجتيازها للالتحاق بالدراسات العليا في الجامعات الأوروبية والأمريكية.

- ثقافة لغوية غائبة، وذلك من تزايد أهميتها كأحد الروافد الأساسية للثقافة العلمية. ويا لشدة عجب الكاتب وهو يلحظ ضمور الثقافة اللغوية لدى كثير من أصحاب الأقلام وقادة الرأى لدينا.

- وعي غير كاف على مستوى القيادات السياسية بخطورة المسألة

اللغوية، ويكفي شاهدا على ذلك أننا أغفلنا تماما الاحتفال بعيد اللغة القومية، وفقا لقرار منظمة اليونسكو باعتبار 21 من فبراير عيدا سنويا لها.

(ب) **عالمية العربية وتحديات العولمة:** لقد أثبتت العربية جدارتها على مر العصور، وحقها في أن تصبح لغة عالمية، وشهد تاريخ الفتح الإسلامي على سرعة انتشارها واندماجها في بيئات لغوية متباينة. لقد نجحت العربية في عصور الازدهار أن تكون أداة فعالة لنقل المعرفة، حتى قال القائل: عجبت لمن يدعي العلم، ويجهل العربية.

ومن منظور فقه اللغة، تتسم اللغة العربية بالعديد من الخصائص الجوهرية التي تؤكد عالميتها، ومن أهمها، التزامها بالقاعدة الذهبية فيما يخص التوسط والتوازن اللغوي، فاللغة العربية تجمع بين كثير من خصائص اللغات الأخرى، على مستوى جميع فروعها اللغوية: كتابة وأصواتا وصرفا ونحوا ومعجما[*5]. وتتسم منظومة اللغة العربية بتوازن دقيق، وتآخ محسوب بين فروع اللغة المختلفة.

ومن منظور معالجة اللغات الإنسانية آليا بواسطة الكمبيوتر، أثبتت العربية ـ أيضا ـ جدارتها كلغة عالمية فبفضل توسطها اللغوي، الذي أشرنا إليه أعلاه، يسهل تطويع النماذج البرمجية المصممة للغة العربية لتلبية مطالب اللغات الأخرى وعلى رأسها الإنجليزية[*6]. بقول آخر، فإن العربية، لغويا وحاسوبيا، يمكن النظر إليها ـ بلغة الرياضيات الحديثة ـ على أنها فئة عليا superset تتدرج في إطارها كثير من اللغات الأخرى، كحالة خاصة من هذه الفئة العليا.

في ظل العولمة وثورة المعلومات، تتعرض العربية لحركة تهميش نشطة، بفعل الضغوط الهائلة الناجمة عن طغيان اللغة الإنجليزية على الصعيد السياسي والاقتصادي والتكنولوجي والمعلوماتي. وتشارك العربية ـ في ذلك ـ معظم لغات العالم، إلا أنها تواجه تحديات إضافية نتيجة للحملة الضارية التي تشنها العولمة ضد الإسلام، وبالتالي ضد العربية، نظرا إلى شدة الارتباط بينهما.

(ج) **العربية بين التكتل والتشتت:** تحدث كثيرون عن تعدد اللهجات العربية، والتباين بين لهجات المشرق والمغرب، ولم يدخر الاستعمار

والاستشراق جهدا في تضخيم هذه المشكلة؛ من أجل تفتيت الكيان القومي العربي. لقد أصبح من الضروري أن نعيد النظر إلى هذه المشكلة من منظور معلوماتي، وفي ظل التوجهات الحديثة لعلم اللسانيات الاجتماعية وعلم الإناسة الرمزية. ومهما تعددت اللهجات العربية، لا يمكن مقارنتها بحدة التعدد اللغوي لبلد واحد مثل نيجيريا (400 لهجة) وأثيوبيا (80 لهجة) وجنوب أفريقيا (11لهجة ولغة) والهند(18 لغة)، ويجوز لنا أن نضيف هنا العدد الهائل من لهجات اللغة الصينية، واختلافها عن لهجة أهل بكين. وقناعة الكاتب الراسخة أن التكتل الثقافي العربي، تسانده وسائل الإعلام الحديث، لقادر على التغلب على هذه المشكلة، وإحياء اللغة العربية الفصحى كرابطة العقد بين اللهجات العربية المختلفة، وللحديث بقية في الفقرة 3:3:7 من الفصل السابع.

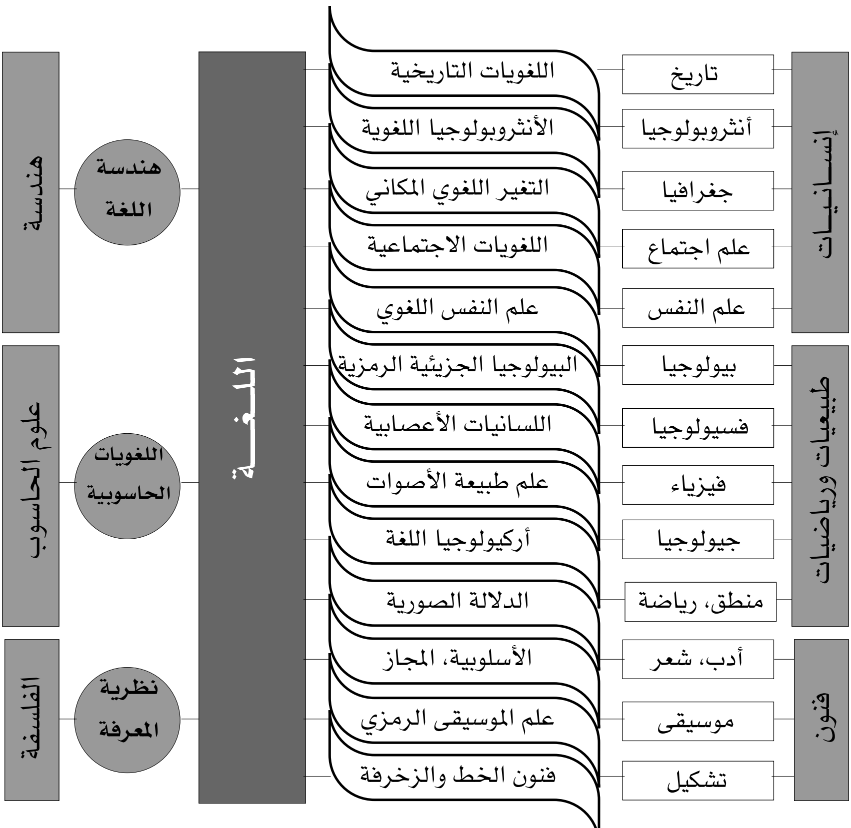
(د) **العربية وتواصل عصر المعلومات:** أغفلت معظم دراساتنا اللغوية جوانب استخدام اللغة وظيفيا، بمعنى استخدامها في مسار الحياة الواقعية، استخدامها في إبداء الآراء والدفاع عنها، وفي عمليات التبادل والتفاوض والتراسل والتهاتف، وهلم جرا. يتضح ذلك، بصورة سافرة، في ضعف مهارات الاتصال لدى الغالبية منا: كتابة وقراءة وشفاهة واستماعا. وليس هذا- حتما - نتيجة قصور في العربية؛ فهي تمتلك العديد من الخصائص والأدوات التي تؤهلها لتكون لغة حوار فعالة. إننا مازلنا أسرى اللغة المكتوبة غير ملمين بالعلاقات اللغوية والتداولية والمقامية التي تربط بين أدائنا الشفهي وأدائنا الكتابي، ويتجلى ذلك - بوضوح - في أساليب حوارنا وتفاوضنا.

5: 2 علاقة اللغة بفصائل المعرفة

5: 2: 1 موقع اللغة في خريطة المعرفة (الطرح العام)

تتبوأ اللغة موقعا بارزا على خريطة المعرفة الإنسانية، يزداد أهمية يوما بعد يوم. يلخص الشكل (5: 1) شبكة العلاقات التي تربط اللغة بفروع المعرفة المختلفة. وكما هو واضح من الشكل، ترتبط اللغة بعلاقات وثيقة مع الفلسفة والعلوم الإنسانية والطبيعية، وكذلك مع الفنون بأنواعها. وقد أقامت اللغة - أخيرا - علاقة وطيدة مع الهندسة؛ وذلك من خلال هندسة

الذكاء الاصطناعي التي تساهم فيها اللسانيات الحاسوبية computational linguistics بقسط وفير. ويزعم الكاتب أن اللغة تنفرد ـ من دون منافس ـ بمثل هذه الشبكة الكثيفة من العلاقات المعرفية. إن موقعها الفريد هذا على خريطة المعرفة الإنسانية، ليؤكد كونها ركيزة أساسية للمعرفة على اختلاف أنواعها، وكذلك كونها وسيلة لا غنى عنها لفهم تاريخ تطور الفكر الإنساني، وتحليل مظاهر حاضره، واستشراف مستقبله. خلاصة القول: أينما يكن مسلكك في دنيا المعرفة، فابحث عن اللغة: قمة العلوم الإنسانية ورفيقة العلوم الطبيعية، وركيزة الفلسفة عبر القرون، ورابطة عقد الفنون، ومحور تكنولوجيا المعلومات، وهندسة معرفتها ولغات برمجتها.



الشكل (5 : 1) موقع اللغة على خريطة المعرفة

موقع اللغة على خريطة المعرفة (المنظور العربي)

نحن في مسيس الحاجة إلى نظرة أشمل إلى اللغة العربية، وعلاقتها بفروع المعرفة المختلفة. وحرصا على عدم تبديد الوقت والجهد، نوصي أن نركز في ذلك على الجوانب الخاصة التي تميز اللغة العربية عن باقي اللغات، ونكتفي هنا بمثالين:

- المثال الأول: العلاقة بين نظام الصرف العربي وثرائه الاشتقاقي، الذي لا تدانيه لغة أخرى من لغات العالم، وبين علم البيولوجيا الجزيئية القائمة على لغة الجينات وعلم نفس الذكاء، فيما يخص التناظر بين توليد المشتقات صرفيا والتوليد البيولوجي، وتوليد المفاهيم.

- المثال الثاني: العلاقة بين فنون الخط العربي، والفنون التشكيلية وهندسة الديكور والمعمار.

يتطلب توثيق علاقة اللغة العربية بفروع المعرفة المختلفة، إعداد فريق من الباحثين من ذوي القدرة على عبور حواجز التخصصات النوعية وتعددها. وحتى نضمن فاعلية الجدل العلمي بين هؤلاء الباحثين، ذوي التخصصات المختلفة، يجب إعطاؤهم خلفية عامة مشتركة نقترح بشأنها الموضوعات الرئيسية التالية:

- التوجهات العامة للسانيات الحديثة.
- فقه اللغة العربية وخصائصها.
- تراثنا اللغوي من منظور علم اللغة الحديث.
- فلسفة اللغة.
- هندسة النظم.
- تكنولوجيا المعلومات من منظور لغوي.

5: 2: 2 اللغة من الخضوع إلى الإخضاع (الطرح العام)

كما هو متوقع، تختلف طبيعة علاقة اللغة بكل فرع معرفي، وفقا لطبيعة هذا الفرع ومجال تخصصه ومناهجه. على الرغم من هذا الاختلاف، إلا أن مسار تطور العلاقة بين اللغة، وفروع المعرفة، قد اتخذ ـ في رأي الكاتب ـ نمطا يكاد يكون موحدا. ففي بداية العلاقة، غالبا ما تكون اللغة هي الطرف الخاضع لنهج الفرع المعرفي الذي تتفاعل معه، إلا أنها سرعان ما

تنتقل، من جانب الخضوع، إلى جانب إخضاع فرع المعرفة ذاته لنهجها. ففي سعيها إلى الارتقاء إلى مصاف العلوم الدقيقة، كان من الطبيعي أن تقترض اللغة مناهجها من العلوم التي سبقتها في هذا المنهج، ولكن ما أسرع ما استحدثت اللغة لنفسها نهجا خاصا بها، على درجة عالية من التأصيل والشمولية، جعلت هذا النهج قادرا على استقطاب الطرف الآخر. ولا يبدو ذلك مستغربا؛ إذا ما أدركنا أن اللغة كانت ـ وستظل ـ وراء كل معرفة، وكل خبرة اكتسبها الإنسان. لذا، فمن غير المنطقي، أن «يخضع العام اللغوي» إلى «الخاص المعرفي». إن استيعاب الفروع المعرفية في نطاق الأصل اللغوي، لا يبدو ـ في ضوء ما سبق ـ منطقيا فقط، بل ضروريا أيضا؛ وذلك حتى يتسنى لهذه الفروع أن تتفاعل ـ من خلال رابطة اللغة ـ مع بعضها البعض، في تناغم علمي تكنولوجي. وبإيجاز، لقد ارتقت اللغة من كونها تابعا علميا، وفرعا معرفيا متخصصا. إلى أن أصبحت نهجا علميا عاما، يمكن تطبيقه على العديد من الفروع المعرفية، وسنحاول فيما يلي استخلاص الدلائل دعما لما نزعمه من عمومية النهج اللغوي.

اللغة من الخضوع إلى الإخضاع (المنظور العربي)

سنكتفي هنا بمثال وحيد عن علاقة اللغة العربية بالمنطق. لقد سعى السلف إلى إخضاع اللغة العربية لمنطق أرسطو. ولا شك في أنها كانت محاولة جسورة لكنها لا تخلو ـ في رأينا ـ من التعسف أو القسر العلمي. حجتنا في ذلك أنه لا يمكن إخضاع اللغة لهذا التقابل شبه الميكانيكي بين قواعدها، التي تتسم بالمرونة والتنوع، وصيغ المنطق الأرسطي الصوري، منطق الرتبة الأولى first order logic، كما يصنفونه حاليا، وهو المنطق الذي يتسم بالصرامة والقطع. لقد سعى السلف إلى توثيق علاقة العربية بالمنطق كركيزة أساسية لتوثيق علاقة اللغة بالمعرفة عموما، وبعلوم الفقه والدين بصفة خاصة، ولم يحدهم في مسعاهم هذا، إلا قصور نسق المنطق المتاح لهم آنذاك. ويتساءل الكاتب هنا: لماذا توقف لغويونا المحدثون عن استكمال مسيرة سلفهم الجسور، بعد أن توافرت لديهم رتب أعلى، وأكثر مرونة ورحابة، من المنطق الأرسطي القاطع الصارم، وذلك أسوة بما يقوم به أقرانهم، من أهل الإنجليزية والفرنسية على سبيل المثال، في تمثيل لغاتهم

منطقيا (8:247)، إن «تمنطق» اللغات بات خطوة ضرورية حتى تدين معالجتها بواسطة نظم الذكاء الاصطناعي، وآلات استنتاجها المنطقي inference machines .

5: 2: 3 علاقة اللغة بالفلسفة (الطرح العام)

(أ) **رفقة دائمة**: بصورة عامة، يمكن القول إن علاقة اللغة بالفلسفة تنبثق من علاقة كلتيهما بالفكر. ومنذ نشأة الفلسفة، وهي في رفقة حميمة مع اللغة دامت ونمت على مر العصور، من محاورات سقراط ومنطق أرسطو ، وانتهاء ببنيوية شتراوس وتفكيكية جاك دريدا، وألعاب اللغة في فكر ما بعد الحداثة. وخلال هذه الرفقة الطويلة نضجت العلاقة من مستوى التبادل المعرفي، المتمثل في « ثنائية اللغة كأداة للفلسفة والفلسفة كأداة للغة» ، إلى أن وصلت إلى شبه الانصهار الكامل، كما سنوضح في البند(ج).

(ب) **اللغة كأداة للفلسفة**: كان من الطبيعي، أن تركن الفلسفة إلى اللغة كبديل وحيد أمامها للتعبير عن مقولاتها، قبل ارتقاء الفكر الصوري المجرد، سواء الرياضي أو المنطقي، إلى الدرجة التي تسمح بتطبيقه في المجال الفلسفي. لقد وجدت الفلسفة في اللغة أداتها المثلى، إن لم يكن لشيء، فلكون اللغة وسيطا بين الذاتية والموضوعية. فاللغة هي حلقة الوصل بين الذات العارفة، أو المعرّفة، وما تسعى إلى معرفته أو تعريفه من موضوعات خارجها. وكما هو معروف، فإن ثنائية «الذات ـ الموضوع»، هي إحدى الإشكاليات الرئيسية للفكر الفلسفي.

لقد تصور فلاسفة الماضي، إمكان مطابقة العقل مع الواقع باستخدام الكلمات بصورة دقيقة ومنضبطة، يفسر ذلك انشغال فلاسفة الإغريق برموز اللغة ومعانيها، وما قام به أرسطو من تصنيف وتضيف لأقسام الكلم ودلالات الأفعال، وهو ما يمكن اعتباره مثالا لمحاولة فلسفة القدماء إخضاع اللغة إلى نوع من التجريد والضبط حتى تسلس كأداة للتحليل الفلسفي. لكن من أين لهم تلك المطابقة المنشودة بين العقل والواقع! فقد ظلت معضلة المعنى اللغوي لغزا محيرا للفلاسفة عبر القرون. وكانت كل محاولة لاحتواء هذه المعضلة تنقلهم، من إشكالية أضيق وأبسط، إلى إشكالية أشمل وأعقد، حتى قرر فيتجنشتاين المضي قدما في وضع نظرية للمعنى من دون الحاجة

إلى فهم ما هو المعنى أصلا. وعلى الرغم من حيرتهم الشديدة تلك، تظل اللغة ـ دوما ـ مدخلا رئيسيا للفكر الفلسفي . هذا عن شأن اللغة والفلسفة فيما خلا، أما بالنسبة إلى دور اللغة في الفكر الفلسفي المعاصر فنحيل القراء إلى الفقرة 4: ا : 2 من الفصل السابق.

(ج) **الفلسفة كأداة للغة:** كان لجوء اللغة إلى الفلسفة بدافع حاجتها إلى نهج معرفي paradigm ترقى من خلاله إلى مصاف العلوم الدقيقة، فوجد دي ـ سوسير، مؤسس علم اللغة الحديث، في فلسفة بيرس الرمزية مدخله لصياغة العلاقة اللغوية المحورية التي تربط بين الرمز اللغوي ومدلوله، ومن بعده، يأتي نعوم تشومسكي، صاحب أكبر مدرسة في التنظير اللغوي المعاصر بلا منازع، ليتخذ من فلسفة كانط أساسا لتنظيره اللغوي. فكما سبق وأن أشرنا في الفقرة 4:ا :ا ، افترض كانط وجود قدرة ذاتية كامنة في العقل الإنساني، وهي الفرضية التي أقام عليها تشومسكي نموذجه الذهني، وذلك بديلا للنموذج السلوكي الذي ساد من قبله على يد سكينر وتابعيه. لقد افترض تشومسكي في نموذجه أن هناك «ملكة» أو «غريزة» لغوية تتوارثها أجيال البشر (20:295). وفي غياب الوسائل العملية لإثبات صحة هذه الفرضية، لجأ تشومسكي إلى التجريد الفلسفي كي يبرر وجود مثل هذه الغريزة، ومن أجل أن يفسر الكيفية التي يكتسب بها الأطفال لغتهم الأم، بتطويع هذه الغريزة للمطالب الخاصة للبيئة اللغوية التي ينشأون فيها. وما إن استحالت اللغة ، في إطار هذا النموذج الذهني، إلى غريزة بشرية، حتى أصبح من الضروري أن تتصف هذه الغريزة، كباقي الغرائز، بخصائص عامة يشترك فيها البشر كافة، على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وبيئاتهم الاجتماعية. وهنا يبرز مفهوم «النحو الفلسفي» كما أطلق عليه البعض، الذي وضع أسسه تشومسكي، كأداة لتفسير «عمومية» هذه الغريزة اللغوية. لقد قام هذا النحو الفلسفي على عدد محدود من المبادئ والقواعد والقيود المجردة، يمكن من خلالها الحكم على صحة الجمل نحويا، وكذلك تحديد القواسم المشتركة بين لغات العالم، وتفسير ظواهر الاختلاف بينها.

لقد اتخذت نظريات تشومسكي اللغوية من النحو، أي التركيب، محورا لها، وهو المنحى النظري الذي يعارضه أهل الدلالة اللغوية، من أمثال فيلمور ولاكوف ومنتاجيو، فهم يرون ضرورة اعتبار المعنى، لا التركيب، هو

المدخل الطبيعي لتناول إشكالية اللغة. ومرة أخرى، يعاود اللغويون الكرة في اللجوء إلى الفلسفة؛ بحثا عن مناهل جديدة لتناول معضلة المعنى. فمن المعروف، أن دراسة المعنى قد تطورت، على أيدي الفلاسفة، أكثر مما فعلت على يد اللغويين.

(د) **اندماج اللغة والفلسفة:** حاولت الفلسفة أن تفلت من قبضة اللغة، وذلك من خلال توثيق علاقتها بالرياضيات على أيدي فلاسفة من أمثال ديكارت وليبنتز، وعن طريق المنطق الرمزي على يد فريج. لقد استهدفت الفلسفة، من وراء ذلك، أن تصنع لنفسها لغة مجردة خاصة بها، لغة تخلو من لبس اللغات الطبيعية وغموضها، وكذلك مما ترسب في هذه اللغات عبر الأزمنة من انطباعات تقترب ـ أحيانا ـ من مستوى الأيديولوجيات. وكان أن أسرف الفلاسفة في تجريدهم الرمزي، حتى وصل الأمر إلى أن أحالوا الجماليات إلى رياضيات، وجعلوا للأخلاقيات ضربا من الحساب. ولم تكن لهذه النزعة الفلسفية ذات الطابع «اللالغوي» أن تستمر، فقد أتى فيتجنشتاين وهوسرل ليعيدا إلى اللغة مجدها الفلسفي التليد؛ وذلك بأن جعلا من ثنائية «الذات ـ الموضوع» ثلاثية محورها وسيط اللغة، هذا الوسيط المعرفي الذي لا يمكن تجاهل دوره في إقامة الصلة بين حقائق الواقع والذات التي تستوعبها، أو تعبر عنها. وهكذا انتقل مركز الثقل الفلسفي من المعرفة إلى اللغة، ومن دراسة الوجود إلى دراسة كيف ينشأ معنى الوجود، وأصبح النحو بمعناه الواسع بديلا للمنطق وصار شاغل الفلسفة ـ بعد أن طُرحت الميتافيزيقا جانبا ـ هو معنى الظواهر لا الظواهر نفسها.

نهي هذه الفقرة عن الاندماج الحادث بين اللغة والفلسفة، بما صرح به كارل بوبر، بعد سماعه محاضرة عن البيولوجيا الجزيئية، حيث قال: إن علينا أن نقيم فلسفة علم جديدة، محورها البيولوجيا، بدلا من تلك الحالية التي تنطلق ـ أساسا ـ من الفيزياء. مغزى هذا التوجه أن الفلسفة ستلتقي ـ مرة أخرى ـ مع اللغة على جبهة أكثر سخونة وتفصيلا، مع اللغة وهي تمارس سلطتها، لا على مستوى الأيديولوجيا، بل على مستوى البيولوجيا الجزيئية، ولغة جيناتها .

نستخلص من هذه الملحمة المعرفية لحوار اللغة مع الفلسفة، أن اللغة

قد انتقلت من دور المقترض من الفلسفة، إلى كونها مدخلا أساسيا للبحث الفلسفي.

علاقة اللغة بالفلسفة (المنظور العربي)

(أ) **ضرورة عودة الوصال بين العربية والفلسفة:** شهدت نشأة الفلسفة الإسلامية لقاء مثيرا ومثريا بين اللغة، ممثلة في علم الكلام، وفلسفة الإغريق التي أحسن الفكر الإسلامي استقبالها. وقد تناول كثيرون هذا الجانب من فلسفة السلف. ما يهمنا هنا، هو: كيف يعود الوصال بين اللغة العربية والفلسفة بعد طول انقطاع؟ علينا أن نقر - بداية - أنه لم يحدث التراكم الفكري الذي يسمح لنا بالتعمق في علاقة اللغة بالفلسفة، وهي العلاقة التي صارت من أهم ركائز فكر ثقافة المعلومات، ذي التمركز اللغوي. وتساؤلنا هنا: هل الحل إزاء هذا، أن نستعير من الفكر العربي مناهجه من دون نتائجه، أم تقتنص من مضمون هذا الفكر ما يتلاءم مع فكرنا لنقيم عليه مناهج خاصة بنا؟ ولا يدعي الكاتب القدرة على إجابة هذا السؤال، ويكتفي في شأنه ببعض مقترحات ترمي إلى إعادة بناء الجسور، بين فكرنا الفلسفي وفكرنا اللغوي:

- التوسع في تدريس اللسانيات الحديثة في أقسام الفلسفة، والتوسع في تدريس الفلسفة في أقسام اللغات، خاصة نظرية المعرفة وفلسفة اللغة.

- تحليل دقيق للمدارس الفلسفية المعاصرة، والتي سبقت الإشارة إليها في الفقرة 4: 1: 2 من الفصل الرابع. وذلك من منظور اللغة العربية، ونقصد بذلك مضاهاة خصائص اللغة العربية مع الجوانب اللغوية التي تعرضت لها هذه المدارس الفكرية.

- دراسة كيف نجح الفكر اللغوي، الفرنسي والإنجليزي، الحديث في إقامة صلات وثيقة بين لغتيهما والمنطق الحديث ذي الرتب الأعلى متجاوزا بذلك منطق أرسطو بصوريته وصرامة قطعيته.

(ب) **اللغة كأداة للفكر الفلسفي العربي:** باستثناء نزر قليل من رواد الفكر الفلسفي العربي المعاصرين[*7] يمكن القول إن فكرنا الفلسفي في سمته الغالب لم يتخذ بعد من اللغة ركيزة أساسية له؛ وذلك على الرغم من الدور الخطير الذي لعبته اللغة العربية في فكر العرب وتاريخهم، فكما قال

شيخنا أمين الخولي «ما من علة في فكرنا، إلا ووراءها علة لغوية». وحتى في مقام الهجوم على الفلسفة، كانت اللغة هي منطلق الغزالي في «تهافت الفلاسفة» حيث انصب نقده لفكر ابن رشد على الجانب اللغوي؛ فتهافت ابن رشد ـ كما يرى إمامنا ـ ناجم عن قضايا لغوية لا فكرية.

مرة أخرى، ومع اقتراب التكنولوجيا من المناطق الحميمة لفكر الإنسان ووجدانه وخلاياه، ستتفجر ساحتنا الفكرية قضايا فلسفية ذات أبعاد لغوية، وهو ما يفرض على فلاسفتنا المحدثين أن يولوا اهتماما أكبر لدور اللغة الفلسفي.

(ج) **الفلسفة كأداة للغة:** تظهر حاجة الفكر العلمي إلى فلسفة كلما اقترب هذا الفكر من مشارفه القصوى، أو عندما يصطدم بعقبات منهجية أو موضوعية، يصعب احتواؤها في النظريات القائمة بالفعل. حيث إننا لم نلحق بعد بالثورة العلمية التي حدثت، وتحدث، في الغرب في مجال اللسانيات منذ منتصف الخمسينيات، خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية؛ ففكرنا اللغوي سيظل ـ بالتالي ـ بمنأى عن اقتحام عالم الفلسفة؛ فأين هي تلك المشارف القصوى وتلك العقبات التي تستحثه على فعل ذلك؟ يود الكاتب ألا نستسلم لمثل هذه الاستنتاجات المنطقية، أو التي تبدو كذلك في ظاهرها. دافعه إلى ذلك، أن معظم الفكر اللغوي الحديث، خاصة ذلك الذي يدور حول نظريات تشومسكي، قد انطلق من اللغة الإنجليزية كنموذج لغوي نمطي يقام عليه صرح العمومية اللغوية التي تجب جميع اللغات. وراح كثير من منظري اللغات الأخرى يحذون حذوه، بما لا يخلو من تعسف نظري أحيانا[*8]. والموقف بالنسبة إلى العربية أشد حرجا لكونها عضو أسرة اللغات السامية التي تختلف عن اللغة الإنجليزية، عضو أسرة اللغات الهندوأوروبية، اختلافا جوهريا: صرفيا ونحويا ومعجميا. لذا يرى الكاتب أن لا فكاك من النهج اللغوي القائم على النموذج الإنجليزي، في تنظير العربية، إلا باللجوء إلى الفلسفة بحثا عن مناهل نظرية حديثة. مما يشجعنا على ذلك، أننا لن نكون وحدنا في هذا التوجه حيث يشاركنا فيه كثيرون من أهل الدلالة اللغوية المناهضين لفكر تشومسكي. ومن هذا المنطق، يصبو الكاتب إلى حوار جاد بين فلاسفتنا ولغويينا حول مسألة المجاز اللغوي؛ فهي لم تحظ ـ في رأيه ـ بما تستحقه من دراسة في فكرنا الحديث، خاصة

في ضوء ما يحدث حاليا في مجال علم الدلالة وعلم النص وعلم المعاجم والتوليد المعجمي. لقد أصبح هذا واجبا ملحا حتى لا يظل المجاز، بصفته الوسيلة اللغوية الأساسية في توسع المعنى، والفكر بالتالي، بعيدا عن متناول الفكر العربي الحديث. ويناظر ذلك، من حيث الأهمية، ضرورة إعادة قراءة تراثنا اللغوي من منظور حديث. نريد أن نرى بلاغة الجرجاني، وقد كشف عن مكنون «أسرارها ودلائل إعجازها»، بوضعها تحت مجهر الدلالة الصورية formal semantics القائمة على الرياضيات المنطقية، ونتوق كذلك إلى مقارنة يعقدها بعضنا ما بين فكر سيبويه المعتزلي، وفكرنا اللغوي الحديث ذي الطابع الانعزالي.

5: 2: 4 علاقة اللغة بالعلوم (الطرح العام)

(أ) **علاقة اللغة بعلم النفس:** استحالت اللغة في نظر سكينر، صاحب النزعة السلوكية المحضة في علم النفس المعرفي، إلى نظام لاكتساب العادات، أو نوع من أنواع السلوك، السلوك الشفاهي كما يطلقون عليه، لا يختلف عن غيره من أنواع السلوك الأخرى، يكتسبه الفرد من خلال الخبرة، ومن خلال التجربة والخطأ. ولا شك في أن اللغة ـ كعهدنا بها دائما ـ لا تخضع لمثل هذا الاختزال المسرف القائم على الثنائيات الجامعة المانعة، التي تطمس الكثير من جوانب الإشكالية، وما سعى إليه سكينر، هو محاولة لإخضاع اللغة ـ قسرا ـ لثنائية «المثير ورد الفعل». لقد أغفل بذلك بيت القصيد حيث يكمن السر اللغوي، ونقصد بذلك الآليات التي تربط بين طرفي هذه الثنائية، وهو ماطرحه سكينر جانبا، عندما افترض عدم وجود أي وسيط يربط بينهما (304: 85)، ليربط بذلك بين المثير ورد الفعل بصورة مباشرة، من دون اعتبار لما يحدث بينهما داخل العقل. فاللغة تختلف اختلافا جوهريا عن أنواع السلوك الأخرى، حيث تقوم كما أسس لها دي ـ سوسير وتشومسكي من بعده، على بنية عميقة قوامها نسق معرفي كامن في العقل، يربط بين مدخلات اللغة (المؤثرات) ومخرجاتها (ردود الأفعال).

في إطار هذا المنحى المعرفي حدد تشومسكي ثلاثة أسئلة محورية، كان لها أعظم الأثر في علم النفس المعرفي (304: 19).

ـ ما هو نسق المعرفة هذا؟ ويقصد بذلك: ماذا بداخل عقل الإنسان من

معارف لغوية؟

ـ كيف ينشأ هذا النسق؟ أو كيف يكتسب الطفل لغته الأم؟

ـ كيف توظف هذه المعرفة في النطق والكتابة؟ وكيف تتولد المنطوقات بصورة غير محدودة؟ أو بقول آخر، ما السر وراء الخاصية الإبداعية للغة التي تجعلها قادرة على توليد عدد لانهائي من التعابير اللغوية؟

لقد اقترض علم النفس من علم اللغة هذا التوجه البنيوي التوليدي بافتراضه وجود بنية عميقة داخل المخ البشري، لمعالجة المعلومات، اللغوية وغير اللغوية، بنية متعددة المستويات من حيث البعد أو القرب من طبقة اللاوعي. ولا تقتصر أهمية علم النفس اللغوي على نطاق اللغة فقط، حيث يتوقع الكثيرون أن تصبح آليات الذهن اللغوية مدخلا عاما لفهم طبيعة عمل الآليات الأخرى، كالإدراك البصري والحدس وخلافه. السبب في ذلك أن اللغة تتسم بخاصية مهمة تميزها عن آليات الذهن الأخرى، ويقصد بذلك إمكان محاصرة اللغة بدءا من مدخلاتها حتى مخرجاتها؛ حيث يمكن لنا أن نتتبع مسارات النشاط اللغوي من طرفيه: النطق والسمع، توليد الكلام وفهم الكلام، الكتابة والقراءة، الخطأ اللغوي والتصويب اللغوي، وهلم جرا. لذا، يأمل علماء النفس وعلماء الفسيولوجي أن يؤدي كشف النقاب عن النشاط اللغوي لمخ الإنسان ـ ولو جزئيا ـ إلى إلقاء الضوء على السر الذي أودعه الخالق المخ البشري. وهكذا تحولت، اللغة من مجرد نوع من أنواع السلوك الشفاهي إلى أساس لعلم النفس المعرفي بأكمله.

(ب) علاقة اللغة بالبيولوجي: من الطبيعي أن تكون علاقة اللغة بالبيولوجي أكثر علاقاتها العلمية إثارة وأهمية، وذروة العلاقات المعرفية بلا جدال؛ فهي تمثل لقاء اللغة، قمة العلوم الإنسانية، مع البيولوجي الذي يتسنم ذروة العلوم الطبيعية. بقول آخر: تمثل هذه العلاقة اللغوية ـ البيولوجية أقصى صور المواجهة المباشرة بين اللامادي والمادي. وبين الرمزي والعضوي. وبينما سادت اللغة على فروع المعرفة الأخرى ـ كما أوضحنا سابقا، وما سنعززه بالمزيد من الدلائل لاحقا ـ يسود العلاقة بين اللغة والبيولوجي طابع التكافؤ. فعلى جانب البيولوجي، تكمن اللغة في صلب العملية البيولوجية، أي في صلب نواة الخلية ممثلة في لغة الوراثة. لقد اقترض علم الوراثة من اللغة كثيرا من أسسها، فقد جر الكود الوراثي وراءه سلسلة

من المفاهيم اللغوية، نذكر منها على سبيل المثال: الجملة الوراثية ـ النص الوراثي ـ النحو الوراثي ـ الفائض الوراثي ـ المعجم الوراثي ـ الخطأ الوراثي ـ وما شابه، وربما نسمع عما قريب عن بلاغة وراثية ومحسنات بديعية وراثية. على الجانب المقابل، يحمل البيولوجي مفتاح السر اللغوي، فربما لا يكون سبر أغوار إشكالية اللغة ـ كما يقول تشومسكي ـ من خلال الرياضيات والمنطق بل من خلال البيولوجي مطبقا في علم اللسانيات الأعصابية neurolinguistics (742: 8). يسعى هذا العلم إلى كشف طبيعة عمل الآليات الفسيولوجية اللغوية التي تمثل ـ إن جاز القول ـ عنصر العتاد hardware، أو الشق المادي الذي يبنى عليه الشق اللامادي software، ونقصد به النسق المعرفي اللغوي داخل الذهن البشري. ويأمل الجميع أن يمدنا علم اللسانيات الأعصابية بالشواهد العلمية والعملية التي تؤكد، أو تقوض، صحة الافتراضات التي قام عليها علم اللسانيات الحديث. ولا شك في أن التقدم في فهم العلاقة اللغوية ـ البيولوجية ستكون له آثاره العميقة في كثير من المجالات العلمية والتكنولوجية، خاصة في مجالي التربية وتكنولوجيا صناعة الكمبيوتر ونظم الاتصالات. فعلى صعيد التربية، ربما نصل من خلاله إلى نوع من الإجابة عن السؤال الحاكم: كيف يتعلم الإنسان، وكيف يدرك الأشياء من حوله؟ وكيف يذكر ويتذكر وينسى ويتناسى؟ وما أهم الوسائل التي تزيد من فاعلية التعليم بهدف إسراعه، وزيادة قدرة المتعلم على استيعاب ظواهر التعقد؟ أما على صعيد صناعة الكمبيوتر والاتصالات، فالتقدم الحاسم فيه رهن، هو الآخر، بمدى فهمنا للعلاقة اللغوية ـ البيولوجية، وقدرة مهندسي الكمبيوتر واللغة معا، على محاكاة آليات الذهن، التي يمكن من خلالها تطوير نظم معلومات أكثر ذكاء وقدرة ونظم اتصالات أكثر حساسية وتجاوبا.

(ج) **علاقة اللغة بالرياضيات:** لكي تتضح لنا الصلة بين الرياضيات وعلوم اللغة، علينا أن نتخلص من أسر الرياضيات التقليدية، كما علمنا إياها إقليدس؛ لننظر إلى الرياضيات بمغزاها الواسع، أي بصفتها علم التعامل مع المفاهيم الصرفة والمجردات والعلاقات التي تربط بينها. في الوقت ذاته الذي ندرك فيه مدى ما تزخر به منظومة اللغة من مفاهيم ومجردات وعلاقات.

تمثل اللغة للرياضيات تحديا قاسيا، فكيف للرياضة القاطعة أن تتعامل مع غموض اللغة ولبسها وتميعها وفائضها؟ لقد ظلت اللغة من دون الخضوع للمعالجة الرياضية، حيث عجزت رياضيات إقليدس عن تناول إشكالية اللغة، خاصة ما يتعلق بظاهرتهاالإبداعية التي تكمن وراء قدرة الناطقين بها على توليد عدد لانهائي من الجمل. ترجع هذه الظاهرة إلى خاصية أساسية للتعبير اللغوي، يعبر عنها ـ رياضيا ـ بمصطلح التداخل الحلقي recursion، ويقصد به أن الجملة الفعلية ـ على سبيل المثال ـ يمكن أن تتضمن شبه جملة اسمية، في الوقت ذاته الذي يمكن لشبه الجملة الاسمية هذه أن تتضمن جملة فعلية أو أكثر، وهكذا؛ ولنعط مثالا مبسطا لذلك : جاء الرجل الذي قابلْنا أخا له يعمل في المؤسسة التي ...[*9]

ظل هذا التكرار الحلقي حجر عثرة أمام إقدام أهل الرياضيات على تناول إشكالية اللغوي، فظلت دون حسم، إلى أن وضع برتراند رسل أسس النظرية الصورية للغة Formal Theory of language، التي كانت مدخلا أساسيا لتطوير اللغات الاصطناعية لبرمجة الكمبيوتر، ومهدت الطريق لكي يقيم تشومسكي نموذجه الرياضي للغات الإنسانية. لقد أحال النحو التوليدي، الذي أقامه تشومسكي، النحو اللغوي إلى سلسلة من القواعد، أو المعادلات، التي يمكن من خلالها توليد جميع التعابير اللغوية الممكنة، على عكس ما عهدناه سابقا في النحو التقليدي، الذي يكتفي بإعطاء أمثلة من حالات الاطراد والشذوذ، والتي ـ مهما تعددت ـ لا يمكن أن تغطي لانهائية اللغة. وللحديث بقية في الفقرة 3:3:5: من هذا الفصل.

(د) **علاقة اللغة بالمنطق**: لسنا بحاجة إلى تأكيد العلاقة الوثيقة بين اللغة والمنطق؛ وقد تحدث كثيرون عن علاقة نحو اللغة العربية بمنطق أرسطو ذي الطابع القاطع، والذي تعزى إليه النزعة الاطرادية لدى معظم نُحاتنا القدامى في سعيهم الحثيث إلى تفسير الشاذ اللغوي في إطار المطرد. وعلى مر العصور، وحتى يومنا هذا، يحاول البعض دون جدوى إخضاع اللغة لمنطق أرسطو، منطق الرتبة الأولى First Order Logic، فكيف تخضع اللغة لهذا المنطق الصوري القاطع الذي تستحيل فيه المقولات اللغوية إلى مجردات لا صلة لها بالواقع الذي تعبر عنه ...؟ لقد فشل منطق أرسطو ذو الرتبة الأولى في التعامل مع اللغة بغموضها واحتمالاتها ولبسها،

وفي أن يتناول الحدث اللغوي في زمنيته وانفعالاته وبراجماتياته. ودعونا نتمادَ قليلا في تساؤلاتنا:

- كيف لهذا المنطق الصوري المنقطع الصلة بالعالم الخارجي أن يتعامل مع اللغة وثيقة الصلة بهذا العالم؟ وكيف يفسر لنا - وهذا أمره - علاقة المقال بالمقام؟ وكيف له أن يتعامل مع اعتباطية العلاقة التي تربط بين اللفظ وما يدل عليه؟ نحن - إذن - في حاجة إلى «منطق امتدادي Extentional Logic» لقيم همزة الوصل بين مجردات المنطق وواقع اللغة.

- وكيف لهذا المنطق الصوري القاطع أن يتعامل مع الظواهر اللغوية غير القاطعة، مع المحتمل، والعارض، والواجب، والجائز، ومع المفروض والمتوقع، ومع درجات الشك واليقين؟ نحن - إذن - في حاجة إلى «منطق طوري modal logic» يخفف من حدة القطع التي يتسم بها منطق الرتبة الأولى، منطق يستأنس ألفاظا من قبيل «ربما، ومن الجائز، وفي أغلب الظن، وفي المتوسط» بقدر يقل أو يزيد، وما شابه.

- وكيف لهذا المنطق القاطع الذي لا يتعامل إلا مع فعل الكينونة في حالة المضارع (All humans are mortal, Socrates is a human, Socrates is mortal) أن يعبر عن ظاهرة الزمن في اللغة سواء من حيث ارتباط زمن الفعل، ماضيه ومضارعه، بزمن الحدث، منصرمه وراهنه وقادمه، أو من حيث البنية الزمنية الداخلية للفعل ذاته، ونقصد بذلك الشروع في الفعل والانتهاء منه، وتكراره واستئنافه واستمراره وتدرجه[*10]، وغير ذلك مما يطلق عليها أهل اللغة مصطلح السمات الجهوية aspectual features. نحن - إذن - في حاجة إلى «منطق زمني Tens logic».

- وكيف يفسر لنا هذا المنطق، الصوري القاطع، اختلاف القصد؟ عندما نهجو ونحن في مقام المديح، وعندما نسخر في مقام الجد، وعندما تستخدم الصفات ذاتها على الرغم من اختلاف دلالتها وفقا لما تقترن به من موصوفات، فكيف نميز الفرق بين دلالة معنى «الصغر» في «فأر صغير» و «فيل صغير»، وبين معنى «الحدة» في «سكين حاد» و «نظرة حادة»، معنى العظمة في «دولة عظيمة» و «حدث عظيم». . نحن - إذن - في حاجة إلى منطق نوايا intentional logic.

وهكذا فرضت اللغة على منطق أرسطو ضرورة تخلصه من قطعيته

وصوريته ولا زمنيته، ضرورة أن يتخلص من برودته وانعزاليته، ليتعامل مع حرارة الواقع وتضاريسه وتفاصيل كائناته وأحداثه. وهكذا تفرع منطق الرتبة الأولى لأرسطو، تحت ضغط المطالب اللغوية، إلى شجرة مورقة من فروع منطق الرتبة الأعلى higher order logics.

ويقيننا، أن حديثنا عن منطق أرسطو ذو طابع استرجاعي retrospective، ولا نود أن نترك لدى القراء انطباعا خاطئا أننا قد أصبحنا في غير حاجة إلى منطق الأصل، منطق أرسطو؛ فهو منطق الأساس الذي يوفر لنا الأولويات المنطقية، والتي يتعذر من دونها إقامة أنساق منطقية أعلى رتبة.

(هـ) علاقة اللغة بعلم الإحصاء: استخدام الإحصاء، منذ نهاية القرن الماضي، في تحليل بعض الظواهر اللغوية البسيطة، كاستخدام معدلات تواتر الحروف والألفاظ والصيغ بصدد تحليل أساليب الكتاب ووضع نظم لأغراض التعمية encryption والتشفير وخلافه. على الرغم من الأهمية العلمية لهذه الاستخدامات إلا أن العلاقة العلمية، بين اللغة والإحصاء، لم تنشأ إلا في منتصف القرن المنصرم؛ وذلك عندما خرج علينا كلود شانون بنظرية المعلومات القائمة على الاحتمال الإحصائي كأساس لقياس كمية المعلومات. فكلما قل توقع المعلومات زادت كميتها، وكلما أصبحت شائعة ومتوقعة قلت كميتها، وعلى سبيل المثال، فإن نبأ عن قتل جندي إسرائيلي طفلا فلسطينيا من أطفال الحجارة، يتضمن كمية معلومات أقل من نبأ قتل طفل فلسطيني احتمى بحضن أبيه في حرم المسجد الأقصى. سعى كثيرون إلى تطبيق نظرية المعلومات في المجال اللغوي، إلا أن اللغة لم تخضع للاختزال الإحصائي لنموذج شانون، المتمثل في ثنائية «المرسل والمستقبل»، وقناة الاتصال التي تصل بينهما. فبينما لاقت نظرية المعلومات نجاحا ملحوظا على مستوى معالجة الإشارات الميكانيكية والكهربائية وخلافه، إلا أنها عجزت عن أن تتعامل مع مضمون اللغة الذي يتعذر اختزاله إلى مجرد سلسلة من الرموز. لقد أغفلت نظرية المعلومات عنصر المعنى؛ بتركيزها على تجليات الظاهر المحسوس، أو شق المبنى دون المعنى. وربما تكون نظرية شانون القائمة على ثنائية المرسل والمستقبل هي بمنزلة نظير معلوماتي لمنهج سكينر السلوكي، القائم على ثنائية المثير ورد الفعل، والذي سبقت لنا الإشارة إليه.

ومرة أخرى، وتحت ضغط المطالب اللغوية، ظهرت الحاجة إلى إحصاء جديد يستطيع أن يتعامل مع البنية المعقدة للسياق اللغوي، حتى يكشف لنا عن علاقات الترابط والتماسك بين فقراته وجمله وألفاظه، وتلك التي تربط بين ظاهر العبارات وما تبطنه من معان وإشارات. لقد خرج إلى حيز الوجود علم اللسانيات القائم على ذخيرة النصوص Corpus linguistics، الذي يعد بإنجازات عدة في بناء المعاجم، وفي مجال الإحصاء اللغوي، وعلم الأسلوبية، ونظرية المعلومات ومجالات أخرى عدة كنظرية الأدب ونظرية النقد وعلم الحدسيات Heuristics.

علاقة اللغة بالعلوم (المنظور العربي)

نرجو من القراء ألا يتوقعوا، في صدد الحديث عن علاقة العربية بالعلوم الحديثة، أكثر مما سبق أن أكدناه عن أهمية الدراسات عبر التخصصية في فكر عصر المعلومات، اللهم إلا أن نضيف أن تعدي التخصصات وتعددها، فيما يخص علم اللغة، أكثر أهمية من غيرها من العلوم، وربما يكون هذا الأساس اللغوي هو المدخل الطبيعي لزرع بذرة تعدي التخصصات وتعددها. ويوصي الكاتب هنا: بإنشاء مركز بحثي متخصص في مجالات علاقة اللغة العربية بتكنولوجيا المعلومات وتكنولوجيا الأعصاب والهندسة الوراثية، على أن تشمل خطة المركز البحثية، دراسة علاقات اللغة العربية بفصائل العلوم المختلفة.

5 : 2 : 5 علاقة اللغة بالفنون (الطرح العام)

يمكن القول إن علاقة اللغة بالفنون تقع ضمن الإطار الفكري العام لعلم الرمز العام semiotics، وعلم السيمولوجيا الشامل semiology كما أسس له دي ـ سوسير في تناوله ثنائية الرمز والمدلول.

ظلت علاقة اللغة بفنون الكلمة، كالشعر والأدب والمسرح، أسيرة ثنائية «الأداة والاستخدام»: اللغة أداة التعبير للشاعر، وأداة السرد للأديب، وأداة الحوار لكتاب المسرح. أما علاقتها بفنون الرمز الأخرى، كالموسيقى والتشكيل، فما زالت ـ حتى يومنا هذا ـ على مستوى من التعميم، لا يروق إلى درجة التحليل العلمي الدقيق. مع التقدم في اللسانيات والمعلوماتية،

يسعى البعض ـ حاليا ـ إلى وضع الأسس العلمية لما اعتدنا أن نعبر عنه مجازا بلغة الشعر ولغة الأدب ولغة المسرح ولغة الشكل ولغة الموسيقى ولغة الأداء الحركي. ويتردد على أسماعنا ـ حاليا ـ حديث عن إعراب الأشكال والمقطوعات الموسيقية، مثلما نعرب جمل اللغة. إن ذلك سيمكننا من تحديد أسس أكثر موضوعية لقياس مدى «شعرية» الشعر و «روائية» الرواية و«سينمائية» السينما: ويقصد بهذه المفاهيم المجردة التعبير عن الخصائص الجوهرية التي تميز كل جنس من الفنون عن الأجناس الأخرى؛ وذلك حتى يستقل الشعر عن النثر الأدبي، وحتى تكون للسينما لغتها الخاصة التي تتجاوز لغات الفنون المندرجة فيها. فعلى سبيل المثال، هناك من يقيس «شعرية» الشاعر بقدرته على توليد تراكيب لغوية جديدة تتجاوز نطاق التراكيب المختلفة التي يمكن أن يولدها نحو اللغة [66].

ومن جانب آخر، تحاول نظرية المعلومات أن تربط بين فنون الرمز، على اختلاف فروعها، بغض النظر عن طبيعة الوحدة الرمزية التي يتعامل معها كل فرع من هذه الفنون؛ فنظرية المعلومات لا تفرق بين كون الرمز رقما، أو حرفا، أو صوتا، أو لونا، أو إشارة كهربية. وعلى صعيد تكنولوجيا المعلومات، فإن تكنيك الوسائط المتعددة multi - media يمثل أرضا خصبة لدراسة العلاقة بين اللغة وفنون الشكل والموسيقى، وكيف تمتزج هذه الأنساق الرمزية مع بعضها البعض، وأثر هذا الامتزاج في المتلقي.

ولاشك في أن علاقة علم اللغة بنظرية الأدب، ستنمو في شكل علاقة تبادلية غاية في الثراء؛ فأهل اللغة يحتاجون إلى نظرية الأدب لإغناء نظرتهم إلى إشكالية المعنى اللغوي، في حين يحتاج أهل الأدب في تناولهم إشكالية المعنى، خاصة فيما يتعلق بالمجاز، إلى أدوات لغوية، كنظام السمات والحقول الدلالية semantic fields & features ، التي يمكن من خلالها «تفتيت» معاني الألفاظ والجمل إلى عناصر أولية كخطوة أساسية لإعادة تركيبها من جديد؛ وذلك بهدف إخضاع بعض الظواهر الأدبية إلى نوع من التحليل العلمي والحكمي الأكثر دقة.

علاقة اللغة بالفنون (المنظور العربي)

أهمل فكرنا الثقافي ـ عموما ـ المعرفة الكامنة وراء الفنون، ويصعب

على الكثيرين لدينا تصور أن وراء فنون الشعر والموسيقى، بل فن الرقص أيضا، ضربا من المعرفة لا يكتمل من دونه وعي الإنسان بحقائق ذاته وواقعه. وقد ضيقت تكنولوجيا المعلومات المسافة الفاصلة بين العلوم والفنون، وهو ما جعل من فكر الفنون مقوما أساسيا في فكر عصر المعلومات، وكما سنوضح في الفصل التاسع، لا بد للغة أن تكون وسيلتنا الأساسية حتى تنقشع تلك الظلمة المخيمة على مناطق شاسعة من فكر إبداعنا.

إن التوجهات الحديثة للتحليل اللغوي تعارض الفصل بين لغة الشعراء ولغة العامة، وبين المجازي والحرفي، مثلما تعارض حالات أخرى من الفصل اللغوي المتمثلة في ثنائيات «الاشتقاق والجمود» و «الفعلية والاسمية» و «التعدية واللزوم» وما شابه. لقد أيقن الكثيرون أن هذه المتقابلات لا تمثل طرفي نقيض، بقدر ما تمثل طرفي علاقة يربط بينهما مسار متصل continuum. ولا يمكن لنا أن نمسك بتلابيب المعنى اللغوي إلا إذا تتبعنا درجات الطيف الممتد على مدى هذه المسارات المتصلة. لقد بات لزاما علينا أن نطرح جانبا ثنائية الحرفي والمجازي بصورتها الحادة التي رسخت في الأذهان؛ فالمجاز ليس حكرا على لغة الإبداع، بل هو ظاهرة طاغية في لغة حياتنا اليومية.

5: 2: 6 علاقة اللغة بالهندسة (الطرح العام)

بعد استعراضنا لعلاقة اللغة بالعلوم والفنون، حان الوقت لننتقل بحديثنا من جانب التنظير، إلى جانب التطبيق العملي، ونقصد بذلك علاقة اللغة بالهندسة، وهي العلاقة التي أقامتها اللغة، أخيرا، من خلال تكنولوجيا المعلومات.

تمثل اللغة موضوعا متميزا ومثيرا للتناول الهندسي، إذا مانظرنا إليها كنظام معقد متشابك، ونظرنا إلى الهندسة ـ كما أشرنا في موضوع سابق ـ بصفتها فن السيطرة على النظم المعقدة، وهكذا ظهر إلى الوجود مصطلح «هندسة اللغة» Language Engineering كفرع متخصص من فروع هندسة المعرفة والذكاء الاصطناعي.

تتميز الهندسة ـ وربما يعيبها في نظر البعض ـ بقدرتها على تناول الموضوعات التي تفتقد الأساس النظري المكتمل؛ وذلك بفضل أساليبها

التقريبية وأغراضها العملية. وفي ظل هذا المفهوم، تصبح اللغات عموما، اللغة العربية بصفة خاصة، في حاجة إلى الهندسة من أجل سد النقص النظري والعملي. فكما مهد الإحصاء اللغوي للحرث العلمي النظري الدقيق، يمكن للهندسة بأساليبها التقريبية أن تسد فجوات التنظير اللغوي، والتي ستظل هناك ـ دوما ـ مادام سعينا نحو مزيد من التعمق النظري مستمرا. إن مهندس اللغة لاتهمه، في المقام الأول، أمور مثل النقاء اللغوي، وأصالة الأسس العملية، بقدر ما يهمه تطبيق المتاح من العلم والخبرات، بل الحيل الفنية أحيانا؛ بهدف تحقيق نتائج عملية، ربما يلجأ إليها المنظرون اللغويون أنفسهم فيما بعد لبلورة نظرياتهم واختبار صحة فروضهم.

وعلاقة اللغة بهندسة الكمبيوتر هي علاقة «هات وخذ». فعلى جبهة اللغة، يستخدم الكمبيوتر حاليا لإقامة النماذج اللغوية وتحليل الفروع اللغوية المختلفة، ونكتفي هنا بقائمة من تطبيقات الكمبيوتر في مجال اللسانيات

- الصرف الحاسوبي computational morphology
- النحو الحاسوبي computational syntax
- الدلالة الحاسوبية computational semantics
- المعجمية الحاسوبية computational lexicology
- علم النفس اللغوي الحاسوبي computational psycholinguistics

وفي المقابل، اقترض علماء الكمبيوتر، في تطويرهم للغات البرمجة، الكثير من أسس اللغات الطبيعية، ويقصد بها اللغات التي يستخدمها الإنسان في حياته العادية، ومازالوا يسعون بخطى حثيثة إلى التقريب بين هذه اللغات الاصطناعية، واللغات الطبيعية؛ بهدف تسهيل التعامل مع الكمبيوتر دون وسيط برمجي. إن الهدف الأسمى لبرمجة الكمبيوتر هو أن يتعامل الفرد معه مباشرة بلغته الطبيعية، لا من خلال لغات اصطناعية مثل البيسيك والفورتران والكوبول وخلافه. لقد أصبحت معالجة اللغات الطبيعية آليا بواسطة الكمبيوتر، أحد المقومات الأساسية في تصميم معمارية نظم المعلومات، ويكفي دليلا على ذلك أن نورد هنا أهم العلوم الأساسية التي قامت عليها معمارية أحدث أجيال الكمبيوتر، وهي: علم النفس ـ علم وظائف الأعضاء ـ المنطق ـ اللسانيات. وكما هو واضح فإن كلا من هذه العلوم ذو صلة وثيقة باللغة.

وإن طاب لنا ما ذهب إليه البعض، من أن العلم الحديث لا ترسخ قواعده إلا إذا كان قابلا للتطبيق على الكمبيوتر، يمكننا القول إن علم اللغة الحديث، قد دخل إلى مصاف العلوم الدقيقة من المدخل السليم، فقد قام على النموذج الرياضي للنحو التوليدي، والذي يتميز بقابلية عالية للمعالجة الآلية computationality، وبالتالي للتطبيق الهندسي العملي.

علاقة اللغة بالهندسة (المنظور العربي)

يزعم الكاتب أن اللغة العربية ـ كما نوه أعلاه ـ أحوج من غيرها إلى الهندسة، وذلك لسبب بسيط هو كثرة الفجوات في تنظيرنا اللغوي الراهن. ولا شك في أن الهندسة، بأساليبها العملية والإمبريقية، تستطيع سد جزء من هذا الفراغ التنظيري. إن لم نفعل ذلك، فسيطول بناء الوقت انتظارا لاكتمال الأسس النظرية لمعالجة اللغة العربية الآلية. إن هندسة اللغة العربية وتطوير التنظير لها لا بد أن يسيرا جنبا إلى جنب؛ فكل منهما يتغذى على نتاج الآخر. وتجدر الإشارة ـ هنا ـ إلى أن هندسة اللغة مجال مفتوح، غير مقصور على المهندسين دون غيرهم، بل من الممكن أن يساهم فيه اللغوي والتربوي وعلماء الكمبيوتر.

5 : 3 اللغة في إطار منظومة الثقافة

5 : 3 : 1 مواضع التقاء اللغة بالثقافة (الطرح العام)

اللغة، كما أوضحنا في الفقرة 4 : 1 : 1 من الفصل الرابع، في موضع القلب من منظومة الثقافة، وما نصبو إليه هنا، هو تناول اللغة في الإطار الشامل لهذه المنظومة، وعلاقة اللغة بعناصرها المختلفة، ونقصد بذلك:

- فكر اللغة.
- لغة اللغة، أو لغة وصف اللغة metalanguage، وتشمل المصطلحات اللغوية المستخدمة في فروعها المختلفة، وكذلك في تعليمها وتوثيقها ومعالجتها آليا.
- تربية اللغة.
- إعلام اللغة.
- اللغة وعلاقتها بنظام القيم والعقائد.

- إبداع اللغة.

مواضع التقاء اللغة بالثقافة (المنظور العربي)

يزعم الكاتب أن لا حل لأزمة العربية، دون دراسات مستفيضة لعلاقتها بالثقافة، وستظل أهمية علاقة اللغة بخارجها بنفس أهمية مايجري داخل منظومتها إن لم تزد عليها، فاللغة هي استخدامها في المقام الأول، وتكمن عظمتها في شيوعها وانتشارها، علاوة على كونها نسقا معرفيا يقوم على العلاقات أصلا(*11). من أهم مواضع التقاء اللغة بالثقافة، المذكورة أعلاه، هو ذلك الخاص بعلاقتها مع الفكر، والذي لم يحظ بالقدر الذي يستحقه من الاهتمام من قبل الباحثين العرب، وهو ما دفع الكاتب إلى أن يخصه بحديث مفصل، قبل شروعه في تناول مواضع التقاء اللغة بالثقافة المشار إليها.

5: 3: 2 علاقة اللغة بالفكر (الطرح العام)

بادئ ذي بدء، هناك علاقة وطيدة ومباشرة بين اللغة والفكر، تتضح لنا ما إن نربط بين تجريدية الفكر وحقيقة أن نظام اللغة يعمل على مستوى المفاهيم والمجردات من مقولات وعلاقات وسمات وتقابلات. وهي ـ أي اللغة ـ وسيلة الإنسان لإدراك ظواهر ثنائية «الزمان والمكان»، ثنائية الوجود الحاكمة، وبالتالي إدراك ظواهر الكون من حوله. فنحن نستشعر حركة الزمان من خلال اللغة، وهي تعبر في زمنيتها عن الماضي والحاضر والمستقبل، وعن الشروع والانقضاء، وعن التوقف والاستئناف والتقطع والاستمرار، ونستشعر المكان حولنا من خلال اللغة، وهي تعبر عن البعيد والقريب واللصيق، وعن الغائب والحاضر، وعن المحدود والشاسع، وعن الامتلاء والفراغ. ويأتي المجاز، بروعة صوره، ليجسد لنا إحساسنا بالزمان، جاعلا من الوقت سيفا إن لم تقطعه قطعك، ومن العمر قطارا تدور به عجلات الزمن، ومن هبوط الليل رداء يرخي سدوله وتخيم علينا ظلمته. وبروعة التشبيه ذاتها، يجسد المجاز اللغوي إحساسنا بالمكان، عندما يجعل من العزلة قمقما، ومن الوجود سجنا إن ضقنا ذرعا بهذا الوجود، وعندما يسوغ لنا أن «يبتلعنا اليم»، وأن «نبكي الأطلال» وأن «تعوي الرياح» وأن «تنهب المركبة الطريق نهبا».

ويا لها من علاقة محيرة حقا تلك التي بين اللغة والفكر، وما أكثر

التساؤلات المحورية التي تطرحها، والتي ننتقي منها ما تراءى لنا ذا مغزى لدراستنا الحالية، وهي:

- هل اللغة صانعة الفكر أم صنيعته؟
- هل اللغة قيد على الفكر أم تحرير له؟
- هل اللغة مرآة للعقل أم للعقل مراياه المتعددة؟ أو بقول آخر: هل اللغة هي لغة الفكر الوحيدة، أم أنها أهم لغات هذا الفكر، أم هي مجرد واحدة من لغاته المتعددة؟

كما هو واضح، تعكس هذه التساؤلات الطبيعة التبادلية لعلاقة اللغة بالفكر، ودعنا نحوم حولها قليلا، مع إقرارنا بداية أنها لم تلق حتى الآن جوابا شافيا أو شبه شاف، ويأمل البعض ـ كما ذكرنا في الفقرة 4: 3: 2 من الفصل الرابع ـ أن تساهم تكنولوجيا المعلومات وتكنولوجيا المخ والأعصاب في الإجابة عن هذه التساؤلات، أو بعض منها على الأقل.

(أ) **هل اللغة صانعة الفكر أم صنيعته؟**: يؤكد أهل الحتمية اللغوية أن الثقافة هي وليدة اللغة، وهي صانعة الفكر بالتالي. فعلى سبيل المثال، هناك من يرى الفكر الأسطوري وليد التواصل اللغوي الشفاهي، والفكر النقدي هبة التواصل اللغوي المكتوب؛ فقد سمح للقارئ أن يختلي بنصوصه ويعيد قراءتها، ويتمعن في مضمونها. ولا مانع هنا من مثال يخصنا في هذا الشأن، ونقصد به اتهام البعض لنا ـ نحن العرب ـ بعدم تقدير أهمية الوقت لما يتصورونه قصورا في تعامل العربية مع خاصية الزمن، المتمثل في بساطة ثنائية الماضي والمضارع؛ وذلك مقارنة بلغات أخرى مثل اللغتين الإنجليزية والفرنسية بصيغهما الزمنية المتعددة والمركبة. ويكشف اتهامهم الباطل هذا، عن عدم إلمامهم بالأساليب المتنوعة التركيبية والصرفية المعجمية؛ التي تعبر بها العربية عن ظاهرة الزمن. على الطرف النقيض، هناك من يقول إن اللغة هي ـ في جوهرها ـ اصطلاح من صنعنا، فكما خلقت الآلهة الأساطير الأشياء بتسميتها، كذلك نهب نحن الألفاظ معانيها ودلالاتها، وسيظل الفكر، في تقدمه وتأزمه، يلقي بمفاهيمه ومصطلحاته في وعاء اللغة؛ فاللغة هي إبداع الكاتب، وخيال الشاعر، وابتكار العالم، وتحليل الناقد، وتوقعات القارئ وتصنيف المعجمي، وقرار المجمعي.

ويميل الكاتب نحو الرأي القائل إن العلاقة بين الفكر واللغة هي ـ في

طابعها العام ـ علاقة «هات وخذ» إن جاز التبسيط. وسنستقي دليلنا على هذا، من الكيفية التي نتعامل بها مع ظاهرة المجاز، وكذلك تلك التي يتعامل هو معنا بها. تدفع ممارسات الحياة المستجدة بالمجاز اللغوي إلى توسيع معاني الألفاظ ونطاق استخدامها، فتشبه الاقتصاد ـ مجازا ـ بحركة الموائع، لنعبر عنها بعبارات مثل: سيولة نقدية وفيض نقدي، وتدفق أموال، وتشبه شبكة الإنترنت المستجدة ببيت العنكبوت وهلم جرا. وكما تولد الممارسات الحياتية استعارة المجاز، تلعب هذه الاستعارة دورا في تشكيل ممارسة الإنسان لحياته. فعندما تجعل الاستعارة المجازية ـ على سبيل المثال ـ من النقاش حربا، نخوضها لمهاجمة الآراء والدفاع عن وجهات النظر وإسكات الخصوم ومحاصرة الأفكار، تتحول مع تكرار استخدامها إلى أداة فعالة لتوجيه فكر الإنسان وسلوكه. فمما لا شك فيه أن موقفنا من النقاش كان سيتغير بصورة جذرية، لو تراءى لأهل المجاز أن يجعلوا من النقاش ـ على سبيل المثال ـ غزلا لا حربا، وياليتهم فعلوا، لحل ساعتها التودد لشريك النقاش (لا لخصمه...!) والتآلف والتعاطف والتناغم وشقاوة المحبين، محل الدفاع عن وجهات النظر، والهجوم على آراء الخصوم، ومحاصرة الأفكار، والعصف الذهني، وتكميم الأفواه، وتصفية وجهات نظر المعارضين.

(ب) هل اللغة قيد على الفكر أم تحرير له: في إطار هذا التقابل بين كون اللغة قيدا على الفكر أم تحريرا له، تبدو العلاقة التبادلية بينهما في أوضح صورها، فكما يمكن أن يسمو الفكر بلغته أو ينحط بها، كذلك يمكن للغة أن تسمو بفكر جماعتها أو تنحط به. ويشهد تاريخ الفكر ، أن اللغة من أشد الأسلحة الأيديولوجية ضراوة، وهي الوسيلة القصوى للسيطرة على الفكر. ويكفي مثالا ـ هنا ـ الكيفية التي استغل بها سلاح اللغة في منع تفسير النصوص الدينية مجازيا، ومن يرد مثالا حديثا، فليرصد معنا مايفرضه بعض المصححين في دورنا الصحافية من قيود على كتابنا في استخدام المجاز، فهم يرفضون استخدام الكتاب عبارات من قبيل: «خلق الأفكار» و «بعث التراث» وما شابه. ويذكرنا ذلك بما أورده جورج أورويل في طوبائيته السوداء «1984»، عندما وضع اللغة على رأس قائمة أسلحة القهر الأيديولوجية في يد «الأخ الكبير»، فصممت لغة «الكلام الجديد newspeak»، كما أسماها أورويل؛ بحيث تخلو من المجاز، وتضع قيودا صارمة

على معاني الألفاظ، فمعنى «فقد الحرية»، مثلا، لا يجب أن يخرج عن المعاني المناظرة لـــ «حبس الطيور في أقفاصها»، ومعنى «القوة» يجب ألا يتجاوز معنى الشد والإرخاء كما يعرفه علم الفيزياء. ولم تستهدف صرامة هذه اللغة محاصرة العقول في نطاق فكري لا تخرج عنه فقط، بل استهدفت ـ أيضا ـ جعل كل بدائل التفكير الأخرى في حكم المستحيل.

من جانب آخر، فإن اللغة في سعيها الدؤوب إلى ملاحقة التوسع المعرفي، تتوغل في مصطلحاتها لتزداد تخصصا وتحديدا، حتى تصبح من شدة انغلاقها حكرا على غلاة المتخصصين، وعائقا أمام العامة لاستيعاب معرفة عصرهم. خلاصة القول: إن إفراطنا في تحديد اللغة وتقنينها، لا بد سيرتد إلينا انغلاقا في الفكر، وانعزالا عنه.

إن اللغة، قديما وحديثا، تمارس سلطتها علينا، سواء بسحر أساطيرها، أو ببلاغة خطبائها، أو بتضليل إعلامها وزيف إعلانها، ولكنها ـ أيضا ـ وسيلتنا المثلى لتحطيم القيود وتحرير الفكر والتصدي للجائر والزائف والجامد والتابع والناقل، وغير ذلك من غير الصحيح وغير الأصيل وغير الأخلاقي. فمن خلال مجازها، تحررنا من أسر الكلمات والمعاني السائدة، ومن خلال ابتكاريتها، تجعل من الإبداع حقا مشاعا للجميع، ومن خلال مرونتها، نكتسب قدرة التعامل مع تناقضات الواقع ومتغيراته.

نعاود القول لنؤكد على أن اللغة يمكن أن تكون قيدا أو تحريرا، فكما قيل «عقل محصور في اللغة هو عقل سجين» عرفت اللغة في المقابل: «بأنها الاستخدام اللامحدود لوسائل محدودة»، ولنضرب مثالا عمليا بسيطا لذلك من ضمن تلك الماثلة على أرضنا، وهو يدور حول عبارة هيرودوت الشهيرة: «مصر هبة النيل»، والتي سيطرت على فكر المصريين حتى استسلموا إلى أن مصر ستظل دوما سجينة وادي النيل الضيق، إلى أن ضاق هذا الوادي بسكانه، وتعالت الأصوات أخيرا تردد شعار «مصر هبة الصحراء»؛ لتنطلق تبحث عن كنوز رمالها، وتبعث الحياة في بيدائها.

(ج) هل اللغة هي لغة الفكر، أم للفكر لغته الخاصة؟: «اللغة مرآة العقل» مقولة أخاذة ونافذة، ومثال فريد عن كيف يمكن أن تمارس اللغة سلطتها علينا، لمصلحتها ـ على مايبدو ـ هذه المرة. فقد رسّخت هذه المقولة في الأذهان، مفهوم التطابق بين اللغة والفكر ، وبين بنية اللغة وبنية العقل، أداة

إنتاج هذا الفكر. فاللغة لدى كلود شتراوس، ولدى كثيرين غيره، هي شكل من أشكال عقل الإنسان، تضاهيه بنية وعملا. لقد أخذت بألبابنا هذه المقولة، وفعلت بفكرنا فعل السحر، فراح كثير من علماء الذكاء نفسه يحاولون ـ باستماتة ـ البحث عن مظاهر هذا التطابق؛ وما أصعبه من تطابق ذلك ما بين هذين الزائغين: زائغ اللغة وزائغ الفكر. في المقابل، هناك فريق يعارض بشدة انفراد اللغة كأداة للفكر، معتبرا ذلك ضربا من التمركز اللغوي، وانحيازا للغة على حساب أنساق الرموز الأخرى. لقد حان الوقت ـ بالفعل ـ لقلقلة مفهوم تطابق اللغة مع الفكر، وهو المفهوم الذي يدافع تشومسكي عنه بشدة ، ربما بحكم تمسكه بنموذجه الذهني للغة (212: 170)؛ حيث يحدوه الأمل في أن يصبح هذا النموذج، يوما ما، نهجا عاما، يمكن تطبيقه على أنساق الرموز الأخرى، كلغة الموسيقى ولغة الشكل.

لقد اعتبرت اللغة، حتى وقت قريب وكما أشرنا سلفا، مدخلا لسبر أغوار المخ البشري، إلا أن هذا المنحى اللغوي لتفسير عمل المخ البشري آخذ في الانحسار؛ وذلك بعد أن دانت للباحثين مناهج علمية، ووسائل تكنولوجية حديثة؛ للكشف عن بنية المخ البشري. لقد وفر مهندسو الذكاء الاصطناعي وسائل عملية لمحاكاة وظائف المخ البشري وهيكلية ذاكرته، ويتنامى الاعتقاد بأن هناك أكثر من لغة للفكر. وإن لم يكن الأمر كذلك، فكيف لنا أن نفسر وجود فكر سابق على اللغة في الأزمنة السحيقة، قبل اختراع الإنسان لها. هناك من يبشر بلغة تواصل جديدة، «لغة ما بعد الكتابة»، تجمع بين اللغة وأنساق الرموز الأخرى، كالشكل والموسيقى والرياضيات والمنطق، بل البرمجيات أيضا، وربما يكشف المستقبل لنا، أن عقل الإنسان يعمل من خلال توزيع العمل بين كوكبة من ملكاته، أو غرائزه الرمزية إن جاز التعبير. ولكن اللغة ستظل ـ دوما ـ قادرة على أن تفاجئنا؛ فهي بارعة في الانتقام ممن يحاولون تجاهلها، أو التقليل من شأنها، فهي تتشابه علينا أحيانا، وكأنها استسلمت بالفعل؛ لتنقض علينا بعد ذلك فارضة سطوتها على الفكر الإنساني، فما الذي يباري اللغة، من بين سائر أنساق الرموز، في مرونتها وسيولتها وقدرتها الفائقة على الجمع بين المتناقضات، بين الوضوح والغموض، بين الإسفار والإضمار، بين الإيجاز والإطناب، بين الحشو والحذف، وفوق ذلك بين فجاجة اللفظ ورقة العبارة، وبين أن تكون

سلاحا في يد القوي، ودرعا يحتمي به الضعيف؟!

علاقة اللغة بالفكر (المنظور العربي)

التساؤلات التي تناولناها في طرحنا العام، تنطبق علينا كما تنطبق على غيرنا. وقد عرج بعض منظرينا على علاقة اللغة العربية بالفكر، في مقام تناولهم جذورنا الفكرية، وتحليل بنية العقل العربي. عادة مايكون العقل المقصود أو المنشود، في هذه الدراسات، هو العقل المشيد للفكر، أي عقل القلة النابغة، صانع عقول الكثرة التي يفترض أنها قادرة على دمج هذا الفكر في غمار حياتها اليومية، ولكن واقع الحال، أن هذا الفكر الهابط من أعلى يظل، في كثير من الأحيان، معلقا في الهواء دون توظيف حقيقي على أرض الواقع. رأينا في هذا الشأن، أن ذلك لن يحدث دون تحليل دقيق لعلاقة اللغة العربية بعقل الإنسان العربي العادي، وهنا تبرز أهمية علم النفس اللغوي، الذي نزعم أنه لا يحظى لدينا بالاهتمام الجدير به. يكفي هنا دليلا، على صدق زعمنا، تلك المقولة الخاطئة التي استقرت في أذهان الكثيرين عن كيفية قراءة العربي لنصه غير المشكول، والتي تقطع بأن: «العربية تفهم لتقرأ»، فهي مقولة تتنافى مع أبسط أسس علم النفس اللغوي، وما علمنا إياه تمام حسان في «العربية مبناها ومعناها» عن تضافر القرائن اللغوية في قراءة النصوص، ناهيك عن تناقض هذه المقولة الفاضح مع منطق الحس الطبيعي. الغريب في الأمر هنا أن عملية القراءة تلك ـ على الرغم من شيوعها الهائل وأهميتها البالغة ـ لم يتصد لها حتى الآن أي بحث جاد يتناول جوانبها المعجمية والنحوية والنفسية. وأملنا أن يقوم علماء النفس اللغوي لدينا بمناظرة بين خصائص اللغة العربية ومواردها النحوية والمعجمية، وبين آليات عمل المخ الأساسية، والتي تشمل الآليات الذهنية التالية: القدرة على التعميم ـ التنسيق بين الحواس ـ إكمال النقص ـ الاستخلاص من المشوش ـ الاستئناس غير الدقيق ـ الصمود إزاء التعقد ـ القدرة على الاستنتاج المنطقي والحدسي ـ عدم التطبيق الصارم للقواعد ـ التواصل والتعاون مع الذكي الآخر: بشرا كان أم نظما آلية ـ التوفيق بين الدوافع المتعددة والمتباينة ـ التكيف مع البيئة المغايرة ـ الوعي بالذات ـ توليد الجمال وتذوقه ـ إظهار ردود الأفعال تجاه الأشياء والأحداث. إنها ـ

بحق ـ منطقة بكر في انتظار من «يثير أرضها»، ويقلب تربتها.

5: 3: 3 فكر اللغة (الطرح العام)

(أ) **قائمة النهوج اللغوية**: كنتيجة منطقية لتشعب جوانب إشكالية اللغة، واتساع نطاق تداخلها مع فروع المعرفة الأخرى، وزيادة تعقدها، وأخيرا لالتقائها المثير مع تكنولوجيا المعلومات. نتيجة لكل هذا، تعددت النهوج النظرية في تناول إشكالية اللغة، والأساليب البرمجية لمعالجتها آليا باستخدام الكمبيوتر. تتباين هذه النهوج والأساليب بصورة كبيرة، من حيث منطلقاتها الأساسية، وأهدافها التنظيرية العلمية. سنكتفي هنا بسرد قائمة هذه النهوج والتي تشمل:

- النهج التشريعي.
- النهج الأنثروبولوجي.
- النهج السلوكي الإمبريقي.
- النهج التوليدي.
- النهج العقلاني أو الذهني.
- النهج الصوري: الرياضي والمنطقي.
- النهج الإحصائي.
- النهج النصي.
- النهج الوظيفي.
- النهج المعجمي.
- النهج الحاسوبي.

لا يتسع المجال ـ هنا ـ لاستعراض كل من هذه النهوج اللغوية، وسنكتفي بكلمة موجزة عن النهج الوارد على رأس القائمة، والنهج المحتمل لذيلها. والنهج رابطة العقد لمعظم هذه النهوج، ويقصد به النهج التوليدي.

(ب) **النهج التشريعي**: وهو النظر إلى اللغة، بصفتها سلوكا اجتماعيا، لا بد من ضبطه من خلال «تشريع» لغوي، والمثال الواضح ـ هنا ـ هو نشأة النحو العربي؛ حيث أضفى البعد الديني للغة العربية مهابة خاصة على «التشريع» لها. فالنحو، كما عرف «صبح الأعشى» هو «ميزان العربية» والقانون الذي يحكم به في كل صورة من صورها، والنحو قياس يتبع،

والاطراد مناط القياس. وهدف النحو، هو منع اللحن، وحفظ النص «القرآني» كتابة وتلاوة. والطابع الرئيسي المميز لهذه المرحلة، هو ثنائية المشرع اللغوي ومستخدمي اللغة، أو «الرعية اللغوية»، وما استتبعته من تزايد نفوذ النحاة، واكتسابهم قوة اجتماعية طاغية لم يشهد تاريخ اللغات مثيلا لها؛ حتى ساغ أن يطلق على هذه المرحلة، عصر «دكتاتورية النحاة» (119 : 71) وأكاد أزعم أننا مازلنا نعيش هذه المرحلة، مع فارق وحيد هو: أن الرعية اللغوية ما عادت تأخذ مشروعيتها مأخذ الجد.

(ج) **النهج التوليدي:** كانت قواعد النحو، فيما سبق، تُحدد عن طريق إعطاء أمثلة من حالات الاطراد والشذوذ، وشروط الجواز والتفصيل وما شابه. من البدهي، أن هذه الأمثلة مهما تعددت، لا يمكن أن تغطي لانهائية التعابير اللغوية. وكما ذكرنا سلفا، تعد هذه اللانهائية أهم خاصية في منظومة اللغة، وهي السر وراء ابتكاريتها، ومداومة تجددها وتوسعها. علاوة على ذلك، فإن أسلوب توصيف قواعد النحو عن طريق إعطاء الأمثلة، لا يلبي مطالب معالجة اللغة آليا بواسطة الكمبيوتر. إن هذه المعالجة الآلية تتطلب ـ أول ما تتطلب ـ الحكم على صحة التعبير اللغوي من عدمه، فكيف يتأتى لنا مثل هذا الحكم من خلال أمثلة، مهما كثرت، تظل محدودة العدد بحكم طبيعتها؟ مع أخذنا في الاعتبار أن نظم المعالجة الآلية لا بد أن تتعامل مع اللغة على اتساعها، أي على أساس من لانهائيتها.

هذا هو ما سعى النحو التوليدي إلى تحقيقه، ويقصد بالتوليد ـ هنا ـ أن تصاغ قواعد النحو في صورة قواعد رياضية يمكن من خلالها توليد العدد اللانهائي من التعابير اللغوية المسموح بها في اللغة. تماما، كما تولد معادلات المتواليات العددية والهندسية العدد اللانهائي من سلاسل هذه المتواليات وكما تولد معادلة الخط المستقيم (أس + ب ص+ ج = صفر) في الهندسة التحليلية جميع حالات الخط المستقيم عن آخرها.

(د) **النهج الحاسوبي:** يساهم علماء اللسانيات الحاسوبية ـ حاليا ـ في الدفع بعجلة التنظير اللغوي إلى آفاق جديدة؛ وذلك انطلاقا من منظور هندسة المعرفة، وإقامة النماذج لتمثيل الأداء الكلي لمنظومة اللغة. يقوم النهج الحاسوبي على نظام رياضي لكتابة قواعد النحو وفقا للنموذج اللغوي المتبع، وتنظيم منهجي لكيفية تسجيل هذه القواعد، وكذلك مفردات المعجم

التي تطبق عليها.

لقد ظهرت، وما زالت تظهر، نماذج نحوية عدة وهي تمثل النتاج الوفير للتفاعل الشديد بين النحويين والدلاليين من جانب، واللغويين وعلماء الكمبيوتر، من جانب آخر. نورد هنا قائمة بأسماء هذه النماذج النحوية.

- نحو توليدي تحويلي TGG: Transformational Generative Grammar
- نحو الحالات الإعرابية CG: Case Grammar
- نظرية الرابط العاملي GB: Government Binding Theory
- نحو وظيفي FG: Functional Grammar
- نحو وظيفي معجمي LFG: Lexical Functional Grammar
- نحو علائقي RL: Relational Grammar
- نحو مقولي CG: Categorical Grammar
- نحو شبكات الانتقال المعززة ATN: Augmented Transition Networks
- نحو البنية العامة للجملة GPSG: Generalized Phrase Structure Grammar
- نحو بنية الجملة المعتمد على الرأس HPSG: Head Phrase Structure Grammar
- نحو ترابطي UG: Unificational Grammar

ولا يتسع المجال لاستعراض هذه النماذج، وقد قصدنا بها هنا أن نستكمل حديثنا عن تعدد النهوج اللغوية، وكيف يتجاوب مهندسو اللغة مع منظريها، وذلك حتى نثبت للقراء مدى الثراء النظري والتكنولوجي الذي تحظى به اللغة في عصرنا الحالي.

فكرة اللغة (المنظور العربي)

مازال تنظير اللغة العربية أسير النهج التحليلي، القائم على إعطاء الأمثلة، وتوجد محاولات متناثرة لتطبيق عدد محدود من النهوج اللغوية والنماذج الحاسوبية على نطاق محدود من نحو اللغة العربية. وقد قام الكاتب بوضع نحو توليدي للغة العربية قوامه مايقرب من 20 ألف قاعدة لغوية. يتطلب اختيار أنسب النهوج اللغوية والنماذج الحاسوبية بحثا متعمقا يضاهي بين إمكانات هذه النهوج والنماذج، وبين خصائص منظومة اللغة العربية الشاملة، وكذلك تلك التي لمنظوماتها الفرعية، ويقصد بها منظومات

الصوتيات والصرف والنحو والدلالة والمعجم. لقد بات الأمر في حاجة إلى مؤتمر قومي عربي، أسوة بما قام به اليابانيون منذ سنوات، من أجل اختبار أنسب النماذج اللغوية لتلبية مطالب اللغة العربية: تنظيرا وتعليما ومعالجة آلية، ومع الأسف، إن هذا الأمر البالغ الأهمية لم يحظ إلى الآن باهتمام مجامعنا العربية. تكفي نظرة سريعة إلى مناهج الدراسة في أقسام اللغة العربية في الأزهر ودار العلوم وكلية الآداب، للحكم على مدى تجاوبها، مع ما سعت هذه الدراسة إلى أن تؤكده.

5: 3: 4 تربية اللغة (الطرح العام)

تشمل تربية اللغة الأمور المتعلقة بتعليمها وتعلمها، سواء كلغة أولى للناطقين بها، أم لغة ثانية لغير الناطقين بها، وتغطي تنمية مهارات التواصل اللغوي الأربع، وهي: القراءة والكتابة والتحدث والاستماع. يحظى تعليم اللغة الأم بأهمية متزايدة هذه الأيام بعد أن ثبت للجميع خطورة الدور الذي تلعبه في تنمية فكر الفرد، وتوطيد عرى التماسك الاجتماعي، علاوة على كون تعلم اللغة الأم هو بمنزلة «طبقة الأساس» التي يبنى فوقها تعلم اللغات الأجنبية[12*]، والذي يحظى هو الآخر بأهمية متزايدة بفعل ظاهرة العولمة، وما يصاحبها من عولمة سوق العمل (هناك ما يزيد على 50 مليون صيني يتعلمون الإنجليزية). يشهد على ذلك هذا العدد الكبير من مواقع الإنتر نت؛ لتعليم اللغات وتعلمها ذاتيا، علاوة على توفير كم هائل من برمجيات تعليم اللغات والمناهج البرمجية courseware ونظم تأليف المناهج وما شابه.

تربية اللغة (المنظور العربي)

(أ) **عن أزمة تعليم اللغة العربية:** تحدث الكثيرون عن أزمة تعليم اللغة العربية، سواء من حيث محتوى المادة التعليمية، أو من حيث أساليب التعليم ومنهجياته ونتائجه، وأهم أوجه القصور:

- التركيز على الجوانب الصورية، سواء في تعليم النحو أو الصرف أو تنمية مهارات الخطابة والحوار. لقد طغت سطحية قراءة النصوص وضبط أواخر الكلمات على حساب عمق استيعابها والربط بين جملها وفقراتها،

وإدراك هيكليتها الشاملة.

- عدم الاهتمام بعنصر الدلالة، أي الجوانب المتعلقة بالمعنى؛ حيث طغت الوظائف النحوية (فاعل /مفعول / حال/...) على معنى التراكيب النحوية. فلا يستطيع معظم طلابنا، على سبيل المثال، معرفة الفروق بين معاني التراكيب التالية: رأيته (يخرج من الباب) ـ رأيته (خارجا من الباب) ـ رأيته (وقد خرج من الباب). فثلاثتها بالنسبة إليهم، من حيث الوظيفة النحوية ، «أحوال»، أما المعنى ففي بطن صاحب العبارة. والشيء نفسه في صيغ الصرف؛ حيث يصعب على كثير من طلابنا تمييز الفروق الدلالية بين أزواج الألفاظ المتقاربة التالية على سبيل المثال : «تبهرج: بهرجة» ـ «سداد : تسديد» ـ «جليل: ذو جلال».

- إهمال الجانب الوظيفي لاستخدام اللغة، وعدم تنمية المهارات اللغوية المطلوبة في الحياة العملية؛ فنحن ننحاز إلى جانب الخطابة على حساب فاعلية التواصل.

- عدم تنمية حاسة التذوق لمآثر اللغة العربية، شعرا ونثرا وتراثا.

- عزوف الصغار والكبار عن استخدام معجم لغتهم الأم.

(ب) **عن تعلم اللغة العربية ذاتيا:** لم يتطرق البحث التربوي اللغوي إلى الفروق الجوهرية بين تعليم اللغة العربية تلقينا من خلال المدرس، وتعلمها ذاتيا في غيبة منه؛ وهو الأمر الذي أصبح واجبا لعوامل أساسية عدة هي:

- أهمية التعلم ذاتيا لتعويض أوجه القصور في تعليم اللغة تلقينا.

- تلبية مطالب تجديد المعرفة اللغوية، تمشيا مع مبدأ التعلم مدى الحياة.

- تعليم أبناء الجاليات العربية في المهجر، والذين لا يتوافر لديهم ـ عادة ـ معلمون للغة العربية، وغالبا ما تنقص ذويهم المعرفة الكافية باللغة العربية، والأسس المنهجية لتعليمها.

يحتاج تعلم اللغة ذاتيا، وتعليمها عن بعد عبر الإنترنت، إلى جهود بحثية مستفيضة في مجال علم اللغة النفسي، وإعداد المناهج، وتقويم أداء الطلاب، وتصميم البرمجيات التعليمية.

(ج) **عن برمجيات تعليم اللغة العربية وتعلمها:** مازالت برمجيات تعليم اللغة العربية قاصرة كما وكيفا، ويميل معظمها إلى اتباع أنماط التعليم

التقليدية، كالأسئلة متعددة الخيارات وملء الفراغات، وما شابه. إننا بحاجة إلى برامج تعليم ذكية، تستخدم أساليب الذكاء الاصطناعي، القائمة على نظم معالجة اللغة العربية آليا: الصرف الآلي ـ الإعراب الآلي ـ التشكيل الآلي ـ نظم التلخيص والفهرسة الآلية، وما شابه.

5: 3: 5 إعلام اللغة (الطرح العام)

تتلخص علاقة الإعلام باللغة في ثنائية لغة الإعلام وإعلام اللغة. سوف نرجئ الحديث عن لغة الإعلام إلى فصله المتخصص، لنقصره هنا على إعلام اللغة، والذي يشمل:

- الثقافة اللغوية كفرع متخصص من الثقافة العلمية.
- تعليم اللغة عبر وسائل الإعلام الجماهيري.

إعلام اللغة (المنظور العربي)

تولي برامجنا الثقافية اهتماما لا بأس به بالإعلام اللغوي، وهو يركز ـ أساسا ـ على تذوق مآثر اللغة ومظاهر عبقريتها، وصلة ذلك بإعجاز البيان القرآني. هذا بلا شك عمل طيب، إلا أن الثقافة اللغوية في عصر المعلومات تتطلب ما هو أكثر من ذلك بكثير، وعسى أن تكون دراستنا الحالية عونا في توضيح المقصود هنا. فهل يمكن لأجهزة إعلامنا إنجاز هذه المهمة، وأن تنقل الوعي باللغة من مستوى النخبة إلى مستوى العامة؟ ونقترح هنا بشأن الثقافة العلمية اللغوية قائمة الموضوعات التالية:

- أهمية دور اللغة في عصر المعلومات.
- أعراض أزمتنا اللغوية.
- تراثنا اللغوي.
- كيفية توظيف اللغة في حياتنا اليومية (الإرشاد اللغوي).
- موقع العربية على خريطة اللغات العالمية .
- توعية بنظم معالجة اللغة العربية آليا.
- علاقة اللغة بفنون الإبداع المختلفة.
- علاقة اللغة بنظام القيم ومنظومة المعتقدات.

أما تعليم اللغة من خلال وسائل الإعلام الجماهيري، فيشكو من نقص

أساسي، ألا وهو تحقيق التواصل الحي التفاعلي، والذي يعد شرطا أساسيا في اكتساب المهارات اللغوية. يوحي هذا بأن الإنترنت ستكون أكثر نجاحا في هذا المضمار، وعلى برامج تعليم اللغة إعلاميا، أن تدمج في برامجها، بصورة متوازنة، وسائط تعليمية جديدة من وسائل الإيضاح المسموعة والمرئية والمطبوعة.

5: 3: 6 اللغة في عصر المعلومات: البعد الأخلاقي (الطرح العام)

أضاف عصر المعلومات بعدا أخلاقيا جديدا، ذا أساس لغوي، يتعلق بأمرين أساسيين:

- ظاهرة الانقراض اللغوي الذي يهدد معظم لغات العالم.
- قضية حقوق الأقليات اللغوية، باعتبار حق التمسك باللغة الأصلية أحد الحقوق الثقافية في عصر المعلومات.

كان من السهل علينا، أن نطلق على ظاهرة الانقراض اللغوي مصطلح «الإمبريالية اللغوية»، كتخصيص لمصطلح «الإمبريالية الثقافية» الذي شاع استخدامه هذه الأيام، لكننا فضلنا ـ كما أسلفنا ـ أن نصف تلك الظاهرة بـ «الدارونية اللغوية» وذلك لسببين، أولهما: أن مصطلح الإمبريالية قد ارتبط في الأذهان بأنه أمر يخص الدول النامية والمستضعفة دون الدول المتقدمة، وهو الأمر الذي يتنافى مع كون هيمنة اللغة الإنجليزية أمرا يشغل العالم أجمع، متقدمه وناميه، فهو يهم فرنسا كما يهم الجزائر والمغرب، ويهم الدول الإسكندنافية كما يهم شعوب أمريكا اللاتينية، وكما يهدد اليابان، فهو يهدد بنجلاديش وقبائل أفريقيا واستراليا. ثاني السببين: أن في مفهوم «الداروينية اللغوية» نوعا من التجاوب مع إحصائيات منظمة اليونسكو التي تشير إلى أن نصف لغات العالم بات مهددا بالانقراض؛ وهو الأمر الذي حدا بالمنظمة الثقافية الدولية إلى إصدار ميثاقها الخاص بتعدد اللغات. ولا شك في أن ثمة علاقة بين اقتراح مصطلح «الداروينية اللغوية» هذا، ذي الطابع البيولوجي، وبين التقارب الحادث الآن بين علمي اللغة الحديث والبيولوجيا الجزيئية الذي أكدنا عليه في أكثر من موضع في دراستنا الحالية.

في ظل «مبدأ البقاء للأصلح»، والأصلح في سياقنا الراهن يعني الأكثر

شيوعا. تضيق الإنجليزية الخناق على ما عداها من اللغات، وهي توشك أن تخرج منفردة لغة عالمية أو «إسبرانتو الأمر الواقع» كما يقولون، ويمكن لنا اقتفاء أثر ذلك المستوى الاقتصادي والسياسي والثقافي، بل العلمي أيضا. لقد جعلت شبكة الإنترنت شعوب العالم بأسره، أكثر وعيا بطغيان اللغة الإنجليزية؛ حيث كشفت عنه بصورة سافرة، وأظهرت مدى خطورة العامل التكنولوجي في التعجيل بحركة الانقراض اللغوي. إن الرصيد الإستراتيجي الثقافي للبشرية جمعاء، صار مهددا وينذر البعض أن تكنولوجيا المعلومات كادت أن تقضي على التنوع الثقافي، بقدر يفوق ما فعلته تكنولوجيا الصناعة بالتنوع البيولوجي. ما إن أدركت القوى الاقتصادية الأمريكية الأهمية البالغة لموارد المعلومات في اقتصاد مابعد الصناعة، حتى أخذت تشحذ أسلحتها اللغوية؛ تهيئة لصراع دولي متوقع على ساحة الثقافة. وليس من قبيل الافتعال، أن نربط بين هذا التوجه الإستراتيجي، وما شهدته الساحة الأمريكية من تقدم هائل في علوم اللسانيات وهندسة اللغة منذ منتصف الخمسينيات. لقد فتحت تكنولوجيا المعلومات، الكثيفة لغويا، الباب على مصراعيه أمام الولايات المتحدة لكي تجعل من شيوع اللغة الإنجليزية رأس الحربة في تنفيذ مخططها لسيادة العالم معلوماتيا وثقافيا، واقتصاديا بالتالي. وبفضل الإنترنت، تلك الشبكة الكوكبية التي تطفو على طبقات من اللغة نافذة ومتراكمة، استعادت الولايات المتحدة حلمها، الذي كادت أن تفقده، بأن يصبح القرن الحالي ـ هو الآخر ـ قرنا أمريكيا لكونه في الحقيقة قرنا «رمزيا»، أو «قرنا لغويا»؛ حيث سيكون للرمز واللغة فيه سلطة تفوق جميع السلطات. تمارس الولايات المتحدة حاليا، من خلال مؤسساتها الإعلامية والاقتصادية والتكنولوجية، أساليب عدة ومبتكرة من الضغط اللغوي لا ترحم أحدا: عدوا أو حليفا، كبيرا أم صغيرا. فعلى صعيد الثقافة، ها هي فرنسا، منارة العالم الثقافية، تترنح أمام الإعصار الثقافي الذي يهب عليها عبر الأطلنطي. وعلى صعيد التقانة، تكاد اليابان، قطب صناعة الإلكترونيات عالميا، أن تعلن انسحابها من صناعات البرمجيات تحت وابل البرامج ونظم المعلومات الإنجليزية الذي يرد إليها عبر الأطلسي؛ وهو الأمر الذي جعل اليابان ـ كما أشرنا سابقا ـ تولي اهتماما شديدا بأمور الترجمة الآلية؛ أملا في كسر عزلتها اللغوية التي فرضتها عليها

لغتها الفريدة، ولا يختلف موقف ألمانيا كثيرا، عن فرنسا واليابان، سواء على جبهة الثقافة أو التقانة. ولندع صراحة الأرقام تكشف لنا عن مدى سطوة اللغة الإنجليزية في مجال الإعلام عالميا(*13).

- 65٪ من برامج الإذاعة باللغة الإنجليزية.
- 70٪ من الأفلام ناطقة بالإنجليزية.
- 90٪ من الوثائق المخزنة في الإنترنت بالإنجليزية.
- 85٪ من المكالمات الهاتفية الدولية تتم بالإنجليزية.

أما على صعيد السياسة والاقتصاد، فلا يخرج موقف الولايات المتحدة، القطب اللغوي الأوحد بلا منازع، عن كونه صدى لمصالحها الإستراتيجية، سواء داخلية أم خارجية. فعلى المستوى الداخلي، وبينما تتزعم الولايات المتحدة حملة عالمية من أجل فرض صيغتها الخاصة عن حقوق الإنسان، بصورة أقرب إلى الشكلية والدعائية منها إلى الجوهر، وبينما تفعل ذلك، ها هي تتكر على أقلياتها حقوقها في استخدام لغاتها الأم، وكأنهم قد نسوا تاريخهم، وما فعله فرانكلين في صراعه ضد أنصار اللاتينية؛ من أجل فرض اللغة المحلية. ولا يخفى على أ حد كيف تعمل اللغة الإنجليزية داخل المجتمع الأمريكي كمصفاة للترشيح الاجتماعي، وكيف أصبح مستوى إجادتها، عائقا منيعا يحد من حركة الصعود الاجتماعي لهذه الفئات المضطهدة لغويا، كما يحد من مجال الفرص المتاحة أمامها، سواء للتنمية الفردية أم الجماعية. ولا يجد النظام الأمريكي وسيلة أفضل لتبرير سياسة القمع اللغوي هذه إلا بالاستشهاد بنموذج الجار الكندي، وما أدت إليه الثنائية اللغوية هناك من صراعات بين الناطقين بالإنجليزية والناطقين بالفرنسية. ويعتقد كثير من ساسة الولايات المتحدة، ومنظريها، في صدق الفكرة القائلة بأن ليس هناك من تنوع لغوي، إلا وله ضريبة اجتماعية باهظة (219*) واللغة ـ بلا شك ـ براء من هذا الافتراء الظالم، وهو لا يصمد أمام التحليل الدقيق والشامل لكوامن الصراع الاجتماعي، والتي تتصدر قائمته الأسباب الاقتصادية والعنصرية. وكم من الجرائم ترتكب باسمك أيتها اللغة!! وكم من الضحايا سقطوا في الهند وأسبانيا ومناطق أخرى من العالم، في ظل ما بدا ـ في ظاهره ـ صراعا لغويا، ومرجعه ـ في الحقيقة ـ إلى أسباب سياسية واقتصادية في المقام الأول. وعلى ما يبدو،

فإن التنوع اللغوي العالمي يثير حفيظة النظام الأمريكي بقدر كبير، ومنذ وقت طويل. ومازلنا نذكر ما قام به القائد الأمريكي، فور توقيع اليابان وثيقة الاستسلام بنهاية الحرب العالمية الثانية، عندما أمر باستخدام الحروف اللاتينية في كتابة اللغة اليابانية ظنا منه أن انعزالية اللغة اليابانية وراء ما خال له أنه عدوانية متأصلة في طبيعة الشعب الياباني. وإذا تمعنا قليلا في هذا الموقف من اللغة نجده قد مزج بين وجهين بشعين من أوجه الحتمية، ونقصد بهما: الحتمية اللغوية والحتمية البيولوجية.

على الطرف النقيض من هذا الموقف المناهض للتنوع اللغوي، ينظر مؤيدوه بعين الريبة إلى مصطلح اللغة الرسمية الذي يرد في كثير من دساتير الأمم، ويعتبرون ذلك ضربا من الإجحاف بحقوق الأقليات. وهناك من ينظر إلى التنوع اللغوي بوصفه مصدرا للثراء، بل للتنمية الاقتصادية أيضا، في عصر باتت فيه اللغة ـ كما قلنا ـ من أهم موارد المعلومات. خير دليل على ذلك إستراتيجية السوق الأوروبية المشتركة، التي تولي اهتماما كبيرا للمسألة اللغوية من جميع جوانبها، وليس هذا من أجل اتقاء شرور الصراعات الثقافية داخل الكيان الأوروبي فحسب، بل من أجل التقليل من حدة الميزة التنافسية لشيوع اللغة الإنجليزية، والعمل على قلب الوضع بحيث تكون هذه الميزة في صف التنوع اللغوي، وليست ضده.

اللغة في عصر المعلومات: البعد الأخلاقي (المنظور العربي)

يظن البعض أن اللغة العربية بمنأى عن ظاهرة الانقراض اللغوي، سندهم في ذلك الآية القرآنية: «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»، وكما هو واضح فإن ما وعدت به الآية الكريمة هو حفظ النص الشريف. وكم من نصوص حفظت على مدى التاريخ واندثرت لغاتها. ولا يقصد الكاتب بهذا. أن اللغة العربية قد باتت مهددة فعلا بالانقراض، إنما مايريد أن يلفت النظر إليه هو ضرورة تقوية دروعنا اللغوية ضد الهجمة الإنجليزية الشرسة، وأن ندرك ما يعنيه اقتصاديا وثقافيا وسياسيا قرار منظمة التجارة العالمية بعدم اعتبار اللغة العربية ضمن لغاتها الرسمية، وفي المقابل، ما يعنيه من مزايا القرار الذي اتخذه ـ أخيرا ـ المجلس الدولي للأرشيف باعتبار اللغة العربية ضمن لغاته الرسمية من حيث المبدأ[*14] على صعيد آخر، لا تمثل

الأقليات اللغوية مشكلة تذكر على مستوى الوطن العربي، نشير بهذا إلى الضجة التي أثيرت حول اقتراح البعض إحياء اللغة الأمازينية في الجزائر.

5: 3: 7 إبداع اللغة (الطرح العام)

بصور عامة، يمكن تقسيم إبداع اللغة إلى:

- إبداع فنون اللغة من أدب وشعر ومسرح.
- إبداع اللغة ذاتها.

وقد كثر الحديث عن إبداع فنون اللغة، في حين لم يحظ إبداع اللغة، في ذاتها، بالاهتمام الجدير به، وذلك على الرغم من أن إبداع فنون اللغة، في جوهره، وليد إبداع اللغة بصورة أو بأخرى.

سنتناول إبداع فنون اللغة في الفصل التاسع الخاص بثقافة الإبداع، وسنقصر حديثنا ـ هنا ـ على إبداع اللغة ذاتها. ونقصد به، ذلك الكامن في صلب منظومتها، والذي يمكن لكل ناطق بها أن يمارسه. إن للغة ابتكاريتها الخاصة بها. ولا تتوقف الجماعة الناطقة باللغة عن ابتكار العبارات المستجدة، وإضافة المفردات الجديدة إلى معجم اللغة، وإضافة معان جديدة إلى مفرداتها القائمة بالفعل. ويبدو إبداع اللغة، في أبهى صوره، في بلاغة تراكيبها، واستعارة مجازها. يمكن إبداع اللغة نحويا في قدرتها على توليد عدد لا نهائي من تراكيب الجمل، وذلك بفضل ما أسميناه بالتداخل الحلقي ـ انظر الفقرة 5: 2: 4 ـ بند (ج) ـ من هذا الفصل. أما إبداع المجاز، فيكمن في قدرة صاحبه على هذا التنقل الحر بين الحقول الدلالية المختلفة، ينتقل من حقل العواطف البشرية إلى حقل النيران؛ فيجعل من العواطف لهيبا يحرق شغاف القلوب ويؤجج المشاعر ويكتوي به قلب العاشق، وينتقل من حقل الوقت إلى حقل المال؛ فيجعل الوقت ذهبا، وموردا يدخر، وينفق من ميزانيته، ويبدد إسرافا وتبذيرا، وينتقل من حقل الشخصية الإنسانية إلى حقل البناء، فيجعل من الشخصية صرحا، لها دعائمها وأبعادها ومداخلها وسراديبها، وهي ـ أي الشخصية ـ مثلها مثل البناء تتحطم وتنهار ويعاد بناؤها وترميمها. إن الإبداع الكامن في اللغة هو بمنزلة «دمقرطة» لحق الإبداع، وهو أول قدرة إبداعية يتحلى بها الطفل خلال عملية اكتسابه لغته الأم، وهل هناك إبداع أروع من أن يتعلم الطفل لغته دون مدرس، فنراه

يستنج قواعدها بمنطقه الغريزي، من وسط تلك العينة العشوائية التي تتنامى إلى سمعه البكر من لغة الكبار. إن إبداع اللغة يوفر جرعة الإبداع اليومية، التي تضمن لعقولنا الاحتفاظ بحيويتها ويقظتها. ولكل مهارة لغوية، إبداعها الخاص بها؛ فكما أن هناك إبداعا للكتابة، فهناك أيضا ـ قراءة مبدعة، تنفذ إلى قرار النص، وتعيد تأليف مؤلفه. ،كما أن هناك إبداعا في التحدث، فهناك ـ أيضا ـ استماع مبدع، يستوعب ليتفاعل، ويقبل ويرفض في صمت، ويعلق الحكم مرجئا إياه للبوح به في اللحظة المناسبة.

ولا شك في أن ثقافة عصر المعلومات، تتطلب إبداعا لغويا جديدا، إبداعا مغايرا في فن كتابة النصوص ـ حتى تتألف وتتصهر في «سبيكة» الوسائط المتعددة مع أنساق الرموز الأخرى، من صور وأصوات ـ وإبداعا جديدا في فن قراءة النصوص غير الخطية، يلم شتات شظاياها، ويقتفي أثر تشعبها الداخلي، وتناصها الخارجي مع غيرها من النصوص، وإبداعا جديدا في الحوار عن بعد، تحدثا واستماعا، لا يرى الحوار نوعا من عشوائية التفوه بالكلام بل بناء يخضع لهندسة الحوار، تتآلف فيه الآراء وتتباعد، وتخلص فيه النوايا وتتآمر، وتحيل الأسئلة وردودها إلى ما قبلها وتمهد الطريق إلى ما بعدها، وفقا لغايات المتحدثين، وتكتيكات حوارهم.

إبداع اللغة (المنظور العربي)

ما أكثر موارد الإبداع في لغتنا العربية، من اشتقاق فريد لا يدانيه اشتقاق لغة أخرى في سخاء مشتقاته وروعة نظامه وانتظامه، ومن نحو يتسم بالمرونة، وثراء التراكيب، وقدرة فائقة على الإيجاز والإيعاز، ومن معجم لا يفوق تعدد مترادفاته، إلا وفرة معاني مفرداته وكثافة مضمون كلماته[*15]. وفوق هذا، يتوافر لنا ـ نحن العرب ـ نص سماوي جامع، ومرجع لغوي شامل متاح للجميع. لقد ساهم السلف والخلف في الكشف عن روعة إبداع كتابة العربية بلاغة وفصاحة، إلا أننا نشهد هذه الأيام تدهورا كبيرا في مستوى كتابتها، فقد طغت الكتابة الرديئة بحيث تكاد تطرد الكتابة الجيدة، حتى أدى الأمر بالكاتب إلى أن يعلن عن حاجتنا لجرجاني من طراز جديد، يهدينا إلى «أسرار الركاكة»، «لا أسرار البلاغة». وهو مطلب ليس الدافع من ورائه تشخيص الكتابات الرديئة فقط، بل

لحاجة ماسة إليه، من قبل نظم الترجمة الآلية من اللغات الأجنبية إلى العربية. فهدف الترجمة الآلية عمليا، هو الوصول إلى ترجمة مستساغة، حدودها عدم الوقوع في فخ الركاكة، وسيمضي بنا وقت طويل قبل أن تطمح الترجمة الآلية، إلى درجات أرقى على سلم البلاغة. ويمكن لتكنولوجيا المعلومات أن تساهم مساهمة فعالة في علاج الكتابة العربية الرديئة، ليس ـ فقط ـ في مجال تشخيصها بل ـ أيضا ـ في الدراسات الأسلوبية لنماذج رائدة حديثة من الكتابة العربية الجيدة، ويأتي على رأسها نثر شعرائنا من أمثال نزار قباني وأدونيس وأحمد عبدالمعطي حجازي وغادة السمان. ويتساوى مع ذلك في أهمية تحليل الكتابات العلمية والصحافية الرائدة والمؤثرة، ويعد أحمد زكي، وجمال حمدان مثالين ساطعين في أدب الكتابة العلمية، التي تجمع بين الدقة وجزالة اللفظ وسلاسة التركيب. أما فيما يخص إبداع الكتابة الصحافية، فيبرز اسم محمد حسنين هيكل من حيث وقع أسلوبه، وهيكلية نصه. لقد اقتصر أمر إبداع اللغة العربية على مهارات الكتابة، دون غيرها من المهارات اللغوية الأربع التي سبقت الإشارة إليها. وفي هذا الصدد، فإن القارئ العربي في مسيس الحاجة إلى تجديد مهارات قراءته؛ تجاوبا مع مطالب عصر المعلومات، خاصة فيما يتعلق بظاهرة الإفراط المعلوماتي، وعدم خطية الوثائق الإلكترونية. إن علينا أن ننمي مهارات القراءة بمستوياتها المختلفة، والتي تشمل:

- القراءة المتعجلة skimming reading
- القراءة الانتقائية skipping reading
- القراءة العادية normal reading
- القراءة المتعمقة in - depth reading

ولا شك في أن علم القراءة، كما أسس له جاك دريدا، يمكن أن يوفر لنا كثيرا من المداخل والمنطلقات؛ تحقيقا لهذا الهدف.

5 : 4 منظومة اللغة

5 : 4 : 1 الإطار العام لمنظومة اللغة

يوضح الشكل (5 : 2) الإطار العام لمنظومة اللغة من منظور ثقافة

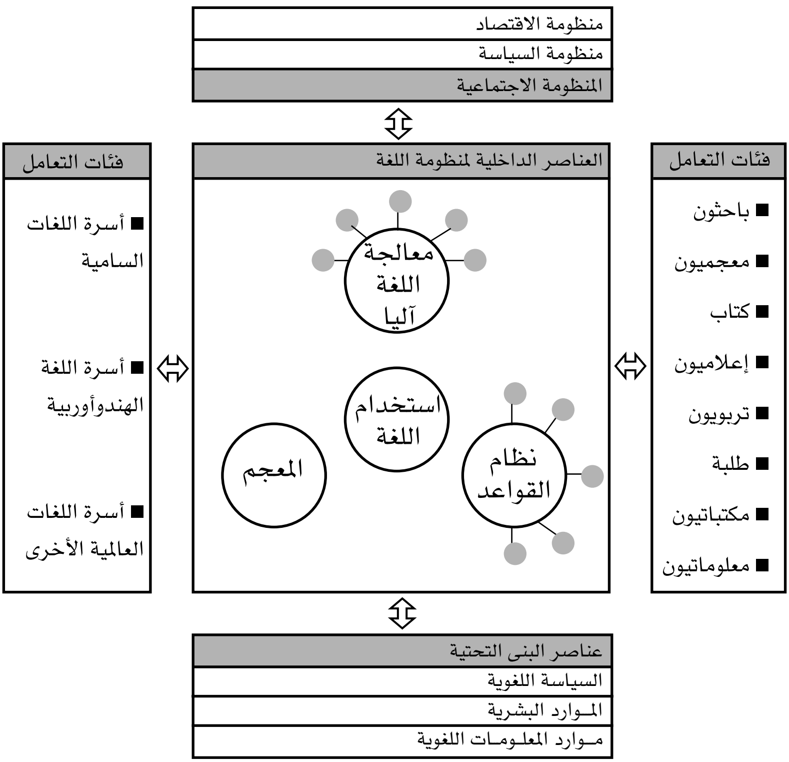
المعلومات، وهو يشمل المكونات الرئيسية التالية:

- مجموعة العلاقات الخارجية التي تربط منظومة اللغة بالمنظومات الاجتماعية الأخرى. وقد حصرناها هنا في منظومتي السياسة والاقتصاد، مسبوقة بعلاقة اللغة بمنظومة المجتمع ككل. وكذلك علاقة اللغة بمنظومات اللغات الأخرى والفئات الاجتماعية المختلفة التي تتعامل مع منظومة اللغة.

- مجموعة العناصر الداخلية لمنظومة اللغة.

- عناصر البنى التحية لمنظومة اللغة، والتي تشمل السياسات اللغوية والموارد البشرية من منظرين وموثقين ومحققين، وكذلك موارد المعلومات اللغوية، والتي من أهمها قواعد ذخائر نصوص تراثنا اللغوي textual corpora من معاجم ونصوص أدبية وعلمية وخلافه.

سنتناول فيما يلي المكونين الأولين.



الشكل (2:5) الإطار العام لمنظومة اللغة

5: 4: 2 مجموعة العلاقات الخارجية التي تربط منظومة اللغة بخارجها (الطرح العام)

(أ) **علاقة اللغة بمنظومة المجتمع ككل:** اللغة هي التي تغزل النسيج المجتمعي في شبكة من علاقات الوفاق التي تقيمها بين أفراد المجتمع وجماعاته ومؤسساته. فلا وفاق بلا لغة، ولا مجتمع بلا وفاق. وكما تساهم اللغة في صياغة المجتمع، يساهم هو - بدوره - في صياغتها؛ حيث تؤكد الفلسفة اللغوية الحديثة أنه لا يمكن لنا التصدي للإشكالية اللغوية بصفة عامة، ومعضلة المعنى على وجه الخصوص، دون رصد اللغة وهي تعمل في سياقها الاجتماعي الأشمل. فالجماعة الناطقة هي التي تهب الألفاظ معانيها، خلال استخدامها اللغة في غمرة قيامها بأنشطتها الاجتماعية. فلكل نشاط اجتماعي نظير من «ألعاب اللغة» بمفهوم فيتجنشتاين (41:233)، فنشاط البيع لعبته الإعلان، وممارسات السياسة لعبتها الإعلام، والنشاط الاقتصادي لعبته دراسات الجدوى الاقتصادية ولغة الأرقام والإحصائيات. وحتى النشاط العلمي، له لعبته اللغوية هو الآخر، والمتمثلة في إقامة الفروض، وصياغة النظريات وحيثيات البرهان، باستخدام لغات المنطق والرياضيات.

لقد تأثر الفكر اللغوي خلال القرن التاسع عشر بنظرية التطور لداروين، فراح يقسم اللغات كالكائنات الحية ما بين لغات بدائية ولغات راقية، ويخضعها كذلك لقانون «البقاء للأصلح» ويقصد بها هنا اللغة الأرقى. لقد ظهر خطأ هذا المفهوم، بعد أن اكتشف الأوروبيون أن معظم لغاتهم قد انحدرت من اللغة السنسكريتية، لغة أهل الهند القديمة. لقد أثبت التنظير اللغوي الحديث، أن مستوى التعقد اللغوي متقارب بين كل لغات العالم ولهجاتها، بل يفوق تعقد بعض اللغات المستخدمة في المجتمعات البدائية، ذلك للغات بعض المجتمعات الأكثر رقيا. فكان أن شبه البعض اللغة الإنجليزية بلعبة «السيجا» إذا ما قورنت ببعض لغات القبائل الأفريقية، التي شبهت في المقابل بـ «لعبة الشطرنج» (295: 27). إن رقي المجتمعات وتخلفها لا يتوقف على بنية اللغة، بل يتوقف على استخدامها من قبل الجماعة الناطقة بها، فمستوى تقدم مجتمع ما، تحدده - حاليا - أنواع خطاباته ومدى شفافيتها.

(ب) **علاقة اللغة بمنظومة السياسة:** اللغة مصدر للقوة؛ تلك حقيقة

أدركها الساسة والحكام من قديم الأزل، من فراعنة مصر إلى قياصرة الرومان، حتى مرشحي المجالس البلدية في القرى والنجوع. وقد برع الخطاب السياسي في استخدام أسلحة اللغة؛ فهو يبطن أكثر مما يظهر، ويستخدم المقولات المقولبة، والكلمات الأخاذة، ليلهب بها مشاعر الجماهير، ويخمد نار سخطهم، ويسلبهم إرادة التغيير. ويشهد تاريخ الاستعمار مدى ضراوة القوى السياسية في استغلال سلاح اللغة لفرض التبعية على الشعوب المستعمرة، من خلال فرض التبعة اللغوية فها هي فرنسا، المثال المحتذى لاعتزاز الأمم بلغاتها القومية، تفرض الفرنسية على مستعمراتها، إلى حد أن أصدر المحتل الفرنسي قرارا باعتبار اللغة العربية الفصحى لغة أجنبية في الجزائر، واليابان التي استسلمت في أعقاب الحرب العالمية، ولم تستسلم لغتها لقرار القائد الأمريكي بكتابتها بالحروف اللاتينية، هي نفسها التي حاولت أن تفرض استخدام اللغة اليابانية عند احتلالها لكوريا. وتبدي وكالة المخابرات الأمريكية اهتماما، لا تخفى على أحد دوافعه، بأمور الترجمة الآلية من لغات شعوب العالم (بما فيها العربية بالطبع) إلى اللغة الإنجليزية، هدفهم من وراء ذلك تحليل ما ينشر بهذه اللغات، من أجل الكشف عن أسرار الشعوب وما يشغل الأذهان، ويجري خلف الكواليس وداخل الصدور.

وعلى صعيد آخر، فقد أصبحت مشكلة تأمين تدفق البيانات عبر شبكة الإنترنت، والمحافظة على خصوصية البيانات الشخصية، أحد المشاغل السياسية الرئيسية التي تتطلب إجراءات عاجلة، على المستوى التشريعي. يعتمد تأمين المعلومات بصورة أساسية على فهم محتواها، ولاشك في أن اللغة ستساهم ـ بصورة فعالة ـ في كشف محتوى المعلومات التي تسود الشبكة حاليا. في الوقت ذاته، فإن عملية تعمية المعلومات encryption للمحافظة على سريتها لها شقها اللغوي هي الأخرى.

(ج) **علاقة اللغة بالمنظومة الاقتصادية:** تمثل التكنولوجيا حلقة الوصل بين اللغة والاقتصاد. فمع نشأة الصناعة، وما صاحبها من تزايد حركة النزوح إلى المدن، برزت اللغة كعامل اقتصادي، حيث ظهرت الحاجة إلى وضع الضوابط ومواصفات التوحيد القياسي لتقنين عمليات التواصل اللغوي داخل المجتمع، هذا بعض من شأنها الاقتصادي فيما مضى، أما اليوم فتحتل اللغة موقعا متميزا في المنظومة الاقتصادية كنتيجة منطقية لكون

صناعة الثقافة وصناعة النشر تأتيان على قائمة صناعات عصر المعلومات، وكلتا الصناعتين ـ كما هو معروف ـ لهما علاقة وثيقة باللغة.

(هـ) **علاقة اللغة بمنظومات اللغات الأخرى:** نتيجة للعولمة، تزايدت أهمية العلاقة بين لغات العالم المختلفة، ويزعم الكاتب ـ في هذا الصدد ـ أن اللغة بحكم طبيعتها تنزع إلى العموم والشيوع. فمنذ نشأته، انشغل علم اللغة الحديث ـ كما أوضحنا في الفقرة 5: 2: 3 من هذا الفصل ـ بالبحث عن نحو عام تندرج في إطاره جميع لغات البشر، وها هو نظام المعاجم يحذو حذو توأمه اللغوي (نظام النحو) يهم بنقل المعجمية من مستوى الحرفة lexicography، إلى مستوى علم المعاجم الدقيق lexicology، الذي يتناول إشكالية المعجم عبر جميع اللغات. وسيظل يراود البشرية حلمها القديم بعالم واحد يتكلم لغة واحدة، حتى بعد أن أثبت الواقع مدى الصعوبة في تحقيق هذا الحلم، إن لم يكن استحالته. وتلوح في الأفق ـ حاليا ـ صورة مستحدثة لهذا الحلم البعيد المنال، يوحي بها عصر المعلومات، ويصادفنا في أدبيات اللغة والكمبيوتر هذه الأيام، صدى من قول قديم، غاية في القدم، عن لغة أهل بابل التي كان ينطق بها أهل الأرض جميعا، كما ورد في التوراة. إن تشوق البشرية إلى وحدة اللغة إنما يدل على حنينها الشديد إلى التواصل. وعليه، فالعولمة الحقة من منظور اللغة تعني ـ أساسا ـ شفافية التواصل، وإسقاط الحواجز اللغوية، وفتح الطريق أمام حوار الثقافات وامتزاجها، وهو ما تسعى إليه ـ حاليا ـ تكنولوجيا المعلومات في مجال الترجمة الآلية.

تشمل علاقات اللغة بمنظومات اللغات الأخرى ضمن ما تشمل:

- الدراسات المقارنة والتقابلية بين اللغات في إطار النظرية العامة للغة.
- مظاهر الاحتكاك اللغوي من افتراض الألفاظ والآساليب وما شابه.
- الترجمة ما بين اللغات.
- تعليم اللغات الأجنبية.

(و) **علاقة اللغة بالفئات الاجتماعية:** بجانب الأغلبية العامة الناطقة باللغة، هناك فئات عدة من مستخدمي اللغة تشمل: باحثين ـ معجميين ـ كتابا ـ إعلاميين ـ تربويين ـ طلبة ـ مكتباتيين ـ معلوماتيين، وكل من هذه

الفئات له مطالبه الخاصة من منظومة اللغة، وكذلك طبيعة مساهمته في صيانتها أو تقويضها. ويكمن أساس العلاقة، بين اللغة وجماعتها، في كون اللغة هي مسؤولية أهلها. ولا تجدي مراسيم الحكومات، ولا قرارات المجامع، ولا حتى إبداع الكتاب في إحداث نهضة لغوية حقيقية ما بقيت الجماعة الناطقة بها عاجزة عن الوفاء بدينها الاجتماعي تجاه لغتها الأم.

مجموعة العلاقات الخارجية التي تربط منظومة اللغة بخارجها (المنظور العربي)

لاشك في أن علاقة اللغة بمجتمعاتها العربية تتبع - أصلا - من علاقة العربية بالنص القرآني، ويتوقف مصير العلاقة اللغوية الاجتماعية بالتالي، على تجديد النظرة إلى علاقة اللغة بالنص الشريف، وهو الأمر الذي سنوليه مزيدا من الاهتمام في الفقرة 8:3:4 من الفصل الثامن الخاص بثقافة نظام القيم والمعتقدات.

(أ) **عن اللهجات العربية وثنائية الفصحى والعامية:** وهي أبرز القضايا الراهنة في علاقة اللغة العربية بمجتمعه، ويعتبر الكثيرون في هذا التنوع اللغوي تهديدا لتماسك الوطن العربي، وعقبة كؤودا أمام وحدته أو توحده. وكما أشرنا سلفا، وفي ظل ثقافة المعلومات، يمكن أن يكون هذا التنوع مصدرا للثراء الثقافي، شريطة أن نقوم باستئناس مظاهره، واستخلاص القواسم المشتركة التي تربط بين هذه اللهجات. ويقف الكاتب - بشدة - ضد ماينادي به البعض، بإحلال هذه اللهجات تدريجيا محل اللغة العربية الفصحى، كما تفرعت اللاتينية - كما يزعمون - إلى عدد من اللغات الأوروبية. ونترك للقراء الحكم على ما أوردته نيللي حنا في مقام دفاعها عن استخدام العامية، حيث تقول: إن استخدام العامية في التعليم الأساسي، نوع من التحديث الاجتماعي حيث إنها أعطت دورا مهما لفئات اجتماعية بعيدة عن السلطة الحاكمة، ومنحتها فرصة المشاركة في الحياة الثقافية والإنتاج الفني والأدبي، والاستمتاع بهذا الإنتاج (86: 117).

(ب) **علاقة العربية بالمنظومة السياسية:** ينضح تاريخنا البعيد والقريب بأمثلة عدة تؤكد الصلة الوثيقة، بين العربية وأمور السياسة وسلطة الساسة، ونكتفي هنا ببعض أمثلة من تاريخنا الراهن لتوضيح كيف يمكن للغة أن

تصبح من أمضى أسلحة الفعل السياسي خارجيا وداخليا. وهل غاب عن ذاكرتنا ما فعلته بنا «ال التعريف» في قرار مجلس الأمن الرقم 242 (من «أراض» لا من «الأراضي») وكيف ذاع في خطابنا الإعلامي مصطلح «دول الطوق»، قبل انعقاد مؤتمر مدريد، وقد قمنا بترجمته وإشاعته دون وعي منا، نقلا عما نشرته الصحف والمجلات الأمريكية الموالية لإسرائيل، وقد قصد به تصوير إسرائيل المعتدية، صاحبة ترسانة الرؤوس النووية، والتي يفوق إجمالي دخلها القومي ذلك لدول الطوق مجتمعة، على أنها الحمامة الوديعة المسالمة تلك التي تحيطها الصقور العربية من كل جانب. وهي الصورة ذاتها التي قدمها إسحاق شامير في خطابه الافتتاحي في مؤتمر مدريد، عندما تبجح مطالبا بضرورة الاحتفاظ ببعض الأراضي التي احتلتها إسرائيل؛ فهي دولة صغيرة في مسيس الحاجة إلى سماحة جيرانها في إعادة رسم الحدود، وتوزيع موارد المياه، وإعادة التخطيط التاريخي لمدينة القدس. هذا يكفي عن آلة اللغة. وهي تعمل على مستوى سياستنا الخارجية، والموقف بالنسبة لسياستنا الداخلية لا يقل إثارة وخطورة. ألم نسمع في خطاب الإعلام المصري ـ على سبيل المثال ـ من يناور مستخدما عبارات من قبيل: «أمراض الصيف» بدلا من «وباء الكوليرا» و«توسيع نطاق الملكية» بدلا من «خصخصة القطاع العام» في بداية مراحلها ووصف التنمية الاقتصادية بفضيلة «التأني»؛ تحاشيا لاستخدام مصطلحات «الكساد والانكماش والتدني». وما أكثر الأمثلة، وما أخطر ما فعلته في العقول والنفوس.

تمثل دولة الجزائر أبرز النماذج العربية في علاقة السياسة باللغة العربية، فبينما تبنت الثورة الجزائرية حركة تعريب نشطة، واعتبرت العربية أحد الدروع الأساسية ضد المحتل الفرنسي، كادت الجزائر حديثا أن تنتكس في ردة لغوية مدوية، في إطار ماسمي حزب الجزائر وحزب فرنسا (156). على صعيد آخر، فإن الأبعاد السياسية ـ اللغوية ـ لصراعنا مع إسرائيل، سوف تتضاعف في حالة ما إذا حل نوع من السلام في المنطقة؛ حيث من المتوقع أن تلجأ إسرائيل إلى استغلال الأسلحة الثقافية ـ وعلى رأسها اللغة ـ سياسيا واقتصاديا وأمنيا، وتتمتع إسرائيل في ذلك ببعض مزايا تنافسية علينا الإقرار بها، حتى يتسنى لنا التصدي لها وأهمها:

- محورية اللغة في الثقافة اليهودية، وقد أثبتوا قدرتهم اللغوية في إحياء العبرية بعد اندثارها، ونجاحهم في إشاعتها داخل الكيان الإسرائيلي، على الرغم من تعدد العرقيات والثقافات والمستويات الاجتماعية.

- التنوع اللغوي داخل الكيان الإسرائيلي، وما يعنيه ذلك فيما يخص حوار الثقافات، والترجمة ما بين اللغات.

- العرب الناطقون بالعربية داخل الكيان الإسرائيلي.

(ج) **علاقة العربية بالمنظومة الاقتصادية:** أكدنا في مواضع كثيرة سابقة أهمية اللغة كمورد اقتصادي تتعذر من دونه إقامة صناعة ثقافية ناجحة، سواء في مجالات التعليم أو الترفيه أو التثقيف. وكم يتمنى الكاتب أن يقوم بعض الدارسين العرب، بحساب الكلفة المتوقعة من استيراد المناهج والبرامج التعليمية في حالة ما إذا عجزنا عن توفير حد مقبول من الاكتفاء الذاتي في مثل هذه الأمور الحيوية. لقد بات لزاما علينا أن نعيد النظر، من منظور اقتصادي، إلى قضايا تعريب التعليم وما يتعلق بها من أمور، والتوسع في المدارس والكليات التي تدرس باللغات الأجنبية، وما يترتب على ذلك من نزيف العقول، وزيادة ميزانيات التعليم وخلافه.

من جانب آخر، فإن اقتصاديات النشر العربي تمر ـ حاليا ـ بأزمة حقيقية، نتيجة للتقلص الشديد في عدد القراء (1000 قارئ في المتوسط لكل كتاب)، ويفرض ذلك قيودا قاسية على الناشرين، سواء بالنسبة للتوزيع والتسويق أو انتقاء الموضوعات القابلة للنشر اقتصاديا.

(د) **علاقة العربية بمنظومات اللغات الأخرى:** تفرض علينا ثقافة المعلومات توطيد العلاقة بين اللغة العربية واللغات العالمية وذلك من خلال:

- الاهتمام الشديد بأمور الترجمة. ونظرا إلى ندرة المترجمين، والتضخم الهائل في حركة الإنتاج العلمي والفكري، فلا بد من اللجوء إلى الترجمة الآلية من اللغات الأجنبية (الإنجليزية والفرنسية) إلى العربية، دون إغفال الترجمة من العربية إلى اللغات الأجنبية حتى نضمن نشر ثقافتنا العربية: إسلاميا وعالميا.

- التوسع في الدراسات اللغوية المقارنة والتقابلية، خاصة أن اللغة العربية تتسم كما أوضحنا في الفقرة 5: 3: 2 من هذا الفصل ـ بخاصية التوسط والتوازن بين اللغات العالمية. ويمكن الاستعانة في ذلك بالدراسات

العديدة المصاحبة لظاهرة العولمة بخصوص المشهد اللغوي العالمي، ولا يخفى على أحد ما نعانيه من قصور شديد في الدراسات المقارنة والتقابلية في معظم مجالاتنا الثقافية، وهناك من بيننا من تأخذه العزة بالإثم؛ رافضا إخضاع اللغة العربية للنظرية العامة للغة التي تندرج في إطارها جميع اللغات الإنسانية حديثها وقديمها، وهو التوجه العلمي الذي استقر منذ نصف قرن تقريبا. حجتهم في ذلك، أن العربية هي لغة القرآن، ولا بد أن تنفرد بنظرية خاصة بها. وقد نسي هؤلاء، في غيهم هذا، ما نشيد به من عالمية القرآن، وعالمية لغته بالتالي، وهو ما يفرض أن تكون هذه اللغة من أوليات اللغات التي تنضم إلى حظيرة العموم اللغوي العالمي.

(و) **علاقة العربية بفئات مستخدميها:** ثنائية الفصحى والعامية هي بلا شك ـ أبرز ملامح العلاقة بين العربية وفئات مستخدميها، وقد تراوحت الآراء في علاج هذا الداء اللغوي الخبيث، ما بين التشبث بالفصحى ـ على الرغم من الإقرار بسيادة اللهجات العامية وشيوعها ـ والاستسلام للهجات العامية لكونها هي اللغات الحية المستخدمة. وامتد طيف الاستخدام اللغوي موزعا بين عربية السلف، مارا بالفصحى ثم الفصيحة ثم الوسيطة ثم العامية. وهناك من يتخذ موقفا توفيقيا، مقترحا أن يؤخذ من العامية ما يكتب، ومن الفصحى ما ينطق.

ما زالت علاقات فئات الاستخدام اللغوي المختلفة بمنظومة العربية خارج نطاق البحث النهجي المتعمق، فأين تلك الدراسات ـ على سبيل المثال ـ التي تناولت بجدية علاقة منظومة اللغة بالمعجمي والإعلامي والكاتب والناقد والتربوي؟

5 :4 :3 العناصر الداخلية لمنظومة اللغة (الطرح العام)

كما يوضح الشكل (5: 2) تقوم البنية الداخلية لمنظومة اللغة على قلب محوري، قوامه:

- نظام القواعد الذي يشتمل على قواعد الفروع اللغوية المختلفة: الصوتيات، الصرف، التركيب (النحو)، الدلالة ويضاف إليها ـ أحيانا ـ قواعد نظام الكتابة.
- نظام المعجم الذي يشمل مفردات اللغة ومعانيها.

- المعالجة الآلية للغة.

هذة العناصر الثلاثة تصب جميعها في عنصر الاستخدام اللغوي الذي أصبح المحور الذي تدور حوله منظومة اللغة خلافا لما كانت عليه الحال في الماضي.

(أ) **عن علاقة النحو بالمعجم:** تمثل العلاقة بين نظام القواعد والمعجم إحدى الخصائص الأساسية التي تميز لغة عن أخرى. كانت النظرة إلى المعجم، فيما مضى، بصفته تابعا لغويا لنظام القواعد. إلا أن أهميته ظلت تزداد باطراد حتى كاد الوضع أن ينقلب، لتصبح اللغة بصرفها ونحوها ودلالتها، كامنة في جوف المعجم؛ حيث يمكن استخلاص قواعد الصرف والنحو والدلالة، من شبكة العلاقات الكثيفة التي تربط بين مفردات المعجم ومعانيه. تُصاغ قواعد النحو وفقا للنموذج، أو النهج، اللغوي المتبع (انظر الفقرة 5 : 3 : 3 من هذا الفصل) وتتفاوت النماذج اللغوية في درجة اعتمادها على المعجم: طريقة تنظيم مداخلاته ومحتواه. وفي جميع الحالات، لابد أن يوفي المعجم بمطالب الفروع اللغوية المختلفة: مطالب الصوتيات فيما يخص كيفية نطق الكلمات، ومطالب الصرف فيما يخص الاشتقاق والتصريف، ومطالب النحو التركيبي، فيما يخص أنماط السياق اللغوي الذي ترد به هذه المفردات والذي تُحدد ـ بناء عليه ـ معاني الكلمات. فمعاني الفعل «أصاب» ـ على سبيل المثال ـ تختلف وفقا للسياق الذي ترد به ،كما في «أصاب السهم الهدف» بمعنى اخترقه ـ «أصاب فلان فلانا في مقتل» بمعنى قتله ـ «أصاب فلان في قوله» بمعنى صدق فيه.

(ب) **المعالجة الآلية للغة:** وتشتمل على شقين أساسيين:

الشق الأول: ويشمل نظم البرمجة المستخدمة في المعالجة الآلية، بواسطة الكمبيوتر، للفروع اللغوية المختلفة، مثل:

- نظام الصرف الآلي: الذي يقوم بتحليل الكلمات إلى عناصرها الاشتقاقية والتصريفية ، أو يعيد تركيبها من هذه العناصر (مثال: تحليل كلمة «بإيجادها» إلى: حرف الجر «الباء»، والضمير المتصل «ها»، وساق الكلمة «إيجاد»، الذي يُحلل إلى الجذر «وجد»، على صيغة «إفعال»).
- نظام الإعراب الآلي: الذي يقوم بإعراب الجمل آليا.
- نظام التحليل الدلالي الآلي، الذي يستخلص معاني الكلمات استنادا

إلى سياقها، ويحدد معاني الجمل استنادا إلى ما يسبقها وما يلحقها من جمل.

وذلك علاوة على قواعد البيانات المعجمية والقواميس الإلكترونية ومنهجيات هندسة اللغة.

الشق الثاني: ويتضمن التطبيقات التي تقوم على النظم اللغوية الآلية السابقة الذكر، والتي تشمل، على سبيل المثال لا الحصر، الترجمة الآلية ـ التدقيق الهجائي والنحوي ـ الفهرسة والاستخلاص الآلي ـ البحث العميق داخل مضمون النصوص ـ فهم الكلام ونطقه آليا.

العناصر الداخلية لمنظومة اللغة (المنظور العربي)

(أ) **عن نظام قواعد العربية**: ما زال نظام قواعد اللغة العربية جامدا منذ قرون عدة، أسير الطابع السردي، منصبا على إعطاء أمثلة من حالات الاطراد والشذوذ وبيان شروط صحة التراكيب النحوية؛ من حيث الوجوب والجواز والتفصيل أحيانا.

لقد أغفل المنظرون العرب النقلة النوعية التي أحدثتها الثورة العلمية في مجال اللسانيات الحديثة، ومنهجها التوليدي لا التحليلي؛ وذلك باستثناء قلة قليلة. وهناك عدد لا بأس به من الدارسين العرب بالولايات المتحدة يقومون بمساهمات جادة في تحديث التنظير للغة العربية، تظهر في أدبيات جمعيتهم العلمية التي أقاموها في مهجرهم، والتي تجتمع بصورة سنوية منتظمة.

(ب) **نظام المعجم**: لم نضف جديدا إلى نظام المعجم العربي منذ قرون، ولا يعني تجديد المعجم مجرد إضافة مفردات جديدة إلى قائمة كلماته، بل إدخال التعديلات اللازمة على تنظيمه العام، ومحتوى البيانات التي توصف من خلالها مداخلاته. وقد أعطى معجمنا العربي الخاصية الاشتقاقية، التي يتميز بها صرفنا العربي، ما تستحقه من عناية، إلا أنه أغفل ـ في المقابل ـ مطالب الفروع اللغوية الأخرى، خاصة في مجال النحو التركيبي. وقناعة الكاتب أن المعجم العربي يمثل بنية معقدة؛ نظرا إلى اعتماده على الجذور، وليس لديه اعتراض على ذلك، سوى أن الأساليب اليدوية التقليدية تعجز عن تناول مثل هذه البنية متعددة المستويات. إن معجمنا العربي يمثل

شبكة كثيفة من علاقات الاشتقاق الأكبر والأصغر، والترابطات بين معاني الكلمات والمترادفات والأضداد وما شابه، وكلها أمور يصعب معها تناول هذه البنية المعقدة، دون اللجوء إلى الأساليب الحديثة في بناء قواعد البيانات المعجمية.

(ج) **معالجة اللغة العربية آليا:** الموقف على جبهة المعالجة الآلية يبدو أكثر تفاؤلا؛ فهناك مبادرات جادة عدة لتطوير معالجات آلية لفروع اللغة العربية المختلفة. صوتا وحرفا وصرفا ونحوا ومعجما. تمثل تلك المعالجات اللغوية الأساسية البنية التحتية التي يمكن أن تقام عليها نظم أعمق لمعالجة اللغة العربية، مثل : نظم الفهم الآلي العميق لمحتوى النصوص، ونظم التلخيص الآلي التي تعتمد على فهم هذا المحتوى، لا مجرد الاعتماد على إحصائيات تواتر الألفاظ والجمل.

الحواشي

(*) وردت هذه المقولة على لسان «جاك دريدا» في ندوة عقدها بالمجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة ـ مايو 2000.

(*1) عالم الديناميكا الحرارية، ذو الأصل الروسي، والحائز جائزة نوبل ـ العام 1977.

(*2) من مقدمة كتابه «مشكلات حياتنا اللغوية».

(*3) تجدر الإشارة إلى أن هناك قلة قليلة داخل الاتحاد الأوروبي، ترى في التنوع اللغوي مصدر ضعف لا قوة.

(*4) المجمع الملكي الأسباني في مدريد يشرع للأسبانية سواء في موطنها الأصلي، أو في المجتمعات الناطقة بها في أمريكا اللاتينية.

(*5) فاللغة العربية ـ على سبيل المثال ـ تجمع بين الجمل الاسمية والفعلية، وتكتفي بمطابقة جنس الفعل مع جنس الفاعل (ذهب فلان وذهبت فلانة). وهو ما لا تلتزم به الإنجليزية، في حين تتطرف بعض اللغات في مطابقة الفعل مع الفاعل والمفعول معا، وتصل العربية المعرفة، ولا تصل النكرة (الرجل الذي كتب...، ورجل كتب...، في حين تصل الإنجليزية النكرة والمعرفة (the man who wrote.., a man who wrote) ولا تصل الصينية أيا منهما.

(*6) أثبتت بحوث الكاتب بما لا يدع مجالا للشك إمكان استخدام نظم الإعراب والصرف الآلية المصممة للغة العربية، في مجال اللغة الإنجليزية.

(*7) من أمثال: محمد عابد الجابري وحسن حنفي ومحمد أركون.

(*8) كمثال لما يراه الكاتب تعسفا، ما خلصت إليه بعض البحوث اللسانية الحديثة، من أن الجملة الاسمية هي الأصل في العربية، وأن تتابع الفعل فالفاعل فالمفعول في الجملة الفعلية العربية لا يمثل نمطا نحويا قياسيا.

(*9) يلاحظ أن الجملة الفعلية المبدوءة بالفعل «جاء» تتضمن فاعلا في هيئة شبه الجملة الاسمية المبدوءة بالاسم «الرجل» التي تتضمن ـ بدورها ـ الجملة الفعلية المبدوءة بالفعل «قابلنا» التي تتضمن مفعولا في هيئة شبه الجملة الاسمية المبدوءة بالاسم «أخا» التي تتضمن ـ بدورها ـ جملة الوصف الفعلية المبدوءة بالفعل «يعمل».

(*10) وكأمثلة لها ـ الشروع: أخذ يظهر، الانتهاء: استنفد الحلول، التكرار: تأرجحت الآراء، الاستئناف: عاود الكرة، الاستمرار: واصل الجهد، التدرج: تمدد الطول.

(*11) العلاقات المعجمية والصرفية والنحوية والتركيبية والدلالية والمقامية.

(*12) كان المفهوم السائد في الماضي هو أن تعلم اللغة الأجنبية يجب أن يتم دون اللجوء إلى اللغة الأم، وهو المبدأ الذي تم التخلي عنه؛ حيث يتم تعليم اللغات الأجنبية انطلاقا من المعارف اللغوية التي تكتسب خلال تعلم اللغة الأم.

(*13) وردت هذه الأرقام ضمن بحث استمع إليه الكاتب، في مؤتمر حول «الثقافة والتنمية»، عقد في كوبا في مارس 1999.

(*14) مصدرنا هنا: د. سمير غريب: مدير إدارة دار الكتب والوثائق القومية ـ ج.م.ع.

(*15) ولنأخذ مثالا لتكثيف المعنى في اللفظ العربي الواحد؛ من فعل «استكتب» أي طلب منه أن يكتب، و «هرب بفلان» الذي يتضمن معنى القيام بفعل الهروب، وتمكين آخر من الهروب، ومصاحبته فيه. يتضح مفهوم تكثيف المعنى من خلال مقارنة هذه الكلمات العربية المفردة بمقابلها في اللغة الإنجليزية.

6 ثقافة التربية: منظور عربي معلوماتي

- التربية تريد حلا...!
- التربية: نظرة تاريخية
- توجهات الفلسفة التربوية لعصر المعلومات
- علاقة التربية بمنظومة الثقافة
- منظومة التربية

6: 1 التربية تريد حلا...!

6: 1: 1 عن التربية وأهميتها (الطرح العام)

يشهد التاريخ، قديمه وحديثه، على محورية التربية[*1] في صنع الإنسان وبناء المجتمع. وقيمة الإنسان هي حصاد معارفه (39: 46)، وحضارة المجتمع ـ بدورها ـ هي المحصلة الجامعة لمعارف أبنائه التي وهبتها إياهم التربية، يؤكد ذلك ـ إيجابا ـ الموقع البارز الذي تحتله التربية في دساتير الشعوب، ومواثيق الثورات، وشعارات حركات الإصلاح الاجتماعي والديني، وإستراتيجيات التنمية. ويؤكده ـ سلبا ـ الدور الذي لعبته، وتلعبه، التربية في مخططات الهيمنة على الشعوب من استعمار وعولمة اقتصادية وغزو ثقافي ومعونات وقروض دولية. وللتربية نصيب الأسد في قسمة الإنفاق العام، وفي نسبة توزيع العمالة. وهذا شأنها، كان لا بد أن تصبح التربية شاغل الجميع: الحاكم والفيلسوف، والعالم والشاعر، والمصلح والثائر، ورائد الرأي ورجل الشارع.

ولم يكن هذا الحديث عن أهمية التربية أخطر

مما هو عليه الآن، والبشرية تغامر بمصيرها، مندفعة صوب مجتمع المعلومات، تتنازعها الآمال والمخاوف، وتنتظرها تحديات جسام لا عهد لها بها من قبل، وتلوح لها في الأفق فرص نادرة لم تكن متاحة لها في سابق عهودها. وإزاء هذا الوضع الإنساني الفريد، تعالت الأصوات تنادي بثورة اجتماعية شاملة على جميع الأصعدة، وثورة التربية - كما قيل - هي شرط لكل ثورة. وكما أن لا خلاف على الأهمية الاجتماعية للتربية، فليس هناك - في المقابل - وفاق على طبيعة علاقة التربية بالمجتمع؛ فتارة هي المحرك الدافع لمجتمعها، وتارة أخرى هي ذلك الخاضع المستكين لأهواء من يقبض على زمام الأمور في المجتمع. ومهما قيل أو سيقال، ستظل التربية - دوما - منطلقا لتحقيق الآمال، أو «مخرجا لإصلاح خرائب الآباء»، على حد تعبير جون ميلتون (143: 391). والتربية - وهذا مصيرها - إما أن تكون أس الداء، وإما أن تكون الدواء وطوق النجاة. فما إن تنتاب الشعوب المصاعب والمحن، حتى تستمسك بالتربية ملاذا أو مهربا. فها هم أهل فرنسا على سبيل المثال - يطالبون بتربية جديدة شاملة على إثر هزيمتها من بروسيا العام 1870، في حين تصدر حكومتها في المنفى، بعد هزيمتها على أيدي الألمان، وثيقتها الشهيرة للتجديد التربوي، والمعروفة باسم «تقرير الجزائر» (92: 201). وتتكرر مشاهد اللجوء «الحصن التربوي» عبر ملامح الصراع الإنساني، وليكن مثالنا الثاني هو الولايات المتحدة الأمريكية، وحركة الإصلاح التربوي الشامل التي قامت بها عقب نجاح السوفييت العام 1957 في إطلاق أول قمر صناعي «سبوتنيك». وهي نفسها الولايات المتحدة الأمريكية، التي فرضت نظام تعليمها الابتدائي على اليابان إبان استسلامها بعد هزيمتها في الحرب العالمية الثانية، ها هي ذاتها - وبضاعتها قد ردت إليها - تخشى من فجوة تربوية عبر الباسيفيكي تفصل بينها وبين اليابان، بعد أن استشعرت لهيب التفوق التكنولوجي القادم إليها من الشرق، وهو ما يذكرنا بفجوة تربوية أخرى - عبر الأطلنطي هذه المرة - ونقصد بها تلك التي روعت أوروبا الغربية نتيجة للتفوق الأمريكي علميا وتكنولوجيا. ومن المنطقي أن يكون لهذا الصراع، ذي الطابع التربوي، صيغته الخاصة في عصر المعلومات والعولمة. فكعهدنا بها، نجد الولايات المتحدة تسعى جاهدة إلى عولمة التربية هي الأخرى، تحت شعار حماية حقوق الإنسان، ناظرة إلى

هذه العولمة، كشرط أساسي لنجاح عولمتها الاقتصادية؛ فعن طريق التربية يمكن تنمية النزعات الاستهلاكية لدى الصغار، زبائن المستقبل.

عن التربية وأهميتها (المنظور العربي)

لا يجد الكاتب بداية لحديثه عن أهمية التربية من المنظور العربي أفضل مما ورد في إحدى رسائل إخوان الصفا المرصعة بصيغ «أفعل التفضيل» تمجيدا للتعليم ورفعة شأنه، حيث قالوا: «ليس من فريضة من بين جميع فرائض الشريعة وأحكام الناموس أوجب، ولا أفضل، ولا أجل، ولا أشرف، ولا أنفع للعبد، ولا أقرب له، بعد الإقرار به، والتصديق بأنبيائه ورسله فيما جاءوا به وخبروا عنه، من العلم وطلبه وتعليمه» (146:39). ويشهد تاريخنا العربي والإسلامي الحديث كيف كانت التربية ركيزة أساسية من ركائز ثوراته، من الثورة الوهابية حتى ثورة يوليو، كيف سعت كذلك مخططات الاستعمار في ذلك إلى تقويض النزعات الوطنية والقومية مستخدمة سلاح التربية؛ ويكفي شاهدا على ذلك ما فعله الاستعمار البريطاني في مصر، والاستعمار الفرنسي في الجزائر، والاحتلال الإسرائيلي في فلسطين، وما قامت به بعثات التبشير في مدارس الشام وجنوب السودان. وأزمة مجتمعنا العربي المتفاقمة هي ـ في جوهرها ـ أزمة تربوية كما خلص إلى ذلك عبدالله عبدالدايم (17:33)، وليس لنا سوى التربية مخرج لانتشال أمتنا العربية من أزمتها الراهنة؛ فالتربية هي مداخلنا إلى تنمية شاملة وصامدة، ودرعنا الواقي ضد الاكتساح الثقافي في عصر العولمة، وأهم أسلحتنا في مواجهة التفوق الإسرائيلي العلمي والتكنولوجي. وللتربية العربية موقعها المتميز في دساتير جميع الدول العربية. لذا، كان لا بد أن تدرج كأحد البنوك المهمة في أجندة المفاوضات العربية ـ الإسرائيلية، إن هدف إسرائيل، من وراء ذلك، هو فرض التطبيع علينا قسرا، من خلال تغيير مناهجنا التعليمية، بحيث تخلو من أي ذكر عن صلاح الدين ومعركة حطين، وأن نعيد صياغة ما سجله التاريخ عن الفتح الإسلامي في الأندلس، وكذلك عن رمسيس، فرعون مصر، وهجرة بني إسرائيل، حتى تأتي مناهج تربيتنا متسقة مع ما تنتجة صناعة الأفلام في هوليوود محاباة لليهود، من «الوصايا العشر» حتى أفلام الكارتون[*2].

خلاصة: إن تربيتنا في سباق مع الكارثة، بعد أهدرنا الكثير من مواردنا الطبيعية والمادية والبشرية، والتي كانت تكفي - ومازالت - لإحداث نهضة عربية شاملة، ومع نضوب مواردنا المادية وتضخم إنفاقنا التعليمي؛ بات رهاننا الوحيد على إبداع بشرنا؛ فالإنسان العربي هو العامل الحاسم إن أحسنا تربيته، ومصدر التهلكة إن أسأناها. ولا أمل في إستراتيجية تربوية قائمة على المشاركة في الغايات والموارد، تكون ركيزة لتكتل عربي صار من قبيل البدهيات والحتميات، ويبقى السؤال أو التحدي الأساسي: كيف نشعل فتيل الثورة في نظمنا التربوية، وقد غاب عن الساحة العربية معظم ثوارها؟!

6: 1: 2 التربية: ذلك اللغز المجتمعي (الطرح العام)

التربية ـ بحكم طبيعتها ـ منظومة غاية في التعقيد، سواء بسبب علاقتها المتشابكة مع ما بخارجها من منظومات اجتماعية أخرى، أو بسبب غابة التداخلات بين عناصرها الداخلية: المعلم والمتعلم والمادة والمنهج. وما من مجتمع: متقدما كان أو ناميا، راض عن حال تربيته، ولم يكن أمام التربية إلا أن تجد مخرجا، فراحت تبحث عن حل، وما من أحد يقدم حلا، بل ويهاب الكثيرون حتى أن يقدموا على حل. وهكذا ظلت إشكالية التربية، تتفاقم وتتعقد، وصدرت في شأنها الكتب على اختلاف ألوانها: البيضاء والسوداء والحمراء والخضراء، ومازالت على حالها يكتنفها الغموض.

وتعددت محاولات التشخيص، وتعددت معها وصفات العلاج، واستنفد الخطاب التربوي جميع مفردات قاموس التغيير: من تجويد وتجديد وتطوير وإصلاح وتثوير. وهكذا ظل الأمر على ما هو عليه، إصلاح تلو إصلاح ولا صلاح. ولذلك أسباب عدة نلخصها على الوجه التالي:

- تأتي معظم محاولات الإصلاح التربوي من القمة، أو من خارجها، ولا تمثل ـ في أغلب الأحيان ـ برامج عملية قابلة للتنفيذ، ولا تخرج ـ عادة عن كونها شعارات ورؤى تتناثر، وتذروها الرياح ما إن تتلامس مع تضاريس الواقع التربوي.

- المقاومة الداخلية التي تبديها مؤسسات التربية الرسمية ضد التغيرات الجذرية ذات الطابع الراديكالي؛ وذلك لقصورها الذاتي البطيء بحكم طبيعة دورتها السنوية ومراحلها الدراسية المترابطة، ناهيك عن الضغوط

الاجتماعية والقيود البيروقراطية.

- كون التربية حاليا شريدة معرفيا، تتنازعها علوم الإنسانيات، حائرة ما بين علم النفس وعلم الاجتماع ونظرية المعرفة وفلسفة العلوم. وما يزيد الموقف صعوبة، أن تبعية التربية هذه، هي ـ في حقيقة أمرها ـ تبعية لزائغ معرفي غير مستقر، فمعظم علوم الإنسانيات المذكورة، أبعد ما تكون حاليا عن الاستقرار نظريا وعلميا، فهي مازالت تنشد الوصول إلى مستوى العلوم الدقيقة. لقد عاقت هذه التبعية ظهور نظرية متبلورة للتربية كعلم مستقبل، في الوقت ذاته الذي يرى فيه البعض عدم الحاجة إلى مثل هذه النظرية، فالإنسانيات ـ في نظرهم ـ قادرة على أن تخط للتربية توجهاتها، وتحدد لها منطلقاتها.

وهكذا تاهت نظرية التربية بين عدم الاستقلال وعدم الاستقرار، في انتظار ما سوف يحدث على صعيد علوم الإنسانيات؛ التي تنتفض ـ هي الأخرى ـ حاليا بفعل المتغير المعلوماتي، وما يحمله من تغيرات جذرية على الصعيدين الاجتماعي والثقافي.

لا يقنع البعض بكل ما ذكرناه من أسباب عن أزمة التربية، ففي نظرهم أن التربية تتضمن تناقضا جوهريا في صميم ما تصبو إليه من غايات؛ فهي تسعى، فيما يشبه المستحيل، إلى أن تجمع بين تلبية مطالب الفرد وتلبية مطالب المجتمع، وبين تحرير الفرد وإطلاق قدراته وتنمية إرادة التغيير لديه، وبين أن تفرض عليه الانضباط والانقياد من أجل سلام المجتمع واستقراره. وهل لنا أن ننسى ما فعله أهل أثينا بسقراط جزاء له على تعليمه القائم على نقده اللاذع للمجتمع. ففي رأيهم، أن هذا النوع من التعليم، فيه مفسدة للشباب وتقويض لعمد بناء المجتمع؛ وهو أمر يصل إلى درجة الخيانة. وتجرع سقراط السم ثمنا لرحيق عقله الذي ما أراد به إلا أن يشفي ذويه من علل الفاسد والسائد. إن التربية تسعى ـ كما يقول حامد عمار ـ لإقامة مجموعة من التوازنات شبه المستحيلة، بين العالمي والمحلي، والروحي والمادي، والكلي والخصوصي، والتقاليد والحداثة، والمدى القصير والمدى الطويل، والحاجة للتنافس وتكافؤ الفرص، والتوسع في المعارف والقدرة على استيعابها [121]. إنه ـ بحق ـ تناقض جوهري، قابع هناك في صلب منظومة التربية، وهو يعكس بدوره تناقضا جوهريا أشمل في صلب

منظومة المجتمع، الحائرة بين الاستقرار ومداومة التغيير، وسيظل التناقض التربوي، مادام هذا التناقض المجتمعي باقيا، اللهم إلا إذا أوفت ثقافة المعلومات بوعدها في توليد مجتمع التعليم الحق، الذي يصبح فيه المجتمع بأسره تابعا للتربية، وليس العكس.

لقد تفشت ظاهرة نقد التربية، وكأنها كيان مستقل بذاته، عديم الصلة بالبيئة الاجتماعية التي أفرزته. وتمادى البعض معتبرا المدرسة هي المؤسسة الأكثر فشلا في رباعية المؤسسات الاجتماعية وليدة عصر الصناعة، ويقصد بها: المدرسة والمصنع والمستشفى والسجن (9:230). فالمدرسة هي المسؤولة ـ في رأي هؤلاء البعض ـ عن الاغتراب والخواء النفسي والخراب البيئي بل عن البطالة أيضا. وفي ظل الشعور بالإحباط الشديد من فشل المؤسسة التربوية، اشتد الهجوم عليها إلى حد المطالبة بمجتمع بلا مدارس، وقال البعض: أن نضع إنسانا على القمر أسهل من أن نصلح عملية التعليم العام (306). خلاصة القول: لم يعد النقد كافيا لفك طلاسم هذا اللغز المجتمعي المحير، وهو الأمر الذي يدعونا إلى ضرورة تناول إشكالية التربية في سياقها الاجتماعي الأشمل، وهو ما تسعى إليه التوجهات الحديثة لعلم اجتماع التربية.

إن حضارة اليوم تواجه سؤالا محوريا ذا شقين:

الشق الأول: كيف يتكيف إنسان هذا العصر مع متغيرات حاضره ومستقبله؛ أملا في حياة أكثر ثراء وانسجاما؟

الشق الثاني: كيف يحسن المجتمع الإنساني استغلال موارده البشرية لحل مشكلاته التي تتزايد باطراد؟

إن نجاح المجتمع الإنساني في إحداث النقلة النوعية لعصر المعلومات رهن بمدى نجاحه على الصعيد التربوي، ويعيب الكثيرون على التربية تباطؤها في استيعاب المتغيرات التكنولوجية والاقتصادية، في حين يرى آخرون أن هذا يرجع إلى طغيان الاقتصاد على الثقافة في عملية التنمية الاجتماعية. ودعنا نتعجل الرأي هنا لنقول: كما يكمن حل معضلة مجتمع المعلومات في التربية، فإن حل لغز التربية - في المقابل - يكمن في استغلال الإمكانات الهائلة التي تتيحها تكنولوجيا المعلومات، شريطة تفهمنا لعملية الإصلاح التربوي على أنها وليدة التفاعل بين التربية والمجتمع والتكنولوجيا.

التربية: ذلك اللغز المجتمعي (المنظور العربي)

تتخبط منظومة التربية العربية، عاجزة عن الخروج من فلك الدائرة الخبيثة، ولغزنا التربوي له ملامحه الخاصة من تسرب الصغار من الفصول، ونزيف العقول، وهادر الخريجين، وتضارب الآراء فيما يخص محتوى التعليم. هذا هو حملنا التربوي الثقيل، الذي ينوء به كاهلنا ونحن نهم بدخول عصر المعلومات. وقد اختلط اللغز التربوي مع ألغازنا الاجتماعية الأخرى؛ ليفرز وضعا شائكا للغاية، تعددت المواقف إزاءه، ما بين ردود الأفعال وسياسة إدارة الأزمان، وبين إغماض العين عن الراهن في غيبوبة الحديث عن أماني المستقبل، وما أروعه من حديث، وقد زادت تكنولوجيا المعلومات هذا الحديث إثارة وطلاوة، فراح أصحابه يؤكدون على أن هذه التكنولوجيا، ولا شيء غيرها، هي العصا السحرية لعلاج أزمنتا التربوية: من الدروس الخصوصية إلى تخلف الأساليب المنهجية، ومن زحمة الفصول إلى نقص المعامل، ومن إعادة تأهيل المعلمين إلى تنمية القدرات الإبداعية لدى المتعلمين.

بشكل عام، يمكن إرجاع أزمتنا التربوية إلى أسباب رئيسية عدة، من أهمها:

- غياب فلسفة اجتماعية نبني عليها فلسفة تربوية واقعية ومتماسكة، ولا يخفى على أحد أن ساحتنا الثقافية مشتتة، وأن معظم مثقفينا قد غابت عن وعيهم جوانب عدة من إشكالية التربية، التي تزداد تعقيدا وتشعبا يوما بعد يوم.

- الأسلوب المتبع في ملء الفراغ التربوي بالاستعارة من الغرب؛ نأخذ الفكرة ونقيضها، دون أن يكون لخصوصيتنا دور كبير ولم نقف منها موقفا نقديا، ولم نقرأ الشروط الاجتماعية التي احتضنت ولادتها (28:6)... إننا نستورد نظما تربوية منزوعة من سياقها الاجتماعي، وإن جاز هذا في الماضي، فهو يتناقض جوهريا مع توجه التربية الحديثة نحو زيادة تفاعلها مع بيئتها الاجتماعية.

- ندرة جهود التنظير التربوي، ونادرها قد طغى على معظمه المنهج على حساب المحتوى، واستهوتنا الإحصائيات وجداول الأرقام والمؤشرات وعلاقات الارتباط، وغاب عنا اختلاف طبيعة التربية عن تلك للعلوم الطبيعية. فلا يكفي، في تناول قضايا التربية، الوقوف عند حدود التحليل

الكمي، خاصة في بلدان مثل بلداننا العربية، التي تمتلئ بأمور عدة يتعذر قياسها أو إخضاعها للتحليل الإحصائي الدقيق على الأقل في ظل الظروف الراهنة.

- الخلط بين الغايات والمقاصد والإجراءات، والوقوف عند حدود العموميات والمبادئ العامة التي لا خلاف عليها، وليطلع من يرتاب فيما نزعمه على وثائق سياساتنا التربوية، ونتائج مؤتمراتنا وندواتنا حول تطوير نظم تعليمنا وتأهيل معلمينا.

- وأخيرا وليس آخرا، مازال البعض لدينا متشبثا بأفكار بالية، من قبيل التمسك بأساليب الحفظ والتلقين، ورفضه لمبدأ المساواة في تعليم الذكور والإناث. وليسمح لنا القراء هنا، وقد استفزنا رفض هذا البعض، بأن نقيم حلقة من حلقات التشعب النصي hypertext[(3*)]، برابطة نصية مع حديث سم سقراط الذي ورد في طرحنا العام، وذلك بالاشارة إلى ما حدث في لقاء ملك المغرب مع بعض حكمائه ليعلن لهم عن قراره بتعليم الإناث، حيث انبرى له أحدهم قائلا: أفعى وتسقيها سما...![(4*)].

6: 2 التربية: نظرة تاريخية

6: 2: 1 نظرة تاريخية: لماذا؟ (الطرح العام)

كما أسلفنا، نحن نعيش عصرا جديدا، يلح علينا بشدة، مطالبا بحقه في تربية جديدة، ويتفق الجميع على أن سمات مجتمع المعلومات وتوجهاته، أبعد ما تكون عن التجديد، وقد أصبحت عملية التنبؤ صعبة للغاية، إن لم تكن شبه مستحيلة. فواقع هذا المجتمع، ومستقبله، رهن بما تدخره العقول من أفكار، وما تصبو إليه همم البشر من أفعال. إزاء هذا الوضع الغامض والزائغ والمعقد، ليس أمامنا، لكى نتصور ما يمكن أن تكون عليه تربية عصر المعلومات، إلا أن ننقب في تراث التربية الإنساني، عسانا نعثر في ثناياه على مفاتيح لفك طلاسم هذا اللغز المجتمعي المحير، وقد دفعتنا إلى فعل ذلك، قناعتنا بما خلص إليه البعض، من أن فشل نظريات التربية الحديثة إنما يكمن في عدم إدراك العلاقة بين المنظور الثقافي في الماضي وتطور التربية في الحاضر (26:230)، وفي جميع الحالات، فإن استعراضنا التاريخي لكفيل بأن يوضح لنا التناقضات الجوهرية للفلسفات التربوية،

على مرالعصور، والقضايا المحورية التي تصدت لها. ومن أهم هذه القضايا بالنسبة لدراستنا الراهنة، هي تلك الخاصة بتفاعل منظومة التعليم مع تكنولوجيا المعلومات. إن هناك من أهل المعلوماتية من يزعم أن تكنولوجيا المعلومات قادرة على تصفية الآثار السلبية التي خلفتها تكنولوجيا الصناعة، في حين يزعم أقرانهم من منظري تربية المعلومات قدرة تربيتهم الجديدة على حسم التناقضات الجوهرية الكامنة في صلب منظومة التربية، والتي أشرنا إليها في الفقرة السابقة، وليس من قبيل المبالغة اعتبار تربية عصر المعلومات ـ باستخدم لغة الرياضيات الحديثة ـ فئة عليا superset لما سبقها من تربويات؛ فهي تجمع من، حيث الغايات والأساليب، والإشكاليات أيضا، معظم تلك التي طرحتها التربويات السابقة عليها، ويفسر ذلك لماذا راح التربويون المعاصرون ينقبون في أوراقهم القديمة؛ بحثا عن منطلقات جديدة؛ لحل معضلة التربية، وفهم العلاقة الجدلية بينها وبين المجتمع الذي أفرزها، أو أفرزته.

نظرة تاريخية: لماذا؟ (المنظور العربي)

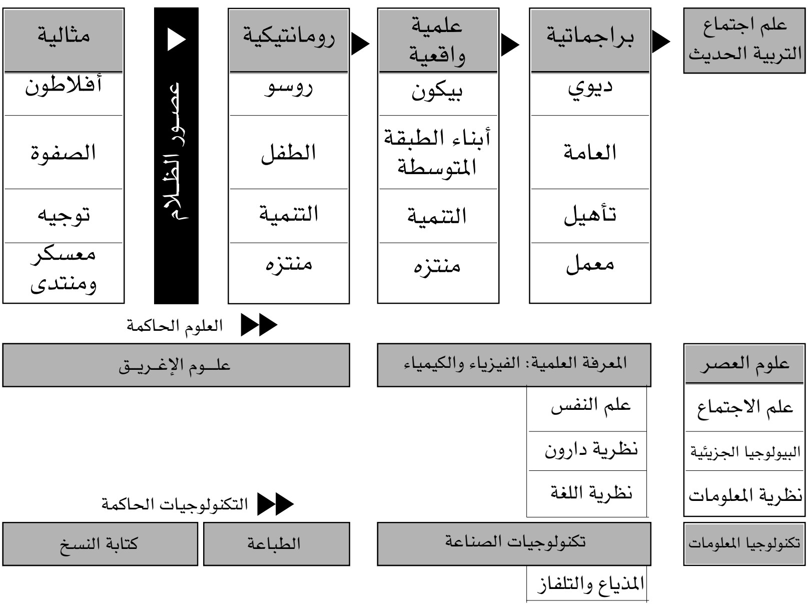
نحن ـ بلاشك ـ أحوج من غيرنا إلى مناهل ومنطلقات جديدة، نقيم عليها فلسفتنا التربوية في عصر المعلومات، ولا يمكن لنا التصدي لما يتعرض له جدل الأصالة والمعاصرة، الدائر على ساحتنا التربوية، دون أن نرده إلى جذوره التاريخية؛ استيضاحا لمصادر نشأته، وما يمكن أن يؤول إليه هذا الجدل. علاوة على ذلك، فإن الكاتب، كعهده في كل ما يتعلق بالشأن الثقافي، يؤمن بأهمية الفكر التربوي المقارن، إلا أن مقارنة تربيتنا الراهنة بتربية الآخر المتقدم لن تضيف ـ في رأيه ـ جديدا، فهي لا تخرج عن كونها ـ بسبب تبعيتنا التربوية ـ مقارنة فرع بأصل، أو مضاهاة تابع بسائد. في ضوء ذلك، فإن الطرح التاريخي، هو فرصتنا لمقارنة أكثر جدوى ومغزى، ولإبراز مواضع العمومية والخصوصية في فلسفتنا التربوية.

6: 2: 2 مسار تطور فلسفة التربية (الطرح العام)

لا يتسع المجال لدراسة تاريخية مستفيضة، وسنكتفي، في تطور التربية التاريخي، بطرحه في هيئة عدد محدود من علامات الطريق البارزة في

مسار هذا التطور الشكل (6: 1). وقد عبرنا عن كل من هذه العلامات بدلالة عدد من المؤشرات أو البارامتريات، وهي:

- النمط التربوي العام.
- رائد المدرسة التربوية.
- الفئة الاجتماعية الغالبة المستهدفة من التعليم.
- الطابع السائد لأسلوب التعليم.
- الشكل السائد للمؤسسة التعليمية.
- المعرفة أو العلوم الحاكمة.
- التكنولوجيات الحاكمة.



الشكل (6: 1) ملخص المسار التاريخي لتطور الفكر التربوي

وبشكل عام، يمكن تلخيص مسار تطور فلسفة التربية في رباعية: المثالية - الرومانتيكية - العلمية الواقعية - البراجماتية، وأخيرا وهو ما يسعى إليه علم اجتماع التربية الحديث، من أجل بلورة فلسفة تربوية لعصر المعلومات لم تتضح معالمها بعد.

سنتناول فيما يلي كلا من هذه الفلسفات التربوية.

(أ) **المثالية**: أرسى أفلاطون في جمهوريته، أو مدينته الفاضلة، الغاية القصوى من تربيته المثالية، ألا وهي خلق صفوة من الساسة والفلاسفة والعلماء والرياضيين والقادة العسكريين، تكون قادرة على تغيير مجتمعها وإعادة بنائه. وفي أكاديميته، جامعة تلك الصفوة، أوضح لنا أفلاطون كيفية الوصول إلى غايته التربوية، والتي تتلخص في إكساب العقل مرونة عقلانية يواجه بها الواقع. والعقل في مثالية أفلاطون هو ما يتعلمه، أو هو صنيعة غذائه؛ فهو يسمو فوق التقليدي والمعهود والسائد من المعتقدات والأفكار إذا ما غذيناه ـ أي العقل ـ بالمعرفة الراقية المجردة، لذا فاختيار المنهج في التربية المثالية ذو أهمية حيوية (230: 14). إن التربية المثالية تزدري الواقع وخبراته، وتحتقر العامة وأفكارهم. أما عن منهجه السائد، فقد سار أفلاطون على درب معلمه سقراط؛ فجعل من أكاديميته منتدى للحوار، وإشاعة التفكير النقدي، وتأكيد الروح الديموقراطية التي شاعت في أرجاء أثينا القديمة . وفي الوقت ذاته، جعل الأكاديمية معسكرا للتربية العسكرية والإدارة المدنية. أما عن أسلوب التربية، فقد ساده طابع التوجيه وتنشئة المثل العليا: الصدق والخير و الجمال. خلاصة الأمر ـ إذن ـ أن التعليم في تربية أفلاطون المثالية مرادف للفضيلة، وغاية التربية، هي إرساء قواعد المجتمع؛ لذا فهي فلسفة نخبوية في أساسها، ذات صلة وثيقة بالسياسة.

والآن، نلخص مغزى هذه التربية المثالية، من منظور تربية عصر المعلومات، في النقاط التالية:

- أهمية الحوار وتنمية التفكير النقدي لتخليص التعليم من آفة التلقي السلبي.
- أهمية التربية المتكاملة (تنمية العقل والجسد).
- إعادة التوازن للرسالة التربوية؛ من حيث ضرورة الجمع بين اكتساب المعرفة (الحق) والتحلي بمبادئ الأخلاق (الخير) وتذوق الفنون (الجمال).

(ب) **الرومانتيكية**: أودع روسو خلاصة فلسفته التربوية في كتابة الشهير «إميل»، معلنا فيه سخطه الشديد على تربية عصره؛ مما أثار حفيظة أولي الأمر، فأمروا بحرق الكتاب في باريس وجنيف (230: 16). يعتبر البعض

كتاب «إميل» ملحقا لجمهورية أفلاطون، وذلك على الرغم من كونه انقلابا حقيقيا ضد فلسفة أفلاطون المثالية، ونكتفي هنا ببعض من أوجه الاختلاف الجوهرية بينهما:

- بينما العقل في مثالية أفلاطون، هو صنيعة غذائه، فالعقل في رومانتيكية روسو، ينمو كالجسد، بغض النظر عما يتغذى عليه (230: 20).

- المعرفة في تربية أفلاطون هي التي تقود عملية النمو، على العكس من ذلك فإن مراحل عمر الطفل في تربية روسو، هي التي تحدد نوعية المعرفة التي يتلقاها.

- بينما نجد أن غاية التربية في مثالية أفلاطون هي إرساء قواعد المجتمع؛ فغاية تربية روسو الرومانتيكية، هي بناء الإنسان أساسا.

لقد أكدت التربية الرومانتيكية أنه لا صلاح للمجتمع، إلا بصلاح تربيته، فروسو هو القائل: كونوا أناسا أولا؛ كي تكونوا مواطنين من جديد؛ كي تكونوا دولة من جديد (33: 23). والسبيل إلى تحقيق ذلك، هو أن تعهد إلى التربية مسؤولية قيادة مجتمعها، وأن يسترد الإنسان وفاقه مع الطبيعة. يتطلب، بدوره، أن نبدأ بالطفل، الذي ترى تربية روسو ضرورة عزله عن المجتمع، ليواجه الطبيعة مباشرة. فالطبيعة هي المعلم، والتنمية النفسية والبدنية والعضلية، هي غاية التربية. وهكذا تحولت المؤسسة التعليمية إلى منتزه للقاء الطبيعة البكر.

والآن، نلخص رأينا في مغزى التربية الرومانتيكية، من منظور تربية عصر المعلومات، فيما يلي:

- لقد اعترضت تربية روسو على التركيز الزائد على الكتاب (الذي يمثل تكنولوجيا التعليم في عصره) على حساب الاهتمام بغايات التربية الأساسية. معنى ذلك، في سياقنا الراهن، أنه مهما ارتقت التكنولوجيا، فلا بد أن تظل أداة للتربية وتابعة لها وليس العكس.

- ضرورة تعامل التربية مع الواقع مباشرة، وأهمية التعلم ذاتيا، من خلال التفاعل مع هذا الواقع.

- الاهتمام بمرحلة الطفولة، ومشكلتنا الراهنة هي في تربية الطفولة وطفولة التربية.

(ج) **العلمية الواقعية:** في كتاب «الأورجانون الجديد»، أكد فرنسيس

بيكون دعوته إلى تربية واقعية جديدة، تختلف ـ جوهريا ـ عن مثالية أفلاطون ورومانتيكية روسو، تربية لا تقوم على دراسة الأدب الكلاسيكي وتعليم اللاتينية، بل على الإيمان بقدرة العلم وواقعية التجريب، وكون الطبيعة كتابا مفتوحا، يمارس العقل فيها قدرته على كشف أسرارها، لكي يمكن تسخيرها من أجل تحقيق رفاهية الإنسان (143: 383). لقد سادت تربية بيكون العلمية الواقعية بفعل عاملين أساسين أولهما: الانتصارات التي حققها علم عصر التنوير، خاصة في مجالي الطبيعة والكيمياء. وثانيهما: الإصلاح الديني على يد مارتن لوثر، الذي أطاح باحتكار الكنيسة لسلطة المعرفة. لقد أولت تربية بيكون اهتمامها لأبناء الطبقة المتوسطة؛ تلبية لمطالب سوق العمل، وساد التربية طابع التعليم المباشر وإكساب المهارات، وتحولت المدارس إلى ما يشبه مصانع إنتاج الجملة، وأصبحت المدرسة ـ كما قيل ـ هي أولى بيروقراطيات مجتمع التصنيع.

والآن، نلخص رأينا في مغزى تلك التربية العلمية الواقعية، من منظور تربية عصر المعلومات:

- المعرفة العلمية وحدها لا تكفي، فهي ليست إلا فرعا واحدا من فروع معرفة عصر المعلومات.

- هل يمكن للمدرسة وليدة عصر التصنيع أن تختفي في عصر المعلومات؟

- ينحاز إنتاج الطلبة بالجملة إلى الفرد المتوسط على حساب المتميز والمتعثر، وهو ما تسعى تربية عصر المعلومات إلى تحاشيه بإضفاء الطابع الشخصي على عملية التعليم.

(د) **البراجماتية:** هي هذا المزيج النظري التطبيقي القائم على رباعية: الواقعية والنفعية والعملية والمادية، وتربية البراجماتية، هي النمط التربوي الذي أفرزه المجتمع الأمريكي وتقدمه التكنولوجي. لقد اعترض جون ديوى، فيلسوف التربية البراجماتية، على انعزال التربية عن المجتمع، لذا جعل غاية التربية هي تأهيل الفرد، كي يتكيف بسرعة تلبية لمطالب مجتمعه، وتجاوبا مع تغير بيئته الاجتماعية وبيئة عمله، وذلك بفعل الحراك الاجتماعي والتنقل ما بين أماكن العمل. لقد تأثر ديوى بأفكار نظرية التطور لدارون، في قدرة الإنسان على التكيف مع البيئة التي تعيش فيها، واكتسابه المعارف

والخبرات والمهارات، في سبيل البقاء في ظل مبدأ «البقاء للأصلح»، وتقترب براجماتية ديوي، من فكر هربرت سبنسر، الذي ينادي بتربية النضال والسعي من أجل الحياة، وبأن قيمة التربية ينبغي أن تقاس من منظور الحاجات البيولوجية والاجتماعية للفرد، في صراعه من أجل الحياة (27:230).

وشعار التربية البراجماتية هو «تعلم بأن تعمل». وهكذا تحولت المدرسة إلى مؤسسة اجتماعية، لتلبية مطالب سوق العمل، واكتسبت التربية الطابع النفعي المحض، فلا بد للتعليم أن تكون له قيمته الفورية، والمعرفة لا تطلب لذاتها، بل كأداة للعمل المنتج، والأفكار هي بمنزلة خطط عمل لحل المشاكل، وللتجربة والخبرة دور أساسي في الحصول على المعرفة. في ظل هذه المبادئ، أصبحت المدرسة بمنزلة نموذج مصغر للحياة خارجها، «عمل» لإجراء التجارب، وممارسة الخبرات. من هنا، أضحى من الضروري، لتأكيد طابعها المادي، أن تلجأ التربية البراجماتية إلى أساليب علم النفس المعياري؛ لقياس رصيد المهارات ونطاق القدرات ومستوى الذكاء الذي أصبح في حكم السلعة.

والآن دعنا نلخص مغزى التربية البراجماتية من منظور تربية المعلومات:

- كان الارتباط الشديد بين تربية عصر الصناعة ومطالب سوق العمل على حساب أهداف التربية الأخرى. وهو الخلل التربوي الذي تسعى تربية عصر المعلومات إلى تحاشيه.

- لقد أسرفت التربية البراجماتية في تنمية النزعة التنافسية؛ حتى أصبح شعار «اقتل منافسك» قولا مقبولا ومستساغا، وهو ما يتناقض ـ بالمرة ـ مع تربية عصر المعلومات التي تسعى إلى الجمع بين التعاون والتنافس.

(هـ) **علم الاجتماع الحديث:** أغلفت المذاهب التربوية سالفة الذكر النظر إلى التربية في إطارها الاجتماعي الأشمل، كيف تتفاعل التربية؛ بصفتها من أخطر القوي الرمزية، مع القوى الاجتماعية الأخرى. يسعى علم اجتماع التربية الحديث إلى وضع أيدينا على هذه العلاقة الخفية التي تربط التربية بمجتمعها، فهذا ألتوسير يرى التربية سلاحا أيديولوجيا في يد السلطة لفرض السلوك المنضبط على مواطنيها، أما بوردو فيؤكد أن التربية المعاصرة، تعيد توليد المجتمع وطبقيته السائدة وهيكلية قواه المسيطرة؛ لكي يظل

الغني والقادر غنيا وقادرا، والفقير والمستضعف فقيرا ومستضعفا. ويركز يونج على كيف يمكن للمعرفة التي تولدها التربية أن تكون مصدرا للقوة الاجتماعية.

بعد هذا الاستعراض لمسار تطور التربية، يمكننا استخلاص بعض ملامحه العامة:

- المسار سلسلة من ردود الفعل، والتأرجح ما بين غايات تربوية متناقضة.

- كل مذهب تربوي، عادة ما ينحاز إلى غاية تربوية أساسية، على حساب الغايات الأخرى.

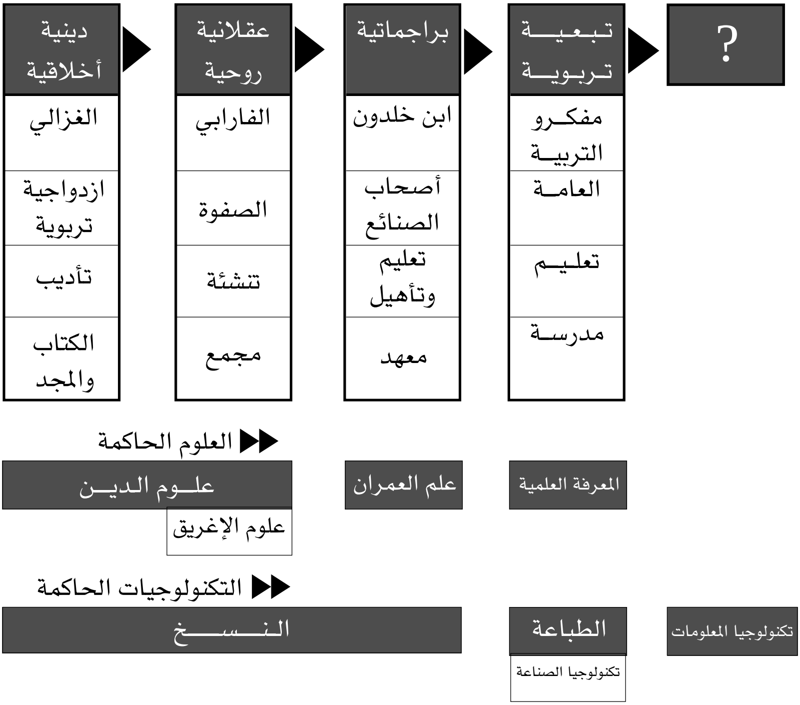
- لكل مذهب تربوي داعيته ومنظره وواضع منهجه، فبيكون هو داعية العملية الواقعية ليأتي جون لوك من بعده ليؤصل أساسها النظري، ثم جون ستيورات ميل؛ ليضع أسسها المنهجية، وبالنسبة للتربية البراجماتية فتشارلز بيرس هو فيلسوفها، ووليم جميس هو منظرها العلمي، وجون ديوي هو مؤسس مناهجها العلمية.

- لا يتبع تطور الفلسفة التربوية مسارا خطيا، بل مسارا حلزونيا، يعاود الرجوع فيه إلى نقاط بدايته أحيانا، فتربية أفلاطون المثالية لتعليم الصفوة، تجد صدى لها في فلسفة نيتشه، التي تطالب بالعودة إلى تعليم النخبة، وواقعية بيكون العلمية الواقعية، تتصاعد في دورتها الحلزونية، إلى واقعية برتراند رسل المبنية على التحليلية المنطقية. إن تربية عصر المعلومات تبحث عن نقطة التوازن بين المثالية والبراجماتية والرومانتيكية والواقعية، وبين المعرفة المجردة والخبرة العملية، وبين التوفيق بين مطالب الفرد ومطالب المجتمع، وبين الانخراط في عمومية الكلي دون أن نفقد خصوصية الفردي.

مسار تطور فلسفة التربية (المنظور العربي)

يتخذ طرحنا الحالي من صدر الإسلام، نقطة بداية لتاريخ تطور الفلسفة التربوية عربيا، يمكن تلخيص مسار التطور كما في الشكل(6 : 2) في رباعية: الفلسفة الأخلاقية ـ الفلسفة العقلانية الروحية ـ الفلسفة البراجماتية ـ مرحلة التبعية التربوية، وكما هو وارد من الشكل، فقد لُخصت هذه المدارس التربوية بدلالة البارامتريات المستخدمة ذاتها في طرحنا العام المناظر، سنتناول فيما يلي كلا من هذه الفلسفات التربوية بإيجاز.

(أ) **الفلسفة الدينية الأخلاقية:** صاغ علماء الدين نمط التربية الإسلامية



الشكل (2:6) ملخص مسار التطور التاريخي لفكر التربية العربية

في صدر الإسلام في طابع تأديبي ذي توجه أخلاقي محض، ففي رأيهم أن هدف التربية «هو تحصيل العلم النافع في الآخرة والمرغب في الطاعة»، وهم بذلك يتجنبون حقائق إنسانية عدة في العملية التربوية (92: 119)، وربما يبدو ذلك منطقيا مع مافرضه الفتح الإسلامي في صدر الإسلام، حيث مثل الالتزام الديني عاملا حاسما، من أجل المحافظة على قوة الدين في مركز نشأته، حتى يحتفظ بقوته عندما يمتد إلى الأطراف مع توسع الفتوحات، وظهر هناك نوع من ازدواجية التربية العربية الإسلامية، تربية واسعة لأبناء الخاصة تضم الدين واللغة والأدب والعلم والفنون والفروسية وقواعد السلوك، أما الثانية فلأبناء العامة، لذا فقد اقتصر تعليمهم (أو تأديبهم) على القرآن ومبادئ الدين، وبعض مبادئ النحو الضرورية لقراءة

القرآن.

(ب) **عقلانية روحية:** كانت النزعة العقلانية، في التربية الإسلامية، وليدة امتزاج المعرفة الإسلامية مع فكر أهل الإغريق، بعد أن أقام المأمون دار الحكمة، وراح الفارابي يحاور فكر أفلاطون، وتربية مدينته الفاضلة، وسعى إلى الجمع بين رأي الحكيمين: أفلاطون وأرسطو ، وكان الفارابي شديد الإيمان بالعقل، والعقل في رأيه سابق على العمل، و الفهم عنده معناه الاستيعاب لا الحفظ والتلقين (39: 38)، ومن بعده ابن سينا الذي وجد في ترجمة الفارابي لفكر الإغريق غايته المنشودة. خلافا لمن سبقوهم، فقد ذهب هؤلاء التربويون المسلمون ذوو التوجه الفلسفي، إلى الإباحة المطلقة في التماس الحقيقة. وعلى الرغم من اختلافهم، إلا أنهم اتفقوا مع الأخلاقيين في أن الغاية العليا من طلب العلم، ومن التربية والتعليم إجمالا، هي غاية دينية لاتحتمل جدلا أو نقاشا، فبينما تجعل مثالية أفلاطون الفضيلة هي العلم، فالعلم ـ في نظر ـ إخوان الصفا ـ هو الفضيلة.

(ج) **البراجماتية:** لا غرابة في أن يقيم ابن خلدون، مؤسس علم الاجتماع الإنساني، رؤيته للتربية على مفهوم «العمران البشري»، خلافا لمن سبقوه في انطلاقهم من الدين والفلسفة، فالتربية ـ في رأيه ـ ظاهرة حضارية، وهي «أم الصنائع» ، ولاتزدهر إلا في البيئة الحضرية، والثقافة هي المنبع الرئيسي للتنمية، ويقترب ابن خلدون من أفلاطون في كونه فيلسوفا سياسيا يتعامل مع التربية من حيث هي عنصر من عناصر تكوين الدولة، وكذلك أدوات من أدوات صنعها، ويقترب ابن خلدون ـ أيضا ـ من فكر هيجل في نظرته التاريخية عندما سعى إلى فرز القوى العاملة في التاريخ ومنها القوى التربوية، ويميل الكاتب إلى الزعم أن فكر التربية لدى ابن خلدون يقترب ـ في بعض أوجهه ـ من ذلك للماركسيين الجدد مثل ألتوسير، وذلك فيما قاله من أن القهر السياسي والعسكري، أكبر مصدر للتعلم الجماعي، وما أكد عليه من إمكان النظر إلى الوظيفة السياسية للتربية كبديل عن القوة القاهرة (39: 149).

(د) **تبعية تربوية:** تربية أيامنا حائرة ما بين التبعية والطوبائية الإسلامية، تحاول التوفيق بين المتناقضات، ولم تنجح حتى الآن في بلورة فلسفة تربوية عربية، و قد سعى القباني في مصر إلى أن يطبق تربية جون

ديوى البراجماتية، وجاء من بعده كثيرون يوفقون أحيانا، وينسخون أحيانا أخرى. أما مفكرو التربية الإسلاميون، فنراهم في لهفتهم على خلق بديل تربوي إسلامي، يقفزون مباشرة من عدد محدود من المبادئ والمنطلقات العامة والأفكار غير الناضجة، إلى مستوى الإجراءات التفضيلية ، شاملين برعايتهم كل شيء: من مضمون المناهج التعليمية وطرق التدريس، إلى أغاني الأطفال وأناشيد الصباح، ناهيك عن آداب الحوار ومجالسة الكبار وملاطفة الصغار.

ونلخص فيما يلي أهم الملامح البارزة لتاريخ فكرنا التربوي:

- ثمة تشابه ما بين النمط العالمي العام لتطور الفلسفة التربوية ونمط المنظور العربي.

- كغيره من فروع الفكر الثقافي العربي، لم يحدث التراكم في الفكر التربوي، ومآل ذلك ـ في النهاية ـ هو التبعية.

- كان ابن خلدون سباقا في تناول العلاقة بين التربية والقوى الاجتماعية الأخرى: سياسية واقتصادية وثقافية وعسكرية.

- يتضمن تراث التربية العربية كثيرا من المبادئ والأسس التي تتفق وتوجهات تربية عصر المعلومات. من أهم هذه التوجهات ـ كما هو معروف ـ استمرارية التعليم، والقدرة على التعلم ذاتيا. في هذا الصدد، أكدت الفلسفة التربوية لإخوان الصفا على ضرورة تعليم الإنسان أصول البحث والدراسة ليصبح قادرا على الاستمرار في التعليم ، وهو ما عادت وأكدته تربية ابن خلدون، في اهتمامها باستمرارية التعليم ومداومة التحصيل (39: 147)

6:3 توجهات الفلسفة التربوية لعصر المعلومات

6:3:1 الغايات الأساسية لتربية عصر المعلومات (الطرح العام)

تسعى كل فلسفة تربوية إلى تحديد غايات التربية، وعليها أن تجيب، في شأن ذلك، عن سؤالين محوريين :

السؤال الأول: لماذا نعلم ونتعلم؟

السؤال الثاني: ما مواصفات الإنسان نتاج التربية المنشودة؟

غني عن القول أن الفلسفة التربوية لا تنشأ من فراغ، فلا بد لها أن

تستند إلى فلسفة اجتماعية واضحة، أو لنقل: على قدر كاف من الوضوح. ولا يفترض في الفلسفة التربوية كونها ثابتة ونهائية، حيث يجب أن تتسم بالتنوع والمرونة، وقد تضاعفت أهمية هذه الأمور بالنسبة لمجتمع المعلومات، الذي مازال مستقبله في قبضة المجهول وهو أبعد ما يكون عن التحديد، ومازال يفتقد إلى نظرية اجتماعية قادرة على تلبية مطالبه المتعددة، والتعامل مع ديناميةِ متغيراته، وعلى الرغم من عدم التحديد وغياب النظرية، فهناك شبه اتفاق على ثلاث غايات رئيسية لابد أن تفي بها التربية في كل عصر وهي:

- إكساب المعرفة.
- التكيف مع المجتمع.
- تنمية الذات والقدرات الشخصية.

وقد أضاف عصر المعلومات بعدا تربويا رابعا، ألا وهو ضرورة إعداد إنسان العصر لمواجهة مطالب الحياة في ظل العولمة، وهي الغايات الأربع، التي لا تختلف كثيرا عن تلك التي وردت في تقرير اليونسكو «التعليم ذلك الكنز المكنون» (65: 77) والتي صاغها على الوجه التالي:

- تعلم لتعرف.
- تعلم لتعمل.
- تعلم لتكون.
- تعلم لتشارك الآخرين.

وسنسعى فيما يلي لتحديد ما يعنيه كل من هذه الغايات التربوية الأربع من منظور معلوماتي.

الغايات الأساسية لتربية عصر المعلومات (المنظور العربي)

تواجه التربية العربية موقفا صعبا للغاية، فقد أصبح لزاما عليها أن تجدد رؤيتها الفلسفية لمواجهة المتغير المعلوماتي في غياب فلسفة اجتماعية عربية، وقصور الوعي العام في إدراك الجوانب التربوية العديدة لظاهرة المعلومات وعولمتها، وقد سعى عبدالله عبدالدايم إلى تجاوز هذه الإشكالية، بأن خلص إلى مجموعة من المبادئ التربوية الأساسية التي تضمنتها إستراتيجية تطوير التربية العربية (33: 222)، وقد رأينا ـ اتساقا مع النهج

المقارن لدراستنا الحالية ـ أن نرد قائمة المبادئ تلك، إلى الغايات الأربع التي أوردناها في ختام طرحنا العام، وذلك في هيئة مصفوفة تربط مابين هذه المبادئ وتلك الغايات الشكل (3:6) كما هو واضح من الشكل، يمكن لأي من المبادئ أن يشترك في أكثر من واحدة من الغايات الأربع، و العكس صحيح أيضا .

الشكل (3:6) مصفوفة مبادئ التربية العربية وغايات التربية الأربع

المبدأ التربوي	تعلم لتعرف	تعلم لتعمل	تعلم لتكون	تعلم لتشارك الآخرين
■ المبدأ الإنساني: تأكيد مكانة الإنسان في نظام المجتمع، ونظام الوجود عامة.		●	●	●
■ المبدأ الإيماني: ترسيخ الإيمان بالله وبالديانات الأخرى.			●	
■ المبدأ القومي: جعل العمل من أجل الوحدة العربية محورا رئيسيا.			●	●
■ المبدأ الديموقراطي: تنمية التعاون بين المواطنين، والمساهمة في خير المجتمع وفي اتخاذ القرارات.		●	●	●
■ مبدأ التربية للعلم: ترسيخ العلم لدى المتعلم منهجا ومحتوى والإسهام في البحث العلمي.	●	●		
■ مبدأ التربية للعمل: الربط بين الفكر والعمل وإعداد المتعلم لمطالب العمل وتطوراته المستقبلية.		●	●	
■ مبدأ التربية للحياة: توثيق الصلات بين التربية والمجتمع، وتمكين المتعلم من التطور باستمرار.	●	●	●	
■ مبدأ التربية المتكاملة: تربية شاملة متوازنة لجميع الجوانب، متصلة من المهد إلى اللحد.	●	●	●	●
■ مبدأ الأصالة والتجديد: تنمية الابتكار، والتمسك بخير ما في الماضي في صلته بالحاضر والمستقبل.	●	●	●	
■ مبدأ التربية للإنسانية: وحدة الجنس البشري والمساواة بين شعوبه، والأخوة والسلام والتعاون الدولي.				●

تتفق معظم الآراء على أن تربيتنا الراهنة منحازة إلى غاية «تعلم لتعرف» على حساب الغايات الثلاث الآخرى، خاصة فيما يتعلق بغاية «تعلم لتكون»،

التي تهدف إلى تنمية قدرات الفرد ومواهبه، والاحتفاظ بهويته والاعتزاز بذاتيته. و نظرة سريعة إلى مصفوفة المبادئ والغايات الواردة في الشكل (3:6) تؤكد لنا مدى الأهمية التي أولاها عبدالله عبد الدايم لشق «تعلم لتكون» في قائمة مبادئه التربوية، وهو مايتناقض جوهريا مع ما أشرنا إليه بالنسبة لتوجهنا التربوي الراهن، ويعكس حدة الانفصال بين مبادئنا وواقعنا، وبين إستراتيجياتنا وممارساتنا العملية.

6:3:2 تعلم لتعرف (الطرح العام)

تختلف عملية اكتساب الفرد للمعرفة في عصر المعلومات، عن سابق سيرتها قبله، وذلك في أمور أساسية عدة هي:

(أ) **كيف تعرف؟ لا: ماذا تعرف؟** ركز تعليم الماضي على «ماذا تعرف؟»، لا «كيف تعرف؟»، ومع ظاهرة الانفجار المعرفي انقلب الوضع، حيث أصبحت الأولوية للكيفية التي نحصل بها على المعرفة، وكيفية إتقان أدوات التعامل معها، لا ماذا تتضمنه هذه المعرفة من معلومات ومهارات وخبرات، فثلاثتها، في زمننا هذا، متطايرة سريعة التقادم والإهلاك، من جانب آخر، لا تتوقف عملية اكتساب المعرفة عند حدود الإلمام بها، بل يجب أن تكتمل باستيعابها وتعميقها وتوظيفها ، فالعلم في عصر المعلومات هو ممارسة العلم، والتعليم في عصر المعلومات هي أن نعلم الفرد كيف يتعلم ذاتيا، والثقافة في عصر المعلومات هي فن ممارسة الحياة في ظل بدائل هذا العصر العديدة ومتغيراته الهادرة. وجميع هذه الأمور ـ بلا استثناء ـ يتطلب تغييرا جذريا في علاقة الإنسان بالمعرفة في دورتها الكاملة: إلماما واستيعابا وتوظيفا وإنتاجا.

(ب) **تراكم المعلومات لا يعني زيادة المعرفة:** ساد اعتقاد خاطئ أنه كلما توافرت المعلومات وتراكمت، زادت المعرفة وتضاعفت، فكما يمكن للحكمة، كما يقول تي.إس.إليوت، أن تضيع في خضم المعرفة، بوسعنا أن نقول: إن المعرفة ـ بدورها ـ يمكن أن تضيع في خضم المعلومات، بل إن المعلومات ذاتها يمكن أن تضيع هي الأخرى تحت وابل البيانات المتدفقة التي يتسم بها عصر المعلومات. وسيظل إبداع العقل البشري كامنا في قدرته الفريدة على توليد معرفة ضخمة من معلومات ضئيلة، وغير مكتملة، بل مشوشة أحيانا، وربما يفسر لنا ذلك الشعار الذي يردده واضعو مناهج التربية

«الأقل هو الأكثر Less is more».

(ج) **تكامل المعرفة واتساع نطاقها**: لم تعد خريطة المعرفة جزرا منعزلة، بل منظومة شديدة الاندماج، تتداخل فيها الإنسانيات مع الطبيعيات، والعلوم مع الفنون، وتمتزج ـ في إطارها ـ المعارف بالخبرات، ويتحاور عبرها الفيزيائي والبيولوجي والذهني. تشير جميع الدلائل إلى أن هذا الاندماج المعرفي سيتنامى في عصر المعلومات، وستتبعه ـ بالحتم ـ اندماجات تكنولوجية وثقافية، على مستوى التنظيم وتقسيم الأعمال والإنتاج الصناعي والفكري، يستلزم ذلك ضرورة التخلص من نزعة التخصص الضيق التي سادت تربية عصر الصناعة.

(د) **مداومة اكتساب المعرفة**: إن التعلم مدى الحياة مطلب أساسي من مطالب تربية عصر المعلومات، وهو ما يتطلب ـ بالدرجة الأولى ـ التخلص من النزعة السلبية في التعامل مع المعرفة، ونعني بذلك الانتقال من سلبية الاستقبال، إلي إيجابية البحث والاستكشاف ومتابعة تطبيق المعرفة واقعيا، كذلك الاحتفاء بالمعرفة الجديدة ومتعة استخدمها، بدلا من الفتور واعتبار المعرفة الجديدة حملا ذهنيا زائدا. خلاصة نريد لعلاقتنا بالمعرفة أن تكون استمتاعا لا سماعا، عشقا لا عبئا.

(هـ) **الصمود إزاء التعقد**: تتسم معظم ظواهر واقعنا الراهن بالتعقد، وهو مما يستوجب ضرورة أن يكتسب المتعلم مناعة الصمود أمام الصعب والغامض والمشوش وغير المكتمل. إن التعقد كما ينطوي على التحديات والمصاعب، فهو ـ بالقدر ذاته ـ يحمل في طياته فرصا عدة لإثبات القدرات واكتشاف الحلول المبتكرة. ولا يتحقق ذلك، إلا بأن يستفز التعقد عقل الإنسان ويستحثه، لا أن يؤدي به إلى الاستكانة والاستسلام. يحتاج ذلك إلى تنمية روح المثابرة، وشحذ الأدوات المعرفية، من مناهج الفكر ومهارات استخدام نظم الكمبيوتر والمعلومات، من أجل تنمية القدرة على التعامل مع النظم المعقدة. ويجب أن نضع نصب أعيننا أن الكمبيوتر ـ في جوهره ـ هو أداة للسيطرة على الظواهر المعقدة، في الوقت ذاته الذي أصبح فيه شاغل التربية الرئيسي هو كيفية التعامل مع تعقد الحياة العصرية.

(و) **تنمية المهارات الذهنية**: لا يعني انتشار الوسائل الإلكترونية لحفظ المعلومات ـ كما يظن البعض ـ أن الإنسان لم يعد بحاجة إلى ذاكرته البشرية

(انظر الفقرة 1 : 1 : 2 من الفصل الأول)، فعلى العكس من ذلك، يحتاج تضخم المعلومات، وسرعة تدفقها وتطايرها، إلى حسن استغلال الإنسان لموارد ذاكرته الطبيعية، من خلال تخزين المفاهيم والكليات والعلاقات، لا الأرقام والبيانات وتفاصيل الجزئيات. هذا على مستوى ذاكرة المدى الطويل، أما بالنسبة لذاكرة المدى القصير، فتحتاج ـ هي الأخرى ـ إلى مداومة تدريبها؛ حتى لا تضمر، ويفقد الذهن قدرته على التركيز، خاصة تحت وابل المعلومات المتدفقة التي يتميز بها عصر المعلومات. على صعيد آخر، فقد رسخت تربية الماضى نزعة التفكير الخطي (انظر الفقرة 4: 3: 3 من الفصل الرابع) القائم على تسلسل الأفكار والأحداث، والربط الميكانيكي بين النتائج والأسباب وهلم جرا، والإنسان في عصر المعلومات، يحتاج إلى مهارات ذهنية أرقى وأعقد للتعامل مع أنماط العلاقات الشبكية، والظواهر غير الخطية، والنقلات الفجائية، واقتفاء مسارات التناص والتشعب النصي، وما شابه.

خلاصة القول: إن أولى مسؤوليات إنسان العصر، هي مسؤوليته تجاه عقله، ومداومة تنمية قدراته، وصيانة موارده الذهنية.

تعلم لتعرف (المنظور العربي)

(أ) **طغيان المادة التعليمية على أساليب التفكير:** كما هو معروف، تكتظ معظم مناهجنا بمادة تعليمية متضخمة، على حساب تنمية مهارات التفكير. وتتوقف دورة اكتسابنا للمعرفة ـ عادة ـ عند حدود الإلمام بها دون توظيف لها؛ وهو الأمر الذي يجعلها عرضة للضياع والتبدد. ويشكو معظم طلابنا من نقص شديد في مهارات البحث عن المعرفة، وطرق تمثيلها منهجيا، وعرضها وتسويقها. ولكي يمكن للمدرس العربي تنمية مهارات التفكير لدى طلابه، لابد أن يكون هو نفسه مالكا لها، وملما بأساسيات نظرية المعرفة وفلسفتها، وتاريخ تطور الفكر الإنساني وتحدياته الراهنة.

(ب) **تشرذم معرفي:** مازالت نظم تعليمنا أسيرة التخصص، تنأى عن عبور حدود التخصصات وتعددها، ناهيك عن الازدواجية الثقافية الحادة التي أقامت جدارا من الأسمنت بين نصف مخنا الأيمن ونصفه الأيسر.

(ج) **عزوف عن مواصلة التعليم:** يعزف معظم متعلمينا، بل معلمينا

أيضا، عن مواصلة التعليم، يحدث ذلك في مجتمع التعلم واقتصاد المعرفة، الذي يفرض علينا مواصلة التعلم مدى الحياة. إن عدم التصدي لهذه الظاهرة، يفضي ـ بالضرورة ـ إلى تفشي اللاعية، وتزايد أعداد المنضمين إلى جحافل بطالة عصر المعلومات؛ لعجزهم عن الوفاء بشروط التأهل العلمي والمهني الدائمة التجدد والتعقد. إن عزوف الغالبية لدينا عن مواصلة التعليم، هو بمنزلة نزيف داخلي لعقولنا، لا يقل خطورة عن نزيف عقولنا الخارجي.

(د) **غياب مفهوم تنمية المهارات الذهنية:** كنتيجة منطقية لأسلوب الحفظ والتلقين السائد لدينا، من مستوى رياض الأطفال حتى مستوى الجامعات، فقد غاب عن ساحتنا التربوية، وأذهان الغالبية لدينا، مفهوم تنمية المهارات الذهنية، سواء بالنسبة للصغار أو اليافعين أو المسنين، وينظر إلى هذه المهارات، عادة، بصفتها ملكات ذهنية تنمو، أو تخبو، بصورة طبيعية تلقائية لا دخل لنا فيها. إن تنمية المهارات الذهنية الأساسية، كالاستنتاج والاستنباط والاستقراء، والتحليل بالتركيب، والتركيب بالتحليل، وترشيد استغلال موارد الذاكرة البشرية، علاوة على مهارات التواصل: قراءة وكتابة وشفاهة واستماعا، هي بمنزلة البنية التحتية التي تقام عليها البنى المعرفية.

(هـ) **تسرب اللاعقلانية إلى حرمنا التربوي:** لا يخفى على أحد أن اللاعقلانية قد تسللت، عبر مسالك عدة، إلى حرمنا التربوي، معقل العقلانية الحصين. وقد امتد طيف اللاعقلانية ناشرا ظلمته في أرجاء مؤسستنا التربوية، من الأسس والمبادئ العامة حتى تفاصيل المواد التعليمية. وقد تناول محمد عبدالخالق مدبولي بعضا من مظاهر اللاعقلانية على مستوى المفاهيم الخاطئة السائدة من قبيل: المدرس شمعة تحترق، وتيمة حتمية التفاوت الاجتماعي والتمايز في الرزق (84: 122).

ولكن أكثر مظاهر اللاعقلانية خطورة ـ بلا شك ـ هو ممارسة التفكير الغيبي في مجال البحث العلمي، من قبيل حساب سرعة الملائكة وأعداد جيوشها الموسومة، واستخدام آخر إنجازات الفيزياء الموجية لإثبات «تسبيح الجوامد» وتسخير آخر إنجازات علوم الدواء والكيمياء لإثبات صحة ما نسب إلى رسولنا الكريم، من ضرورة إغماس جناحي الذبابة في صحن الطعام، ناهيك عن الزج بالكمبيوتر في إحصائيات تواتر الحروف في

القرآن الكريم بغية إثبات بعض من جوانب إعجازه، هو ـ بلا ريب ـ في غنى عنها أصلا. ولا يود الكاتب بهذا أن يفرض حكرا على فكر بعض علمائنا، بل ما يريد أن يؤكد عليه هنا، هو ضرورة الالتزام بالأسس العلمية السليمة لإجراء البحوث العلمية، من حيث إقامة الفروض، واختبار صحة النتائج، واتباع الأساليب السليمة للاستنتاج والاستقراء؛ حيث لاحظ أن البحوث التي أشار إليها لا تلتزم بمثل هذه الأمور المسلم بها في دنيا البحث العلمي، وغالبا ما تقوم على تفسير حرفي قاصر لبعض ما ورد بنصوصنا الدينية.

6: 3: 3 تعلم لتعمل (الطرح العام)

تسعى هذه الغاية التربوية إلى تأهيل الفرد لتلبية مطالب المجتمع، مجتمع المعلومات في حالتنا، وسنتناول هنا بعض الجوانب الرئيسية لعملية التأهيل تلك.

(أ) **التعامل مع عالم الواقع وعوالم الفضاء المعلوماتي:** مع التوسع في استخدام تكنولوجيا المعلومات، يزداد التعامل ـ حاليا ـ مع واقع الحياة من خلال الوسيط الإلكتروني، من شاشات العرض ووسائل الاتصال والتحكم. ومع انتشار الإنترنت لم يعد تعامل الفرد محصورا في عالم الواقع فقط؛ بل يزداد تعامله ـ يوما بعد يوم ـ مع العوالم الخائلية التي يزخر بها الفضاء المعلوماتي، عوالم من صنع أنساق الرموز، يمارس فيها الفرد كثيرا من أنشطة حياته اليومية، ويمارس فيها خبرات غير مسبوقة (انظر الفقرة 4:2: 3 من الفصل الثاني). ولا شك في أن تأهيل الفرد للتعامل مع هذه العوالم الخائلية، يتطلب إكسابه معارف ومهارات مغايرة لتلك التي يحتاج إليها في التعامل مع دنيا الواقع، نذكر منها، على سبيل المثال لا الحصر: مهارات الحوار عن بعد، ومهارات التفاعل مع نظم الواقع الخائلي، ومرونة التنقل بين الواقعي والخائلي ومن المجرد إلى المحسوس، وهلم جرا.

(ب) **مطالب الحياة في مجتمع التعلم:** لم تعد قدرة التعلم ذاتيا، في مجتمع المعلومات، مقصورة على بني البشر، فالنظم والآلات والأدوات، وغيرها من كائنات مجتمع المعلومات، أصبحت قادرة، بفضل الذكاء الاصطناعي، على استخلاص المعارف والخبرات بصورة مباشرة من واقع تجاربها، وما يجرى من حولها من ظواهر ومتغيرات. تتطلب الحياة في

مجتمع التعلم هذا سرعة التجاوب، والقدرة على التحاور والتفاعل مع فصائل الكائنات الآلية الذكية من أصحاب العقول السيلكو. ولابديل أمام الكائن البشري، محاطا بكل هذه الكائنات الذكية، إلا أن يسمو بذكائه الطبيعي فوق ذكائها الاصطناعي ـ صنيعة هذا الذكاء الطبيعي ـ وهنا يكمن التحدي التربوي، خاصة على مستوى علم نفس الذكاء وعلم النفس التربوي، تؤازرهما تكنولوجيا المخ والهندسة الوراثية.

(ج) **تعدد أطوار العمل:** للعمل في مجتمع المعلومات أطوار عدة:

- العمل عن بعد.
- العمل الجماعي.
- العمل في أثناء التنقل أو الحركة.

لقد انهارت الحدود المكانية والزمنية بين الإنسان وعمله، ولابد لنظم التعليم أن تهيئ طلابها لأطوار العمل المستجدة هذه، وذلك من خلال:

- التعلم عن بعد.
- التعلم بالمشاركة، حيث يشترك أكثر من طالب في أداء المهمة التعليمية.
- التعلم التكافلي، حيث يشارك الطلبة معلمهم في إعداد الدروس والقيام بتنفيذها.
- التعلم بالمراسلة

لقد منحت تكنولوجيا المعلومات آفاقا عدة وجديدة للتعليم والتعلم، يستطيع الفرد من خلالها أن يتعلم في أي وقت، ومن أي موقع، وفي أي مكان، بل من مواقع عدة في الوقت ذاته، من خلال ما يعرف بأسلوب المناهج الموزعة distributed courseware.

(د) **التعامل من خلال العمل، ومن أجله:** لن يقتصر التعليم في مجتمع المعلومات على نمطه السائد، ويقصد به التعليم الحالي من خلال مؤسسات التعليم الرسمي من مدارس وجامعات، بل سيشمل ـ أيضا ـ مراكز التدريب وإعادة التأهيل وخلافه. وكما حولت تربية عصر الصناعة المدارس إلى مصانع، فتكنولوجيا المعلومات في طريقها إلى تحويل المصانع إلى مدارس، في صورة مراكز للتعليم في أثناء العمل، بل هناك مؤسسات صناعية أنشأت جامعات خاصة بها لتأهيل عمالتها، حيث لا تسمح سرعة الإيقاع السريع للنشاط الإنتاجي بتفرغ هذه العمالة للتعليم والتدريب. إن هذا التوجه

التربوي سيسقط الحواجز الفاصلة بين معاهد التعليم ومواقع العمل. مرة أخرى، سيحتاج هذا إلى استحداث أساليب مبتكرة، لزيادة فاعلية أسلوب «التعلم في العمل»، أو «التعلمل»، إن جاز لنا المزج المصطلحي هنا.

(هـ) **أهمية حنكة التعامل:** لم تعد فاعلية العامل، في عصر المعلومات، تتوقف على حصاد معارفه ومهاراته فقط، بل تتوقف ـ أيضا ـ على فاعليته في التواصل مع الغير (65. 81)، وقدرته على إقناعهم والتأثير فيهم وعليهم، علاوة على حنكة التعامل وسرعة التدبير والتصرف مع المواقف المستجدة والطارئة. ربما يتيح ذلك فرصة، أمام أصحاب النجاح المحدود تعليميا، في استغلال ملكاتهم الشخصية عوضا عما يفتقدونه من معارف ومهارات.

تعلم لتعمل (المنظور العربي)

(أ) **نحن وعوالمهم الخائلية:** مما لاشك فيه، أن الغرب المتقدم ستتاح له فرص أكبر لإقامة عوالم خائلية يكتسبون من خلالها خبرات جديدة، ويجرون بها تجارب لاختبار فاعلية وسائلهم ومخططاتهم التي لا ندري عنها شيئا، وسيؤدي ذلك - بدوره - إلى فجوة تفصل بيننا وبينهم، في مستوى الوعي بحقائق العالم واقعه وخائله، وذلك علاوة على المخاطر المحتملة لأن يطبقوا علينا ما تسفر عنه تجاربهم الخائلية، سواء بهدف إحكام سيطرتهم على مصائرنا، أو بغرض تسويق مستهلكاتهم إلينا، أو سلب مواردنا والعبث بعقولنا وتخريب وجداننا. إننا سنواجههم شبه عزل وهم مدججون بأسلحة الواقع والخائل. في ضوء ذلك، يلزم على التربية العربية أن تدرج الخائلية في حساباتها المستقبلية، سواء من أجل استغلال إمكاناتها الهائلة، خاصة في مجال التدريب الفني المتخصص، أو من أجل درء أخطارها المتوقعة.

(ب) **طبقية مجتمع التعلم:** كما أسلفنا، يحتاج مجتمع التعلم إلى مهارات عدة لضمان فاعلية التعامل معه، وهو الأمر الذي يحتمل معه ظهور طبقية، بل طبقيات جديدة، أساسها الفارق المعلوماتي المعرفي، وذلك نتيجة عدم تكافؤ الفرص والاستبعاد الاجتماعي، خاصة إذا ما أخذنا في الاعتبار معدل الأمية الأبجدية في معظم البلدان العربية.

(ج) **نحن وتعدد أطوار التعليم:** لاشك في أن تعدد أطوار التعليم، سيتيح فرصا أكبر للتعلم وربما يعمل على إحداث نوع من التوازن في حقوق التعليم وتوزيع موارده، إلا أننا في حاجة إلى استحداث أساليب منهجية مغايرة

ومبتكرة لاستغلال أطوار التعليم المذكورة، والتي مازالت معظم منهجياتها في طور بدايتها. وتجدر الإشارة هنا إلى ما عرف عنا من افتقادنا ميزة العمل بروح الفريق، والتي تعد أساسا للتعليم بالمشاركة والتعليم التكافلي.

(د) **عمل أكثر ثراء، أم أكثر ضجرا:** شاع الزعم أن مجتمع المعلومات سيتيح أعمالا أكثر ثراء وإثارة، لكن ذلك لن يتوافر، في حقيقة الأمر، إلا لنخبة قليلة من أصحاب الكفاءات العلمية والمهنية المتميزة، وقد ثبت ذلك بصورة دامغة في ضوء إحصائيات توزيع الأعمال في الشركات الأمريكية التي تعمل في حقل التكنولوجيا المتقدمة، فقد أظهرت الأرقام أن قسما كبيرا من عمالة هذه الشركات يقع ضمن شريحة الأعمال الدنيا، ولاشك في أن نظم المعلومات والأتمتة، ستعمل على تفتيت المهارات لكثير من الأعمال، مما يجعلها أكثر ضجرا ودنوا.

6: 3: 4 تعلم لتكون (الطرح العام)

يقصد بشعار «تعلم لتكون» الغاية التربوية لتنمية الفرد بدنيا وذهنيا ووجدانيا وروحانيا.

(أ) **إضفاء الطابع الشخصي:** قامت تربية عصر الصناعة على أساس تعليم الأعداد الغفيرة من الطلبة، ويستهدف تعليم إنتاج الجملة هذا، فردا متوسط القدرات. يعني هذا إهدار فرص اكتشاف الموهوبين وتنمية قدراتهم من جانب، وعدم مراعاة من هم دون المتوسط من ذوي القدرات المحدودة من جانب آخر. تسعى تربية عصر المعلومات إلى إضفاء الطابع الشخصي على عملية التعليم، بأن تجعل المتعلم لا المعلم، هو محور العملية التعليمية، وكذلك عن طريق الأساليب الفنية التي تمكن من تطويع البرامج والنظم التعليمية، بما يتلاءم مع المطالب الخاصة لكل متعلم.

(ب) **تنمية ملكة الحكم على الأمور:** مع تشعب مسارات الحياة، وتنوع مظاهرها، وسرعة تغيرها، سيواجه الإنسان في عصر المعلومات، عديدا من المواقف تتطلب منه سلامة الحكم على الأمور، وسرعة اتخاذ القرارات، والمقارنة بين بدائل الخيارات المطروحة. توفر تكنولوجيا المعلومات وسائل عدة لتنمية هذه القدرات الشخصية، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

- النظم الخبيرة التي تختزن خبرات المحنكين بغية إرشاد المحدثين.

- نماذج المحاكاة التي تعمل بأسلوب السيناريوهات لاختبار صحة القرارات.

- استخدام العوالم الخائلية كمعمل تجارب لمارسة الخبرات واختبار مدى القدرات.

(ج) **تنمية الشعور بالمسؤولية الفردية:** تكرر القول بأن تربية عصر الصناعة قد أنتجت بشرا يعانون من السلبية، ويتهربون من تحمل المسؤولية، وهو مظهر آخر من مظاهر القصور التربوي الذي تسعى تربية عصر المعلومات إلى التغلب عليه. يساعدها في تحقيق ذلك عوامل رئيسية عدة من أهمها:

- اختلاء الفرد بآلته الجديدة (الكمبيوتر) وإبحاره الحر غير المقيد عبر الإنترنت، يولد لديه شعورا بالمسؤولية.

- إدراك الفرد المستخدم لنظم المعلومات أن كل إجراء يقوم به، خلال تفاعله مع هذه النظم يترك وراءه أثرا من نوع ما، يمكن لغيره أن يسترجعه ويحلله. ولاشك في أن هذا سلاح ذو حدين، حيث يمكن أن يستغل في الرقابة على الأفراد، لكنه ـ إذا ما أحسن استغلاله ـ يمكن أن ينمي لدى الفرد نوعا من الرقابة الذاتية فيمكن ـ على سبيل المثال ـ أن يستغله المدرس لمارسة نوع من الإشراف غير المباشر على طلبته، أو يلجأ إليه الوالدان لرقابة صغارهم بصورة غير مباشرة، حماية لهم من مخاطر استخدام الإنترنت.

- سهولة اكتشاف الأخطاء، وتصويبها في نظم الكمبيوتر والمعلومات، يخفف الشعور بالذنب والرهبة لدى الفرد مرتكب هذه الأخطاء، مما يجعله أكثر مسؤولية ومحاسبة.

(د) **سرعة إنضاج الصغار:** بالإضافة إلى ما ذكر أعلاه، فقد وجهت انتقادات عدة إلى تربية عصر الصناعة بإنها عملت على تطفيل الكبار نتيجة لمبالغتها في تضخيم سلطة المدرس، تماشيا مع أسلوب التلقين الذي يطلق يد المدرس في السيطرة على طلبته، علاوة على صرامة نظم الإشراف، وأساليب التقويم والاختبارات، وما شابه. على العكس من ذلك، تعمل تربية عصر المعلومات على سرعة إنضاج الصغار، وذلك بفضل عوامل عدة أهمها:

- إتاحة استخدام تكنولوجيا المعلومات لصغار السن.

- تقليص سلطة المدرس، والتوسع في أساليب التعلم ذاتيا.

- سرعة اكتساب الصغار المعارف والمهارات من خلال البرمجيات التعليمية، ونظم المعلومات الأخرى.

- تنمية مهارات التواصل عبر البريد الإلكتروني، وحلقات النقاش، وما شابه.

(هـ) **تنمية الإبداع والخيال:** مصير الأمم في عصر المعلومات رهن بإبداع أبنائها، لذا فتنمية الإبداع والخيال، لها نصيبها الوافر في تربية عصر المعلومات، ومرة أخرى، توفر تكنولوجيا المعلومات وسائل عدة لتحقيق هذه الغاية، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

- اتباع أساليب التعلم بالاكتشاف، ومن خلال التجربة والخطأ.

- الدعم الكبير الذي تقدمه تكنولوجيا المعلومات لشتى أنواع الإبداع الفني: أدبا، وتشكيلا، وموسيقى، وفنون أداء.

- استخدام النظم الخائلية لإقامة عوالم ميكروية، أو حضانات معرفة، مما يطلق العنان للفرد لكي يمارس دور المكتشف والمخترع والمبدع.

- التعلم من الآخرين من خلال الحوار والمشاركة عن بعد عبر الإنترنت.

- توفر الإنترنت فرصا عدة لتذوق الفنون، وتنمية الحس الجمالي، وذلك من خلال تكنولوجيا الوسائط المتعددة، والمتاحف الخائلية، وزيارة مواقع المعارض.

تعلم لتكون (المنظور العربي)

يتضح قصور التربية العربية، أكثر ما يتضح، على محور الغاية التربوية التي يعبر عنها شعار «تعلم لتكون»، ويرجع ذلك إلى سبب أساسي، ألا وهو ارتباط تحقيق هذه الغاية بالعمد الرئيسية التي تقوم عليها الفلسفة التربوية، علاوة على عوامل أخرى ذات صلة بالثقافة الاجتماعية السائدة. إن وضع التوجهات التربوية، التي أوردناها في طرحنا العام، موضع التنفيذ، يواجه لدينا تحديات لا يستهان بها. سنكتفي هنا باستعراض موجز لبعض هذه التحديات.

(أ) **تحديات إضفاء الطابع الشخصي:** السؤال هنا: كيف يمكن تحقيق ذلك في ظل قيود الفصول المكتظة، ورسوخ أساليب التلقين والتحفيظ،

وكيف يمكن لنا الاحتفاء بأصحاب المواهب، مع سيادة فاقدبها على كثير من أمور حياتنا؟

على صعيد آخر، وفيما يخص الجامعات، فما من جامعة غربية إلا ولها فلسفة ثقافية محددة ومعلنة، فهي إما جامعة ليبرالية وإما محافظة وإما راديكالية، الأمر المؤسف في هذا الشأن، أن معظم جامعاتنا العربية قد فقدت هويتها الثقافية وطابعها الشخصي المستقل، وخفت الحديث الثقافي في أروقتها، مما زاد من عزلتها عن مجتمعها. وإن لم تدخل الثقافة جامعاتنا من أوسع أبوابها، فستتسلل الثقافة إليها من الأبواب الخلفية، في صورة ثقافات غير معلنة، مضادة وموازية، فإلى متى تظل اتحادات الطلاب لدينا لا شاغل لها إلا أمور الامتحانات ونظام الدراسة وتوفير المذكرات والكتب الجامعية؟

(ب) **تحديات تنمية ملكة الحكم على الأمور:** لاشك في أن تنمية هذه القدرات تتوقف ـ في المقام الأول ـ على إدراك الفرد للبدائل والخيارات المتاحة أمامه، وهنا يبرز سؤال أساسي حول مدى قدرة المجتمعات العربية، في ظل القيود الداخلية والضغوط الخارجية، على خلق هذه البدائل والفرص أمام الإنسان العربي.

(ج) **تحديات تنمية الشعور بالمسؤولية الفردية:** مرة أخرى نعود إلى حديث الأغلبية الصامتة، ورسوخ فكرة أن مسؤولية معظم الأمور تقع على عاتق الدولة في المقام الأول. ولاشك في أن ذلك ذو صلة وثيقة بمنسوب الأداء الديموقراطي في المجتمعات العربية.

(د) **تحديات سرعة إنضاج الصغار:** يقف عائقا أمام تحقيق ذلك، موقف ثقافتنا العربية فيما يخص سلطة الآباء وسلطة الكبار على الصغار. في المقابل، يخشى من إساءة تطبيقنا لهذا المفهوم، مما ينجم عنه حرمان صغارنا من حقهم في التمتع بطفولتهم، وببراءتهم، وعبثهم وانطلاقهم.

لقد ساد لدينا مفهوم خاطئ مؤداه: أن الأطفال مستهلكون سلبيون للإنتاج الثقافي، وهو ما يتعارض مع ما يتميز به الصغار من رغبة البحث عن المعرفة، وحب الاستطلاع. إن علينا أن نشجع صغارنا، على المشاركة في أعمال الكبار، وأن نعيرهم آذاننا بصدق، فلم تعد الحكمة في عصر المعلومات حكرا على الكبار فقط.

(هـ) **تحديات تنمية الإبداع والخيال:** تعد تنمية الإبداع والخيال من أصعب المهام التربوية، حيث تتطلب بيئة تربوية خاصة، يتوافر لها المدرس القادر والمناخ الملائم والأدوات المناسبة، ولا يخفى على أحد أن تربيتنا قد انحازت ـ بشدة ـ إلى تعليم المواد الدراسية، وأغفلت الهوايات وأوجه النشاط الإبداعي الأخرى.

6: 3: 5 تعلم لتشارك الآخرين (الطرح العام)

لقد أدى عصر المعلومات، وعولمته، إلى توسيع بيئة حياة الإنسان، فقد أضافت إلى بيئته الأسرية والمحلية، بيئة العالم على اتساعه، الأمر الذي أصبحت فيه ثنائية المحلية والعالمية أحد المحاور الرئيسية للفلسفة التربوية، وهو ما يعبر عنه شعار «تعلم لتشارك الآخرين»، والذي يمكن تفريعه إلى:

(أ) **التخلص من نزعات التعصب والعنف:** يتطلب ذلك من تربية عصر المعلومات الاهتمام بتدريس تاريخ الحضارات، والدين المقارن، وتشجيع مهارات الحوار عبر الإنترنت والتصدي للعنف الترفيهي لوسائل الإعلام الجماهيري، وذلك بالإضافة إلى استخدام أساليب علم النفس التربوي، لتخليص الصغار والكبار من النزعات العدوانية والقبلية وكره الأجنبي، والخوف من الغريب، وما شابه.

(ب) **اكتشاف الآخر من خلال اكتشاف الذات:** يتطلب ذلك، من تربية عصر المعلومات، الاهتمام بتدريس الجغرافيا البشرية، وتعليم اللغات الأجنبية، وتنمية الوعي بالقواسم المشتركة في الثقافات والحضارات الإنسانية.

(ج) **تنمية مهارات الحوار مع الآخر:** يتطلب ذلك، من تربية عصر المعلومات، الاهتمام بتنمية مهارات التواصل والتفاوض الثقافي، وتنمية القدرة على الإقناع وهندسة الحوار، وإبرام الصفقات المتوازنة.

(د) **تنمية الرغبة في مشاركة الآخرين:** يتطلب ذلك، من تربية عصر المعلومات، تنمية مهارات القيادة وإدارة المشروعات، والمشاركة في الموارد، وتبادل الآراء والخبرات، وكيفية خلق التوازن بين نزعة التنافس، وتنمية روح التعاون[*5]. بالإضافة إلى إكساب الفرد عادة العمل بروح الفريق، سواء كان هذا الفريق ماثلا من حوله، أو خائلا يشاركه عن بعد.

تعلم لتشارك الآخرين (المنظور العربي)

(أ) **التخلص من نزعات التعصب والعنف:** لاشك في أن حضارتنا وثقافتنا العربية تتمتعان بقدر هائل من التسامح، ونبذ العنف والتعصب. لذا، فإن التربية العربية في عصر المعلومات لابد أن ترتد إلى أصولها الثقافية والحضارية، من أجل التخلص من نزعات التعصب التي أخذت تتسلل إلى قاعات دروسنا.

(ب) **اكتشاف الآخر من خلال اكتشاف الذات:** يتطلب ذلك من التربية العربية اهتماما أكبر بتعليم اللغات الأجنبية، واستغلال الوسائط المتعددة والإنترنت لنقل صورة أكثر دقة عما يجري خارج حدودنا. إن على التربية أن تخلص فكر الإنسان العربي من المقولات السائدة التي تختزل الآخر، خاصة في الغرب، وتدينه بالكفر والانحلال الأخلاقي، وتجمده في صورته الاستعمارية، في إطار صيغ الاستغلال، وكره الأجانب، ومعاداة الإسلام. ولا ينكر الكاتب مدى صدق الدوافع الكامنة وراء هذه النزعات المتأصلة في وجدان العربي، خاصة في ظل الانحياز الغربي الواضح فيما يخص حقوق شعبنا العربي في فلسطين، ولكن تظل اختزالية الآخر الغربي ، عائقا أمام فهمنا له وفهمنا بالتالي لذواتنا.

(ج) **تنمية مهارات الحوار مع الآخر:** كما أشرنا سلفا، يشكو معظم طلابنا من ضمور مهارات التواصل اللغوي الأربع: القراءة والكتابة: والشفاهة والاستماع، نتيجة لآفة المتلقي السلبي التي تعاني منها نظم تعليمنا. ويحتاج ذلك من التربية العربية تغييرا جوهريا في تعليم اللغات عموما، واللغة العربية بوجه خاص، وكذلك التنويع في أنماط تقديم المادة التعليمية، بحيث تشمل بجانب المحاضرات، الندوات وحلقات النقاش. ويعد نموذج الجامعة العربية، ونموذج الأمم المتحدة MUN: Model United Nations، المتبعان في المدارس والجامعات، من الوسائل الجذابة لتنمية مهارات الحوار والتفاوض.

(د) **تنمية الرغبة في مشاركة الآخرين:** من أصعب التحديات التربوية في هذا المجال، تنمية العمل بروح الفريق، وتوعية الفرد بالأساليب والطرق القياسية المستخدمة عالميا في إدارة البحوث والمشاريع.

6: 4: علاقة التربية بمنظومة الثقافة

6: 4: 1 مناطق الالتقاء (الطرح العام)

أهميةعلاقة التربية بالثقافة ليست في حاجة إلى مزيد من التأكيد، وسنحاول هنا في إيجاز استعراض أوجه التقائهما، والتي تشمل:

- فكر التربية
- لغة التربية
- تربية أهل التربية
- إعلام التربية
- قيم التربية وصلتها بمنظومة المعتقدات
- إبداع التربية

مناطق الالتقاء (المنظور العربي)

نجاح التربية العربية رهن بمدى تفهمنا للعلاقة التربوية ـ الثقافية، خاصة في ضوء محورية الثقافة في عملية التنمية المجتمعية، وكون التربية قد أصبحت مرادفة للتنمية في عصر المعلومات.

وقد عزا كثيرون فشل التربية في الماضي إلى إغفال العلاقة بينها وبين الثقافة، وعدم دراسة تاريخية تطور التربية مع تطور المجتمع وتغير ثقافته. وجميع مواضع التقاء التربية مع الثقافة، التي أوردناها في طرحنا العام، تمثل خطوط تماس ملتهبة علينا أن نخفف من سخونتها حتى تتضح لنا معالمهما. مصدر الصعوبة هنا أن هذه المواضع البينية لم يتم تتناول بالبحث الجاد من قبل التربويين بالمستوى المطلوب لتربية عصر المعلومات. ولنأخذ مثالا ـ هنا ـ عن علاقة التربية باللغة، وهي العلاقة التي أصبحت من أكثر القضايا أهمية بالنسبة إلى هذه التربية، سواء فيما يخص علاقة اللغة بالفكر، أو علاقة هندسة اللغة بتصميم برمجيات تعليمية متقدمة باستخدام أساليب الذكاء الاصطناعي وهندسة المعرفة.

6: 4: 2 فكر التربية (الطرح العام)

(أ) **مأزق الفكر التربوي:** عصفت رياح الفلسفة بفكر التنظير التربوي، تجره وراءه تابعا، تفرض عليه مثاليتها أحيانا، وتدمغه ببراجماتياتها أحيانا

أخرى، تأخذه صوب الإمبريقية التجريبية إن تراءى لها ذلك، لتؤوب به بعدها صوب الأسس النظرية والنماذج الذهنية. وما من مذهب أيديولوجي: دينيا كان أم ماركسيا، ليبراليا كان أم فاشستيا، إلا وحاول أن يقيم صرحه التربوي. وحتى عندما حاول الفكر التربوي أن يتخلص من قبضة الفلسفة كان دافعه إلى ذلك تابعا من الفلسفة أيضا، وذلك عندما أوحت الفلسفة الوضعية إلى هذا الفكر باستخدام مناهج العلوم الطبيعية، في دراسة الظواهر الإنسانية، معتبرا هذه المناهج بمنزلة جسر العبور إلى ما تصوره نوعا من الدقة العلمية، فراح يسرف في استخدام الوسائل الكمية لقياس الذكاء، وتقييم الأداء، وحساب رأس المال البشري وعائد الاستثمار التربوي.

ويزعم الكاتب أنه لن تتحقق للفكر التربوي استقلاليته، إلا بعد أن يضع هذا الفكر يده على الآليات الدفينة لعمل المخ البشري، وهي المهمة التي تحتاج إلى تضافر فروع علمية وتكنولوجية عدة، تشمل: علم النفس التربوي ـ علم اللغة التربوي ـ علم فسيولوجيا المخ وتكنولوجيا الأعصاب ـ هندسة الذكاء الاصطناعي.

وكما تحولت اللغة من تابع علمي إلى نهج علمي عام، يمكن تطبيقه على مستوى مجالات علمية مختلفة، كذلك يمكن لعلم التربية أن يرقى ـ هو الآخر ـ من تطفله العلمي على علوم الإنسانيات، إلى الإطار المعرفي الشامل الذي تندمج في إطاره العلوم الإنسانية. إن التربية لجديرة ـ بحق ـ بأن تتبوأ هذا الوضع التنظيري المتميز، وكيف لا، والمجتمع بأسره يتحول ـ بفضل تكنولوجيا المعلومات ـ إلى مجتمع التعلم، وأصبحت سرعة التعلم هي العامل الحاسم في بقاء الأفراد والمؤسسات والمجتمعات.

من المنطقي أن تكون فسيولوجيا المخ هي المدخل الطبيعي لدراسة كيف يعمل عقل الإنسان، وبالتالي، كيف يكتسب المعارف الجديدة وكيف ينظمها ويدمجها فيما سبق له اكتسابه. إن إنجاز علم فسيولوجيا المخ لهذه المهمة البحثية الصعبة، سيمهد الطرق نحو تحديد أنسب الطرق لتقديم المادة التعليمية، ومعرفة العوامل المؤثرة في زمن الاحتفاظ بها أو التخلص منها. ويعد الذكاء الاصطناعي، بمنزلة معمل تجارب لبحوث فسيولوجيا المخ وعلم النفس التربوي، وعلاقته بالتربية هي علاقة «هات وخذ»، فكما يوفر الذكاء الاصطناعي للتنظير التربوي وسائل عدة لم تكن متوافرة له من

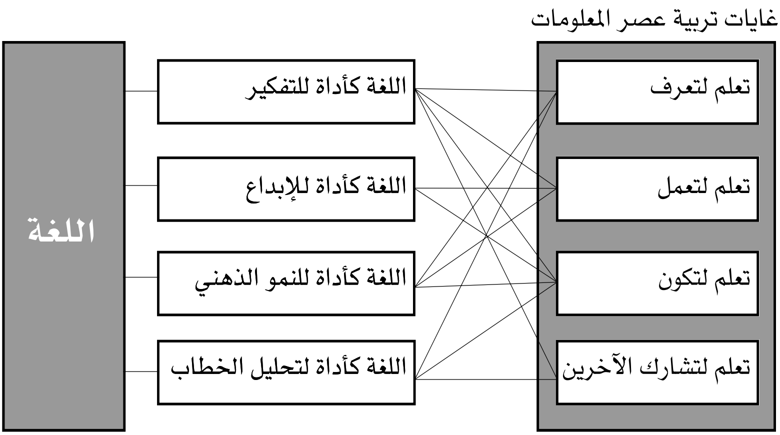
قبل، فهو ـ أي الذكاء الاصطناعي ـ في انتظار ما سيسفر عنه هذا التنظير، حتى يكسب الآلة القدرة على التعلم ذاتيا، والتكيف بيئيا.

فكر التربية (المنظور العربي)

إن كان فكر التربية الغربي تابعا للفلسفة، ففكرنا التربوي الحديث ـ كما أشرنا سلفا ـ هو تابع لتابع، بسبب تبعيته لنظيره الغربي. وهناك فرصة نادرة لمنظري التربية العرب لكي يلحقوا بركب التنظير التربوي الحديث، وهو يأخذ أهبته للقاء مثير مع علم النفس وفسيولوجيا المخ والذكاء الاصطناعي، علاوة على علوم للسانيات والاجتماع. إننا في أمس الحاجة إلى جهود بحثية جادة لكشف النقاب عن علاقة التربية بلغتنا العربية، وفيما يخص تفاعلها مع واقع مجتمعها، ودورها في تنمية الإبداع، واكتساب المعارف والمهارات المستحدثة، وكذلك التخلص من المعارف والمهارات التي عفّى عليها الزمن.

6: 4: 3 اللغة والتربية (الطرح العام)

(أ) **مواضع التقاء اللغة بالتربية**: تسري علاقة اللغة بالتربية كما يوضح الشكل (4:6) عبر مسالك عدة:



الشكل (4:6) مواضع التقاء اللغة مع التربية

- اللغة كأداة للتفكير
- اللغة كأداة للإبداع
- اللغة كأداة للنمو الذهني
- اللغة كأداة لتحليل الخطاب (النصوص)

وكل من هذه الأدوات اللغوية ـ كما يدل الشكل ـ ذو صلة وثيقة بغايات التربية الأربع: تعلم لتعرف ـ تعلم لتعمل ـ تعلم لتكون ـ تعلم لتشارك الآخرين.

(ب) **اللغة كأداة للتفكير:** تناولنا في الفقرة 4: 2:2 من الفصل الرابع، علاقة اللغة بالتفكير، وكما قيل تمثل علاقة اللغة بالتفكير مثالا كلاسيكيا لمعضلة «الدجاجة والبيضة»، وما إن يتحدث المرء عن التفكير حتى يجد نفسه يفكر في قدرة الإنسان على استخدام اللغة. إن اللغة هي أداة التحليل المنطقي، وأداة حل المشاكل، وأداة التجريد وتقطير المفاهيم، وأداة تنظيم الذاكرة البشرية، وكل هذه أمور ذات صلة وثيقة بغايات التربية الأربع.

(ج) **اللغة كأداة للإبداع:** كما أوضحنا في الفقرة 7:3:5 من الفصل الخامس، فاللغة هي وسيلة البشر لممارسة الإبداع على مدار حياتهم اليومية، فهي لا تتوقف عن ابتكار العبارات الجديدة، والتوسع في استخدام الألفاظ، واستحداث التكنيكيات اللغوية لأغراض الإقناع أو التهرب أو التمويه وخلافه، نحن نبدع لغويا لكي، «نتعلم لنعمل»، فالعمل ـ في عصر المعلومات ـ يعني العمل المبدع، والعمل المبدع يتوقف ـ بدوره ـ على قدرة صانعه على التواصل مع الآخرين. ونحن نبدع لغويا لكي «نتعلم لنكون». فلكي نكون لابد لنا أن نبدع لغويا. حتى نثبت تميزنا وتفردنا، واللغة من أهم وسائل التميز. ونحن نبدع لغويا لكي «نتعلم لنعرف»، فمعرفة عصر المعلومات لا تعد تحصيلا بل انتقاء واستخلاصا وتوظيفا، وكلها أمور ذات صلة وثيقة باللغة. ونحن نبدع لغويا لكي «نشارك الآخرين»، تقاسمهم الحوار، ونتذوق آدابهم، ونمزج تراث فنونهم بتراثنا، وجميعها أمور وثيقة الصلة باللغة.

(د) **اللغة كأداة النمو الذهني:** يعتبر النمو الذهني وتطور مراحله من القضايا التربوية الأساسية، خاصة فيما يخص تربية الصغار، ويعد اكتساب الطفل للغة الأم مدخلا مهما لعلم المعرفة، حيث يكشف الآليات الأساسية لاكتساب المعرفة الرمزية، وستظل اللغة ـ دوما ـ أمضى الوسائل لتنمية

القدرات الذهنية.

(هـ) **اللغة كأداة لتحليل الخطاب:** اللغة هي أكثر أنساق الرموز استخداما في تقديم المادة التعليمية، ويستخدم التحليل اللغوي، البنيوي وما بعد البنيوي، والمنطقي والإحصائي ، لكشف بنية النصوص التعليمية، واستخلاص المفاهيم الأساسية، وذلك تمهيدا لتمثيل هذه النصوص فيما يعرف بالمخططات المفاهيمية Conceptual graphs والشبكات الدلالية Semantic nets. إن التحليل المنهجي للمادة التعليمية يسهل من عملية الاستيعاب، ويزيد من فاعلية تنظيم المعرفة المكتسبة. علاوة على ذلك، فإن اللغة تسهم، من خلال كونها أداة الأنثروبولوجيا الرمزية، في مجال الدراسات الثقافية المقارنة التي تسهم - بدورها - في تحقيق الغاية التربوية: تعلم لتشارك الآخرين.

اللغة والتربية (المنظور العربي)

لم تحظ علاقة اللغة العربية بمنظومة التربية بالاهتمام الجديرة به، سواء من حيث اكتساب صغارنا للغتهم الأم، أو علاقة خصائص اللغة العربية (من توليد اشتقاقي، ومرونة نحوية، وثراء معجمي على سبيل المثال) بتنمية القدرات الذهنية.

ومن أخطر القضايا المطروحة في علاقة اللغة بالتربية، هي تلك الخاصة بتعريب العلوم. إن لغتنا الأم تتعرض للمهانة في قاعات دروسنا، حيث يقتصر استخدامها على تدريس اللغة العربية، وموقف جامعاتنا من قضية تعريب العلوم معروف للجميع. إن قضية التعريب لم تعد نابعة من الحمية القومية أو المحافظة على الهوية الثقافية، بل أصبحت أداة لا غنى عنها لتنمية أدوات التفكير، وتنمية القدرات الذهنية والملكات الإبداعية. ويمكن لتكنولوجيا المعلومات أن تساهم بدور فعال في دفع جهود التعريب، وذلك من خلال:

- بناء بنوك المصطلحات.
- توفير نظم لدعم المؤلفين، مزودة بالمعاجم والقواميس وقوائم المترادفات والصيغ المسكوكة idiomatic expressions والمسارد والمكانز وقواعد ذخائر النصوص، كي تساعد على الإسراع في عملية التعليم.

- استخدام قواعد البيانات المعجمية لتوحيد المصطلحات.

- استخدام وسائل التحليل اللغوي لصياغة المفردات في هيئة مجموعة من السمات الدلالية. وكما هو معروف تتشابه اللغات على مستوى الدلالة بصفة عامة، وعلى مستوى السمات الدلالية الأولية بصفة خاصة: (مثال: يمكن التعبير عن مفرد «وسيط» بالسمات الدلالية: التوسط ـ الربط ـ النقل ـ الفصل ـ الأدائية ـ التحول) يساعد ذلك على انتقاء أنسب مقابل عربي للمصطلح الأجنبي، على أساس مدى التقارب بين سماتها الدلالية.

- كون تكنولوجيا المعلومات قاسما مشتركا، بين جميع فروع العلوم، يجعل منها جسرا للتواصل المعرفي والتكنولوجي، ويعد ذلك ضروريا لتضييق الفجوة المصطلحية بين التخصصات المختلفة.

4:4:6 الإعلام والتربية (الطرح العام)

استخدمت الإذاعة والتليفزيون كوسائل بديلة للتعليم الرسمي وغير الرسمي، وتعتبر الجامعة المفتوحة في بريطانيا، من أنجح التجارب في استخدام الإعلام الجماهيري في التعليم الرسمي. ومنذ العام 1971، والجامعة المفتوحة تقدم منهجا دراسيا متكاملا، يشترك في تقديمه التليفزيون والراديو ونظم التعليم بالمراسلة، مع إتاحة الفرصة للدارسين للالتقاء بالأساتذة (67: 204) وقد كانت السلفادور وساحل العاج من أوليات الدول النامية في استخدام التليفزيون التعليمي، بصورة واسعة في التعليم الرسمي (67: 219). من أشهر تجارب استخدام الإعلام الجماهيري، في التعليم غير الرسمي، مشروع المنتدى الريفي الذي أقامته الإذاعة الهندية، بمعاونة اليونسكو لتوعية الفلاحين في أمور الزراعة والصحة والتعليم والحكم المحلي، وغير ذلك من جوانب التربية الاقتصادية والاجتماعية (222:67).

وعلى الرغم من التوسع في استخدام الراديو والتليفزيون تعليميا، إلا أن نتائجه ظلت محدودة بسبب الفشل في إدماجه ضمن البيئة التعليمية التي يسيطر عليها الكتاب المطبوع. بالإضافة إلى الطابع السلبي للإعلام الجماهيري أحادي الاتجاه، وهو وجه القصور الذي تسعى تكنولوجيا المعلومات إلى التغلب عليه من خلال التليفزيون التفاعلي ثنائي الاتجاه

Interactive TV الذي يسمح بالتفاعل الإيجابي بين المرسل والمستقبل، وكذلك من خلال ربط التليفزيون بشبكة الإنترنت لاستخدامه كوسيلة للإبحار في فضاء المعلومات الذي تتيحه الشبكة، وللحديث بقية في الفصل القادم الخاص بثقافة الإعلام.

الإعلام والتربية (المنظور العربي)

هناك محاولات عدة لاستخدام وسائل الإعلام الجماهيري العربي في محو الأمية، ودعم التعليم الرسمي، بل كانت هناك محاولات لإنتاج مواد تعليمية ـ ثقافية للأطفال العرب (افتح يا سمسم). من المؤسف أن هذه التجربة قد توقفت، بل رفضت بعض محطات التليفزيون العربية إذاعتها لأنها باللغة العربية الفصحى المغالى فيها. ولاشك في أننا قادرون على إنتاج برامج تعليمية وترفيهية للأطفال بلغة فصحى مستساغة، تعيد لصغارنا اعتزازهم بلغتهم الأم(*6). وقد أبدت بعض القنوات الفضائية العربية، في الآونة الأخيرة، اهتماما بالإعلام التعليمي إلا أن وسائلها في تقديم المادة الدراسية، مازالت محدودة للغاية، ولا تستغل أسلوب تعدد الوسائط التعليمية. ما يخشاه الكاتب أن تقتحم الفضائيات الأجنبية حرمنا الإعلامي في ظل عولمة التربية لملء فراغ الإعلام التعليمي، وتقديم سلعة تعليمية أرقى، ليضاف إلى ما لدينا بالفعل قناة أخرى للتعليم الأجنبي الموازي. وبذلك تزداد ساحتنا التربوية تشرذما وطبقية. ولاشك في أن ذلك لو حدث، سيكون من أمضى أسلحة الاكتساح الثقافي.

6: 4: 5 نظام القيم والمعتقدات والتربية (الطرح العام)

فرضت الكنيسة في العصور الوسطى هيمنتها على التعليم والتربية، فأهداف التعليم كما حددها إرازموس تتمثل أساسا في الفلسفة الدينية وتعليم الأخلاق الحميدة منذ الطفولة المبكرة. والدين مسألة ذكاء وفطنة، وأن الإنسان يستطيع أن يصل إلى الأفكار الدينية الصحيحة من خلال الكتب الدراسية المؤلفة بطريقة محكمة (143: 367). أما حركة الإصلاح الديني البروتستانتي، فكان التعليم طريقها إلى الخلاص، وذلك بتمكين أبناء جماهير الشعب من التواصل المباشر مع الله، دون وساطة الكنيسة،

من خلال قراءة الإنجيل. كانت التربية في عصر النهضة وظيفة من وظائف الحياة، مجرد وسيلة لزرع المثل العليا، وهكذا انحسرت علوم الدين، لتحل بدلا منها العلوم الطبيعية وعلوم الإغريق وظلت القيم تغيب شيئا فشيئا، حتى أصبحت «القيمة الفورية»، لا «القيمة الروحية»، هي غاية التعليم في التربية البراجماتية. أما نيتشه فيمثل الحالة القصوى لهجرة القيم، فهو يطالب بمدارس كالمعابد، تؤمها النفوس النبيلة التي تصبو إلى أن تحيا على هواها، تنشد علما مرحا متحررا من الأخلاق الإنسانية، فالمثل العليا والقواعد الأخلاقية من صنع الضعفاء، والحق والخير ـ في رأيه ـ سدود لابد أن تهدم، فقد بناها الضعفاء ليتقوا بها جبروت الأقوياء...! (33: 50).

نظام القيم والمعتقدات والتربية (المنظور العربي)

يشهد تاريخ الفكر التربوي العربي على محوريته حول الدين والقيم، من التطابق الكامل في تربية الغزالي، التي حصرت التربية بالغرض الديني المحض، ومن قبله الفارابي الذي حاول التوفيق بين معرفة الإغريق والقيم الروحية للدين الإسلامي من أجل تحقيق السعادتين، سعادة الدنيا والآخرة. والعلم فضيلة فرضت على المسلمين، كما كان التعليم في تربية إخوان الصفا ركنا من أركان الشريعة الإسلامية (143: 147). وفي عصرنا الحديث، اتخذ محمد عبده من التربية بديلا للفعل السياسي، ففي نظره أن فقر العقول والتربية أشد صنوف الفقر وإذا فقد الإنسان التربية فقد كل شيء (148: 505). وقد أكدت دساتير جميع الدول العربية على أهمية الالتزام بالقيم الدينية. وتواجه التربية العربية الحديثة في هذا الشأن، ضغوطا من داخلها، ومن خارجها، فهناك انحسار لقيم العلم والعدالة الاجتماعية، وشيوع القيم المادية والثراء والكسب السريع، وضعف نزعة الانتماء للوطن، في ظل الموقف المتأزم الشديد الذي يعيشه الوطن العربي هذه الأيام. ويرجع البعض من أصحاب الرؤية الدينية أزمتنا التربوية إلى إغفالها القيم الإسلامية، وذلك نتيجة لاستعارة نظم التعليم من الخارج، وهي تسعى إلى إضعاف الثقافة العربية وتقويض أسسها التربوية. وربما يخفف قليلا من أزمة القيم تلك، أنه كلما تسارع إيقاع حركة المجتمع ـ كما في حالتنا ـ أمكن للمجتمع التخلص من قيمه الوافدة بالسرعة نفسها التي يكتسبها بها.

إن التربية العربية المعاصرة في حيرة من أمرها، بين سلطان الماضي وضغوط الحاضر وعولمة تربيته. ومن الجدير ذكره هنا، أن مدرسنا، الحائر هو الآخر، لا ينقل إلى طلبته معرفته فقط، بل ينقل معها عقائده أيضا.

ويعتقد الكاتب أن الجامعات العربية الإسلامية، وعلى رأسها جامعة الأزهر، يمكن أن تساهم بدور فعال في عودة القيم إلى حرمنا التربوي، فالجامعات الدينية، في رأي الكثيرين، هي القادرة على أن تضع التعليم في إطار من القيم بطريقة تعجز عنها الجامعات العلمانية. إن على تربيتنا الحديثة أن تقطر تراثنا الدينا والروحي، تتمثله رحيقا شافيا لا أن تنقله بصورة ميكانيكية، وأن تمزجه صافيا نقيا، مع جوهر فكر عصر المعلومات وقيمه ومبادئه، ولا يرى الكاتب أي تناقض بينهما، فقد أوفت التربية الإسلامية الجانب الأخلاقي حقه، من احترام المعلم ورعاية المتعلم، والتأكيد على تبادل العلم وعدم البخل به، فالعلم مودة ورحمة بين العلماء كما يقول ابن مسكويه (39: 142)، وأكد علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، على ضرورة توظيف العلم، فالعلم الحق - في نظره - هو «علم ينفع الناس». وجميع هذه القيم التربوية تتفق تماما مع توجهات تربية عصر المعلومات.

6: 4: 6 الإبداع والتربية (الطرح العام)

ذكاء الآلة يحاصر ذكاء الإنسان من كل حدب وصوب، فالروبوت يقاسم الإنسان أعمال المهارات الدنيا، ونظم المعلومات تقاسمه أعمال المهارات الوسطى، ونظم الذكاء الاصطناعي، والنظم الخبيرة تقاسمه أعمال المهارات العليا. تتفق الآراء على أنه لابد أن يسبق الخيال والإبداع البشري التقدم التكنولوجي إذا ما أردنا تجنب تفاقم البطالة والعزل الاجتماعي، واتساع الفوارق بين الطبقات، وهنا، موضع التحدي الحقيقي الذي يواجه تربية عصر المعلومات، فلم يعد كافيا أن تلحق بالتكنولوجيا فقط، بل عليها أن تتجاوزها. هناك من يقول: إن تكنولوجيا المعلومات ستجعل من الإبداع حكرا على النخبة، في حين يرى المتفائلون أن الإبداع سيكون متاحا للجميع، وسوف ينمو بصورة تلقائية في بيئة مجتمع التعلم، وليد عصر المعلومات، من خلال التفاعل الإيجابي الحي مع مصادر المعلومات. ومرة أخرى، ينطوي ذلك على تحد قاس لتربية عصر المعلومات في ضرورة تصديها لطبقية

المعرفة وشحذها الوسائل التي تتيح للإنسان فرص التعلم مباشرة من خلال معايشته لمجتمعه.

الإبداع والتربية (المنظور العربي)

دعنا ـ بداية ـ نخل من طريقنا تلك العوائق النفسية، المتمثلة في رمي العقل العربي بالعجز والاتباع وما شابه، وذلك حتى يمكننا مواجهة التحديات الجسام، التي لابد أن تتصدى لها التربية العربية على جبهة الإبداع، والذي لم يعد من قبيل الرفاهية التربوية، بل من أولى ضرورياتها، وسنكتفي هنا بتفريغ شحنة من تساؤلاتنا حول الإبداع نطرحها على أهل التربية وأهل علم النفس وعلم الاجتماع وأهل الإعلام، وكذلك على رجال السياسة والاقتصاد، فتربية الإبداع واستغلال موارده قضية متعددة الجوانب.

- كيف يمكن أن يبدع فقراؤنا الذين يشكون ـ حاليا ـ من أنيميا معلوماتية حادة؟

- كيف يمكن أن ينمو الإبداع في فصولنا المكتظة بالتلاميذ، ومجمعاتنا المكتظة بالمستهلكات، ومناهجنا المكتظة بالحشو، ووسائل إعلامنا المكتظة بالسطحي والمعاد والمستورد؟

- كيف يمكن أن ينمو عقل الناشئة من هذه الوجبات التعليمية السريعة كما شبهها البعض؟

- كيف يمكن أن ينمو الإبداع، الذي يعيش على الحرية والانطلاق، في بيئة زاخرة بالقهر، على اختلاف مصادره وألوانه؟

- كيف يمكن للأسرة العربية اكتشاف مواهب صغارها في مرحلة مبكرة، والحرص عليها، وزيادة مناعتها، ضد آفة التلقي السلبي الضاربة أطنابها في منظومة تعليمنا؟

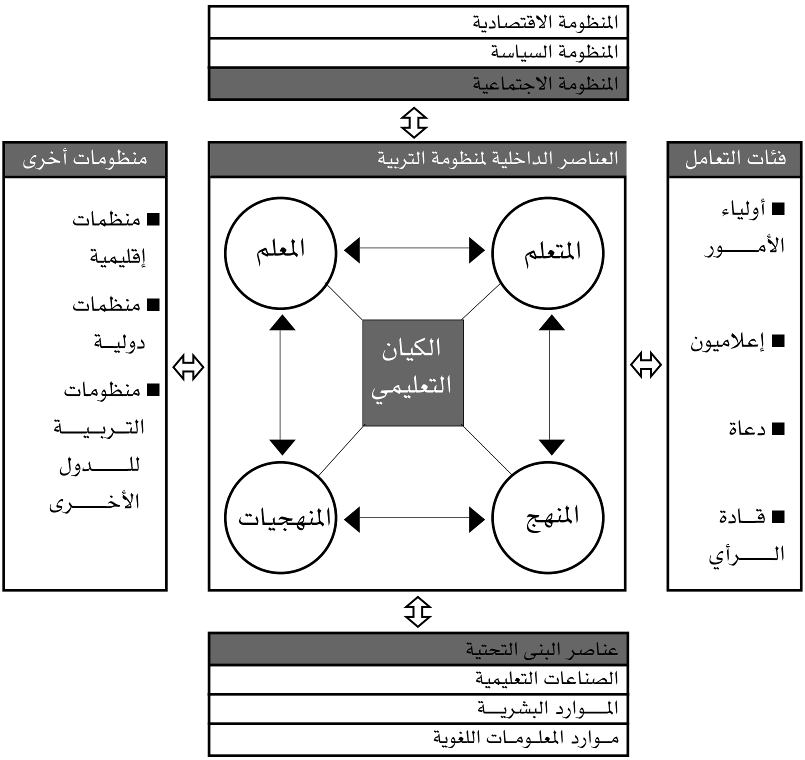
- أخيرا وليس آخرا، هل يمكن لنا أن نحدد أي نوع من الإبداع نريده لفئاتنا الاجتماعية المختلفة؟ هل هو من نوع إبداع آينشتين المكتشف النظري، أم إبداع زويل العلمي التطبيقي، أم إبداع نزار قباني الرومانتيكي المناضل، أم إبداع أدونيس الرافض والمجدد، أم إبداع مجدي يعقوب المهني البارع، أم إبداع إخوان الرحبانية في مزجهم بين مقاماتنا الشرقية والصيغ الموسيقية الغربية، أم إبداع نصير شمة في ابتكاريته

في عزف العود أم إبداع محطمي خط بارليف وإبداع أطفال الحجارة؟

6: 5 منظومة التربية

6: 5: 1 الإطار العام لمنظومة التربية

يوضح الشكل (6: 5) الإطار العام الذي وضعه الكاتب لمنظومة التربية من منظور معلوماتي، ويتضمن ثلاثة مكونات رئيسية هي:



الشكل (6: 5) الإطار العام لمنظومة التربية

- العلاقات التي تربط منظومة التربية بخارجها.
- العناصر الداخلية لمنظومة التربية.
- عناصر البنى التحتية لمنظومة التربية، وتشمل الصناعات التعليمية من طباعة ونشر وتطوير برامج، والموارد البشرية من باحثين وتربويين

وواضعي مناهج ومديرين، وموارد المعلومات التربوية، وتشمل قواعد البيانـات والمـواد التعليميـة العلمـية والتكنولوجية، لدعم الأنشطة التربوية المختلفة.

وقد رأى الكاتب أن يضيف إلى هذا الإطار العام عنصر الفلسفة التربوية الذي يحيط المنظومة ككل، بصفتها ـ أي الفلسفة ـ هي التي تحدد علاقة المنظومة بخارجها، وتحدد كذلك أداء عناصرها الداخلية والعلاقات البينية التي تربط بين هذه العناصر، وذلك علاوة على تحديد عناصر البنى التحتية المساندة للنشاط التربوي.

سنتناول فيما يلي بإيجاز المكونين الأولين.

6: 5: 2 العلاقات الخارجية التي تربط منظومة التربية بخارجها (الطرح العام)

كما يوضح الشكل ترتبط منظومة التربية بخارجها بثلاث جهات أساسية:

- المنظومات الاجتماعية الأخرى، وسنركز ـ هنا ـ على منظومتى السياسة والاقتصاد بجانب منظومة المجتمع ككل.

- الفئات الاجتماعية التي تتعامل مع منظومة التربية، وتشمل أولياء الأمور والإعلاميين والدعاة الدينيين وقادة الرأي.

- المنظمات الدولية والإقليمية، وعناصر الحكم المحلي والمجتمع الديني.

وتأكيدا للرؤية المقارنة التي تتبناها الدراسة الحالية والتوجه نحو عولمة التربية، فقد أضفنا أيضا تربويات الدول الأخرى.

(أ) **عن علاقة التربية بمنظومة المجتمع ككل:** التربية هي ساحة التقاء النفسي والفسيولوجي والاجتماعي، وعلاقتها بالمجتمع بمنزلة متغير تابع للفلسفة التربوية التي تسير على هداها. فالتربية تارة، خاضعة منقادة لمجتمعها، وتارة أخرى، دافعة وقائدة لمسيرة تطوره، وبين الانقياد والقيادة، هناك من يراها مؤسسة اجتماعية ضمن مؤسسات أخرى تتفاعل فيما بينها، وفقا لقوانين توزيع العلم المجتمعي. كان لابد لعلاقة تربية عصر المعلومات بمجتمعها، أن تختلف عن تلك التي سبقتها. فمن جانب، وتحت تأثير تكنولوجيا المعلومات، تتهاوى أسوار المدارس التي تفصل التربية عن مجتمعها، ومن جانب آخر، وفي ظل مفهوم مجتمع التعلم، سيصبح المجتمع ـ بأسره ـ هو المدرسة القصوى؛ لتتلاشى الحدود الفاصلة بين التربية

والتنمية، ويصبح العالم هو الفصل «مكبرا»، والفصل هو العالم «مصغرا».

يعالج بعض المنظرين التربويين التعليم كقضية مستقلة عن منظومة المجتمع، ناظرين إليه كمسألة تربوية علمية بحتة خارج الصراع الطبقي والأيديولوجي والسياسي (70: 53). ونحن نتحفظ بشدة ضد هذا التفريغ الأيديولوجي لعملية التربية، لأن أي فكر تربوي ـ كما يقول شبل بدران ـ وأي ممارسة تعليمية تعبر بالضرورة عن فئة أو طبقة أو مجتمع وتخدم مصالحها (70: 54).

(ب) **عن علاقة التربية بمنظومة السياسة:** تشمل العلاقة التربوية ـ السياسية، فيما يخص طرحنا الحالي، الأمور المتعلقة بتكافؤ الفرص، والانتماء القومي، واستخدم التربية كسلاح أيديولوجي من قبل الساسة، وسنتناول هذه القضية بمزيد من التفصيل في الفصل القادم، الخاص بثقافة الإعلام، وذلك في صدد الحديث عن تفاعل القوى الرمزية مع القوى الاجتماعية الأخرى.

(ج) **علاقة التربية بمنظومة الاقتصاد:** تشمل العلاقة التربوية ـ الاقتصادية، فيما يخص طرحنا الحالي، الأمور المتعلقة بتضخم ميزانية التعليم نتيجة للاعتماد المتزايد على تكنولوجيا التعليم، وتوافر فرص العمل وعلاقة عمالة عصر المعلومات بأصحاب رؤوس الأموال، وحساب القيمة المضافة ورأس المال الذهني. وتشمل العلاقة ـ أيضا ـ مساهمة المؤسسات الاقتصادية في تربية عصر المعلومات، سواء على مستوى الاستثمار في مجال التعليم أو على مستوى التدريب داخل المنشأة الاقتصادية، وفقا لمبدأ التعلم أثناء العمل: تعلم لتعمل، واعمل لتتعلم.

(د) **علاقة التربية بمنظومات أخرى:** من المتوقع في ظل العولمة أن تتوثق علاقة منظومة التربية بالمنظمات الدولية، وعلى رأسها منظمة اليونسكو ومنظمة العمل الدولية، علاوة على مؤسسات التمويل ووكالات دعم التنمية العالمية والإقليمية. بالقدر نفسه ستزداد صلة منظومة التربية بعناصر الحكم المحلي وتنظيمات المجتمع المدني؛ كنتيجة منطقية لاتساع نطاق المواجهة بين التربية والمجتمع.

(هـ) **علاقة التربية بفئات التعامل:** بداية، لقد قيل إن التعليم يجعل الناس أكثر تقبلا للقيادة لا للانقياد، ويجعل حكمهم أكثر سلاسة،

واستبعادهم من قبيل المستحيل. والسؤال هنا: هل تحقق ذلك؟!

تتطلب تربية عصر المعلومات مراجعة شاملة للعلاقات التي تربط التربية بالفئات الاجتماعية التي تتعامل معها، خاصة ما يتصل بعلاقتها بأولياء الأمور بعد أن أصبح تعليم عصر المعلومات شأنا يتقاسمه المنزل والمدرسة. من الجوانب المهمة لعلاقة التربية بالفئات الاجتماعية، ضرورة تضافر قادة الرأي والدعاة الدينيين والإعلاميين من أجل التوعية بخطورة القضايا الاجتماعية التي تطرحها تربية عصر المعلومات.

العلاقات الخارجية التي تربط منظومة التربية بخارجها (المنظور العربي)

(أ) **عن علاقة التربية العربية بمنظومة المجتمع ككل**: يزعم الكاتب أن من الأسباب الرئيسية لأزمتنا التربوية، قصورنا الشديد في دراسة العلاقة بين المتغير الاجتماعي والمتغير التربوي. لقد فشلت معظم نظم التربية العربية في تلبية تطلعات أبناء الطبقات الفقيرة التي حلمت يوما بأن تجد في التعليم سبيلها إلى الرقي الاجتماعي. ولقد أفسد هذا الفشل ـ بدوره ـ «العقد التربوي» من أساسه، وأفقد التربية مصداقيتها بالتالي، وأصاب مفهوم الانتماء للمجتمع في الصميم. وفي ظل المتغير المعلوماتي، لم يعد انعزال تربيتنا عن واقع مجتمعنا أمرا مقبولا يمكن التجاوز عنه. ومرة أخرى يمكن أن تساهم تكنولوجيا المعلومات بوسائلها الإحصائية ونماذجها، في إلقاء الضوء على هذه العلاقة الحيوية، والتي تحتاج دراستها إلى فريق من التربويين والاجتماعيين واللغويين والمعلوماتيين، بالإضافة إلى مشاركة فعالة من قبل أهل السياسة والاقتصاد.

(ب) **عن علاقة التربية العربية بالمنظومة السياسية**: ارتبط تعليمنا بأهداف الدولة ارتباطا وثيقا منذ نشأته، ويكتفي الكاتب ـ هنا ـ بأن يحيل قراءة ما خلص إليه البعض من أن علاقة نظمنا التربوية تعد صورة نموذجية لما يتحتم أن تكون عليه العلاقة بين «المعرفة» و«السلطة» و«الجماهير» في بلدان العالم الثالث (122 : 42)، فهل لتربيتنا من فكاك؟!

(ج) **عن علاقة التربية العربية بالمنظومة الاقتصادية**: ليس خافيا أن ديموقراطية التعليم تتعرض في البلدان العربية الفقيرة إلى ضغوط اقتصادية هائلة، خاصة مع زيادة أهمية التربية في مجتمع المعلومات، وهو الوضع

الذي جعل من التعليم مجالا جذابا للاستثمار الاقتصادي؛ مما يهدد بإعادة إنتاج تلك المجتمعات بطبقاتها وتناقضاتها.

إن اقتصاديات التربية العربية، تحتاج إلى رؤية مغايرة، تنظر إلى تربية عصر المعلومات بصفتها استثمارا طويل الأجل، ولن يتم ذلك إلا بحساب العائد الاجتماعي الكلي، مقترنا بحساب الكلفة الباهظة المباشرة وغير المباشرة لهادرنا التربوي والمتمثل في نزيف العقول، والتسرب من الفصول، والارتداد إلى الأمية بمستوياتها المختلفة.

(د) **علاقة التربية العربية بمنظومات تربوية أخرى:** يمكن القول بشكل عام: إن التربية العربية برافديها المشرقي والمغربي، قد تأثرت بالمدرسة الأمريكية والمدرسة الفرنسية، وحان الوقت لأن ندرس ـ بجدية ـ التجارب التربوية لدول أخرى، مثل ألمانيا وكندا واليابان ودول جنوب شرق آسيا وإسرائيل، خاصة فيما يتعلق بإضافة الخصوصية الثقافية إلى المنظومة التربوية، ولإسرائيل تجاربها التعليمية التي تستحق الدراسة، خاصة في مجال إدخال الكمبيوتر إلى المدارس. من جانب آخر علينا استغلال موارد المعلومات التعليمية الهائلة التي توفرها منظمة اليونسكو وبرنامج الأمم المتحدة للتنمية ومنظمة الأمم المتحدة للتعاون والتنمية، في المجال الاقتصادي.

(هـ) **عن علاقة التربية العربية بفئات التعامل:** تتسم علاقة التربية العربية بفئاتها الاجتماعية بملامح عامة عدة من أبرزها:

- عزوف أولياء الأمور عن المشاركة، وهو ما يتناقض جوهريا مع تعاظم دور الأسرة في تربية عصر المعلومات. ويمكن للإنترنت أن تلعب دورا رئيسيا في ذلك، بجانب إتاحتها فرصا لتعليم المرأة في المنزل.

- إعلامنا التربوي مازال يتناول أمور تربية عصر المعلومات، بصورة سطحية فولكلورية.

- دعاتنا الدينيون لا يرون في التربية سوى جانبها الإرشادي الأخلاقي، ويندر منهم من يتصدى لعدم المساواة في فرص التعليم، وجشع أصحاب الدروس الخصوصية.

- معظم قادة الرأي لدينا تنقصهم الثقافة التربوية اللازمة لعصر المعلومات.

- لا تشكل عناصر مجتمعنا المحلي وتنظيمات المجتمع المدني حاليا قوة ضغط حقيقية على مؤسساتنا التربوية، في حين يمكن لها أن تساهم ـ بجدية ـ في التصدي لمظاهر الفشل التربوي والاستبعاد الاجتماعي وأوجه القصور في تربية الطفولة وتعليم الكبار.

6: 5: 3 العناصر الداخلية لمنظومة التربية (الطرح العام)

من منظور دراستنا الحالية، أدرج الكاتب العناصر الداخلية التالية في إطار المنظومة التربوية: المعلم ـ المتعلم ـ المنهج ـ المنهجيات، وتندمج هذه العناصر الأربعة في الكيان التعليمي، ونقصد به ـ هنا ـ المؤسسة التعليمية السائدة، والتي لا تقتصر في تربية عصر المعلومات، على المدرسة فقط، بل تشمل ضمن ما تشمل:

- مراكز التدريب المتخصصة.
- إدارات التدريب داخل مؤسسات الإنتاج والخدمات.
- مواقع التعليم والتعلم الخائلية على الإنترنت.

(أ) **المتعلم**: أصبح المتعلم محور العملية التعليمية، وذلك بعد أن أصبحت القدرة على مواصلة التعلم ذاتيا، لا التعليم، هي أساس تربية عصر المعلومات. وتعني محورية المتعلم تلك، التركيز على احتياجات المتعلم، وإضفاء الطابع الفردي الشخصي على عملية التعليم ومراعاة خلفيته المعرفية، وما في حوزة عقله من مفاهيم، صائبة كانت أو خاطئة. إن التمركز على المتعلم، سيغير من طبيعة العلاقات البينية التي تربط رباعية: المتعلم ـ المعلم ـ المنهج ـ المنهجيات، وسيتطلب ـ أيضا ـ بنية تعليمية متجاوبة مع مطالب المتعلم وقدراته. هذا فيما يخص المتعلم، أما بالنسبة للمعلم فيجب أن توفر له هذه البيئة التعليمية مزيدا من الحرية في اختيار مادة الدراسة، وأسلوب تقديمها وعرضها وكذلك في تقويم أداء طلبته. لقد أصبحت مهمة التربية الأساسية ـ كما ذكرنا سلفا ـ هي أن تعلم الإنسان كيف يتعلم، وكيف يواصل تعلمه من المهد إلى اللحد. هذا عن مطالب إعداد الأجيال الحالية بمواصفات عصر المعلومات. أما فيما يخص تعليم الكبار، فيحظى ـ هو الآخر ـ باهتمام كبير من قبل التربية المعلوماتية، حرصا على لياقتهم الاجتماعية وإعادة تأهيلهم بما يتفق ومطالب سوق العمل المتجددة دوما، وذلك بالإضافة إلى

عدم توسيع الهوة الفاصلة بين الأجيال.

(ب) **المعلم**: نستهل بالقول: إن كل شخص باستطاعته أن يتعلم، ولكن ليس باستطاعته أن يصبح معلما. لذا، فإن قدرة المعلم تسبق، في قائمة الأولويات، قدرات متعلميه. وتتطلب تربية عصر المعلومات، التي تتسم بتضخم المعرفة وتنوع مصادرها وطرق اكتسابها ووسائط تعليمها، إعدادا خاصا للمعلم، ينمي لديه نزعة التعلم ذاتيا، ففاقد الشيء لا يعطيه، إن على المعلم أن ينمي قدراته ومعارفه، ويلم إلماما عميقا بمناهج التفكير وأسس نظرية المعرفة، وأن يكتسب مهارات إدارة الفصل والدرس والموارد التعليمية المختلفة في بيئة الوسائط المتعددة، هناك من يزعم أن الاعتماد الكبير على تكنولوجيا التعليم والبرامج الجاهزة، سيؤدي إلى ضمور مهارات المعلم، خاصة أن تكنولوجيا المعلومات على وشك أن تنتج نظما ذكية تحاكي خبرات المعلم البشري، بل تفوقه صبرا وإثارة ومثابرة، وربما يدفع ذلك بمهنة التدريس إلى جحيم بطالة عصر المعلومات. على العكس من ذلك، هناك من يرى ـ ونحن معهم ـ أن مهمة التدريس ستصبح أكثر إثارة، وأن المدرس سيكتسب مهارات جديدة في مجالات عدة. إن تكنولوجيا المعلومات ستحرر المعلم من قوقعة الفصول ليواجه، في رفقة تلاميذه، المجتمع على اتساعه، مما سيؤدي ـ حتما ـ إلى تنمية قدراته، وإغناء معارفه وتعزيز وضعه الاجتماعي، ودوره القيادي. علاوة على ذلك فإن البرمجيات التعليمية لا تغطي حاليا، إلا جزءا ضئيلا من مطالب التعليم الرسمي، وسيمضي وقت طويل قبل أن تستطيع نظم التعليم الآلية محاكاة المعلم البشري. أجل... لقد فقد معلم عصر المعلومات سلطة احتكار المعرفة ليتغير دوره ـ بالتالي من كونه مجرد ناقل للمعرفة إلى كونه مشاركا وموجها يقدم لطلبته يد العون، لإرشادهم إلى موارد المعلومات، وفرص التعلم المتعددة، المتاحة عبر الإنترنت. لقد أصبحت مهمة المعلم مزيجا من مهام المربي والقائد ومدير المشروع البحثي والناقد والمستشار والمخرج السينمائي ومدير المسرح.

وتتفق جميع الآراء على أن نجاح المؤسسة التربوية في عصر المعلومات يتوقف ـ بالدرجة الأولى ـ على نجاحها في إحداث النقلة النوعية في إعداد المعلم، وإعادة تأهيله، وكسر حاجز الرهبة لديه في التعامل مع التكنولوجيا، حتى يتأهل للتعامل مع أجيال الصغار التي رسخت لديها عادة

التعامل مع هذه التكنولوجيا.

(ج) **المنهج:** أو المادة التعليمية، يتعرض ـ هو الآخر ـ لهزة عنيفة. لقد عملت المناهج الصارمة، نتاج تربية عصر الصناعة، على تنميط العقول، وإنتاج البشر بأسلوب التوحيد القياسي، تماما كما يحدث في إنتاج المصانع. إن الأمل معقود على تربية عصر المعلومات كي تخلص التعليم من تلك الصرامة وقياسية الإنتاج بالجملة. لقد أصبح العالم أعقد من أن يشمله منهج ثابت ومحدود، وإزاء تضخم المعلومات أصبحت مسألة انتقاء مادة المنهج ذات بعد أخلاقي، وذلك لأنها تنطوي على حرمان المتعلم من معارف ربما تكون حيوية بالنسبة لتنميته الذهنية (299: 176). على صعيد آخر، فإن لدينا أنواعا عدة من الطلبة، وأنواعا عدة من الفصول، وأنواعا عدة من المدرسين، لكننا مازلنا متشبثين بأن كل هذا التنوع يمكن أن نواجهه بالمنهج نفسه (272: 11). لقد أفرزت تكنولوجيا الصناعة منهجا ثابتا منغلقا، فهل يمكن لتكنولوجيا المعلومات أن تجعل مناهج التربية منفتحة ومتغيرة بصورة دينامية. لقد ولى إلى الأبد ذلك الزمن الذي كانت فيه مجالات المعرفة المختلفة بمنزلة جزر منعزلة، منغلقة على نفسها في نطاق تخصصها الضيق، وقد كانت تكنولوجيا المعلومات ـ كما أسلفنا ـ معول هدم للحواجز الفاصلة بين مجالات المعرفة المختلفة. وعلى صعيد آخر، فقد ساد، في الماضي طابع التلاحق والخطية في عملية تخطيط المناهج الدراسية، فكل مرحلة، أو كل سنة من مراحل الدراسة أو العمر، له مادته التعليمية، فيأتي الحساب بعد اللغة، والجبر بعد الحساب، والأحياء بعد الفيزياء، والمنطق بعد الرياضيات، وهلم جرا. من أجل تحقيق التكامل المعرفي، خرج إلى الوجود مفهوم المنهج الحلزوني، القائم على أساس أن أي مادة تعليمية، يمكن تدريسها في أي مرحلة من العمر، مع استمرار عملية التعميق المعرفي، من خلال «تكرار زيارة» ما تم تدريسه في مراحل سابقة. وكما تتشظى النصوص والمعارف في عصر المعلومات، تتشظى - بالمثل - مناهج الدراسة، التي لم تعد تلك السلسلة المتصلة من المواد المترابطة، حيث جُمعت من وحدات معرفية أصغر modules في تشكيلات متنوعة، وفقا لأغراض التعليم ومطالب المتعلم، بل أوشك الأسلوب المعهود لقوائم المسائل والتمارين أن يندثر أيضا، بعدما صارت تلك القوائم السابقة التجهيز غير ملائمة لعصر

المعلومات، الذي يفرز كل يوم مشاكل لم تكن في الحسبان، وأصبح طرح الأسئلة بأهمية الإجابة عنها، إن لم يزد.

(هـ) **المنهجيات:** أسوة بما حدث في رقابة الجودة الصناعية، لم يعد يكفي في تقويم أداء المؤسسة التربوية، الاكتفاء بجودة المنتج النهائي، ويقصد به أداء الطالب في حالتنا، بل لابد أن يتضمن ذلك جودة عمليات الإنتاج ذاتها، وهي تناظر ـ في حالتنا ـ جودة أساليب التعلم، من منهجيات وطرق تدريس. لقد أصبحت عملية التعليم والتعلم متعددة الأبعاد، فهناك مصادر متعددة للتعلم: نظامية وشبه نظامية وغير نظامية، وهناك وسائط متعددة لتقديم المادة التعليمية: من وسائط الطباعة الإلكترونية ووسائل الإيضاح السمعية والبصرية، بالإضافة إلى اتساع مراحل التعليم التي تشمل ـ حاليا ـ جميع الأعمار من الصغار حتى الكبار، وقد أدى ذلك ـ بدوره ـ إلى ما يمكن أن نطلق عليه ظاهرة «انفجار المنهجيات» نظرا إلى البدائل المتعددة التي تتيحها تكنولوجيا المعلومات فيما يخص تفاعل رباعية: المعلم ـ المتعلم ـ المنهج ـ المنهجيات.

العناصر الداخلية لمنظومة التربية (المنظور العربي)

(أ) **المتعلم:** صار متعلمنا، في ظل تعليم الأعداد الغفيرة، مجرد ظاهرة إحصائية، فليس هناك من الوسائل والوقت لرعاية مواهبه وتنمية قدراته الشخصية، ولا أمل في أن تغير التربية العربية فلسفتها الراسخة بين يوم وليلة، وسيمضي وقت طويل، قبل أن تنبت الديموقراطية براعمها في تربتنا التربوية الصخرية المتصحرة. لذا، فإن التوجه الذي ذكرناه في طرحنا العام عن محورية المتعلم، لابد أن تتوزع مسؤولية تنفيذه بين المنزل والمدرسة والتلميذ نفسه، وعلى علماء علم النفس التربوي لدينا أن يدلوا بدلوهم في حل هذه المعضلة، من حيث تنمية نزعة الاعتماد على الذات، وتخليص عقول تلاميذنا مما خلفته آفة التلقي السلبي. ونتساءل في النهاية: هل سيأتي اليوم، الذي يقبل فيه معلمنا أن يقيمه طلبته، أسوة بزملائه في كثير من بلدان العالم المتحضر؟!

(ب) **المعلم:** معظم معلمينا مازالوا عازفين عن المشاركة الإيجابية في توجيه مسار العملية التربوية، ونادرا ما يُدعون إلى المشاركة في القرارات

الخاصة بالتعليم، وموقف معلمينا من استخدام تكنولوجيا المعلومات في مجال التعليم مازال مشوبا بالغموض. البعض يرى فيها منافسا خطيرا، والبعض الآخر غير موقن بفاعليتها، إما بسبب الثقافة التربوية السائدة وإما لنقص التدريب وإما لعدم توافر المعدات والبرامج. وقد أصبح تعلم الكمبيوتر، في معظم مدارسنا، مقصورا على القائمين بتدريس مادته. لقد ترسخت لدى معظم المعلمين العرب عادة التدريس بالتلقين، وعدم تنويع مصادر المادة التعليمية. ويحتاج علاج ذلك إلى تضافر جهود التأهيل، وتصميم المناهج وأساليب التقويم والامتحانات. ولا يمكن للمعلم العربي أن يتقن مهمة التعليم باستخدام تكنولوجيا المعلومات، إلا إذا دُمجت هذه التكنولوجيا في جميع المناهج في كليات التربية من السنة الأولى. إن المعلم العربي يجب أن يتعلم هو نفسه باستخدام تكنولوجيا المعلومات، قبل أن نطالبه بالتدريس مستخدما إياها. إن ذلك سيكسر رهبة استخدام التكنولوجيا لدى المعلم بحيث لا يصبح تحت رحمة الأخصائي التكنولوجي الذي يتعذر توافره ووجوده. ودعنا نلخص هنا: نحن نريد لمتعلمنا مادة تعليمية أقل واستيعابا أعمق، وبالنسبة لمعلمنا، حملا تدريسيا أقل، وتدريبا أكثر. ومن حسن الحظ، أن تكنولوجيا المعلومات، وشبكة الإنترنت خاصة، تتيح فرصا عدة لتأهيل المعلمين، بما توفره من مناهج مبرمجة، ومراكز تدريب خائلية، ونظم لتأليف المناهج، علاوة على تبادل الخبرات مع أقرانهم بالداخل والخارج عبر حلقات النقاش وجماعات الاهتمام المشترك التي تموج بها الشبكة.

(ج) **المنهجيات**: من المتعذر استيراد منهجيات التعليم لشدة ارتباطها، سواء بالبيئة التعليمية، أو بقدرات المعلم القائم بتطبيقها. لذا فنحن في أمس الحاجة إلى دفع البحوث التربوية لتناول أثر تكنولوجيا التعليم والإنترنت على منهجيات التعليم، وكيفية تطويعها للثقافة السائدة، وللبيئة التربوية المتوافرة، ولقدرات المعلم وقدرات من نقوم بتعليمهم. ومن الخطورة بمكان، تطبيق المنهجيات الجديدة ـ ومعظمها مستحدث ـ دون تجريب واختبار دقيق. ومرة أخرى، يمكن لتكنولوجيا المعلومات أن تساهم في تحقيق هذا الغرض، حيث توفر بيئة اختبار فعالة لتجريب المناهج الجديدة، مع سرعة الحصول على النتائج.

الحواشي

(*1) التربية هنا بمفهومها الواسع الذي يشمل التعليم والتعلم وتنمية الشخصية وتأهيل الفرد من أجل تلبية مطالب مجتمعه وعالمه.

(*2) مثال لذلك فيلم «أمير مصر» ويقصد به موسى عليه السلام، لستيفن سبيلبرج.

(*3) انظر الفقرة 2: 3: 2 من الفصل الثاني.

(*4) ذكر هذه الحادثة زميل مغربي ممن حضروا احتفالية «مجلة العربي» بعامها الأربعين بالكويت ـ مارس 1999.

(*5) تأكيدا لأهمية المزج بين التنافس والتعاون، فقد صك البعض المصطلح «co-opetition» ليمزج بين competition وco-operation.

(*6) من أمثلة ذلك، قصص الأطفال التي كتبها الروائي المصري صنع الله إبراهيم في مجلة العربي الصغير في أعدادها الأولى.

7 ثقافة الإعلام: منظور عربي معلوماتي

- عن إعلام عصر المعلومات وخطورته
- التوجهات الرئيسية لتكنولوجيا الاتصال
- علاقة الإعلام بمنظومة الثقافة
- منظومة الإعلام

7: 1 عن إعلام عصر المعلومات وخطورته

7: 1: 1 عن ثورة الإعلام والاتصال (الطرح العام)

الإنسان ـ كما قيل ـ حيوان اتصالي، ولا تقوم للمجتمع الإنساني قائمة دون نظام للاتصال، الذي اعتبره البعض شرطا من شروط بقاءالكائن البشري (51: 66). وتاريخ البشرية، من عصور نقوش الأحجار إلى بث الأقمار، يمكن رصده متوازيا مع تطور وسائل الاتصال التي تربط بين الأفراد والجماعات. ويشهد هذا التاريخ أن الاتصال كان دوما وراء كل وفاق وصراع، فكلاهما ـ كما ورد في ميثاق منظمة اليونسكو ـ ينشأ ابتداء في عقول البشر.

(أ) **محورية الإعلام والاتصال:** لقد ظن البعض خطأ أن إعلام عصر المعلومات ما هو إلا مجرد طغيان الوسيط الإلكتروني على باقي وسائط الاتصال الأخرى، لكنه ـ في حقيقة الأمر ـ أخطر من ذلك بكثير، فالأهم هو طبيعة الرسائل التي تتدفق من خلال هذا الوسيط الاتصالي الجديد،

وسرعة تدفقها وطرق توزيعها واستقبالها. لقد نجمت عن ذلك تغيرات جوهرية في دور الإعلام، جعلت منه محورا أساسيا في منظومة المجتمع، فهو اليوم محور اقتصاد الكبار، وشرط أساسي لتنمية الصغار. ومما يؤكد محورية الإعلام في حياتنا المعاصرة ذلك الاهتمام الشديد الذي تحظى به قضاياه في الفكر الفلسفي والتنظير الثقافي المعاصر: محافظا كان أو ثوريا، حداثيا كان أو ما بعد حداثي، رأسماليا كان أم ذا توجه ماركسي. خلاصة القول: لقد ساد الإعلام ووسائله الإلكترونية الحديثة ساحة الثقافة، حتى جاز للبعض أن يطلق عليها: ثقافة الميديا، وثقافة التكنولوجيا، وثقافة الوسائط المتعددة. وكما لقب أرسطو بـ «المعلم الأول»، حاز والت ديزني على لقب «المعلم الأعظم» بعد أن باتت الثقافة، إعلامها، وترفيهها، تصنيعا لا تنظيرا.

(ب) **العوامل الرئيسية لثورة الإعلام والاتصال:** وراء ثورة الإعلام والاتصال عوامل تقنية واقتصادية وسياسية يمكن تلخيصها فيما يلي:

- العامل التقني المتمثل في التقدم الهائل في تكنولوجيا الكمبيوتر: عتاده وبرمجياته، وتكنولوجيا الاتصالات، خاصة فيما يتعلق بالأقمار الصناعية وشبكات الألياف الضوئية. لقد اندمجت هذه العناصر التكنولوجية في توليفات اتصالية عدة، إلى أن أفرزت شبكة الإنترنت، التي تُشكل ـ حاليا ـ لكي تصبح وسيطا إعلاميا يطوي بداخله جميع وسائط الاتصال الأخرى: المطبوعة والمسموعة والمرئية، وكذلك: الجماهيرية وشبه الجماهيرية والشخصية. لقد انعكس أثر هذه التطورات التكنولوجية على جميع قنوات الإعلام: صحافة وإذاعة وتلفاز، وانعكس كذلك ـ وهو الأخطر ـ على طبيعة العلاقات التي تربط بين منتج الرسالة الإعلامية وموزعها ومتلقيها. لقد انكمش العالم مكانا وزمانا، وسقطت الحواجز بين البعيد والقريب، وكادت تكنولوجيا الواقع الخائلي أن تسقط الحاجز بين الواقعي والوهمي، وبين الحاضر والغائب، وبين الاتصال مع كائنات الواقع الفعلي والكائنات الرمزية التي تقطن فضاء المعلومات.

- العامل الاقتصادي المتمثل في عولمة الاقتصاد، وما يتطلبه من إسراع حركة السلع ورؤوس الأموال، وهو ما يتطلب بدوره الإسراع في تدفق المعلومات، وليس هذا لمجرد كون المعلومات قاسما مشتركا يدعم جميع

الأنشطة الاقتصادية دون استثناء، بل لكونها ـ أي المعلومات ـ سلعة اقتصادية في حد ذاتها، تتنامى أهميتها يوما عن يوم. بقول آخر، إن عولمة نظم الإعلام والاتصال هي وسيلة القوى الاقتصادية لعولمة الأسواق من جانب وتنمية النزعات الاستهلاكية، ووسيلة توزيع سلع صناعة الثقافة من موسيقى وأفلام وألعاب وبرامج تليفزيونية من جانب آخر.

- العامل السياسي المتمثل في الاستخدام المتزايد لوسائل الإعلام من قبل القوى السياسية بهدف إحكام قبضتها على سير الأمور، والمحافظة على استقرار موازين القوى، في عالم شديد الاضطراب، زاخر بالصراعات والتناقضات.

لقد تداخلت هذه العوامل التقنية والاقتصادية والسياسية بصورة غير مسبوقة، جاعلة من الإعلام الحديث قضية شائكة للغاية، وساحة ساخنة للصراعات العالمية والإقليمية والمحلية.

(ج) تناقضات الإعلام الحديث: الإعلام الحديث، كغيره من أمور العصر، بات في مفترق الطرق، فعلى الرغم من ثرائه التقني وأهميته السياسية والاقتصادية والثقافية، مازال تنظيره تائها بين علوم الإنسانيات ونظريات المعلومات والاتصالات، وعلى ما يبدو فإن معظم فروع الثقافة: لغة وتربية وإعلاما وإبداعا، محكوم عليها بأن تحمل في جوفها تناقضا جوهريا من نوع ما، فكان تناقض اللغة في ثنائية شفافيتها وعتمتها، وكان تناقض التربية في تنازعها بين الوفاء بمطالب استقرار مجتمعها، ومطالب تغييره معا. أما الإعلام، فيكمن تناقضه في حيرته بين رسالة الإعلام وهوى الإعلان، وبين مراعاة مصالح الحكام والحرص على مصلحة المحكومين، وما بين غايات التنمية الاجتماعية ومطامع القوى الاقتصادية التي تعطي الأولوية للإعلام الترفيهي لا التنموي. وهل هناك تناقض أكثر حدة وسخرية بين ما يدعيه الإعلام من كونه أداة للترفيه والترويح عن النفس، وما يثيره من «عنف ترفيهي» و«فزع معنوي»؟ وبينما ينتظر منه أن يكون وسيلة للترابط الاجتماعي والوفاق العالمي، نجده وقد استخدم من أجل إشاعة التعصب والعصبية، والتفرقة الطبقية والعنصرية، وتنمية نزعات الكره تجاه الآخرين: أجانب كانوا، أم أصحاب فكر مناهضين.

ولم تكن مظاهر هذا التناقض الجوهري في صلب منظومة الإعلام

أكثر وضوحا مما هي عليه الآن، في ضوء متغيرات عصر المعلومات. وكما هي الحال على جبهتي اللغة والتربية، فقد بات الإعلام ـ هو الآخر ـ في أمس الحاجة إلى رؤية جديدة ومغايرة، فالمنظومة الإعلامية بصورتها الحالية تعد مثالا صارخا لإساءة استخدام التكنولوجيا، ويكفي دليلا على ذلك، تلك الهوة الفاصلة بين غايات الإعلام وواقعه، وبين زيف أقنعته وحقيقة دوافعه.

عن ثورة الإعلام والاتصال (المنظور العربي)

(أ) **الصدمة الإعلامية**: يعيش إعلامنا العربي صدمة إعلامية على مختلف المستويات: السياسية والتنظيمية والفنية، فليس بالأقمار الصناعية والقنوات الفضائية وأحداث المطابع الصحافية وحدها يحيا الاتصال في عصر المعلومات. وعلينا أن نقر بأننا لم نرصد بعد مسارات الخريطة الجيو ـ إعلامية الحديثة، وهو ما عبر عنه التقرير الإستراتيجي العربي للعام 1999 بضعف الاستجابة إلى عولمة الإعلام (145: 166). لقد فقد إعلامنا العربي محوره، وأضحى مكبلا بقيود ارتباطه الوثيق بالسلطة، تائها بين التبعية الفنية والتنافس السلبي على سوق إعلامية إعلانية محدودة، وكان نتيجة ذلك أن أصبح رهين الإعلان من جانب، وذليل الدعم الحكومي من جانب آخر. إن إعلامنا العربي يواجه عصر التكتلات الإعلامية مشتتا، عازفا عن المشاركة في الموارد، يعاني من ضمور الإنتاج وشح الإبداع، حتى كاد ـ وهو المرسل بطبيعته ـ أن يصبح نفسه مستقبلا للإعلام المستورد ليعيد بثه إلى جماهيره، وأوشكت وكالات الأنباء لدينا أن تصبح وكالات للوكالات الأربع الكبرى، حتى فيما يخص أخبارنا المحلية. لقد ارتضينا أن نوكل إلى غيرنا نقل صورة العالم من حولنا، بل صنع صورتنا عن ذاتنا أيضا. أما شبكة الإنترنت، فلم ندرك ـ بعد ـ مغزاها الثقافي لكي يمكننا إدراك مغزاها الاتصالي الإعلامي، وذلك على الرغم من قناعة الكاتب بقدرتنا على اللحاق بإعلام الإنترنت وهو مازال في مهده.

خلاصة المقال: لقد وقعنا في فخ شباك الإعلام والاتصال، شبكة الأقمار الصناعية، وشبكة الإنترنت، وشبكة التكتلات الإعلامية المتعدية الجنسية. ولا يمكن للمرء أن ينكر بعض المحاولات الناجحة لتطوير الإعلام العربي،

في مجالات الصحافة والإذاعة والتليفزيون إلا أن هذه المحاولات تظل دون الحد الأدنى المطلوب.

(ب) **غياب التنظير الإعلامي:** على الرغم من إدراك الكثيرين بيننا لأهمية الإعلام ودوره التنموي، إلا أن هناك شبه غياب تنظيري للقضايا التي يطرحها إعلام عصر المعلومات وانعكاساته على تضاريس واقعنا العربي، فخطابنا الإعلامي الرسمي يسوده الطابع العلمي، ويخلط ـ عادة ـ ما بين الغايات والسياسات والإجراءات، ويدعو الكاتب القراء المهتمين بشأننا الإعلامي إلى الاطلاع على بعض الدراسات الخاصة بالسياسات الثقافية والاتصالية في الوطن العربي، ليكتشفوا بأنفسهم مدى التناقض بين المقترحات الطموح والتوصيات الجسورة التي خلصت إليها الدراسة، وبين نبرة التشاؤم التي تتضح بها مقدماتها في صدد تناولها للقيود السياسية والاقتصادية والتقنية التي تكبل مسيرة إعلامنا العربي [55].

وعلى المستوى الأكاديمي، فإن كثيرا من أهل التخصص تعوزهم العدة النظرية والخلفية الفنية المعلوماتية لتناول قضايا الإعلام الحديث، خاصة فيما يتعلق بالإنترنت كوسيط إعلامي. أما أهل الفلسفة والتربية وعلم الاجتماع، فيندر فيهم من ينظر إلى الإعلام بصفته هما تنظيريا من هموم التنظير الثقافي الحديث.

(ج) **عن التناقض الجوهري:** يشكو إعلامنا من تناقض جوهري، بعد أن تخلى عن مهمته التنموية الأساسية ليسوده طابع الترفيه والإعلام على حساب المهام الأخرى، ويقصد بها مهام التعليم، والتوعية الثقافية، وإعادة إحياء الإرادة الجماعية للمشاركة في العمل الاجتماعي. ومن قبيل الإنصاف، فإن إعلامنا، شأنه في ذلك شأن معظم نظم الإعلام في دول العالم الثالث، يعمل تحت ضغوط سياسة واقتصادية تنأى به عن غاياته التنموية البعيدة المدى، ويكمن التحدي ـ حاليا ـ في أن التوجهات الإعلامية الراهنة تعمل على زيادة هذه الضغوط مما يتطلب سياسة إعلامية أكثر صمودا ومرونة وابتكارا.

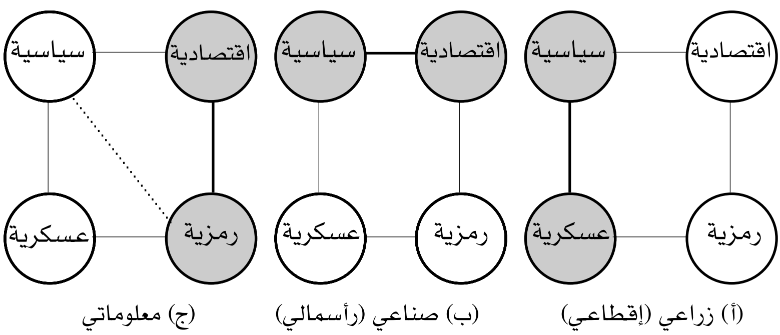
7: 1: 2 لعبة القوى الاجتماعية (الطرح العام)

الإعلام ـ بلا شك ـ أكثر القوى الرمزية حضورا وتجليا وتأثيرا؛ تشمل

القوى الرمزية، بجانب الإعلام، المؤسسة التعليمية، والجامعات، وصناعة المعلومات، ومؤسسات الفنون، ومراكز الدراسات والبحوث، والأيديولوجيات على اختلاف أنواعها. لكي يتضح لنا دور الإعلام في لعبة القوى الاجتماعية، علينا أن نتفهم طبيعة العلاقة التي تربط بين القوى الرمزية والقوى السياسية والاقتصادية والأمنية (319: 13)، وسنتناول هنا في هذا الصدد أمرين أساسيين:

- تغير محاور التحالف بين القوى الاجتماعية.
- القوى اللينة وطبيعتها.

(أ) **تغير محاور التحالف بين القوى الاجتماعية**: يلخص الشكل (7: 1) تغير محور التحالف الأساسي بين رباعية القوى الاجتماعية: الرمزية والسياسية والاقتصادية والعسكرية (الجيش والشرطة). ويقر الكاتب بقدر من التبسيط ارتضاه في هذا التلخيص، من أجل إبراز طبيعة التغير في لعبة القوى الاجتماعية بفعل المتغير المعلوماتي. كما يوضح الشكل، كان محور التحالف، في المجتمع الزراعي الإقطاعي، بين القوة السياسية الحاكمة والقوة العسكرية التي تسانده من أجل إخضاع سخرة الزراعة بما يتفق ومصالح القوى الاجتماعية المسيطرة. وفي المجتمع الصناعي الرأسمالي، تحالفت القوة السياسية مع القوة الاقتصادية، وانتقل دور القوة العسكرية من مهمة فرض النظام داخليا إلى حسم الصراع مع القوى الخارجية، وانزوت القوة الرمزية المتمثلة في سلطة الكنيسة؛ لتفسح في الطريق أمام الرأسمالية الصناعية ومطالب تمويلها وإنتاجها.



الشكل (7: 1) تغير محاور التحالف بين القوى الاجتماعية

تشير دلائل عدة إلى أن محور التحالف في مجتمع المعلومات سيكون بين القوة الاقتصادية والقوة الرمزية، على حساب سلطة القوة السياسية، التي ستعمل على خدمة الاقتصاد أساسا، وكما انزوت سلطة الكنيسة بفعل المتغير الصناعي، ستتوارى القوى العسكرية كمجرد أداة للردع الصامت، ترهب ولا تمارس.

لقد كان فرض السيطرة في الماضي، كما خلص إلى ذلك ميشيل فوكو، يكمن في استعراض قوة القلة الحاكمة على مرأى من الكثرة المحكومة، أما قوة الحكم في أيامنا هذه، فقائمة على إبقاء هذه الكثرة على مرأى من القلة الحاكمة (319: 132). يتم ذلك: إما «وقائيا» عن طريق نظم الإعلام الموجه وأضوائه التي تنفذ إلينا خلال شاشات التليفزيون، وإما «تشخيصيا» عن طريق استطلاعات الرأي، وإما «علاجيا» إن اقتضى الأمر- عن طريق أجهزة الأمن والمخابرات والرقابة الإلكترونية. وقد أثبت الواقع أن مصير أي قوة سياسية رهن بوجودها الإعلامي المتوازن (319: 119)، وهلاكها قادم لا محالة، إن أغفلت هذا الوجود أو أسرفت فيه.

في ظل هذا التحالف الجديد بين القوى الاقتصادية والقوى الرمزية تاهت الحدود الفاصلة بين عولمة الاقتصاد وعولمة الإعلام، وصارتا تتبادلان موقعي التأثير والتأثر، بصورة مباشرة وغير مباشرة، سافرة وغير سافرة. وفي حين ترى عولمة الاقتصاد في عولمة الإعلام أمضى أسلحتها، تسعى عولمة الثقافة - من جانبها - إلى أن تتخذ من عولمة الإعلام ساحة لحوار الثقافات وتعددها وتنوعها. وليس من قبيل المغالاة، القول إن مصير المجتمع الإنساني بأسره، يتوقف على من ستكون له الغلبة في النهاية على جبهة العولمة: الاقتصاد أم الثقافة.

(ب) عن القوى اللينة وطبيعتها: تصنف القوى الرمزية بأنها قوى لينة، حيث تختلف اختلافا جوهريا عن القوى التقليدية الصلدة، فهي تعمل بالجذب لا بالضغط، وبالترغيب لا بالترهيب، وتستخدم لغة العقول والقلوب، من أجل اكتساب الآراء لا كسب الأرض، ومن أجل انتزاع الإرادة الجماعية لا نزع السلاح والملكية، ومن أجل فرض المواقف وزرع الآراء بدلا من فرض الحصار وزراعة الألغام. ونستطرد في حديث الفوارق بين القوى اللينة والقوى الصلدة لنشير إلى كيف أصبح توسيع نطاق الإعلام في مقام نشر

القوات، وأصبحت الأجندة في مقام التكتيك، والهوائيات والفضائيات في مقام ترسانات الأسلحة ومنصات الصواريخ. ومن حيث أسلوب الممارسة، تختلف القوى اللينة عن القوى الصلدة في أمور عدة أساسية، من أهمها: القدرة الهائلة على المناورة بالقوى اللينة زمنيا وجغرافيا، وكون القوى الصلدة لاتستخدم إلا في حالات الضرورة القصوى، ودون ذلك فهي قابعة هناك للردع لا للفعل، في حين تمارس القوى اللينة بصورة مستمرة ودائمة. وعلى عكس القوى المادية التقليدية، كلما رهفت القوى الرمزية واستترت وخفتت فيها نبرة القوة وفجاجتها، ازدادت قدرتها وتغلغل مفعولها لينفذ إلى طبقات اللاوعي الفردي والجمعي، حيث يفعل فعلته خفية بصورة لاإرادية أو شبه ذلك. وهكذا أصبح التليفزيون، وغيره من وسائل الإعلام آلة حرب كاسحة لا بد أن نتصدى لها بالدروع والمتاريس. ألم نسمع عن القمر الصناعي للبث التليفزيوني الذي كانت الولايات المتحدة، تحت إدارة جورج بوش «الأب»، تنوي إطلاقه بهدف إسقاط حكم كاسترو المناهض لها في كوبا؟

وكعهدنا به، كان المجاز اللغوي سبَّاقا في التعبير عن أوجه التقابل العديدة بين القوى الرمزية اللينة ونظيرتها المادية الصلدة، فجاء قاموس الإعلام في هذا الشأن أقرب ما يكون إلى قاموس الحرب بما يتضمنه من مصطلحات الهجوم والدفاع والعنف والتجسس، من مثل: وابل الرسائل ـ الحملات الإعلامية ـ المعارك الكلامية ـ الإذاعات الموجهة ـ العدوان الإذاعي ـ استطلاع الرأي ـ الغزو الثقافي ـ الغزو الإلكتروني ـ الاكتساح الإعلامي ـ العنف الترفيهي ـ العنف الرمزي.

وفي وقت الأزمات والحروب والصراعات، توضع القوى الرمزية في خدمة القوى الأخرى، ويشهد التاريخ، من الحرب الصليبية إلى الحروب الأهلية بين قبائل الشعوب الأفريقية والآسيوية، كيف وقفت القوى الرمزية إلى جانب القوى العسكرية والسياسية. ويكفي مثالا هنا، ما قامت به إذاعة ألمانيا النازية في أثناء الحرب العالمية، وكذلك الدور الذي تلعبه وكالة المخابرات المركزية في كواليس السياسة الأمريكية، ونشير هنا أيضا إلى ما يدعيه البعض من أن إذاعة أوروبا الحرة كانت وراء سقوط المعسكر الشيوعي. لكن أكثر الأمثلة مرارة وبشاعة في إساءة استخدام القوى الرمزية هو ما فعلته إذاعة ميل كولينز في رواندا (322: 134) بإشعالها نيران الفتنة

القبلية بأهل هـذا البلـد الأفريقـي بلا ذنب لهم ولا جريرة، فقد فـاق مـا حصده هذا البوق الإعلامي اللاأخلاقي من ضحايا قبائل التوتسـي مـا فعلته القنبلة الذرية بأهل هيروشيما ونجازاكي.

هذا عن ماضي القوة الإعلامية في مساندة القوى الاجتماعية الأخرى، أما حاليا فقد تجاوزت دور المساندة بعد أن صارت قوة مستقلة بذاتها، وكان من الطبيعي بالنسبة لقوة اجتماعية بمثل خطورة الإعلام ألا يترك شأنها لتكنوقراطية المهنيين أو أكاديمية المنظرين أو هوى الفنانين، بل كان لابد من إخضاعها للتنميط السياسي الاقتصادي الذي يضمن استقرار قوى المجتمع، وإعادة إنتاج أنماطه وأطواره. ولكن السيطرة على القوى اللينة ـ فيما يبدو ـ لن تكون بسهولة السيطرة على القوى التقليدية الصلدة، ويبدو أن الشعوب أكثر تقبلا لتصفية الأجساد ودمار العمران منها للعبث بالعقول وتخريب الوجدان. لقد استسلمت اليابان ـ كما أشرنا سلفا ـ ولم تستسلم اللغة اليابانية، وهل نال الاستعمار، الذي توالت موجاته على أمتنا العربية، من الإسلام ولغة الإسلام. و«لا يفل الحديد إلا الحديد» و«لا يفل اللين إلا اللين...!»، وكما يمكن للقوى الرمزية أن تنحاز إلى القوى الاجتماعية السائدة، يمكن لها أيضا أن تقف في صف المستضعفين والمقهورين والمهمشين، وتشيع السلام، وتسرّع من التنمية وإزالة الفوارق.

لعبة القوى الاجتماعية (المنظور العربي)

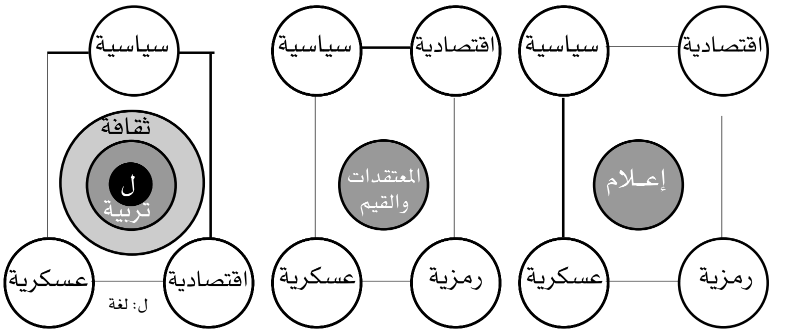
(أ) **تحالف السياسي مع الرمزي:** بصفة عامة، يمكن القول إن القوى الاقتصادية في المجتمعات العربية لم تصل بعد إلى الحد الذي يؤهلها لأن تكون طرفا فاعلا في تحالف القوى الاجتماعية، خاصة وأن قدرا لا يستهان به من القوى الاقتصادية مازال تحت سيطرة الحكومات. بناء على ذلك، فإن محور التحالف الرئيسي في منظومة القوى الإجتماعية لدينا هو ذلك مابين القوى السياسة الحاكمة والقوى الرمزية، وهو الوضع الذي أكدته الدراسة التي أعدتها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بعنوان «الإعلام العربي: حاضرا ومستقبلا» عندما أوصت بضرورة الحد من سيطرة الحكومة على وسائل الاتصال، وعلى صياغة الرسائل [51]، وأكدته كذلك دراسة المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة بعنوان: «وسائل الاتصال الحديثة

وأثرها في المجتمعات الإسلامية» عندما صرحت بأن وسائل إعلامنا لاتمارس مهامها إلا في ضوء أخضر من السلطات الحاكمة [58].

وقد تناولت دراسات عدة أخرى علاقات السلطة الحاكمة في بلدان العالم الثالث بقواها الرمزية: التربوية والعقائدية والإعلامية. يمكننا القول، في ضوء ما انتهت إليه هذه الدراسات، إنه بينما يسود طابع التوجيه علاقة السلطة الحاكمة بالمؤسسة التربوية، ويسود طابع المهادنة ورسم الحدود علاقتها بنظام القيم والمعتقدات، فإن الطابع الدعائي المباشر هو السائد في علاقتها مع إعلامها الرسمي. بناء على ذلك، ولكي تضطلع طليعتنا الثقافية بمهمتها الراهنة والعاجلة لانتشال أمتنا العربية من كبوتها، وتأهيلها لدخول عصر المعلومات، على هذه الطليعة أن تهتك أسرار هذا التحالف، أو التكتل، السياسي ـ الرمزي، وأن تغوص إلى غور أعماقه وتنظيماته لتتصاعد ثانية إلى السطح كاشفة عن دوافعه وآلياته. إن إعلامنا الموجه يأخذنا بأقصى درجات الجدية، وعلينا نحن أيضا أن نأخذه بالدرجة نفسها من الجدية.

(ب) عن الهيكلية المنشودة للقوى الاجتماعية في عالمنا العربي: يميل بعض المنظرين الغربيين إلى اتخاذ الإعلام الحديث محورا لمنظومة المجتمع الحديث الشكل (7:2أ)، وهناك بالفعل من وصفوا هذا المجتمع بمجتمع الإعلام والإعلان. يرفض بعض آخر من منظري الغرب هذه المحورية، مفضلا النظر إلى الإعلام مستقلا عن مجتمعه. ربما يكون دافعهم إلى ذلك هو تحاشي الخوض في القضايا الحساسة التي يطرحها الإعلام الحديث في علاقاته مع القوى الاجتماعية الأخرى، وربما يكون الزعم باستقلالية الإعلام لهوى في نفوس هؤلاء المنظرين، حرصا منهم على مصالح أباطرة عولمة الإعلام، فمحورية الإعلام ـ على عكس استقلاليته ـ تعني بالضرورة شدة ارتباطه بمنظومة مجتمعه، وهو ما يتناقض في جوهره مع عولمة الإعلام التي لا تعير التفاتا إلى الحدود ما بين الدول والمجتمعات. أما بالنسبة لنا، فيرى الكاتب أن كلا النموذجين، سواء القائم على محورية الإعلام أو على استقلاليته، لا يتناسب مع واقعنا ولا يلبي توقعاتنا، وهو الأمر الذي حدا ببعض منظري الإعلام الإسلامي إلى اقتراح النموذج الديني الشكل (7: 2ب) القائم على محورية نظام القيم والمعتقدات داخل

منظومة المجتمع ككل.



الشكل (2:7) أنماط النماذج الاجتماعية فيما يخص موقع الإعلام

في ضوء محورية الثقافة، التي أكدنا عليها في الفقرة ١: 4: ١ من الفصل الأول، يفضل الكاتب نموذجا تنمويا قوامه ثلاثية القوى السياسية والاقتصادية والعسكرية الشكل (2:7ج)، يدور حول قلب ثقافي محوره التربية، والتي تدور بدورها حول محور اللغة، إن التمركز الثقافي حول التربية توجه يتسق مع توجهات عصر المعلومات، ومجتمع التعلم الذي نصبو إليه، والذي يقتضي ـ بحكم طبيعته ـ تداخل مهام الإعلام والتعليم، ومساهمة المؤسسات الاقتصادية في إكمال مهمة مؤسسات التعليم الرسمي.

(ج) **العرب وصراع القوى اللينة:** لن نضيف جديدا بحديثنا عن حالة التفكك الشديد الضاربة أطنابها في أرجاء وطننا العربي، وما يصاحبها من فتور العزيمة الجماعية، وغياب ثقة المجتمعات العربية في مؤسساتها الرمزية. إن هذا الهزال المجتمعي يجعلنا لقمة سائغة أمام القوى اللينة، خارجية كانت أم داخلية، فالطريق ممهد أمامها لتسري كالنار في الهشيم مخترقة الكيان العربي عبر مسارات تفككه وفوارق طبقاته وفجوات تناقضاته. ويكفينا مثالا من الداخل، ما فعلته الصحافة الصفراء في بعض البلدان العربية وقد نجح بعضها في أن يقيم اتفاق عدم اعتداء غير معلن مع السلطة الحاكمة، وهو ما مكنها من أن تختلي بقرائها، الذين سئموا أشد السأم ما يقذف به إليهم الإعلام الرسمي، فراحت هذه الصحافة

الصفراء تملأ الفراغ الإعلامي بكل ما هو رخيص وتافه: من حديث الفضائح والخرافة ونفاق العواطف. أما عن مثالنا عن اللقوى اللينة من الخارج، فهو ما فعلته بنا أجندة المفاوضات التي فرضتها علينا إسرائيل مستغلة في ذلك تفكك موقفنا، وعدم اتساقه على سائر مسارات مباحثات السلام. ونزعم هنا أن هذه الأجندة تسعى إلى تحقيق مكاسب على المدى الطويل تفوق بكثير تلك التي حققتها القوى العسكرية، ولا شك في أن إسرائيل قد برعت في استخدام القوى اللينة: ثقافية وتربوية وإعلامية. وهل لنا أن ننسى محاولاتها للتدخل في محتوى مناهجنا الدراسية، وسعيها المستمر إلى إخراس صوت الإعلام العربي المعارض لها، تحت دعوى معاداة السامية وإعاقة جهود السلام وخلافه.

7: 1: 3 الإعلام: لعبة الكبار ومأزق الصغار (الطرح العام)

(أ) **الإعلام والاتصال وقابليته الشديدة للاحتكار:** أظهر الاتصال على مدى عصور التاريخ قابلية شديدة للاحتكار، بدءا من احتكار كهنة الفراعنة لنقوشهم المقدسة (الكتابة الهيروغليفية) إلى احتكار أيامنا الذي تفشى في جميع أرجاء منظومة الإعلام الرسمي وغير الرسمي وشبه الرسمي، مرئيا كان أم مطبوعا أم مسموعا. نورد هنا بعض الأمثلة تأكيد لهذه النزعة الاحتكارية المترسخة:

- 4 وكالات أنباء عالمية، والمعروفة باسم الأربع الكبار، تحتكر 80٪ من فيض المعلومات (142 : 63).

- 4 مجموعات إعلام رئيسية تتحكم في 90٪ من الصحف البريطانية (319: 77).

- احتكار عدد قليل من شركات الإعلام المتعدية الجنسية للإرسال الجماهيري المرئي والسمعي والإنتاج السينمائي والتليفزيوني، وقد تبعه في نهجه الاحتكاري تليفزيون الكابل.

- 10٪ من شركات الإعلان الأمريكية تسيطر على 80٪ من إجمالي الإنفاق الإعلاني في الولايات المتحدة والذي يصل إلى 250 مليار دولار سنويا (102 : 182).

وما أشبه الليلة بالبارحة، فها هي الإنترنت التي طالما تباهت بحرية

تبادل المعلومات ومجانية الحصول عليها، ها هي الأخرى تطولها يد الاحتكار البغيض، حيث تشير الإحصائيات - كما ذكرنا في الفقرة 2: 3: 2 من الفصل الثاني - إلى أن مائة موقع فقط على الإنترنت تستولي على 80٪ من إجمالي زوار مواقعها، تاركة الخُمس فقط لتتنافس عليه ملايين المواقع الأخرى. ومازال في الجعبة الكثير بشأن احتكارية الإعلام والاتصال، حيث تلوح في الأفق حاليا بوادر صراع عالمي لاحتكار الإلكترونيات الاستهلاكية من ذوات شاشات الجيب الصغيرة، من الهاتف النقال إلى كمبيوتر راحة اليد والكتب الإلكترونية (322: 35). وما من دولة كبرى إلا ولها أباطرة إعلامها، من أمثال: روبرت موردوخ في بريطانيا، وبيرلسكوني في إيطاليا وتيد تيرنر في الولايات المتحدة، أو العالم إن شئت الدقة. وإعلام روسيا - ما بعد الشيوعية - قد شرع هو الآخر في صنع أباطرة يصطفيهم من تلك القلة اليهودية التي نجحت في اعتلاء قمته في غفلة من الجميع.

ولا جدال في أن أخطر أنواع الاحتكار هو ذلك الخاص باحتكار المحتوى (مضمون الرسالة الإعلامية) من الموسيقى والأغاني والأخبار والأفلام. فكما أوضحنا في الفقرة 2: 3: 2 من الفصل الثاني، يعد المحتوى أهم مقومات صناعة الثقافة، ومن يسيطر عليه، يصبح هو القابض على زمام اللعبة الإعلامية بلا منازع.

وتشير دلائل عدة إلى أن التطورات الحديثة لتكنولوجيا المعلومات قد ساعدت على تنامي النزعة الاحتكارية، ويرجع ذلك إلى أسباب رئيسية عدة هي:

- ضعف الارتباط العضوي بين محتوى المعلومات والوسيط الذي يتم تبادلها من خلاله، وخير شاهد على ذلك السهولة التي تُنقل بها حاليا المواد الإعلانية من التليفزيون والصحافة والإذاعة إلى شبكة الإنترنت. إنه المحتوى الطليق، ذو السيولة العالية، الذي شبهه البعض بـ «نبيذ بلا قوارير» (207).

- سهولة السيطرة على الكم الهائل من الرسائل الإعلامية، وذلك بفضل وسائل التحكم والرقابة المتوافرة لشبكات الاتصال.

- عامل اقتصاد الحجم الذي يعمل لمصلحة الكيانات الإعلامية الضخمة، فوكالات الأنباء الكبرى هي وحدها القادرة على إنشاء شبكة كبيرة من المكاتب الخارجية، ولا تستطيع إلا محطات التليفزيون العملاقة شراء حقوق

نقل الأحداث المهمة، كحفلات الأوسكار أو افتتاح دورات الألعاب الأولمبية وما شابه.

(ب) **اندفاع محموم صوب الاندماج:** كعهدنا به، لا بد وأن يجر الاحتكار وراءه توأمه الاقتصادي، ونقصد به الاندماج الرأسمالي، أو التكامل الرأسي بلغة أهل الاقتصاد. فمع ظهور الإنترنت وسرعة انتشارها، أدركت القوى الرأسمالية المغزى الاقتصادي للمعلومات، فاندفعت ـ بصورة لم تعرفها البشرية من قبل ـ في موجة من الاندماج وتركيز رأس المال. هدفها من وراء ثنائية الاحتكار والاندماج ـ هذه ـ إحكام السيطرة الكاملة ـ عالميا ـ على صناعة المعلومات بعناصرها الثلاثة: محتوى المعلومات ـ معالجة المعلومات ـ توزيع المعلومات. ونحن نشاهد ـ حاليا ـ كبرى شركات إنتاج الأفلام والتسجيل الموسيقي ودور النشر والطباعة ومطوري ألعاب الفيديو، تندمج مع عمالقة شركات الاتصال وشبكات الإرسال التليفزيوني وشركات برمجة الكمبيوتر. إن القوى الاقتصادية التقليدية تستغل قدراتها التمويلية والتنظيمية لاحتواء الجانب الإبداعي، السمة المميزة لصناعة المعلومات. لقد أصبح الإبداع: محتوى وأداء وبرمجة، هو الآخر، سلعة تباع وتشترى وتحتكر، ويشارك في تسويقها مروجو الإعلانات وسماسرة صناعة الثقافة. وكأن التكامل الرأسي وحده لم يشبع نهم جبابرة الاحتكار والاندماج هؤلاء، فزادوه اندماجا على اندماج، بتكامل أفقي هذه المرة، فنرى ـ على سبيل المثال ـ وكالة رويتر للأنباء توسع من نشاطها ليشمل خدمات الفندقة والنقل السياحي والنشر التعليمي (102 : 140). وبهذا يقطع الكبار الطريق أمام الأعضاء الجدد لدخول نادي الإعلام والاتصال العالمي، حجتهم في هذا التوجه الاندماجي هي ارتفاع كلفة الإنتاج من أجل تحسين الخدمات وتنويعها (322: 218).

إن الاحتكار والاندماج لهما بمنزلة نذير بنهاية حرية المعلومات، داروينية إعلامية بكل معنى الكلمة، البقاء فيها للأقوى ماليا وتنظيميا، لا إبداعيا وأخلاقيا. لقد خرت المعلومات صريعة الاحتكار من قبل قلة قليلة لا تدخر جهدا في سبيل إحكام سيطرتها على سوق الإعلام والاتصال، ومصير مشاهديه ومنتجيه ومبدعيه. إنه الاحتكار الاندماجي، ذلك البغيض الاقتصادي، الذي يحيل كل تكنولوجيا صنعها الإنسان سلاحا في يد القلة

ضد مصلحة الكثرة. وإزاء هذه الظاهرة الكونية لسيطرة الشركات المتعدية الجنسية على الإعلام عالميا، هل لنا أن ننعم بطمأنينة زائفة؟! فهذه النزعة الاحتكارية الاندماجية، لن ترتد بنا ثانية ـ كما يصور لنا البعض ـ إلى الحكم الشمولي وبشاعة الديكتاتورية (322: 22). ولكن أليس من حقنا أن نقلق ونحن نرى إعلام عصر المعلومات وقد أصبح قوة قائمة بذاتها، لا يحكمها سوى معيار الربح والخسارة، ومآل ذلك في النهاية هو اتساع الهوة الفاصلة بين من يملك المعلومة ومن يفتقدها. وحتما، ستتغير قوانين اللعبة المجتمعية لتفرز وضعا مأساويا جديدا يضاف إلى رصيد البؤس لسكان هذا الكوكب، ولتسمه ما شئت: إمبريالية إعلامية، إمبريالية ثقافية، فاشستية معلوماتية، لكنه يظل نوعا من القدر الإعلامي يفرضه المركز على أطرافه، يسلب الصغير حق إنتاج رسالته الإعلامية، فلا يجد أمامه، بسبب ارتفاع كلفة إنتاجها، سوى استيرادها، ولا حل أمامه لتمويل نظم اتصاله إلا أن يسود الإعلان على الإعلام، وأن يتبع أساليب العمل وتنظيماته المفروضة عليه من قبل الشركات المتعدية الجنسية، فهذه الشركات لا تصدر برامجها فحسب، بل تصدر معها ـ أيضا ـ فلسفتها في توجيه العمل الإعلامي وأساليب أدائه لرسالته (85: 37).

الإعلام: لعبة الكبار ومأزق الصغار (المنظور العربي)

(أ) **اللعب بالصغار**: مع ظهور كل تكنولوجيا جديدة، تتكرر الوعود المسرفة ذاتها في التفاؤل، تغازل أحلام الضعفاء والفقراء، وفي مجال الإعلام والاتصال، كان لاستعارة «القرية الكونية»، التي ابتدعها مارشال ماكلوهان، مفعول السحر. لقد شاع تداولها حتى بدت هذه «المدينة الفاضلة الإلكترونية» وكأنها أمر واقع حل بنا بالفعل، أو في طريقه إلى ذلك. وهل هناك ما هو أروع من هذا المشهد الإعلامي الرومانتيكي لعالمنا، وقد توثقت عراه في هيئة قرية صغيرة يسودها الوئام، تجمع بين أهلها ألفة الأسرة الواحدة وعلاقاتها الحميمة. ولسنا في حاجة إلى أن نطيل القول عن مدى سذاجة هذا التصور، والذي اعتبره البعض وهما آخر من صنع ألعاب اللغة بهدف خدمة عولمة الإعلام والاقتصاد. ولنسمع ما يقوله عنها صاحب هذه الاستعارة الشهيرة نفسه، يقول مارشال ماكلوهان عن قريته الكونية: إنها

لن تكون مثالا للوفاق والمساواة، بل على العكس، فإن إسقاط حاجزي المكان والزمان سيزيد من التنوع ومظاهر الانقسام والفرقة (214: 333). إن اجتماع مليارات من المشاهدين حول أجهزة التليفزيون ليشاهدوا افتتاح دورة أولمبية عبر الأقمار الصناعية، كمثال يحلو لمؤيدي القرية الإلكترونية أن يرددوه، لا يشكل مجالا للرأي العام العالمي، تتحاور من خلاله الثقافات، وتحسم النزعات، وتزول فيه الفوارق بين الأفراد والجماعات، ويحقق نوعا من العدالة في توزيع موارد المعلومات (138: 58). وقد أشرنا في الفصل الأول إلى المصير المشؤوم الذي آل إليه مشروع منظمة اليونسكو، بسبب تعنت الولايات المتحدة وحليفتها بريطانيا، ضد اقتراح اليونسكو بإقامة نظام معلومات عالمي جديد، يضمن حدا أدنى من عدالة توزيع موارد الاتصال والمعلومات. وما دام الكبار يرفضون تغيير الأوضاع، والصغار - بدورهم - غير قادرين على مواجهة الخلل الشديد في تدفق المعلومات وتوزيع الموارد، فعلى منظمة اليونسكو أن تعدل هي من إستراتيجيتها، وهو ما قامت به أخيرا عندما أذعنت إلى أن يبقى الوضع على ما هو عليه، شريطة أن يعاون الأغنياء الفقراء في إقامة البنى التحتية لنظم اتصالاتهم وإعلامهم. وكما هو متوقع، لم تلق صيغة الحد الأدنى تلك آذانا صاغية، وفشلت هيئات ومشاريع التنمية التابعة لليونيدو واليونسكو في حث الدول القادرة على تمويل مشاريع الاتصال في الدول النامية (322: 218). ويبقى الوضع على ما هو عليه، وتبقى معه الحقيقة المؤلمة، أن دول العالم النامي أوشكت أن تفقد استقلاليتها الإعلامية، وأن عولمة الإعلام تهدد تراث الشعوب بالانقراض، وإحالته إلى «ماكيتات» في حدائق الملاهي وإلى وثائق الأرشيفات الوطنية. مما يزيد الوضع سوءا، هو ذلك التوجه الجاري حاليا لزيادة سعة قنوات المعلومات؛ الأمر الذي سيؤدي إلى مزيد من الاختلال في ميزان «التبادل المعلوماتي»، أو معدل تدقيق المعلومات، ما بين الدول المتقدمة، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية، ودول العالم الثالث.

خلاصة: لقد نجحوا في تحويل صناعة الإعلام من صناعة كثيفة الإبداع إلى صناعة تقليدية كثيفة رأس المال؛ ليغطي نمط الإنتاج الضخم لمدينة هوليود على إنتاج السلع الثقافية، من نشرات الأخبار حتى البرمجيات التعليمية. لقد أصبح إعلام الصغار حقا لعبة في أيدي الكبار، فإما «اتباعا

وإما انسحابا».

(ب) **بعض ملامح المشهد الراهن للإعلام العربي:** لا يمكن أن يختلف واقع إعلامنا عن حقائق واقعنا، ويعكس المشهد العربي الراهن صورة قاتمة لإعلام يسوده طابع التعتيم، ودعنا نلخص بعض ملامح هذا المشهد الحزين:

- سياسات إعلامية تشكو من انفصام حاد بين الغايات والإمكانات وبين الشعارات والممارسات، وعجز عن تحقيق أي نوع من التكتل الإعلامي حيث يرتبط ذلك ارتباطا عضويا بالفشل في إحداث نوع من التكتل على الصعيد السياسي، وذلك نتيجة منطقية لتبعية الإعلام للسياسة.

- قصور شديد في البحوث النظرية في مجال الإعلام، فضلا عما تدين به أكاديميات الإعلام العربية من تبعية أكاديمية للمدارس الغربية، وغياب البحوث الإعلامية ذات الطابع الجماعي(106 : 66).

- نصوص دستورية تؤكد على مبدأ حرية التعبير وحرية النشر تفرغ من مضمونها بعبارات ناسفة تذيلها، من قبيل: «بما لا يتعارض مع المصلحة العامة»، «وبمقتضى القانون» (55: 37)، وكأن القانون قد أصبح في بعض ديارنا فوق الدستور.

- تسرب مشاهدينا إلى منافذ الإعلام الأجنبية لفقدان الثقة في الإعلام المحلي، ويكفي مثالا هنا مساحات البث الإذاعي العربي الهائلة التي تسيطر عليها هيئة الإذاعة البريطانية.

- صحافة رسمية يعتبرها البعض مثالا نموذجيا لصحافة الولاء: (66:55)

- إذاعات موجهة تذيع ولا تسمع، ووكالات أنباء ترسل ولا يستقبلها إلا أقل القليل، وعلى الرغم من وجود 22 وكالة أنباء عربية لاتزال وكالات الأنباء الغربية تستأثر بالساحة العربية (106 : 66)

- تدفق إعلامي غائب أو شبه غائب مابين الدول العربية (14:51) ومشاريع الإنتاج المشترك نادرة، وقد فشلنا حتى الآن في إصدار ميثاق موحد للإعلام العربي (37:55). لقد ظل الإعلام العربي المشترك ـ كما تقول عواطف عبدالرحمن ـ منذ أُنشئت جامعة الدول العربية، أضعف الآليات التي يسعى بها العرب لبلوغ أهدافهم القومية إذ تولت المصالح القطرية تحديد مجال حركة الإعلام العربي المشترك (106 : 69)

- اهتمام ضئيل بشؤون الإعلام من قبل القائمين بالتنمية (59:55)،

حيث غاب عن معظمهم ما للإعلام من دور حاسم في عملية التنمية.

- صناعة إعلام غائبة، اللهم إلا بعض صناعات تجميعية لأجهزة الراديو والتليفزيون في مصر والعراق والجزائر، وإنتاج إعلامي محدود، صار مهددا بالانقراض (116 : 121) باستثناء جهود مدينتي الإنتاج الإعلامي بالقاهرة ودبي، السابقة الإشارة إليها.

- إعلام فضائي معظمه مهاجر في غير موطنه(*1)، يستورد أكثر مواده الإعلامية، ويتلقى دعم الحكومات عن بعد، ويتنافس سلبيا على سوق إعلان هزيلة وعلى قطاع محدود من الجمهور (145: 168)

- وأخيرا وليس آخرا، تحتل الدول العربية بجدارة ذيل قوائم الإحصائيات الإعلامية التي تصدرها منظمة اليونسكو، ومن استهلاك ورق الصحف إلى معدلات القراءة والاستماع (55: 69)

ولا تخلو هذه الصورة القاتمة من بعض ملامح مضيئة، حيث تشهد بعض قنواتنا الفضائية وصحافتنا محاولات جادة لتقديم خدمات إعلامية أفضل، في ظل قيود قاسية معروفة للجميع.

خلاصة القول نستقيها مما خلص إليه تقرير «الإعلام العربي حاضرا ومستقبلا» من أن إعلامنا لم يرتفع إلى مستوى الرسالة المنوط بها في تعميق وعي المواطن وإشراكه في التفاعل وإسهامه في البناء الجماعي (14: 51) وأن إعلامنا العربي يواجه مأزقا رباعي الجوانب:

- مأزقا سياسيا: في كيف يوفق بين عولمة الإعلام، وسيطرة الدولة وتوقعات جماهيره.

- مأزقا اقتصاديا: في كيف يتنافس في عصر الإنتاج الإعلامي الضخم، وارتفاع كلفة بناه التحتية.

- مأزقا ثقافيا: في كيف يصبح درعا ضد ما يهدد هويتنا وقيمنا وتراثنا.

- مأزقا تنظيميا: في كيف تكتسب مؤسساتنا الإعلامية المرونة التنظيمية والكفاءة الإدارية والفنية، تلبية لمطالب إعلام عصر المعلومات وديناميات الهادرة.

ولا خروج من هذا المأزق إلا بأن نؤمن موقعا حصينا لنا في هذه الغابة الإعلامية التي هي أبعد ما تكون عن تلك القرية الكونية الوديعة الهادئة.

(ج) **اللعب مع الكبار:** لدى الكاتب قناعة راسخة أن احتكار السلعة الثقافية سيواجه مقاومة شديدة، ويكفي أن نشير هنا إلى أن كثيرا من منتجات إعلام العولمة جاءت دون توقعات الجماهير المحلية، منقطعة الصلة عنها (116 : 121)، وهو الأمر الذي دعا بعض شركات التليفزيون العالمية إلى أن تمزج بين العالمي والمحلي (أشهر مثال على ذلك محطة MTV الأمريكية في الهند وأمريكا اللاتينية المتخصصة في الأغاني والموسيقى، التي أقامت فروعا محلية لها للأغاني الهندية والأسبانية). ويبعث على الأمل ـ أيضا ـ ما حققته البرازيل والمكسيك والهند ومصر من نجاح في مجال الإنتاج السينمائي والتليفزيوني (322: 215)، وهو ما يؤكد إمكان اللعب مع الكبار في حلبة الإعلام العالمي، الذي سيظل دوما رهين محتوى الرسالة الإعلامية ذات الصلة الوثيقة باللغة، وبالواقع المحلي وبذوق جماهيره الخاص.

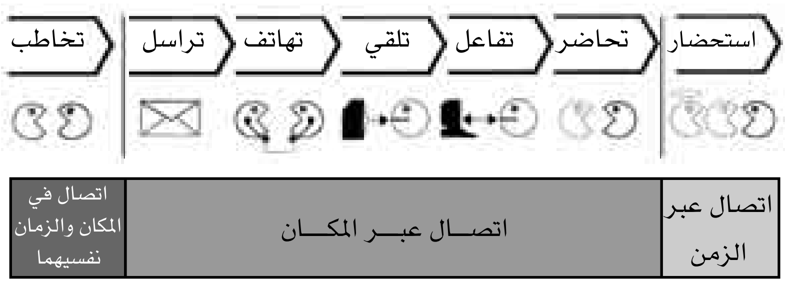
إن المبدع الإعلامي العربي لقادر على أن يتحدى القيود المفروضة عليه، وأن يستحدث طرقا مبتكرة لمواجهة الإنتاج الضخم، ويكفي أن نشير هنا إلا أن أكثر البرامج التليفزيونية نجاحا في الولايات المتحدة (البرنامج المسمى: 60 دقيقة) لم يعتمد على الإبهار والتكنولوجيات المتقدمة، بل يعتمد على اللقاءات والصور الثابتة والحوار مع الجمهور (282: 213). ولسنا وحدنا الذين نشكو من احتكارية الإعلام الأمريكي ومن ارتفاع كلفة الإنتاج، حيث تشكو منه بلدان أوروبية متقدمة مثل بلجيكا والنرويج (53: 174)، غير أننا نتميز عنهم بأن لدينا الكتلة الحرجة من الجمهور المتكلم باللغة العربية، علاوة على أن استيراد الدول الأوروبية لمحتوى الإعلام الأمريكي يختلف عن استيرادنا نحن له، حيث يستورد الأوروبيون من ثقافة متقاربة لا مغايرة كما هي الحال بالنسبة لنا.

خلاصة المقال: تحت طبقات الاحتكار يرقد الإبداع في انتظار...![(*2)]

7: 1: 4 التواصل الإنساني: ماضيا وحاضرا ومستقبلا (الطرح العام)

يوضح الشكل (7: 3) أطوار التواصل الإنساني ماضيا وحاضرا ومستقبلا كما لخصها الكاتب بصورة رمزية. كان التواصل الإنساني في نشأته يتم شفاهة عن طريق التخاطب، ويقع في المكان نفسه وفي الزمن نفسه. بعدها بدأ التواصل مشواره الطويل في كسر حاجز المكان، فكان التراسل من

خلال البريد والبرق، ثم التهاتف من خلال الهاتف، فالتلقي السلبي من خلال الإذاعة والتليفزيون، ثم التفاعل الإيجابي من خلال الكمبيوتر داخل الشكل هنا. وكما أوضحنا في الفقرة 2: 4: 2 من الفصل الثاني، تتيح الإنترنت، عن طريق الجماعات الخائلية وعقد المؤتمرات عن بعد، نوعا جديدا من التواصل، أو نقل الحضور transmission of presence يشترك الإنسان عن بعد، أو «يتحاضر»، مع الآخرين في جدلهم وسمرهم (مثلنا لهم في الشكل المذكور بالرمز المنقوط)، وسيصل الأمر قريبا إلى أن يكون للفرد بديله الخائلي، أو الدوبلير الرقمي، الذي يمثله برأسه المتحرك الناطق في عملية التحاضر تلك، ويتحدثون حاليا عن أطوار مثيرة من التواصل عن بعد كأن يلتقي الإنسان، قابعا في مكانه، رفيقه في إحدى المدن الخائلية يتسكعان ويتسامران في طرقاتها ويزوران معالمها. إن تكنولوجيا المعلومات من خلال الخائلية تضع كلمة النهاية في ملحمة التواصل عبر المكان، استعدادا للتواصل عبر الزمن مع من رحلوا عن عالمنا الدنيوي. ومن حق القراء هنا مزيد من الإيضاح لهذا الذي يبدو كأنه ضرب من «الهرطقة الرقمية».



الشكل (7: 3) مسار التواصل الإنساني: ماضيا وحاضرا ومستقبلا

إن كل إنسان يترك وراءه «بقاياه» الرمزية من صور وتسجيلات صوتية ومرئية ونتاج فكري وإبداعي. يمثل ذلك قاعدة معارف متكاملة يمكن استغلالها كي تبعث صاحبها «رقميا» من جديد (وقد مثلنا له في الشكل المذكور بالرمز المنقوط ذي الهالة)، نحاوره ونسأله رأيه فيما مضى، وفيما يستجد من قضايا، ليجيبنا ـ إن عنَّ له ـ من واقع خبراته المخزنة في قاعدة معارفه وبرأسه المجسم الناطق المستخلص من تفاصيل صوره المسجلة على شرائط

الفيديو، وبصوته المولد صناعيا من مقاطع صوته المسجلة. إنه الخلط الزمني والتواصل في أقصى صوره مع الماثل والغائب، ومع الخلف والسلف.

التواصل الإنساني: ماضيا وحاضرا ومستقبلا (المنظور العربي)

كان للشفاهة في تاريخ الفكر العربي والإسلامي دور حاسم في نقل تراث السنة النبوية. وقد أبدع السلف من علماء الحديث والفقه في ابتكار الوسائل اليدوية للتحقق من صحة ما نسب إلى رسولنا الكريم من أحاديث. ولابد لهذا الجهد الجليل في تحقيق تراث السنة النبوية الشريفة أن يستكمل باستخدام تكنولوجيا المعلومات من أجل استخلاص مزيد من الحكمة من نبع هديه الذي لا ينضب. على صعيد آخر، علينا أن نشرع من فورنا في الأرشفة السمعية والمرئية لكبار مفكرينا حتى تطول إقامتهم بيننا «رقميا» بعد أن يرحلوا عن عالمنا.

7: 2 التوجهات الرئيسية لتكنولوجيا الاتصال

7: 2: 1 قائمة التوجهات الرئيسية (الطرح العام)

نستعرض في هذه الفقرة التوجهات الرئيسية لتكنولوجيا الاتصال من منظور ثقافي، والتي تشمل:

- من الإعلام إلى الاتصال.
- من العزلة إلى الاندماج.
- من الترابط إلى التفكك التنظيمي.
- من سيطرة المرسل إلى خيار المتلقي.
- نحو مزيد من البرامج، ومزيد من التخصص.
- الاندفاع صوب المنزل.
- نحو مزيد من أجهزة المعلومات النقالة.
- تزايد استخدام الإنترنت كوسيط إعلامي.

قائمة التوجهات الرئيسية (المنظور العربي)

كما هو واضح من قائمة التوجهات الرئيسية، يواجه الإعلام العربي، إشكالية متعددة الأبعاد، خاصة أن هذه التوجهات متداخلة مع بعضها

البعض بصورة كبيرة. إن من الخطورة بمكان أن يسير إعلامنا العربي على غير هدي من توجهات تكنولوجيا المعلومات والاتصالات التي تتطور بمعدلات متسارعة، وهو ما يتطلب توفير كادرات إعلامية متخصصة في مجال التقويم التكنولوجي technology assessment مدربة على أساليب الرصد المعلوماتي، بل التجسس العلمي والتكنولوجي أيضا. ونقصد بالتجسس ـ هنا ـ ذلك «التجسس المشروع» القائم على تجميع المعلومات من مصادر عدة ومتنوعة. ولا شك أنه في إمكان الإنترنت ونظم المعلومات أن تلعبا دورا رئيسيا في عملية تجميع البيانات المطلوبة تلك، وتصفيتها، للخروج بالمؤشرات والتوجهات. لقد أصبح ذلك ضرورة من ضرورات التخطيط الإستراتيجي، خاصة أن الشركات المنتجة لتكنولوجيا المعلومات والاتصالات باتت تفرض رقابة شديدة على أسرارها الفنية.

7: 2: 2 من الإعلام إلى الاتصال (الطرح العام)

يرتكز مفهوم الإعلام أساسا على مهمة توجيه الرسائل من المرسل إلى المستقبل. وقد آن لهذا التوجه الذي طال عليه الأمد ـ كما ذكر علي محمد شمو ـ أن يتغير في ظل تكنولوجيا المعلومات ليصبح تواصلا، أي حوارا ذا اتجاهين (99: 26)، لا مجرد إعلام أحادي الاتجاه يصب «جام» رسائله على مستقبله، أو «مستسلمة» ـ إن أردنا الدقة وجاز التعبير. إنه التواصل بمعناه الواسع، الذي لا يقتصر على إبلاغ الرسائل، بل يتجاوز ذلك إلى مهام التعليم والتعلم والترفيه واسترجاع المعلومات، ويشمل ـ أيضا ـ التراسل عبر البريد الإلكتروني، والتحاور والتسامر من خلال حلقات النقاش وعقد المؤتمرات عن بعد.

من الإعلام إلى الاتصال (المنظور العربي)

لقد أقامت مؤسساتنا الإعلامية مجدها الاجتماعي على مهمة الإبلاغ والتوجيه، وترسخت لدى المواطن العربي عادة التلقي السلبي. والسؤال الآن: هل يمكن إحداث النقلة النوعية للارتقاء بإعلامنا إلى مستوى التواصل؟ وهل يمكن لأجهزة التشريع العربية أن تضع القوانين واللوائح المنظمة التي تكفل للمواطن العربي حقوقه الاتصالية بكل ما يتضمنه ذلك من حماية

خصوصية بياناته، وتضمن له حدا أدنى من المساواة في النفاذ إلى شبكات الاتصال؟ إن لم نقم بذلك، فحتما سيصبح مواطننا مواطنا من الدرجة الثانية، أو ما دونها، في عصر الاتصال التفاعلي الثنائي الاتجاه.

7: 2: 3 من العزلة إلى الاندماج (الطرح العام)

في ظل النزعة الاندماجية التي تحدثنا عنها في الفقرة 7: 1: 3 من هذا الفصل، فإن تقسيم الإعلام، الذي اعتدناه، إلى إعلام مطبوع ومسموع ومرئي في طريقه إلى الزوال. وعلى صعيد آخر، فإن الفوارق تتلاشى أيضا بين الإعلام والتعليم والترفيه والبحث عن المعلومات.

من العزلة إلى الاندماج (المنظور العربي)

لقد عجزنا حتى الآن عن تحقيق تكتل ثقافي من أي نوع، والأمر ـ بلا شك ـ أكثر صعوبة بالنسبة للتكتل الإعلامي، وما يقف في طريقه من اعتبارات سياسية واقتصادية. من جانب آخر، فإن الاندماج والتوسع في مهام الإعلام يتطلبان درجة عالية من التنسيق بين ثلاثية: التربية والإعلام وأجهزة الثقافة الأخرى. من الواضح أن مدى هذا التنسيق محكوم بموازين القوى ما بين هذه المؤسسات الاجتماعية، وغالبا ما تكون الغلبة للإعلام في هذه اللعبة الاجتماعية الثلاثية، لكونه طفل السلطة الحاكمة الأثير، وهو ما يتعارض مع النموذج التنموي للقوى الرمزية، الذي طرحناه في الفقرة 7: 1: 2 من هذا الفصل، والذي يعطي الأولوية للتربية، كمحور لتنمية قائمة على محورية الثقافة.

7: 2: 4 من الترابط إلى التفكك التنظيمي (الطرح العام)

كما هو معروف، هناك ثلاث مهام رئيسية لمنظومة الإعلام بغض النظر عن طبيعة الوسيط الذي تتعامل معه، وهذه المهام هي: إنتاج الرسالة الإعلامية ـ توزيع الرسالة الإعلامية أو بثها ـ تلقي الرسالة الإعلامية. كانت هذه المهام فيما مضى مرتبطة مع بعضها البعض ارتباطا عضويا وتنظيميا. ونحن نشاهد ـ حاليا ـ تفكك هذا الترابط، فكثير من الصحف تطبع خارج دور إعدادها، والإنتاج التليفزيوني قد استقل، أو كاد، عن

مؤسسات البث الإعلامي، ويكاد المتلقي هو الآخر أن ينفصل متحررا من قبضة هذا الارتباط الثلاثي، وهو التوجه الذي سنتناوله في الفقرة القادمة. ولا شك في أن هناك علاقة ما بين هذا التفكك التنظيمي والاندماج الرأسمالي الذي تحدثنا عنه سابقا، فتفكيك المؤسسات إلى وحدات متخصصة يزيد من قدرة مؤسسات الاندماج الرأسمالي الضخمة على التحكم في النطاق الواسع لأنشطتها المتباينة، الموزعة جغرافيا. إنه المبدأ ذاته الذي طالما سمعنا عنه، مبدأ «فرق تسد»، مطبقا في حالتنا على مستوى التنظيم العولمي.

من الترابط إلى التفكك التنظيمي (المنظور العربي)

تطبع بعض الصحف العربية حاليا خارج دورها، وهناك محاولات لاستقلال الإنتاج الإعلامي، خاصة في مجال برامج التليفزيون. ما يخشاه الكاتب من هذا التوجه التنظيمي هو ما يحتمل أن يؤدي إليه من تضارب الأهداف بين عناصر النشاط الإعلامي بعد تفكيكها، خاصة في ظل غياب التنسيق الذي تعاني منه معظم مؤسساتنا الاجتماعية، وهو الوضع الذي يضر ـ بلا ريب ـ بالغايات المنشودة من نموذج الإعلام التنموي المقترح. مرة أخرى، تضغط عولمة الإعلام بشدة على مؤسسات الإعلام العربي، تدفعها دفعا صوب التفكك التنظيمي، وشتان الفرق بين تفكك إعلامهم وتفكك إعلامنا حيث لا اندماج ولا تكتل يوازنه ويشد من أزره. لقد تفرعت الحتمية التي تنطوي عليها هذه العولمة الإعلامية إلى نوع من الحتمية التنظيمية بل والأدائية أيضا[*3]، والبقية تأتي.

7: 2: 5 من سيطرة المرسل إلى خيار المتلقي (الطرح العام)

لقد عانى المتلقي كثيرا من سطوة القابض على «محبس» الإرسال الإعلامي، ويأمل الجميع أن تحرر تكنولوجيا المعلومات المتلقي من قبضة مرسله. فمثلما تسعى هذه التكنولوجيا إلى تحرير القارئ من قبضة مؤلفه، والمتعلم من قبضة معلمه، ومستخدم برامج الكمبيوتر من قبضة مصممه، مثلما فعل غيرها، تسعى نظم الاتصال إلى إضفاء الطابع الشخصي على عملية التلقي، بحيث يكون للمتلقي الخيار في اختيار رسالته الإعلامية،

سواء من حيث المحتوى أو الشكل أو وقت استقباله لها؛ فقارئ الجريدة سيكون بإمكانه أن يحدد موضوعاته المفضلة وشكل إخراج جريدته ومواعيد صدورها، ومشاهد التليفزيون سيكون بإمكانه أن يحدد البرامج التي يفضلها، والأوقات التي تناسبه لمشاهدتها؛ وذلك باستخدام ما يعرف بنظام «الفيديو تحت الطلب «demand - video-on». كما يتوقع الكثيرون، سيصل توجه ترك الخيار للمتلقي إلى حد أن تصبح لكل شخص، في زمن ليس ببعيد، وكالة الأنباء الخاصة به؛ وذلك من خلال الوكيل الإعلامي الذكي الذي يمسح الإنترنت طولا وعرضا، ويستعرض قنوات التليفزيون ومحطات الإذاعة، ويطالع الصحف اليومية والمجلات الدورية ويتابع وكالات الأنباء؛ بحثا عما يلبي رغبات من ينوب عنه، ويتفق مع بروفيله الإعلامي. إن تكنولوجيا الوكالة الذكية هذه، هي الوسيلة الفعالة لمواجهة إعصار المعلومات . فمن منا باستطاعته أن يقرأ الصحف اليومية، ناهيك عن أعدادها الخاصة لعطلة نهاية الأسبوع، أو يتابع الحركة الهادرة لتجدد المعلومات عبر الإنترنت ووسائل الإعلام الجماهيري التقليدية. إن صناعة الإعلام تتحول ـ تدريجيا ـ من نمط الدفع بالمعلومات (PUSH) التي يريد المرسل أن يبثها، أو يدفع بها، إلى مستقبله فارضا عليه توقيتات استقباله إياها، إلى نمط السحب (PULL) الذي يعطي المتلقي حرية انتقائه، أو سحب، المعلومات التي يريدها وفي الوقت الذي يريد.

في ظل هذا التوجه، تكاد المؤسسات الإعلامية أن تتحول إلى «مستودعات للمعلومات» (134 : 67)، تعمل بأسلوب أقرب ما يكون إلى أسلوب «البوفيه المفتوح»، ينتقي منه المتلقي ما يحتاج إليه ويفضله. وقد يفسر هذا التوجه لإعطاء الخيار لمستقبل الرسالة الإعلامية، السر وراء ما توليه الدراسات الإعلامية حاليا من اهتمام شديد بعنصر «المتلقي» في منظومة الإعلام الحديث. عسى ألا يكون ذلك مجرد وهم بديموقراطية زائفة كفرع متقدم من وهم الديموقراطية السياسية الزائف، حيث يخشى الكاتب أن يقف توجه إعطاء الخيار للمتلقي عند حدود الالتزام التسويقي بمبدأ «المستهلك أولا».

من سيطرة المرسل إلى خيار المتلقي (المنظور العربي)

لقد اعتاد المتلقي العربي، في ظل سيادة المرسل، على الوجبات الإعلامية

الرخيصة، فهل يمكن لنا، في ظل توجه محورية المتلقي، أن نعيد إليه حقوقه وهيبته، وكما هو متوقع، لن تكون ميزة إضفاء الطابع الشخصي متاحة، في البداية على الأقل، إلا للقلة القادرة على تحديد مطالبها المعلوماتية، ودفع ثمن هذه الخدمة الاتصالية المتميزة. ولكن لا بد أن اقتصاديات الحجم ستدفع شركات تقديم هذه الخدمات الإعلامية، الخاصة والمتخصصة، إلى تخفيض رسوم خدماتها بما يضمن لها قاعدة عريضة من المستهلكين بغرض زيادة جاذبيتها إعلانيا.

على صعيد آخر، فإن توجه محورية المتلقي يتطلب تعديلات جوهرية في أجهزة الإعلام العربي، سواء من حيث التنظيم أو أسلوب الإدارة والتسجيل. والأخطر من هذا وذاك، هو ضرورة توافر الإمكانات لإنتاج سلع إعلامية متميزة قادرة على المنافسة، بعد أن أصبح سوق الإعلام الأجنبي سوقا للمتلقي فيه الكلمة العليا، وإن عجزت وسائل إعلامنا المحلية عن تلبية مطالبه، فلابديل أمام المتلقي العربي إلا اقتناء سلعه الثقافية من الخارج. وكما نستورد البضائع الأجنبية ذات الجودة العالية سيزداد استيرادنا لمنتجات الإعلام ليعاد توزيعها بعد تعريبها ودبلجتها.

7: 2: 6 نحو مزيد من البرامج، ومزيد من التخصص (الطرح العام)

يمكن القول إن الإعلام يصبو نحو «التوسع»، ونحو «التخصص» في آن واحد، فمؤسسات الإعلام لا تتوقف عن زيادة برامجها وموارد معلوماتها ومنافذ توزيعها، في الوقت نفسه الذي يتزايد فيه التوجه نحو الإعلام المتخصص (289: 84)، ومن أبرز مظاهره:

- المجلات المتخصصة.
- محطات التليفزيون المتخصصة في الأخبار والإعلام الثقافي والتعليمي والديني.
- انتشار ظاهرة إذاعات الفئات الاجتماعية والجاليات الأجنبية والمطارات والجامعات الدينية.

وهناك من يزعم أن صناعة الإعلام ستتحول رويدا رويدا إلى أن تصبح على هيئة «بوتيكات» لبيع المنتجات المعلوماتية ذات الطابع الخاص (289: 85). إن هذا التوجه المزدوج نحو التوسع في البرامج، والتعمق في التخصص،

سيغير من نمط الاستهلاك. فمع تضخم البرامج والقنوات والمواد الصحافية، ستتحول عمليات القراءة والاستماع والمشاهدة إلى ما يمكن أن نطلق عليه «التلقي الانتقائي المتقطع». إنه تشظي «إعلام ما بعد الإنترنت»، وقد سرى إلى جبهة الاستقبال، ويمكن اعتباره صدى لتشظي الحادث على مستوى الإرسال وشظايا رسائله. وهو ما سيفضي حتما إلى تغييرات جذرية في الرسالة الإعلامية من حيث الشكل والمحتوى، وأيضا من حيث مداها الزمني الذي ينحو نحو القصر باطراد.

نحو مزيد من البرامج، ومزيد من التخصص (المنظور العربي)

لن يوفر سوق الإعلام العربي الكتل الحرجة لتحقيق مطالب الجدوى الاقتصادية لإنتاج المجلات المتخصصة، إلا في مجالات محدودة للغاية. وتُصدَر المجلات العربية المتخصصة ـ عادة ـ كنسخ معربة للمجلات الأجنبية، وهو ما يحدث حاليا بالنسبة إلى مجلات الكمبيوتر والديكور والأزياء وما شابه. من جانب آخر، فإن القنوات التليفزيونية التعليمية تشكو من نقص شديد في البرامج، وما زال أسلوب التلقين المباشر هو النمط السائد في بث رسائلها التعليمية.

7: 2: 7 الاندفاع صوب المنزل (الطرح العام)

كل قوافل الاتصال قد شدت الرحال صوب المنزل: الهاتف ـ تليفزيون الكابل ـ الإنترنت ـ بث الأقمار الصناعية ـ برامج الكمبيوتر وألعاب الفيديو (289 : 51)، ويعد هذا التوجه نتيجة منطقية للتوجه الأشمل لصناعة الثقافة ككل، التي تستهدف المنازل لا مؤسسات الأعمال، فالمنازل تتميز بتلك القاعدة العريضة من جمهور المشاهدين الذين شُكلوا بالفعل، على يد التليفزيون، في قالب النمط الاستهلاكي، وهم بذلك جاهزون من فورهم لامتصاص المزيد من المستهلكات الثقافية.

يتطلب توجه التركيز على المنزل إسقاط الحلقات الوسيطة، بين مصادر الإعلام والمستهلك المنزلي، باستخدام طرق عدة، منها:

- استخدام الأقمار الصناعية ذات البث المباشر التي تصوب رسائلها مباشرة إلى المشاهدين في المنازل دونما حاجة إلى محطات استقبال أرضية.

- انتشار المدارس والجامعات المفتوحة للتعلم الذاتي عبر الإنترنت وأجهزة الإعلام الأخرى.

- التوسع في البث الانتقائي المصوب لفئات بعينها، وأفراد بعينهم pointcasting.

- التليفزيون التفاعلي الذي يربط مباشرة بين جهات الإرسال والمشاهدين.

وما زال الخلاف على أشده فيما يخص أنسب تطبيق لاختراق المنزل معلوماتيا، أو «التطبيق الكاسح» بلغة أهل البرمجيات (289: 172)، هل هو «الفيديو ـ تحت ـ الطلب»، أم الهاتف المرئي، أم ألعاب الفيديو الجماعية، أم تطبيق جديد تماما لم يرد بعد على ذهن أحد؟ هذا من حيث طبيعة «التطبيق المنزلي الكاسح»، أما من حيث مدى استعداد المنزل لتقبله، فهو الآخر محل خلاف، فهناك من يعتقدون أن المنزل جاهز من فوره، ومن يقدرون لذلك عشر سنوات أو يزيد (322: 33).

الاندفاع صوب المنزل (المنظور العربي)

يصعب على المرء تصور ماذا سينجم عن هذه الهجمة الاتصالية على المنزل العربي، والتي ربما تؤدي ـ فيما تؤدي ـ إلى نوع من طبقية الاتصال، وذلك نظرا إلى أن هذه الخدمات الاتصالية المتقدمة لن تكون متاحة للأغلبية. ولا شك في أن بعض مؤسسات الإعلام العربية الخاصة لن تفوت هذه الفرصة لزيادة خدماتها الإعلامية مدفوعة الثمن. وتجدر الإشارة هنا إلى أن ما يقرب من 60٪ من القنوات الفضائية العربية ـ حاليا ـ ما زالت مفتوحة (145 : 165)، إلا أن الكثير منها في طريقه إلى «التشفير». من جانب آخر، فإن ارتقاء الخدمات الإعلامية الأجنبية الوافدة إلى المنزل العربي يُضعف من ولاء المتلقي العربي لمؤسساته الإعلامية الوطنية (186:53).

7: 2: 8 نحو مزيد من أجهزة المعلومات النقالة (الطرح العام)

فرضت الحياة العصرية على الإنسان أن يظل على اتصال دائم ومباشر بمصادر معلوماته، وأماكن عمله ومعيشته، وهو الأمر الذي أدى إلى التوسع في أجهزة المعلومات النقالة التي لم تعد مقصورة على الراديو الترانزيستور،

فهي تشمل حاليا الهاتف النقال، وكمبيوتر راحة اليد، وذاكرة الجيب الإلكترونية وما شابه. هناك صراع محتدم حاليا من أجل السيطرة على هذه الأجهزة من ذوات الشاشة الصغيرة (322 : 35)، ويتسابق عمالقة صناعة الاتصال في دمج كل هذه الخدمات المعلوماتية في جهاز صغير واحد يجمع بين الهاتف والتليفزيون والتعامل مع الإنترنت بجانب استخدامه بمنزلة كمبيوتر شخصي نقال.

نحو مزيد من أجهزة المعلومات النقالة (المنظور العربي)

من المتوقع أن تنتشر هذه الأجهزة في كثير من البلدان العربية تماما كما انتشر الهاتف المحمول. وسيظل التساؤل هنا: ما جدوى اقتناء هذه البدع من الأجهزة الإلكترونية النقالة مادام استخدامنا لها ظل محصورا في تلك الأمور الثانوية دون الاستفادة الحقيقية من إمكاناتها المتعددة؟

على صعيد آخر، فإن تعامل شاشة العرض ذات الحجم الصغير التي تستخدمها هذه الأجهزة يتطلب حلولا مبتكرة من أجل تطويعها لمطالب اللغة العربية، سواء من حيث إظهار أشكال الحروف العربية، أو طرق البحث عن المعلومات أو تبادل الرسائل ذات الطبيعة المختصرة. ومن المعروف أن اللغة العربية تواجه صعوبة في اختصار الكلمات نظرا إلى غياب التشكيل من جانب، وخاصية تشبيك الحروف من جانب آخر.

7: 2: 9 تزايد استخدام الإنترنت كوسيط إعلامي (الطرح العام)

لقد فرضت الإنترنت نفسها إعلاميا، فهي بجانب كونها «شبكة الشبكات» فهي بالقدر ذاته «وسيط الوسائط» الاتصالية بلا منازع. وتتجلى عظمة الوسيط الإلكتروني في قدرته على احتواء الوسائط الأخرى كمصادر للمحتوى بالنسبة له (286: 37). وفي هذا الصدد، وبينما كانت عظمة التليفزيون في احتوائه الراديو، تقوم عظمة الإنترنت على احتوائها الصحافة والإذاعة والتليفزيون والبحث عن المعلومات. ولا يستقيم اليوم حديث في شأن الإعلام والاتصال، دون تناول القضايا العديدة التي تطرحها الإنترنت كوسيط إعلامي، لهذا رأينا أن ننهي بها استعراضنا للتوجهات الرئيسية لتكنولوجيا الاتصال، فكل ما قيل إلى الآن، إما تمهيد لما سيقال وإما ذو

علاقة وثيقة به.

كما هي العادة في مجال الاندماج التكنولوجي يتم التفاعل في مرحلة البداية، على مستوى الحد الأدنى كخطوة تمهيدية لا بد منها استعدادا للانصهار الكامل. وتشهد الساحة الإعلامية حاليا مناوشات أولية بين التليفزيون والإنترنت. فبينما يرى التليفزيون الإنترنت مصدرا من مصادر معلوماته، تراه هي مجرد وسيط معلوماتي جديد يضاف إلى قائمة وسائطها المتعددة. يقوم النظام المعروف باسم «ويب. تي. ڤي Web TV» على فكرة استخدام التليفزيون كنافذة للتعامل مع الإنترنت، يتم الإبحار من خلالها باستخدام وسيلة التحكم عن بعد (الريموت كنترول). ولا سبيل إلى المقارنة بين قدرات الكمبيوتر الفائقة في التعامل مع الإنترنت، وقدرات التليفزيون المحدودة، إلا أن التليفزيون له جاذبيته الخاصة، من حيث قاعدة جماهيره العريضة وسهولة استخدامه، دونما حاجة إلى معدات أو برامج إضافية.

في المقابل، يسعى أهل الكمبيوتر إلى تحويله إلى وسيلة فعالة للاستقبال التليفزيوني، وهم يزعمون أن في توجههم هذا خلاص التليفزيون من أزمته المزمنة، ويقصد بها أحادية الاتجاه، وآفة التلقي السلبي المترسخة فيه. فمن خلال الكمبيوتر، يمكن التفاعل مع المواد التليفزيونية، وتوفير مرونة أكبر في انتقاء القنوات ومواد البرامج وتخزينها وإعادة استخدامها. ومع كل هذا، يظل الجدل ممتدا حول «تليفزيوتر» يستغنى به عن الكمبيوتر، أم «كمبفزيون» يستغنى به عن التليفزيون، إن كل ما يجري حاليا هو بمنزلة تمهيد لانصهارهما الكامل في إطار الإنترنت التي تشير جميع الدلائل إلى أنها ستصبح وسيطا اتصاليا قائما بذاته، له خصائصه التي تميزه عما سواه من جميع وسائط الاتصال. ولا شك في أن هذا الانصهار المعلوماتي سيؤدي إلى تغييرات جذرية في مفهوم الاتصال، والعلاقات التي تربط بين منتج الرسالة الإعلامية وموزعها ومتلقيها. ونسمع ـ حاليا ـ عن إعلام ما قبل الإنترنت وإعلام ما بعدها، وهناك من يتوقع أن تفوق الإنترنت التليفزيون كوسيلة إعلام واتصال بحلول العام 2005 (289: 58).

تزايد استخدام الإنترنت كوسيط إعلامي (المنظور العربي)

ينذر استخدام الإنترنت كوسيط إعلامي بظهور نوع جديد من الطبقية

يمكن أن نطلق عليه «الطبقية الاتصالية». فكما هو معروف، تسعى الدول المتقدمة حاليا إلى إقامة شبكات الطرق السريعة للمعلومات، ذات السعة الهائلة لتدفق المعلومات، وهو ما سيسمح لمواطني هذه الدول بالتفاعل الدينامي ثنائي الاتجاه: أخذا وعطاء، مع مواقع المعلومات المنتشرة عبر الإنترنت. يوشك ذلك أن يقسم العالم اتصاليا، إلى طبقة القادرين الذين ينعمون بمزايا هذا «التفاعل الإيجابي»، وما يعنيه ذلك من تنمية قدراتهم الذهنية وزيادة فاعليتهم وإنتاجيتهم، وطبقة المتلقين السلبيين الذين لا حول لهم ولا قوة إلا استقبال ما تلقيه عليهم شبكات البث عبر الأقمار الصناعية ووسائل الاتصال الأخرى أحادية الاتجاه، لترسخ بذلك النزعة السلبية وتضمر لديهم إرادة المشاركة في عملية التغيير الاجتماعي. ولا شك في أن طبقية الاتصال ستزداد مع ما نلحظه ـ حاليا ـ من انحسار مجانية الإعلام، مثلما آلت إليه الحال بالنسبة إلى مجانية التعليم، لينتهي الأمر بنا إلى إتاحة الخدمة الإعلامية ذات القيمة لمن يدفع، واقتصار دور الإعلام المجاني على خدمة الإعلان التجاري، أو التوجيه السياسي.

7: 3 علاقة الإعلام بمنظومة الثقافة

7: 3: 1 عن طبيعة العلاقة الإعلامية ـ الثقافية (الطرح العام)

علاقة الإعلام بالثقافة هي ـ في جوهرها ـ علاقة النوع بالكل، إلا أنهما كثيرا ما يتداخلان إلى حد التطابق (55: 9)، يشهد على ذلك التداخل الشديد بين السياسات الإعلامية والسياسات الثقافية، وما أكثر ما يترادف، في خطاب التنظير الاجتماعي الحديث، مصطلح «الإمبريالية الثقافية» مع مصطلح «الإمبريالية الإعلامية». إن الإعلام هو الجانب التطبيقي المباشر للفكر الثقافي والسياسة الثقافية، وهو بجانب كونه تجسيدا لثقافة العامة، فهو أيضا نافذة نطل منها على ثقافة الخاصة.

وجاءت الإنترنت لتؤجج لهيب العلاقة بين الإعلام والثقافة، فهي تجمع ما بين كونها وسيطا إعلاميا، وكونها ساحة لنقل بضاعة الثقافة، من مراكز إنتاجها إلى مناطق استهلاكها، بطريقة أقرب ما تكون إلى أسلوب «توصيل الطلبات إلى المنازل»، وعلى ما يبدو فكما حول إعلام ما قبل الإنترنت المواطنين إلى مشاهدين، فإن إعلام ما بعد الإنترنت في طريقه إلى تحويل

هؤلاء المشاهدين إلى مستهلكين.

عن طبيعة العلاقة الإعلامية ـ الثقافية (المنظور العربي)

الإعلام، في معظم البلدان العربية، هو طفل السلطة المدلل، في حين تظل علاقة هذه السلطة بالثقافة ـ عموما ـ أقل ما يقال عنها أنها من الأمور الثانوية. ولا مانع من أن تلغى وزارة الثقافة، وتحال مهامها إلى أجهزة الإعلام، كما حدث في بعض الدول العربية (145 : 165). إن لهذا الاختلال في الثقل السياسي بين الإعلام والثقافة آثاره السلبية العديدة. ولا جدال في أن فصل سياسة الإعلام عن سياسة الثقافة جريمة لا تغتفر، خاصة في عصر باتت فيه الثقافة محورا رئيسيا لعملية التنمية، في حين أصبح الإعلام من أهم الوسائل لتحقيق هذه التنمية. ومن حسن الطالع أن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم قد أدركت ذلك، فقامت أخيرا بإعداد وثيقة خاصة بالتنسيق بين السياسات الإعلامية والثقافية [55].

إن النقلة النوعية، في إطار إستراتيجية طويلة المدى لإعلام ما بعد الإنترنت، تتطلب منا طرح قضايانا الإعلامية في سياقها الاجتماعي الأشمل، فلا يكفي أن يكون لكل صحيفة وإذاعة ومحطة تليفزيون عربية موقعها على الإنترنت فهذه أمور انتقالية وجزئية. إن الأهم هو أن نؤمِّن لإعلامنا موقعا حصينا على الخريطة الجيو ـ اتصالية في عصر إعلام ما بعد الإنترنت.

7: 3: 2 فكر الإعلام (الطرح العام)

(أ) عن بدايات التنظير الإعلامي: بشكل عام، يمكن القول إن الفكر الإعلامي مازال فكرا ناشئا يفتقر إلى الدراسات الأكاديمية النظرية، وربما يكون أول من حاول التنظير له مارشال ماكلوهان في فترة الستينيات، وقد كان تركيزه النظري منصبا على علاقة الوسائط الإعلامية بالحواس: علاقة الكتاب والتليفزيون بحاسة البصر، وعلاقة المذياع بحاسة السمع، وما شابه. لذا فقد طرح جانبا الجوانب الاجتماعية لإشكالية الإعلام قاصرا جهده على جوانبها النفسية (268: 8). لقد سعى ماكلوهان إلى أن يضع قوانين تحدد مدى تأثير وسيط الإعلام في المتلقي، وقد اضطره ذلك إلى وضع

بعض الأسس لتصنيف وسائل الاتصال؛ فكان أن صنفها ما بين «باردة وساخنة»؛ ليفرق بين تلك، ذات الطابع السلبي، كالمذياع، وتلك التي تحث المتلقي على التفاعل معها، كالكتاب، وما بين «نافذة وعاكسة»؛ ليفرق بين تلك التي ينفذ من خلال الضوء ـ كالتلفزيون، وتلك التي تعكس الضوء كما هي الحال في السينما. ومعظم فكر ماكلوهان الإعلامي يقع في خانة التصورات لا النظريات، ومعظم أفكاره تثير ولا تؤسس. وكانت له شطحاته في نظر البعض من قبيل: استحسانه للصورة الرديئة المهتزة للتليفزيون، زاعما أنها تحث المشاهد على التفاعل معها حتى يستكمل ما ضاع منها بفعل التشويش، كذلك امتداحه للإعلان بصفته وسيلة لتوحيد الذوق العام، وما شابه (45:282).

ولكن أكثر ما خلفه لنا مارشال ماكلوهان شيوعا هو مقولاته، ومن أشهرها مقولة «الوسيط هو الرسالة»، والتي أثارت جدلا كبيرا لا يقل عن ذلك الذي أثاره مصطلحه ذائع الصيت، ويقصد به «القرية الكونية».

(ب) الفكر الإعلامي لمدرسة فرانكفورت: كانت مدرسة فرانكفورت هي البادئة في إدراج قضايا الإعلام الجماهيري، ضمن التنظير، الثقافي الحديث بهدف الوصول إلى نظرية اجتماعية تأخذ في اعتبارها الجوانب الاقتصادية والسياسية والثقافية لنظم الإعلام الحديث (260) ويرى تيودور أدورنو وماكس هوركهيمر، مؤسسا مدرسة فرانكفورت أن مؤسسة الإعلام الحديث ما هي إلا أداة للسيطرة الاجتماعية، وإعادة إنتاج المجتمع بأنماطه السائدة (214: 15). ويقترب فكر مدرسة فرانكفورت في هذا من فكر بودليار الذي وصل به موقفه السلبي من الإعلام الحديث، إلى حد اعتبار ثقافة «الميديا» هي الجريمة الكاملة التي تدفع جماهير مشاهديها إلى جحافل التجنيس والتهميش (214: 40). وقد هاجم هيبرماس التليفزيون، متهما إياه بإفساد ساحة الرأي العام، إلى حد القول إنه يرتد بالمجتمع إلى نظام الإقطاع refeudalization (214: 216)، وهو ما يتفق مع رأي كارل بوبر، الذي خلص إلى أن الإعلام الحديث يضر بالديموقراطية، ولا يعمل على نشرها وتعميقها (322: 269). إن منظري مدرسة فرانكفورت يرون أن الإعلام الحديث يعمل على إخماد نوازع التفرقة الطبقية، وعلى ضمور الوعي الثوري لدى الطبقات المستضعفة، وعلى دمج العمال في نسيج المجتمع الرأسمالي المعاصر [260]،

وهو الأمر الذي يستوجب إعادة النظر في المدخل الطبقي كوسيلة لإحداث التغيير الاجتماعي (214: 219)، ويرى هيبرماس أن الوسيلة لذلك هي خلق ساحة جديدة لمجال الرأي العام أكثر شفافية وتواصلا، وذلك من خلال تكنولوجيا المعلومات.

(ج) **فكر إعلام ما بعد الحداثة:** اتساقا مع فكرة العام الذي يتحاشى الخوض في كبريات السياسة، انشغل الفكر الإعلامي ما بعد الحداثي بعنصر الاستهلاك، أو كيفية تلقي رسالة الإعلام، مركزا ـ في الوقت ذاته ـ على قضايا الإعلام المتعلقة بالتمييز العنصري، ووضع المرأة بالنسبة للرجل، ووضع الأقليات وما شابه. على النقيض من رؤية هيبرماس التي تصبو إلى مجال للرأي العام يتسم بالشفافية واتفاق الآراء، يحلم منظرو إعلام ما بعد الحداثة بأن تخلق الميديا الجديدة «هيتروطوبيا» من تباين الآراء وتعددها، حيث ستسمح تكنولوجيا المعلومات، والإنترنت على وجه الخصوص، لكل الفئات الاجتماعية بأن تعلن عن آرائها، وأن تدافع عن مواقفها. يرى البعض في فكر إعلام ما بعد الحداثة نوعا من تمييع قضية الهيمنة الإعلامية الأمريكية في سراديب صراع الأقليات، وحديث التنوع والاختلاف (260).

(د) **قرية كونية أم إمبريالية إعلامية:** كما أسلفنا، شاع استخدام استعارة «القرية الكونية» وليدة الإعلام الحديث الذي سحق المكان، وسعى إلى إقامة شبكة من العلاقات تربط بين الأفراد والجماعات والأمم والثقافات. وقد عفانا أصحاب نظرية «الإمبريالية الإعلامية» من نقد هذا التصور المفعم في تفاؤله وسذاجته. تمثل نظرية الإمبريالية الإعلامية التي أسسها هربرت شيللر، والفكر المناهض لها، أحد المحاور الأساسية للخطاب الإعلامي الحديث. يقصد بمصطلح «الإمبريالية الإعلامية» استخدام قوة الميديا من أجل فرض القيم والعادات والنزعات الاستهلاكية، كثقافة أجنبية وافدة على حساب الثقافة المحلية، وقد تفرع خطاب الإمبريالية الإعلامية، كما أوضح جون توملينسون (321: 19) إلى أربعة فروع رئيسية هي:

- خطاب يرى الإمبريالية الإعلامية في السياق الأشمل للإمبريالية الثقافية، ويرفض الفصل بينهما. وهو التوجه الذي يفضله الماركسيون الجدد، وذلك من أجل إبراز ضراوة الإعلام الحديث، وإظهار تحالفاته مع القوى

الاقتصادية والسياسية والعسكرية.

- خطاب ينظر إلى الإمبريالية الإعلامية من المنظور القومي، حيث يرى فيها تهديدا للهوية القومية، ومثالهم المفضل، في شأن ذلك، هو سيادة اللغة الإنجليزية في وسائل الإعلام، خاصة في الإنترنت.

- خطاب مدرسة فرانكفورت الذي يرى الميديا ـ كما ذكرنا أعلاه ـ وسيلة للسيطرة، وتجديد دماء الرأسمالية من أجل مزيد من الاستغلال والاستقطاب الاجتماعي.

- خطاب يرى إمبريالية الإعلام كأحد مظاهر الحداثة التي يجب النظر إليها بصفتها مصدر الداء الرئيسي. بقول آخر، لا يجب النظر إلى الميديا منفصلة عن مظاهر الحداثة الأخرى، كالهجرة إلى المدن، والاستسلام لسطوة العلم والتكنولوجيا وطبيعة التراتبيات الهرمية للمؤسسات الاجتماعية، وما شابه.

تواجه نظرية «الإمبريالية الإعلامية» هجوما ضاريا من قبل المؤيدين لعولمة الإعلام، وينطلق الفكر المناهض لها من منطلقات عدة أهمها:

- أن مفهوم الإمبريالية الإعلامية قد قام في ظل سيادة الدولة على وسائل الإعلام ولا بد أنه سيزول بغيابها، وذلك بافتراض أن العولمة ستقوض من سيادة الدول.

- إغفال نظرية الإمبريالية الإعلامية لدور المستهلك، واعتبارها له بمنزلة صندوق أسود (319: 171) أي مجرد متلق سلبي للرسالة الإعلامية، غافلين بذلك عن دوره في استيعاب مضمون هذه الرسالة، وممارسة إرادته في كيفية دمجها في تيار حياته اليومية، والناس ـ في رأي هؤلاء المنظرين ـ لايُخدعون بالإعلام إلى الدرجة التي يتصورها ناقدوه.

- في رأيهم، أن نظرية الإمبريالية الإعلامية قد أعطت مزيدا من الثقل للإعلام على حساب القوى الاجتماعية الأخرى.

- هناك تناقض جوهري في فكر هربرت شيللر، مؤسس نظرية الإمبريالية الثقافية، فيما يخص ما تضمنته بشأن تهديد الهوية القومية، فكيف يتسنى له، وهو صاحب التوجه الماركسي، أن يتحدث عن الهوية القومية في حين أن الفكر الماركسي معاد لمفهوم القومية أصلا (321: 68).

- التشكيك في محورية الميديا، حيث هناك قوى رمزية لا تقل عنها

تأثيرا، وعلى رأسها نظام القيم والمعتقدات.

- يجب النظر إلى الأمور المتعلقة بالهوية ليس ـ فقط ـ من منظور المكان، بل من منظور الزمان أيضا، فالهوية ليست شيئا جامدا، بل هي خاصية تتجدد مع الزمن.

فكر الإعلام (المنظور العربي)

أشارت دراسات سابقة إلى ندرة الدراسات الأكاديمية في مجال التنظير الإعلامي، وافتقار هذه الدراسات إلى أسس علمية واضحة (319: 3). وقد جعلت القضايا المستجدة التي يطرحها إعلام ما بعد الإنترنت فكرنا الإعلامي يبدو أكثر خجلا وتخلفا. أما الدراسات التي تقوم بها مؤسساتنا الإعلامية ومنظماتنا الثقافية فيسودها الطابع الإجرائي لا التنظيري. وقناعة الكاتب أن وراء هذا الكمون التنظيري أمورا عدة، من أهمها: تجنب الخوض في الأمور الحساسة لعلاقة نظم الحكم بمؤسسات الإعلام. أضف إلى ذلك أن الفكر الإعلامي الحديث كثيرا ما يلجأ إلى فكر الماركسيين الجدد، قاصدا من ذلك أن يستل منه شقه العلمي لا الأيديولوجي. ومازال كثير من المنظرين الأكاديميين لدينا يحجم عن إقحام نفسه في مثل هذه الأمور تحاشيا لما لا تحمد عقباه. وهكذا، آثر الفكر الإعلامي مبدأ السلامة، تحت ضغوط السلطة من جانب، وإرهاب الفكر من جانب آخر. وخلت الساحة إلا من وعود التكنوقراط وأحلام المثاليين من منظري الإعلام الإسلامي وعادة ما يرجع هؤلاء المنظرون علة إعلامنا العربي إلى سيطرة العلمانيين عليه (52:85)، وهم بذلك يجنبون أنفسهم مشقة الخوض في الأمور الجوهرية، ونقصد بها علاقة الإعلام بالقوى السياسية والاقتصادية. لقد أصبحنا في أمس الحاجة إلى نظرة متوازنة تتناول إشكالية الإعلام العربي من منظور معلوماتي تنموي، يستوعب ـ بعمق ـ الدور المتعاظم الذي تلعبه التكنولوجيا والاستثمار الاقتصادي في صناعة الإعلام.

7: 3: 3 لغة الإعلام (الطرح العام)

الإعلام هو أكثر الأنشطة الاجتماعية استخداما للغة، منطوقة كانت أم مكتوبة. لذا، تقع على لغة الإعلام مسؤولية النهوض بالأداء اللغوي للمجتمع

ككل. وكما يمكن أن يفيد الإعلام اللغة ويعمل على توحيد استخدامها، يمكن لهذا الإعلام ـ إن قصد التزييف والتمويه ـ أن يضر باللغة أشد الضرر، فأكثر ما يضر اللغة كما يقول جورج أورويل هو عدم الإخلاص.

من جانب آخر، فإن تركيز الإعلام الحديث على الصوت والصورة يهدد وضع اللغة، لكنه في الوقت نفسه، سيظهر تفوقها في التعبير المباشر الدقيق والموجز، وقد وصل حماس البعض للغة إلى حد أن عكس المقولة الشهيرة زاعما أن «الكلمة خير من ألف صورة».

لغة الإعلام (المنظور العربي)

(أ) **اللغة كميزة تنافسية في مجال الإعلام**: لقد قال من قال: إن الإنتاج الإعلامي: المرئي والسمعي تحميه اللغة (53: 165)، خاصة بالنسبة لجمهور لا يعرف معظمه اللغات الأجنبية، وكما وقفت اليابانية بجانب الإنتاج السينمائي والتليفزيوني الياباني، ووقفت الإسبانية بجانب هذا الإنتاج في البرازيل والمكسيك، يمكن للعربية ـ أيضا ـ أن تحافظ على كونها ميزة تنافسية في مجال صناعة الثقافة لا تقدر بثمن، نظرا إلى الجمهور العريض الذي تخاطبه.

(ب) **لغة الإعلام العربي كأداة للإصلاح اللغوي**: يريد البعض لنا أن نصمت عن لغتنا الفصحى، وذلك بإشاعة اللهجات العامية المحلية في وسائل إعلامنا من تليفزيون وإذاعة بل وصحافة أيضا (55: 48)[*4]. إن التضحية باستخدام العربية الفصحى في وسائل إعلامنا تعني نسف إحدى الدعامات القليلة الباقية في وحدتنا الثقافية. وما يجب علينا أن نفعله هو العكس تماما، ونقصد بذلك استخدام وسائل الإعلام لتسهيل استخدام الفصحى في حياتنا اليومية. إن الإعلام داخل مجتمعاتنا العربية يمكن أن يقوم بدور «حصان طروادة» لتخليص العربية من ازدواجية الفصحى والعامية. يتطلب ذلك خطة مدروسة متدرجة المراحل، يشترك في وضعها الكتاب واللغويون والتربويون وعلماء النفس. فلم يعد مقبولا أن نظل نردد أن عامة جماهيرنا لا تقبل من الفصحى إلا القرآن الكريم والحديث الشريف. فكيف ـ إذن ـ طابت لهذه الجماهير، بسليقتها العفوية، روعة شعر ناجي في «الأطلال»؟[*5]، وكيف استساغت روائع نزار قباني، واستأنست مجازه الشعري، منطلقا مع هذا «الشعر الغجري المجنون المسافر في كل الدنيا»؟.

إن علينا من أجل علاج مشكلة ازدواجية العربية أن نلجأ إلى جميع الوسائل الممكنة: القصيدة والأغنية والأقوال المأثورة والأساطير الشعبية والمسرحيات الشعرية، بل الشعائر الدينية أيضا.

ولابد أن يؤمن إعلامنا العربي بشعار «ابدأ بنفسك» إن أراد حقا أن يكون أداة فعالة لإصلاحنا اللغوي، ولتكن البداية في التصدي لما يشكو منه كثير من الإعلاميين من نقص المصطلحات اللازمة لتغطيه المفاهيم الجديدة (51: 61) التي يتوالى ظهورها بمعدل شبه يومي. والإعلام، بحكم متابعته الفورية للأحداث، سباق إلى تناول هذه المفاهيم، وبالتالي تقع عليه مسؤولية إشاعة مصطلحاتها بصورة سليمة، وعليه في ذلك أن يتحاشى اللجوء إلى كلمات لا تتسم بالدقة، مما يشوه المفهوم المقصود بالمصطلح الأجنبي، بل يؤدي أحيانا إلى زرع مفاهيم خاطئة.

7: 3: 4 التربية والإعلام (الطرح العام)

(أ) **زيادة التقارب بين الإعلام والتعليم:** يقينا، فإن الإعلام والتعليم سيتقاربان إلى حد التداخل. وستكون للإعلام الحديث ـ بصفة خاصة ـ مساهمته الفعالة في مجال « التعليم عن بعد». يتطلب ذلك استحداث وسائل جديدة لبث رسالة إعلامية تعليمية تختلف ـ جوهريا ـ عن الطابع السلبي الذي مازال يسود الإعلام التربوي حتى أيامنا هذه.

(ب) **تربويات الميديا:** على الرغم من الأوقات الطوال التي يقضيها بشر اليوم يستمعون إلى الإذاعة، ويشاهدون التليفزيون ويتعاملون مع الإنترنت، إلا أن معظم هؤلاء البشر يعانون من أمية إعلامية صارخة، فقد استسلموا للإعلام استسلاما شبه كامل، فصاروا عاجزين ـ بالتالي ـ عن فهم أسرار لعبة الإعلام، وكيف يتلاعب بالعقول، من أجل فرض الانصياع والانضباط. ولم تحظ تربويات الإعلام باهتمام أي من النظريات الاجتماعية الحديثة (259). لقد أصبح لزاما على التربية الحديثة أن تضع ضمن أهدافها تنمية النزعة النقدية للميديا لدى الشباب.

التربية والإعلام (المنظور العربي)

(أ) **زيادة التقارب بين الإعلام والتعليم:** لا شك في أن هذا التقارب

يتناسب مع التوجه التنموي الذي توصي به الدراسة الحالية لمنظومة الإعلام العربي. ومرة أخرى، يتطلب ذلك درجة أعلى من التنسيق بين المؤسسة التربوية الرسمية، أجهزة الإعلام بصفتها مؤسسة تربوية للتعليم اللارسمي.

(ب) **تربويات الميديا**: إن هوس شبابنا بالميديا، يحتم علينا ضرورة أن نمحو أميته الإعلامية، حتى يستطيع الخروج من دائرة الحصار التي يقيمها من حوله الإعلام الرسمي. يتطلب ذلك إكسابه المهارات الذهنية التي تمكنه من اختراق أسيجة التعتيم الإعلامي، واستظهار المسكوت عنه، وهتك سر القوى التي تقف وراء ظاهر الرسالة الإعلامية.

7: 3: 5 الإبداع والإعلام (الطرح العام)

(أ) **الإعلام كمؤازر للإبداع**: هناك من يرى أن الإعلام الحديث سيتيح فرصا أكثر لتنمية الإبداع بجميع فروعه: أدبا وشعرا وأداء وتشكيلا وموسيقى، وذلك للعوامل التالية:

- تنوع المواد الإعلامية وثراؤها مما يثير الخيال الإبداعي.
- ما توفره تكنولوجيا الوسائط المتعددة من وسائل مبتكرة، لمزج فصائل الفنون المختلفة، مما يفتح آفاقا جديدة أمام إبداع جديد.
- سيشحذ التوسع في استخدام الإعلام التفاعلي موهبة المبدع، ويشجعه على مواصلة التجريب وإعادة المحاولة.
- ستحرر الإنترنت أصحاب المواهب من سطوة دور النشر وأصحاب المعارض.

(ب) **الإعلام كمعوق للإبداع**: على الطرف النقيض، هناك من يعتقد أن الإعلام الحديث يحد من نمو الموهبة، وهو لا يجيد إلا صناعة المشاهير لا المبدعين، ويحابي الحرفي والمهني، على حساب الموهوب والمبدع. وفي رأي هؤلاء، أن الإعلام يعوق عملية الإبداع للعوامل التالية:

- يعطل طابع الانبهار الذي يتسم به الإعلام الحديث الفكر والخيال، وغالبا ما يشوه الإعلام علاقة المشاهدين بالزمان والمكان (282: 55)، وسنتناول هذه المسألة بمزيد من التفصيل في الفقرة 7: 3: 7 من هذا الفصل.
- يعتمد الإعلام في كثير من برامجه وإبداعاته الفنية على إعادة

الاستخدام والتكرار، وهو ما يخمد في وجدان المشاهد جذوة التجديد والابتكار، فنحن ـ كما قيل ـ ما نفعله ونشاهده دوما، لا ما نفعله ونشاهده لماما (282: 220)، أضف إلى ذلك طابع التلقي السلبي الذي يقتل روح المبادرة.

- سرعة تدفق الرسائل الإعلامية، والميل إلى تقصير مدتها الزمنية، حتى أصبحت كما لو كانت نبضات تلغرافية، أو قضمات صوتية بلغة أهل الإعلام sound bites، مما لا يعطي مهلة للتمعن الذهني، ويولد شعورا لدى المشاهد بعدم الجدية في التعامل مع محتوى الرسالة (260). ومن المعروف، أن الرسائل المقتضمة تلائم ـ أكثر ما تلائم ـ ديماجوجية الإعلام.

الإبداع والإعلام (المنظور العربي)

(أ) **الحاجة الماسة لإبداع إعلامي عربي**: الإبداع، كما أشرنا سلفا، هو فرصتنا الوحيدة لإنتاج إعلامي متميز يستطيع أن يقف على قدم المساواة مع الإنتاج المستورد. نحن في حاجة إلى إنتاج إعلامي، لا يعتمد على التكنيك وعناصر الإبهار، بقدر ما يعتمد على الفكرة المبتكرة، والفهم العميق لأذواق المتلقين وتوافقاتهم.

(ب) **بعض مخاطر الإعلام بالنسبة لإبداع لشبابنا**: من المعروف، أن معظم شبابنا قد عزف عن القراءة، متخذا من التليفزيون وسيلته الإعلامية الرئيسية، ومن المؤكد، أن انخفاض معدل القراءة يضعف من القدرة على التفكير المجرد والمتعمق والنقدي. من جانب آخر، فإن عولمة الإعلام، ترسخ في نفوس الشباب عقدة الشعور بالنقص في مواجهة الأجنبي المتفوق إعلاميا ومعلوماتيا، وهو ما يفضي ـ بالتالي ـ إلى تولد الإحساس بعدم جدوى الإبداع من جانبهم.

7: 3: 6 نظام القيم والمعتقدات والإعلام (الطرح العام)

تعد علاقة الإعلام بالدين، نموذجا للعلاقة التبادلية بين الإعلام والثقافة. فالإعلام أداة فعالة للدعوة الدينية والحفاظ على التراث الديني، من نصوص وطقوس وشعائر. وشبكة إعلام الفاتيكان[*6] والقنوات والإذاعات والمجلات الدينية المتخصصة، أمثلة ـ ضمن أخرى عدة ـ عن مدى مؤازرة الإعلام للدين. وجاءت الإنترنت بحلقات نقاشها لتصبح ساحة ساخنة لحوار الأديان.

في المقابل، فإن الدين يمكن أن يستخدم كسلاح إعلامي لمساندة السلطة أو دعم المجهود الحربي.

ما هو أكثر إثارة من هذه العلاقة التبادلية المباشرة بين الإعلام والدين، هو تلك العلاقات غير المباشرة التي تمر عبر الأنفاق السياسية والاقتصادية والأمنية، وهو ما دفع بالبعض إلى القول إن صلة الإعلام بالدين، ودور الإعلام في تشكيل القيم والعادات والتوجهات، ستظل مسألة يكتنفها الغموض (319: 184).

وفيما يخص القيم، فإن مناظر العنف على الشاشتين الكبيرة والصغيرة، وانتشار مناظر الجنس عبر الإنترنت، تمثل أكثر الجوانب الإعلامية الأخلاقية إثارة للجدل هذه الأيام.

نظام القيم والمعتقدات والإعلام (المنظور العربي)

يشغل الدين مساحات لا بأس بها في قنوات الإعلام العربي المختلفة، إلا أن هناك من يقف موقفا معارضا ضد البرامج والفقرات الإذاعية والتليفزيونية الدينية، وكذلك الأبواب الصحافية الثابتة ذات التخصص الديني، ففي رأي هؤلاء أن في هذا التخصيص والتبويب توجها علمانيا في فصل الدين عن الدولة.

لذا، فهم يطالبون بإعلام ديني شامل. بل يحمل البعض منهم على كاهل الإعلام الإسلامي أعباء إضافية من أحلام يقظتهم، مطالبين إياه في وضعه الراهن، أن يكون صوت الحق الذي يعيد إلى الإنسانية رشدها، ويثبت للعالم أجمع عالمية الإسلام.

أما فيما يخص صلة القيم بالإعلام، فتختلف الآراء بشأنها، فهناك من يقول إن الإعلام قد أضر بقيمنا أشد الضرر بإشاعة قيم الثقافة الوافدة، وهو ما تسبب ـ أيضا ـ في إضعاف قيمة الانتماء للوطن الأم لدى الشباب. على العكس من ذلك، هناك من يرجع الفضل إلى الإعلام في تحرير القيم بتجاوزها حدود جماعتها (319: 180)، وهو أمر يتفق مع عالمية الإسلام. علاوة على ذلك، يعتقد هؤلاء أن تأثير الإعلام في القيم المتأصلة ضعيف، وبالنسبة للعقائد فهو شبه مستحيل.

وإن كان الإعلام قد أفقدنا بعض الشعائر الدينية، فقد أعاد طرحها

في سياق أشمل وأكثر تأثيرا. وهم يرون كذلك أن الإعلام قد خفف بعض الشيء من سلطة الكبار على الصغار، حيث لم يعد هؤلاء الكبار محتكرين لسلطة المعرفة بعد أن أصبحت متاحة للجميع عبر وسائل الإعلام (319: 190).

7: 3: 7 التراث والإعلام (الطرح العام)

(أ) **عن طبيعة العلاقة بين الإعلام والتراث:** كغيرها من العلاقات بين الإعلام والثقافة، تتناقض الآراء فيما يخص علاقته بالتراث. فعلى جانب الإيجاب، للإعلام ـ كما يرى البعض ـ فضل كبير على التراث، فهو يسجل تاريخ حاضرنا لحظة بلحظة، ويحافظ على تراث الماضي الذي كان عرضة للاندثار في ظل الشفاهة. إضافة إلى ذلك، يمكن لتكنولوجيا الاتصال الحديث أن تطرح التراث في سياق تاريخي وحضاري أشمل، مما يعمق إدراكنا لقيمته ومغزاه.

أما على الجانب السلبي، فيرى أصحابه أن الإعلام ـ بطبيعته ـ معادٍ للتراث، فانشغاله الدائم باللحظة الراهنة يدمر الروابط مع الماضي (202: 44)، وذاكرة الإعلام، ـ بحكم طبيعتها ـ ذاكرة قصيرة لا تزيد على 40 سنة (282: 55)، وتاريخ ما قبل 1900 بالنسبة له بمنزلة ثقب أسود. لذا، نرى الإعلام يركز على التاريخ القريب، الذي تتوافر له مادته من أرشيف تسجيلاته، والتي لا يمل تكرار استخدامها، فهي كالنار، تتغذى على نفسها. ويؤدي قصور الرؤية التاريخية هذا، إلى تشوه علاقة المشاهد بالماضي، وانبعاج الزمن التاريخي في ذهنه.

لقد سد الإعلام، بذاكرته المحدودة القصيرة المدى، الطريق على متلقيه، يعوقه عن رؤية التاريخ الصحيح الممتد عبر القرون. فما أكثر ما شاهدنا تاريخ الحربين العالميتين، الأولى والثانية، وما أندر ما تطرق الإعلام إلى ما قبلهما من التاريخ الحديث، ناهيك عن ذلك للعصور الوسطى.

إن ذاكرة الإعلام القصيرة تلك، تتعارض بصورة جوهرية مع كون الإنسان يتعلم من تاريخه البعيد أكثر مما يتعلم من تاريخه القريب اللصيق بذاكرته. ويمكن القول ـ بناء على ذلك ـ إن الإعلام، فيما يخص الوعي التاريخي، يحجب عنا ما نحن في حاجة إليه، في حين يسرف في عرض ما نحن في

حاجة أقل إليه. إن حكمة التاريخ لا تسفر عن نفسها إلا من خلال اقتفاء مسار رحلته عبر الزمن، واللقطات السريعة تفرغ التاريخ من حكمته.

(ب) تراث الإعلام: ثقافة الميديا، كما قالوا، هي التاريخ الخائلي الذي يُجمع يوميا، من هذا النبع الذي لا ينضب من الصور والأصوات، والإعلام له تراثه الخاص المتمثل في هذا الكم الهائل من التسجيلات وأشرطة الفيديو وأفلام السينما وأرشيف الصحافة الورقي من الصور والمطبوعات. إن هذا التراث الإعلامي يمثل ذخيرة معلوماتية بالغة الأهمية في صناعة الثقافة والتاريخ الثقاف

. يفسر ذلك سر الاهتمام الكبير بالأرشفة الإلكترونية لهذا التراث الإعلامي الضخم، وكذلك بضرورة رقمنته، حتى يكون جاهزا كمادة طيعة لتكنولوجيا الوسائط المتعددة. لقد وفرت هذه التكنولوجيا، ذات سعة التخزين الهائلة، الوسيلة العملية لأرشفة مواد التراث الإعلامي الورقية والسمعية والمرئية، علاوة على توفيرها وسائل آلية لتبويب المادة الأرشيفية، وسرعة استرجاعها، وتعدد أساليب عرضها وتوزيعها.

التراث والإعلام (المنظور العربي)

(أ) تراثنا، ذلك الكنز الإعلامي الثمين: من المنطقي، أن يكون موقفنا من التراث انعكاسا لموقفنا من الماضي، وعلاقة هذا الماضي بحاضرنا، ومدى تأثيره في توجهات مستقبلنا. بصورة عامة، يمكننا القول: إن إعلامنا يتخذ من تراثنا موقف العارض والزائر، تطوف كاميراته بصحون الجوامع وردهات المعابد وشواهد المواقع الأثرية، وتنقل ميكروفوناته الغناء الشعبي وشعرنا الفولكلوري، وهلم جرا. ولكن ـ غالبا ـ ما يتم ذلك دون تعميق وعرض لمآثر هذا التراث في سياقه الثقافي الأشمل، الذي يعين المتلقي على تذوقه واستيعابه.

لم يعد كافيا ذلك العرض السلبي والزيارات المتعجلة لتراثنا، ولا بد لنا أن نتجاوز الكاميرا والميكروفون لكي ننفذ إلى المعرفة الكامنة وراء التراث، ونستخلص الحكمة من جوهر نقوشه ونصوصه وأصواته وأنغامه وأطلاله. إن علينا أن نعيد اكتشاف تراثنا العربي والإسلامي، وما أروع أن نتجول في بساتين التراث الفارسي والتركي والفرعوني والبربري والطوراني، نلتقط

من زهورها باقات إبداعية نمزجها باستخدام تكنولوجيا الوسائط المتعددة. لقد عجزنا عن تفجير الشحنة الإبداعية الكامنة في تراثنا العربي والإسلامي، لأننا قد حرمناه حقه في الحوار مع تراث الأخرين.

(ب) **أرشيفنا الإعلامي**: سنكتفي هنا بمثال وحيد، لنثبت به مدى إهمالنا لأرشيفنا الإعلامي، خلاصته: أن القائمين على إنتاج فيلم «ناصر 56» اضطروا إلى استعارة مادته الوثائقية من أحد مراكز حفظ الوثائق في لندن بعد أن اكتشفوا أن الأرشيف الإعلامي الضخم لعبدالناصر قد بُدد[*7].

لقد أنشأنا مركزا للتوثيق الإعلامي في بغداد (51: 52)، لكنه توقف نظرا للظروف التي يمر بها العراق. أما المشروع المقترح من قبل المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، بالتعاون مع منظمة اليونسكو للتوثيق السمعي والبصري، فما زال حبرا على ورق.

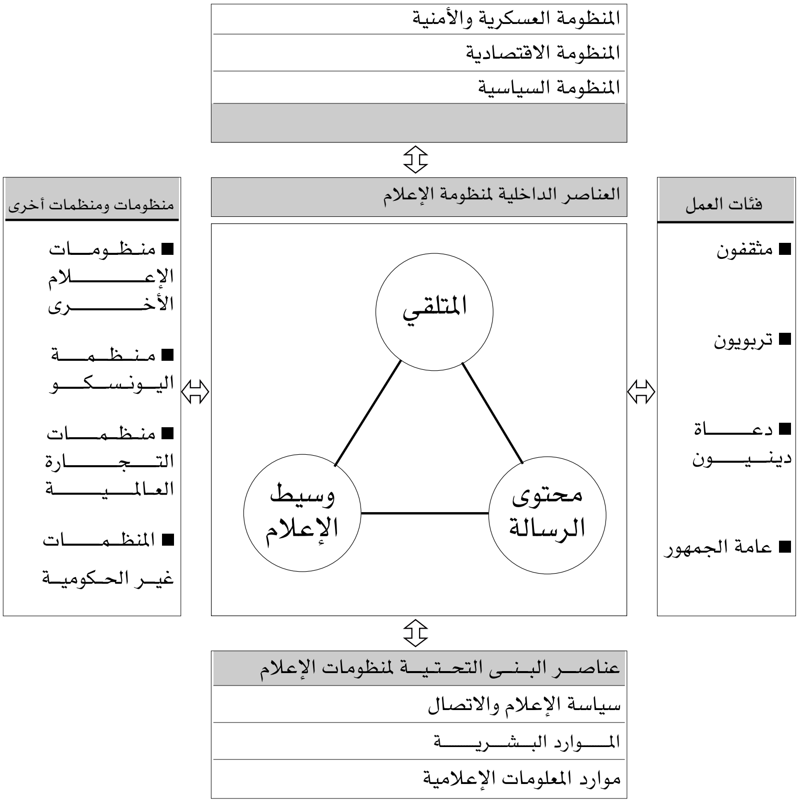
7: 4 منظومة الإعلام

7: 4: 1 الإطار العام لمنظومة الإعلام

يوضح الشكل (7: 4) الإطار العام لمنظومة الإعلام من منظور معلوماتي، ويتضمن المكونات الرئيسية التالية:

- العناصر الداخلية لمنظومة الإعلام وتشمل: محتوى الرسالة الإعلامية ـ الوسيط الإعلامي ـ متلقي الرسالة الإعلامية. وقد تناولت دراسات عدة تلك العناصر الثلاثة من وجهات نظر مختلفة. لذا، رأى الكاتب، تحاشيا للتكرار، أن يحصر حديثه ـ هنا ـ على انعكاسات الإنترنت على كل من هذه العناصر.
- العلاقات الخارجية التي تربط منظومة الإعلام بالمنظومات المجتمعية الأخرى.
- عناصر البنى التحتية لمنظومة الإعلام، وتشمل سياسة الإعلام والاتصال، والموارد البشرية من مذيعين ومخرجين ومعدي برامج وخلافه، وكذلك موارد المعلومات الإعلامية، والتي من أهمها مواد الأرشيف الإعلامي المذكورة أعلاه.

وفيما يلي استعراض للمكونين الأولين.



الشكل (7: 4) الإطار العام لمنظومة الإعلام

7: 4: 2 علاقات منظومة الإعلام بخارجها (الطرح العام)

(أ) **علاقة الإعلام بمنظومة السياسة:** يشكل الإعلام أفكار الساسة وأقوالهم، وقد اقتربت مهنة رجال السياسة من مهنة الأداء العلني، حتى كادوا يصبحوا نجوما إعلاميين، وكاد الصحافيون ـ بدورهم ـ أن يصبحوا نقادا دارميين. هذا من وجهة نظر الحاكم. أما المواطنون، فمعظم ما يعرفونه عن شؤون السياسة يأتيهم من الإعلام.

لقد لعبت الصحافة دورا أساسيا في ظهور الدولة الحديثة، وبلورة علاقة مؤسسة الحكم بالمؤسسات الأخرى. بل هناك من يعتقد أن بناء الدولة يعتمد، بصورة كبيرة، على تحويل مواطنيها إلى مشاهدين (316:264).

لقد أدركت القيادة السياسية أهمية الإعلام، فعملت على رقابته من جانب، واستغلاله من جانب آخر، فما أن دخلت الطباعة أوروبا حتى سنت من أجلها القوانين والتراخيص، لكي لا يفلت زمامها فتثير تذمر الجماهير وتحثهم على العصيان. وقد برع رجال السياسة في استغلال الإعلام، فكان روزفلت يخاطب أهل وطنه من خلال الراديو كأب يخاطب أبناء أسرته، أما جاذبية جون كنيدي الشخصية فقد نجح التليفزيون في أن يقدمها في صورة باهرة ليضعه بذلك على كرسي الرئاسة (268: 67)، وليس من الصعب على المرء، قبول فكرة أن الفاشستية التي شهدتها أوروبا، في النصف الأول من القرن العشرين، كانت وليدة صناعة إنتاج الجملة والإعلام الجماهيري (260).

(ب) **علاقة الإعلام بمنظومة الاقتصاد:** علاقة الإعلام بالاقتصاد آخذة في النمو. ولا نغالي إذ نقول إن عولمة الاقتصاد ترتكز أساسا على عولمة الإعلام والاتصال، خاصة شبكة الإنترنت. وفي المقابل، فإن بقاء الشبكة أصبح يعتمد أساسا على دعم القوى الاقتصادية، وذلك بعد ما أوقفت الحكومة الأمريكية دعمها للشبكة، تاركة مسؤولية تمويلها لأهل التجارة الإلكترونية ، وإعلاناتهم. وهكذا، تسير الإنترنت على الدرب ذاته الذي سارت فيه قبلها معظم وسائل الإعلام: صحافة وإذاعة وتليفزيون وصناعة سينما هوليوود، والأخيرة معروفة بشدة ارتباطها بالنشاط التجاري ووكالات الإعلان.

(ج) علاقة الإعلام بمنظومات الإعلام الأخرى والمنظمات الثقافية الدولية: تجاوزت العلاقة، بين منظومة الإعلام ومنظومات الإعلام الأخرى، حدود تبادل المعلومات إلى ما هو أكثر بكثير بسبب عولمة الإعلام، فقد احتدت شدة المنافسة بين مؤسسات الإعلام المحلي، رسمية وغير رسمية، ومؤسسات الإعلام المتعدية الجنسية التي أصبحت لا تصدر برامجها فقط، بل تصدر تنظيماتها وفلسفتها و تفاصيل أدائها أيضا (85: 37). من ناحية أخرى، تزداد علاقة منظومة الإعلام بالمنظمات الدولية، وعلى رأسها منظمة اليونسكو فيما يخص منظومة الإعلام العالمي ككل، ومنظمة التجارة العالمية فيما يخص التجارة الإلكترونية، وأمور الملكية الفكرية لمحتوى الرسالة الإعلامية.

(د) علاقة منظومة الإعلام بالفئات الاجتماعية: ستشهد علاقة منظومة الإعلام بالفئات الاجتماعية تغيرا جذريا على الجبهات جميعها، وذلك بفعل دوافع مختلفة لكل فئة من هذه الفئات:

- المثقفون: تزايد الدور الذي يلعبه الإعلام في التنظير الثقافي الحديث ـ انظر الفقرة 4: 1: 2 من الفصل الرابع.
- التربويون: نتيجة تزايد دور الإعلام كمؤسسة للتعليم غير الرسمي.
- الدعاة الدينيون: انعكاسات عصر المعلومات على نظام القيم، ودور الإعلام في أمور الدعوة الدينية.
- عامة الجمهور: أهمية التوعية العلمية والتكنولوجية في عصر المعلومات، وكذلك ضرورة زيادة المناعة ضد أساليب الإعلام الحديث، وللحديث بقية عند تناول شق المتلقي من منظومة الإعلام.

7: 4: 3 انعكاسات الإنترنت على الوسيط الإعلامي (الطرح العام)

(أ) إعادة توزيع الأدوار: مع كل ظهور لوسيط إعلامي جديد، يتواتر حديث الالتهام والانقراض، فالراديو سيقضي على الصحافة، والتليفزيون سيقضي على الراديو والسينما. أما الإنترنت، فستحيل ما دونها من وسائط إعلام إلى متحف التاريخ. ويقينا، لقد غير الراديو من دور الصحافة، وأدى التليفزيون إلى تراجع الراديو، والإنترنت لابد وستسلب من التليفزيون قطاعا عريضا من جماهيره، خاصة الشباب منهم. على جانب آخر، فكل وسيط جديد يلقي بظلاله على ما قبله، فالتليفزيون ـ على سبيل المثال ـ قد جعل الصحافة أكثر اعتمادا على الصور، والأخبار القصيرة، وجعل الصحافة أكثر اهتماما بجماليات الإخراج والتنسيق تشبها بالتليفزيون (268: 14). وقد دفع انتشار استخدام الكمبيوتر والإنترنت التليفزيون كي يضيف لمسة من التفاعلية تشبها بهما، فكان أن زاد من تفاعله مع الجمهور عبر الهاتف مباشرة، وتلقي رسائله من خلال الفاكس والبريد الإلكتروني. وكما يرى البعض فإن تعدد الوسائط الإعلامية لن يؤدي إلى انقراض أي منها، بل سيعيد توزيع الأدوار فيما بينها، وعلى كل وسيط تقع مسؤولية البحث عن دور جديد، وفي غابة إعلام عصر المعلومات، سيظل البقاء للأنسب والأجدى، وكل مهمة إعلامية ستختار وسيطها الأمثل.

(ب) «**فيديو ـ تحت ـ الطلب» أو شبه ذلك**: هناك تطورات تكنولوجية عدة تطرأ على التليفزيون حاليا، ويمثل التحول إلى التليفزيون الرقمي نقله نوعية ستؤدي إلى صورة أكثر وضوحا، وإلى التوسع في المهام التي يقوم بها التليفزيون. وهناك أيضا توجهات نحو الشاشات المسطحة العريضة ذات السمك الرفيع، وبعض محاولات لجعل التليفزيون ثلاثي الأبعاد. ولكن أهم تطور ـ في نظرنا ـ هو ذلك الذي يمس جوهر العلاقة بين المرسل والمستقبل، ويقصد به كسر الترابط الزمني العضوي بين وقت البث التليفزيوني (وقت المرسل) ووقت المشاهدة (وقت المستقبل). لقد ظل المشاهد طويلا تحت رحمة التوقيت الصارم الذي يحدده المرسل سلفا، ولا خيار أمام المستقبل إلا أن يخضع لهذا التوقيت. ولا يجدي، في حل هذه المشكلة الأساسية، تكرار البث على فترات متفرقة، حيث يظل الخيار محدودا للغاية. يقوم مفهوم «للفيديو ـ تحت ـ الطلب» على أساس فك الاشتباك بين وقت المرسل ووقت المستقبل، حيث يمكن هذا النظام المشاهد من أن ينتقي مادته، ويختار توقيت مشاهدتها ، و له أن يختار من بين برامج 500 قناة تليفزيونية. هناك مرحلة وسطى بين الإرسال التليفزيوني التقليدي، ونظام «الفيديو ـ تحت ـ الطلب»، وهو ما يعرف حاليا بالنظام «الشبيه بتحت الطلب» وفيه يتكرر بث البرامج، كل ربع ساعة، ليعطي فرصة للمشاهد أن يلحق بما يريد أن يشاهده.

(ج) **نحو مزيد من محلية الإذاعة**: لم يتخلف المذياع هو الآخر عن قافلة الرقمنة من أجل صوت أكثر نقاء واستخدام أكثر مرونة. ويتوقع البعض أن يؤدي ذلك إلى تغيرات جوهرية في شكل المذياع الحالي. على صعيد آخر، وبينما يتجه التليفزيون إلى العولمة، فإن المذياع ـ على ما يبدو ـ يتجه صوب المحلية لينتشر في جميع المناطق لخدمة الجماعات والجاليات والأقليات وكذلك المطارات، والمدارس والجامعات والتجمعات السياحية.

(د) **نحو صحافة أقل توزيعا وأكثر تخصصا**: لقد تراجع توزيع الصحف، وتقلص عدد قرائها خاصة بين الشباب. وتواجه الصحف، أقدم وسيط إعلامي، موقفا صعبا أمام تحدي الإنترنت. ولن ينجيها من الهلاك أن يصبح لكل صحيفة موقع على الإنترنت، تنقل إلى وسيطه الإلكتروني مادتها المطبوعة، مع بعض إضافات شكلية فيما يخص البحث وإعادة ترتيب المواد

المنشورة وما شابه. إن هذه «الازدواجية الوسائطية» لا تزيد عن كونها مرحلة انتقالية في طريقها إلى الاندثار ما إن تخرج إلينا الصحيفة الإلكترونية الحقة، بطابعها الخاص القائم على الوسائط المتعددة. عندئذ فقط ترسم الحدود الفاصلة بينها وبين الصحافة الورقية، والتي ربما تجد نفسها مضطرة إلى أن تصبح، كالإذاعة، أكثر تخصصا، أو أن تنظر إلى نفسها بصفتها صانعة محتوى، أكثر منها موزعة إصدارات يومية أو دورية، ولسنا نغالي إذا نقول: إن ثراء المحتوى هو العامل الحاسم في بقائها.

انعكاسات الإنترنت على الوسيط الإعلامي (المنظور العربي)

(أ) **نحو مزيد من الاقتراب بين الكمبيوتر والتليفزيون**: مازلنا بمنأى عن المعركة الدائرة بين أهل التليفزيون وأهل الكمبيوتر، ولكن عزلتنا لن تطول، فلا مناص من إقحامنا فيها، شئنا أم أبينا. يستلزم ذلك ضرورة رصد الجوانب الفنية والاقتصادية والاجتماعية تمهيدا لبلورة إستراتيجية عربية في هذا التوجه المصيري. وربما نجد أنفسنا ـ دون أن ندري ـ منحازين إلى التليفزيون، وهو أمر لا بد أن يكون الفيصل فيه، هو الهدف التربوي قبل غيره، فلا شك في أن تخليص التليفزيون من طابع التلقي السلبي له مزايا تربوية عدة. إن التقارب بين التليفزيون والكمبيوتر سيعمل على تضييق الفجوة بين التعليم في المدرسة والتعليم في المنزل، كما أن إتاحة الإنترنت من خلال التليفزيون ستمنح للطبقات غير القادرة فرصة النفاذ إليها.

(ب) **الفيديو ـ تحت ـ الطلب**: يؤكد هذا النظام الإعلامي المستحدث كيف يمكن لاقتصاد الحجم، وكثافة رأس المال أن يعملا سويا ضد إعلام الدول النامية، فمن أين لها، في ظل إنتاجها الإعلامي الآخذ في الضمور، أن تفي بمطالب هذا العدد الهائل من القنوات التليفزيونية؟، ومن أين لها الموارد المادية اللازمة لإقامة البنى التحتية لنظام «الفيديو ـ تحت ـ الطلب» الذي يحتاج إلى شبكات اتصال ذات سعة هائلة مالية الكلفة؟ وليس البديل أن نقف عاجزين أمام هذا التوجه، فهو قادم لا محالة، وعلى مؤسسات الإعلام العربية أن تتكاتف وتتكتل، وتشارك في مواردها، وتبدي مزيدا من الاهتمام بشؤون الإنترنت الإعلامي. ومرة أخرى، وبناء على التوجه التربوي

المقترح للنموذج الإعلام العربي، علينا أن نستغل نظام «الفيديو ـ تحت ـ الطلب» كمورد ثري للمواد التعليمية، وهو ما يحتاج إلى تنشيط حركة الترجمة، وتعريب برامج الكمبيوتر.

(ج) **نحو مزيد من محلية الإذاعة:** ستظل الإذاعة أرخص الوسائل الإعلامية، وأكثرها قدرة على الوصول إلى المناطق الثنائية، والمذياع أكثر ارتباطا بالبيئة المحلية، لاعتماده على اللغة لا على الصورة. ويمكن استغلال الإذاعات المحلية لأغراض محو الأمية وتنظيم الأسرة، وكبديل للدروس الخصوصية، بل يمكن ـ أيضا ـ أن تتحول نظم الإذاعات المحلية إلى أن تصبح نظام الاتصال الرئيسي للقرى والنجوع.

وقد أشار علي محمد شمو إلى مشروع لشبكة أقمار صناعية خاصة بالراديو الرقمي توجه إلى البلدان العربية (99: 258)، لخدمة أغراض التعليم والإرشاد الصحي والزراعي وما شابه. كل ما نخشاه ـ هنا ـ أن يعني ذلك هيمنة مركزية على محتوى الرسالة الإعلامية، علاوة على كونه غير متسق مع توجه الإذاعة نحو مزيد من المحلية.

(د) **نحو صحافة أقل توزيعا وأكثر تخصصا:** تؤدي ضآلة حجم القراء إلى ارتفاع ثمن الصحيفة أو الجريدة وبالتالي إلى صعوبة توزيعها. من جانب آخر، فإن الإنترنت ستوفر مصادر بديلة للحصول على المعلومات، مما سيكسر احتكار الصحافة للمعلومات وربما يخفف ذلك من حدة ولاء الصحافة للسلطة الحاكمة:

أما الصحافة الدينية، فمازالت تفتقد إلى الرؤية الشاملة لمفهوم الصحافة الإسلامية، بسبب قلة الخبرة العملية، وغياب التأصيل العلمي (103 : 80).

7: 4: 4 انعكاسات الإنترنت على محتوى الرسالة الإعلامية (الطرح العام)

(أ) **إعادة النظر في فورية الإعلام:** دائما ما يزهو الإعلام بمتابعة الأحداث على مدار اللحظة، وقد طغت هذه الفورية على المشهد الإعلامي، حتى رسخت وكأنها من الضروريات الأساسية لعملية الاتصال، وذلك على الرغم من أنها ـ في حقيقة الأمر ـ غير مطلوبة في معظم الأحيان (268: 49). ولا

تخلو هذه الدرجة العالية من «اليقظة الإعلامية» من سوء استخدام للموارد، سواء بالنسبة إلى المرسل أو إلى المستقبل. لقد أظهرت الإنترنت ضرورة إعادة النظر في تلك الفورية المفرطة، وليس هذا ـ بالطبع ـ من قبيل الحنين إلى ثبوت المادة المطبوعة غير المتطايرة، فقد ثبت أن الأحداث الجليلة والظواهر العميقة تحدث ـ عادة ـ بإيقاع زمني بطيء (282: 156)، فتدهور النظام البيئي، والمتغيرات المجتمعية، وتطور المدارس الفكرية، جميعها يحدث تدريجيا، وعلى مدى زمني طويل. إن على الإعلام التقليدي ألا يسيء استخدامه للفورية أو يفتعلها، ولا ينحاز إلى العارض على حساب الدائم، وألا يلهينا بنقل مشاهد الكوارث عن التمعن فيما وراءها من أسباب، وما ينجم عنها من نتائج.

(ب) من الأنماط الثابتة إلى العروض المتنوعة: جرت العادة على تصنيف برامج الإعلام التقليدية في قوالب ثابتة، أو شبه ثابتة، من نشرات أخبار وتعليقات ولقاءات وتمثيليات ومسلسلات وما شابه. ولكل من هذه الأجناس الإعلامية، كوده المميز وشكله الخاص به، وأساليب ثابتة شبه نمطية لا تتغير إلا على فترات متباعدة. فعلى سبيل المثال، تدور معظم تمثيليات كوميديا الموقف على وقوع الأزمة ثم انفراجها، وعادة ما ينطوي الحل على رسالة أخلاقية أو تعزيز لمبادئ اجتماعية سائدة (260).

مع التنوع الهائل في عصر المعلومات، والثراء الشديد فيما توفره الإنترنت من معارف، وطرق عدة للتعامل مع المعلومات، والإبحار في فضائها، فمن المتوقع أن يسرع الإعلام التقليدي من معدل تغييره للقوالب الثابتة، وأن تظهر ـ بالتالي ـ أنماط جديدة من الأجناس الإعلامية لم نسمع عنها من قبل، كالجمع بين لقاءات التليفزيون ـ مثلا ـ وحلقات النقاش على الإنترنت.

(ج) رسالة الإعلام في استضافة رسالة الإعلان: تضيق الهوة ـ تدريجيا ـ بين الإعلام والإعلان، وتعكس التجارة الإلكترونية آثارا واضحة على محتوى الرسالة الإعلامية، وإن كانت رسالة الإعلام قد استضافت رسالة الإعلان في الماضي، فربما ينقلب الوضع، ويصبح الإعلام ضيفا على الإعلان، فمن أجل اقتناص انتباه جماهيره ربما يتضمن الإعلان بعض مواد إعلامية من تلك التي تجتذب المشاهدين، ليجعل إعلانه أكثر إثارة ومتعة (134: 369).

(د) **نحو مزيد من الثقافة العلمية والتكنولوجية:** من المتوقع، أن تزداد المساحة الإعلامية المخصصة للثقافة العلمية والتكنولوجية، وأن تتطرق رسالتها الإعلامية إلى الجوانب المرتبطة بالعلم والتكنولوجيا.

انعكاسات الإنترنت على محتوى الرسالة الإعلامية (المنظور العربي)

(أ) **إغناء مصادر الرسالة الإعلامية:** يجب أن تبادر مؤسسات الإعلام العربية باستغلال موارد الإنترنت لإغناء مضمون رسائلها الإعلامية. وإن كانت مؤسسات الإعلام الجماهيرية تقوم بنقل مادتها الإعلامية إلى مواقعها على الإنترنت، فعلينا نحن أن نقوم بالعملية العكسية، أي ننقل من موارد الإنترنت إلى منافذ إعلامنا الجماهيري، حيث هذه المنافذ هي الأكثر شيوعا. إن الإنترنت ستظل ـ لوقت ربما سيطول ـ غير متاحة لغالبية الجماهير العربية. ولا يعني ما نقترحه هنا ـ بالطبع ـ نقل المعلومات من الإنترنت مباشرة إلى قنواتنا التليفزيونية والإذاعية بطريقة مباشرة (كما نشاهدها حاليا في برامج أقوال الصحف والتليفزيون)، بل يجب ترشيحها وتعزيزها بموارد معلوماتية أخرى، وربطها بالأحداث الجارية والمشكلات المحلية. سيتيح ذلك فرصا حقيقية لإنتاج رسالة إعلامية مبتكرة ومتجددة. إن وسائل إعلامنا الجماهيري يمكن أن تكون واسطة جماهيرنا لبحور معلومات الإنترنت، ووسيلة فعالة لمحو الأمية المعلوماتية.

(ب) **الحاجة إلى ثقافة علمية ـ تكنولوجية مغايرة:** ساد على برامج الثقافة العلمية ـ التكنولوجية لدينا طابع استعراض آخر الاكتشافات والإنجازات، دون إبراز النواحي التطبيقية لتوظيف هذه الاكتشافات وتلك الإنجازات، إن إثارة الانبهار بالعلم وإنجازاته لدى المشاهد العربي سلاح ذو حدين. فمن جانب يعمق لديه نزعة تبجيل العلم واحترام الفكر، ومن جانب آخر يولد لديه الشعور بصعوبة لحاقنا به، أو بانقطاع صلته بواقعنا. نحن في حاجة إلى برامج ثقافية ـ علمية تخاطب مجتمعاتنا، في الوقت نفسه الذي تخاطب فيه مستويات العقول المختلفة، وعلى معدي هذه البرامج إدراك الفرق الكبير بين «التبسيط العلمي» و«التثقيف العلمي». فالتبسيط ما هو إلا عنصر واحد في عملية التثقيف التي تشمل إلى جانبه:

- ربط العلم بحياة الفرد والمجتمع.
- إبراز كيفية مساهمة العلم في حل المشكلات القائمة.

- إلقاء الضوء على تجارب العلماء والخبراء العرب في المجالات العلمية والتكنولوجية.

- التصدي لمظاهر اللاعلمية وأدعياء العلم وأشباه العلميين.

- إبراز الجوانب السلبية في المجتمع وحياة الأفراد، نتيجة لعدم اتباع أساليب العلم ومناهجه.

- طرح الآثار الاجتماعية للعلم والتكنولوجيا مثل تلك المتعلقة بعلاقة السلطة الحاكمة بالمواطنين وقضايا الديموقراطية والبيروقراطية، والعمالة الإنتاجية، وصراع الأجيال، وما شابه.

7: 4: 5 انعكاسات الإنترنت على المتلقي (الطرح العام)

(أ) **نحو مزيد من المشاركة**: لقد جعلت الإذاعة من مستعملها طفلا يوجهه والده الحاكم، وجعل منه التليفزيون معجبا مفتونا بنجمه اللامع. أما الإنترنت وتجارتها الإلكترونية، ففي طريقها إلى تحويله إلى مستهلك. وما دام الإعلام على وشك أن يصبح سلعة وخدمة مدفوعتي الثمن، فلا بد أن يحظى هذا المتلقي المستهلك، بقدر من إيجابية التفاعل. كي يمكنه اتخاذ قراره، لاقتناء السلع والخدمات. إن إنسان العصر يقضي أمام التليفزيون وقتا أطول من ذلك الذي يمضيه في رحاب المدرسة. وعليه، أصبح لزاما علينا دراسة العلاقة بين المتلقي وجهاز إرساله، وتأثيره في سلوكه، وقدراته الذهنية، ونظرته إلى ذاته وإلى الآخرين، وكذلك دراسة الكيفية التي تستوعب بها طبقات المجتمع المختلفة الرسالة الإعلامية نفسها، ولقد كانت مدرسة برمنجهام سباقة في دراسة أثر الميديا في الجماهير، في إطار اهتمامها بدراسة الثقافة في السياق الاجتماعي. من وجهة نظر أخرى فإن وسائل الإعلام الجماهيري، على اختلاف أنواعها، تهوى الإنسان المتوسط (282: 59)، مثلها في ذلك مثل نظم تربية الكتل الغفيرة التي تفترض ـ هي الأخرى ـ طالبا متوسطا. وقد آن الأوان لوسائل الإعلام أن تعطي مزيدا من الاهتمام لمتلقيها، في نطاق خيارات أوسع، وتفاعل أكثر، ومعرفة أعمق بميوله وأذواقه، وربما يصل الأمر إلى حد مشاركته في السياسات الإعلامية، وتخطيط البرامج، وما شابه.

(ب) **نحو مزيد من الدعم**: أمام إعصار المعلومات الجارف، ووابل الرسائل

الإعلامية المتدفق، أصبح من واجب المؤسسات الإعلامية، تقديم دعم أكبر لمتلقيها: قارئا ومستمعا ومشاهدا. فعلى سبيل المثال، يجب أن توفر المجلات الثقافية فهارس موضوعية دورية (سنوية في الغالب) لما قامت بنشره، وأن تلخص المقالات في كبسولات bullets. وفيما يخص الإرسال الإذاعي والتليفزيوني، سيزداد الاهتمام بخدمات ما بعد البث، كتوفير نسخ من المواد المقدمة للمشاهد من أجل إضافتها إلى الأرشيف الخاص، وكذلك إبلاغه بمواقع الإنترنت ذات الصلة بمجالات اهتمامه.

(ج) **نحو مزيد من الحماية:** لقد فشلت المحاولات السابقة لممارسة حق المستقبل في رفض ما يلقيه عليه المرسل، واعتبرها الأمريكيون انتهاكا صارخا لحقوقهم الدستورية، فيما يخص حرية التعبير. لكن الأمريكيين أنفسهم هم الذين أبدوا انزعاجا شديدا لتعرض أطفالهم لمظاهر العنف الترفيهي، في برامج التليفزيون وأفلام السينما، ومواقع الإنترنت المنتشرة التي تعرض مناظر الجنس الفاضح. وكان لا بد من البحث عن وسائل تكنولوجية عملية لحماية الصغار باحتجاز الرسائل الإعلامية غير المرغوب فيها، مع عدم الوقوع في فخ الرقابة على المعلومات. وكان الحل الوسط فيما يعرف بشريحة العنف الترفيهي V-chip التي اخترعها الكنديون (322: 274)، وأقرها من فوره الكونجرس الأمريكي، وتبعه في ذلك البرلمان الأوروبي. توضع هذه الشريحة الإلكترونية داخل التليفزيون، أو في صندوق إلكتروني متصل به، وتقرأ هذه الشريحة كود التحذير الذي يحدد درجة العنف ومدى الإباحية وما شابه. والذي ألزم القانون ضرورة وضعه على كل الأفلام والمواد التليفزيونية والمعلومات التي يتم تبادلها عبر الإنترنت وأجهزة الإعلام.

انعكاسات الإنترنت على المتلقي (المنظور العربي)

(أ) **نحو مزيد من المشاركة:** لم تعترف معظم البلدان العربية بعد بحق الاتصال اعترافا كاملا (55: 35)، كنتيجة طبيعية لنمط الإعلام السائد، وضعف نزعة المشاركة، فسوف نحتاج إلى وقت طويل لإعادة «برمجة reprogramming» المتلقي العربي، لتخليصه من عادات التلقي السلبي المزمنة الغائرة. ولا شك في أنها مهمة صعبة يجب أن يشارك فيها علماء النفس،

وأهل الإعلام وأهل التربية ودعاة المساجد والكنائس. إن انحسار سلطة الدولة نتيجة للعولمة يلقي مزيدا من المسؤوليات على عاتق الفرد. من جانب آخر، يجب أن نولي اهتماما أكبر باستطلاعات آراء الجمهور، وبالدراسات النفسية والاجتماعية، حول الكيفية التي يستوعب بها المتلقي العربي رسالته الإعلامية.

(ب) **نحو مزيد من الحماية:** تحتاج حماية المتلقي العربي إلى تنسيق ما بين السلطة التشريعية والمؤسسات الإعلامية والمنظمات غير الحكومية والجمهور، وذلك حتى لا ينتهي الأمر ـ كعادتنا ـ إلى فرض مزيد من الرقابة. فلن يمكن لنا اتقاء شرور التكنولوجيا إلا من خلال استخدام الوسائل التكنولوجية، وتوعية شبابنا لمواجهة مخاطر عولمة الإعلام.

إن ميثاق حقوق الطفل العربي لا بد أن يشمل بنودا خاصة لحمايته ضد العنف الترفيهي، ويمكن الاستفادة في ذلك، من موارد غرفة المقاصة، التي أقامتها اليونسكو لتبادل المعلومات المتعلقة بهذه الظاهرة الإعلامية.

الحواشي

(*) هناك 63 قناة فضائية عربية إلى جانب 65 قناة دولية (260).

(*2) على صيغة مقولة ألبرتو مورافيا: تحت الحب، ترقد الكراهية في انتظار.

(*3) من السهل ملاحظة كيف أصبح اسلوب نشرات أخبار سي. إن.إن نمطا قياسيا، بحكم الأمر الواقع، في معظم قنواتنا التليفزيونية.

(*4) وقد تسللت العامية ـ بالفعل ـ إلى إعلانات بعض الصحف المصرية.

(*5) هذا المثال ذكرته الروائية «سلوى بكر» ضمن مداخلتها، في ندوة عن «تطور تعليم اللغة العربية»، عقدت بكلية التربية ـ جامعة عين شمس.

(*6) يمتلك الفاتيكان 6 موجات قصيرة بثلاثين لغة عالمية تعمل ضمن 40 محطة إذاعية تبشيرية تبث أكثر من ألف ساعة أسبوعيا (142: 64).

(*7) مصدرنا هو الإعلامي العربي القدير سعد لبيب.

8 منظومة القيم والمعتقدات: منظور عربي معلوماتي

8 : 1 حوار الدين مع العلم والتكنولوجيا

8 : 1 : 1 عن هذا الفردوس المفقود (الطرح العام)

ما أشد ثقة العلم بنفسه، وقد ازداد غرورا وصلفا بعد ما سجله من انتصارات، على العديد من الجبهات، فراح يزهو بقدراته، وهو يكشف لنا كل يوم عن المزيد منها، نراه يسحق المكان ويفتت الزمن، ويخترق فضاء المجرات الكونية، ويميط اللثام عما يكمن داخل نواة الذرة والخلية، ويغوص منقبا عن دخائل النفس البشرية، وعن خفايا البنى الاجتماعية والرمزية. وتسرع التكنولوجيا خطاها تلهث وراء العلم، تجسد أفكاره، وتطبق نتائج اكتشافاته، إلى أن أصبح هو الذي يلهث وراءها. نراها تضيف كل يوم جديدا إلى رصيد إنجازاتها، تضيق المسافة بين الفيزيائي والبيولوجي، وبين المادي واللامادي، وبين الواقعي والخيالي، حتى أصبح للخيال، بفضل تكنولوجيا المعلومات، هندسته وعوالمه الرمزية وكائناته الرقمية.

(أ) **المعلومات وتكنولوجيتها النظيفة:** لقد

- حوار الدين مع العلم والتكنولوجيا
- علاقة الدين بمنظومة الثقافة
- منظومة المعتقدات والقيم

أسرف التكنوقراط، وهذا عهدنا بهم دوما، يعدوننا بفردوس أرضي، تقدم بلا حدود، ونبع لا ينضب من بدائل الحلول، ومصادر طاقة متجددة، ومواد جديدة تعوض ما أهدرناه من مواد طبيعية، ووسائل عدة توفر الراحة والرفاهية، والغذاء والكساء والمسكن، وتعلم الصغار وتؤهل الكبار، وتشفي العلل وتطيل الأعمار. أما عن آثار التكنولوجيا السلبية وخرائبها البيئية ومآسيها الاجتماعية وأضرارها النفسية، فيوصي هؤلاء التكنوقراط بأن يهدأ الجميع بالا، فحل مشاكل التكنولوجيا هو مزيد من التكنولوجيا. وإن كنا قد عانينا من تكنولوجيا الصناعة، فلا لسبب إلا لكونها تكنولوجيا بدائية طابعها العنف، وهو ما أدى بها إلى استغلال العمال والاستعانة بعمالة الأطفال، والإفراط في استهلاك الطاقة والمواد الخام. وشتان الفرق بين هذه التكنولوجيا الصناعية الفجة وتكنولوجيا المعلومات النظيفة الأليفة الرقيقة الحانية التي لا حاجة بها إلى العنف (211: 152)، فهي تكنولوجيا رهيفة، في مثل رهافة مادتها الخام المتسامية، من البيانات والمعلومات والمعارف، وهي تكنولوجيات ذكية في مثل ذكاء برمجياتها، تتجاوب مع مستخدمها، وتتكيف مع مجتمعها، وتود البيئة، بل تصلح أيضا من حالها، التي أفسدها ما سبقها من تكنولوجيا. لقد نسي ـ أو تناسى ـ أصحاب هذه الوعود المسرفة أن الآثار السلبية لتكنولوجيا الصناعة، لم تظهر إلا بعد خمسين عاما من انتشارها، وكما كان لتكنولوجيا الصناعة عنفها واستغلالها وصراعاتها، فإن تكنولوجيا المعلومات ستستحدث لنفسها صيغا مناظرة لهذه القائمة السلبية، فها نحن نسمع عن عنف ترفيهي واستغلال رمزي، وطبقية معرفية، واستعمار خائلي لعالم الفضاء الرمزي، وحرب كونية وشيكة ينذر بها البعض، تنشب هذه المرة بسبب التصارع على موارد المعلومات لا المواد الخام.

(ب) **نجاح تكنولوجي وخواء روحي:** لقد بدا لنا الكون وكأنه خاضع لفكرنا، تقوده إرادتنا لغايات محددة، واسترخينا تحت وهم يصور لنا العلم والتكنولوجيا قوة طوع أيدينا وتحت سيطرتنا، وياله من وهم ساذج، فليس لنا اليوم حياة مستقلة بمنأى عن سيطرة هذه التكنولوجيا الآسرة. وربما يكون العكس أقرب إلى الصواب، فقد أوشكت التكنولوجيا، في غمرة نجاحها، أن تستقل بذاتها، تفرض علينا منطقها وقيودها. لقد قامت حياتنا المادية

على تكنولوجيا غاية في النجاح، في حين تئن حياتنا الروحية تحت وطأة الخواء، فقد ألهتنا هذه التكنولوجيا بقدرتها الفائقة على إحداث التغيير، فنسينا ما بقي ـ وسيبقى دوما ـ ثابتا بداخلنا دون تغيير (202: 161)، لقد نسينا مطالبنا الوجدانية، وحاجتنا الدائمة إلى المثل العليا وإلى الألفة والتآخي والإحساس بالذات وبالهوية. ومع المد العلمي والتكنولوجي، انحسر الخطاب الديني، ومضى غلاة العقلانيين في غيهم وفي أحادية نظرتهم، يعلنون أن الدين ظاهرة لاعقلانية، مآلها إلى الاندثار حتما في مجتمع انتصار العقل والحسم العلمي، فالإنسان ـ كما يقول أحد أدعيائهم ـ مخلوق له هذا القدر من حرية التصرف، الذي يمكنه ـ في أي مرحلة من مراحل تطوره ـ أن يصنع آلهته كما يحلو له، فالحضارة التي صنعت الأقمار الصناعية والمركبات الفضائية والعقول الإلكترونية ليست في حاجة إلى آلهة...! لقد فات عبدة التكنولوجيا هؤلاء، أن كل ما صنعوه من أيديولوجيات، فشل في حسم تناقضات عالمهم، وفي تلبية الحد الأدنى من مطالبه الاجتماعية والنفسية. لقد أثبت أهل الإنثروبولوجيا وعلم الاجتماع ما للدين من أهمية في منظومة المجتمع (198:294)، فهو ـ أي الدين ـ ليس مجرد ظاهرة نفسية ـ كما أكد لنا دور كايم ـ بل هو أحد الثوابت الاجتماعية التي لم تضمحل مع التقدم العلمي.

وتأتينا تكنولوجيا المعلومات، وعولمتها، لتنذرنا بعالم جديد مليء بالاحتمالات وعدم اليقين، وكأننا مساقون إلى مصير لا ندري عنه شيئا، فنحن نعيش عالما تاهت فيه ـ من فرط تعقده ـ المعالم الفاصلة بين النظام والفوضى، وبين الخاص والعام، وبين الذاتي والموضوعي، وبين الحياة في عالم الواقع، وسكنى الفضاء الرمزي.

(ج) **كلفة باهظة:** لقد ارتكبت حضارة العصر تلك الخطايا التي حذرنا منها المهاتما غاندي: سياسة بلا مبادئ ، وتجارة بلا أخلاق، وثروة بلا عمل، وتعليم بلاتربية، وعلم بلا ضمير، وعبادة بلا تضحية، وها نحن نطأ الألفية الثالثة، وخمس بالغينا من الأميين، ونصف صغارنا محرومون من المدارس، وأربعة أخماس عمالتنا مهددة بالبطالة، ولم تعد تنطلي على أحد تلك الوعود المسرفة، والتي لا هدف من ورائها، إلا أن يتحمل البؤساء والضعفاء مزيدا من البؤس والقهر انتظارا لغد ذهبي قادم لا محالة، ما إن

تتحقق الفروض، وتستتب الأمور تحت سلطة قوانين السوق. ولم يعد مقبولا أن تُقوم رأسمالية عصرنا بدلالة أرقام حساباتها دون غيرها، كما واظب على القول ماكس فيبر، ولم يعد هنالك من هو مستعد لدفع الكلفة الباهظة الناجمة عن المخاطر المتعددة من جراء التطبيق الأعمى لتكنولوجيات جسورة مجازفة غير مأمونة العواقب.

لقد بات لزاما على العلماء أن ينزلوا من أبراجهم العاجية، وألا يقصروا همهم على النشر العلمي، والحضور المكثف على الإنترنت، وأن يعيشوا خارج أسوار معاملهم، ليواجهوا مسؤولياتهم نحو ما يمكن أن يؤدي إليه الاستغلال غير الأخلاقي لنتاج فكرهم، هذا الفكر الذي أضحى سلعة تباع وتشترى في عصر المعلومات. إن الجميع ينظر بعين ملؤها الريبة إلى ما تدعيه التكنولوجيا من نجاح. لقد صرنا نرهب النجاح بقدر ما نخشى الفشل، وتنامى لدينا الشعور بعجز عقولنا عن إنقاذنا مما صنعته أيدينا (72:247)، لا نستطيع فكاكا من قبضة التكنولوجيا، التي توهمنا أنها تحت سيطرتنا، وقد انطلقت من قمقمها تدفع بنا نحو مصير مجهول، إنها تكنولوجيا مصابة بداء الحصاد ـ كما وصفها هيدجر ـ حصاد الطبيعة وحصاد الأجساد وحصاد العقول. لقد حق لنا ـ إزاء كل هذا ـ أن نسأل ونتساءل: هل ينذر عصر المعلومات بطوبائية رأسمالية سوداء، أم يبشر بعالم يعاد بناؤه من جديد، على أسس أخلاقية مغايرة، ترفض الوضعية العلمية وصلفها الفكري، وترفض البراجماتية ونفعيتها القصيرة النظر، وترفض ذاتية ما بعد الحداثة وقد اقتربت ـ في رأي البعض ـ من حد الفوضى التي يمكن أن تودي بنا، وبحضارتنا، إلى موارد الهلاك؟ (294: 198) وبصورة أكثر تحديدا، هل يمكن لتكنولوجيا المعلومات أن تحقق نوعا من الوئام بين ثلاثية الهداية والنظرة الشاملة والعقل، ثلاثية «الدين والفلسفة والعلم» كي نقيم على أساسها واقعية أكثر توازنا، تبحث عن الحق دون أن تضحي بالخير، وتتمسك بالخير دون إغفال الجمال (5:244).

(د) **الطلب المتزايد على القيم الأخلاقية:** دار الصراع بين الدين وفكر عصر التنوير، الذي أخرج أوروبا من ظلمة العصور الوسطى، على جبهة المعتقدات، فيما يخص نشأة الكون وخلق الإنسان بصفة أساسية. وعلى ما يبدو، فالمواجهة بين الدين وفكر عصر المعلومات ستدور رحاها، على جبهة

القيم والأخلاق، بصفة أساسية. لقد أدركنا أخيرا أن التكنولوجيا، سواء قامت على البحوث العلمية الجديدة أم على غيرها، ستظل فرعا من فلسفة الأخلاق، لا من العلم كما يقول بول جودمان. وأوضح دليل على صحة هذا القول، هو ما فجرته تكنولوجيا المعلومات، متضافرة مع الهندسة الوراثية، من قضايا أخلاقية عدة، بعد أن اقتربت التكنولوجيا من تلك المناطق الحميمة في عقل الإنسان وأنسجته وخلاياه. وهكذا أورقت شجرة الأخلاق فروعا أخلاقية جديدة: من أخلاق البيئة، وأخلاق البيولوجي، وأخلاق المعلومات، وأخلاق الإنترنت، وباتت معظم القيم السائدة في حاجة إلى مضامين جديدة، منها على سبيل المثال: قيم الحرية والمساواة والعدالة، بل الأمن والأمان والثقة في الغير والتسامح مع الآخرين.

ووسط هذا الكم الهائل من الأسئلة التي يتصدى العلم للإجابة عنها، تطل علينا ـ من جديد ـ أسئلة البدايات والنهايات: كيف تبدأ الأشياء، وإلى أي مآل تؤوب؟ ويحلو لأهل المعلومات والمناطقة القول إنها تؤول - في نهاية الأمر - إلى ثنائية الصواب والخطأ، وثنائية الصفر والواحد. ولو قبلنا جدلا بهذا، يبقى السؤال: من زرع هذه الثنائية أصلا في عقل الإنسان وجدلها في شبكة المخ العصبية، وصهرها في كيان بناه الاجتماعية؟ لقد حان لنا أن نستعيد كلمات سقراط، وهو يهم بارتشاف جرعة السم القاتلة. إذ يقر حكيمنا وهو في لحظة نهايته متمتما: لست مقتنعا بعد ذلك بأنني أفهم لماذا يتولد الواحد، أو أي شيء آخر؟ ولماذا يزول، بل لماذا يكون إطلاقا؟

إن تكنولوجيا المعلومات تستحث الفكر الإنساني، على إعادة طرح الأسئلة المرجأة والمستحيلة، ويزعم أهلها أنها ـ أي تكنولوجيا المعلومات ـ ستوفر وسائل عدة تتيح فرصا أكثر للإجابة عن هذه الأسئلة، أو على الأقل لإعادة طرحها بصورة أدق. إن البشرية باتت في حاجة إلى هداية جديدة، وربما يفسر ذلك تيار الصحوة الدينية، الذي يشهده العالم حاليا: صحوة إسلامية على مدى العالمين العربي والإسلامي، وصحوة مسيحية في جنوب شرق آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، وصحوة الهندوس وصحوة يهود إسرائيل (72: 247).

خلاصة المقال: مل العالم حديث الطوبائيات التكنولوجية والأيديولوجية وانتظار سوبرمان نيتشه، الذي يجمع بين المعرفة والقدرة على الفعل، كي

يعيد إلى العالم توازنه، وإلى الإنسان إرادته وحيويته. ولن تسلس لنا الحياة في عصر المعلومات، الحافل بالاحتمالات والتناقضات، دون هذا الزاد الروحي من المثل والقيم.

عن هذا الفردوس المفقود (المنظور العربي)

(أ) **انعكاسات وردود أفعال**: لابد وأن يختلف موقفنا من علاقة الدين بالعلم والتكنولوجيا عن موقف الغرب منها، لأسباب عدة من أهمها:

- عدم حسم كثير من الأسئلةالمتعلقة بعلاقة الدين الإسلامي بالحداثة، فكما يقول برهان غليون: إن الإصلاح الديني، في أواخر القرن التاسع عشر، قد حصر المشكلة في إزالة الفوارق والاختلاف، بين مثال الإسلام والحداثة بصورة شكلية وسطحية، دون مواجهة المشاكل الكبرى والأساسية، ألا وهي السيطرة العقلية العميقة على آلات الحداثة [126].

- لا يمثل العلم والتكنولوجيا في العالم العربي ـ حاليا ـ الثقل اللازم كي يكون طرفا متكافئا في المعادلة الدينية ـ العلمية

- بينما يبحث الغرب عن قيم جديدة يواجه بها عصر المعلومات، نجد أن شاغلنا الأساسي، هو كيفية الدفاع عن قيمنا ضد الخطر الوافد إليها من الغرب.

وبغض النظر عما ذكر من أسباب، فستكون لأزمة القيم الراهنة في الغرب، وليدة المتغير المعلوماتي، انعكاساتها على المجتمعات العربية، سواء بحكم التبعية العلمية والتكنولوجية، أو تحت نير الضغوط السياسية والاقتصادية والثقافية.

(ب) **بديل الإسلام**: هناك من يرى أن الإسلام بمبادئه وشرائعه يمثل بديلا لعلاج أزمة القيم في عصرنا، ليس في مجتمعاتنا نحن فقط، بل في مجتمعات الغرب أيضا. وقد تتبع حسن حنفي الجوانب المختلفة لهذه الأزمة في ديارنا وديار الغرب، وأوضح كيفية استجابة الإسلام لكل منها (366:243). ولا جدال في أن الإسلام يمثل منهلا خصبا لإحياء قيم عصرنا، إلا أن ذلك يحتاج إلى جهود بحثية مستفيضة تتجاوز حدود اقتراح حلول المشاكل بالإحالة إلى النصوص وعظات التاريخ، ولن يتسنى لنا ذلك إلا من خلال معرفة علمية دقيقة بمشاكل التنمية المعلوماتية، والقضايا الأخلاقية المتعددة

التي يطرحها المتغير المعلوماتي وتوأمه البيولوجي، وكلاهما يحتاج منا إلى خلفية علمية وتكنولوجية دقيقة، لكي نتفهم إشكالياته، وتتضح لنا مداخل حلولها.

(ج) **حاجتنا إلى باحثين دينيين جدد:** تندر لدينا البحوث التي تتناول علاقة الدين بالعلم والتكنولوجيا، ومعظم هذا النادر، يقوم به باحثون من أهل العلم، لا من أهل الدين. ولا يشارك رجل الدين في العلم، إلا عندما يُستفتى في أمر من أموره، وعادة ما يحيلها رجل الدين - بدوره - إلى أهل الاختصاص. ومهما زادت فاعلية الحوار بين رجل الدين ومستشاريه العلميين، سيظل دون درجة الاستيعاب الكافية التي تمكنه من إصدار فتواه بقدر من الطمأنينة الواجبة. إننا في أمس الحاجة إلى إعداد نوعية جديدة من الباحثين الدينيين على طراز عصر المعلومات، قادرين على الجمع بين علوم الدين وعلوم الدنيا. ولاشك في أن جامعاتنا الدينية، وعلى رأسها جامعة الأزهر، أقدر من غيرها على إعداد هؤلاء الباحثين الجدد، شريطة أن تجمع كليات جامعة الأزهر بين الدراسات الدينية والعلمية بصورة فعلية، لا بصورة شكلية كما هو حادث الآن. وليس ثمة غضاضة في أن تستهدي جامعة الأزهر، اختصارا للوقت والجهد، بما قامت به الأكاديميات اللاهوتية في الغرب فيما يخص التجديد الشامل لمناهجها الدراسية، كي تتفق ومطالب عصر المعلومات وعولمته، وتشمل هذه المناهج ضمن ما تشمل: الفلسفة الحديثة وعلوم الاجتماع والاقتصاد والبيولوجيا الجزيئية والمعلومات والإعلام.

8 : 1 : 2 العولمة وخلقها العالمي (الطرح العام)

(أ) **حلم التوحد على الرغم من التنوع:** العالم إما كل واحد وإما لا شيء، هذه مقولة لألبرت آينشتين. ربما ألهمه إياها حلمه بنظرية عامة جامعة عن المجال الموحد. وعلى ما يبدو فإن العولمة قد آمنت بمقولة آينشتين هذه، فهي تنظر إلى شعوب العالم من منظور وحدة الجنس البشري بصورة تتجاوز «النسبية» الثقافية، سواء العقائدية أو القيمية أو اللغوية (73:247). بناء على ذلك، كان على العولمة، لكي تحقق حلم التوحد الإنساني هذا، أن تسعى إلى إقامة نوع من الخلق العالمي، أو أخلاقيات الحد الأدنى

التي تشترك فيها ثقافات العالم أجمع. وهم لا يرون في ذلك الخلق العالمي تناقضا مع الخصوصية الثقافية والهوية الحضارية لشعوب العالم . سندهم في ذلك. أن هذا الخلق العالمي يقوم على مبادئ إنسانية عامة. وهذا شأنها، لايجوز أن يترك أمر هذه المبادئ رهنا بالنسبية الثقافية، بل يجب فرضها من خلال المنظمات الدولية، ومواثيق حقوق الإنسان العالمية. والأول معقود على تكنولوجيا المعلومات، كي توفر الوسائل العملية لحوار مثمر بين ثقافات العالم، وذلك بهدف تقريب وجهات النظر، بغية تحديد مضمون هذا الميثاق الأخلاقي العالمي الجديد، ميثاق عصر ثقافة المعلومات، الذي سيحقق ـ في رأيهم ـ السلام والسعادة للجميع، ويؤلف بين قلوب البشر على اختلاف أجناسهم وثقافاتهم.

(ب) استحالة تحقيق الحلم: علل آينشتين عجزه عن تحقيق حلمه في نظرية عامة للمجال الموحد، بقصور الرياضيات عن أن تمده بالدعم النظري اللازم. أما منظرو ما بعد الحداثة، فيرجعون استحالة تحقيق حلم الخلق العالمي بقصور متأصل في النفس البشرية ذاتها، فقد جبلت هذه النفس ـ كما يزعمون ـ على العنف، وسيبقى الصراع ما بقي المجتمع البشري، ولا أمل في التخلص من التعصب الديني، والتحامل الفكري والعنصري. وتستنكر ما بعد الحداثة على العولمة حديثها عن سلام عالمي، وهي ـ أي العولمة ـ وليدة رأسمالية قامت ـ أصلا ـ على الاستغلال، وتدمير البيئة، وعدم العدالة في توزيع الموارد، سواء الموارد الطبيعية أو المادية، أو المعلوماتية. وما هذا الخلق العالمي الذي يتحدثون عنه ـ في رأي هؤلاء ـ إلا ستار يخفون وراءه مطامعهم، ونيتهم في استغلال تكنولوجيا المعلومات، بهدف مساندة ممارسات قوى العولمة ورأسماليتها الجديدة. لقد أفرزت العولمة عالما وصل فيه الاغتراب عن القيم السماوية، وعن الجار وعن الذات، إلى حد لا يمكن التغطية عليه باستهلاك الأيديولوجيا وكما أظهرت العولمة الحاجة إلى توحد القيم والأخلاق، فقد أوصل النظر في واقع النظام العالمي وأصوله ورؤى مستقبله ـ كما يقول صدقي الدجاني ـ إلى الشك في قدرته على أن يثمر تعاونا دوليا لحل مشاكل عالمنا (57:32). إن كل ما تستطيع أن تفعله هذه العولمة ـ في رأي البعض ـ هو نوع من التجنيس الثقافي، تتحول فيه ثقافات الشعوب إلى مهرجانات وطنية، وعقائدها إلى

مجرد طقوس، ومآثر تراثها إلى وثائق الأرشيف ومقتنيات المتاحف.

العولمة وخلقها العالمي (المنظور العربي)

(أ) **الخطر الأخضر**: شاع في الخطاب التاريخي للصراع الإنساني، استخدام استعارة الألوان، فكان هناك الجيش الأحمر، والألوية الحمراء، والسلاح الأبيض، والمارد الأصفر، والفهود السود، وأيلول الأسود، وأصحاب القمصان السوداء والبنية. ويأتي عصر المعلومات ليضيف لمسته اللونية، جاعلا من الشاشة الزرقاء أو الفضية سلاحا، ومن «شفافية» مجال الأثير ساحة للنزال. وأخيرا، وجد اللون الأخضر، رمز السلام والنماء، طريقه هو الآخر إلى قاموس الصراع العالمي، بعد أن أصبح الإسلام هو الخطر الأخضر، حيث يصوره الإعلام الغربي عائقا أمام مسيرة العولمة، وتهديدا لسلام العالم، يمتد على طول رقعة جغرافية واسعة من الفليبين وإندونيسيا شرقا، إلى شاطئ الأطلنطي غربا، ومن أواسط أسيا شمالا، إلى جنوب الصحراء الكبرى. والخطر الأخضر ـ كما يقول فرانسوا بورجا ـ (101:75) هو مفهوم غامض وأقرب إلى الخرافة، ويراه إدوارد سعيد نوعا من الحرب الباردة ضد الإسلام (74:59)، عداء من جانب واحد، يبديه الغرب ضد الإسلام، بفضل عوامل عدة، اختلطت فيها الأسباب التاريخية مع الدوافع السياسية والاقتصادية والأمنية، وعلى الرغم من خرافته وعدائيته الظاهرتين، إلا أنه لم يحرم من مساندة قوية من قبل الخطاب الأكاديمي الغربي، الذي سعى إلى تأصيله علميا. إنه - بحق - استشراق عصر العولمة، دليل صارخ على قدرة القوى السياسية والاقتصادية والعسكرية على توليد خطاب معرفي ذي قناع علمي زائف، من أجل خدمة مصالحها، وإضفاء المشروعية على ممارساتها وتوجهاتها. هذا عن موقف غيرنا، أما تفسير كثير من أصحاب الرؤية الدينية لدينا لما يسمى بالخطر الأخضر، فمرجعه - كما يقول محمد إبراهيم مبروك - إلى أن الإسلام سيظل الأيديولوجية الوحيدة القادرة على استنهاض شعوب العالم الفقيرة والمستضعفة، وإنقاذها من مظالم العولمة (136:111).

(ب) **ردود الأفعال الإسلامية تجاه العولمة**: تعددت مواقف الفكر الإسلامي من ظاهرة العولمة، وقد رأينا أن نلخصها في عدد من التصنيفات التالية:

- **خطاب الرفض التام:** على أساس أن العولمة ـ في نظرهم ـ ماهي إلا صورة متقدمة من العلمانية، حيث اتحدت القوى العلمانية، في الداخل والخارج، في أشكال عدة آخرها «نظرية العولمة» (104: 95)، وهي تسعى إلى تدمير البشرية بسلاح العلم وتوظيفه في خدمة الشيطان (25: 49)، والعالم الإسلامي في غنى عن العولمة، فهو يقوى بداخله وليس مطالبا أن يلحق بخارجه (1: 323)، وسيظل الشرق شرقا والغرب غربا.

- **خطاب رد الفعل:** هناك من يعتبر المد الإسلامي رد فعل للعولمة، هو يوشك أن يكون برنامجا ناجحا لحركة إسلامية في المجالين السياسي والاجتماعي. ويمكن النظر إلى الاسلام كمذهب في العولمة، يجوز مقارنته بالنظريات الأخرى (104: 91). على الجانب الآخر، يرى برهان غليون أن الإسلام السياسي هو الابن الشرعي للحداثة الرديئة والمجهضة [127].

- **خطاب عالمية الإسلام:** يرى الإسلام دينا عالميا، والإسلام هو الحل، ليس بالنسبة إلينا فقط، بل بالنسبة إلى المجتمع الإنساني بصفة عامة، ولا ينقصنا إلا وضع المنظومة الحضارية الإسلامية التي لا تجمع العرب والمسلمين فقط، بل تجمع المستضعفين في العالم أجمع (16: 169). وفي رأي أصحاب هذا الخطاب أنه ليس باستطاعة الكونفوشيوسية، من خلال منهجها الإصلاحي الطوبائي الموجه إلى الفرد، ولا البوذية القائمة على القمع الدائم للذات، تقديم حل يقرب من ذلك الذي يقدمه الإسلام (136: 110)، ويؤكد حسن الترابي أن المسلمين لن يتخلوا أبدا عن مطالبهم بضرورة قيام نظام دولي عادل، ويعتقد أن دورهم فيه سيكون دورا تصحيحيا لما يشكو منه النظام الحالي من قلة توازن (19: 54).

- **خطاب: «فلنأخذ منها بحذر»:** فهناك فصيل من الإسلاميين يرى في العولمة خيرا لأمة المسلمين، فعلى الرغم من أن فكرة العولمة يراد بها باطل، إلا أن ما ستؤدي إليه من خلخلة في فكرة الدولة قد يكون مفيدا لمصلحة أمتينا العربية والإسلامية، فهي فكرة ـ في رأيهم ـ زرعها الاستعمار من أجل تقسيم العالمين العربي والإسلامي (15: 58).

- **خطاب تهدئة البال:** في رأي الجابري، أن العولمة لا تمثل خطرا على مستقبل الثقافة الإسلامية، وذلك لأن الثقافة لا تصنع مصيرها بنفسها، بل بأهلها (25: 40)، والإسلام لم يسبق له أن انهزم أمام روم أو فرس أو

صليبيين.

وعلى سبيل المقارنة، وبقصد الإيجاز، يمكن توصيف مواقف الديانات السماوية الثلاث من النظام العالمي الحالي في: عولمة المسيحية، وعالمية الإسلام، وقومية اليهودية، ويقصد بذلك:

- **عولمة المسيحية:** تؤمن الكنيسة المسيحية بضرورة العولمة، وهي تحاول، من أجل ذلك، التخلص من نظرة الكنيسة الغربية إلى نفسها على أنها المحافظة على الثقافة الغربية، وهو ما يعوق انفتاحها على الثقافات الأخرى (14:241). تحقيقا لهذا الهدف، تقوم الكنيسة المسيحية بعملية تحديث شاملة تنظيميا وتبشيريا وأكاديميا من حيث الدراسات اللاهوتية، ويمكننا القول: إن الكنيسة المسيحية تجمع بين عولمة الهدف، وعالمية التنظيم والتنفيذ.

- **عالمية الإسلام:** وتنطلق ـ أساسا ـ من عالمية الرسالة، ولكنها تفتقد عمليا ما يثبت أقدام هذه العالمية على أرض الواقع. وفي مقدمة ذلك، عالمية التنظيم الذي يساند هذه الدعوة، والقدرة على إقامة حوار هادف مع الفكر العالمي الديني والثقافي، وخاصة الفكر الغربي.

- **قومية اليهودية:** على الرغم من التعارض الجوهري بين العولمة والقومية اليهودية (شعب الله المختار...!)، إلا أن الفكر اليهودي لا يمكن أن يفوت فرصة العولمة من أجل إثبات تميزه وخدمة مصالحه. وهم يعتقدون أنهم مؤهلون أكثر من غيرهم، لخوض معركة العولمة، وذلك بفضل ما اكتسبوه، في زمن شتاتهم، من معارف وخبرات على مستوى العالم. وتمثل المراحل اليهودية المنتشرة جغرافيا، ومواقعها المتعددة على الإنترنت، البنية التحتية للنشاط اليهودي على ساحة العولمة.

8 : 1 : 3 علاقة الدين بتكنولوجيا المعلومات (الطرح العام)

مازال تصور الكثيرين عن علاقة الدين بتكنولوجيا المعلومات، محصورا في الأمور الخاصة بالنشر الإلكتروني الديني، ونشر الدعوة عن طريق وسائل الإعلام، وأثر وسائل الإعلام الجماهيري والإنترنت في نظام القيم. بقول آخر، تنحصر النظرة إلى العلاقة الدينية ـ المعلوماتية في إطار ثنائية تكنولوجيا المعلومات كأداة للدين، وتكنولوجيا المعلومات كقضية

أخلاقية، ولاشك في أن علاقة الدين بتكنولوجيا المعلومات تتجاوز هذه الثنائية، حيث أصبحت هذه التكنولوجيا تمس قضايا جوهرية في صلب الظاهرة الدينية ومنظومة القيم، وسنحاول فيما يلي استعراض بعض مواضع التقاء تكنولوجيا المعلومات مع منظومة المعتقدات والقيم.

(أ) **لقاء على جبهة الرمز:** تكمن العلاقة الوثيقة بين الدين وتكنولوجيا المعلومات في صلة كل منهما بالرمز، ومن الجلي أن تكنولوجيا المعلومات، تقع ـ برمتها ـ في مجال التعامل مع الرمز. أما صلة الدين بالرمز، فتتضح لنا إذا ما أمعنا النظر إلى التعريفات المختلفة لمفهوم الدين كما يطرحها علم الأنثروبولوجيا بشكل عام، والتي نوردها في القائمة التالية (11:294):

- الدين كنظام للمعتقدات والممارسات السلوكية والأخلاقية.
- الدين كنظام للأفكار والتوجهات.
- الدين كمجموعة من الطقوس والشعائر.
- الدين كمؤسسة اجتماعية ثقافية.
- الدين كمجموعة من التشريعات والسنن.
- الدين هو نسق من الرموز، يرسخ لدى الإنسان حالات وجدانية، ودوافع قوية، وذلك من خلال تشكيل رؤيته الكلية عن الوجود.

وكل من هذه التعريفات، خاصة التعريف الأخير، ذو صلة وطيدة بالرمز. إن علاقة الإنسان برموزه المقدسة هي التي تتسامى به فوق المستوى المادي والبيولوجي، إلى عالم الروحانيات والقيم والمثل العليا. تشير دلائل عدة إلى أن تكنولوجيا المعلومات، سيكون لها دور حاسم في بلورة هذه العلاقة الإنسانية الرمزية. السبب الرئيسي لذلك أن إنسان هذا العصر، مثلما يرى العالم من منظور معتقداته، يراه أيضا ـ بصورة أو بأخرى ـ من خلال تكنولوجيا المعلومات، وذلك بعد أن أصبحت هذه التكنولوجيا هي وسيط الإنسان للتعامل مع حقائق واقعه. علاوة على ذلك، فإن الرموز المقدسة ذات طبيعة مجردة، وكلما ضاقت المسافة بين المحسوس والمجرد، زاد الإنسان قربا من رموزه المقدسة، وزادت قدرته على التسامي، وإقامة الروابط بين شواهد واقعه، وما مضى من دنيا هذا الواقع، أو غاب عنه، ومن هنا تتضح صلة أخرى تربط بين الدين وقيمه الروحية، وبين تكنولوجيا المعلومات، مصدر هذه الصلة أن هذه التكنولوجيا تعمل بلا هوادة على إسقاط الحواجز

الفاصلة بين المادي واللامادي، وعلى شحذ وسائلها لتجسيد المجردات بصورة مرئية ومحسوسة، والتي تجلت بصورة حاسمة في تكنولوجيا الواقع الخائلي، كما سنوضح فيما يلي. من وجهة نظر مضادة، هناك من يقول إن تكنولوجيا المعلومات تضمر نوعا من العداء لكل ماهو سردي، وذلك لما تتسم به موارد هذه التكنولوجيا من تشظ وتشعب، وهو ما يمكن أن يؤدي ـ من وجهة نظر الفكر ما بعد الحداثي ـ إلى انفراط عقد السرديات الكبرى، بما في ذلك النصوص الدينية والصروح العقائدية.

(ب) المغزى الديني لتكنولوجيا الواقع الخائلي: من المتوقع أن تنقل تكنولوجيا الواقع الخائلي العلاقة بين الدين وتكنولوجيا المعلومات، إلى مستويات أكثر عمقا وحساسية وإثارة. إن الواقع الخائلي هو نوع من التسامي الرمزي، يخلصنا من قيود الجسد، لنحلق في الفضاء الرمزي انظر الفقرة 3:4:2 من الفصل الثاني، إنه يذكرنا - كما تراءى للبعض - بسعي أهل العصور الوسطى إلى معرفة ماهية الحياة بعد الموت. ولكن هناك فارقا جوهريا، فبينما كان المسعى في الماضي ذا نظرة أخروية، فإن (ميتافيزيقا) الواقع الخائلي ذات صلة أقرب بعالمنا الدنيوي، فأقصى غاياتها، هو إعادة الوئام، مابين الإنسان والوجود، وما بين قدرة الإنسان الفعلية وطموح إرادته. لقد اختلط الحديث في الخطاب الخائلي بين التكنولوجي والميثولوجي والإبيستمولوجي، مثلما اختلطت فيه حقائق عالم الواقع مع خائليات عوالم الفضاء الرمزي، تلك العوالم التي يقيمون ـ حاليا ـ من أجلها القوانين والمواثيق، علاوة على أصول الإتيكيت الشبكي، ومعايير الأخلاق الرقمية. فهل يمكن لتكنولوجيا المعلومات، أن تنجح فيما فشلت فيه ثلاثية: الفلسفة والعلوم والفنون، عن طريق دمجها لهذه المعارف الثلاث في وحدة رمزية مكثفة ومتسقة، ومن خلال كشفها عن شبكة العلاقات التي تربط بينها.

(ج) الجنس على الإنترنت: انتشر الجنس كالوباء عبر الإنترنت وهو ما يمثل خطورة على جميع الأعمار: فهو يقحم الأطفال في الأمور الجنسية قبل أوان نضجهم، ويستغل في المراهقين غريزة حب الاستطلاع الجنسي لديهم. وهو مايمكن استغلاله تجاريا. وكما يعمل «جنس الإنترنت» على تكبير الصغار، يعمل ـ كذلك ـ على تطفيل الكبار، يوحي لهم باجترار مراهقتهم، ويوقع بهم في فخ النزعات النفسية التعويضية.

هناك مصادر عدة لنشر المعلومات الجنسية الفاضحة عبر الإنترنت، من مواقع المجلات الجنسية، ومواقع التجارة الإلكترونية المتخصصة في توزيع السلع الجنسية، من ملبوسات وعقاقير ووسائل إلكترونية. ووصل الأمر بمواقع التجارة الإلكترونية التي تقوم بتسويق المنتجات والخدمات العادية، إلى تطعيم رسائلها التسويقية بفقرات ذات طابع جنسي بهدف اجتذاب زبائنها، وتتراوح المعلومات الجنسية التي تبث عبر الإنترنت، ما بين الصور العارية، إلى أفلام الجنس الفاضحة إلى أقصى درجات العلن، بل وتغطي كذلك طيف الميول الجنسية على اتساعه من الجنس الطبيعي، إلى أقصى درجات شذوذه. وترد إلينا الأنباء حاليا، عن قيام البعض بتطوير روبوت متخصص في خدمات الجنس الشفاهي عبر الهاتف، وذلك لسد النقص في العمالة البشرية، تحت ضغط الطلب المتزايد على مثل هذه الخدمات (278:109). ويأتي الجنس على رأس قائمة تطبيقات تكنولوجيا الواقع الخائلي، التي تستبدل بالجنس الحقيقي الانغماس في وهم ممارسته عن بعد، مع «دوبلير» خائلي يقوم مقام الرفيق البعيد، أو مع أجساد رقمية مجسمة، كنوع متقدم من «أحلام اليقظة الرمزية». ولسنا في حاجة إلى أن نؤكد على ما ينطوي عليه ذلك من عبث بقيم إنسانية سامية، لابد أن ينعكس سلبا على علاقة الرجل بالمرأة بشكل عام.

علاقة الدين بتكنولوجيا المعلومات (المنظور العربي)

من الضروري، في تناول علاقة ديننا الإسلامي بتكنولوجيا المعلومات، أن ننظر إلى الدين ـ أولا ـ كظاهرة إنسانية عامة، قبل الشروع في تناوله كأهم ظواهر خصوصيتنا الثقافية على الإطلاق. إن علينا أن نتعامل مع هذه الظاهرة الإنسانية الفريدة، بأقل قدر ممكن من الحساسيات، كي نستطيع التفرقة بين جوانبها العامة وتلك الخاصة بنا تحديدا. لقد ترسخ في أذهان الكثيرين لدينا. أن ثمة تناقضا جوهريا، بين روحانية الدين والتكنولوجيا، بمادياتها وطابعها النفعي. لقد صار لزاما على رجال الدين لدينا التخلص من عقدة الخوف من تكنولوجيا المعلومات، أو الإنفوفوبيا كما يطلقون عليها، وأن يدلوا بدلوهم في تطبيق المعلوماتية في مجالات الدين المختلفة وجدير بنا أن نشيد ـ في هذا الصدد ـ بالمبادرة التي قام بها

فضيلة الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي في موقعه على الإنترنت المخصص للدفاع عن الإسلام، وكذلك شروع الأزهر الشريف في تدريب الدعاة الدينيين على استخدام نظم المعلومات.

(أ) **خصومة مفتعلة**: شهد تاريخ الدين الإسلامي بداية رائعة فيما يخص علاقته بالمعلومات، متمثلة في حفظ النص القرآني، وجمع تراث السنة النبوية، وتحقيقه وتصنيفه وتوظيفه معرفيا. هذا فيما خلا، أما ـ حديثا ـ فقد شهدت العلاقة مظاهر عدة لخصومة مفتعلة، من أبرزها:

- اعتراض البعض على طباعة القرآن الكريم، فكيف يسمح ـ من وجهة نظرهم ـ كتابة لفظ الجلالة بحبر الطباعة الزفر؟ وكيف يسمح بضغط مكبس آلة الطباعة على أسماء الله الحسنى وصفات الرسول الكريم وماشابه؟ وقد تسبب ذلك في تأخير طباعة القرآن ما يقرب من قرن أو يزيد، بينما بدأ طبع الإنجيل فور ظهور الطباعة في أوروبا.

- اعتراض بعض أهل الدين في مصر، في بداية استخدام المذياع، على إذاعة القرآن الكريم، إلى أن حسمت فتوى الشيخ الظواهري هذه الدعوى الزائفة.

- بينما كان الاعتراض فيما يخص الطباعة والإذاعة على استخدامها في المجال الديني، كان اعتراض بعض رجال الدين، فيما يخص السينما والتلفزيون، على استخدامهما من الأصل، وذلك نظرا إلى احتمال تقويضها قيم الدينية، وكان أن حسم الملك فيصل الأمر مع علمائه المتشددين فيما يخص التليفزيون، ورفض عبدالناصر طلب حسن الهضيبي بإغلاق أبواب المسارح والسينما.

- حرمت هوائيات البث الفضائي في بعض البلدان العربية، وتعرضت أطباقها إلى طلقات الرصاص في ريف مصر، في حين أنذرت بعض الجماعات الإسلامية في الجزائر بمعاقبة كل من يسكن منزلا يحمل فوق سطحه طبقا هوائيا.

من حسن الطالع، أن هناك عقولا مستنيرة شجعت على استخدام أحدث وسائل النشر الإلكتروني في معالجة النص القرآني الكريم، وتراث السنة النبوية والفقه والتشريع وأمور الفتوى، إلا أنه تلوح في الأفق خصومة مفتعلة جديدة فيما يخص استخدام المعالجة الدلالية المتعمقة in-depth

semantic processing في تحليل نصوصنا الدينية، حيث يبدي البعض قلقه على مايمكن أن يؤدي إليه ذلك في مجال التفسير القرآني ومصادره المعتمدة، وشبه المعتمدة.

(ب) **بيدي لا بيد عمرو**: سبق أن أشرنا في الفقرة ا 3:2: من الفصل الأول. إلى أننا قد أوكلنا، إلى غيرنا مهمة التعامل مع نصوصنا الدينية من المعاجم المفهرسة للقرآن وتراث السنة، إلى ترجمة ألفاظهما، ودراسة علاقتهما بنصوصنا الدينية وغير الدينية، ومازات سلطة الخطاب الديني لدينا تحول دون الاجتهاد الجاد في هذا السبيل البالغ الأهمية. وهكذا، تظل نصوصنا رموزا منغلقة، دون تجديد النظرة إليها. حقا لقد آن الأوان لأن نواجه نصوصنا الدينية بعمق منهجي وعلمي، رافعين شعار «بيدي لا بيد عمرو». فالنص القرآني، وتراث السنة، ليسا ملكا لنا وحدنا، بل ملكا للبشرية جمعاء، وهو أمر يتفق وعالمية الإسلام. وتبدي مراكز البحوث الأكاديمية والثقافية واللاهوتية اهتماما متزايدا بتراثنا الديني، سواء بدافع حوار الثقافات، أو تحت وهم الخطر الذي صنعوه أو اصطنعوه، أو في إطار مسعاهم إلى تطوير نظرية عامة للتراث الإنساني. نعود لنؤكد هنا، على أن نصوصنا الدينية تراث عالمي يمتلكه غيرنا كما نمتلكه نحن، وما نخشاه هنا أن يمتلكه غيرنا ـ علميا ومعلوماتيا ـ أكثر من امتلاكنا نحن له، ليتعالى ـ حينئذ ـ صراخنا كما فعلنا في الماضي، عندما تعامل الاستشراق بلا حساسية مع تراثنا، فارضا علينا تصوراته، دافعا إلينا بانحيازاته وتحاملاته، مضيقا على فكرنا الخناق، ليتبدد القسط الأكبر من هذا الفكر في دائرة الدفاع وردود الأفعال.

إن علينا أن نكسر رهبة الرمز لدينا، فالنظرة الجامدة إلى النص القرآني الشريف تتناقض ـ جوهريا ـ مع تأكيدنا علي عالميته، وكونه صالحا لكل زمان ومكان. فكيف يمكن ـ منطقيا ـ لهذا النص الإلهي، أن يكون له مثل هذه العالمية، وتلك الدرجة العالية من عمومية المكان والزمان، إلا إذا اتسمت لغته بدرجة عالية من التجريد، وجاءت ألفاظه كثيفة المعاني، متعددة الدلالات، متداخلة العلاقات والترابطات، وسيظل كتابنا الكريم دوما حمال أوجه، وبئس ما نفعل إن نحن توقفنا عن أن ننهل مع نبع معانيه الذي لا ينضب، وأن نحمله معاني متجددة، من مضامين حاضرنا، ورؤيتنا لماضينا،

وتوقعاتنا لمستقبلنا، وللحديث بقية في الفقرة 4:3:8 من هذا الفصل.

خلاصة المقال: إن مداومة تحليلنا لنصوصنا الدينية، وهو أحد المنطلقات الأساسية لدخول عصر المعلومات وتقاعسنا في ذلك سيعوق حركة تقدمنا، ويدفع بنا إلى الخلف في ركب حضارة هذا العصر.

(ج) **موقفنا من جنس الإنترنت والجنس الخائلي:** الجنس في مجتمعاتنا العربية، من الموضوعات ذات الحساسية الفائقة، ومن المعروف أن نظرة الشعوب إلى الجنس تختلف ما بين التساهل الشديد والتزمت المسرف. وتتخذ المجتمعات العربية موقفا حازما من الجنس، ولا توجد أي إحصائيات تتناول ظواهره وميوله ونزعاته، أسوة بما هو موجود في كثير من المجتمعات الغربية. كل ما نخشاه أن تستغل التجارة الإلكترونية، وتجارة الجنس الخائلي، هذه العتمة الجنسية، لكي يوقعوا شبابنا في شباكهم. إن ذلك يحتاج منا إلى تطوير أدوات برمجية، لغوية وغير لغوية، لترشيح مضمون المعلومات من المعلومات الضارة، وكذلك إلى اتخاذ إجراءات تشريعية وتكنولوجية لحماية مجتمعنا من هذا الوباء الرمزي.

8 : 2 علاقة الدين بمنظومة الثقافة

8 : 2 : 1 الحاجة الماسة إلى مراجعة شاملة (الطرح العام)

(أ) حوار أثينا ـ القدس: تظهر الثقافة حساسية خاصة إزاء ظاهرة الدين، واختلاف دوره في ثقافات الشعوب. وكانت نشأة هذه الحساسية مع الاكتشافات الجغرافية الأوروبية (309:101). وقد وصلت هذه الحساسية إلى أوجها مع ظاهرة العولمة، وما صاحبها من حديث حوار الثقافات وصراعها، اللذين تتصدر هما الجوانب المتعلقة بالدين، لقد فرض هذا على الغرب أن يعيد اكتشاف الآخر ثقافيا ـ لاجغرافيا هذه المرة ـ وإعادة اكتشاف نفسه بالتالي: وفي ظل حالة الفوضى والاضطراب، التي تسود الساحة الثقافية عالميا، رأى كثير من المفكرين الأمريكيين، أن عملية الاكتشاف هذه، تتطلب مراجعة الأسس التي قامت عليها الحضارة الغربية، والتي خلصوا إلى أنها قامت على ركيزتين أساسيتين هما: الفكر الغربي والمسيحية لقد بات مهددا ذلك الوفاق الذي أقامه توماس الإكويني، بين عقل الإغريق وتعليمات المسيحية (297:88)، وظهرت الحاجة إلى تجديد

حوار «أثينا - القدس» كما يطلقون عليه، والمتوقع له أن يكون أكثر اتساعا وعمقا، نظرا إلى محورية الثقافة في مجتمع المعلومات.

(ب) **قضايا مستجدة ووسائل جديدة:** يطرح مجتمع المعلومات، وعولمته، كثيرا من القضايا المستجدة في صميم العلاقة بين الدين والثقافة، سواء على أصعدة اللغة أو التربية أو الإعلام أو الإبداع أو منظومة القيم أو المحافظة على التراث، ومعظم القضايا المطروحة قضايا شائكة، لا يمكن تناولها دون طرحها في سياقات اجتماعية أشمل، وهو الأمر الذي بات ممكنا، بفضل ما توفره تكنولوجيا المعلومات من وسائل قادرة على احتواء الكم الهائل من البيانات اللازمة لهذا السياق الاجتماعي الأشمل، ورصد ديناميات الظواهر الاجتماعية.

الحاجة الماسة إلى مراجعة شاملة (المنظور العربي)

(أ) **علاقة أكثر تعقيدا وتشعبا:** علاقة الدين الإسلامي بالثقافة أكثر تعقيدا وتشعبا، سواء من منظور الفكر الديني أو العلماني أو القومي. فالإسلام، في الفكر الإسلامي، دين ودنيا، وبناء على ذلك فهو يحتوي الثقافة بأسرها في عباءته، والإسلام ـ كما يقول حسن حنفي ـ ليس فقط نظاما أخلاقيا، بل إيديولوجيا أيضا، ونظاما اقتصاديا اجتماعيا (243:244). يستنتج، مما سبق ذكره، أن الفكر الإسلامي الراهن يواجه ثقافة مجتمعه في إطار علاقة كونه كلا شاملا لجزء، على مدى خط مواجهة غاية في الاتساع، ولا ندري ـ حقا ـ كيف لهذا الفكر أن يواجه هذا الكم الهائل من الإشكاليات، دون الوقوع في فخ الضحالة والاختزالية. أما الفكر العلماني لدينا، فمازال يسود موقفه تجاه الدين التشويش والاضطراب، ومازال متشبثا بأفكاره التي لا يمل اجترارها بخصوص علاقة الدين بالمجتمع، دون اعتداد بالقضايا المستجدة التي يطرحها المتغير المعلوماتي. وقناعتنا أننا أحوج من غيرنا لحوار مناظر لحوار أثينا ـ القدس، نقيمه بين ثلاثية مدننا المباركة: مكة والمدينة، والقدس وبين عواصم حضارتنا، بغداد، والبصرة، ودمشق، وقاهرة المعز، والقيروان، وقرطبة. وما من أحد يستطيع تجاهل الدور المتعاظم الذي يلعبه الدين في معظم المجتمعات العربية، أو إغفال دوره في التصدي لثقافة العولمة الكاسحة. إن على الفكر العربي أن يعيد غرس العنصر

الديني في منظومة ثقافته بصورة أكثر علمية ومنهجية، وعليه القيام بذلك في تربة اجتماعية مضطربة، غاية في الاضطراب، ومناخ عالمي لا يقل عنها اضطرابا، وهنا يكمن مصدر التحدي الحقيقي.

(ب) **قضايا مستجدة وقضايا قديمة مازالت رهن البحث:** نحن نواجه القضايا المستجدة، التي يطرحها المتغير المعلوماتي في علاقة الدين بالثقافة، نحمل على كاهلنا حملا ثقيلا من أسئلة الماضي التي مازالت معلقة حتى الآن ويزعم الكاتب أن علاقة الدين الإسلامي بجميع عناصر منظومة الثقافة: الفكر ـ اللغة ـ التربية ـ الإبداع ـ الإعلام ـ التراث، أبعد ما تكون عن الحسم. ولا أمل لخطابنا الديني الراهن في مواكبة عصر المعلومات، دون أن يستظهر شبكة العلاقات الكثيفة التي تربط الدين مع هذه العناصر، ولو على مستوى الحد الأدنى الذي يسمح له بتناول الأسئلة الجديدة والقضايا المستجدة. ولا وقت لدينا لنضيعه في تكرار المحاولات القديمة، ويجب على خطابنا الديني أن يجدد منطلقاته وأدواته، مستفيدا، في شأن ذلك، من الدراسات المتعددة التي تتم ـ حاليا ـ على جبهتي الثقافة والدين عالميا.

إن على الفكر العربي الحديث، على اختلاف توجهاته، أن يجعل من الدين دافعا لا عائقا، وأن يسعى حثيثا إلى تناول القضايا والأسئلة المستجدة. وإذا ما تخلف فكرنا عن الوفاء بهذه المهمة الحيوية والعاجلة، فإنه بذلك يعطي فرصة لفتح الطريق أمام عبث المدعين وأشباه العلميين، لملء هذا الفراغ الفكري دون جدوى بالطبع. ساعتها لن تجد السلطة أمامها بديلا، تحت ضغوط المشكلات المستجدة وما أكثرها، إلا أن تسد هذا الفراغ بملئه إجرائيا وتشريعيا على عجل، بما ينطوي ـ عادة ـ على فرض مزيد من القيود على المواطنين، والمفكرين، على حد سواء.

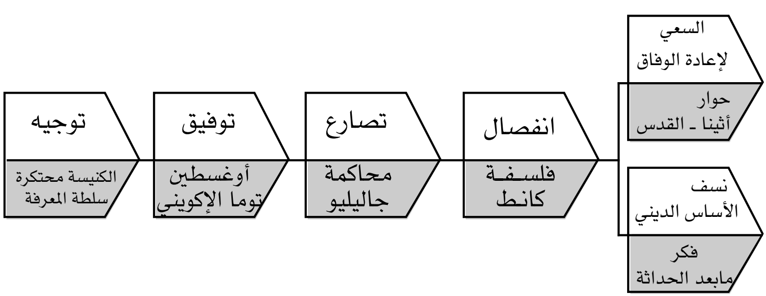
8 : 2 : 2 علاقة الدين بالفكر (الطرح العام)

(أ) **مسار العلاقة التاريخية من منظور معلوماتي:** تاريخ الدين ـ كما يراه البعض ـ هو تاريخ البشرية (49:299)، أما تاريخ علاقة الدين بالفكر فملحمة إنسانية خالدة، سجل حافل بنضال العقل وضلاله، وسير الطغاة والضحايا. وقد تناول هذه العلاقة كثير من المؤرخين وفلاسفة العلم ومنظريه. ما نحاوله نحن ـ هنا ـ هو إعادة طرح فصول هذه الملحمة

التاريخية من منظور معلوماتي، وهي مبادرة ـ أو لنقل مجازفة ـ اضطر إليها الكاتب ـ ليس ـ فقط ـ اتساقا مع النهج العام لدراسته الحالية، بل أيضا لقناعته أن المدخل المعلوماتي لفهم علاقة الدين بالفكر يعد مدخلا أساسيا، نظرا للصلة الرمزية الوثيقة التي تربط بينهما. هذا من جانب، ومن جانب آخر، فإن عصر المعلومات يفتح صفحة جديدة تماما في تاريخ هذه العلاقة، تفرض علينا مراجعة شاملة للمسلمات الراسخة، من أجل تجديد المنطلقات والمناهج.

يقر الكاتب ـ بداية ـ بقدر من التبسيط فيما ينوي عرضه، اضطره إليه حرصه على التوضيح، وعلى إبراز المفاهيم المحورية، وقد ارتضى - سلفا - ما يمكن أن يثير طرحه من اعتراضات، سواء من قبل العلميين أو الدينيين، ولكنه واثق أيضا من أن الكثيرين سيدركون مغزى محاولته هذه.

يلخص الشكل (4:أ1) فصول ملحمة علاقة الدين بالفكر. في طفولة عقله، لجأ الإنسان إلى الخرافة وآلهة الأساطير، كي تحسم له حيرته إزاء ما يلاقيه في واقعه من ظواهر يصعب عليه تفسيرها: فكان قوس قزح قوسا في يد الله، يبيد به من يشاء، وكان البرق ملاكا يسوق السحاب بمقلاع من فضة. لقد كانت اللاهوتية - كما قيل - هي علم القرون الوسطى (34:299)، والدين شاملا وموجها للفكر. ومع بدايات العلم، ظهرت مساعي الوفاق بين الفكر والدين، فكانت محاولات سانت أوجسطين وتوماس الإكويني أمثلة رائعة للمواءمة بين فكر الإغريق والتعاليم المسيحية، وسعى ليبنتز، بعد ذلك بقرون، إلى أن يحدث نوعا من الوفاق بين السياسة والعلم واللاهوت.



الشكل (8:أ1) ملخص مراحل علاقة الدين بالفكر من منظور معلوماتي

إلا أن هذا الوفاق، وتلك المواءمة لم يجدا طريقهما إلى عقل المؤسسة الدينية، فكان ماكان من أمر الصراع المرير بين الدين والفكر: يخر جاليليو على ركبتيه، وهو شيخ مريض، معتذرا للكاردينال، ويلقى برونو، الذي أهدى الفكر الإنساني مفهوم اللانهائية، نهايته محترقا على الخازوق، ويشنق سافونارولا وتحرق جثته لاجترائه على احتكار الأرستقراطية لقيادة الكنيسة. أما ديكارت، الذي أقام العلاقة بين فكر الإنسان والوجود، فقد كان عليه أن يخفي فكره عن الوجود ذاته، خوفا من بطش محاكم التفتيش.

لقد نسف كوبرنيكوس وجاليليو وكبلر معرفة العصور الوسطى، ليمهدوا بذلك الطريق أمام عقلانية ديكارت المحضة، وقطعية فيزياء نيوتن الصارمة. مع إقرار الكنيسة بهزيمتها أمام سلطة العلم، كان الانفصال بينهما، وتنامت بذلك النزعة العلمانية. وكما اتخذت الكنيسة موقفا لا عقلانيا من الفكر، كانت للفكر ـ أيضا ـ مواقفه اللاأخلاقية، فنرى ديفيد هيوم ـ على سبيل المثال ـ يسفر عن عنصريته الفجة، عندما راح يؤكد الانحطاط العقلي للبشر من غير البيض.

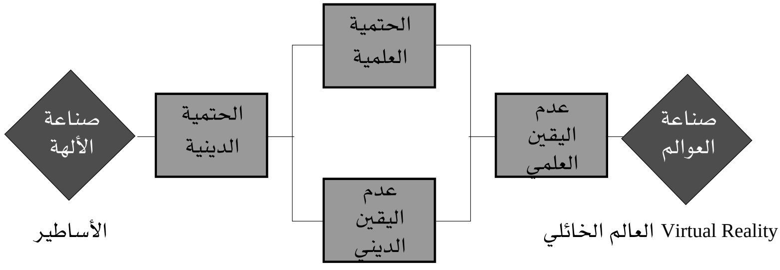
والآن، ماذا عن علاقة الدين بفكر عصر المعلومات، الذي كاد فيه فكر الإنسان أن يكون شريكا لفكر الآلة؟ ودعونا نستدع هنا ما خلص إليه منطق هيجل من أن هناك في جوهر الأشياء ضربا من التعقل يرقد تحت سطحها. وسؤالنا هنا: ماذا لو تجسد هذا الغامض الكامن في جوهر الأشياء ذكاء متناثرا من حولنا، تحتويه النظم والآلات والأدوات؟ ماذا يعني هذا الذكاء الجمعي المحتشد بالنسبة لمعتقدات الإنسان وقيمه؟ لقد كان مصدر الصراع المرير بين الفكر والدين ـ كما ذكرناه أعلاه ـ هو عدم نفاذ هذا الفكر إلى عقل المؤسسة الدينية، وهو موقف مشابه لما تواجهه الإنسانية حاليا، حيث يحتمل ـ ولمرة أخرى ـ أن يتخلف الفكر الديني عن المجتمع الإنساني، في حالة ما إذا فشل في استيعاب فكر عصر المعلومات. وإن فشل، فسيؤدي ذلك ـ حتما ـ إلى صراعات من نوع جديد، لم تعهدها البشرية من قبل.

ويشهد عصر المعلومات توجهين رئيسيين فيما يخص علاقة الفكر بالدين:

التوجه الأول: ينشد نوعا من الوفاق بين العلم والدين، يراه ضروريا، بعد أن دفع العالم كلفة باهظة للانفصال بينهما. فلم يعد مستساغا أن

يقف الإنسان عاجزا عن أن يختار ما بين: «عقل بلا إيمان»، حتى يتحرر هذا العقل وينطلق دون أن يحده قيد من عقيدة أو وازع ديني، وبين «إيمان بلاعقل» حتى يسمو هذا الإيمان إلى الرشاد والخلاص دون قيود من منطق العلم وقوانينه. حقا... لقد انفصل العلم عن الدين في ظل العلمانية، لكن قيم الدين ظلت هناك، حتى في أكثر المجتمعات إنتاجا للعلم. فها نحن نرى بيتر برجر يشبه المجتمع الأمريكي بشعب من الهنود، أكثر شعوب العالم تدينا، على رأسه نخبة سويدية، أكثر شعوب العالم علمانية (149:275).

يلخص الشكل (8:أب) مراحل ملحمة علاقة الدين بالعلم من منظور معلوماتي. لقد نجا الفكر من إسار الحتمية الدينية ليقع في قبضة الحتمية العلمية، وأسرف الإنسان في ثقته بالعلم، حتى أصبحت ميتافيزيقا العلم في الوضعية المنطقية لمدرسة ڤيينا بديلا عن الدين (1:233). لقد أفرزت حتمية العلم سلسلة من الحتميات عصفت بتاريخ البشرية: حتمية تاريخية، وحتمية بيولوجية، وحتمية لغوية، وماشابه. كما هو متوقع، فقد صاحب هذه الحتمية العلمية عدم يقين ديني إلى حد التشكيك في جدوى الدين أصلا. ومن الحتمية العلمية، ينتقل الفكر الإنساني إلى النسبية، وعدم اليقين العلمي ولانهائية الإشكاليات المعرفية. وأخيرا، يحل بنا عصر المعلومات وخائلياته. وبينما كان الإنسان يصنع، في طفولة عقله، آلهة عالمه الأسطورية، نراه يسعى في عصر المعلومات إلى إقامة عوالم كاملة من صنعه، عوالم الواقع الخائلي، يمارس فيها تحرره العقلي والروحي، عساه يهتدي في مسالك دنيا الخائلية إلى ما يفتقده من أمنه وسعادته في دنيا الواقع.



الشكل (8:أب) ملخص ملحمة علاقة الدين بالفكر

لقد كان عدم اليقين العلمي هو وليد علم سادته الفيزياء، فهل يمكن لفكر يسوده البيولوجي وعلوم الإنسانيات أن يعيد إلى العقل حيويته وإنسانيته؟ إن العقل يواجه طفولة جديدة، طفولة عصر المعلومات، يبحث عن الحقيقة إلى ما لانهاية، ويسعى من خلال عوالم الرمز الميكروية microworlds، إلى أن يعيد صياغة علاقته مع الماكرو الكوني. لقد تمسكت العقيدة المسيحية طويلا بمبدأ نهائية التاريخ، إلا أنها هجرت ـ حاليا ـ مفهوم نهاية التاريخ، وقد أقرت بلا نهائيته، حيث المستقبل مفتوح دائما أمام الجميع، ولم تعد فكرة أن الناس هم صناع تاريخهم معادية لجوهر العقيدة المسيحية المعاصرة (68: 178).

(ب) **عقلنة القوة معلوماتيا:** استخدمت المعرفة على مدى التاريخ سلاحا لعقلنة القوة، من أجل تبرير ممارستها، وتشديد قبضتها على الخاضعين لها، وكان هتلر صريحا وقاطعا في ضرورة مؤازرة العلم لسياساته، فهو القائل في «كفاحي»: سياسة بلا سند من البيولوجي، وبلا غايات بيولوجية، سياسة عمياء إلى أقصى حد. وتعددت مشاهد استخدام العلم لمساندة القوى السياسية والفكرية والاقتصادية، فكان أن استخدمت نظرية دارون، ومبدأ «البقاء للأصلح»، وعلم النفس المعياري، وما وضعه من مقاييس الذكاء الكمية، من أجل تبرير سياسات التمييز العنصري، والاضطهاد العرقي والديني. وعلى صعيد القوى العسكرية أصبح العلم والتكنولوجيا بمنزلة العقل المحرك للمنظومة العسكرية بأكملها، من صناعة السلاح إلى التدريب على القتال، وإدارة المعارك، ووضع الإستراتيجيات، واختيار فاعلية الأسلحة والتكتيكات. وكان للقوة الاقتصادية نصيبها من الدعم المعرفي، فكان علم الإدارة الذي أسسه فردريك تيلور لا يرى بديلا، لعقلنة نظم الإنتاج، إلا من خلال تحويل العامل إلى ترس في آلة الإنتاج الضخمة، يُقوم أداؤه بالمعايير الكمية لقياس الإنتاجية ومستوى جودة الإنتاج، ودراسات الوقت والحركة.

تلوح في الأفق ـ حاليا ـ بوادر استغلال معرفة عصر المعلومات، من أجل عقلنة قوى العولمة، خاصة على الصعيدين الاقتصادي والإعلامي، وتعمل المؤسسة الأكاديمية الأمريكية على قدم وساق، لتقديم الغطاء المعرفي للعولمة بصيغتها الأمريكية، في صورة فكر يفتت حتمية العولمة إلى مجموعات من الحتميات الفرعية:

- حتمية اقتصادية: إما الرأسمالية الليبرالية، وإما لا.

- حتمية إعلامية: إما اتباع نمط الإعلام للمؤسسات المتعدية الجنسية، وإما لا.

- حتمية لغوية: إما الإنجليزية، وإما لا.

- حتمية أخلاقية: إما خلق عالمي بالمفهوم الأمريكي، وإما لا.

توفر تكنولوجيا المعلومات وسائل عدة لمساندة سلطة القوى الاجتماعية، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

- استخدام الإحصائيات والمؤشرات، منزوعة من سياقها، لمساندة القرارات وتحرير السياسات.

-استخدام نماذج محاكاة رقمية، مصممة ـ أصلا ـ لمحاباة سيناريوهات بعينها، مع التمويه والتعتيم على الفروض التي قامت عليها هذه النماذج. وقد لجأ الغرب ـ بالفعل ـ إلى مثل هذه النماذج المنحازة، بغرض التقليل من الأهمية الإستراتيجية للبترول العربي، حتى يمسي تحت رحمة المشتري، لا البائع.

- هناك من يحاول إقحام علم النفس لتبرير عنف الإعلام الترفيهي، على أساس أن العنف غريزة متأصلة في النفس البشرية، وأن عنف التليفزيون والسينما وألعاب الفيديو هو بمنزلة تسريب للطاقة الكامنة لهذه الغريزة.

(ج) **عن التناول العلمي لظاهرة الدين:** الدين ظاهرة معقدة، حيرت العلماء والفلاسفة، وكذلك أهل تكنولوجيا المعلومات، وقد أقحموا أنفسهم ـ ربما دون أن يدروا ـ في هذه القضية الاجتماعية النفسية الشائكة. وفي حيرته إزاء الظواهر المعقدة، عادة ما يلجأ العلم إلى الاختزالية، فنجده تارة لا يرى في الدين إلا جانبه النفسي، وتارة أخرى يقصره على دوره الاجتماعي. ويأتي أهل الأنثروبولوجيا اللغوية فيختزلونه إلى مجرد ظاهرة رمزية. أما أهل تاريخ الدين، فلا يشغلهم في شأنه إلا تطور نظم المعتقدات مع تطور المجتمع الإنساني، عبر الأزمنة المختلفة. وقد أدرجوا ضمن هذه النظم: الأساطير، والسحر، والدين والعلم.

ولنبدأ بعلم النفس، حيث طابق سيجموند فرويد بين المراحل المختلفة لنضوج الإنسان نفسيا، ومراحل تطور المجتمع عقائديا، في محاولة منه لإخضاع هذه الظاهرة الجمعية إلى ثلاثية: الـ «هو»، والـ «أنا»، والـ «أنا

العليا» (135:294). وهكذا اختزلت الظاهرة الدينية على يد فرويد كحالة من حالات اللاوعي الاجتماعي، كنظير للاوعي الفردي، معتبرا الدين مظهرا من مظاهر عدم نضج المجتمع، فالدين ـ في نظره ـ شيء يناظر الخيال لدى الأطفال، أو وهم اجتماعي وليد الإحباط والعجز عن مواجهة المجهول، لكي يتغلب الفرد على شعوره بالضياع أمام قوى الطبيعة (294 56).

ويأتي كارل يونج ليركز على وظيفة الدين في توجيه السلوك، مطبقا عليه نظريته العامة عن النماذج الأصلية archetypes التي تفترض أن البشر جميعا يولدون بمكونات اللاوعي نفسها، ولديهم ـ بالتالي ـ ملكة غريزية لبعث قيم الماضي، وصور السلف (60:294). في ظل هذا التصوير، تبدو بذور المعتقدات ـ كمفاهيم الخلق والبعث والخير والشر والشيطان ـ وكأنها محفورة في ذاكرة الإنسان، غائرة في طبقات لاوعيه، وهي تطفو إلى السطح متجلية في رموز الأحلام والأساطير والفن. إن فكرة يونج عن المعتقدات، على أساس كونها غريزة نولد بها، تروق لهؤلاء الذين ينشدون خلقا عالميا، يسمو فوق فروق النسبية الثقافية، وهو ما يذكرنا بالنموذج الذهبي للغة الذي وضعه نعوم تشومسكي مفترضا ـ هو الآخر ـ أننا نولد بغريزة لغوية عامة يشترك فيها البشر كافة ـ انظر الفقرة 3:2:5 من الفصل الخامس وقد حاول ماكس فيبر التوفيق ما بين فرويد ويونج، حيث أدرج الدين ضمن الدوافع الواعية التي تنمي النزعات الشخصية، وتدفع بالمجتمع صوب تحقيق أهدافه الاقتصادية والاجتماعية (53:294).

أما دوركايم، مؤسس علم اجتماع الدين، فيرى الدين مؤسسة اجتماعية مستقلة بذاتها، أي ضرورة أساسية من ضرورات بناء المجتمع وتماسكه (48:294)، لقد أسقط دوركايم من حسابه الجوانب النفسية والتاريخية لظاهرة الدين، وهو ما أدى بالبعض إلى اتهامه بالفشل في تناول هذه الظاهرة المعقدة. ويأتي كلود شتراوس، مؤسس الانثروبولوجيا اللغوية، ليزدري فكرة التوجه النفسي في تفسير ظاهرة الدين، طارحا نهجا لغويا لتناولها، يُطبق على النصوص والطقوس والشعائر والمؤسسات الدينية (72:294). وهكذا، أصبحت اللغة أساسا لدراسة الرموز الدينية، مبناها ومعناها، مع التركيز على دلالات وبراجماتيات الرموز المقدسة: ماذا تعني؟ وكيف تستخدم وتدمج في صلب ثقافة الجماعة؟ وكيف تشكل رؤية البشر

إلى العالم؟ وكيف يلجأون إليها لحسم ما يستعصي على فكرهم من ظواهر الطبيعة وظواهر الوجود الإنساني؟ وعلى الرغم من ازدراء شتراوس للتوجه النفسي المشار إليه في تفسير النزعات الدينية، إلا أنه سعى إلى استخلاص المعرفة اللاوعية الكامنة وراء ظاهر الأسطورة، في محاولة منه للكشف عن السر وراء ما فعلته بعقول القدامى، وقد جعلوا لاعقلانية خرافتها، تبدو وكأنها حقيقة راسخة يعتد بها ويقاس عليها. وقد رفض شتراوس فكرة تصنيف المعتقدات الإنسانية ما بين عاقلة وغير عاقلة، وربما كان متأثرا في ذلك بتوجه علم اللسانيات الحديث، الذي يرفض ـ بدوره ـ تصنيف اللغات الإنسانية، مابين لغات راقية وبدائية ـ انظر الفقرة 5 :4 :2 من الفصل الخامس.

وأخيرا، يطلع علينا مفكرو ما بعد الحداثة رافضين كل فكر يستقي مرجعيته من السرديات، بما فيها النصوص الدينية (247: 70) وهم بهذا لا يحرمون البشر من الحلم بخلاص يأتيهم من خارجهم، بل يحرمونهم ـ أيضا ـ من حلم الوفاق، وإمكان التواصل بين البشر، فالصراع قدر حتمي، والتواصل أمر في حكم المستحيل (247: 71).

نُنهي هذا الاستعراض الموجز، عن التوجهات العلمية في تناول ظاهرة الدين، إلى ما يمكن أن نسميه بالتوجه المعلوماتي، حيث توفر تكنولوجيا المعلومات بنية تحتية قوية لدراسة ظاهرة الدين، بصورة أكثر عمقا وشمولا. فالمعلوماتية يمكن أن تسهم مساهمة فعالة في تخليص التنظير الديني، من اختزاليته وانغلاقه في سجن تخصصه، وذلك بتوفيرها للعديد من الوسائل العملية لدراسة الظواهر الدينية في السياقات الاجتماعية الأشمل. تضم هذه الوسائل نماذج المحاكاة التي يمكن استخدامها في إعادة البناء التاريخي، بهدف دراسة مسار التطور التاريخي للمعتقدات الإنسانية، والذي يتعذر من دونه استيعاب هذه المظاهر الاجتماعية المعقدة، علاوة على ذلك، فإن نظام القيم في عصر المعلومات ـ كما هو متوقع ـ سيتغير بمعدلات متسارعة، مما سيزيد من صعوبة إجراء الدراسات الميدانية من قبل باحثي علم اجتماع الدين. كأحد السبل لتذليل هذه الصعوبة، ربما تمثل نظم العوالم الخائلية معمل اختبار للتجريب الأنثروبولوجي.

خلاصة المقال: إن مجتمع المعلومات والتقدم التكنولوجي لن يصنع آلهته

الخاصة به، كما يزعم البعض، بل هو يصبو ـ في حقيقة الأمر ـ من خلال عوالم الرمز، إلى أن يوطد الصلة بينه وبين عالمه، وبين خالق هذا العالم.

علاقة الدين بالفكر (المنظور العربي)

(أ) **الفكر النظري الديني**: يندمج العقل والدين في أغلب مدارس الفكر الإسلامي، قديمه وحديثه، بدرجة يصعب معها الفصل بينهما. ويزعم الكاتب أن هذه النزعة الاندماجية هي سمة غالبة في الفكر العربي، دينيا كان أم لغويا، أم غير ذلك. يقول الغزالي، في «إحياء علوم الدين»: لا غنى بالعقل عن السماع، ولاغنى بالسماع عن العقل ويرمى بالجهل من يكتفي بمعرفة الدين، ويرمى بالغرور من يكتفي بالعقل دون أنوار القرآن والسنة. أما العقل لدى المعتزلة فهو وكيل الله على الأرض. ويبرر علماء الكلام، أصحاب النظرة العقلانية، لجوءهم إلى علوم الإغريق برغبتهم في دحض ما يتناقض فيها مع الإسلام (20:96). أما انشغال إخوان الصفا بالفلسفة الإغريقية، فكان من أجل تنقية الشريعة مما دنسها من الجهالات والضلالات. كما كان تنامي النزعة العقلانية لدى ابن سينا، بدافع التأمل في مسألة النبوة من زاوية عقلية (131:96). أما توجهه الفلسفي في تهذيب الأخلاق، فكان الأساس فيه هو مبادئ الإسلام. وأخيرا، وفيما يخص ابن رشد، فتدل عناوين مؤلفاته («فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال» و«مناهج الأدلة في عقائد الملة»، وما شابه)، على توجهه الفلسفي في توثيق الصلة بين الدين والعقل، وعلى النظر إلى الموجودات بصفتها الوسيلة المثلى لمعرفة الله.

خلاصة: لقد ارتكز الفكر الديني الإسلامي على الإيمان بوجود أصل إلهي للعقل، وربما يمثل ذلك موقفا عكسيا للفكر الغربي، الذي راح يبحث، في بعض مراحله، عن أصل عقلاني لوجود الله.

إن هذا الاندماج الشديد بين الفكر والدين، قد جعل الدين لصيقا بالعقل العربي، ولم يسمح له بمساحة كافية تفصل بينه وبين الدين، حتى يتسنى له الكشف عن شبكة العلاقات الكثيفة التي تربط بينهما، خاصة على أصعدة اللغة والإبداع والتربية. وهكذا ظلت علاقة الدين بالعقل مابين غائمة وغائبة في تنظيرنا الثقافي. وعلى الرغم من ضجيج خطابنا الديني الصحافي والإعلامي، ذي الطابع غير العلمي في أغلبه، فمازالت ساحتنا

الثقافية تفتقد إلى الفكر النظري الرصين الذي ينظر إلى الدين كظاهرة اجتماعية متعددة الجوانب.

ولقد عفانا كثيرون من تناول أوجه القصور في فكرنا الديني، لذا فإننا نكتفي هنا بتلخيص أهم سماته الغالبة:

- **حساسية مفرطة في تناول الظاهرة:** خاصة فيما يخص التعامل مع النصوص الدينية، حيث يعتبر البعض في هذا ضربا من قلب الأوضاع، أو تجرؤ الجزء على الكل الذي يشمله، فكيف يتناول العقل الدين، والعقل ـ في أصله ـ صنيعة الدين...؟! ومعظم قضايا العقل إنما تقع في نطاق مباحث الفكر الأخلاقي (10: 41). وليس لدى الخطاب الإسلامي، المستقطب من قمة رأسه حتى إخمص قدميه في الصراع والنضال الاجتماعي، متنفس من الوقت، كي يولي علم الأخلاق والسلوك الاهتمام العلمي الجدير به، خاصة في ظل المتغير المعلوماتي الذي فجر الساحة الثقافية إشكاليات أخلاقية، ونحن نزعم أننا مازلنا لا نفرق بين عالم الأخلاق والداعية الأخلاقي، تماما كما لا نفرق بين المنظر اللغوي والمعلم اللغوي.

- **غياب التراكم:** لم يمارس الفكر النظري الديني لدينا التراكم الذي مارسه الفكر الغربي، الذي تنقل بحرية من محورية الميتافيزيقا ومفهوم الألوهية، إلى محورية الإنسان، ومن عقل يسيطر عليه الدين إلى عقل يعلن انفصاله عنه. فمنذ أن شن ابن قتيبة الحرب ضد الفلسفة ـ كما يقول محمد أركون ـ استمرت المناقشة واتسعت وتعقدت، حتى كان تدخل ابن رشد القوي، الذي انتهى ـ في النهاية ـ بالفشل (10: 60). فمنذ ذلك الوقت، لم ندرس مطلقا مشكلة الروابط بين العلوم الدينية والعلوم العقلية بكل أبعادها الفكرية والحقيقية. إن فكرنا الديني يسعى جاهدا إلى تجسير الهوة بين فكر الأوائل، وواقع حياتنا المعاصرة، وفكرنا العلماني غارق في إيديولوجيات وفدت إليه من خارجه، دون أن يتخذ منها موقفا نقديا، بهدف إظهار مواضع التوافق والتباين بين أصول الماضي وحقائق الواقع.

- انكفاء على الذات: يفتقر كثير من الإسلاميين إلى العمق والاستيعاب في قراءة الحضارة الغربية، وخاصة في جوانب الفكر الفلسفي ، ويكتفي البعض بمقارنات عامة، من قبيل تلك: مابين شك الغزالي والشك الديكارتي، وابن رشد وأرسطو، وفكر المعتزلة وفكر حركة التنوير (10: 61). ولا اعتراض

لدينا ـ بالطبع ـ على هذه النظرة المقارنة الواجبة، وربط معرفتنا بالمعرفة الإسلامية، لكن ما لا نرتضيه بشأنها، هو أن نتوقف عند حدود المقارنة، نتخذها ذريعة للانكفاء على الذات، لا دافعا إلى مزيد من البحث والتنقيب، وتحديد مواضع اللقاء والافتراق، مثلما فعل الفارابي وابن سينا والرازي. إن فكرنا الديني، في عصر حوار الثقافات والتوسع في بحوث الدين المقارن، يرفض معرفة ذاته برفضه لفكر الآخر، على عكس الفكر الغربي، الذي لا تكتمل صورته عن نفسه، إلا من خلال استيعابه لفكر الآخر. وهكذا تركنا الحبل على الغارب لخطاب الاستشراق، ليحتكر مهمة منهجية دراسة الإسلام، متحررا من كل حساسية تكبحه عن تناول قضاياها الشائكة. إن الاستشراق اختراع غربي لم نحاوره بجدية، ولم يحظ ـ في السابق ـ بأي تأمل نقدي، من أجل أن نتعرف على فرضياته وتوجهاته وآفاقه (294:140). ولولا ما قام به إدوارد سعيد، حديثا، لظل هذا الخطاب الاستشراقي منغلقا علينا من حيث سلطة المعرفة التي أفرزته، وقد استسلم له عدد غير قليل من المثقفين والعلمانيين لدينا، فراحوا يرددون مقولات استشراقية لا تخلو من الغرضية والاختزالية. لقد جعل هؤلاء من المستشرقين وسيطا معرفيا يفصل بينهم وبين مصادر المعرفة الأصلية.

- **غياب الربط بين الفكر الديني ومصادر المعرفة الأخرى:** لقد عجزنا عن فهم الروابط العميقة بين فروع المعرفة الإسلامية، من نحو ومعجمية وأدب وتاريخ وثيولوجيا وتفسير وقانون (10:205). ومازال معظم المنظرين الدينيين التقليديين بمنأى تماما عن المعرفة الكامنة وراء الفنون.

أما حوار الإسلاميين والعلمانيين، فليس حوارا بالمعني الصحيح. وفي زعمنا، أن هذين التيارين الفكريين يتحاوران عن بعد، من خلال الوسيط الغربي، فالإسلامي يتربص براوسب الفكر الغربي في تيارنا العلماني، في حين يستنكر العلماني على تيارنا الإسلامي عدم استيعابه لانجازات فكر الغرب. وتتوالى ردود الأفعال، من إسقاط الإيديولوجيات قسرا على أمور واقعنا، وأسلمة للعلوم، وإدانة شاملة للاستشراق، يستوي في ذلك الخبيث منه والطيب، واستغراب نعادل به الاستشراق، يتخذ من الغرب ـ مستخدما أدواته ـ موضوعا له، في وقت يتجه فيه علم الاستشراق ذاته صوب الزوال، حيث يتنامى التوجه حاليا إلى إدراجه بكامله في المسار الرئيسي لعلوم

الإنسانيات. وهل لنا أن نعيد هنا ما صرح به أدونيس - أخيرا - عندما تساءل: ماذا يبقى للثقافة العربية الراهنة، بعد أن نستقطع منها كل ما تم استُعير من فكر الغرب؟[*1].

وأخيرا: فإن تقاعسنا في فهم علاقة الدين بالعقل يمثل عقبة كؤودا أمام مسعى مجتمعاتنا العربية إلى دخول عصر المعلومات. ذلك الذي تسوده القوى الرمزية، وهو ما يتطلب فهما عميقا لموقع الدين في منظومة هذه القوى الرمزية ـ والذي يتطلب ـ بدوره ـ تجديد النظرة إلى نصوصنا الدينية بصفتها محور منظومتنا الدينية، وهو ما يؤكد ـ بدوره ـ أهمية اللسانيات وتكنولوجيا المعلومات كأداة فعالة لتحقيق هذه المهمة.

(ب) الاستشراق من منظور معلوماتي: لقد استثار الخطاب الاستشراقي حمية الكثيرين لدينا، وما أكثر ماهاجمنا وهاجمناه، وعلى الرغم من كل ما يقال عن خطاب الاستشراق وانحيازاته وتحاملاته، وكونه وليد المركزية الأوروبية ـ كما يرى حسن حنفي ـ وكانت نشأته في ظل ثقافة عنصرية،على الرغم من كل هذا، إلا أنه ، في جوانب عدة منه، محاولة لا يمكننا تجاهلها لتطبيق المناهج العلمية في تناول الدين الإسلامي، كظاهرة اجتماعية تاريخية، وذلك بفضل وضعه المتميز ـ كما أشرنا سلفا ـ في التعامل مع هذه الظاهرة دون حساسية، بل ببرود مسرف أحيانا. لقد نجح هذا الخطاب الاستشراقي في أن يستفز فكرنا العربي، دون أن يستنهضه، ليس فقط في مجال الدين، بل في مجال اللغة، وعلاقة السلطة بالمجتمع، وبعض الأمور الخاصة بالعلاقات مابين الفئات الاجتماعية. لقد جمع التنقيب الاستشراقي منذ القرن التاسع عشر، معلومات ضخمة عن المجتمعات الإسلامية، وخصوصا المجتمعات التي تتكلم العربية (10: 203). وتعتبر هذه المعلومات ذخيرة لا غنى عنها في بحوثنا الاجتماعية بصفة عامة، وبحوثنا الدينية واللغوية بصفة خاصة.

يمكن القول، بصورة عامة، إن خطاب الاستشراق قد مر بثلاث مراحل أساسية، كان لكل منها موقفها من حيث طبيعة المعلومات التي تعاملت معها:

- مرحلة ما قبل 1950، وقد أوضح لنا إدوارد سعيد كيف يعد خطاب هذه المرحلة نموذجا في إثبات صدق مقولة إن القوة، القوى الاستعمارية

في حالتنا، قادرة على توليد خطاب معرفي يقوم على خدمتها. إن التوسعات الاستعمارية، وسرعة انتشارها، لم تمهل هذا الخطاب الاستشراقي فرصة كافية، فجاء انتقائيا اختزاليا، سواء من حيث مصادر معلوماته، أو مناهجه أو نتائجه.

- بعد انحسار الموجة الاستعمارية، تركز الجهد الاستشراقي على تجميع المعلومات وتنظيمها، وساده طابع التحقيق والتوثيق والأرشفة، فكان استشراقا منصبا على الماضي، مقطوع الصلة بمشاكل الواقع الراهن (10: 58).

- مع استرداد الإسلام حيويته، ومع تعاظم دوره على الساحة السياسية، انتقل مركز الثقل من فرنسا، التي شغلها إسلام الماضي، إلى الولايات المتحدة، التي قادها فكرها البراجماتي، إلى التركيز على إسلام الحاضر وممارساته الفعلية، ودراسته من خلال تحليل نوعيات خطابه المختلفة، وقد ساعد على ذلك، تنامي التوجه اللغوي في التنظير الثقافي، حيث تقود الولايات المتحدة ـ كما هو معروف ـ قافلة التنظير اللغوي عالميا. ينشغل خطاب الاستشراق الأمريكي، بصفة أساسية، بمشكلات معينة، كالأقليات وعلاقة الفرد بالدولة، ويسيطر على فكره توجه محوري، نحو وضع نظرية عامة للتراث الديني والدين المقارن، وهو ما يحول بينه وبين التعمق في خصوصيات الدين الإسلامي.

(ج) **أسلمة المعرفة من منظور معلوماتي**: يتردد كثيرا استخدام مصطلح (أسلمة العلوم)، إلا أننا فضلنا عليه مصطلح «أسلمة المعرفة»، حيث يتوسع البعض في نطاق الأسلمة ليشمل، بجانب العلوم الطبيعية والإنسانية، التكنولوجيا والفنون والفلسفة. يمكن القول بصفة عامة: إن هناك توجهين رئيسيين للأسلمة:

- التوجه الأول: وهو لا يفرق بين علوم الدين والدنيا، «فلا معنى في ديار الإسلام لمثل هذه التفرقة»[25]. وفي تصورنا، يمكن تفريع هذا التوجه إلى توجهين فرعيين: أحدهما، يتبنى فكرة أسلمة جميع فروع المعرفة انطلاقا من الصفر، والثاني ينظر إلى أسلمة المعرفة نظرة انتقائية، تقوم على مبدأ العمل المزدوج، ترشيح المعرفة المستوردة مما يتناقض مع عقيدتنا وقيمنا من جهة، وتعزيزها بما تتطلبه هذه العقائد وتلك القيم، من جهة أخرى.

- التوجه الثاني: يفصل بين علوم الدين والدنيا، ونفرعه كسابقه إلى

توجهين فرعيين، أحدهما يتبنى مبدأ: استيراد التكنولوجيا من دون الأيديولوجيا، والثاني يتبنى مبدأ حصر الأسلمة في نطاق العلوم الإنسانية دون العلوم الطبيعية.

سنناقش فيما يلي كلا من هذه التوجهات الأربعة مسجلين - بداية - تحفظنا عليها جميعا:

فيما يخص توجه الأسلمة الشاملة لجميع فروع المعرفة، فمن الواضح أنه أكثر توجهات الأسلمة طموحا، وهو قريب - في بعض جوانبه ومع اختلاف دوافعه - من موقف نيتشه، والذي تبناه - من بعده - فكر ما بعد الحداثة، في رفضه جميع الأسس التي قامت عليها الحضارة الغربية، يقوم توجه الأسلمة الشاملة، على أساس صلاحية الإسلام لكل مكان وزمان، وعلى أن الأصول الإسلامية الثابتة وحدها كفيلة بإحداث الثورة العلمية، وينطلق من اعتبار النص القرآني، مصدرا علميا دقيقا وشاملا. ينطوي هذا التوجه علي تناقضات عدة، مع نفسه ومع خارجه على حد سواء. يمكن تلخيصها على الوجه التالي:

- تناقض تاريخي، مع ما أكدنا من قدرة الإسلام: لغته ومعرفته وقيمه، على التعامل مع معرفة الآخرين واستيعابها، والتي تجلت بوضوح في أثناء الفتح الإسلامي.

- تناقض معرفي، فعادة ما ينطلق العلم من نظريات فلسفية جامعة، وليس لدينا من هذه الصروح الفكرية ما يمكن أن نقيم عليه علوما خاصة بنا، ويخشى مع هذا إهدار الوقت والجهد في الاشتباك مع قضايا أولية سبق للفكر الإنساني أن حسمها بصورة قاطعة.

- تناقض مع معرفة عصر المعلومات، حيث تغفل الأسلمة الشاملة توجه هذه المعرفة المتزايد، نحو اشتمال الخاص في إطار العام، خاصة بعد أن وفرت تكنولوجيا المعلومات الوسائل العملية لدعم التنظير العلمي العابر للثقافات والتخصصات، ومن أوضح الأمثلة على ذلك، وأهمها بالنسبة لدراستنا الحالية، نجاح علم اللسانيات الحديث في وضع نظرية عامة لجميع اللغات الإنسانية دون المساس بخصوصيتها.

- وعلى الجانب العلمي، أين تلك المواد البشرية والمعلوماتية القادرة على اختصار 25 قرنا من الفكر الفلسفي والعلمي في حقب قليلة؟ وهل

تسمح لنا السرعة التي يتغير بها العلم الضخم لعصر المعلومات ذو الطابع المؤسسي بفسحة في الوقت اللازم لإجراء تجاربنا المعرفية...؟ وإذا كنا قد عجزنا، حتى الآن، عن أن نلحق بهذا العلم على مستوى ترجمة مصطلحاته، فهل يحق لنا اعتبار هذه الأسلمة المعرفية الشاملة ضربا من رد الفعل الطوبائي...؟ وما المانع في أن نبدأ من حيث انتهى إليه الآخرون، وأن نصب جهدنا الفكري في مسار الفكر الإنساني الأشمل؟ وليكن لنا عظة من فكر الغرب. فالبرغم من نضجه وتقدمه ، فإنه لا يجد حرجا في التنقيب في الفكر المناهض. بل أحيانا في الفكر البدائي البائد، بحثا عن الجديد من القيم والمناهل، التي يحتاج إليها في معركته الراهنة مع إشكاليات الحاضر المتعددة والشائكة.

أما توجه أسلمة المعرفة انتقائيا فعلى الرغم من تقديرنا لدوافعه العملية، إلا أنه ـ أيضا ـ توجه محفوف بالمخاطر، فالعلم بناء معرفي متكامل، يصعب أن نقتص منه دون أن نقوض بذلك بعض الأفكار الرئيسية التي قام عليها، خاصة مع إدراكنا أن الأمور الخاصة بالعقائد، عادة ما تقع في قلب النظرية، لا في أطرافها الهامشية (من الأمثلة على ذلك: نظرية الفلك، ونظرية التطور، ونظرية التاريخ، ونظرية اللغة، ونظرية علم النفس). فلو افترضنا ـ على سبيل المثال ـ أننا أخذنا علم البيولوجيا الجزيئية دون مفهوم نظرية التطور لتناقضها مع نظرة الإسلام إلى نشأة الإنسان كما يتصور البعض، فهذا الاقتصاص النظري يقوض الأسس التي قام عليها هذا العلم من أساسه، وهو ما يذكرنا بما قام به ليسنكو في عهد روسيا الستالينية، عندما رفض توجهات البيولوجيا الجزيئية على أسس أيديولوجية. وما تعرض له علماء البيولوجيا الروس من غوغائية تفسيره لفكر ماركس ولينين في هذا الخصوص، وهو ما أدى إلى التخلف الحالي الذي تعاني منه روسيا في مجالي الهندسة الوراثية والبيولوجيا الجزيئية. كل ما نخشاه ـ في حالنا نحن ـ أن يمارس البعض عليها غوغائية أيديولوجية ذات صيغة محلية، لتحول بيننا وبين اللحاق بهذا الفرع العلمي التكنولوجي الحيوي، والذي توليه إسرائيل أقصى درجات الاهتمام، خاصة أن هذا الفرع المعرفي يتهيأ حاليا للقاء علمي تكنولوجي مثير مع تكنولوجيا المعلومات، وهو اللقاء الذي سيتوقف مصير العالم على ما سوف يسفر عنه من نتائج.

أما توجه اقتناء التكنولوجيا دون الأيديولوجيا، فيبدو براقا في مظهره، إلا أنه ينطوي على نظرة قاصرة للتكنولوجيا، حيث يقصرها على شقها الفني فقط، دون المعرفي والتنظيمي والأخلاقي، خاصة ـ كما أشرنا سابقا ـ أن التكنولوجيا تكاد أن تصبح فرعا من فروع فلسفة الأخلاق. فكيف يمكن لنا ـ على سبيل المثال ـ أن نقتص من الهندسة الوراثية جانبها الأخلاقي؟ وكيف يمكن لنا بالقدر نفسه، أن نفصل في تكنولوجيا صناعة البرمجيات، القائمة على صناعة الأفكار أساسا، بين ماهو فني، وما هو ذو صلة بالأيديولوجيا (علم الأفكار)؟. وماذا عن هندسة اللغة وما يرتبط بها من تكنولوجيا المخ، التي تقوم على الأسس العلمية لنظرية اللغة؟ وهي النظرية التي تدور ـ كما أشرنا في الفصل الخامس ـ حول سؤال محوري، مفاده: هل اللغة غريزة تورث، أم مهارة اجتماعية تكتسب؟ وماذا ـ أيضا ـ عن الجانب الأخلاقي لتكنولوجيا المعلومات فيما تؤدي إليه حاليا من انقراض اللغات الإنسانية؟ وهو ما سبق لنا أن تناولناه في صدد الحديث عن الداروينية اللغوية ـ انظر الفقرة 5: 3: 6 من الفصل الخامس.

أما توجه حصر أسلمة العلوم في مجال علوم الإنسانيات دون علوم الطبيعيات، فهو أكثر بدائل أسلمة المعرفة واقعية، وقد اعتبره محمد عمارة استثمارا لخصوصياتنا الحضارية لإنتاج معرفة جديدة، وتفجيرا لقدراتنا الإبداعية، وهو ـ كما يقول ـ يذكرنا بتجربة السلف الذين أخذوا علوم الإغريق دون ألوهيات اليونان وأساطيرهم، وكذلك كيف أخذت الحضارة الغربية من حضارة الإسلام العلوم التجريبية وأسس المنهج التجريبي دون أن تأخذ توحد الإسلام وقيمه وشريعته وفلسفته ونظرته إلى الكون (24:183). حسبنا أن عدم قيامنا بأسلمة علوم الطبيعيات قد بات أمرا بدهيا في غير حاجة إلى مزيد من حيثيات التبرير. أما اقتراح أسلمة العلوم الإنسانية فهو توجه يحتاج إلى نظرة متأنية متعمقة، يجب أن تأخذ في اعتبارها الحقيقتين التاليتين:

- تسعى الإنسانيات ـ حاليا ـ إلى الانضمام إلى مصاف العلوم الدقيقة، ويتزايد اعتمادها على علوم الطبيعيات كمصادر معرفية مغذية - انظر الفقرة 3:2:3 من الفصل الثالث.

- مازالت علوم الإنسانيات في مرحلة بدايتها، فهل لنا أن نلحق بمسارها

العام دون أن ننغلق في قمقم فكري نقيمه بأنفسنا، وحول أنفسنا، ليعزلنا عن غيرنا؟ أم ننتظر نضجها العلمي حتى نشرع في أسلمتها؟ أليس الأجدى أن نلحق بها في بدايتها؟ نطوع الخاص بنا في إطار العام الإنساني، والذي يخصنا نحن أيضا، بدلا من أن نظل نؤسلم حتى نستسلم. ولنأخذ مثالا على ذلك، مساهمة إدوارد سعيد في تحليله المعرفي لخطاب الاستشراق، حيث تجاوزت نظرته العلمية الخاص العربي والإسلامي، ليصب في مسار التنظير الثقافي العالمي، لاسيما فيما يخص علاقة القوة بتوليد المعرفة، ولنعزز مثالنا بما أقر به محمد أركون، من أن اقتراحه الخاص بالإسلاميات التطبيقية، هو بمنزلة فرع من الإنثروبولوجيا الدينية (10: 45).

(د) **عن حل أزمة فكرنا الديني:** مما سبق، يتضح لنا أن علاقة الدين الإسلامي بالفكر، قد استقر بها المقام بين فكي الرحي: بين فكرنا الذي يهاب اقتحام أسيجة التحريم التي أقامها حول نفسه، وهو يشكو من نقص كبير في عتاده المعرفي ومناهجه ومصادر معلوماته، وبين فكر الاستشراق، الذي ينحاز إلى المنهج على حساب الموضوع، ويكتفي بالجرد المعرفي والتسجيل والحصر، ويحجم عن التحليل والدخول في التفاصيل، وينأى عن تناول الخصوصيات الثقافية، في لهفته الحالية على إقامة نظريات عامة في مجال اللغة والتراث ونظام القيم والأخلاق وماشابه. علاوة على ذلك، فإن كلا من المعسكرين يرفض التواصل مع الآخر، حتى شبه إدوارد سعيد الحوار بينهما بحوار الطرشان. إن الهدف هو تحويل مسارنا الفكري، الذي يتسم بطابع رد الفعل، إلى رافد علمي يصب في المسار العلمي العام. وكما اقترح محمد أركون بشأن الإسلاميات التطبيقية، يمكن لنا أن نبدأ باقتراض المنهجيات لتطبيقها على موضوعات وإشكاليات منبثقة من واقعنا، فسوف يتيح لنا هذا أن نبدأ من حيث انتهى إليه الآخرون، بغية اللحاق بهم في جولتهم القادمة لتطوير مناهج العلوم الإنسانية. ولايجب أن نخجل من هذا الاقتراض المنهجي، فقد أقامت اليابان مجدها التكنولوجي على استيراد براءات الاختراع، قبل امتلاكها القدرة على توليد معرفة جديدة، هاهي تصدر براءاتها حاليا. أما فيما يخص الموضوعات، فما أكثرها لدينا، وذلك نظرا لتعدد جوانب الظاهرة الإسلامية وثراء مضمونها، والوضع الفريد لنصها المحوري داخل منظومة المعتقدات والقيم، وذلك علاوة على حالة

الفوران الشديد التي تعيشها معظم مجتمعاتنا العربية والإسلامية، بالإضافة إلى ما يعكسه صراعنا الثقافي مع إسرائيل. من المحتم أن يولد كل هذا إشكاليات جديدة يتفرد بها فكرنا العربي، وهي إشكاليات اعتاد أن يختزلها الفكر الغربي ـ قسرا ـ في إطار مقولات الإرهاب الأصولي، والإسلام السياسي، والنسبية الثقافية وماشابه. إن لدينا كثيرا من الإشكاليات القادرة على استنفار باحثينا. ومن حسن الطالع، أن جميع علوم الإنسانيات تعتمد على علم اللغة، بصورة أو بأخرى، وقد نجحت اللسانيات الحديثة في إدراج الخاص اللغوي، في إطار رؤيتها العامة الشاملة للغات الإنسانية ككل. وقد كان لعالم اللسانيات المغربي عبدالقادر الفاسي الفهري إسهاماته الخلاقة في إغناء هذه النظرية اللغوية العامة، منطلقا من خصوصيات اللغة العربية، وهي الإسهامات التي أقر بأهميتها نعوم تشومسكي صاحب هذه النظرية العامة. أما جوزيف عون عالم اللسانيات اللبناني. فيضع مثال اللغة العربية في بؤرة تنظيره، وقد أصبح من منظري اللغة الثقات عالميا. وتؤكد تجربة الكاتب، في مجال اللسانيات الحاسوبية وهندسة اللغة، جدوى أن نبدأ مما انتهت إليه اللغة الإنجليزية، لنتوسع انطلاقا من ذلك، من أجل الوفاء بالمطالب الخاصة باللغة العربية، وهو ما أدى، بعد ذلك، إلى تطوير نماذج تكنولوجية للغة العربية، تجب تلك المصممة للغة الإنجليزية، وذلك لسبب بسيط مؤداه: أن اللغة العربية لغويا ومعجميا وحاسوبيا تنطوي على العديد من الإشكاليات غير الواردة ـ أصلا ـ في اللغة الإنجليزية، في حين أن معظم إشكاليات الإنجليزية تندرج في إطار اللغة العربية.

على صعيد آخر، كما يقول سمير أمين، إن الثقافة الغربية الجديدة التي نشأت مع الحداثة، ليست ناتج تواصل مسيرة المسيحية، بل هي أقيمت على أساس قطيعة تامة مع التراث المسيحي (192:28). قصدنا بذلك الإشارة إلى ما ينادي به بعض من الليبراليين العرب، بقطع الصلة بين معرفتنا وتراثنا الإسلامي، كشرط للحاق بركب الحداثة. وهو موقف يحتاج إلى إعادة النظر في ضوء متغيرات عصر المعلومات، والتي أدت بالفكر الغربي الحديث إلى التخلص من هذه النظرة القاصرة إلى أهمية التراث، فلا يستقيم هذا الفكر حاليا، دون أركيولوجيا معرفية تربط الماضي بالحاضر، في مسار متصل أو شبه متصل، حتى يتسنى له فهم هذا الحاضر واستقراء

مستقبله. ولاشك في أن تكنولوجيا المعلومات تمثل أداة فعالة لإعادة صلتنا بالتراث، على أسس أكثر موضوعية وشمولا، ولابد من استغلال وسائلها لإعادة فرز الخطاب الاستشراقي، سواء من حيث مصادره أو مناهجه، تمهيدا لتمحيصه من خلال نظرة نقدية متعمقة، تغربل حصاده بغرض الفصل مابين الموضوعي والأيديولوجي، وما بين العلمي وشبه العلمي واللاعلمي.

إن حسن استغلالنا لتكنولوجيا المعلومات هو وسيلتنا إلى اختصار المسار العلمي المنهجي، وتوفير البنية التحتية للتنظير الديني، الذي يتعامل مع ظاهرة الدين في سياقها الاجتماعي الشامل.

3:2:8 اللغة والدين (الطرح العام)

تلتقي اللغة مع الدين على جبهات عدة، هي:

- علاقة اللغة بالنصوص الدينية عموما، والنصوص السماوية على وجه الخصوص
- نشر الدعوة الدينية بلغات متعددة، تلبية لمطالب عولمة الثقافة.
- علاقة النسبية الثقافية بالنسبية اللغوية، وعلاقة كلتيهما بالكيفية التي يقرأ بها الفرد نصوصه المقدسة.
- الجانب الأخلاقي الذي سبقت الإشارة إليه، فيما يخص انقراض اللغات بفعل المعلوماتي والإعلامي.
- علاقة عولمة الثقافة بعولمة اللغة، وعلاقة كلتيهما بدراسات الدين المقارن، في إطار التوجه نحو إقامة خلق عالمي تقره كل الثقافات.

والأهم من ذلك كله، أن اللغة تحمل في جوفها رواسب أيديولوجية عدة، تعكس ثقافة الجماعة الناطقة بها، ولا يقتصر ذلك على ما اعتدنا الحديث عنه، حول أثر الثقافة السائدة في مفردات المعجم، كوفرة مفردات الصحراء والجمل والناقة في معجمنا العربي، أو على صيغ الكناية (مثال: كثير الرماد) أو على التشبيه المجازي (مثال: قاطرة الصحراء)، بل ينفذ هذا الترسيب الأيديولوجي إلى صميم المنظومة اللغوية، ويكفي مثالا - هنا - التعامل مع ظاهرة التذكير والتأنيث في اللغة العربية فيما يخص تفضيل المذكر على المؤنث في مطابقة الفعل والفاعل (مثال: جاء المرأة وطفلها)، وتأنيث جمع

غير العاقل (مثال: مبان شاهقات)، وماشابه.

اللغة والدين (المنظور العربي)

كل لغات العالم قادرة على توصيل رسالة الرب (13:241)، هذا هو المفهوم الذي تنطلق منه الكنيسة المسيحية حاليا، في عولمة جهود الدعوة. على العكس من ذلك، يعارض لدينا توجه تعدد اللغات هذا. ويزعم الجابري أن الوحدة الإسلامية لن تتحقق كاملة من المنظور الإسلامي نفسه، إلا عندما يتعرب غير العرب من المسلمين لسانا وثقافة (مع الحفاظ على اللغات واللهجات والثقافات المحلية). إن الإسلام ـ ومازال الكلام للجابري ـ من دون لغة القرآن وعلوم القرآن، إسلام ناقص الماهية (74:24). واللغة العربية، هي جزء من ماهية القرآن، كما يرى الأصوليون. وفي رأي الكاتب، إن هذا التوجه لانفراد اللغة العربية هو توجه محفوف بالمخاطر، يجب إعادة النظر إليه، في ظل الاعتبارات التالية:

- ينطوي ذلك على نوع من الطبقية اللغوية، بما في ذلك من تناقض أساسي مع النظرية العامة للغة التي تؤكد تكافؤ اللغات، من حيث قدرتها على نقل المعاني.

- يتناقض انفراد اللغة العربية مع ضرورة النظر إلى التنوع الثقافي بين المجتمعات الإسلامية، كمورد ثقافي ثمين في عصر عولمة الثقافة.

- يتعارض ذلك ـ أصلا ـ مع ما نؤكده على انفتاح اللغة العربية، فلو كانت منغلقة لما استوعبت كل تلك التراكمات الهائلة من الاجتهادات (79:105).

- وهل لنا أن ننسى ـ هنا ـ أفضل علماء المسلمين من غير العرب، على التنظير للغة العربية، من أمثال سيبويه والجرجاني، وغيرهما كثيرون.

- يؤدي هذا التوجه لانفراد اللغة العربية إلى عزلة عالمنا العربي، بصفته مركز الدعوة الإسلامية، عن الجمهوريات الإسلامية التي انفصلت عن الاتحاد السوفييتي السابق، خاصة أن إسرائيل ـ كما أسلفنا ـ لها ميزة تنافسية في هذا الصدد، ونقصد بها اليهود الذين هاجروا من الاتحاد السوفييتي، والذين يتكلمون اللغة الروسية كأهلها.

- إن قراءة النص القرآني مترجما إلى لغات الشعوب الإسلامية، هي

الوسيلة الوحيدة لنقل مضمونه إلى عقل المسلم غير العربي. وتجربة ترجمة الإنجيل من اللاتينية إلى اللغات الأوروبية القومية جديرة بالاعتبار هنا.

- وعلى المستوى العملي، أين تلك الموارد الهائلة التي تسمح لنا بترجمة تراثنا العربي، إلى لغات الشعوب الإسلامية غير الناطقين بالعربية؟ وثقتنا أن الجابري لا يقصد بتعريب الثقافة أن يكون ذلك مقصورا على النصوص الدينية الكبرى فقط، دون النصوص الأخرى، التي لا غنى عنها في نقل ثقافتنا العربية.

خلاصة: إن الأجدى لنا والأجدر بنا، هو تأصيل الوضع العالمي للغة العربية، من خلال الدراسات المقارنة والتقابلية، واستغلال التنوع الثقافي على مدى العالم الإسلامي لإغناء الثقافة العربية والثقافات الإسلامية، وزيادة الترابط بين شعوب الأمة الإسلامية.

8 : 2 : 4 التربية والدين (الطرح العام)

يبدي التعليم اللاهوتي اهتماما شديدا، منذ بداية التسعينيات، بشؤون العولمة، وإدراج مطالبها التربوية ضمن تنظيماته ومناهجه، وهو يرى في هذا الصدد، أن عولمة الفكر الديني هي ـ في جوهرها ـ سياق اجتماعي قبل أن تكون مضمونا معرفيا، مما يتطلب إعادة النظر بصورة شاملة في مواد الدراسة، لإضفاء الطابع العولمي عليها. وقد أقرت المؤسسة الأكاديمية اللاهوتية مداخل عدة وصولا إلى هذا الهدف:

- النص الإنجيلي : تعدد القراءات من منظور الثقافات المختلفة.
- التشريع : من منظور عولمة القوانين، ومبادئ الخلق العالمي.
- البحث اللاهوتي: من منظور الدين المقارن.
- منهجيات التعليم والدعوة: التركيز على أساليب الحوار والتفاعل، وتبادل الوفود والبعثات، واستغلال شبكة الإنترنت كساحة لحوار الأديان.

إن ذلك لا يتطلب تعديلات جذرية على المناهج فقط، بل يتطلب ـ أيضا ـ تغيير الأفكار الراسخة في العقل المسيحي بصفة أساسية، وخاصة فيما يتعلق بالمركزية الأوروبية (العربية عموما).

التربية والدين (المنظور العربي)

قصدنا من طرحنا العام إبراز مدى الاهتمام الذي يوليه التعليم اللاهوتي

لظاهرة العولمة، أملا في أن تدرك جامعاتنا الدينية مسؤولياتها إزاء هذه الظاهرة الكونية، في عالم بلغ فيه تعداد المسلمين ما يقرب من المليار، أي ما يوازي سدس إجمالي عدد سكان العالم. إن على الأكاديمية الدينية لدينا أن تجمع بين أفضل ما في القلب والعقل، وأن تدرك كيف يؤتي هذا الحوار ثماره في هيئة علم أجدى وأعمق، وقلب أكثر ثقة وتفاؤلا ورحمة. ويتطلب ذلك إعادة النظر في جميع مناهج جامعاتنا الدينية، وعلى رأسها جامعة الأزهر. لقد حان الوقت لإعادة تنظيم الأزهر، الذي وُضع آخر تنظيم له في بداية الستينيات، وذلك تجاوبا مع المتغير المعلوماتي. فثقافة المؤسسة السائدة، قائمة على الهرمية والسلطة المركزية وطابع التلقين. على صعير آخر، فإن لقاء التعليم والإيمان في الكليات العملية التابعة لجامعة الأزهر، مثلها في ذلك مثل معظم الجامعات الدينية، قد أظهر انحيازا إلى صف التعليم على حساب التنشئة

الدينية، وتمثل هذه الكليات نموذجا فريدا لمزج القيم الروحية مع المعرفة العلمية، وخاصة مع تنامي البعد الأخلاقي والقيمي في العلم والتكنولوجيا بصفة عامة.

8 : 2 : 5 الإبداع والدين (الطرح العام)

مثلما يمكن للفكر الديني أن يكون دافعا إلى الإبداع، يمكن ـ أيضا ـ أن يصبح عائقا له. وقد أشرنا ـ سلفا ـ إلى الكيفية التي أطلق بها الفكر البروتستانتي حرية الإبداع، بعد تحرير العقل الأوروبي من سلطة الكنيسة ـ انظر الفقرة 6:2:4 من الفصل الرابع. إن الفكر الديني المسيحي أصبح أكثر وعيا بدوره في تنمية الإبداع، فالناس هم صناع تاريخهم، والمستقبل مفتوح على مصراعيه أمام الجميع، كي يساهموا بإبداعهم، وليس عند المسيحيين ـ كما يقول سمير أمين ـ ما يقابل تلمود اليهود، وفقه المسلمين (188:68). من جانب آخر، يعد التراث الديني: نصوصه ورموزه وطقوسه، مصدرا لا ينضب للإبداع، شريطة مداومة تجديد النظرة إليه.

الإبداع والدين (المنظور العربي)

نحن في أمس الحاجة إلى أن يتحول ديننا إلي مصدر إلهام لمبدعينا،

على اختلاف اهتماماتهم. مفتاح ذلك هو تجديد النظرة إلى نصوصنا الدينية الكبرى. لقد أنكر المتكلمون التقليد، وشككوا في صحة إيمان المقلد إلى حد تكفيره (54:96)، واعترضت المعتزلة على الإجماع على خطأ، والاعتماد على ظاهر النص دون تأويل لفهم حقيقة الدين (105 :194). إن علينا أن نتخلص من تلك المفاهيم الخاطئة، التي يرددها البعض، من أن نصوصنا الدينية قد جاءت قاطعة جامعة في كل ما يرتبط بالدين، ابتداء من عقيدة التوحيد وانتهاء بإماطة الأذى عن الطريق، مما لا يترك ـ بالتالي ـ أي فرصة للاجتهاد. في رأينا، أن شمولية النصوص تلك، تعني مواجهة على جبهة أوسع وأعمق، مع إشكاليات حياتنا المعاصرة، وبالتالي قدرة أكبر على إثارة الأسئلة والقضايا. إن نصنا الديني المحوري ينفرد بتوافر نص ديني شريف (نص السنة النبوية) مفسرا لما جاء به، وعلينا ألا نحرم فكرنا الديني من هذه الميزة المعلوماتية الفريدة.

8 : 3 منظومة المعتقدات والقيم

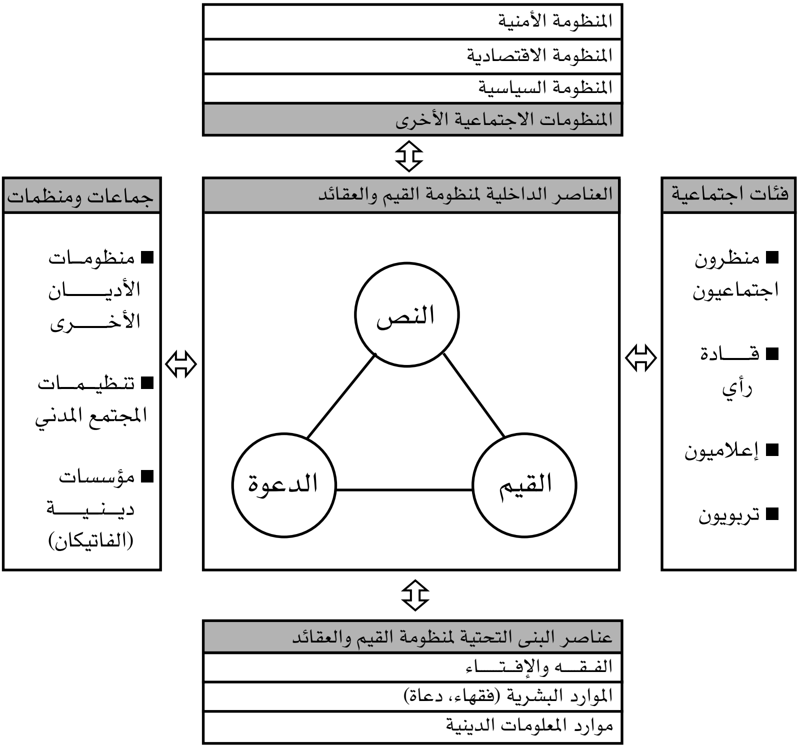
8 : 3 : 1 الإطار العام للمنظومة

يوضح الشكل (3:8) الإطار العام لمنظومة المعتقدات والقيم من منظور معلوماتي، وهي تتضمن ثلاثة مكونات أساسية هي:

- العلاقات الخارجية التي تربط المنظومة بخارجها.
- مجموعة العناصر الداخلية لمنظومة المعتقدات والقيم. لا حاجة بنا إلى تأكيد أن الأداء الكلي لمنظومة المعتقدات والقيم يتوقف ـ بصورة أساسية ـ على موقع الدين من المنظومة المجتمعية، وكذلك على شكل التنظيمات الدينية التي ترعى مصالحه. لقد رأى الكاتب ألا يدرج ضمن العناصر الداخلية للمنظومة عنصرا يمثل المؤسسة الدينية المركزية التي يوكل إليها إدارة شؤون الدين، وذلك حتى يأتي الإطار العام المقترح هنا منسجما مع رؤية الكثيرين لدينا، علاوة على اعتقاده أن دور هذه الكيانات الدينية المركزية سيتقلص في عصر المعلومات، وستتوزع مهامها ما بين عناصر البنى التحتية وشبكة المؤسسات والجمعيات الأهلية التي تربط المنظومة بخارجها.
- عناصر البنى التحتية، وتشمل مؤسسات الفقه والإفتاء والبحوث

والدراسات الدينية والمعاهد الدينية، وكذلك الموارد البشرية من فقهاء ودعاة ومنظرين دينيين، بالإضافة إلى الموارد المعلوماتية الدينية، والتي تشمل إلى جانب النصوص الدينية، موارد المعلومات العلمية والتكنولوجية ذات الصلة بها، والأرشيفين: السمعي والبصري للتراث الديني.

وسنتناول فيما يلي المكونين الأولين:



(الشكل 8 : 3) الإطار العام لمنظومة القيم والمعتقدات

8 : 3 : 2 العلاقات الخارجية لمنظومة المعتقدات والقيم (الطرح العام)

(أ) **علاقة منظومة المعتقدات والقيم بالمجتمع ككل:** الدين تنزيل إلهي ومعطى سماوي، وعلى الجماعات أن تؤمن به، وتخضع لمبادئه، وتسير على هداه. هذه الحقيقة البسيطة والمباشرة، لا يسلم بها علماء فلسفة الدين واجتماعه وتاريخه، حيث يرى هؤلاء العلاقة بين المجتمع ونظام معتقداته

علاقة متغيرة، فكل مجتمع يفرز نظام المعتقدات والقيم الذي يلبي مطالبه، ويتواءم مع نمطه الاجتماعي السائد، وبنية مجتمعه الداخلية، بمعنى آخر، إن نظام المعتقدات متغير تابع لهذه العوامل المجتمعية، وهو نظام ممتد على مدى نطاق واسع، يشمل السحر وعبادة الأصنام وتعدد الآلهة والإيمان بالبعث والاعتقاد بوجود ذات إلهية عليا. وينتقي المجتمع نظام معتقداته ـ في منظورهم ـ وفقا لعوامل عدة من أهمها:

- الطابع السائد في حصول أفراد المجتمع على احتياجاتهم الرئيسية، من خلال الصيد أو الرعي أو الغذاء البري أو الزراعة، وهلم جرا.

- البناء الطبقي للمجتمع: هل هو مجتمع أحادي الطبقية، أم ثنائيها، أم متعدد المستويات الاجتماعية، ومدى الفوارق بين هذه الطبقات وطبيعة العلاقات القائمة بينهم.

- شكل وحدة البناء الرئيسية للمجتمع، ونقصد بها الأسرة النواة: هل هي أسرة الأب الشائعة، أو أسرة الخال، أو أسرة العم، كما في بعض القبائل البدائية.

لقد قصدنا من هذه المقدمة التمهيد لما يزعمه البعض من أن المجتمع سيفرز نظاما خاصا به للمعتقدات والقيم والأخلاق، سندهم في ذلك أن انصهار تكنولوجيا المعلومات داخل الكيان المجتمعي سيحدث نقلات نوعية في العوامل الثلاثة المذكورة أعلاه. فلا جدال في أن المعلوماتية ستتدخل ـ بصورة كبيرة ـ في أسلوب حصول الفرد على احتياجاته الأساسية، ومن المحتم أنها ستؤدي إلى تغيرات جذرية في هيكلية الطبقات الاجتماعية، ولن يكون شكل الأسرة النواة ـ هو الآخر ـ بمنأى عن التغيير، في ظل السيولة الهائلة لتنقل الأفراد بين الأماكن والأعمال، وقدرة الجماعات الخائلية للإنترنت على تشكيل روابط قريبة من تلك للتآلف الأسري. ونحن نوافق الكثيرين أن في هذا الرأي نوعا من الإسراف، لكننا في الوقت ذاته على ثقة بأن المجتمع المعلوماتي سيؤدي إلى تغيرات جذرية في علاقة المجتمع بنظام معتقداته وقيمه وأخلاقياته.

بشكل عام، يمكن القول: إن العلاقة بين الدين والمجتمع تتراوح بين كونه دافعا أو عائقا، فإما أن تكون البنى الدينية من أجل صيانة البنى الاجتماعية الأخرى، وإما أن تكون عائقا لعملية التطور الاجتماعي، كما كانت عليه

الحال في يابان ما قبل النهضة، والذي أكد مصلحوه الاجتماعيون على ضرورة إحداث تغييرات جذرية في نظام قيمه ومعتقداته وتقاليده، حتى يستطيع تحقيق النقلة الحضارية للمجتمع الصناعي. وما كانت حركة الإصلاح الديني البروتستانتي، إلا محاولة للتوفيق بين الدين والأخلاق من جهة، ومصالح المجتمع الأوروبي، الآخذ في التطور حينئذ، من جهة أخرى (375: 143).

لم يعد الموقف بالنسبة لمجتمع المعلومات، يحتمل معه أن يظل المجتمع يراكم تغيراته حتى يأتي إصلاح ديني يضبط العلاقة بين الدين والمجتمع. إن عصر المعلومات يتطلب تناغما مستمرا، ومداومة للتكيف ديناميا. وهو أمر بات ممكنا نتيجة للشفافية العالية التي توفرها تكنولوجيا المعلومات. إن شفافية العلاقات الخارجية لمنظومة الدين ودينامية العلاقات الداخلية بين عناصر هذه المنظومة، هما الضمانان الوحيدان لترسيخ دور الدين في منظومة المجتمع، الذي صار في حاجة إلى القيم الروحية والزاد الأخلاقي، بقدر حاجته إلى العلم والتكنولوجيا والتنظيم.

لقد اتسم خطاب التوجيه الديني حتى الآن بالفردية الشديدة، فهو يركز على خطايا الأفراد، وضبط سلوكهم، ومدى التزامهم، في الوقت ذاته الذي يغض الطرف فيه عن خطايا المؤسسات (68: 247). لقد كشفت، وستكشف، شفافية عصر المعلومات عن هذا الانحياز، وعلى الدعوة الدينية أن تحول نظرها إلى خطايا المؤسسات الاجتماعية العلمية والاقتصادية والتربوية والإعلامية والسياسية، ففساد الفرد في المجتمع تابع لفساد مؤسساته.

(ب) **العلاقة الدينية ـ السياسية:** «أي شيء لأصدقائي، أما غيرهم فلهم القانون» (99: 116). تؤكد هذه المقولة، لسياسي برازيلي، أن القانون ليس مرادفا للعدل. وكلما تدخلت السياسة اتسعت الهوة بينهما. فهناك تناقض جوهري بين براجماتية السياسية وإجراءاتها القصيرة الأجل، وبين سمو القيم الروحية ولا زمنيتها، ويشهد التاريخ الإنساني أنه ما اقترن هذان النقيضان: الدين والسياسة، إلا وأدى اقترانهما إلى مزيد من الصراع، أكثر من إسهامه في صنع السلام. ويكفي، أمثلة من حاضرنا، تلك الصراعات الدينية بين المسلمين وطوائف الهندوس في الهند، وبين الكاثوليك

والبروتستانت في أيرلندا. أما تاريخ الماضي، قريبه وبعيده، فزاخر بالحروب الدينية والنزاعات الطائفية. ومستقبل مجتمع المعلومات مهدد ـ هو الآخر ـ بصراع إنساني، يشعل فتيله تنافس ساسته، واضطراب قيمه ومعتقداته، وهو الأمر الذي يتطلب ضرورة ضبط العلاقة السياسية - الدينية في هذا المجتمع الوليد.

إن عملية اتخاذ القرار السياسي أصبحت عملية معقدة للغاية، تحتاج إلى أساليب علمية ووسائل تكنولوجية لدعمها، مما يتطلب ـ بدوره ـ إشراك الخبراء في صياغة القرار السياسي (19:281). ترتب على ذلك افتراض الثقة في أمانة هؤلاء الخبراء وقدراتهم، وهنا تبرز أهمية أخلاقيات الأمانة المهنية من جانب الخبراء، والالتزام الأخلاقي من قبل الساسة بعدم إساءة استخدامهم هؤلاء الخبراء لإضفاء الوجاهة العلمية على قراراتهم، وعزل جماهيرهم ـ بالتالي ـ عن المشاركة فيها.

لقد لجأ الحاكم فيما مضى إلى الكاهن والساحر. أما اليوم، فهو يلجأ إلى العلماء، في الوقت ذاته الذي أصبح فيه هؤلاء العلماء تحت رحمة التمويل الحكومي، وذلك بعد أن أصبح العلم مؤسسيا نظرا لضخامته، وتضخم ميزانيته بالتالي. وهكذا فقد العلماء استقلاليتهم، وعجزوا ـ نتيجة لذلك ـ عن التصدي للساسة. وعندما عجزت الموارد الحكومية عن تلبية مطالب التمويل للمشاريع العلمية، بات قدر العلماء في قبضة المؤسسات الاقتصادية، التي تحتاج ـ بدورها ـ إلى عقلنة من نوع آخر يمدها بها العلم، في هيئة بحوث علمية من قبيل تلك التي تخفف من أضرار التدخين، وتبرر عدم التزام مصنعي السيارات بمعايير الحد الأقصى لانبعاث نسبة ثاني أوكسيد الكربون في عوادم السيارات. مما سبق، يمكن القول: إن الموقف يتحرك من محورية العلاقة بين الدين والسياسة، إلى محورية العلاقة بين الدين والاقتصاد.

(ج) **العلاقة الدينية ـ الاقتصادية:** لقد استهللنا حديثنا عن العلاقة الدينية ـ السياسية بمقولة لسياسي برازيلي، ودعنا نستهل حديثنا هنا عن العلاقة الدينية ـ الاقتصادية بمقولة لاقتصادي أمريكي، واتته الجرأة ليصرح قائلا: «إنه من الممكن حل مشكلة تلوث الهواء لو تحول الهواء إلى سلعة» (283: 250). ولم يعد هذا بالأمر المستبعد، ففي شوارع مدينة طوكيو منافذ

استنشاق عامة (كالصنابير)، يلجأ إليها المختنقون من هواء العاصمة اليابانية الشديد التلوث، من أجل نفحة من الأكسوجين يدفعون ثمنها نقدا(*2). لقد أصبح كل شيء في مجتمع السوق قابلا للتوزيع كسلعة، وأصبح كل شيء قابلا للبيع والشراء، سواء منتجات الطبيعة أو الصناعة أو المعلومات أو الإبداع. إن المنطق الأخلاقي يفرض علينا ألا تتحول احتياجات الإنسان الأساسية إلى سلعة، وقد أصبحت المعلومات - بالفعل - ضمن هذه الاحتياجات الأساسية، بعد أن ثبت كونها موردا لا غنى عنه لإنتاج غذاء الإنسان، وتوفير مسكنه وملبسه وتعليمه ورعاية صحته والترفيه عنه. لقد أصبح تسليع المعلومات أحد الجوانب الرئيسية للعلاقة بين منظومة الاقتصاد ومنظومة القيم والأخلاق. وكما وقف الدين إلى جانب الاقتصاد عندما ساندت الكالفينية نظام الرأسمالية الصناعية من خلال تحديثها للمفاهيم المسيحية حول الفضيلة واستثمار الأموال (58:294)، وكما كان اقتصاد آدم سميث وكينز بمنزلة عقلنة للخطاب الرأسمالي، يبحث دين العولمة الجديد عن صيغ جديدة لعقلنة عولمة الاقتصاد وحتمية النموذج الرأسمالي الليبرالي.

إن الخطابين الاقتصادي والديني خطابان متناقضان، ولا يقل تناقضهما عن ذلك ما بين خطاب السياسة وخطاب الدين، وربما يكون أكثر حدة وخطورة في ظل المتغير المعلوماتي. لقد تخلى الاقتصاد الكلاسيكي الجديد بنهاية القرن التاسع عشر، عن غايته الأساسية المتضمنة في مصطلحه اليوناني، والذي يعني توفير سبل الإعاشة. وكما انفصل العلم عن الدين، كان لابد للاقتصاد أن ينفصل عنه هو الآخر، بعد حصوله على عضوية نادي العلوم الدقيقة وعلى اللاهوت، في ضوء هذا الانفصال، أن يقوم بخدمة الرب مع عدم المساس بقوانين السوق. فاللاهوت الليبرالي الحديث ـ كما صرح البعض ـ يعمل تحت الشروط التي وضعتها نظرية الحرية الطبيعية وقوانين السوق (249:283). لقد ضيق الاقتصاد الحديث الخناق على الدين في أن يسهم في العمل العام، من أجل إعادة التوازن بين موارد البشر واحتياجاتهم، وهو الأمر الذي ترك للاقتصاد الحبل على الغارب لينطلق على هواه، دون وازع أخلاقي، حتى انتهى به المطاف إلى هذه الحالة الصارخة من عدم العدالة في توزيع الموارد والعوائد ، في الوقت ذاته الذي يزعم فيه، أن مهمته الأساسية هي ترشيد استغلال هذه الموارد، واستثمار

تلك العوائد، من أجل صالح الجميع، ونتيجة كل هذا في النهاية هو تراكم الثورة المالية كمصدر للقوة، التي لا تعرف إلا منطق السوق. ويلوح في الأفق هذه الأيام، تراكم ثنائي أكثر ضراوة، يجمع بين تراكم الثروة المالية، وتراكم الثروة المعرفية نتاج عصر المعلومات؛ من أجل إحكام قبضة القوى الرأسمالية على مصائر البشر. وكما يقول التكنوقراط: أن لا حل لمشاكل التكنولوجيا إلا بمزيد من التكنولوجيا، يقول أهل عولمة الاقتصاد: أن لا حل لمشاكله إلا بمزيد من الخصخصة وتحرير الاقتصاد، وتسارع حركة رؤوس الأموال. والفرج آت عما قريب، وسوف تتحقق الوعود كافة، وتتمحي الفروق، ما إن تتخقق الفروض، ويبدي الجميع التزاما أكثر صرامة بقوانين السوق، وامتثالا لتعليمات البنك وصندوق النقد الدوليين.

لقد مضى الاقتصاد سادرا في غيه، زاعما كونه مجالا مستقلا بذاته، وقد استهوته المؤشرات الكمية والمعادلات الرياضية والسلاسل الزمنية، ولقد أخذت بلبه وضعية العلوم الطبيعية، وكان الأولى به أن يتوجه بمناهجه صوب الإنسانيات لا الطبيعيات، وما أبهظ الضريبة التي دفعتها البشرية لهذه العقلانية الاقتصادية القصيرة النظر. لقد بات ضروريا أن يهجر الاقتصاد انعزاليته كي يسترد غايته الأصلية لتوفير سبل المعيشة، وتلبية احتياجات الفرد.

لقد ترك دعاة الدين رعاياهم عزلا من جميع أدوات النضال، في مواجهة شرسة مع ضراوة النظم والمؤسسات. وتشهد الوقائع بمؤازرة الفكر الديني لمؤسسات عصر الصناعة، وآن له أن يكفر عن خطئه، بالوقوف إلى جانب الفرد في اقتصاد عصر المعلومات. إن لم يحدث ذلك فستفقد المؤسسة الدينية مصداقيتها وفاعليتها، وتفقد الجماهير ثقتها في مؤسستها الدينية بالتالي، بعد أن فقدت ثقتها في مؤسستها التربوية، وهكذا تنفرد بالساحة القوة الرمزية الوحيدة الباقية، ونقصد بها القوة الإعلامية. وهذا أقصى ما يحلم به أباطرة العولمة في وقتنا الحالي.

شهد السجال الرأسمالي ـ الماركسي حوارا ساخنا حول «فلسفة الفقر» و«فقر الفلسفة»، وها هو الاقتصادي الهندي أمارتا سن يهبط بفلسفة الاقتصاد إلى أرض الواقع، ويسمو بها إلى «مابعد الكينزية»، في محاولة منه لإرجاع الأمور إلى نصابها، فقد ركز أمارتا سن على مشكلات الظلم

الاقتصادي، والفقر والتهميش الاجتماعي المتزايد، وراح يفسر لنا هذا اللغز الذي مازال يحير الجميع، ونقصد به لماذا يتساقط الناس جوعا بالرغم من توافر موارد الغذاء [108]. ومن دواعي السخرية أن ينال سن جائزة نوبل عن «مخاطر المجاعات والفقر»، في السنة التالية مباشرة لمنح جائزة نوبل لعالم اقتصاد آخر عن بحوثه حول «مخاطر المضاربات في الأصول المالية». وعلى العالم أن يحسم خياره: مابين «اقتصاد الكازينو» وبين «اقتصاد التنمية»، الذي أسس له الاقتصادي الهندي الفذ، وإلا سنظل نقترف الخطايا الكبرى التي حذرنا منها المهاتما غاندي، والتي أشرنا إليها سلفا.

(د) **حوار الأديان:** حوار الأديان هو أهم محاور الحوار الثقافي، وهو الحوار الذي أصبح ممكنا ولازما في آن، لقد وفرت شبكة الإنترنت ساحة ساخنة للتثاقف الديني. يشهد على ذلك، هذا العدد الوفير من المواقع الدينية الممثلة لمختلف الأديان والطوائف. لقد وفرت دراسات الدين المقارن الأسس النظرية من أجل حوار أكثر موضوعية وفاعلية بين الأديان، في إطار توجه أشمل لبلورة نظرية عامة لتراث الإنسانية الديني.

وحوار الأديان ضرورة تفرضها عولمة الاقتصاد، وعولمة الثقافة على حد سواء.

فعلى صعيد الاقتصاد يهدف حوار الأديان إلى تبادل المعلومات من أجل التصدي لمظاهر عدم المساواة والاختلال في توزيع الدخول والثروات التي نجمت عن عولمة الاقتصاد. يتسم حوار الأديان في هذا الإطار بطابع نضالي، ونزعة تصحيحية، بهدف التخفيف من الآثار السلبية للعولمة. ويتطلب هذا الحوار فهما دقيقا للأبعاد الاقتصادية، وتقوم بالدور الرئيسي فيه الكنائس والجمعيات الأهلية لحقوق الإنسان والغوث وماشابه. أما فيما يخص عولمة الثقافة، فتدعو إلى حوار بين الأديان ذي طابع أخلاقي، يهدف ـ أساسا ـ إلى إقامة خلق عالمي، ويبحث عن الأسس المشتركة بين الأديان، ويسعى إلى لم الشمل والانتقال من حوار اختلاف العقائد إلى وحدة الأخلاق والقيم الإنسانية، واعتبار مفهوم العدالة قيمة عالمية تتمسك بها جميع الأديان. تقوم بالدور الرئيسي، في حوار عولمة الثقافة الديني المؤسسات الأكاديمية والمؤسسات الدينية الكبرى.

وتواجه المسيحية في حوارها مع الديانات الأخرى عقبات عدة أهمها:

- ارتباط المسيحية بالاستعمار في ثقافات كثير من شعوب العالم النامي، وأن حضارة الغرب قد قامت على منطق نفسي لتدمير الحضارات الأخرى (52:59).

- ألوهية المسيح حتى صرح بعضهم قائلا: علينا أن نزيح ألوهية المسيح من طريقنا حتى يصبح بمقدورنا إقامة حوار مع الغير (70:247).

- التصميم على صحة التقاليد المسيحية الغربية عالميا، وقد ولد تفوق الغرب لدى المسيحية نزعة التعالي، والغرب - كما يقول جارودي - يعتقد أنه مباح له تحديد مكان الآخر، والحكم عليه لصالح تاريخه وغاياته وقيمه (53:59).

(هـ) علاقة منظومة المعتقدات والقيم بالفئات الاجتماعية: سنركز الحديث ـ هنا ـ على الجانب الأخلاقي لاستغلال الفئات العاملة في عصر المعلومات. ارتكز استغلال عصر الصناعة لفئاته العاملة على علم العمل الأمريكي، كما أسسه فردريك تيلور، والقائم على زيادة الإنتاجية من خلال دراسات الوقت والحركة time & motion studies، وهي الدراسات التي لم تعر التفاتا إلى عوامل التعب والضجر (186:278)، وهو يختلف، في ذلك، عن علم العمل الأوروبي الذي سعى إلى عقلنة أماكن العمل، مع الأخذ في الاعتبار صحة العمال وراحتهم، وتتفوق فلسفة الإدارة اليابانية في هذا الشأن، حيث تحرص، بالإضافة إلى ذلك، على تأمين العمال ضد مخاطر البطالة، من خلال نظام التعاقد مدى الحياة. لقد تمثل استغلال عصر الصناعة في إطالة ساعات العمل، وتدهور بيئته، وتدني الأجور، وصرامة الرقابة المباشرة على العمال. أما استغلال العمال في عصر المعلومات، فينحو إلى «القسوة اللينة»، حيث يقوم على الرقابة عن بعد، والحرمان من فرص العمل، وكذلك حرمان العامل من المعلومات، وإحالة مطالبه وشكاواه إلى سراديب التنظيمات وبرودة البيروقراطيات. وأخطر مظاهر الاستغلال - في رأينا - هو ما سبق أن أشرنا إليه بخصوص تفتيت مهارات العمال deskilling، بحيث تُكتسب هذه المهارات بسرعة، تُفقد بسرعة أكبر، مما يسهل على الإدارة إحلال أي عامل بآخر، تماما كما تُستبدل قطع الغيار.

لقد كان فردريك تيلور هو القائل: إن المجتمع سيحظى باحترام أكبر عندما يضع الكائن البشري تحت رحمة التكنولوجيا بعد أن أصبح البشر أقل كلفة من كلفة الآلات (52:299). لقد وضعت تكنولوجيا المعلومات الإنسان ـ بالفعل ـ تحت رحمة نظمها الصارمة. فعلى الرغم من ادعائها المرونة، وسرعة تكيفها مع مطالب المستخدم وقدراته، وحرصها على تطبيق قواعد الهندسة البشرية حتى تصبح نظم المعلومات أسهل استخداما، وطوع بنان مستخدمها، بالرغم من كل هذا، تظل هذه النظم هي المسيطرة ـ بالفعل ـ على الحوار الإنس ـ الآلي، أو «الإنسالي» كما أطلقنا عليه. إن نظم المعلومات تبدي تعاطفا زائفا مع الفقراء، الذين أصبحوا هم الغالبية في مجتمع المعلومات، مستبعدين من مزايا التكنولوجيا، وعوائد الاستثمار وليبرالية نظم الحكم، وربما صح قول من قال: إنهم باتوا مستبعدين ـ أيضا ـ من رعاية مؤسساتهم الدينية (344:202).

العلاقات الخارجية لمنظومة المعتقدات والقيم (المنظور العربي)

(أ) **علاقة شائكة وغامضة:** علاقة ديننا بمنظومة المجتمع أشد اشتباكا وغموضا، بغض النظر عن الموقف الفكري منها. ولا جدال في أن العلاقة تحتاج إلى مراجعة شاملة في ضوء متغيرات عصر المعلومات، وهو مايسعى البحث الراهن إلى مساهمة في توفير الخلفية العلمية له. ويدرك الكاتب مدى الحساسيات، ووعورة الأرض الملغمة التي عليه أن يسلكها وصولا إلى هذا الهدف، خاصة أن مجتمع المعلومات يطرح أسئلة وقضايا مستجدة لا يجدي معها الحديث المراوغ.

يمكن القول، بصفة عامة، إن ثقل العلاقة بين المجتمع والدين يتركز لدينا على أمور السياسة، الأمن، وليس على أمور الاقتصاد كما هي الحال في المجتمعات المتقدمة.

(ب) **عن العلاقة الدينية ـ السياسية:** لقد استحدث كثير من المجتمعات العربية صيغا مبتكرة تختلف، من حيث قربها وبعدها، عن المقولة الشهيرة «ما لقيصر لقيصر وما لله لله»، والتي يتبناها صراحة المجتمع الغربي كمبدأ أساسي له. وقد امتزجت في إطار هذه الصيغ مصطلحات المهادنة والتحالف والاحتواء، والحرص على الصالح العام، والمحافظة على تماسك

الجبهة الداخلية. ولهذه المرونة في علاقة الدين بالمجتمع أمثلة عدة في تاريخنا، اخترنا منها ـ هنا ـ كيف لجأت جماعة إخوان الصفا إلى المذهب الإسماعيلي لمعارضة الحكم العباسي، في حين استغل الفاطميون المذهب ذاته كأداة للتغلغل السياسي. لقد قصدنا بهذا المثال أن نوضح كيف يمكن أن يكون الدين سلاحا لمؤازرة القوى السياسية ومناهضتها معا. ودعنا نستطرد قليلا في حديثنا عن تاريخية العلاقة الدينية-السياسية، بالإشارة إلى مطالبة محمد علي علماءه الدينيين بمؤازرة سياساته، ولكن سرعان ما استعان في شأن ذلك بنخبته العسكرية. ولهذا التحول مغزاه، من حيث علاقة القوى السياسية بالقوى الرمزية. وذلك فيما يخص مواجهة ظاهرة العنف الديني، لقد كان زهد التصوف، في أحد جوانبه، بمنزلة رد فعل ضد التمايز الطبقي، كنوع من عدم الامتثال السلبي لسلطة الحكم السياسي. أما في أيامنا، فإن العنف، لا الزهد، قد أصبح بديلا شائعا تعبر به الجماهير الغاضبة عن سخطها، مما يوجب على دعاتنا الدينيين أن يتصدوا لفساد المؤسسات، بحيث لا يكون شاغلهم الوحيد هو هداية الفرد وزيادة إيمانه. إن الفكر الإسلامي الراهن لم يظهر الحساسية، المتوقعة منه، ضد تناقضات السياسة والاقتصاد في مجتمعاتنا، خاصة في إطار ظاهرة العولمة. لقد صار لزاما على القوى الرمزية الدينية أن تقيم علاقة متوازنة بين مساندة السلطة ورعايتها لمصالح الشعب، وإلا ستجد مجتمعاتنا نفسها في مسار تصادم حتمي صوب صيغة جديدة من فرض الانضباط الاجتماعي، تمتزج فيها أسلحة الرمز مع أدوات القهر التقليدية. وتطفو من اللاوعي هنا تداعيات عدة عن النص والرصاص، والسيف والذهب، والجنرال والحاخام، وهلم جرا. إن شفافية عصر المعلومات تتطلب من أنظمة الحكم ومؤسساته الدينية، الرسمية وغير الرسمية، حوارا عميقا، مع ضمان أكبر مشاركة من قبل القوى الشعبية، ونعتقد أن المدخل الديني ـ المعلوماتي، لو أحسن توجيهه، سيكون مدخلا حيويا لتعميق روح الديموقراطية.

(ج) **عن العلاقة الدينية ـ الاقتصادية:** يقول سمير أمين إن السمة الغالبة للحركات الإسلامية، هي غيابها عن إدارة الصراع على أرضيات الحياة الاقتصادية والاجتماعية الحقيقية [1]، في حين تبرر الحركات الإسلامية عجزها عن صياغة برنامجها الاقتصادي والاجتماعي بحرمانها من حرية

التعبير والتنظيم والعمل النقابي (19 : 31) والتفاعل المباشر مع الجماهير. وهذا الانعزال غير جائز، في ضوء تلك القضايا الكثيرة ذات الطابع الاقتصادي ـ الديني، التي تطرحها العولمة وتكنولوجيا المعلومات وتسليع الثقافة والملكية الفكرية. أضف إلى ذلك أن هناك من يطرح الاقتصاد الإسلامي بديلا من اقتصاد العولمة. في الوقت ذاته، فإن شبكة الإنترنت تتيح لهذه القوى السياسية قنوات اتصال مبتكرة مع قواعدها الشعبية.

على صعيد آخر، فإن المال قد تحول في عصر المعلومات إلى مجرد نبضات ومعلومات، وكاد المال، بصورته النقدية المعهودة، يختفي نتيجة انتشار تحويلات الأرصدة الكترونيا، والتوسع في استخدام بطاقات الائتمان. ونتساءل هنا: ما موقف الإسلام بالنسبة لهذه التحولات في التعامل مع المال؟ هل سيظل يرفض التعامل مع المال كسلعة، بعد أن اقترب المال من أن يكون معلومات، وأصبحت المعلومات ذات قيمة مادية؟ وهل يتطلب ذلك الربط بين تسليع المعلومات وتسليع الأموال، وإعادة النظر في موقفنا من ثنائية رأس المال المادي، ورأس المال البشري؟

وأخيرا، هناك من يتجنى زاعما أن عقائدنا وراء تخلفنا الاقتصادي، وهو تجن خاطئ يجب التصدي له في ظل المتغير المعلوماتي، وعلينا ـ في هذا الشأن ـ أن ندرس تجربة دول حافة الباسيفيك المسلمة التي نجحت في وضع صيغة متوازنة بين قيم الإسلام وقيم المجتمعات العصرية تكنولوجيا، بصورة أدت بالبعض إلى القول: إن بإمكان هذه الدول المسلمة، الوصول إلى إبداع غير مسبوق (116: 94).

(د) **حوار الأديان:** في البيان الشهير للبابا بولس السادس، في المجتمع الفاتيكاني الثاني العام 1964، ذكر الإسلام بكل خير، ودعا إلى إقامة الحوار معه. وقبله، بتسعة قرون تقريبا، وفي موعظة شهيرة للبابا أوربان الثاني لإلهاب مشاعر المسيحيين في حروبهم الصليبية، التي اعتبرها حروبا مقدسة، يقول البابا: لقد اجتاح البرابرة في نوبات هوسهم كنائس الرب وخربوها. بل استولوا على مدينة المسيح المقدسة، التي تزهو بما شهدته من آلام المسيح وقيامته، لقد باعوها وباعوا كنائسها في سوق الرقيق المقيت (102: 76). إن هذين الموقفين المتناقضين يلخصان العوامل التي تحكم الحوار الإسلامي ـ المسيحي، مبادرة مسيحية صادقة لإقامة الحوار، في مقابل

عداء قديم من جانب واحد، تحكمه ـ على حد تعبير المستشرق البريطاني بريان تيرنر ـ خطيئة أصيلة، أو جرثومة أبدية تجعل من الإسلام ـ في نظر الغرب ـ دينا للعنف والبدائية.

ومع تقديرنا للمبادرات الحالية، التي تتسم بالسماحة والتفهم من قبل بابا الفاتيكان، ومن ولي عهد بريطانيا، ومن آخرين غيرهما، إلا أنها مازالت دون تجسيد عملي. إن الحوار الإسلامي ـ المسيحي الفعال هو أحد الشروط الأساسية لتغيير هذا الموقف العدائي من الإسلام، وهو ما دعا مدير المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة أن يصف هذا الحوار بأنه صار اليوم ضرورة ترقى إلى مستوى فرض الكفاية (20:11). إن إحياء الحوار الإسلامي ـ المسيحي أصبح لازما، حتى لا تخلو الساحة للحوار المسيحي ـ اليهودي، خاصة أن الطرف اليهودي يسعى إلى إقامة تحالف يهودي ـ مسيحي ضد الإسلام.

من جانب آخر، لا يستطيع أحد أن ينكر المسيحية أكثر تنظيما وإدراكا بالإشكاليات التي تطرحها العولمة، وأكثر قدرة على استغلال تكنولوجيا المعلومات في المجال الديني، ولاشك في أن الحوار الإسلامي ـ المسيحي سيستحث الطرف الإسلامي كي يجدد معارفه ووسائله.

هناك قناتان أساسيتان للحوار الإسلامي ـ المسيحي: إحداهما عبر الحوار الرسمي مع الفاتيكان، والأخرى من خلال الحوار الأوروبي- العربي الذي توسع، أخيرا، ليشمل بجانب الأمور السياسية والاقتصادية، حوار الأديان وجوانب ثقافية أخرى. ولكن، وبالرغم مما يقرب من ثلاثين جولة من جولات الحوار الإسلامي ـ المسيحي، فمازال بلاجدوى، ونتائجه متواضعة للغاية (20:21)، وذلك لأسباب يتقاسمها الطرفان الإسلامي والمسيحي، يمكن تلخيصها على الوجه التالي:

- اختلاف بؤرة الاهتمام في الحوار الأوروبي- العربي، فشاغلنا الأساسي هو السياسة، بينما شاغلهم الرئيسي هو الاقتصاد.
- النظرة الاختزالية من كلا الطرفين، فالغربي هو الاستعمار والإمبريالية ومساندة إسرائيل، والعرب هم الخطر الذي يهدد العولمة، وهم الخصم التاريخي وسلاح البترول.
- غياب إستراتيجية واضحة من طرفنا لتوجيه مسار الحوار.

والإسلام بسماحته، قادر وقابل لإقامة الحوار، يشهد على ذلك تفاعله مع الحضارات الأخرى في الفتح الإسلامي.

إن علينا أن ندفع بهذا الحوار الحيوي إلى نقطة متقدمة باستغلال شبكة الإنترنت، ويتطلب ذلك منا إجراءات عدة أهمها:

- مراجعة نقدية لجولات الحوار السابقة.

- تضييق المسافة المعرفية بين الباحثين الإسلاميين ونظرائهم الغربيين، خاصة في الثقافة العلمية التكنولوجية وعلوم العصر.

- إدراكنا أن التعرف على أديان الآخرين، يستلزم منا التعرف على ظروف معيشتهم وتحدياتهم (99:309)، ويمكن استغلال تكنولوجيا المعلومات في ذلك.

- النظر إلى القدس كمنطلق لتعميق العلاقة الإسلامية المسيحية، خاصة في ظل الظروف الراهنة، وستظل القدس دوما هي «أرض المسيح ومسرى النبي محمد».

- تصنيف قضايا الحوار إلى قضايا ذات طابع علمي، يتم تناولها على مستوى أكاديمي، وأخرى ذات طابع عام، يتم الحوار حولها من خلال الجمعيات الأهلية، وقنوات الاتصال الجماهيري.

- إن نجاح حوارنا مع الآخر، لابد أن يسبقه إثبات نجاحنا في إقامة حوار مع أنفسنا: حوار إسلامي-قومي، حوار إسلامي-علماني، حوار إسلامي-قبطي وماروني وكاثوليكي.

- لا يكفي لعضو الحوار الإسلامي أن يكون ملما بموضوعاته، بل لابد أن يكون ـ بالإضافة إلى ذلك ـ مزودا بمهارات التواصل عن قرب، وعن بعد، وأن يكون واعيا وممارسا لتكتيكات «التفاوض» الثقافي.

- الإقرار بوجود اختلافات لا يمكن حسمها بين الإسلام والمسيحية، والتركيز على الجوانب الإيجابية، وما أكثرها، والجوانب الأخلاقية دون العقائدية، والاهتمام بالدين المقارن.

8 : 3 : 3 العناصر الداخلية لمنظومة المعتقدات والقيم

كما يوضح (الشكل3:8) تشتمل العناصر الداخلية لمنظومة المعتقدات والقيم على المكونات التالية:

- النص، ونقصد به النص الديني المحوري، أو مجموعة النصوص المحورية.

- القيم، وهي مجموعة القيم القائمة والمستجدة.

- الدعوة، وتشمل جميع الوسائل، من الدعوة المباشرة في أماكن العبادة، إلى الدعوة من خلال الإنترنت.

وسنتناول في الفقرات القادمة كلا من هذه العناصر الداخلية لمنظومة المعتقدات والقيم.

8 : 3 : 4 النص (الطرح العام)

(أ) **عن النصوص الدينية:** يمثل النص الديني حالة خاصة من النص اللغوي، ولكنه ـ كباقي أنواع النصوص ـ يتجاوز، من حيث مبناه ومعناه وأثره، حدود اللغة إلى ما بعدها وما فوقها وما وراءها، لما يتضمنه من معان سامية، وما يحمله من شحنة وجدانية مكثفة، وهو الأمر الذي يجعل من النص الديني حالة فريدة. تمثل تحديا قاسيا، سواء للغويين أو البلاغيين أو علماء النفس والأنثروبولوجيا، أو لعلماء الذكاء الاصطناعي.

لا تقتصر نصوص العقائد، بمعناها الواسع، على الكتب السماوية فقط، بل تشمل ـ أيضا ـ نصوص التفسير والتشريع والفتوى ومواثيق المذاهب والطوائف وحكم الفلاسفة وأقوال الحكماء ومآثر القديسين وسير الأقدمين وأساطير الأولين. لقد أعادت الأنثروبولوجيا المعاصرة الهيبة إلى النصوص الدينية القديمة، ناظرة إلى تطور العقائد الإنسانية في إطار مسار تاريخي، تتواصل فروعه مع جذوره، ويترك ماضيه آثار حفرياته الرمزية على حاضره، هذا ما فعلته الأنثروبولوجيا الرمزية بنصوص الماضي. أما تكنولوجيا المعلومات والأرشفة الإلكترونية، فقد جاءت لتضيف إلى نصوص الماضي نصوصا من الحاضر تتضاعف بمعدلات متزايدة. وهكذا، استحالت النصوص الدينية، لأي دين أو مذهب أو طائفة، إلى قاعدة هائلة من ذخائر النصوص السحيقة والقديمة والوسيطة والحديثة، وكوكبة هائلة من النصوص المكملة والشارحة، المؤيدة والمناهضة، تتمركز ذخيرة النصوص الدينية - عادة - حول نص محوري تدور في فلكه، وتأتي هذه النصوص على أنماط عدة، فيمكن أن يكون النص نثريا أو شعريا، سرديا أو حواريا،

تقريريا تشريعيا أو روائيا تاريخيا. وتأتي الإنترنت لتضيف لمستها في صورة وثائق، قوامها شظايا النصوص التي يمكن تجميعها من مصادر مختلفة، ووسائط معلوماتية عدة.

من المنطقي، أن تختلف وظيفة النص الديني من مجتمع إلى آخر، ففي بعض المجتمعات نجد النص الديني هو محور السلطة، ومصدر المعرفة، وضابط السلوك، ومحدد الرؤية الشاملة إزاء الكون وظواهره، وفي مجتمعات أخرى يتقلص هذا الدور إلى حد أدنى من إرشادات السكينة الروحية والقواعد الأخلاقية. غني عن القول أن النصوص الدينية، شأنها شأن كل السرديات الكبرى، ليست الوحيدة في ساحة التفاعل المجتمعي، حيث تزاحمها خطابات أخرى تسعى إلى الحد من دورها الاجتماعي، بل تقتص من قدسيتها أحيانا.

تتهيأ النصوص حاليا للقاء مثير مع تكنولوجيا المعلومات، التي تتكاتف حاليا مع علوم المعرفة واللسانيات والرياضيات الحديثة بهدف تحويل النصوص إلى بنى رمزية يمكن تمثيلها رياضيا ومنطقيا وهندسيا، وذلك كخطوة أساسية لمعالجتها آليا بصورة جادة، تنفذ من ظاهر اللفظ إلى عمق المضمون، ومن القرائن السطحية إلى الآليات الدفينة التي تعمل بداخل النص؛ وذلك حتى يمكننا أن نتفهم بوضوح: كيف يولد النص معناه؟ وكيف يتلقاه متلقيه؟ وكيف يتعامل هذا النص مع غيره؟ وكيف تتشكل بنيته الداخلية، وكيف تتأثر هذه البنية بالعلاقات التي تربط النص بخارجه؟

(ب) تعامل الآخرين مع نصوصهم الدينية: حررت حركة الإصلاح الديني الإنجيل من قبضة الكهنوت الكنسي، وقامت بترجمته إلى اللغات القومية، فأصبح بهذا ملكا للفرد لا حكرا على أهل الدين. وكما هو معروف، ليس للمسيحية نص منزل مكتوب، لذا فإن علاقتها بنصها الإنجيلي تتسم بالمرونة. فما أن ثبت تناقض بين بعض من نصوصه مع الحقائق العلمية، حتى أُوّلت هذه النصوص تأويلا مجازيا لا حرفيا. وقد طالب أحد حاخامات اليهود في القرن الثامن عشر بثروة ثقافية يهودية على نمط حركة الإصلاح الديني البروتستانتي، ونادى بقراءة النص التوراتي، قراءة حرة، إلى حد اعتبار النص مصدر إلهام أخلاقي لاغير (189:68). لقد اتسع مجال التأويل الإنجيلي، حتى كاد يصبح فرعا علميا مستقلا يعرف بالتأويلية الإنجيلية.

وإن كانت حركة الإصلاح الديني قد كسرت احتكار التأويل، وأطلقت حرية القراءة، فإن رياح العولمة نقلت التعامل مع النص الإنجيلي إلى مدارك التعددية والنسبية الثقافية، في إطار سعي الكنيسة المسيحية الحثيث، إلى تكييف أوضاعها ديناميا مع مطالب العولمة الثقافية (انظر الفقرة 8:1:2 من هذا الفصل). وكان مدخل الكنيسة في ذلك، هو التخلص من المركزية الغربية في قراءة الإنجيل، حيث أقرت بمشروعية القراءات المتعددة، والقبول بالفوارق إلى حد التناقض أحيانا (210:213)، بل اعتبر البعض الأناجيل الأربعة نوعا من التعدد الثقافي. وهكذا، أصبحت التأويلية الإنجيلية هي البحث عن معنى النص في سياق من الخبرات المعيشية، أي معرفة الإنجيل في السياق الثقافي والتاريخي لكل جماعة مؤمنة. لقد أيقنت الكنيسة المسيحية أن عولمتها لن يكتب لها النجاح دون أن تقر بصحة اللاهوتيات المتعددة، وإضفاء النسبية على قراءة النصوص المحلية (309:92).

وتأتي الإنترنت لتضيف لمستها في التعامل مع النص الإنجيلي، بعد أن ثبت الدور الحاسم الذي سيلعبه هذا الوسيط الإلكتروني في علاقة الفرد المسيحي بنصه المحوري، إلى الدرجة التي يكاد يصبح لكل فرد - كما قيل - ثيولوجيا فردية خاصة به. وهكذا، برز الاهتمام بدور المتلقي في عملية استيعاب النص. تطلبت كل هذه المتغيرات من الكنيسة المسيحية إعادة النظر إلى النص الإنجيلي، بل وإعادة النظر إلى النصوص السماوية الأخرى؛ إيمانا بالوحدة المعرفية لهذه النصوص. يفسر ذلك الاهتمام الشديد من قبل علماء المسيحية بالنص القرآني الشريف. إن النصوص الدينية وثائق أساسية لفهم النظام الاجتماعي. لذا، يرى بعض علماء اجتماع الدين الأمريكيين النص القرآني مدخلا إلى فهم المجتمع الإسلامي عموما، والعربي بشكل خاص، وذلك في ظل قناعتهم بأن الشرق الأوسط لا يختلف عن غيره، ولا يستعصي على مناهج العلوم الإنسانية كما ساد الاعتقاد في الماضي.

(ج) **توجهات جديدة في النظر إلى النص:** ظهرت الطباعة، وأوشك عصرها أن يولي، دون أن نولي اهتماما بما تعنيه النقلة النوعية من التواصل شفاهة إلى استخدام النص المكتوب. ظل هذا الوضع غائبا عن الأذهان إلى أن جاءت تكنولوجيا المعلومات، والإنترنت ونصوص وثائقها الإلكترونية

لتكشف لنا: كم نحن غرقى في فيض النصوص التي تحيط بنا من كل صوب، دون أن نكتشف طبيعة هذه النصوص، وآلياتها وتأثيراتها وعلاقاتها ودورها الاجتماعي، حتى كاد أمرنا يكون شاهدا على صحة من قال: «إن من اكتشف الماء بالحتم ليس من فصيل السمك». وعلى ما يبدو، كان لابد من ظهور تكنولوجيا المعلومات، حتى تجعل من النص إشكالية حقيقية، لابد أن نأخذه بمنتهى الجدية، خاصة إذا ما كان الأمر يتعلق بالنصوص العقائدية.

وهكذا، ظهرت الحاجة إلى لسانيات جديدة، فخرجت إلى الوجود اللسانيات النصية textual linguistics، وإلى نحو جديد للنص، فظهرت البلاغة الجديدة، وإلى معالجة آلية ذكية للنصوص فكانت نظم الفهم الأتوماتي لمضمون النصوص، القائمة على الذكاء الاصطناعي. لقد شكل هذا علم نص جديدا، كما يسميه الفرنسيون Science of texst، أو تحليل الخطاب discourse analysis، كما يطلق عليه الأمريكيون. لقد كان علم اللسانيات، حتى وقت قريب، يتخذ من الجملة وحدته اللغوية الأساسية، ولم يتجاوزها إلى الفقرة أو النص الكامل. وليس الانتقال إلى الفقرة أو النص مجرد انتقال إلى وحدة لغوية أكبر مما كان عليه الأمر فيما سبق. فمن المعروف، أن كل وحدة لغوية تلجأ إلى مستوى الوحدة الأكبر لتحديد شكلها ومضمونها وموقعها في السياق اللغوي، فنرى الحروف تلوذ بالكلمة الحاملة لها، والكلمات تلوذ بالجملة، والجمل تلوذ بالفقرة التي تضمنها داخل النص[*3]. وهنا يطرح السؤال نفسه: إلى أي شيء يلوذ النص، وهو نهاية المطاف، أي أكبر وحدة لغوية؟ وكانت الإجابة عنه هي: أن يلوذ النص بالعالم، أي بالسياق الاجتماعي خارجه. لذا، فعلم النص ليس فقط نقله نوعية في مجال اللغة، بل انتقال إلى ما هو خارجها أيضا.

نظرا إلى أهمية هذا العلم في تناول النص القرآني، فقد رأينا أن نرجئ الحديث عنه إلى الفقرة القادمة الخاصة بالمنظور العربي، وسنكتفي ـ هنا ـ باستعراض أهم التوجهات في التعامل مع النص، وقد قمنا بطرحها في مجموعة من صيغ الاستحالات ومنفيات الجنس، قاصدين بذلك تأكيد مدى القطيعة التي أقامها علم النص الحديث، مع ما سبقه من لسانيات الجملة والبلاغة الكلاسيكية، والمعالجة الآلية التقليدية للنصوص ذات القطعية والخطية الصارمة.

- **لا فصل بين الشكل والمضمون:** فكل تغيير في الشكل، يترتب عليه تغيير في المضمون، فالتقديم والتأخير والتنغيم الصوتي، وتتالي الجمل والمفردات، كل هذه التجليات الشكلية، وغيرها كثير ، تسهم في صنع معناه. لقد آن الوقت للتخلص من أسر ثنائية الشكل والمضمون، وما أدت إليه من فصل النص عن الواقع، وطمس العلاقة بين ظاهر النص ومعناه.

- **لا للماهية ولا للمعيارية:** النص لا يحمل ماهية في صورة مضمون يحمله في جوفه، كما تزعم البلاغة القديمة التي وضعت قواعد ومعايير لكيفية الوصول إلى هذا المضمون الكامن، والحكم على مدى سلامته الدلالية وتماسكه المنطقي. إن النص ظاهرة رمزية تتحدد ماهيته، كما أوضح لنا دي-سوسير، بعلاقاته مع خارجه، أكثر مما تتحدد بفعل من مكونات داخله.

- **ما النص مجرد متتالية من الرموز:** فالنص ليس سلسلة من الكلمات والجمل والفقرات، بل هو بنية معقدة متعددة المستويات، شبكة كثيفة من علاقات الترابط اللغوي والدلالي والتماسك المنطقي. ومعنى الجملة ـ بالتالي ـ ليس حصيلة معاني ألفاظها، ومعنى النص، ليس مجرد تجميع معاني جمله المتتالية.

- **اللغة وحدها لا تكفي:** فالنص ساحة رمزية ساخنة، تتداخل فيها تكتيكات اللغة، مع الإيحاءات النفسية، والسياقات الاجتماعية والتاريخية، ولا مهرب من الأيديولوجيا في التعامل مع النصوص، فليس هناك نص بريء منها، كما أنه ليس هناك قراءة بريئة له. وبالرغم من اللغة هي - بلا منازع - الركيزة الأساسية لعلم النص، فإنها بحكم طبيعتها، لا تقول كل شيء مهما تنوعت مبانيها، وتوسعت معانيها وجمح مجازها، وأبدع كاتبها وقارئها. فاللغة بها عجز ضمني (انظر الفقرة 2:3:5 من الفصل الخامس). وستظل هناك دوما مسافة تفضل ما بين مقاصد المؤلف وتطلعات قارئه. وهكذا يمكن القول إن النص جهاز عبر لغوي، يتجاوز اللغة إلى العالم الرحيب خارجها.

- **لا حدود للنص:** النص لا تحده بدايته ولا نهايته، ولا يمكن رسم حدود فاصلة بينه وبين خارجه وسياقه، وهو ـ دائما ـ ما ينتهك القواعد، ويخرج عن المألوف. إن لم يفعل النص ذلك، يكون قد فقد بذلك جدارته كنص.

- **لا نهائية للقراءة:** يتحدد النص وفقا لسياقه الاجتماعي، مما يترتب

عليه إعادة تأويله وتفسيره، وفقا لمقتضيات هذا السياق، وهو الأمر الذي يضمن للنص دوام تجدده. وسيظل النص ـ إن أردنا له ـ يجتذب مضامين جديدة تفد إليه من خبرات الواقع خارجه.

- **استحالة النسب، والجمود، والوصول إلى الجنين النصي**: فالنص لا يمكن رده إلى جذر أو أصل جنيني واحد، يستحيل تقييده في إطار زمني محدد، فهو نسق متعدد الجذور، متعدد الأعمار. فكل نص يرث مباني ومعاني مما سبقه من نصوص، وتسري بداخله أزمنة مختلفة، وتمنحه كل قراءة جديدة عمرا جديدا.

- **استحالة الوصول إلى المعنى النهائي**: فنحن في أثناء قراءتنا للنصوص لا نتوقف عن مطاردة المعنى، فكل رمز لا يحيلنا إلى معنى قاطع، بل إلى رمز آخر، وهكذا دواليك في سلسلة لا متناهية، فالمعنى ـ كما يقول جاك دريدا ـ مرجأ دوما.

- **لا غنى عن ذكاء الآلة**: لقد أصبحت عملية تحليل النصوص، وتفكيكها وتمثيلها دلاليا ومنطقيا، بصورة دقيقة، وبمنهجية منضبطة، أعقد من قدرة الوسائل اليدوية، ولا بد من الاستعانة بالنظم الآلية لتحليل النصوص من أجل الكشف عن شبكة العلاقات التي ترقد تحت ظاهر النص، والتي تشمل العلاقات المعجمية، والصرفية والتركيبية والنحوية والدلالية والمنطقية والمقامية والبراجماتية..

النص (المنظور العربي)

(أ) **دورنا في تناول نصوصنا الدينية**: قال الزمخشري في «كشافه» يصف القرآن: «كتابا ساطعا بيانه، قاطعا برهانه، وحيا ناطقا ببينات وحجج، قرآنا عربيا غير ذي عوج، مفتاحا للمنافع الدينية والدنيوية، مصداقا لما بين يديه من الكتب السماوية، معجزا باقيا دون كل معجز على وجه كل زمان، دائرا من بين سائر الكتب على كل لسان، في كل مكان، أفحم به من طولب بمعارضته من العرب العرباء، وأبكم به من تحدى به من مصاقع الخطباء، فلم يتصد للإتيان بما يوازيه، أو يدانيه، واحد من فصحائهم، ولم ينهض لمقدار أقصر سورة منه ناهض من بلغائهم».

يكفي هذا الوصف دلالة على محورية النص القرآني في ثقافتنا وديننا.

إنه مصدر التشريع، ومصدر التنظير اللغوي، والتحليل البلاغي، ومصدر التربية. وهو - بلاجدال - أكثر النصوص إلهاما. هذا عن محورية النص القرآني وإعجازه. أما عن دورنا - نحن المحدثين - في تناوله، فلم يتجاوز في أغلبه تفاسير الأقدمين، نظل نعيد صياغتها دون إضافة حقيقية من قبلنا، ولتكن لدينا الشجاعة الكافية لنعترف بأننا لم نعد نمتلك القدرة المعرفية على تناوله. فكيف لنا أن نؤكد الصلة الوثيقة بين نصناالكريم ولغته العظيمة، وفكرنا اللغوي مصاب بالعقم منذ قرون، وقد تجاهلنا الثورة القائمة في مجال اللسانيات منذ زهاء نصف قرن؟ وكيف تتكشف لنا روعة معانيه وبلاغتنا قديمة بالية، مازالت أسيرة محفوظاتنا عن ثلاثية المعاني والبيان والبديع، ولم نزحزحها إلا قليلا عن ذلك الموضع الذي تركها به الجرجاني في القرن الخامس الهجري؟ وكيف لنا أن نستوعب قدر برهانه الفائق وأساليبنا في المحاجاة، مازالت كما كانت عليه في محاجاة عصر الشفاهة؟ ولا ندري ماذا ستفعل بنا أساليب المحاجاة المتخلفة تلك في عصر محاجاة الإنترنت والحوار عن بعد، تلك المحاجاة الباردة ذات الطابع المنهجي الصارم، بعيدا عن مؤثرات الخطابة واللقاء الحيوي المباشر؟ وكيف لنا أن نثبت لا زمنية هذا النص الفريد، الصالح لكل زمان ومكان، وقد أهدرنا جوانبه التاريخية، حتى كادت دراسة صلته بماضيه تصبح ضربا من الهرطقة؟ وكيف يجوز لنا الحديث عن «لا مكانيته» وعالميه، وقد أهملنا تماما كيف يتلقاه المسلم من غير العرب؟ وكيف يستوعبه المسلم المقيم، والمسلم المهاجر، والمسلم الوافد، ومسلم البلقان، ومسلم الشيشان؟ وهل لدينا الجرأة لنقارن موقفنا، في هذا الشأن، مع ما يفعله أهل الإنجيل من أجل عولمة نصه، حتى يدين مضمونه لعقل المسيحي في الفيلبين، وفي دول أمريكا اللاتينية، وعقل المسيحيين الجدد من أهل القبائل الأفريقية؟ وكيف لنا أن نظل نردد أنه الكتاب الخاتم للدين الخاتم، والدائر الدائم من بين سائر الكتب، دون بذل الجهد الجهيد لاقتفاء مسارات تناصه وعلاقاته مع النصوص الأخرى؟ وكيف يتسنى لنا أن نجعل منه مفتاحا لمعرفتنا، ومصدرا لإبداعنا، في حين لا يخرج مشوارنا في عالم الفلسفة عن كونه قفزة واحدة من فلاسفة الأوائل إلى صحوة ابن رشد يلوذ بعدها بالصمت، غافلا عما يحدث في مجال الفلسفة على مدى قرون عدة؟.

كفانا زهوا بالعجز، فلم يعد النص القرآني - ولم يكن يوما - ملكا لنا وحدنا، فهو ملك البشرية جمعاء، شئنا أم أبينا، خاصة في عالم عولمة الثقافة، والتثاقف والدين المقارن. وإن لم نقم بامتلاك ناصية نصنا المحوري فسيتولاه غيرنا، وقد شرعوا في ذلك بالفعل يتناولونه تأويليا، وبنيويا، وظاهراتيا، وتفكيكيا، وما بعد بنيوي، وما بعد حداثي، وأخيرا معلوماتيا.

نحن لا نحمي نصوصنا، لا نحتمي بها، لا نطيق بعدا عنها، فما إن نبعد ـ ولو قليلا ـ عن ظاهر نصها وسياقاتها المباشرة، حتى تزوغ منا المعاني والرؤى. فليس في أيدينا من أدوات التعامل مع النصوص، سوى أدوات رسخت فيها الحرفية والخطية، تقاوم كل جدلية وتفاعلية. لقد بات ضروريا أن نحظى بتلك الميزة التنافسية، التي يتمتع بها غيرنا، في احتفاظه بمسافة كافية تفصل بين الذات الدراسة والنص رهن الدراسة، مما يتيح له رؤية أكثر وضوحا وعمقا وموضوعية. من جانب آخر، هناك ضرورة للبحث عن منهج جديد للإعجاز القرآني بطريقة غير طريقة الإعجاز اللغوي التي اعتدناها (105: 110). لقد قام برهاننا على إعجاز النص باستخدام وسائل لغوية وبلاغية استقيناها من النص ذاته. إننا بذلك نثبت إعجازه من داخله، أي أننا نعيد إليه رجع صداه، لنقع بذلك في دوامة المنطق الحلقي، الذي لا فكاك لنا من حلقته المغلقة دون علم نص جديد، ينظر إلى النص من داخله وخارجه معا، يبرهن على إعجازه بمضمون نصه، وعلاقات تناصه معا. وبئس خصومة نفتعلها مع ما توفره التوجهات الفلسفية الحديثة من وسائل لغوية، تحت انطباعات خاطئة أساسها عدم تفهم معنى المصطلحات واستيعاب المفاهيم. فتفكيك النص القرآني ـ على سبيل المثال ـ لا يعني سحق بنيته الرصينة المتماسكة، بل إضافة عنصر الدينامية ودوام التجدد على معانيه وتحديث فهمنا له. فالنصوص ـ في نظر التفكيكية ـ لها أعمار عدة، ويعبرها الزمن في مسارات متداخلة ومتوازية، مجدولا في عباراتها، يفجر حيويتها، ويعيد توظيفها في سياقات اجتماعية متجددة ومتباينة. أليس هذا مطلوبا لإثبات صلاحية النص لكل زمان ومكان؟ ولا يجب أن يمنعنا رفضنا القاطع للموقف السلبي الذي تتخذه ما بعد الحداثة من السرديات الكبرى، من أن نرى تميزها في الاحتفاء بدور المتلقي، ونظرته الذاتية في فهم النص، ودمجه في مضمار حياته اليومية بما يلبي مطالبه

الشخصية. إن هذه الألفة الذاتية، هي الضمان الوحيد لكي يظل النص يشع ضياء في وجدان الفرد كمصدر لهدايته، وباعث على إبداعه.

وأخيرا وليس آخرا، فإن أدوات الماضي للتعامل مع النص، لم تسمح لنا بأن ننظر إلى النص القرآني إلا على مستوى الوحدات اللغوية القصيرة، من مفردات وجمل، فغاب عنا بذلك منظر المروج الرمزية الكثيفة، وبنية النص الكبرى، والتي يزعم الكاتب أن لا وصول إليها، دون تضافر علم النص مع تكنولوجيا المعلومات.

إن كون نصنا المحوري مصدرا للتحدي، وإن تسليمنا الذي لا ريب فيه بما جاء به، لا يعني استسلامنا أمام مظاهر إعجازه، وتوقفنا عن اقتفاء مزيد من هذه المظاهر. فكما قيل: إن أخطر ما يصيب الفكر، هو أن نستسلم للكلمات، والإعجاز لا يعني التعجيز، بل هو دعوة مفتوحة إلى مداومة الإبداع والتجديد.

(ب) علم النص الحديث من منظور معلوماتي: يوضح الشكل (4:8) الفروع المعرفية المختلفة لعلم النص الحديث [4*] والتي تشمل:

- علم اللسانيات.
- علم العلامات (السيميولوجيا).
- علم المنطق الحديث.
- علم اجتماع المعرفة.
- علم نفس المعرفة.
- علم الذكاء الاصطناعي وهندسة المعرفة.

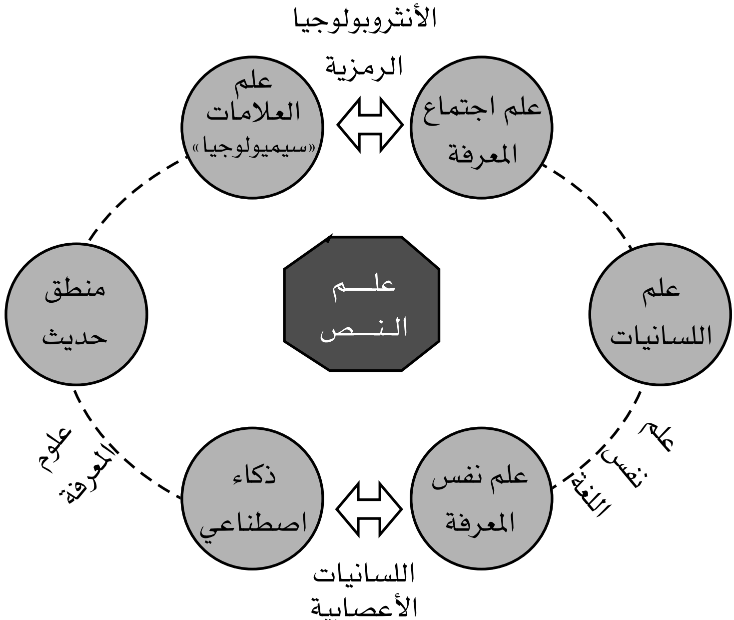
سنستعرض فيما يلي أهم توجهات كل فرع من هذه الفروع المعرفية ومغزاها بالنسبة إلى النص القرآني:

علم اللسانيات كفرع من فروع علم النص: يمكن تلخيص أهم التوجهات الرئيسية لعلم اللسانيات على الوجه التالي:

- من التركيز على نظام اللغة الداخلي، إلى التركيز على اللغة الواقعية المنطوقة.

- من التمركز حول النحو، وشروط السلامة النحوية للجمل، إلى التركيز على المعنى وصلته بالمقام، وأداء المتحدثين والمستمعين في أثناء الحدث اللغوي، أو النواحي البراجماتية بمصطلح أهل اللسانيات.

- التخلص من ثنائية الحرفي والمجازي، بالنظر إليهما كطرفين يربط



الشكل (4:8) الفروع المعرفية لعلم النص الحديث

بينهما مسار متصل.

- النظر إلى اللغة في فضاء سيميولوجي ثلاثي الأبعاد: الرمز ـ المعنى ـ مقام الحدث اللغوي.

- التخلص من المفهوم السائد بأن اللغة هي مرآة الفكر، حيث يمكن للفكر أن تكون له لغة رمزية، أو أكثر خلاف اللغة الإنسانية.

المغزى بالنسبة إلى النص القرآني:

- يمر حاليا علم اللسانيات بمرحلة حاسمة، ينتقل فيها من تحليل الجملة، إلى تحليل الخطاب أو النص. لقد فوتنا فرصة اللحاق بثورة اللسانيات وهي تتعامل مع اللغة على مستوى وحدة الجملة، فهل لنا أن نلحق بها وهي تتهيأ لدخول دنيا النص؟ إن نصنا الشريف، ومحوريته، تتيح للمنظرين اللغويين لدينا أن يسهموا إسهاما جادا في هذ المجال الحيوي الجديد.

- تمثل معظم الخصائص اللغوية للنص القرآني، سواء فيما يخص ألفاظه أو معانيه أو إيقاعه الصوتي، وما اتصفت به من حلاوة وطلاوة وسلاسة وانسياب، وماشابه، قضايا لغوية ساخنة في مجال دراسة الأداء اللغوي linguistic performance. وتتبلور معظم هذه الألفاظ العامة ـ حاليا ـ في صورة مصطلحات علمية دقيقة، علينا أن نلحق بها في بدايته. إن نصنا الشريف الفريد يمنحنا ميزة تنافسية عالية في هذا المجال.

- ضرورة إعادة النظر في مسألة المجاز القرآني، من منظور دلالي ومعجمي وبراجماتي، وذلك بعد أن ثبت علميا أن المجاز خاصية أصيلة من خصائص اللغات الإنسانية، وأنه ظاهرة متفشية حتى على مستوى الألفاظ والمعاني الدارجة التي تبدو لنا حرفية في ظاهرها. إن المجاز هو مصدر التوسع في المعنى، وقدرة اللغة على امتصاص المفاهيم الجديدة. ولا جدال في أن المجاز قضية شائكة للغاية، خاصة بالنسبة إلى نص محكم كالنص القرآني. وعلينا أن نقر أن فهمنا لظاهرة المجاز مازال قاصرا، معجميا ودلاليا وثقافيا. إن التوسع في المجاز يميّع اللغة، ويفقدها ـ بالتالي ـ قدرتها على إتيان البرهان وتحديد المعاني. في المقابل، فإن تضييق المجاز يخنق اللغة، ويجعلها أقل قدرة على التكيف، وهو أمر بالغ الأهمية بالنسبة للنص القرآني وعالميته، وضرورة تصديه لإشكاليات العصر. إن المتغيرات الكثيرة لعصر المعلومات ستقحم النص الشريف في العديد من القضايا الشائكة والمستجدة، بحيث يستحيل علينا تناولها إن تشبثنا بحرفية تفسيرنا لمعانيه، وبمحدودية استنتاجنا لمقولاته.

- إن الصلة الوثيقة بين فكرنا وديننا من خلال وسيط اللغة، تعطي مفهوم «اللغة مرآة للفكر» وضعا خاصا يستلزم ذلك إعادة النظر في ثلاثية العلاقات شبه الاندماجية التي تربط بين لغتنا وفكرنا وديننا، في ضوء ما ذكرناه من أن اللغة لم تعد مرآة الفكر، كما ساد الاعتقاد في الماضي انظر الفقرة 5:3:2 من الفصل الخامس. وبعبارة أكثر وضوحا: إن تخفيف العلاقة العضوية بين الفكر واللغة لابد أن ينعكس على علاقة ديننا مع لغتنا، وعلاقة ديننا مع فكرنا بالتالي.

- إن بنية النص تفرض علينا دراسة أمور تماسكه المنطقي من زوايا عدة: صرفية وصوتية ومعجمية وتركيبية ونحوية ودلالية، بشكل يتجاوز

خطية الوصل والفصل، بحيث ننظر إلى النص القرآني كشبكة متعددة المستويات، كثيفة العلاقات والترابطات، وقد حاول الجابري تحليل بعض فقرات قصيرة من نصوصنا الدينية، بأسلوب بنيوي يمكن تصنيفه بأنه على مستوى الجملة (105: 44). إن الكشف عن البنية الكبرى، أو البنى الكبرى للنص القرآني، يتطلب دراسة طوبوغرافية، تتعامل مع النص على مستوى حزم الجمل والآيات، وصولا إلى مستوى النص بأكمله.

علم السيميولوجيا كفرع من فروع علم النص: يتعهد علم السيميولوجيا الأمور المتعلقة بالأجناس الأدبية (كالشعر والرواية، والقصة القصيرة،....)، ويقوم على مفهوم الأكواد التي يبعث بها النص إلى قارئه، والذي تقع عليه مسؤولية فك شفرة الأكواد، ويمكن للكود أن يكون لفظا لغويا صريحا، أو إيحاء مستترا، أو إيقاعا تنغيميا، أو وقفة صوتية، أو تشبيها مجازيا، أو تركيبا نحويا، أو موضع فصل أو وصل بين الجمل والفقرات، أو علاقة دلالية أو مقامية، أو إشارة إلى معلومة سابقة أو واردة، أو إحالة إلى معرفة على العهدية، وماشابه. تتضافر كل هذه الأكواد في نقل مضمون النص إلى قارئه، والذي يتوقف فهمه لهذا المضمون على آلياته في فك شفرات هذه الأكواد والتي تتوقف ـ بالتالي ـ على خلفيته وهدفه من وراء قراءة النص.

إن كل نص يولد لغته الخاصة، ويضع قائمة شفراته بالتالي. والمعنى المعجمي، ماهو إلا بداية رحلة البحث عن ذلك المعنى المرجأ دوما. وما إن نعبر «عتبة» المعنى المعجمي، نجد أنفسنا نستخدم لغة الشفرة التي يقيمها النص وفقا لجنسه الأدبي، أو لغته الداخلية الخاصة، بقول آخر، لم تعد اللغة وحدها تكفي للكشف عن مضمون النصوص.

المغزى بالنسبة إلى النص القرآني:

- معظم ألفاظ القرآن ومعانيه، كأسماء الله الحسنى، وأوصاف نبينا الكريم، خاتم الأنبياء والمرسلين، والجنة والنار، والخير والشر، هي ـ في حقيقة أمرها ـ شفرات رمزية لا مجرد ألفاظ. فمهما بلغت دقة معجمنا في تحديد معنى «الجحيم ـ على سبيل المثال ـ لا يمكن أن يبلغ هذه الشحنة الدلالية والوجدانية لشفرة «الجحيم». كما تبثها إلينا رسائل النص القرآني، لتولد في مخيلتنا هذه الصورة الممتدة المشعة عن

«الجحيم»، التي تنبثق من مجمل عبارات النص... «نارا وقودها الناس والحجارة»، «كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها».

إن للقرآن لغته الخاصة به، تتمثل في المعاني الخاصة للألفاظ، والأنماط النحوية، وإيقاع الصوت، وتماثل البنى التركيبية، وهذا السجع الموزون بميزان دقيق غاية في الدقة، وهذا الذي يبدو للبعض تكرارا، وماهو بتكرار بل ترسيخ للمعنى وتأمين للسياق.

- إن القرآن لا يخضع للتصنيفات المعهودة لأجناس النصوص الأدبية، فهو نص له جنس خاص به، يجب كل الأجناس الأدبية الأخرى. بناء على ذلك، يمكن النظر إلى النص القرآني كبيئة نصية مثالية لاختيار علاقة فك الشفرات بجنس النص، وكيفية امتزاج أجناس النصوص، وهو أمر بالغ الأهمية بالنسبة لتكنولوجيا الوسائط المتعددة.

- وختاما، نقول: يا أهل البلاغة القديمة البالية: أسيرة المعاجم، سجينة الجمل، التي لا تعرف إشارات ولا شفرات، ولا أيقونات رمزية، ولا علاقات تشعب نصي أو تناص، ولا بنى صغرى ولا بنى كبرى، هل لكم أن تقروا بضرورة تحديث أدواتكم، لترقى إلى الذرى الرمزية لنصنا الشريف، أسوة بما يفعله غيرنا بنصوصهم؟

المنطق الحديث كفرع من فروع علم النص: أوضحنا، في الفقرة 5:2:4 ـ بند (ج) ـ من الفصل الخامس، كيف عجز منطق أرسطو القاطع عن معالجة النصوص اللغوية بصفة عامة، ناهيك عن النصوص الدينية. يسعى المنطق الحديث، ونظرية المعرفة والسيميولوجيا، إلى وضع أسس جديدة لنظرية البرهان تتجاوز الأساليب المتاحة للقياس والاستدلال والاستنباط، وتأتي تكنولوجيا المعلومات ووسائطها المتعددة، لتكسر احتكار اللغة لأساليب البرهان، فلابد من مساهمة الرموز الأخرى ـ كالصور مثلا ـ في إحداث الإقناع العقلي.

المغزى بالنسبة إلى النص القرآني:

في حوارنا الديني عبر الإنترنت سنحتاج إلى أساليب أخرى للمحاجاة، دفاعا عن قرآننا وعقيدتنا. يتطلب ذلك منا تجديد أساليبنا في البرهان والإلمام بمبادئ هندسة الحوار. سيطرح المتغير المعلوماتي العديد من القضايا

التي تتطلب تحليلا فقهيا، ومعظم هذه القضايا مستجدة غير مسبوقة، يصعب أن نعثر بشأنها في تراث الماضي على ما يمكن لنا أن نقيس عليه، وهو ما يستوجب استحداث أدوات جديدة للقياس، تتجاوز تلك القائمة على التحليل اللغوي المباشر، باستخدام طرق الإثبات العلمي، والسند الإحصائي والتاريخي والرمزي. لقد أصبح للإقناع وإثبات البرهان فرعه المتخصص في تكنولوجيا المعلومات، وهو ما يطلق عليه مصطلح CAPTOLOGY: Computer - Assisted - Persuasivd - Technology. هل يكفي هذا لحث أهل المنطق لدينا على دخول هذا المجال الجديد؟

علم اجتماع المعرفة: يتناول علم اجتماع المعرفة علاقة الارتباط بين ثقافة المجتمع والظروف السائدة والنماذج المعرفية العليا التي يمكن له أن يولدها (35:87). وكذلك العلاقة ما بين الاعتقاد الديني ونظام القيم، ومناهج التفكير السائدة في المجتمع، ودور نظام المعتقدات في عمليات انتشار الثقافة، وانحلالها داخل المجتمعات.

المغزى بالنسبة إلى النص القرآني:

- تفرض علينا عالمية الإسلام دراسة متأنية للنص القرآني في البيئات الاجتماعية المختلفة، فلاشك في أن موقع النص القرآني يختلف ما بين تركيا العلمانية وإيران الإسلامية، وبين أقلية مسلمي الألبان في الصرب، وبين الأقلية المسلمة في الفلبين والهند.

- يجب إعطاء مزيد من الاهتمام لعلاقة النص القرآني مع الإعلام الجماهيري، وذلك من خلال توظيفه معرفيا في تناول القضايا السياسية والاقتصادية.

علم نفس المعرفة كفرع من فروع علم النص: بينما يدرس علم النفس السلوكي العلاقة بين المؤثرات الخارجية وسلوك الأفراد، يدرس علم النفس المعرفي أثر البنى المعرفية، الكامنة داخل المخ، في سلوك الأفراد ورؤاهم الاجتماعية، ونظرتهم إلى أنفسهم وإلى العالم، وخير مقولة تعبر عن هذا المفهوم ـ بصورة تقريبية ـ هي الحكمة الإغريقية: من يعرف الخير يفعل الخير، فعلى سبيل المثال، يمكن لبنى معرفية، كالبنى الهرمية متعددة في درجات السلم الهرمي، وتوحي له برؤية ظواهر العوالم، نزولا من الأعقد

إلى الأبسط، أو صعودا من الخاص إلى العام، وهكذا. وعلم نفس المعرفة ذو صلة وثيقة بعلم النفس اللغوي، وكذلك بتكنولوجيا الذكاء الاصطناعي، وهندسة المعرفة، وهناك توجه لإقامة تناظر بين وظائف المخ البشري ووظائف الكمبيوتر، كالتكرير وتخزين المعلومات واسترجاعها[*5].

المغزى بالنسبة إلى النص القرآني:

- هناك العديد من المعاني القرآنية تدرك وتستشعر، ولا يمكن وصفها، أو التعبير عنها، من خلال الكلمات، وعلى علم النفس المعرفي، أن يحدد لنا من أين تنبثق هذه المعاني من متن النص القرآني.

- يساهم علم النفس المعرفي في إماطة اللثام عن الكيفية التي يتلقى بها الإنسان المسلم نصه القرآني، وكيف ينمو لديه هذا الشعور النفسي بتقديس الرموز الدينية وتبجيل القيم السامية، ورفض القيم المتدنية، وما الذي يبقى من النص الديني في ذاكرة الإنسان بعد تكرار الإنصات له، وعلاقة خلفيته العلمية بمدى استيعابه لمضمون النص؟.

علم الذكاء الاصطناعي: يقوم علم الذكاء الاصطناعي، فيما يخص معالجة النصوص، بتمثيل المعرفة المتضمنة في النصوص بصورة دقيقة ورسمية formal، باستخدام أساليب هندسة المعرفة، وتسجيل هذه المعرفة فيما يعرف بقواعد المعارف knowledge bases، أو في صورة قواعد، رياضية أو منطقية، أو على هيئة شبكات دلالية semantic nets، أو مخططات مفاهيمية conceptual graphs.

المغزى بالنسبة إلى النص القرآني:

ستطبق المراكز الأكاديمية في الغرب، إن آجلا أو عاجلا، أساليب الذكاء الاصطناعي ونظم الفهم الأتوماتي لمضمون النص في التحليل الدلالي العميق للنص القرآني. إن من واجبنا أن نبادر ـ نحن ـ بالقيام بهذه المهمة، وذلك بالإسراع في تمثيل النص القرآني منطقيا ومفهوميا، وكذلك في تطوير آلات استنتاج inference machines تستطيع استظهار المعاني المستترة بين ثنايا الألفاظ. إن تفسيرنا للنص القرآني يحتاج إلى دعم حقيقي من تكنولوجيا المعلومات، حتى لا نظل أسرى التحليل اللغوي المباشر لمعاني الألفاظ والجمل. إن ذلك يتطلب التعمق في علوم الدلالة الصورية formal

semantics والمنطق الحديث واللسانيات الحاسوبية، وكذلك ضرورة تعزيز معجمنا العربي بالبيانات اللازمة للتحليل الدلالي.

5:3:8 القيم (الطرح العام)

(أ) **شجرة الأخلاقيات المورقة:** القيم ـ في أصلها ـ اعتقاد لا يشترط البعض فيه أن يكون حقيقة، فهي رؤى عن الخير والشر يمنحها الإنسان لنفسه، دون سند سوى رغبته في الإيمان بها. لذا فالرغبة والعاطفة الإرادة ـ في نظر البعض ـ أهم من العقل فيما يخص القيم. وعلى مر العصور، كان اختلاف القيم مصدرا للصراع والنزاع والشقاق، غير أن الموقف إزاءها قد اختلف في الوقت الحالي؛ حيث ينظر إليها كملاذ لتحقيق السلام والوئام بين فئات البشر، على اختلاف أعراقهم وعقائدهم ومستوياتهم.

وكما قال قائل: رحم الله زمانا كانت فيه المقولات الأخلاقية سهلة وواضحة. لقد تعقدت المسألة الأخلاقية بعد أن تداخل فيها العلم والتكنولوجيا، وجاءت تكنولوجيا المعلومات لتزيدها تعقيدا على تعقيد. لقد أصبحت معظم القضايا الأخلاقية شائكة للغاية، تختلف فيها الآراء والمواقف إلى حد التناقض الشديد، فنرى ـ على سبيل المثال ـ من يرى في مبدأ التسامح ضربا من الاسترخاء الأخلاقي (282:182). ولا يخضع الرأي بشأنها إلى بداهة الحس الطبيعي في القياس على ما سبق، وذلك بعد أن اتسعت الهوة الفاصلة بين واقع حاضرنا وماضينا. لقد أوصانا الأنبياء والفلاسفة، بل العلماء أيضا، ألا نسقط القيم من أمور تربيتنا وتنميتنا، إلا أننا تمادينا في إغفالها حتى أصبحت حالنا على ما هي عليه الآن: انفصال بين التقدم الاقتصادي وبين غايات الإنسان الأساسية، وانفصال بين التعليم والتربية، وانفصال ما بين القانون والعدل، وانفصال ما بين الموهبة والشهرة. لقد زاد الطلب على قيم جديدة مغايرة، فأورقت شجرة الأخلاق فروعا مستجدة من أخلاقيات عصرنا وتشمل:

- أخلاقيات البيئة green-ethics، وهدفها حماية بيئة الإنسان والتنوع البيولوجي، وترسيخ مسؤوليته البيئية لكل بلد تجاه جيرانه، وكل جيل تجاه الجيل الذي يليه، فكل جيل ـ كما قيل ـ يرث الأرض من الجيل الآتي «بعده». وكذلك إلزام الدول الغنية بتحمل كلفة ما تستهلكه من موارد البيئة (تستهلك

حاليا 80٪ دون تحمل كلفتها).

- أخلاقيات التكنولوجيا الحيوية bio-ethics، وتتناول قضايا الاستنساخ البشري، وتحسين السلالة البشرية، أو علم اليوجينيا، وتتردد على أسماعنا حاليا مصطلحات من قبيل الطفل الأمثل والكامل والإنسان الجديد السوبرمان ومجتمع الممتازين، وجميعها يشير إلى توجه علمي تكنولوجي لوضع الإنسان في صورة مثالية، يعتقد البعض أنها أصبحت في متناول اليد (223: 129). وتهدف الأخلاقيات الحيوية ـ كذلك ـ إلى عدم استغلال بيانات البطاقة الوراثية، التي وفرها مشروع الجينوم، ضد خصوصية الفرد، بدلا من استخدامها لمصلحته، وإعطاء الأولوية له ولكرامته فوق أية اعتبارات سياسية أو اقتصادية.

- أخلاقيات التكنولوجيا techno-ethics، وتتناول القضايا المتعلقة بسوء استخدام التكنولوجيا، وتصدير تكنولوجيات ضارة أو غير ملائمة، والمغالاة في كلفة نقل التكنولوجيا.

- وقد جاءت تكنولوجيا المعلومات لتستحدث فروعا أخلاقية ذات طابع مغاير تماما لما سبقها، وهي:

ـ قيم عصر المعلومات info-ethics

ـ أخلاقيات الإعلام media-ethics

ـ أخلاقيات الإنترنت internet-ethics

وسنناقش هذه الفروع الأخلاقية في البند (ج).

إن العالم بصدد فلسفة أخلاقية جديدة، تهدف إلى ردم الهوة الفاصلة بين التقدم الاقتصادي وغايات الإنسان الأساسية، وإلى تحقيق نوع من التوافق بين عقل الإنسان وإرادته، وتخرج المجتمع الإنساني المعاصر من فراغ القيم الذي يعيشه حاليا. والأمل معقود على تكنولوجيا المعلومات، كي تمهد الطريق إلى خلق عالمي، خلق ثقافة السلام القائم على «المبادئ الذهبية» التي تقرها جميع الأديان والشرائع والثقافات والحضارات، من قبيل العدل والمساواة ورفع المعاناة و«أحب لأخيك ما تحب لنفسك».

لن ينحصر الأمر، فيما يخص أخلاقيات عصر المعلومات، في نوعية القيم، بل كذلك ـ وهو الأهم ـ في أسلوب فرض هذه القيم وإشاعتها. فلم يعد مجديا ما كان ساريا في عصر تكنولوجيا الصناعة، الذي صاغ الأخلاق

في صورة قوانين وتشريعات. لقد ولى عصر حراسة البوابات الأخلاقية، فأخلاق عصر المعلومات، كما تشير دلائل عدة، سوف تقوم على الالتزام لا الإلزام، والتحول من الرقابة البوليسية إلى الرقابة الذاتية، ومن سلطة القانون إلى وازع الضمير، أي بقول موجز، إحلال المرجع النفسي محل المرجع الاجتماعي.

(ب) **قيم المعلومات**: وهي مرتبطة بالعلم والإعلام، والتعليم والثقافة والمجتمع الأهلي عموما، في كل من البلاد المتقدمة والنامية.

تتناول قيم المعلومات قضايا عدة من أهمها:

- دقة البيانات ومحتوى المعلومات ومسؤوليات مطوري البرامج تجاه مستخدميها.

- طبقية المعلومات بين من يملك المعلومة ومن لايملكها، واستخدام فوارق المعرفة والتفاوت في إمكانات النفاذ إلى المعلومات كوسيلة للاستبعاد والتهميش الاجتماعي.

- تكبير الصغار بالإسراع في مراحل نضوجهم النفسي والمعرفي باستخدام تكنولوجيا المعلومات، وتطفيل الكبار، من خلال انتشار ألعاب الفيديو والجنس الخائلي (المراهقة الخائلية)، وامتزاج اللعب مع العمل.

- مسؤولية الخبراء في أمانة تقديم المعلومات والمشورة، خاصة أن التعقد المعرفي لمعظم ظواهر العصر قد فرض علينا أن نضع ثقتنا في قراراتهم، دون أن ندري شيئا عن مصادر معلوماتهم، ومدى دقة النماذج وواقعية السيناريوهات التي يستخدمونها في دعم القرارات، ومدى وجاهة آرائهم، وأمانة أساليبهم في عرض المعلومات.

فيما يخص الإنترنت: فقد شرعت ـ هي الأخرى ـ في صياغة مطالبها الأخلاقية، سواء على مستوى قواعد الحوار، أو مضمون الرسائل التي تتبادل عبر الشبكة، وأساليب البحث عن المعلومات من خلالها. ويشمل ذلك على سبيل المثال لا الحصر:

- عدم استغلال الحوار عن بعد بغرض التمويه و التنكر، وتأجيج نيران الكراهية، وهو مايحدث كثيرا فيما يخص حوار الأديان، واحترام قواعد السلوك المتحضر أو اتيكيت الشبكة أو «النتيكيت» كما يطلقون عليه أحيانا.

- نزاهة آلات البحث والتصفح، ويقصد بذلك عدم انحيازها في انتقاء

مصادر معلومات، أو مضامين معينة لتشويه الحقائق، أو بغرض الانحياز إلى فئات معينة أو التحامل ضدها . فعلى سبيل المثال، في أثناء البحث عن مشكلة الشرق الأوسط، يمكن لكشاف بحث المعلومات، أو شجرة موضوعات البحث thematic searche tree، وفقا للمصطلح الفني، أن تعطي الموضوعات التي تخدم وجهة النظر الإسرائيلية، أولوية أعلى من تلك المتعلقة بحقوق الشعب الفلسطيني.

- الأمانة العلمية، حيث يستغل البعض تطاير المعلومات والأفكار المتبادلة عبر الإنترنت لكي ينسبها إلى نفسه دون مراعاة لأبسط قواعد الأمانة العلمية والملكية الفكرية. وما أكثر المقالات الصحافية التي تحتوي على فقرات كاملة تم نسخها من الإنترنت دون أي إشارة إلى مصدرها .

- تهديد حرية الإنسان وخصوصيته الفردية، وذلك باقتفاء آثار تعامله مع شبكة الإنترنت، حيث إن كل إجراء يتم عبر الشبكة، يترك وراءه «آثار أقدامه الرقمية».

- الداروينية اللغوية، أو ظاهرة انقراض اللغات، نتيجة لقهر اللغة الإنجليزية للغات الأخرى، في مجال المعلوماتية عموما، والإنترنت بصفة خاصة. فليس هناك ما هو أكثر لا أخلاقية من سلب الإنسان لغته، ونسف أسس ثقافته بالتالي.

- استغلال الإنترنت لاجتذاب فئات العمالة الراقية من الدول النامية، وهو ما يحدث حاليا بصورة كبيرة، فيما يخص عمالة الكمبيوتر و نظم المعلومات في مصر والأردن وتونس والهند ودول أوروبا الشرقية. إن هذا النهب لموارد البشرية، هو اللاأخلاقية بعينها، وهو يفوق نهب الاستعمار التقليدي لثروات الشعوب المستعمرة.

- لقد وقع قسط كبير من بياناتنا ومعلوماتنا في قبضة التكنولوجيا . ولهذا لابد أن تكون هذه التكنولوجيا مستأنسة وأمينة وآمنة.

أما فيما يخص أخلاقيات الإعلام فتتناول:

- الأمور المتعلقة بصدق مضمون الرسالة الإعلامية واكتمالها، وضمان شفافية المعلومات.

- عدم تنمية النزعات الاستهلاكية وإشاعة القيم المادية.

- التصدي للطبقية الإعلامية، نتيجة لإتاحة الخدمات الإعلامية الراقية

بأثمان لا تقدر عليها إلا النخبة القادرة.

- استخدام وسائل الإعلان كسلاح إيديولوجي واستثارة النزعات العرقية والطائفية وماشابه.

لقد أصبحت أخلاقيات المعلومات من القضايا الساخنة التي توليها منظمة اليونسكو اهتماما كبيرا، وقد أقامت على الإنترنت منتدى خائليا Virtual Forum لبلورة الأفكار حول هذه القضايا.

(ج) صناعة القيم والأخلاق: ستتخلى الحكومات تدريجيا عن مسؤولية الرقابة وفرض الالتزام بالقوة، وستحيلها إلى الأسرة، وإلى مواثيق شرف المهنة. ومن المتوقع، أن تتحول حماية القيم والأخلاق إلى صناعة قائمة بذاتها، تقوم على استخدام الوسائل الإلكترونية للرقابة، عن طريق برامج احتجاز المعلومات Blocking software، وخدمات رقابية أخرى مدفوعة الثمن (كشركات الأمن الخاصة).

القيم (المنظور العربي)

(أ) **نحن وقيم عصر المعلومات**: يفرض علينا المتغير المعلوماتي مراجعة شاملة لقيمنا السائدة فيما يخص:

- احترام الأمانة العلمية، وخاصة بعد أن تفشت ظاهرة السرقات العلمية حتى على المستوى الأكاديمي.

- احترام الملكية الفكرية، بمفهوم يضمن حقوق أصحابها، في الوقت ذاته الذي يوفر مناخا ملائما لإشاعة المعرفة، وتحرير الطاقات الإبداعية.

- التصدي لظاهرة العداء العلمي، سواء تحت دوافع الجمود الأيديولوجي، أو ادعاء الحرص على الدين، أو تحت دعوى القفز فوق المنهجية العلمية من أجل الإسراع في حركة التنمية.

- التصدي لظواهر انتزاع سلطة المعرفة، سواء بصورة رسمية أو غير رسمية.

ولاشك في أن تراث فكرنا الديني والفلسفي، يمكن أن يكون زادا لا غنى عنه لتجديد نظام قيمنا تلبية لمطالب عصر المعلومات. على صعيد آخر، مازال معظم مؤسساتنا الرقابية يستخف بخصوصية بيانات الأفراد لدينا، ويستوجب ذلك إصدار التشريعات التي تحد من قدرة هذه المؤسسات

على هتك سرية سجلات الأفراد، إلا في حدود الإجراءات القانونية وتحت رقابة قانونية، ويتطلب ـ أيضا ـ تطوير الوسائل العملية ـ للحفاظ على سرية البيانات باللغة العربية، وقد قام محمد مراياتي بدراسة جادة مستفيضة في تعمية النصوص العربية.

(ب) **نحن وحقوق الإنسان**: فجرت العولمة قضية حقوق الإنسان في الوطن العربي وجعلت منها ساحة ساخنة للسجال الإسلامي ـ العلماني. تفتقد الساحة الفكرية العربية الأعمال الثقافية المتعمقة فيما يخص حقوق الإنسان بشكل عام (68:44)، يسعى العلمانيون إلى تأصيل ثقافة حقوق الإنسان في البيئة العربية، ويطالب البعض بضرورة إجراء مراجعة شاملة لمنظومة قيمنا. وهناك بعض منهم يرى في هذه القيم تعارضنا جوهريا مع روح العصر، وهم يتهمون الخطاب الإسلامي فيما يخص حقوق الإنسان بالتخفيف والتجزيئية (113:148). وتجدر الإشارة ـ هنا ـ إلى ما أورده برهان غليون في «اغتيال العقل» أنه بينما تؤكد العقلانية الغربية حرية الإنسان،فإن العقلانية العربية جاءت لتثبيت النظام القائم وتبرره... وإنها ضد حرية الإنسان (125:274). أما الإسلاميون، فيؤكدون أن وجهة النظر العلمانية تلك، ترجع إلى أنهم يتناولون القضية من منظور غربي ومرجعيتهم الأساسية هي الإعلان العالمي لحقوق الإنسان وخريطة تصنيفاته (58:44)، والاختلاف ـ من وجهة نظرهم ـ ناشئ من اختلاف المسميات. فعلى الرغم من عدم وجود مصطلح حقوق الإنسان فإنه مفهوم متجذر ومتأصل ومخزون في الثقافة العربية الإسلامية كما يقول حسن الترابي، الذي لا يرى الأحزاب ضرورية لعملية الديموقراطية (19:46). وهناك من الإسلاميين من يعترض على استخدام مصطلح الديموقراطية أصلا، فهي تدخل في دائرة المحرمات بالنسبة للحركات الإسلامية (19:24)، ففي رأي هؤلاء، أن الحركات الإسلامية هي حركات شعبية. لذا، فهي لذلك ديموقراطية بامتياز، وهم يرون ضرورة فتح ملف حقوق الإنسان في الإسلام من داخل القرآن، وبقراءة قرآنية جديدة (56:44). والقرآن يعهد بالسلطة إلى الشعب، ويسعى دوما إلى تحقيق الإجماع باعتباره عاملا على التوحيد، وقد سمح لأمة الإسلام بأن تتوزع فرقا ومذاهب دون غلو في المذهبية (19:45).

وفي رأي فهمي هويدي، أن لا تعارض بين الإسلام والديموقراطية، وهو

يقول: «لابد لنا من الإسلام والديموقراطية معا، والجمع بينهما ممكن حقا، ويعتبر الديموقراطية أفضل صيغة ابتكرها العقل الإنساني حتى الآن للإدارة السياسية للمجتمع، ويحيلنا هويدي إلى ماقاله العقاد من أن فكرة الديموقراطية أنشأها الإسلام لأول مرة في تاريخ العالم» (124:156). أما بالنسبة لمشكلة الأقليات في الوطن العربي، فيرى الجابري بشأنها أن التعددية الأثنية والدينية تنتمي إلى قضية الديموقراطية ولا تنتمي إلى قضية عروبة وإسلام (74:24)، وهو يدعو إلى التخفيف من حدة إشكاليه الأقليات في الوطن العربي (112:44)، في حين يظهر بعض آخر قلقه من قضية التعصب الديني. ويرى ضرورة رصد درجاته المختلفة، من التعصب في الكلام حتى الإرهاب (61:88).

ربما لاحظ القراء أن الكاتب قد اكتفى في عرضه لنظام القيم بطرح وجهات النظر المختلفة، تأكيدا لكون معظم ما تثيره من قضايا يقع ضمن القضايا الخلافية. لقد تراوحت المواقف بالنسبة لعولمة القيم، ما بين إظهار أشد القلق على ماتمثله من تهديد لقيمنا الإسلامية والعربية، وبين الذين لا يرون حلا لمشاكل العولمة إلا من خلال تصدير قيمنا لسد الفراغ القيمي، في كلتا الحالين، نحن في حاجة إلى دعم من تكنولوجيا المعلومات، إما لبناء الدروع ضد قيم العولمة الوافدة. وإما لإقامة الجسور لتوصيل إشعاعنا القيمي إلى مصادر الطلب عليه. ومما لاشك فيه أن الإنترنت ستكون حلقة وصل بين منظمات حقوق الإنسان، حيثما توجد في عالمنا العربي، وكذل ربطها بباقي المنظمات العالمية، مما سيزيد من فاعليتها في التصدي لممارسات الداخل.

8 : 3 : 6 الدعوة (الطرح العام)

تمر الدعوة الدينية، أسلوبا وتوجها، بتغيرات جذرية بفعل المتغير المعلوماتي والعولمة، ومن المتوقع، أن تصبح الإنترنت أداة الدعوة الأساسية (التبشير عن بعد)، ولن يكون التركيز على هداية الفرد، كما كانت عليه الحال في السابق، بل ستحل محلها التوعية الاجتماعية، وذلك بجعل الفقير والمحروم والمقهور أكثر وعيا بحقائق المجتمع، والآثار السلبية لظاهرة العولمة، وإظهار المساندة لهم من أجل التحرر والعدل (70:247). إن التركيز سينتقل

من الثيولوجي إلى الأخلاقي، وسيكون من مهام الدعوة الإبقاء على الروح النضالية في عصر المعلومات. وتتطلب هذه التوعية ـ هي الأخرى ـ دعما من تكنولوجيا المعلومات لإقامة حلقات التواصل مع هذه الفئات المستضعفة.

الدعوة (المنظور العربي)

(أ) **أولويات الدعوة:** إن أهم مهام الدعوة إلى الإسلام عن بعد، هو التصدي للحملة الشرسة ضد ما يسمونه بالخطر الأخضر، وتقوية الروح النضالية لدى الأقليات المسلمة وربط الدعوة الإسلامية بمشكلاتها المحلية، وتوعية الجاليات الإسلامية المهاجرة، خاصة الأجيال التي نشأت في دول المُهاجر. إن الدعوة الإسلامية في عصر الإنترنت، تواجه دعوة منافسة من قبل مؤسسات دينية، لها تنظيمات عالمية رسمية وغير رسمية، في ذات الوقت الذي نعاني نحن فيه من قصور تنظيمي في هذا الصدد.

(ب) **نوعيات الخطاب الإسلامي على الإنترنت:** بصورة عامة وموجزة، يمكن تصنيف نوعيات خطاب الدعوة الدينية عبر الإنترنت على الوجه التالي:

- **خطاب الصدام المباشر مع المسيحية:** وهو ذو طابع انفعالي في أغلبه، يقوم على عقد المقارنات السافرة بين نصوص الكتب السماوية، واصطياد بعض الممارسات اللاأخلاقية في المجتمعات الغربية.

- **خطاب التعالي الديني:** وهو لا يقل استفزازا عن سابقه، وتسوده لهجة الفخار والتباهي، والإسلام هو المخرج الوحيد لإنقاذ البشرية، ولاحل لأزمات الحياة المعاصرة بدءا من المشكلات النفسية، وانتهاء بالمشكلات الاقتصادية والبنية إلا من خلال تطبيق مبادئ الإسلام.

- **خطاب التفاؤل:** وهو أقل حدة من سابقه ولا يختلف في منطلقاته الأساسية عنه، سوى أنه موجه أساسا إلى الجماهير المسلمة في المجتمعات الغربية ليعينهم على الصبر والصمود، فـ «العاقبة للمتقين»، والمستقبل مآله إلى حضارة الإسلام.

- **خطاب المهادنة:** وهو أخفت الخطابات صوتا، وينطلق ـ بشكل خاص ـ من مواقع ببلدان أوروبا ذات الجاليات الإسلامية الكبيرة مثل ألمانيا وفرنسا وإنجلترا، ويتسم بالطابع البراجماتي التوفيقي، حيث ينادي بمهادنة

المجتمع الغربي إلى حد البحث عن صيغة أوروبية للإسلام توفق بين قيمه وقيم المجتمع الأوروبي.

- **خطاب الانسلاخ**: وهو خطاب يتملق الفكر الغربي في حثه على عدم النظر إلى أمة العرب والمسلمين ككيان واحد مندمج، ويتراوح ذلك بين العلمانية التركية، ومسلمي جنوب شرق آسيا، لتقديم صورة مختلفة لمجتمع إسلامي متقدم تكنولوجيا واقتصاديا.

- **خطاب الجهاد**: وله عدة منابر في مواقع الإنترنت تدعو المسلمين، شبابهم على الأخص، بشكل مكثف وملزم إلى الجهاد والتضحية في سبيل نصرة الإسلام والمسلمين.

- **الخطاب الإرشادي**: وهو موجه أساسا إلى الجاليات الإسلامية في دول المهجر، وهدفه الأساسي التوعية الدينية، وتنشئة أبناء هذه الجاليات على تعاليم الدين الحنيف وأصول العبادة وماشابه.

- **خطاب الهداية للإسلام**: وهو خطاب يعرض روعة القرآن ومظاهر إعجازه، وحكمة السنة وسير السلف من أجل الدعوة الصريحة لحث غير المسلمين على الدخول في الإسلام، ويضطلع به أصحاب النوايا الحسنة من مسلمي المُهاجر غير المؤهلين لأمور الدعوة، يحاولون إقناع «المهتدين القادمين» بنسف أسس عقيدتهم الأصلية ووضع أيديهم على مايتصورونه ثغرات في دينهم أو نصوصهم.

- **خطاب التصارع والتناقض**: وهو خطاب «إسلامي ـ إسلامي» تتبادله القبائل المتصارعة، سواء الإسلامية أو المحسوبة على الإسلام.

(ج) وسائل دعم تكنولوجيا المعلومات للدعوة الإسلامية:

- استخدام الإنترنت للربط بين مراكز الدعوة الإسلامية، ونقل رسالة الدعوة من هذه المراكز إلى المسلمين عبر العالم.

- استخدام تكنولوجيا الوسائط المتعددة، في تصميم برامج متقدمة للإرشاد الديني متعددة اللغات.

- بناء قواعد بيانات للفتاوي والتشريعات الإسلامية.

- استخدام قواعد ذخائر النصوص، لحفظ نصوص التراث الديني.

- إقامة بنوك مصطلحات إسلامية بجميع اللغات المستخدمة في الدول الإسلامية، غير الناطقة بالعربية.

- إقامة قواعد البيانات الببليوغرافية لموارد المعلومات اللازمة لدراسات الدين المقارن.
- إقامة خرائط ثقافية للأقليات الإسلامية.

الحواشي

(*1) وردت في سياق محاضرة ألقاها شاعرنا العربي في الجامعة الأمريكية بالقاهرة - في مارس العام 2000.

(*2) وشتان الفرق بين هذا وسبيل المياه المجاني في أحياء القاهرة الفاطمية.

(*3) كمثال لاعتماد الحرف على الكلمة: قارن بين صوت حرف «اللام» المفخمة في كلمة «الله»، وغير المفخمة في كلمة «سليل»، وكمثال لاعتماد الكلمة على الجملة: قارن بين معنى كلمة «القانون» في جملة «يعزف على القانون»، وجملة «ينتهك القانون».

(*4) يدين الكاتب بالفضل في قدر غير قليل مما أورده بخصوص علم النص الحديث هنا إلى كتاب د. صلاح فضل «بلاغة الخطاب وعلم النص»، وقد امتزجت الأفكار وانصهرت في قالب الصياغة النهائية بصورة يصعب معها الفصل بين ما للكاتب منها وما لصاحب الفضل.

(*5) من دائرة المعارف الالكترونية ENCARTA 98 ـ المدخل Cognitive Psychology.

9 ثقافة الإبداع الفني: منظور عربي معلوماتي

- فن عصر المعلومات
- امتزاج الفنون
- الإبداع والثقافة
- الإعلام والإبداع الفني

9: 1 فنون عصر المعلومات بين الأزمة والطفرة

9: 1: 1 عن علاقة الفن بالتكنولوجيا (الطرح العام)

علاقة الفن بالتكنولوجيا علاقة ممتدة عبر العصور، من رسوم الكهوف ونقوش المعابد وكتابات ألواح الطين، إلى رسوم الكمبيوتر وفنونه الذهنية وعوالمه الخائلية. وهي علاقة غريبة الأطوار، تظهر العداء، وتبطن الوفاق. تتراوح ما بين الريبة والرهبة إلى حد القطيعة، وبين الحماس الشديد إلى حد الهوس، واعتبار كل فن يتجاهل التكنولوجيا فنا لا مغزى له، محكوما عليه بالفشل إلى الأبد.

(أ) **مصدر العداء:** يرتبط العداء بين الفن والتكنولوجيا بموقف كليهما من العلم، فبينما يكشف العلم الحقائق، يكتفي الفن بالانبهار بها، دون رغبة الدخول في تفاصيلها، على عكس التكنولوجيا التي لابد لها أن تتعامل مع أدق التفاصيل، حتى يمكن لها تطبيق الاكتشافات العلمية بصور عملية. وربما يكون هذا هو سر التنافر بين الفنان والتكنولوجي،

والعلاقة بينهما زاخرة بالاتهامات القاسية والنقد اللاذع، الفنانون يصفون التكنولوجيين بالبرودة والميكانيكية، ويسخرون من مغالاتهم في قدرة نظمهم وأدواتهم. في المقابل، يرى كثير من التكنولوجيين الفن عملا غير جاد، وينظر إلى الفنانين كنوع من الطفيليات الاجتماعية، وهم يروجون للفوضى والتلقائية، ويثيرون الرغبات الجامحة على حساب سيادة العقل.

إن الفن ينفر من مادية التكنولوجيا وبراجماتياتها الصارمة، ويرى فيهما تناقضا جوهريا مع ما يتحلى هو به من رهافة وحساسية، ومع نزوعه الدائم نحو المجرد، واحتفائه بالغامض، ورضاه بسكنى الجوار مع المستحيل. وكيف يهدأ للفن بال إزاء تكنولوجيا انتابها الغرور، فراحت تطأ بأقدامها الثقيلة أراضيه اللينة، وتسعى إلى محاكاة إبداعه، وتهميش دوره، تسلبه جمهوره، وتعبث بتراثه ونتاج إبداعه. وإن أسرفت ـ وكثيرا ما تفعل ـ لا تتورع عن أن تهبط بفن التشكيل إلى نوع من كولاج القص واللصق، وبالأدب إلى نوع من الوثائقية الجافة، وأن تنزع عن المعمار قيمة الجمالية، ليبدو رتيبا باهتا بلا هوية. وما أشد ما أضرت هذه التكنولوجيا بفن السينما، الذي نشأ في حضن الطليعة الثقافية في فرنسا وألمانيا وروسيا، حيث جعلته رهينة آلة إنتاج استديوهات هووليود، ليتوارى الإبداع الحقيقي ثمنا لمتعة حسية لحظية زائفة. وها هي المأساة ذاتها تتكرر مع الإنتاج التليفزيوني، والبقية تأتي...!

(ب) **مظاهر الوفاق**: وعلى النقيض مما أسلفناه، كثيرا ما ألهبت التكنولوجيا خيال المبدعين، فما إن تظهر تكنولوجيا جديدة، حتى تندفع طلائع الفنانين إلى استخدامها في مجالات فنونهم المختلفة. ولا تخلو ـ عادة ـ هذه المبادرات المتعجلة من بعض التعسف. ففي بداية ظهور السينما، على سبيل المثال، سارع البعض إلى تسجيل المسرحيات سينمائيا، فقوبلت مسرحياتهم المعولبة بالفشل الذريع. ويتكرر المشهد نفسه مع ظهور الكمبيوتر، حيث أظهر البعض لهفته على استخدامه قبل أوان نضجه في إعداد الرسوم وتوليد جماليات الخطوط، فجاءت النتائج متواضعة للغاية. ولكن سرعان ما مهدت هذه البدايات المتعثرة الطريق إلى علاقة بين الفن والتكنولوجيا أكثر نجاحا وعمقا. تشهد على ذلك الإنجازات الباهرة التي حققتها السينما ـ بعدئذ ـ في تقديم الأعمال المسرحية، وروائع الرسوم وجماليات الخطوط

التي يمكن توليدها حاليا بواسطة الكمبيوتر. فما إن يستوعب الفنان جوهر التكنولوجيا الجديدة، ويضع يديه على مواضع التقائها مع مجال فنه، حتى يهتدي إلى الكيفية التي يقيم بها علاقة متوازنة معها، وتدين له التكنولوجيا ـ كأداة طيعة، لا يطيق عنها فراقا ـ وتتكشف أمام ناظريه كموضوع مثير يلهب خياله، ويستحثه على المزيد من الإبداع والاكتشاف. وهكذا، دخلت التكنولوجيا عالم الفن من أوسع أبوابه، فنجدها حاليا شريكة لكل الفنون، تحرك المنحوتات، وتمزج الأنغام الموسيقية، وتشارك في صنع الديكور، وتتحكم في الإضاءة المسرحية، وتنتج الخدع السينمائية، وترمم اللوحات، وتقوم بأرشفة التراث الفني، وتحيل خيال المصمم المعماري إلى واقع ملموس، بصورة لم يكن يحلم بها في الماضي، وهلم جرا.

(ج) **تكنولوجيا المعلومات والإبداع الفني**: مزيد من الرهبة ومزيد من الهوس: وتحل بنا تكنولوجيا المعلومات، لتضفي على العلاقة الفنية ـ التكنولوجية مزيدا من الرهبة، ومزيدا من الهوس. وإن كانت آلة التصوير قد أعفت المبدع من تسجيل الواقع، ومحاكاة الطبيعة، لتصبح مهمته هي تمثيل الواقع، واستيعاب حقائقه وملاحظة ما يصعب ملاحظته، إن كان هذا هو ما فعلته آلة التصوير بالمبدع، فإن تكنولوجيا المعلومات تكاد تسلبه، بدورها، مهمة الوساطة تلك بين الواقع والمتلقي، فهي تزاحمه في تمثيل حقائق الواقع، وملاحظة دقائقه، ورصد تفاصيل أحداثه ومتابعة متغيراته، واستشراف توقعاته. وعلى الرغم من كل هذه الأمور التي لا بد أن تثير قلق المبدع، فإن تكنولوجيا المعلومات تتميز بخصائص عدة، تؤهلها لإقامة علاقة وطيدة مع الفن. ودعنا قبل الخوض في حديث الوفاق، نخل الساحة من بؤر الصراع ومناطق الصدام.

تمثل تكنولوجيا المعلومات تهديدا حقيقيا للمبدع، سواء من حيث إنتاجه أو طبيعة عمله، فتكنولوجيا المعلومات قادرة على نسخ الأعمال الفنية ومزجها وإعادة استخدامها وتوظيفها. لقد كان الفن في بداية نشأته حرفة مثل باقي الحرف، كالنجارة والحدادة والبناء. ونجح الفن ـ بشق الأنفس ـ في أن يسمو بنفسه فوق الحرفية، بعد أن نجح في إثبات تفرده، والمحافظة على تجدده، وانتهاكه الدائم القواعد السائدة. وتأتي تكنولوجيا المعلومات لتنغص عليه سكينة برجه العاجي، تكاد ترتد به إلى سابق عهده، حرفة

يزاولها هؤلاء المهنيون الجدد من «أسطوات» عصر المعلومات، ذوو القدرة على مزج الموسيقى، ودمج الأشكال، وإعادة إنتاج التصميمات. ولم تكتف تكنولوجيا المعلومات بجعل إنتاج المبدع نهبا لمن يريد، بل راحت تهدد إبداعه في الصميم، من خلال تطوير برامج تحاكي ابتكاريته، برامج تولد الأشكال، وتبني المنحوتات، وتعزف الألحان، وتؤلف القصص، بل تقرض الشعر أيضا. وهكذا، كادت نبوءة شوينبرج، رائد الموسيقى اللانغمية، أن تتحقق، فقد سبق له أن أنذرنا بأن الفنان على وشك أن يفقد ذاتية تفرده، والفن يقترب رويدا رويدا من الوقوع في فخ الحرفية، وهو ما حذرنا منه ـ أيضا ـ ألبرتو مورافيا عندما استشعر الخوف من قرب وقوع الأدب في فخ الوثائقية.

لطالما رددنا مقولة «العلم هو نحن»، دلالة على موضوعيته وضرورة الإجماع على صحة نتائجه. أما «الفن فهو أنا»؛ تأكيدا لذاتيته وضرورة تفرده، وتأتينا تكنولوجيا المعلومات، توشك أن تطرح مقولة «الفن هو هم»، بعد أن كادت هذه التكنولوجيا أن تفصم عرى تلك العلاقة التي دامت طويلا، ونقصد بها تلك التي بين المبدع الفني وعمله، بعد أن جعلت العمل الإبداعي منتجا جماعيا، يُجمع من شظايا متناثرة من إنتاج مبدعي الماضي والحاضر، بل يمكن أن يسهم فيه ـ أيضا ـ المتلقون أنفسهم، الذين ما عادوا أولئك المستقبلين العزل، ضحايا التلقي السلبي.

من جانب آخر، فإن ثقافة المعلومات، وعولمة إعلامها، تنحاز بشدة إلى ثقافة العامة على حساب ثقافة النخبة، مما يثير قلق الفن على مصير طليعته المبدعة التي تغذي، وتتغذى، على ثقافة النخبة.وإذا ما سُلب الفن طليعته، فإنه يفقد ضمان تجدده وتجاوبه مع متغيرات عالمه، وما أكثرها في عصر المعلومات. ويا ليت ثقافة العامة تلك تعمل على إحياء ثقافة الفئات الشعبية المختلفة، فقد أحالتها عولمة الإعلام إلى نوع من التجنيس الثقافي على النمط الأمريكي، مما يضع قيودا قاسية على ثقافات الشعوب، خاصة شعوب العالم الثالث. وعلى الرغم من كل هذا التهديد والتحجيم، يزداد حماس كثير من المبدعين، لتكنولوجيا المعلومات ويراها بعضهم مخرجا وحيدا لانتشال الفن من أزمته الراهنة التي يمر بها منذ السبعينيات. لقد وهبت تكنولوجيا المعلومات الفن حواس جديدة، أكثر حساسية وقدرة على التقاط الواقع، ووفرت له أدوات عدة، كي يعبر بها عن هذا الواقع، ووسائل

مبتكرة للتفاعل مع جمهوره، ونشر ناتج إبداعه. ولكي ندرك كيف يمكن لتكنولوجيا المعلومات أن تشحذ من ابتكارية المبدع، علينا النظر إلى العملية الابتكارية في إطار ثلاثية: ملكة الحدس، ومهارات معالجة المعارف، والقدرة على حل المشكلات. كما أوضحنا في الفصول السابقة، تسهم تكنولوجيا المعلومات بقسط وفير في تنمية كل من عناصر ثلاثية الإبداع المذكورة؛ فهي أداة مثلى لمعالجة المعارف من خلال أساليب هندسة المعرفة المستخدمة في تمثيل المعارف وترشيحها واستخلاص جوهرها، وهي ـ أيضا ـ أداة فعالة في توصيف المشكلات وتقديم بدائل الحلول. أما بشأن ملكة الحدس، فقد اقتحمت تكنولوجيا المعلومات، بجرأتها المعهودة، عالم الحدس، واستحدثت فرعا علميا خاصا به، يعرف بالحدسيات Heuristics؛ بهدف إكساب البرامج القدرة على التعامل مع الزائغ والمتميع والمحتمل والمشوش وغير القاطع، وعلى اختيار أقصر الطرق للوصول إلى النتائج.

لقد أسقطت تكنولوجيا المعلومات كثيرا من القيود التي تكبل الفنان، فحررت فنان التشكيل من قيود إطار اللوحة وثنائية أبعادها؛ حيث أصبح بإمكانه أن يرسم أشكاله في فراغ غير محدود ثلاثي الأبعاد، وحررت فنان الموسيقى من سطوة الآلات؛ حيث أصبح بإمكان المؤلف الموسيقي أن يصمم ألحانه بحيث تسجل مباشرة على الشرائط دون الحاجة إلى عازفين، بل بإمكانه أيضا أن يصمم آلات عزف جديدة، كما يؤلف ألحانه الجديدة، وحررت النحات من صلابة مادته، وإستاتية كتله، من خلال آليات التحريك، وتكنولوجيا توليد الأشكال المجسمة إلكترونيا، و كذلك حررت الأديب من خطية السرد المكتوب الذي فرضته عليه تكنولوجيا الطباعة، لينطلق الأديب في عالم لامتناه من اللاخطية والتشعب وإعادة البناء، وهو ما أطلق ـ بدوره ـ العنان للقارئ كي يمارس حقه في حرية القراءة وتعددها. وكان للمبدع السينمائي نصيبه الوافر من دعم تكنولوجيا المعلومات، حيث أصبحت كل الخدع السينمائية والمناظر الخلفية والنماذج الخيالية، كمركبات الفضاء وخلافه، قابلة للتنفيذ، وطوع بنان المخرج، وما عليه إلا أن يقوم بوصفها ووضع مواصفاتها. أما المبدع الدرامي، الذي طالما ضاق ذرعا بمحدودية خشبة مسرحه، فقد وفرت له تكنولوجيا المعلومات وسائل عدة للتحرر من أسر هذا الحيز، وذلك من خلال نقل المناظر الخلفية عن بعد، والمشاركة

في التمثيل عن بعد. بل أسقطت تكنولوجيا المعلومات الحائط الرابع بالفعل، لتكسر بذلك احتكار الممثل، وقد بات من حق مشاهديه أن يشاركوه أداءه، وينقلوا إليه ـ بشكل فوري ـ ردود أفعالهم لما يجري على خشبة المسرح.

خلاصة: لقد حررت تكنولوجيا المعلومات الفنان من قيود المكان والزمان، ومكنته من أن يرى عمله من زوايا مختلفة، وأن يمارس تجاربه الإبداعية بحرية زائدة، غير أنه من المؤكد أن هذه الحرية لن تدوم طويلا، فسرعان ما سيتجاوز الفنان المبدع ـ كعادته ـ ما هو متاح بين يديه، في سعيه الدائم الدؤوب إلى اكتشاف الجديد، ليصطدم مرة أخرى بقيود جديدة، وهكذا دواليك.

ولم تؤازر تكنولوجيا المعلومات المبدع فقط، بل وقفت ـ وبشدة ـ بجانب المتلقي أيضا؛ حيث وفرت له العديد من الوسائل التي تمكنه من التفاعل مع العمل الفني، وتنمية حاسة التذوق لديه، وتكثيف عملية شعوره بالمتعة. إن غاية تكنولوجيا المعلومات، هي تحويل المتلقي من مستقبل سلبي، إلى مشارك إيجابي باستطاعته أن ينفذ إلى أعماق العمل الفني، وأن يسهم في صنعه ومدوامة تجديده. وأخيرا، وليس آخرا، ومثلما أسهمت تكنولوجيا المعلومات في صميم عملية الإبداع الفني، فهي توفر ـ كذلك ـ طرقا عدة لنشر إنتاج المبدع؛ لتحرره من قبضة الناشرين وأصحاب المعارض ولجان مقتنيات المتاحف. إن الإنترنت في طريقها لكي تصبح أكبر متحف لعرض الفنون، وأكبر قاعة لسماع الموسيقى، وأكبر سوق لتبادل منتجات الفنون، وأكبر أرشيف لتراث الإبداع الفني.

وفي ختام حديثنا عن الصراع والوفاق بين تكنولوجيا المعلومات والفن، دعنا نوجه نظرنا إلى علاقة التكنولوجيا بالفن من حيث علاقتها بالبيئة والطبيعة. ففي رأينا، أن الصراع سيظل قائما بينهما، ما دامت التكنولوجيا معادية للبيئة وقاهرة للطبيعة، وظل الفن ـ وحتما سيظل ـ متشبثا بحقه في أن يمرح في رحاب هذه البيئة، تواقا إلى لقاء تلك الطبيعة. ولن يتحقق الوفاق بين التكنولوجيا والفن، إلا إذا تحقق الوفاق بين التكنولوجيا وبيئة الإنسان من جانب، والآلة والإنسان من جانب آخر. وإن لم يتحقق ذلك، فمن المؤكد أن عصر المعلومات سوف يصدر طبعته الخاصة من الرومانتيكية والسيريالية؛ حنينا إلى الماضي، أو هروبا من بشاعة الواقع، إلى فراديس

العوالم الخائلية صنيعة تكنولوجيا المعلومات؛ ليهجر الإنسان واقعه، مفضلا عليه الإبحار في غيبوبة رمزية مثيرة وخادعة، وننهي بالقول: لقد كان القرن العشرون هو قرن الناس العاديين، فقد غلبت عليه فنون استهدفت الإنسان ذاته، فهل يمكن أن يكون القرن الحادي والعشرون، هو قرن الناس المبدعين، قرنا يشهد مولد فن جديد، يتقاسم فيه الإبداع الفنان والمتلقي، والآلة أيضا.

(د) **تكنولوجيا المعلومات كموضوع للفن:** في فيلم «الأزمنة الحديثة» عبر لنا تشارلي شابلن، بأسلوبه السهل الممتع، عن أزمة الإنسان البسيط في عالم مجتمع الصناعة، وقد أصبح هذا الإنسان مجرد ترس في آلة إنتاجه الضخمة. وصور لنا مكسيم جوركي بؤس العمال الذي امتد من داخل المصانع إلى حياتهم خارجهم، ويقدم كافكا شهادته الرائعة لقضاة «محاكمته» وحراس «قلعته»، معترضا على عبث الأنظمة وبشاعة البيروقراطية التي أفرزتها عقلانية المجتمع الصناعي، وهي العقلانية ذاتها التي رفضها بيكاسو، فراح يحطم الأشكال في تجريديته كدعوة لإعادة البناء وإعادة النظر إلى القائم والسائد. وتمتزج سطوة التكنولوجيا مع بشاعة الأيديولوجيا في الطوبائية السوداء لجورج أورويل، التي تصور لنا مجتمعا وقع فريسة نظام مركزي رهيب مدجج بأمضى أسلحة التكنولجيا ووسائل الإعلام وذاكرة أرشيف المخابرات المركزية. ووجدت موتيفات عالم الصناعة، من تروس وآلات وأعمدة ومواسير، طريقها إلى لوحات الفنانين وتماثيلهم من أمثال فرديناند ليجيه، ونحاتي الإنشائية الروسية. ولم تتخلف الموسيقى عن الركب، فكان القصيد السيمفوني «مسبك صهر الحديد» لأليكسندر موسولوف، حيث امتزجت الأنغام بدقات المطارق وضجيج الآلات، وصوت انسكاب المعدن المنصهر من بوتقات الصلب. ولاحقت الموسيقى التكنولوجيا في مسار تطورها، فكانت سوناتا «الآلة الكاتبة» وسوناتا «الطيارة»، وسعى كارل هاينز شتوكهوزن إلى وضع موسيقى توحي بالحركة خلال الفضاء. ويرجع الفضل إلى المخرج السينمائي ستانلي كوبريك في تدشين استخدام موتيفات عصر المعلومات في دنيا الفن، حين عمدها بكمبيوتره الطائش في فيلم «أوديسا الفضاء». ويعتبر فون فيبرن، تلميذ شوينبرج، عضو مدرسة ڤيينا الثانية، الأب الشرعي للموسيقى الإلكترونية،

حيث ابتكر ما يمكن أن نسميه «المنمنمات الموسيقية»، ومضات من الألحان لا يزيد زمنها عن ثوان معدودة. وأخيرا، تظهر باكورة أدب الخيال العلمي في مجال تكنولوجيا الملعومات على يد وليام جيبسون بروايته الشهيرة Neuromancer التي شاع على إثرها مصطلح فضاء السيبر cyberspace، ويأتي فيلم Matrix من بعدها ليقدم لنا نموذجا من ديستوبيا نظم الرقابة الإلكترونية في عصر المعلومات. ولا شك في أن هذه مجرد بدايات، للقاء أدب الخيال العلمي مع تكنولوجيا المعلومات، فهذا الأدب سيكون ـ حتما ـ أكثر إثارة واستثارة، خاصة بعد تضافر المعلوماتية مع التكنولوجيا الحيوية والهندسة الوراثية. فمن المتوقع، أن يلهب هذا المزج العلمي ـ التكنولوجي المثير خيال الأدباء، ليلهبوا ـ بدورهم ـ خيال العلماء، يحلقون بنا في عوالم غريبة تتجاوز بكثير ما شاهدناه في أفلام «حديقة الديناصورات» و«المرأة الإليكترونية» و«العودة إلى المستقبل» وما شابه. ولنا أن نترفب ظهور سوبرمان عصر المعلومات، حاملا معه قائمة عجيبة من الخوارق الجسدية والرمزية والذهنية، وهو آت إلينا هذه المرة ليفرض العدل، ويتصدى لظلم المؤسسات والاستغلال الرمزي وفوضى الحياة تحت رحمة النظم الآلية.

عن علاقة الفن بالتكنولوجيا (المنظور العربي)

(أ) **الحوار الغائب بين فنوننا والتكنولوجيا**: لم تستطع فنوننا حتى الآن أن تقيم حوارا بينها وبين تكنولوجيا الأمس، وعليها ـ إذن ـ القيام بجهد مضاعف، حتى تنجح في إقامة نوع من الحوار مع تكنولوجيا المعلومات. وهو الحوار الذي يتطلب حدا أدنى من النضج الفني والتكنولوجي غير متوافر لدينا حاليا. دعونا في البداية نستعرض هنا بإيجاز الأسباب وراء صمت خطابنا الإبداعي ـ التكنولوجي والتي نلخصها فيما يلي:

- إن التكنولوجيا مازالت بالنسبة إلينا ظاهرة وافدة لم تنغرس بعد في تربتنا العربية، فكانت التبعية التكنولوجية التي جرت وراءها تبعية إبداعية في معظم فنوننا، وفي النقد أيضا.

- تفشي نزعة الاستيراد في مجال الإبداع أيضا، من إنتاج سينمائي وتليفزيوني، وسلع الموسيقى والغناء والتصوير. واتسعت دائرة الاستيراد الإبداعي، أخيرا، لتشمل الفنون الشعبية من فوانيس رمضان والزخارف

الإسلامية، والأزياء الشعبية.

- غياب مفهوم تكامل الفنون، وهو نظير منطقي لغياب مفهوم تكامل العلوم، وما يكمن وراءهما من ثنائية ثقافية طاحنة أدت إلى شرذمة الفكر العلمي العربي، والتي تبدو هينة إذا ما قورنت بشرذمة المعرفة بمفهومها الأوسع الذي يشمل ـ بجانب العلوم ـ الفنون والفلسفة والهندسة.

- يشكو معظم العرب، صغارا وكبارا، من أمية مزمنة في معظم فروع الفنون، ومازالت الذائقة العامة تحوم حول فنون بدائية أبعد ما تكون عن تلك ذات الصلة بالتكنولوجيا.

وأخيرا، وليس آخرا، نختتم قائمة أسباب تخلف خطابنا الإبداعي ـ التكنولوجي بـ «سبب الأسباب»، وهو ما يتعلق بموقف أهل الدين من الفنون. مثلما أقام البعض خصومة مفتعلة بين ديننا الحنيف والعلم، فإن بعضا آخر لم يدخر جهدا في افتعاله الخصومة الدينية مع معظم أجناس الفنون: خصومة مع التصوير والنحت، ومع الموسيقى والغناء، ومع الشعر والتمثيل، ومع فنون أداء الإيقاع الحركي بالطبع. ولم يفلت الأدب، بأساطيره وأخيلة قصصه وقصاصيه، من هذا الحصار الذي ضيق الخناق على «أولاد حارتنا» ومن راح منهم يعيد النظر في «الشعر الجاهلي». وما الذي يتبقى لنا بعد كل هذا...!؟ ليس سوى صحراء فنية جدباء تفرض على الموسيقى أن تلوذ بالصمت، وعلى التشكيل أن يظل أسير السطحية الزخرفية، وعلى الأدب أن يلتزم بتلقينية التوجيه المباشر. ولنصغ إلى ما سنه أحد مشرعي الفن من أصحاب الفكر الديني تعريفا للأدب الإسلامي[*1]: «إنه تصوير فني للحياة ومظاهر الكون بما فيها من خلال التصور الإسلامي، تستغل فيه الصورة والكلمة في الارتقاء بالقيم الخلقية، وإذا تكلم عن الشر والكره. فإنما يذكره لبيان أسبابه وعلاجه، حتى تعود الروح إلى الأصل الطيب الذي فطرت عليه». ولنتمعن أيضا فيما قيل في مقام الدفاع عن فن «الزخرفة العربية»، وبئس الدفاع عن هذا الفن السامق الذي تفردت به الثقافة العربية الإسلامية: «الفن عموما هندسة، والموسيقى هندسة أنغام، والنحت هندسة أشكال، والألوان هندسة في التركيب» (112 : 133). فهل لنا من يدلنا إلى ما تعنيه هذه النزعة الهندسية المفرطة إن لم يكن القصد من ورائها هو تكبيل الفن وفرض النظام الصارم عليه من خارجه، في وقت تلوذ فيه الهندسة

ذاتها بالفن وتصبو إلى هندسة الخيال. وليمهلنا القراء لنضيف هنا ما يدعيه البعض من أن الإسلام يحرم الغناء باستثناء ما أطلقوا عليه مصطلح «الغناء البريء» كمناغاة الأطفال وحدو الإبل (120).

(ب) **خطورة غياب الحوار في عصر المعلومات:** تمثل الفنون أهم سلع صناعة الثقافة، التي تمثل ـ بدورها ـ أهم صناعات عصر المعلومات، وليس أمامنا ـ في حالنا هذه ـ إلا بديلان: إما أن ننتج فنا متميزا، وإما أن نستورده على حساب مزيد من اختلال ميزان مدفوعاتنا ماديا وثقافيا. وبناء عليه، فمن الخطورة بمكان أن يستمر غياب الحوار بين فنوننا والتكنولوجيا في عصر المعلومات؛ وذلك لأسباب عدة من أهمها:

- يسود الطابع الرمزي الذهني ـ كما سنوضح فيما بعد ـ فنون عصر المعلومات؛ لذا فوظيفة الفن، لا تقتصر على الأمور المتعلقة بالتذوق، وتنمية النزعة الجمالية فقط، بل باتت هذه الوظيفة ذات صلة وثيقة بتنمية الفكر ذاته. وبقول سافر ومباشر: لا إبداع في مجال العلوم دون إبداع في مجال الفنون، في عصر بات فيه مصير الشعوب رهنا بإبداع أبنائها.

- من المتوقع أن تشدد شركات إنتاج الفن العالمية من ضغوطها على فنوننا الشعبية من موسيقى ومنتجات حرفية، مستغلة في ذلك تفوقها في إنتاج تكنولوجيا المعلومات في مجال الفنون.

يحتاج تراثنا الحضاري والفني إلى إستخدام الأساليب التكنولوجية الحديثة في صيانته وترميمه وأرشفته وإعادة استخدامه وتوظيفه. إن لم نتول نحن هذا الأمر، فسيتكفل به غيرنا، خاصة وأن المادة التراثية الخام، تعتبر ـ في كثير من الأحيان ـ ملكية مشاعة للجميع، وحتى إن لم تكن مشاعة، فقد قمنا من تلقاء أنفسنا بتعريض تراثنا للنهب والضياع.

- علينا أن نتوقع معركة ضارية مع إسرائيل، تستغل فيها تفوقها في مجال تكنولوجيا المعلومات، بهدف سلب تراثنا الفني، ويكفي ما تفعله ـ حاليا ـ بالتراث الشعبي الفلسطيني من أزياء وأغان وفنون فولكلورية أخرى، تشهد على ذلك مقتنيات المتحف اليهودي في القدس.

- ارتفاع كلفة الإنتاج الإبداعي؛ نظرا لإسرافة في استخدام التكنولوجيا، سواء في السينما أو المسرح أو الإنتاج التليفزيوني أو برامج ألعاب الفيديو. إن لم نتفهم بدقة العلاقة بين هذه الفنون والتكنولوجيا، فسنصبح لقمة

سائغة في أيدي من يوردها، فما الذي يحده ـ ساعتها ـ من أن يغالي كما يحلو له في ثمن بضاعته وخدماته.

- من المتوقع أن يزداد نزيف العقول والمواهب بصورة تفوق بكثير ما كان يحدث في الماضي، ومازلنا نذكر ما قامت به صناعة السينما في هووليود في الأربعينيات من استقطاب مخرجي السينما الأوروبيين . لقد شرعت شركات الإنتاج الإعلامي متعدية الجنسية ـ بالفعل ـ في مد يدها إلى فنون الشعوب النامية، في إطار مخططها التسويقي لإضفاء الطابع المحلي على إنتاجها؛ من أجل اجتذاب المشاهد المحلي، وهو ما سيزيد من استقطابها للمبدعين المحليين.

(ج) **كيف لنا أن نبدع في عصر المعلومات:** والسؤال الآن، هل يمكن أن يبدع العربي في عصر المعلومات في ظل القيود التي يدركها الجميع، خاصة وقد أصبح الفن صنعة الكبار من الشركات المتعدية الجنسية، وقد نجحوا في تحويله إلى فن كثيف التكنولوجيا لا كثيف الإبداع؟ لا نود أن ننزلق إلى ما يردده البعض، من أن أبداعنا محكوم عليه بالفشل سلفا، في ظل مقولات زائفة من قبيل: نحن لن نبدع موسيقى بسبب موقف بعض مفكري الدين منها، ولن نبدع مسرحا جادا لأن حضارتنا لم تقم على الحوار أصلا، ولن نبدع تشكيلا لأن ثقافتنا ترتكز على النص، ولن نبدع شعرا دراميا لانصراف شعرنا إلى مديح الحكام والتباهي بالنعرات القبلية وعدم انشغاله بحيرة الإنسان مع ذاته وواقعه. ولن نستسلم أيضا لهذا الرأي القائل إن مجتمعاتنا الحالية ليس في وسعها إلا توليد خلايا إرهابية تحجم الإبداع، لا خلايا طليعية تدفع به قدما. وكيف لمبدعنا أن ينشغل بقضايا الفن والتكنولوجيا، وهو يبدد طاقته الخلاقة في صراعه المرير مع القوى السياسية والقوى الاجتماعية الأخرى.

إن الإبداع ـ بحكم طبيعته ـ لا يخضع لمثل هذه القوانين المباشرة، ومازال مبدعنا العربي ـ في اعتقادنا ـ قادرا على تجاوز القيود، وتحدي كل العقبات. فقد نجح هذا المبدع سواء في موطنه أو في مُهاجره: أبدع نجيب محفوظ أدبا عالميا، وحسن فتحي معمارا جديدا لسكنى الفقراء، وأبدع مهاجرونا من أمثال: جبران خليل جبران شعرا عالميا، وزهاء حديد في مزج العمارة الإسلامية مع عمارة الحداثة، وإيهاب حسن في نقد ما بعد الحداثة، وإدوارد

سعيد في التنظير لثقافة العصر، ولقي فكر أدونيس في باريس من الحفاوة أكثر مما لاقاه في موطنه. ودعنا نضف ـ هنا ـ السينما الطليعية في المغرب، وحركة النقد الأدبي الحديث في مصر وتونس، وبحوث مركز دراسات الوحدة العربية ببيروت، إلى آخر قائمة الإنجازات التي تشهد على قدرة المبدع العربي في ممارسة موهبته في ظل أقسى القيود، وفي مختلف الظروف. وهل لنا أن ننسى إبداع محطمي خط بارليف، وإبداع أطفال الحجارة؟!

إن بإمكاننا إقامة علاقة وطيدة بين إبداعنا وتكنولوجيا المعلومات، ويتطلب ذلك تضافر الجهود في دراسة ظاهرة الإبداع في عالمنا العربي من جوانبه المختلفة: الجانب النفسي ـ الجانب المعرفي ـ الجانب المعلوماتي ـ الجانب التربوي ـ الجانب اللغوي ـ الجانب الثقافي ـ الجانب الأخلاقي ـ الجانب الاجتماعي ـ الجانب التشريعي ـ الجانب التنظيمي ـ الجانب الاقتصادي ـ الجانب الأمني.

وعلينا أن نسرع من فورنا في تدريس تكنولوجيا المعلومات في كليات الفنون الجميلة والتطبيقية، وأن نقيم معاهد البحوث المتخصصة في مجال فنون الكمبيوتر، أسوة بما فعلته النمسا وألمانيا وكندا وإنجلترا ودول أخرى كثيرة غيرها. كفانا فنانين تقليديين، نريد فنانين من طراز عصر المعلومات، مدركين لما تعنيه النقلة النوعية إلى الفن الرمزي الذهني، ومدركين ـ أيضا ـ لمغزى أن الإبداع الفني، في عصر عولمة الثقافة، يقوم على اقتراض الفنون من خارج مراكزها التقليدية. فنحن نرقب حاليا لجوء فن الرقص الحديث إلى فنون الرقص الآسيوية والأفريقية، ولن يكون هناك جديد في فن المسرح ـ كما يؤكد رواده الطليعيون ـ إلا إذا أتى من مسارح اليابان والصين والهند (305). أما الموسيقى العالمية، فما زالت في حاجة إلى المزيد من شحنات من الحيوية الدافقة، تأتيها من إيقاعات الموسيقى الزنجية، وموسيقى جزر الكاريبي.

9: 1: 2 فن عصر المعلومات: أزمته ووظيفته وطبيعته (الطرح العام)

(أ) **أزمات على كل الجبهات:** ما أكثر ما تعرض الفن في الماضي إلى

العديد من الأزمات، إلا أن هذه الأزمات لا تقارن بتلك التي فجرتها تكنولوجيا المعلومات، على جميع جبهات منظومة الإبداع الفني، وفي جميع مجالات الفنون دون استثناء.

ولنبدأ بالموسيقى، أرقى الفنون وأكثرها ارتباطا بتكنولوجيا المعلومات، لنرى كم صارت ثائرة متمردة تريد أن تحطم أنساق أنغامها، تعلن عن حاجتها ـ كما ذكرنا على التو ـ إلى شحنة إيقاعية تعيد إليها حيويتها، وإلى سلم موسيقي جديد، والسلم الموسيقي الحالي يترنح بحثا عن مقامات جديدة، بعد أن أوشكت أنغامها أن تنضب، أسيرة لهذا النزر القليل من مقامات موسيقى الحضارة الغربية.

وفن التشكيل، الذي ظل يزهو بانتصاره على الكاميرا، تاركا لها مهمة تسجيل الواقع، ليسمو هو إلى تمثله وتمثيله وإعادة صياغته، ها هو التشكيل ذاته ينتظر حائرا في ترقب، لا يدري ماذا ستفعل به تكنولوجيا المعلومات التي دانت لها الخطوط والألوان والأشكال والصور والأبعاد بصور ة غير مسبوقة. وينتفض الأدب ـ هو الآخر ـ لا يدري ماذا يفعل، بعد أن خلصته تكنولوجيا المعلومات من خطية السرد الذي فرضته عليه تكنولوجيا الطباعة. أما الشعر، فيهيم على وجه تائها، يبحث عن جمهوره وقد سلبه منه إعلام عصر المعلومات وعوالم ألعاب الفيديو، حتى قيل إن عدد من يقرأون الشعر، أصبح أقل ممن يقرضونه. وموقف المسرح لا يقل تراجيدية عن الشعر، رفيقه القديم، فكيف يدرأ عن نفسه خطر الموت، في ظل ذلك الوسيط الإلكتروني الذي يبدو معاديا للعروض الحية، لشدة شغفه بفنون التسجيل وإعادة البث. وبالطبع، لا بد أن يكون الرقص، ذروة الفن الأدائي، أكثر قلقا من المسرح على مصيره، فقد بات يساوره الحنين إلى ماضي عهوده القديمة، عندما كان طقوسا وارتقاء بالجسد إلى ما هو أسمى، فهل سيسمح له أن يسترد وظيفته السامية تلك، بعد أن ابتُذل ليصبح مجرد حركات فارغة، وإثارة جنسية رخيصة. وحتى السينما، صنيعة التكنولوجيا وطفلتها المدللة، باتت قلقة أشد القلق أمام تكنولوجيا المعلومات التي لا ترى السينما إلا جنسا من أجناس الفنون، عليه أن يذوب تماما في مزيج الوسائط المتعددة التي استحدثتها هذه التكنولوجيا.

والآن إلى أزمة فن المعمار، حيث اللقاء السافر المباشر ما بين الفن

والتكنولوجيا. لقد أدرك هذا الفن مدى الضرر الذي ألحقته به الحداثة، بعد أن حصرته في نطاق وظيفي ضيق، لتطيح بالقيم الجمالية، وبخصوصية المكان وطابعه. لقد أعلن معمار التحطيم deconstruction العصيان على رتابة الخطوط الأفقية والرأسية، وانتظام المساحات والفراغات، بل وثبوت الجدران والأعمدة أيضا.

ولابد أن تكون للنقد الفني، وسط كل هذه الأزمات، أزمته الخاصة به، والتي صار يعاني منها بالفعل، بعد أن مل في حداثته حديث التأويل والتفسير، والكشف عن نوايا المبدعين وعما يثير حس المتلقين، وقد عجز نقد ما بعد الحداثة وحديثه عن الجميل والجليل، عن أن يوفر الحد الأدنى من الغايات والمناهج.

وعلى الرغم من كل هذا القلق والاضطراب، واختلاط الرؤى وغيابها، لا ينقطع الحديث عن عولمة الفنون. ونحن مع ما خلصت إليه دراسة لليونسكو من أن الكلام ـ حاليا ـ عن إبداع فني معولم، أو تذوق فني معولم، أمر صعب، ما لم نكن نقصد بالفن هنا ذلك الفن الشائع الرخيص [322]، فالفن ـ بحكم طبيعته ـ يرفض التجنيس نظرا إلى التباين الشديد، في الثقافات التي تقرره، وفي أوضاع المبدعين، وأمزجة المتلقين.

ودعنا نتساءل هنا: هل وصل الفن ـ أو كاد أن يصل ـ إلى طريق مسدود، أم أنه يمارس ـ كعادته ـ هواية السير على الماء، وكما أجاد الحوار مع التكنولوجيا سابقا، فلا بد أنه سينجح، عاجلا أم آجلا، في إقامة حوار متكافئ ومتوازن مع تكنولوجيا المعلومات، وقد ظهرت بوادر هذا الحوار ـ بالفعل ـ متمثلة في باقة من فنون عصر المعلومات، نكتفي هنا بسرد قائمتها، مرجئين الحديث عنها إلى فقرات قادمة:

- فن مفهومي conceptual art
- فن تفاعلي interactive art
- فن اتصالي telecommunicative art
- فن سيبري cyber art
- فن الفيديو video art
- فن السي ـ دي CD. art
- فن الاتصال المباشر on-line art

إنها ـ بلا شك ـ فنون وليدة اللقاء المباشر، أو فنون بفعل الصدمة الأولى، مع تكنولوجيا المعلومات، لم تتخذ بعد شكلا مستقرا، أو شبه مستقر. فهي فنون مازالت تحت التصنيع لم تتحدد هويتها بعد، فنون تنقب عن مبدع جديد و تنشد متلقيا جديدا، وتبحث عن علم جمال جديد. مصدر تخوفنا، أن يتسرع البعض في الإطاحة بالقديم، قبل أن يستقر الجديد، ودون أن يعطي المهلة الكافية، لكي تتضح معالمه وتكتمل أدواته ومناهجه.

خلاصة المقال: آن لنا أن نعيد طرح السؤال الأزلي: ما الفن؟ وما وظيفته؟ وما المعرفة التي تكمن من ورائه؟

(ب) **وظيفة الفن في مجتمع المعلومات:** لم تعد وظيفة الفن، كما كانت في الماضي، محاكاة الواقع أو إعادة اكتشافه، فيكفينا ـ كما صرحت فيرجينيا وولف ـ من هذا الواقع الرديء واحد. وعلى الفن أن ينزل من عليائه، وأن يكف عن محاولاته المستحيلة للكشف عن الحقائق النهائية، والتلذذ بممارسة نبوءاته، والزهو بحساسيته المفرطة في ملاحظة، ما يصعب ملاحظته. إن على الفن أن يواجه ما يجب مواجهته. إن عليه ـ بداية ـ أن يدافع عن وجوده بدافع غريزة حب البقاء، ضد ما يحيق به من مهالك، في ظل تكنولوجيا المعلومات التي تسعى إلى أن تجعل من الفن سلعة تباع وتشترى. لقد آن الأوان أن يتبرأ من وظيفتة الديكورية في خدمة المعابد والقصور والصالونات، ومزادات المقتنيات. وحان له ـ أيضا ـ أن يتخلص من انحيازه للنخبة ليلتحم بجماهيره، لكي يؤازرها في مواجهة صراعات عصر المعلومات وأن يحث هذه الجماهير على أن تتخلص من سلبيتها التي ترسخت لديها بفعل الإعلام الجماهيري وتعليم الإنتاج بالجملة؛ من أجل المشاركة في صنع مصيرها، وألا تتركه نهبا لصانعي القرار وأصحاب رؤوس الأموال، وجوقة الخبراء، وبيروقراطية التنظيمات ، وسطوة التكنوقراط. إن إنسان اليوم، يواجه عالما سريع الخطى، زاخرا بالتغيرات. فهل يمكن للفن أن يساعد هذا الإنسان على أن يلحق بعالمه، وأن يردم الهوة التي تفصل بين الممارسات العملية وإدراكه لمضمونها المعرفي، وأن يتصدى لثقافة الانفصال بين الغايات والوقائع؛ ليعيد بذلك الحلقات المفقودة في علاقة الثقافة بالتنمية، وعلاقة التقدم التكنولوجي برفاهية الإنسان وسعادته؟ فلم يعد يكفي الفن أن يكون متمردا وثائرا على الأوضاع القائمة، في عصر بات فيه

التمرد والثورية لا يمثلان شيئا باهرا ولا فاعلا، تحت وطأة الحتميات الاقتصادية والتنظيمية وضغوط القوى الاجتماعية.

على صعيد آخر، أوشك الفن أن يفقد قدرته على تجاوز العلم، والتي لخصتها مقولة هربرت ريد الشهيرة: يبدأ الفن عندما ينتهي العلم. فالعلم، في أوج انتصاره وزهوه، تكاد تكنولوجياته أن تجعل من الفن تابعا لها. فهل يمكن للفن أن يتشبث بحقه في الريادة، وأن يجر التكنولوجيا خلفه ليجعلها في خدمة التربية والتثقيف الجاد؟ وهل يمكن لمهمة الفن أن تتجاوز حدود التذوق الجمالي، وتنمية الشعور الوجداني، لتشمل توليد المعرفة أيضا؟ حتى يتقاسم الفن والعلم مهمة التكامل المعرفي، تحقيقا لثلاثية العقول التي طرحها كانط: عقل الظاهر وعقل الباطن وعقل الإبداع.

(ج) **معرفة فنون عصر المعلومات:** لسنا في حاجة إلى أن نؤكد ما استقر عليه الرأي من أن الفن ـ في جوهره ـ ضرب من المعرفة، معرفة تختلف من حيث طبيعتها عن تلك التي يمدنا بها العلم. إن وراء كل فن، معرفته الخاصة به، ولن تتحقق وحدة الفنون التي يتحدثون عنها، دون تحديد الشق المعرفي لأجناس الفنون كل على حدة؛ وهو الأمر الذي يمكن أن تسهم فيه تكنولوجيا المعلومات بدور فعال؛ وذلك للأسباب التالية:

- طابع الفن الذهني السائد على فنون عصر المعلومات، وما يعنيه ذلك من تقارب ما بين الفن والفكر.

- الطابع الرمزي لتكنولوجيا المعلومات، والذي يتواءم مع الفنون بصفتها تنويعات مختلفة من أنساق الرموز.

- نظرية المعلومات القائمة على ثنائية المرسل والمستقبل، وقياس كمية المعلومات، والتي تعتبر مدخلا حقيقيا في فهم علاقة المبدع بالمتلقي، وتحديد قيمة الأعمال الفنية.

- الدور الرئيسي للغة في تكنولوجيا المعلومات؛ مما يوفر أدوات عملية، ونسقا عاما تقاس علية لغات الفنون الأخرى: لغة الموسيقى، لغة الشكل، لغة المسرح، لغة السينما، لغة الشعر، لغة الرقص، لغة المعمار. وهي اللغات التي مازلنا نتعامل معها ـ حتى الآن ـ على مستوى المجاز.

- الوسائط المتعددة التي تسعى إلى مزج أجناس الفنون، وهو الأمر الذي يبرز الحاجة إلى إزاحة النقاب عن معرفة الفنون المتخصصة؛ حتى

يتسنى القيام بعملية المزج هذه على أسس منهجية واضحة.

إن معرفة الفنون هي وسيلتنا إلى جماليات جديدة قائمة على وحدة الفنون، سعيا إلى وحدة أكبر، تجمع بين ضروب المعرفة المختلفة: فلسفة وعلما وفنا وهندسة، وخبرات مكتسبة، لعلنا بذلك ندرك ما ابتغاه روجيه جارودي في «واقعية بلا ضفاف» بحديثه حول وحدة الفنون، الذي ألف فيه بين تجريدية تشكيل بيكاسو، وعبثية أدب كافكا وشمولية شعر سان جون بيرس، وذلك تمهيدا لأن ندرك مغزى ما سعى إليه دوجلاس هوفستادر، على مستوى وحدة المعرفة الشاملة؛ عندما مكننا من وضع أيدينا على القواسم المشتركة بين مؤلفات عبقري الموسيقى الألماني يوهان سباستيان باخ، ورسومات فنان الحفر الهولندي إم. سي إيشر، والرياضيات المنطقية لمؤسسها العالم النمساوي كورت جودل (247).

لقد أولينا معرفة الفنون اهتماما خاصا في دراستنا الراهنة لقناعتنا أن صلة الفنون بتكنولوجيا المعلومات لا تتضح إلا من خلال وسيط المعرفة، وكذلك لإزالة المفهوم الخاطئ لدى الكثيرين أن لا صلة هناك بين الفن والمعرفة، وهو ـ بلا شك ـ وراء النظرة المتدنية التي ينظر بها بعض علمائنا إلى الفن.

إننا في حاجة ـ كما نادى البعض ـ إلى فلسفة جديدة تقيم توازنا، ما أشد حاجتنا إليه، بين ثلاثية: الحق والخير والجمال،تعيد الوفاق بين الحق (العلم) والجمال (الفن)، كشرط أساسي لإعادة الوفاق بين الحق والخير، أي بين العلم والأخلاق، في عصر تكنولوجيا المعلومات والتكنولوجيا الحيوية، اللتين تطرحان العديد من القضايا الأخلاقية، وكفى ما عانته البشرية من كوارث في ظل تطبيق أعمى للتكنولوجيا، يقصر نظره على عائدها الاقتصادي فقط ضاربا عرض الحائط بالقيم والبيئة وأمان الإنسان وأمنه وإيمانه.

فن عصر المعلومات: أزمته ووظيفته وطبيعته (المنظور العربي)

(أ) **عن أزمة فنوننا**: ربما لا يروق للبعض حديث يتناول أزمة فنوننا، يرى فيه ضربا من رفاهية فكرية، يتجاهل أولويات أزماتنا وحقائق واقعنا. ولكن الكاتب لديه قناعة راسخة مؤداها: أن تفهمنا أزمة الفن لدينا هو مدخل

أساسي لفهم كثير من أزماتنا الاجتماعية الأخرى. فأزمة فنوننا عامل بارز وراء أزمة تربيتنا وتنميتنا وإعلامنا، ومعمارنا، وقيمنا، وسلوكنا. وأزمة فنانينا، ذات صلة وثيقة بأزمات مهندسينا ومديرينا وأطبائنا ومدرسينا ومحاسبينا. إن علينا أن نتعقب الأسباب الدفينة وراء أزمتنا الإبداعية التي طفحت أعراضها: كتب بلا قراء، ومسارح بلا جمهور، ومعارض بلا زوار، ومواهب تتبدد لا تجد من يرعاها، ومؤسسات فنية تشكو قلة الموارد والتمويل. وراء كل ذلك ـ في رأينا ـ أسباب رئيسية عدة من أهمها:

- غياب وعي القيادات السياسية بدور الفن في عملية التنمية عموما، والتنمية المعلوماتية بصفة خاصة.

- نقص الوعي لدى مبدعينا بمغزى تأثير المتغير المعلوماتي في عالم الفنون: تقنياته، وأسواقه، واقتصادياته.

- غياب مفهوم وحدة الفنون لدى الكثيرين من مبدعينا ومثقفينا.

(ب) **عن وظيفة الفن لدينا**: كاد الفن الأصيل أن يرحل عن ديارنا، حاملا معه معرفته ووظيفته. لقد صرنا في مسيس الحاجة إلى فن جديد مناضل، يستطيع أن يقيم حوارا مع ديننا دون أن يستفز جحافل الغوغائية التي تقف على أهبة الاستعداد للإطاحة بالبقية الباقية من الإبداع الفني لدينا. نحن نصبو إلى فن جديد يطرح جانبا همومه الميتافيزيقية، ليوجه جل طاقته إلى المناحي المعرفية والأخلاقية، فن يتصدى لآفة التلقي السلبي، ليعوض بعضا مما عجز عنه تعليم الفصول، ويخفف من عبث الإعلام بالعقول. نحن في حاجة إلى فن جديد، يقيم الحلقات المفقودة بين نظافة المسكن والملبس ونظافة اليد، وبين فوضى الشوارع والمكاتب، وفساد المؤسسات، واختلال العلاقات ما بين القوى والأفراد والفئات الاجتماعية.

(ج) **المعرفة وراء فنوننا**: مازال الكثيرون لدينا يجدون صعوبة بالغة، في أن يكون وراء التشكيل والشعر والموسيقى ضرب من المعرفة، ناهيك عن فنون الرقص. وهم يقيمون جدارا من الأسمنت بين العلم والفن، بل الفن في نظر بعضهم ما هو إلا مجرد شطحات وانفعالات. إن إدراكنا المعرفة الكامنة وراء الفنون، هو ـ في رأينا ـ مدخل أساسي لتأصيل معرفتنا بالعلم، علاوة على أنها مورد لا غنى عنه لتنمية التذوق الفني الغائب عن ساحتنا. إن طرح قضية معرفة الفنون حاليا، ينطوي على دعوة إلى تحديد ملامح

خريطتنا المعرفية بصورة شاملة، خاصة أن المعرفة الفنية، غالبا ما تتطرق إلى الفلسفة والفكر عموما، أكثر مما تفعله معرفة العلم. بالإضافة إلى أن معرفة الفنون تسهم بقدر كبير في التنظير الثقافي الحديث. ويقينا، فإن تناولنا معرفة الفنون، يعد مدخلا أساسيا للتصدي للثنائية الثقافية، والانقضاض عليها من موضع أعلى وأشمل، عن ذلك الموضع المحصور بين علوم الطبيعيات وعلوم الإنسانيات. وأخيرا، فإن إدراكنا الشق المعرفي لأجناس الفنون المختلفة سيسهم ـ حتما ـ في إزالة أوجه الخصومة المفتعلة بين ديننا والفن. إن معرفة الفنون تأخذ حاليا دفعة حقيقية، في ظل المتغير المعلوماتي، وصار لزاما علينا أن نلحق بها تعويضا لما فات وتأمينا لما هو آت.

9: 1: 3: امتزاج الفنون (الطرح العام)

(أ) **عن مستويات الامتزاج الفني**: فتحت تكنولوجيا المعلومات الباب على مصراعية أمام امتزاج الفنون، ليس ـ فقط ـ في إطار الثقافة الواحدة، بل عبر الثقافات المتعددة أيضا. لقد وفرت المعلوماتية الوسائل الأساسية لهذا المزج الفني وعلى رأسها بلا شك تكنولوجيا الرقمنة ـ انظر الفقرة 2: 1: 2 من الفصل الثاني. وتأتي تكنولوجيا المعلومات بمنزلة تتويج رائع لمحاولات عدة سابقة عليها للمزج بين الفنون، وهو ظاهرة تستقي أصولها من مصادر فلسفية وعلمية متنوعة، من نقدية كانط ومثالية هيجل وظاهرتية هوسرل، وعلم النفس الجشتالتي، وتأتي فلسفة العلم، لتضيف إلى هذه المصادر علوم الفلك الحديث والبيولوجيا الجزيئية وفيزياء الكوانتم واللسانيات، وقد لحقت بها ـ أخيرا ـ علوم الذكاء الاصطناعي وهندسة المعرفة. ونكتفي هنا ببعض أمثلة عن امتزاج الفنون.

ولنبدأ كعهدنا بالموسيقى التي أغفلها كانط معتبرا إياها مجرد متعة حسية، ليجيء من بعده شوبنهور مؤكدا لنا أن جميع الفنون تطمح إلى أن تكون موسيقى. وينحاز هيجل في «جمالياته» إلى فنون اللغة، فيرقى بالشعر إلى أعلى المراتب، معتبرا إياه فن الفنون، ناظرا إلى الشعر الدرامي بمنزلة الفن الأم، الذي تنبثق منه فروع الفن الأخرى؛ حيث يتفرع منه الشعر الملحمي (الموضوعي)، والشعر الغنائي (الذاتي). وفي حين يربط هيجل بين الشعر الغنائي والموسيقى، نجده يربط بين الشعر الملحمي وفنون الشكل

والعمارة وفن التمثيل الموضوعي والرمزي. أما أصل الفنون جميعا لدى هيجل، ونقصد به الشعر الدرامي، فيناظر ـ في رأيه ـ فن النحت. فكما تتعامل الدراما مع واقع الحياة خارجها، يتعامل النحت مع حيز الفراغ خارجه (101 : 246). وهناك من يرى في الأدب الفن الشامل الذي تندرج في إطاره جميع الفنون الأخرى، بل هناك من يضيف إليها العلوم أيضا.

ولا جدال في أن اللغة قد لعبت دورا رئيسيا في الامتزاج الفني هذا. وقد عبر المجاز اللغوي عن هذا الامتزاج بالعديد من المصطلحات، منها: موسيقى الشعر، وشاعرية الموسيقى، وتلوين الأنغام، وتناغم الألوان، وبناء المسرحية، وحوار الأماكن المغلقة والمفتوحة، وهلم جرا. إن لدى معظمنا نزعة لغوية إزاء الفنون، فما إن نر عملا فنيا غير لغوي، تشكيلا كان أم موسيقيا أم رقصا، إلا ويتبادر إلى أذهاننا السؤال المعهود: ماذا يعني هذا العمل الفني؟ إن هذه النزعة اللغوية هي ـ بالضبط ـ ما تسعى إلى التخلص منه الفنون الخالصة، لتنأى بنفسها عن سطوة اللغة، كخطوة ضرورية لتخلصها من سطوة الفنون الأخرى.

ولا نقصد بامتزاج الفنون هنا تلك الفنون التي تجمع بين أكثر من جنس من أجناس الفنون، كفن الأوبرا ـ على سبيل المثال ـ الذي يجمع بين الغناء، والأداء التمثيلي، أو فن السينما الذي يجمع بين فنون الرواية والموسيقى والغناء والأداء التمثيلي وخلافه. ولا نقصد بامتزاج الفنون ـ أيضا ـ ضرورة أن يقوم العمل على عمل درامي أو ملحي، أو أن تستخدم المناظر السينمائية كخلفية للمسرح وما شابه. فالامتزاج الفني يعني ما هو أكثر من هذا الجمع شبه الميكانيكي لمجموعة من الفنون.

هناك مراحل عدة للامتزاج الفني رأي الكاتب ـ على سبيل التوضيح ـ أن يلخصها في المراحل الأربع التالية:

- استضافة عمل فني لعمل فني آخر.
- استلهام العمل الفني لعمل فني آخر.
- استيعاب عمل فني لعمل فني آخر.
- مرحلة الانصهار الكامل، المتمثل في تكنولوجيا الوسائط المتعددة.

(ب) **استضافة عمل فني لعمل فني آخر:** كان المثل الأعلى لرواد الحركة الرومانتيكية، من مثل جوته وشيللر، هو مزج الفنون، وقد فتح بيتهوفن ـ

شاعر النغم كما يطلق عليه النقاد أحيانا ـ الطريق أمام الرومانتيكيين؛ عندما عمد شعر شيللر في ختام سيمفونيته التاسعة (السيمفونية الكورالية). لقد استضافت الموسيقى الشعر في إطار البنية الكبرى للسيمفونية، فبدا ـ بفضل عبقرية بيتهوفن الفذة ـ مستأنسا ومتوائما في إطارها. أما المؤلف الموسيقي العظيم فاجنر، وكان شاعرا أيضا، فقد وسع من دائرة الاستضافة الفنية فيما أسماه «العمل الفني الشامل»؛ ليعلن بداية موسيقى المستقبل ويخط لها طريقها الجديد الذي تتقاسمه جميع الفنون، من دراما ورقص وشعر وتشكيل. لقد أعلى فاجنر من شأن الدراما، متضافرة مع الموسيقى والغناء وصولا إلى هذا «العمل الفني الشامل». هذا عن استضافة الموسيقى لغيرها من أجناس الفنون. أما عن الأدب؛ فما أكثر ما استضاف نثره فقرات من الشعر. وينعطف بنا توماس مان، في روايته الشهيرة دكتور فاوست، انعطافة موسيقية حادة؛ عندما راح يصف لنا ـ كعادته ـ بأقصى ما تكون عليه الحرفية، التفاصيل الفنية الدقيقة للعمل الموسيقي حتى ينقل إلينا معاناة المؤلف الموسيقي بطل روايته. تحافظ الاستضافة، بدرجة كبيرة، على استقلالية الفن المستضاف عن الفن المضيف، وتبقى العلاقة بينهما على مستوى وحدة البناء الكبرى للعمل الفني التي تجمع بينهما.

(ج) **استلهام عمل فني لعمل فني آخر**: رفعت جماعة الكاميراتا في عصر النهضة، شعار «الدراما من خلال الموسيقى»، في ظل قناعتهم بأن تراث المسرح الإغريقي لن يجد طريقه إلى الجموع العريضة إلا إذا عُبر عنه موسيقيا. وجاء القرن التاسع عشر، ليقدم لنا أمثله كثيرة عن هذا النوع من الامتزاج الفني، لعل من أبرزها القصائد السيمفونية لفرانتس ليست، التي تستلهم فيها الموسيقى روح الشعر والدراما. تشهد على ذلك عناوين هذه القصائد من مثل «دانتي» و «تاسو» و «بروميثيوس». وكما استلهمت الموسيقى فن الشعر، فقد استلهمت فن التشكيل أيضا، فكانت الإيحاءات الأدبية التي أثارتها لوحات المصور السويسري أرنولد بوكلين في العصر الرومانتيكي، ينبوعا لا ينضب لقصائد سيمفونية وأعمال أوركسترالية عدة، من أشهرها القصيد السيمفوني لرحمانينوف بعنوان «جزيرة الموتى» التي استلهم فيها لوحة بالعنوان نفسه لمصورنا السويسري.

وقد حقق شوبان نجاحا باهرا في نقل باليتة الألوان إلى عالم النغم، متأثرا في ذلك بصديقه الفرنسي ديلاكروا. ففي السلالم الموسيقية الملونة التي ابتكرها شوبان، لم تعد للمقامية Tonality الأهمية الكبرى؛ حيث أصبحت الكلمة العليا للتوافقات الهارمونية؛ التي تضافرت؛ من أجل إغناء ما يعرف بـ «صورة الرنين الصوتي»(*2)، بوسائل عدة منها: إصدار النبرات المفاجئة وإمهالها، والارتفاع بالصوت والهبوط رويدا رويدا، والإسراع بالموسيقى تدريجيا، أو التشديد في إطلاق النغمة. بقول آخر، تناظر نغمات السلم الموسيقي الأساسية (دو ـ ري ـ مي ـ فا ـ صول ـ لا ـ سي)، الألوان الأصلية كالأبيض والأسود والأحمر والأزرق والأصفر، في حين تمثل أنصاف النغمات وسلالم شوبان الملونة طيف التدرج اللوني، من رماديات وخلافه. ووصل الأمر في امتزاج الموسيقى مع الألوان إلى أن صممت بالفعل لوحات مفاتيح موسيقية ملونة، تقوم بترجمة الأصوات إلى مقابلها اللوني[*3]. أما عن استلهام الموسيقى لفن الأدب، فمثالنا ـ هنا ـ هو ما قام به ريتشارد شتراوس؛ عندما استلهم الأحداث التي وصفها سيرفانتس في رائعته دون كيشوت، وقام بترجمتها موسيقيا، مغامرة بمغامرة، في قصيده السيمفوني العنوان نفسه. مثلما استلهم فرانتس ليست كما أسلفنا، مقدمات الشاعر الفرنسي ألفونس دي لامارتين ومسرحية فاوست، رائعة شاعر الألمانية الأكبر جوته. أما المؤلف الموسيقي ديبوسي، فقد قرر أن يحذو حذو المصورين الانطباعيين في الرسم في رحاب الهواء الطلق، وتعكس عناوين مؤلفاته الموسيقية، هذه النزعة الانطباعية، والتعامل المباشر مع الطبيعة من أمثلتها: حوار بين الماء والهواء، السحب، الكاتدرائية الغارقة، وتجدر الإشارة إلى أن شاعرنا الفرنسي لامارتين، الذي ورد ذكره هنا، قد قام في قصصه الخرافية، باستلهام رائعة ابن المقفع، كليلة ودمنة، وهو مثال نورده ـ هنا ـ عن امتزاج الفنون عبر الثقافات المختلفة.

وعلى الصعيد السينمائي، فإن أنجح أفلام السينما عالميا ومحليا ـ كما يقول هاشم النحاس ـ هي التي استلهمت القصص والروايات (61: 59).

(د) **استيعاب عمل فني لعمل فني آخر:** الاستيعاب، هو ضرب من المزج الفني، يجمع بين الاستضافة والاستلهام، يمكن اعتباره مرحلة تمهيدية صوب الانصهار الكامل. ومن أبرز أمثلة الاستيعاب الفني، هو ما قام به

بيكاسو في تكعيبيته عندما استلهم فنون القبائل الأفريقية، ومن أشهرها، القناع الافريقي، وتراث الفن الياباني، وكذلك ما قام به الفنان المجري فازاريلي عندما نقل طابع الزخرفة العربية إلى لوحاته القائمة على التجريد الهندسي، وكذلك المعماري الأسباني الشهير انطونيو جاودي في استلهام طابع العمارة الإسلامية. أما سترافنسكي في كلاسيكيته الحديثة، فقد قام بمزج الموسيقى الأوروبية بالأغاني الشعبية الروسية، والإيقاعات المتوحشة لموسيقى زنوج أفريقيا.

(هـ) مرحلة الانصهار الكامل بين الفنون: وتأتي تكنولوجيا المعلومات، لتقول كلمة الختام في مسار امتزاج الفنون، بعد أن نجحت الرقمنة digitization في تحويل جميع أنساق الفنون، إلى سلاسل من «الصفر والواحد»، مصحوبة بوسائل آلية طيعة للتحويل بين أنساق الرموز المختلفة، وتجسيد المجرد إلى المحسوس، واستخلاص المفهوم المجرد من جوف «وعائه» المادي. لقد اقترب مجاز وحدة الفنون، الذي أشرنا إليه سابقا، من مستوى الاستخدام الحرفي، فقد اقتربنا من أن نستخلص الموسيقى من قلب الأشكال، وتوليد الأشكال من صلب الأنغام، واستخراج المنحوتات من مسطح الأشكال، وتجسيد الروايات والسيمفونيات في بنى أقرب ما تكون إلى بنى المعمار. لقد أتاحت تكنولوجيا الوسائط المتعددة درجة عالية من السيولة الرمزية، يمكن من خلالها ترجمة الظلال والألوان والأضواء إلى نظير هارموني من الألحان والأصوات، ويمكن أن نستل من الكلام المنطوق أنماط تنغيماته ونبراته، وأن نستخلص من الأشكال تراكيبها النحوية وإيقاعها الموسيقي. وعسى أن يخلصنا هذا الانصهار الكامل لأنساق الرموز من مفاهيم خاطئة عاشت بيننا طويلا، تسفر عن عداء أصيل بين الصورة والكلمة، وتنافر شديد بين السرد والحوار. إن كل جنس من الفنون سيبحث عما يتوافق، أو يتنافر معه، من أجناس الفنون الأخرى، ليكشف لنا ذلك، ولأول مرة، عن شبكة العلاقات الكثيفة التي تعمل، دون وعي، من وراء كل ما يبدعه البشر من فنون.

ولا يمكن للانصهار الكامل أن يحدث، قبل أن يستقل كل فن بنفسه، حتى يصبح مؤهلا للقاء غيره في حوار الدائرة المستديرة الفني. إن الفنون، في طور استقلاليتها، تصفي نفسها من شوائب الفنون الأخرى تمهيدا

لانصهارها في منظومة الوسائط المتعددة، مثلما تصفى المعادن من شوائبها، تمهيدا لانصهارها في سبائك المعادن ـ انظر الفقرة 2: 2: 2 من الفصل الثاني. فكان أن تخلصت الموسيقى من وصاية الأدب، ونادى براهمز بموسيقى نقية خالصة، بعيدة عن أي مؤثرات من خارجها، مخالفا بذلك ما سبق أن أوردناه بشأن الأعمال الفنية الشاملة لفاجنر. وأعلن الشعر عصيانه ـ هو الآخر ـ على الأدب؛ فهو يرفض رفضا باتا حدوتته وبنيته، مصمما على أن يشق له مسلكا خاصا وصولا إلى الشعرية الخالصة؛ وهو ما اضطر الشعر، في سبيل تحقيق هذا الهدف، إلى أن يعلن عصيانه على اللغة أيضا. وكما فعل الشعر، أعلن مسرح العبث والسينما ـ هما الآخران ـ عصيانهما على الأدب؛ من أجل لغة مسرحية ولغة سينمائية خالصتين تقومان على نظم للشفرات وبنى معرفية خاصة بهما. في نهاية حديثنا عن امتزاج الفنون، نود أن نصرح برأينا في أن الفنون مؤهلة أكثر من العلوم في أن تمتزج مع بعضها في وحدة فنية متماسكة، فالفنون ـ بحكم طبيعتها ـ مرنة وأكثر تحررا، إذا قورنت بالعلم وصرامة التزامه بالقواعد والمناهج.

امتزاج الفنون (المنظور العربي)

كنتيجة منطقية لضمور معظم الفنون لدينا، فإن امتزاج الفنون لا بد أن يكون أكثر ضمورا، والأمثلة على ذلك عدة نكتفي منها بمثالين:

- على الرغم من أن أغانينا تجمع بين الموسيقى والشعر، إلا أن هناك انفصالا حادا بينهما؛ فكل «يغني على ليلاه»، ولا يمتزجان إلا نادرا.

- كانت معظم موسيقانا التصويرية، في الأفلام والدراما الإذاعية ـ حتى وقت قريب ـ موسيقى غربية عالمية[*4]، فهل يشير ذلك إلى عدم قابلية موسيقانا للامتزاج؟

إن علينا أن نأخذ قضية امتزاج الفنون مأخذ الجد، فمن دون ذلك، سيتعذر علينا اللحاق بركب فنون عصر المعلومات ذات التوجه المزجي الذهني. وكما أن معرفة الفنون مقوم أساسي لمزجها، كما أشرنا سلفا، فإن مزج الفنون ـ في المقابل ـ يوفر بيئة مواتية، لكي يكشف كل فن من الفنون الممتزجة عن شقه المعرفي. إن تكنولوجيا الوسائط المتعددة، محور فنون عصر المعلومات، تقوم أساسا على مفهوم المزج الفني، وتخلفنا فيه يعني

عدم اللحاق بفنون الوسائط المتعددة، وبصناعة الثقافة بالتالي.

ودعنا نختتم منظورنا العربي عن امتزاج الفنون بأن نقول: إن نصنا القرآني الشريف يعد مثالا فريدا للاتساق الرمزي والصوتي والسردي والإيقاعي. ومنذ قرون عدة خلت، نجحت الزخرفة العربية، بصورة رائعة، في الجمع بين جماليات الشكل وجماليات الحروف العربية، وحديثا قدمت السينما العربية نماذج ناجحة لاستلهام روائع الأدب العربي من أمثلتها: دعاء الكروان وثرثرة فوق النيل وعرس الزين.

9: 2 الإبداع والثقافة: المنظور المعلوماتي

9: 2: 1 طبيعة العلاقة بين الإبداع والثقافة (الطرح العام)

(أ) **الإبداع، طليعة الثقافة:** الإبداع هو طليعة الثقافة، وفارسها المغوار، وطفلها الشقي، وكما يتحمل مسؤولية النهوض بها، تدفع هي ـ أحيانا ـ كلفة باهظة لعبثه ومغامراته.

يتوقف أداء منظومة الثقافة ـ بصورة أساسية ـ على أداء مبدعيها، ومستوى إدراكهم لواقع مجتمعاتهم، ومدى صدق نبوءاتهم. إن الإبداع محرك أولي للثقافة، وقوة دفع أساسية للحركة الفكرية. فإن نشط وثار، نشطت الثقافة وثارت، وإن تقطعت أنفاسه، تقطعت أوصالها. ولكونه طليعيا بحكم طبيعته، فهو أول من يشعر بحراك مجتمعه، وأول من يتحمل أوزاره، تشهد على ذلك المحاكمات الثقافية غير المعلنة، التي تقام للمفكرين والمبدعين بعد الحروب والكوارث. فأشد أخطاء الإبداع إثما أن يفشل في أن ينذر قومه بما يحمله لهم مستقبل أيامهم. والإبداع هو مرآة الثقافة والمدافع عن مواقفها في صراع القوى الاجتماعية، والمتحدث باسمها في حوار الثقافات. ولكونه طليعة الثقافة، فإن حوار الثقافات، في عصر ثقافة المعلومات، سيستهل بالحوار على جبهة الإبداع، وذلك نظرا إلى أن الإبداع يقع على خطوط التماس ما بين الثقافات، خاصة أنه ـ أي الإبداع ـ يفوق عناصر منظومة الثقافة الأخرى في قدرته على تجاوز ثقافته إلى ثقافة غيره، مقارنة بالعناصر الثقافية الأخرى كالتربية واللغة، على سبيل المثال.

وتفوق علاقة الثقافة بالإبداع، في صعوبتها، علاقتها بعناصر المنظومة الأخرى، وذلك لأسباب عدة أهمها:

- اتساع نطاق الإبداع، والاختلاف الشديد في طبيعة أجناس الفنون، فمن الطبيعي أن تختلف علاقة الثقافة بالأدب عن علاقتها بفن المعمار، أو بفن التشكيل.

- تقع على كاهل الإبداع مسؤولية التصدي لمظاهر الخلل الناجم عن عولمة الاقتصاد، وحشد القوى الثقافية في هذه المعركة الفاصلة، وهو الأمر الذي يتطلب تحليلا دقيقا لموقع الإبداع في منظومة الثقافة.

- بينما كانت علاقة الثقافة بالإبداع ـ في الماضي ـ محصورة في الجوانب الفكرية والفنية والتراثية أساسا، فقد اتسعت ـ حاليا ـ لتشمل التربية والإعلام واقتصاديات صناعة الثقافة.

- سيظل الإبداع دون التحديد ودون الثبات، فهو زائغ ومتغير دوما، والموقف ـ حاليا ـ أكثر حدة بلا شك، نظرا إلى ما يتعرض له الإبداع الفني من هزات عنيفة بفعل المتغير المعلوماتي.

- في أحيان كثيرة، يكون الإبداع مرادفا لثقافة النخبة، والتي كثيرا ما تترادف ـ هي الأخرى ـ مع الثقافة عموما. إن هذا الاندماج يطمس العلاقة بين الإبداع والثقافة، مما يجعلها أكثر تعقدا وانغلاقا.

(ب) **الإبداع، من الثقافة وإليها**: ينهل الإبداع من ثقافته: من لغتها وتراثها وقيمها وتاريخ نضالها، وينفذ إلى كوامن صراعاتها، ويقتفي أثر تناقضاتها.

لا يعني ذلك أن الإبداع متغير تابع لثقافته، فكثيرا ما ينشق عليها، يعلن القطيعة مع التراث، ويتمرد على اللغة، ويعترض على القيم السائدة. ولا يتحرج المبدع من أن يضرم النيران في الجسور التي أوصلته إلى ما هو فيه وينأى عن نقاط البداية التي انطلق منها، وينقلب على من اهتدى بهديهم ممن سبقوه أو عايشوه، وينشق على المدارس الفكرية التي كان انتسابه إليها هو بطاقة المرور إلى عالم إبداعه.

بل ما أكثر ما يضاد الإبداع نفسه، ويمتلئ الخطاب الإبداعي بمقولات من قبيل الأدب المضاد، والسينما المضادة، والمسرح المضاد، والشعر المضاد، وقد رفعت الحركة الدادية شعار «الفن ضد الفن»، و «الفن ضد المنطق»، و«الفن ضد العقل». أما إبداع ما بعد الحداثة فيؤكد أن لا حل لأزمة الفن الراهنة، إلا أن يبدأ من الصفر.

طبيعة العلاقة بين الإبداع والثقافة (المنظور العربي)

(أ) **مسارات جديدة لعلاقة الإبداع بالثقافة:** تعددت الآراء في وصف علاقة المبدع العربي بالمؤسسة الثقافية الرسمية، تارة توصف بالود المفقود، وتارة أخرى بالتناقض إلى حد استحالة الوفاق والاتفاق. وفي ظل حالة الغليان والقلق الشديدين اللذين يشهدهما معظم مجتمعاتنا العربية، آثرت غالبية مبدعينا أن تتخذ مواقع لها خارج المؤسسة الثقافية الرسمية، حيث ترى ذلك أكثر منطقية وفاعلية. ولا يجب أن يلهينا غياب العلاقة على المستوى الرسمي، عن أهمية علاقة الإبداع بمنظومة الثقافة، وضرورة فتح مسارات جديدة لهذه العلاقة من خلال تنظيمات الجمعيات الأهلية، وقنوات أخرى عدة توفرها شبكة الإنترنت حاليا. يتوقف اكتشافنا لهذه المسارات والقنوات وتفعيلها، على تحليلنا الدقيق لعلاقة المبدع العربي، بمنظومة ثقافة عصر المعلومات.

إن على إبداعنا مسؤولية أكبر في النهوض بمجتمعاتنا العربية، ولا يمكن للإبداع أن يدرك أبعاد هذه المسؤولية بصورة واضحة، وأن يشحذ أسلحته، ويحدد توجهات خطابه الاجتماعي، دون مراجعة شاملة لموقع الإبداع داخل منظومة الثقافة، وتحديدا: علاقته بكل من عناصر هذه المنظومة: الفكر الثقافي ـ اللغة ـ التربية ـ الإعلام ـ التراث ـ ونظام القيم والمعتقدات.

(ب) **تنامي دور الإبداع في ثقافة عصر المعلومات:** كما أشرنا سلفا، فإن إنتاجنا الثقافي في عصر المعلومات، يجب أن يقوم ـ أساسا ـ على مواهب المبدعين، لا على استيراد التكنولوجيا ذات الكلفة العالية. من ناحية أخرى، فقد اتسع نطاق الإبداع، ليشمل مجالات علوم الإنسانيات، وفروع الهندسة الجديدة التي استحدثتها تكنولوجيا المعلومات، كهندسة اللغة، وهندسة الخيال، وهندسة المعرفة، وكلها أمور تحتاج إلى مزيد من الإبداع.

9: 2: 2 الفكر والإبداع الفني ككل

نستهل حديثنا عن علاقة الفكر بالفن، بحديث عن علاقة الفكر بالإبداع الفني ككل، وذلك كتمهيد لحديث أكثر تفصيلا عن علاقة الفكر بأجناس الفن المختلفة، وقد قصدنا منه ـ أيضا ـ التأكيد على مفهوم وحدة الفنون

التي أسرفنا في الإلحاح عليها فيما سبق.

هناك من يرى أن الفن لا يمكن أن يخضع لأي تجريد معرفي، فالإبداع الفني ما هو إلا ضرب من الإلهام، والخلق الفني محض صدفة من الشطحات اللاعقلانية. إن إغفال دور العقل في مجال الفن يتنافى ـ جوهريا ـ مع كون الفن هو الساعي إلى اكتشاف الحقائق النهائية والمعارف الكلية، التي يعجز العلم عن الوصول إليها نتيجة لصرامة منطقه ومناهجه. والفن: مبدعا، وعملا، ومتلقيا، في حاجة إلى المعرفة. يحتاج المبدع الفني إلى الفكر، فالعمل الفني ـ كما قيل ـ عملية عقلية واعية وليس مجرد انفعال أو إلهام، ولا يمكن ـ كما قال هيجل ـ إلا أن يكون نتاج الفكر، شأنه في ذلك شأن المنطق وفلسفة الطبيعة. وهو ما تؤكده مقولة بول فاليري: من أن كل عمل فني مسألة رياضية لا بد من حلها (114: 21)، ويؤكده كذلك شوبنهور بقوله: إن العمل الفني لا بد أن يكون مسبوقا بالفكر والإرادة (114: 59). وعلى الرغم من موقفها السلبي من النظريات الجامعة، لا يختلف موقف ما بعد الحداثة، من حاجة الفن إلى الفكر، فيرى فرنسوا ليوتار أنه لا يمكن للفن أن يستغني عن تسويغ فلسفي (101:6). وتكمن صلة العمل الفني بالمعرفة في كونه ناقلا للمعرفة ومولدا لها. فغموض العمل الفني والتباسه، يستحث فكر المتلقي على أن يزيح النقاب عن الغامض، ويفض اللبس عن الملتبس، ويستجلي «المسكوت عنه»، ويستخلص المغزى من وراء ظاهر العمل الفني، وما توحي به رموزه وشفراته، ولا يمكن لمتلقي العمل الفني القيام بمثل هذه الأمور، دون خلفية معرفية تنمي من ذائقته، وتكثف شحنة الإبداع الوجداني لديه.

كانت حيرة الفلاسفة إزاء الفن، أشد منها إزاء العلم، وأدنى إلى حيرتهم الميتافيزيقية. ولتكن البداية بأفلاطون، حيث الفن لديه ذو أصل إلهي، والخالق هو الفنان الأعلى، وفوق الجمال الواقعي، يوجد جمال مثالي، جمال مطلق أزلي، ماهيته سابقة على وجوده، وهدف الفن هو الارتقاء بالروح إلى هذا الجمال المثالي (112: 71)، وهو شبيه في ذلك بمثالية هيجل، حيث مهمة الفن هي الكشف عن الإلهي، وعن الاهتمامات الأكثر سموا، وعن الحقائق الأكثر جوهرية للروح. وهو يرى الفن في مرحلة نموه القصوى، بمنزلة تصالح المعرفة مع الواقع، وتوافق الذات مع الموضوع

(١١:١٥١). وتأتي نقدية كانط، لترجع الإبداع الفني إلى قوانين وشروط أولية سابقة على التجربة الفنية.

وقد حاول كانط أن يجمع في نظريته عن الفن بين موضوعية المعرفة العلمية وذاتية العملية الإبداعية.

يكفي هذا عن نظرة الفلسفة إلى الفن، لننتقل بحديثنا إلى ما يراه علم النفس في شأنه، نستهله بفرويد حيث الفن ـ في نظره ـ نوع من المرض النفسي لا يخرج عن كونه تعبيرا عن نزعات، يحاول المجتمع استبعادها من الوعي، أو تنفيسا عن رغبات نفسية مكبوتة لم يسمح للمبدع الفني بتلبيتها (١١٤ : 33). فعلى سبيل المثال، تعد بعض الأعمال الإبداعية لليوناردو دا-فينشي، الذي ماتت عنه أمه صغيرا، تنفيسا عن الأمومة التي حرم منها، عبرت عنه ابتسامة الموناليزا الشهيرة ونظرتها الحانية (١١٤ : 35). أما يونج فيرى الفن نوعا من اللاوعي الجماعي، لا الفردي كما يراه فرويد، والملكة الفنية ـ في نظره ـ تقرب من كونها غريزة نولد بها، قدرة ذهنية تختزن تراث الجماعة من صور وأساطير وقيم ومعتقدات. في ظل هذا المفهوم، يخرج إلينا من يزعم أن جوته لم يخلق «فاوست»، بل «فاوست»، القابع في ذهن جوته، هو الذي خلق جوته. ويتماشى ذلك مع ما ورد على لسان هنري مور النحات الإنجليزي العظيم، والمتحمس لأفكار يونج، حيث قال: إن المنحوتات هي تعبير عن أشكال عامة تولد معنا، ونحن مبرمجون عليها.

وخلافا لوجهة نظر علم النفس، سعت الفلسفة الوضعية إلى تحويل علم الجمال الفلسفي إلى علم وضعي يخضع لمناهج العلوم الطبيعية التجريبية. ولنا أن نتوقع من الفن ـ بحكم طبيعته ـ أن يظهر مقاومة ضد هذا الاستيعاب المنهجي، أشد من تلك التي أظهرتها علوم الإنسانيات. وهكذا خرج إلى الوجود علم الجمال التجريبي، على يد فختر، طارحا نوايا الفنان جانبا، مركزا على ما بداخل العمل الفني، دون غيره، من المؤثرات النفسية التي تثير في النفس الشعور الوجداني السار وغير السار (١١٢:77). وتأتي الحركات السيريالية بوحي من فكر فرويد، تدفع باللاشعور واللاوعي واللامعقول من أغواره الدفينة إلى السطح، وذلك من أجل إحداث نوع من التكامل بين الشعور واللاشعور، أملا في تحقيق الاتحاد النهائي بين واقع الباطن وواقع الظاهر (١١٤: 40).

لقد أطلنا في مقدمتنا عن علاقة الفكر بالفن، بهدف التمهيد لإبراز ما يمكن أن تسهم به تكنولوجيا المعلومات في مجال التنظير للفن. ودعنا قبل الخوض في ذلك، نلخص في نقاط، مظاهر العلاقة الجدلية ما بين الفلسفة والفن:

- **الفلسفة تحتوي الفن:** كما في جماليات هيجل، والتي تصل ـ في النهاية ـ إلى إعلان نهاية الفن، بعد أن تتجاوزه المعرفة المنطقية والعلوم الطبيعية. أما عقل الإبداع لدى كانط، فهو واحد ضمن ثلاثية العقول التي تجمع بينه وبين عقل الباطن وعقل الظاهر.

- **الفلسفة كباعث على الفن:** فبعد أن أظهرت فلسفة نيتشه مدى افتقار الحضارة الأوروبية إلى روح الموسيقى وإلى الخلق الفني، توالى ظهور الاتجاهات الفنية المعاصرة للتعبيرية والسيريالية وحركة اللامعقول في الأدب والفن (112: 70).

- **الفلسفة كبديل للفن:** كما في النظرة المجردة إلى الفن لدى الرومانتيكيين ، وهي النظرة القائمة على تقديس الفن وحنينهم الجامح إلى واقع وديع مسالم، متناغم ومتوائم، وهو ما يتطلب ـ في نظرهم ـ تضافر المادي والروحاني، وهم يؤكدون امتناع التجريد الفلسفي المطلق، وعجزه عن تحقيق هذا التضافر، ويقترحون الفن بديلا عن القول الفلسفي المتداعي (101: 15).

- **الفن يحتوي الفلسفة:** وتكتمل ثنائية الاحتواء والانطواء ما بين الفلسفة والفن، برؤية جوزيف كوزوف، مبدع الفن الرمزي، الذي يدمج الفلسفة بأسرها في جوف الفن، فاللغة الفلسفية هي كلام داخل الفن (101: 17)، ليقلب كوزوف بذلك الحكم الهيجلي الذي قطع بنهاية الفن، بعد استيعابه بكامله في الفلسفة.

خلاصة الخلاصة: لقد أخفقت النقدية الكانطية، والمثالية الهيجلية، وعدمية نيتشه، وسيريالية أندريه بريتون، ووضعية فختر التجريبية، في أن تحدد لنا نظرية متكاملة للفن، تضع أسسه ومناهجه، وتخط له مسار توجهاته وتطلعاته، وباءت بالفشل معظم المحاولات لتطبيق مناهج نظرية المعرفة، القائمة على العلم أصلا، في مجال الفن (308: 17). وهنا تطرح تكنولوجيا المعلومات نفسها كوسيلة للخروج من هذا المأزق التنظيري، وهو

ما يحدث بالفعل حاليا، في إطار فلسفة معرفية جديدة تتخذ من الفن الرمزي نقطة انطلاق لها. تقوم هذه الفلسفة على أساس الجمع بين فلسفة العلم، كما أسس لها توماس كون وباشلار وكارل بوبر، وفلسفة اللغة التي أسسها فيتجنشتاين، وذلك بهدف الوصول إلى نظرية معرفة جديدة تقوم على تكامل العلوم والفنون. سنكتفي هنا باستعراض أهم العوامل التي تؤهل تكنولوجيا المعلومات للقيام بدور فعال في مجال تنظير الإبداع.

- نحن نبدع أولا، ونفلسف ثانيا، وما أشد الضرر لو انقلب الوضع، حين يتفلسف الفنان جاعلا من إبداعه تابعا لفلسفته غير الدقيقة، أو ما يظن أنها فلسفة. يذكرنا هنري برجسون بحاجتنا الماسة إلى تمثيل خبراتنا معرفيا. والسؤال الآن: كيف نضيق الفجوة الفاصلة بين اكتساب الخبرات، وإدراك مضمون المعرفة الكامنة وراءها أو المتولدة منها؟ وهنا يبرز دور تكنولوجيا المعلومات، بما تتيحه من وسائل عملية ـ وربما لأول مرة ـ لتضيق هذه الفجوة، وذلك بفضل ما توفره من أساليب هندسة المعرفة، والنظم الخبيرة، ونظم الذكاء الاصطناعي. بالاضافة الى ذلك، فإن الطابع التفاعلي الدينامي الغالب على فنون عصر المعلومات، سواء في إنتاج العمل الإبداعي أو تلقيه، سيتيح فرصا أكثر للمبدع والمتلقي، لكي يرصد عن قرب، وبشكل فوري، الكيفية التي تترجم بها الأفكار داخل الذهن إلى ممارسات علمية، سواء في إنتاج العمل الفني وتقويمه، أو في استقباله واستيعابه.

- كما ذكرنا في فصول سابقة، نجحت تكنولوجيا المعلومات في كسر الثنائيات بين المادي واللامادي، وبين الطبيعي والصناعي، وبين الواقعي والخيالي، وبين العام والخاص، وبين الفردي والجماهيري، وكلها أمور ـ كما هو واضح ـ تقع في صميم عملية التنظير للإبداع.

- أسقطت تكنولوجا المعلومات الحواجز الفاصلة بين أجناس الفنون المختلفة، بفضل تكنولوجيا الوسائط المتعددة، مما سيسمح برصد الظاهرة الإبداعية عبر أنساق رمزية مختلفة، بهدف المقارنة بينها، ورصد مظاهر تكاملها ونتائج امتزاجها، وجميعها تعد من الأمور الأساسية في التنظير للإبداع.

- تتعامل جماليات فنون عصر المعلومات مع ما يمكن تسميته بسيميوطيقا التقطع والتشظي، حيث يمكن النظر إلى العمل الإبداعي بصفته مجموعة من الرسائل المتدفقة، أو بنية رمزية تقوم على شظايا الرموز. يخلخل هذا

التشظي اندماجية العمل الإبداعي، ويفتته إلى عناصر أقل اندماجا، وصولا إلى مفرداته الأولية، مما يجعله أكثر قابلية لعمليات التحليل وإعادة التركيب، وهو ما سيسهم في إماطة اللثام عن التفاصيل الدقيقة لبنية العمل الفني، والآليات العميقة التي يحدث بها فعله لدى المتلقي.

- تتعامل ثقافة عصر المعلومات مع فنون النخبة وفنون العامة على حد سواء، مما سيوسع من جبهة المواجهة بين الفن والمجتمع، وهو الأمر الذي سيكشف عن جوانب عدة لدور الفن داخل منظومة المجتمع، وعن كيفية قيامه بإحداث التغيير المجتمعي، والتكيف مع الظروف الاجتماعية.

- توفر تكنولوجيا المعلومات وسائل عدة لتجديد النظرة إلى التراث الفني، وإعادة توظيفه في سياقات اجتماعية، تختلف اختلافا شاسعا عن تلك التي أفرزته. إن هذه العملية لنقل «أعضاء التراث» تاريخيا، ستكشف عما كان خافيا، أو ما كان مسكوتا عنه في ظل ظروف نشأته الأصلية، سواء خشية بطش السلطة، أو تحت ضغوط اجتماعية أخرى، أو نتيجة لقيود معرفية أو لغوية. إن إعادة توظيف التراث ستفرز الجانب التاريخي للتنظير الإبداعي، وستكشف لنا عن جوانب عدة، في علاقة الارتباط بين تطور الفن، وتطور مجتمعه.

- سيفتح التفاعل، من خلال الوسيط الإلكتروني، الطريق أمام طيف واسع من علاقات المبدع بالمتلقي، وعلاقات المتلقي بالعمل الإبداعي، وهي أمور كانت تؤخذ فيما مضى كقضايا مسلم بها، وسيمهد الكشف عنها إلى وضع نظرية للفن تقوم على «جماليات المتلقي»، لا جماليات المبدع فقط.

- تضيف نظرية المعلومات اللمسة الكمية إلى تنظير الإبداع، حيث توفر له وسائل عملية لقياس قيمة الأعمال الفنية، وهو ما سنوضحه في الفقرة القادمة الخاصة بمعرفة الموسيقى.

- وأخيرا، وليس آخرا، فإن تعاظم دور صناعة الثقافة في عصر المعلومات، وأهمية الإبداع بالتالي، ستجتذب مزيدا من البحوث النظرية، مما يتوقع معه دفعة قوية للتنظير الإبداعي.

9: 2: 3 الفكر وفن الموسيقى: منظور معلوماتي

الموسيقى، مثلها مثل كل الفنون، في حاجة إلى المعرفة لإبداعها وتذوقها.

ولنسمع ما يقوله لنا مبدعها العظيم موتسارت في إحدى رسائله: إنه عندما يصور المشاعر والعواطف في أعماله الموسيقية، فهو لا يمارسها بالفعل، بل يستخدم ذكاءه ومهاراته فقط في تأكيدها (93: 60). ولا يمكن لنا، دون معرفة، إدراك عظمة الموسيقى، وتلك التأثيرات النفسية التي توقظها بداخلنا. ولن يرقى المتلقي بتذوقه الموسيقي، إلا إذا تجاوز المتعة الفورية السطحية إلى المتعة الذهنية الأعمق، وذلك بتدريب نفسه على تعليق الإشباع الفوري المباشر، وإرجاء «شبق» متعته، ليستوعب البنى الموسيقية العميقة بأثر رجعي.

(أ) **عن الفلسفة والموسيقى:** نظر فيثاغورث الى الأنغام كأنساق رياضية تقوم على تردد ذبذبات الاصوات وأطوال الاوتار المختلفة. وبعده بقرن تقريبا تنبه اريسطو كسينيس الى الجانب الخاص بما تنقله الينا الموسيقى من توافقات صوتية. بقول آخر، لقد ركز فيثاغورث على البنية الداخلية للموسيقى من جوانبها الفيزيائية، في حين ركز خليفته على مؤثراتها الخارجية فيما يخص جوانبها الجمالية. لقد ترواحت آراء الفلاسفة في شأن الموسيقى بين من يضعها في ادنى الدرجات، وبين من يعلو بها الى اسمى المراتب. حظيت الموسيقى بقدر من الاهتمام في فلسفة افلاطون التي قامت بتقويم مقامات الموسيقى على أساس أخلاقي، فهناك مقامات خليعة تحث على الدعة والرخاوة، وهناك مقامات سامية تحث على الصدق والشجاعة والاقدام. وقد استهان الفلاسفة الأوائل بشأن الموسيقى الخالصة، فكانوا لا يرون في الموسيقى الا اضافة ملحقة بالغناء. ويأتي بعد ذلك جماعة الكاميراتا في عصر النهضة ليؤكدوا سيادة الكلمة على النغم، جاعلين من الموسيقى تابعا للدراما، فكل موسيقى بغير كلمات ـ في نظرهم ـ هي محاكاة ركيكة للشعر الرصين. وبينما يحط كانط من قدر الموسيقى ـ فما هي، في نظره، الا مجرد متعة لا ثقافة جديرة بالتناول الفلسفي الجاد ـ يأتي شوبنهور من بعده، ليعيد الى الموسيقى مجدها السليب معتبرا إياها أرقى الفنون، ويتمادى نيتشه في الاحتفاء بالموسيقى؛ فهي ـ كما يراها ـ تجسيد للإرادة، والتراجيديا ـ في نظره ـ انبعاث من روح الموسيقى، بل العالم بأسره لا يعدو كونه تلك الموسيقى وقد تجسدت. ويرى فاجنر في موسيقى بيتهوفن تجسيدا للإرادة الكلية كما أوضحتها فلسفة شوبنهور.

وبناء على ما ذكر، فالموسيقى ليست مجرد فعل تلقائي، بل فعل تحكمه العقلية الواعية التي تناظر ذروة الحقيقة في فلسفة كانط.

(ب) **علوم الموسيقى**: يمكن القول ـ بصورة عامة ـ إن علوم الموسيقى تنقسم إلى تلك التي تدرس فيزياء الأصوات، وتلك التي تدرس معمارية الموسيقى ذاتها. توفر فيزياء الأصوات وتردداتها المعرفة اللازمة لتصميم الآلات الموسيقية، ويرجع الفضل في تأسيس علمها إلى فرديناند هلمهولتز، ونظريته عن الأنغام المحصلة، وهي النظرية التي كانت وراء التطور الهائل في تصميم الآلات الموسيقية، ولولاها ما كان للأوركسترا أن ينهض نهضته العظيمة التي نراها الآن. شهد القرن التاسع عشر، مولد علم الموسيقى الصرف، وانبرى إدوارد هانزليك، يسعى إلى تخليص الموسيقى من كل ما هو خارج نطاقها. من هنا تصبح الموسيقى الحقة، هي تلك التي تنأي عن الخلط؛ فما إن نرقص الفالس على ألحان شتراوس حتى تكون الموسيقى ـ كما يقول هانزليك ـ قد انتهت، وهو يقصد أن ربط موسيقى الفالس بالرقص يهبط بقيمتها.

(ج) **عن مساهمة تكنولوجيا المعلومات في الفكر الموسيقي**: من المتوقع أن تسهم تكنولوجيا المعلومات بدور فعال في التنظير الموسيقي، وذلك من خلال مسارين معرفيين أساسيين: مسار عبر علم اللسانيات يتناول بنيتها الداخلية، ومسار آخر عبر نظرية المعلومات يتناولها من خارجها، من خلال ثنائية الإرسال والاستقبال.

بداية نقول: إن معرفة الموسيقى ذات ارتباط وثيق بمعرفة اللغة. وحيث إن معرفتنا باللغة مازالت قاصرة، فمعرفتنابالموسيقى أشد قصورا. ولتوضيح مانعنيه بارتباط الموسيقى باللغة، رأينا أن نقيم مناظرة تقريبية بينهما، فالسلم في الموسيقى بمنزلة الأبجدية في اللغة، وبنى التآلفات الهارمونية بمنزلة قواعد النحو، والألحان تناظر البلاغة. وقد حاولت موسيقى الباروك، وضع أنماط لحنية للتعبير عن الانفعالات المختلفة، (من أمثلتها: نمط متردد ليعبر عن التوتر، ونمط متسارع ومتآلف ليعبر عن الانفراج). في سياق مناظرتنا الراهنة بين الموسيقى واللغة، يمكن لنا أن نعد هذه الأنماط اللحنية نظيرا للصيغ المسكوكة في اللغة idioms.

لقد أدت اللغات الهارمونية، التي أبدعها بيرليوز وفاجنر وليست،

ومتآلفاتها النغمية، واستخدام كسور الأنغام، إلى مزيد من التقارب بين الموسيقى واللغة. وازداد هذا التقارب مع ظهور ميلوديا الكلام الطبيعي على يد موسورجسكي الروسي، وشوينبرج النمساوي، وهي نوع من الموسيقى يحاكي نبرات الكلام العادي، وتنغيمات أصواته؛ وهكذا، خرج إلى الوجود نوع من الأوبرا بطلها الشعب، تقوم على لحنية الكلام المتداول في الشوارع والأسواق والملاعب والحانات، وهلم جرا. وتسعى البحوث حاليا إلى وضع قواعد نحوية للتراكيب الموسيقية، بل هناك محاولات لتصميم نظم آلية لإعراب الجمل الموسيقية.

والآن إلى المسار الثاني لعلاقة الموسيقى بالمعلوماتية عبر نظرية المعلومات، ولنستهل حديثنا في صدده، بما قاله الناقد إيفور ريتشاردز: «لا بد لأي نظرية نقدية من أن تستند إلى دعامتين: القيمة، وفاعلية التواصل». كلتا الدعامتين ذواتا صلة وثيقة بنظرية المعلومات. بالنسبة للقيمة، توفر هذه النظرية وسائل إحصائية لقياس قيمة محتوى الموسيقى، فعلى سبيل التبسيط، تكون الألحان الرتيبة والمتكررة ذات قيمة أقل من التي للألحان المفاجئة المتداخلة السريعة التغير غير المتوقعة، كما نشهدها في أروع صورها في سيمفونية بيتهوفن الخامسة، حيث تصعد بنا ألحانه بغتة وتهبط بنا بغتة، وتعنف منتفضة على حين غرة، لترق فجأة في توافق مذهل. أما فيما يخص فاعلية التواصل، فتقدم نظرية المعلومات نموذجا اتصاليا يقوم على ثنائية المرسل والمستقبل وقناة الربط التي تصل بينهما. وهو النموذج الذي يستخدم حاليا في دراسة عملية استقبال المتلقي للعمل الموسيقي، وفي تحديد العوامل التي تدخل في انسياب أو إعاقة، وصول الرسالة عبر قناة الاتصال.

لقد حط القرن السابع عشر من قدر موسيقى الآلات منحازا إلى الكلمة، وجاء القرن الثامن عشر ليعلي من قدرها حتى وصف هذاالقرن بأنه العصر الذهبي لموسيقى الآلات. وشهد القرن التاسع عشر صراعا ضاريا بين الموسيقى الخاصة، ويمثلها براهمز، والموسيقى الممتزجة بالفنون الأخرى، والتي يمثلها فاجنر وأتباعه. وجاء القرن العشرون لننعم بالموسيقى وقد استقلت بنفسها عن باقي الفنون. فهل يشهد القرن الحادي والعشرون موسيقى من دون آلات، موسيقى المزج والخلط وإعادة الصياغة والتنويع

اللامحدود في التوزيع الأوركسترالي؟ لا أحد يدري. ولنسمع ما يقوله الفيزيائي البريطاني السير جيمس جينز في كتابه عن العلم والموسيقى: « موسيقى المستقبل ستكون كتلك الموسيقى في الحاضر، مع زيادة حدتها واتساع نطاق سلمها الموسيقي لكي تصبح أكثر قدرة على التعبير، وعلينا أن نقرأ بدقة تراث الموسيقى العالمية وتاريخها كي نضع أيدينا على التوجهات التي صاغت الموسيقى في قالبها الحالي (250: 190). هنا يبرز جانب آخر لأهمية تكنولوجيا المعلومات من حيث دورها في إعادة إحياء التراث الموسيقي. ومرة أخرى، هل نحن بصدد موسيقى جديدة؟ أم نحن في طريق العودة الى رومانتيكية موسيقية بصيغة عصر المعلومات؟ وهل ذلك الميل المتزايد إلى سماع النسخ الأصلية، والرجو ع إلى الآلات المنقرضة، وأوركسترا العازفين الذين يرتدون أزياء الباروك وعصر النهضة، هو بوادر رومانتيكية جديدة تلوح في الأفق؟!

9 : 2 : 4 الفكر وفن التشكيل: منظور معلوماتي

ومرة أخرى، يحتاج فن التشكيل إلى المعرفة لتساند إبداعه، وتذوقه. ولنتمعن قليلا فيما صرح به مبدعه العظيم بيكاسو: بأنه لايفرق في رسم اللوحة بين ما يراه ما يعرفه.

(أ) **بدايات اللقاء بين الفكر وفن التشكيل:** عندما أدرك فنانو عصر النهضة في دراستهم للمنظور العلاقة الوطيدة بين الشكل الخارجي والتفاصيل الداخلية للأجسام، راحوا يدرسون التشريح والهياكل العظمية حتى يرسموا جسم الإنسان بصورة أكثر دقة وواقعية، ويدرسون علم النبات لينقلوا لنا تشكيليا دقة أوراق الأشجار وفروعها، ويدرسون الجيولوجيا ليحاكوا أشكال الصخور وتفاصيلها. ويأخذ التنظير التشكيلي - كغيره - دورته في البحث عن أسسه العلمية، تارة يلجأ إلى الإمبريقية التجريبية، وتارة أخري إلى الوضعية النظرية. بينما تحدد له الإمبريقية مقاييس الجمال في الأشياء (30:303)، تحاول الوضعية إخضاع التشكيل لصرامة منهجياتها وقطعية منطقها. وعلى رغم كثرة المحاولات يظل فن التشكيل عصيا على التنظير، خاصة في مراحله المتأخرة التي شهدت تنوعا شديدا يصعب احتواؤه ضمن نظام فلسفي واحد، قديما كان أم حديثا.

(ب) **تجاوب الفن التشكيلي مع الاكتشافات العلمية:** أظهر الفن التشكيلي، على مدى مراحل تطوره، تجاوبا مع الاكتشافات العلمية، فكان رسم المنظور تجاوبا مع الهندسة والرياضيات وحساب المثلثات، في حين كانت المدرسة الانطباعية تجاوبا مع نظرية نيوتن عن ألوان الطيف الضوئي. وعندما راح أهل العلم يعيدون النظر في هندسة إقليدس، شرع سيزان ومن بعده بيكاسو، يعيدان صياغة مفهوم الحيز والفراغ، وعندما انحاز العلم للتحليل خرجت إلى الوجود التكعيبية التحليلية على أيدي بيكاسو وبراك. وبظهور النسبية لآينشتين، قرر بيكاسو أن يتخلص من منظور عصر النهضة الذي يرى الأشياء من موضع ثابت ومحدد. فحتى يستوعب المتغير الزمني، الذي أضافته النسبية بمحورها الرابع، قرر بيكاسو النظر إلى الأشياء من مواضع مختلفة، وكأنه يتحرك من حولها ويحيل بصره في هيئتها. أما الفنان المجري فازاريلي فقد عبر عن الظاهرة الزمنية تشكيليا بأسلوب مختلف، وذلك من خلال إضفاء عنصر الدينامية على رسوماته باستخدام الخداع البصري، فكان يكرر موتيفاته الزخرفية، مع تغير طفيف في أوضاعها بصورة دقيقة محسوسة، لتبدو للناظر وكأنها مرتعشة متموجة.

(ج) **مساهمة تكنولوجيا المعلومات في التنظير التشكيلي:** لقد طغت فنون اللغة من الأدب والشعر على التنظير الفني بصفة عامة. ولم يأت بعد هيجل ـ كما يقول هربرت ريد ـ من يضع لنا نظرية متكاملة عن الفن، كما وردت في «الجماليات» (303: 38). وعلى ما يبدو، كان لابد من انتظار ما بعد الحداثة، لتقدم لنا تنظيرا جماليا قائما على الصورة لا الكلمة، بعد أن أعادت تكنولوجيا المعلومات إلى الصورة مكانتها الخليقة بها في دنيا التمثيل الرمزي.

وما أعقد الصورة عن الكلمة. وما أعقد علاقات الأشكال عن علاقات الكلمات. إن فنون الشكل تتسم بالتعقد الشديد، وربما يقول قائل إن تعقدها ليس بأكثر حدة من تعقد مبحث الأخلاق، أو نظام القيم والمعتقدات، أو البنى الاقتصادية (309: 16). ولكن ـ في رأينا ـ هناك اختلاف أساسي فيما يخص تعقد التشكيل، يكمن في كونه ـ أي التشكيل ـ يقدم لنا التعقيد بصورة صريحة ومباشرة. نحن نواجه التعقد على جبهة التشكيل وجها لوجه. وهنا تبرز الصلة الأساسية بين التشكيل وتكنولوجيا المعلومات. فكما

هو معروف، ينظر إلى الكمبيوتر بصفته آلة للتعامل مع المعقد والعشوائي والمركب. إن فهمنا لظاهرة التعقد في الشكل يعد أحد المداخل الرئيسية لفهم مظاهر التعقد في مجالات أخرى متعددة، مثل تلك المرتبطة بالتركيبات الوراثية، وشبكات الاتصالات، والبنى الاجتماعية والظواهر البيئية، والخرائط المخية. ومن حسن الحظ، أن تكنولوجيا المعلومات توفر وسائل عدة لتمثيل كثير من الظواهر والعلاقات مرئيا visually. إضافة إلى ذلك، فإن نظم الرؤية الآلية للذكاء الاصطناعي، المستخدمة في نظم الروبوت أساسا، ستلقي مزيدا من الضوء على عملية الإدراك البصري. مما سيسهم بدوره في استكمال المسيرة التي بدأها علم نفس الجمال - وذلك فيما يخص الكيفية التي يدرك بها المتلقي الأشكال بصريا، وكيف تتسامى انطباعاته الأولى عن الشكل إلى نوع من المتعة الذهنية والانتشاء الوجداني.

ختاما فإن الطابع الرمزي الذي يسود الفن التشكيلي في عصر المعلومات، وهو مرحلة وسيطة صوب الفن الذهني الخالص، وهكذا تدفع تكنولوجيا المعلومات بالفن التشكيلي دفعا إلى لقاء أكثر إثارة مع العلوم والفلسفة والهندسة.

9 : 2 : 5 الفكر وفن الأدب: منظور معلوماتي

(أ) عن معضلة التنظير للأدب: بلغ حماس شيلنج للأدب حدا بعيدا، حتى ذهب إلى القول إن الأدب هو الفن الشامل لجميع الفنون بل العلوم أيضا (101 : 140). وهو قول لا يخلو من تطرف، إلا أنه يؤكد العلاقة الوثيقة بين الفكر والأدب، وهي العلاقة التي تتسم بندية شديدة كانت سببا من أسباب عدم خضوع الأدب لمعايير جمالية، تفرض عليه من خارجه، أسوة بما جرى مع معظم الفنون الأخرى. وكان على الأدب أن يبحث عن تنظير يأتيه من داخله، من لغته، وبنية سرده، وشفرة رموزه.

(ب) **اللغة كوسيط للتنظير الأدبي**: كان من المنطقي أن يظل الأدب دون التنظير العلمي الجاد، مادامت اللغة دون مستوى التنظير المطلوب. وجاءت الانطلاقة في بداية القرن المنصرم، عندما أطلق دي ـ سوسير الشرارة الأولى إيذانا بدخول اللغة مصاف العلوم الدقيقة ـ انظر الفقرة 5 : 2 : 3 من الفصل الخامس. قام علم اللسانيات على أساس اللغة المنطوقة لا المكتوبة؛

وقد حد ذلك من تطبيقاته في مجال الأدب الذي يسوده طابع السرد المكتوب. واستمر الوضع هكذا إلى أن أظهرت البنيوية على يد كلود شتراوس، ومن البنيوية إلى ما بعد البنيوية فالتفكيكية، ومن نظرية النقد إلى نظرية السرد، ومن البلاغة الكلاسيكية إلى علم النص أو تحليل الخطاب، ظلت اللغة محافظة على وضعها المتميز كمدخل رئيسي لتنظير الأدب[*5].

(ج) **أثر تكنولوجيا المعلومات في تنظير الأدب:** ظهرت الحاجة ـ حاليا ـ إلى تنظير أدبي جديد، يعكس ما فعلته تكنولوجيا المعلومات في النص الأدبي، من تشظ وتشعب وتناص. لقد قام تنظير الأدب، فيما مضى، على أساس افتراض الخطية والتماسك النصي وبنية النص العميقة، وما شابه. إن تنظير أدب عصر المعلومات في انتظار نقلة نوعية تمكنه من التعامل مع اللاخطية، ومع تعدد أشكال بنية النص وفقا لتركيبة شظاياه، ومع تغيرها ديناميا وفقا لما يراه القارئ في تناول نصه. ولا جدال في أن الأدب، لارتباطه الوثيق باللغة، هو أكثر الفنون قدرة على التعبير عن مفهوم التقطع والتشظي. فاللغة تقطيعية في جوهرها، بحكم طبيعتها الرمزية التي تكون الكلمات من الحروف المتراصة، والجمل من الكلمات المتتابعة، والفقرات من الجمل المتلاحقة. وتفوق اللغة باقي أنساق الرموز الأخرى في قدرتها على التجريد والتجسيد، وعلى الإيجاز والإطناب، وعلى الإسفار والغموض. والسرد الأدبي ذو قدرة فائقة على نقل السياق بصورة لاخطية مباغتة عبر الزمان والمكان، وعبر الأفكار أيضا. فعلى سبيل المثال، وباستخدام عبارات موجزة للغاية، من قبيل: «ومضت القرون»، «وبعد رحلة عبر الأطلنطي»، «ومن وجهة نظر أخرى»، يقفز زمن السياق إلى ما بعد هذه القرون التي مضت، ويعبر مكانه في قفزة واحدة، إلى الجانب الآخر من الأطلنطي، وتنتقل وجهة نظره الراهنة، في لمحة خاطفة، إلى وجهة النظر الأخرى.

لقد وفرت تكنولوجيا المعلومات، وسائل عدة لاستظهار شبكة العلاقات التي يموج بها النص من علاقات لغوية: نحوية ومنطقية، وإيقاعية، وتركيبية، ومعجمية، وموضوعية، ومفاهيمية ومقامية، وزمنية ومكانية. إن تكنولوجيا المعلومات تعمل كأشعة إكس، التي تكشف عن دخائل النص، ويأتي الذكاء الاصطناعي ليوفر وسائل آلية لاستنتاج المعاني، وفض اللبس، والتعويض عن المحذوف والمضمر. يفسر ذلك لماذا أقامت نظرية الأدب جسرا للحوار

مع الذكاء الاصطناعي، يتبادلان عبره المعرفة المتعلقة بإشكالية المعنى.

9 : 2 : 6 الفكر وفن الشعر: منظور معلوماتي

(أ) **عن علاقة الفلسفة بالشعر:** بقدر ما تجنى كانط على الموسيقى، بقدر ما أنصف الشعر، معتبرا إياه من أقدر الوسائل على اجتذاب العقل، وهو أفضل الفنون في الجمع بين العقل والتعبير. يمثل الشعر ظاهرة لغوية فريدة، فكلما قل لفظه، زادت قدرته على التعبير. وكان لزاما على الشعر، أن يفلت من قيود اللغة، ومن قيود المنطق أحيانا، ليسمو بخياله ومجازه إلى ما يعجز غيره عن الوصول إليه.

والشعر - تارة - يكون في نظر البعض امتدادا للفلسفة، أو بديلا لها (80 : 121)، وتارة أخرى - كما يراه أهله - فوق الفلسفة وعلى الفلسفة أن تتعالى على ذاتها بالشعر (101 : 15)؛ ليتفجر بذلك، مرة أخرى، ذلك الصراع القديم بين الفلسفة والشعر منذ أيام أفلاطون.

(ب) **الشعر طليعة اللغة وطليعة المعرفة بالتالي:** كما أفرط شيلنج في حماسه للأدب، أفرط نوفاليس في حماسه للشعر، فراح يعلن أنه لن يهتم إلا بالشعر، ويجب إضفاء الشعرية على كل العلوم (101 : 109)، وينظر ميشيل سيرز إلى الشعر على أنه ضوضاء العلم - على حد تعبيره - ومن دون شعر لا يمكن أن يكون هناك علم، ومن دون علم أو على الأقل فلسفة ما، لا يكمن لنا أن نقرض الشعر. والضوضاء هنا تعني هذا الغموض الذي يستحث العقل على توليد معرفة جديدة (267 : 92). ويقول «مواري جيل مان» عالم الفيزياء، مكتشف جسيم الكوارك الذري[*6]، إن اكتشافه له قد ألهمته إياه قصيدة شعرية عن الوحوش المفترسة في الغابات الأمريكية، فقد شابه بين قوة افتراسها والقوة الطاغية المجهولة لجسيم الكوارك داخل نواة الذرة (122 : 224). وفي رأينا، أن ذلك الموقف من الشعر يتسق مع كونه طليعة اللغة، واللغة - كما أشرنا سابقا - هي طليعة المعرفة. وبناء على هذا، يمكن القول إن الشعر هو قائد مسيرة المعرفة. وهذا شأنه، فمن الخطورة بمكان، اعتبار الشعر ضربا من الرفاهية الوجدانية، نلجأ إليه بحثا عن السلوى والتسامي. حقا... إن الشعر - كما قيل - هو الذي يذكرنا بضعفنا إن انتابنا

الغرور، وهو الذي يشد من أزرنا إن تخاذلنا وقعدت بنا الهموم، ولكنه فوق ذلك، ضروة عقلية لا تكتمل معرفتنا من دونها.

(ج) **عن مساهمة تكنولوجيا المعلومات في التنظير للشعر:** تسعى الجهود الأكاديمية حاليا إلى وضع نظرية عامة للشعر، من المتوقع أن تسهم فيها تكنولوجيا المعلومات إسهاما فعالا. وفي رأي الكاتب، تقابل تكنولوجيا المعلومات الشعر على امتداد ثلاث جبهات:

- جبهة المجاز اللغوي.
- جبهة شفرة الرموز.
- جبهة الخيال الشعري.

بالنسبة إلى المجاز اللغوي، تستخدم تكنولوجيا المعلومات في بناء قواعد ذخائر النصوص اللازمة لرصد الظواهر المختلفة لاستخدام الصيغ المجازية في سياق النصوص الفعلية، وكذلك في الارتقاء بالمعاجم، من كونها حرفة lexicography إلى مستوى العلم المنضبط lexicology. وهو العلم الذي يتناول مدى قابلية المعاني للتوسع مجازيا، والعوامل التي تحكم التشبيه الاستعاري، أي التي تحدد ماذا يستعير المجاز من المجال الدلالي الحرفي. فبينما يجوز أن تقول في استعارة تشبيه العواطف بالنيران ـ على سبيل المثال ـ «التهبت العواطف»، و«جذوة العاطفة»، ليس مستساغا أن تقول «تفحمت العواطف» أو «وقود العاطفة أو حطبها».

وكما هو معروف، يتجاوز الشعر اللغة ليقيم، بداخله ومن داخله، شفرة الرموز الخاصة به. إن الشعر بمنزلة منطقة وسطى بين اللغة المسرفة في القدرة التعبيرية، وشفرة المعلومات المسرفة في صورتها وتجريدها. وهكذا، يمكن النظر إلى الشعر بصفته همزة الوصل التي تربط ما بين نسق اللغة ونسق المعلومات، كما يمكن النظر إليه، من جانب آخر، كهمزة الوصل ما بين اللغة والموسيقى، حيث يجمع الشعر بين تنغيم اللغة وتنغيم الموسيقى.

وكما تستخدم نظرية المعلومات في تناول قيمة الموسيقى كميا وإحصائيا، تستخدم ـ أيضا ـ في مجال الشعر للغرض ذاته، أي للحكم على مدى شاعرية القصيدة كميا. ويمكن لتكنولوجيا المعلومات أن تسهم ـ أيضا ـ في عملية الحكم تلك بأسلوب آخر، حيث تقاس شاعرية الشعر بقدرته على تجاوز الأنماط النحوية التي يمكن لقواعد اللغة أن تولدها، وتجاوز معاني

الكلمات الواردة في معجم اللغة. إن نظم معالجة المعاجم آليا، يمكن أن تدلنا على الحدود القصوى للتوليد النحوي والمعجمي، والتي إن تجاوزها الشعر، يكن قد حاز حقا دليل شاعريته.

وأخيرا، وفيما يخص لقاء الشعر مع تكنولوجيا المعلومات على جبهة الخيال، يبرز الواقع الخائلي كحلقة ربط بينهما. فمن جانب، يمثل الواقع الخائلي موضوعا مثيرا لإبداع شعري جديد، يثير الشجن بتأملاته حول السكنى في عوالم الرمز، والعيش مع كائناتها الخائلية وأطلالها الرقمية. ومن جانب آخر، يمكن استخدام عوالم الواقع الخائلي في تجسيد عوالم الشعر الخيالية. وكما تحولت الروايات والأساطير إلى أفلام سينمائية، فربما سيأتي الوقت الذي نرى فيه الأشعار وقد تحولت إلى عوالم خائلية، فهي ـ دون شك ـ أكثر أشكال التمثيل الرمزي ملاءمة للشعر.

9 : 2 : 7 الفكر والسينما: منظور معلوماتي

(أ) **بدايات تنظيرية:** فن السينما أو الفن السابع، فن حديث من جهة، وفن جامع لفنون عدة من جهة أخرى. وقد أثر ذلك على علاقته بالفكر: فلسفة وعلما. وقبل أن يرسخ هذا الفن، وتتضح معالمه إلى الدرجة التي تجتذب إليه الفكر الأكاديمي الجاد، جاءه التليفزيون ليعتلي، بدلا منه قمة الثقافة الجماهيرية، ويصبح أكثر الوسائط جاذبية للتنظير الأكاديمي، فكان الشاغل الرئيسي لمدرسة فرانكفورت، ومحور التنظير الإعلامي لمارشال ماكلوهان ـ انظر الفقرة 7 : 3 : 2 من الفصل السابع. ولكن لم يمنع هذا فن السينما من ممارسة حقه ـ كغيره من الفنون ـ في أن يمر بمرحلة المراهقة التنظيرية، يتأرجح حائرا بين المدارس الفكرية المختلفة، فتارة يتجه التنظير السينمائي صوب الوجودية، مركزا على دور المشاهد، وتارة أخرى، تتجاذبه البنيوية تحثه على الكشف عن بنية الفيلم الداخلية، والمعرفة اللاواعية وراء ظاهر الفيلم. وأحيانا ما يميل هذا التنظير السينمائي نحو التأويلية، فيغرق في دوامة التفسير، ليجد نفسه ـ في نهاية المطاف ـ وجها لوجه مع اللغة وإشكالياتها.

(ب) **علاقة تكنولوجية لا علمية:** وكما كانت علاقة فن السينما واهية مع الفلسفة، كذلك كانت علاقته بالعلم، وذلك لسبب أساسي، وهو كون فن

السينما فنا مزجيا يجمع بين النص والصورة والحوار والموسيقى. وكل هذه العناصر الأولية المغذية لفن السينما، لم تحقق درجة كافية من الاستقرار النظري، يحق معها لهذا الفن الجامع أن يصبو إلى تنظير علمي أكثر تأصيلا. ولكن، كغيره من الفنون أيضا، لم يمنع ذلك فن السينما من أن يهيم على وجهه بين فصائل العلوم؛ تارة يلوذ بعلم النفس، لينشغل بدراسة التأثير السيكولوجي للفيلم في المشاهد، ويوجه النقد السينمائي إلى تأويل نية المخرج وتفسير مقاصده، وتارة أخرى، يلوذ بعلم الاجتماع ليركز على علاقة محتوى الفيلم بواقعه الاجتماعي. وبدلا من توطيد علاقتها بالعلم، فقد وطدت السينما علاقتها بالتكنولوجيا؛ وهو الأمر الذي يبدو معه منطقيا أن تأتي مبادرات التنظير الأولية على يد المدرسة الشكلية الروسية، والتي دفعت بها أيديولوجيتها المادية إلى رؤية السينما على أساس كونها تقنية محضة، لا وحيا، أو خيالا، أو أداة للفعل السيكولوجي (69 : 83). وهكذا كرس سيرجي إيزنشتاين، رائد هذه المدرسة، كل جهده على موضوع المونتاج، بصفته أبرز جوانب الفيلم التقنية التي تميزه عن الفنون الأخرى، فمن دون مونتاج كما يقول مالرو ـ لن تكون السينما فنا (69: 150).

وفي غمرة اندفاعها التنظيري، لا تجد المدرسة الشكلية الروسية إلا أن تستعير مناهجها من الفنون الأخرى، ومن فن التصوير الثابت بصفة خاصة. نتيجة لهذا التوجه الشكلي، غاب المحتوى عن نظر المنظرين الشكليين، لينفصل بذلك التنظير السينمائي عن الواقع.

(ج) **المدرسة الواقعية**: اتخذ الناقد السينمائي اندريه بازان موقفا معارضا من المدرسة الشكلية، في محاولة منه لرد الاعتبار لمحتوى الفيلم، وقد صاحب ذلك نمو الواقعية الجديدة في السينما الإيطالية. طالب بازان بنظرية علمية للسينما تبنى ـ أساسا ـ على القوى الخالصة للصور المتحركة المسجلة ميكانيكيا (69 : 131)، وقد مهد بازان للتنظير العلمي الجاد، بما قام به من جهد من أجل تنظيم التراث السينمائي، ووضع الأسس المنهجية لتصنيف أجناس الأفلام وسيناريوهاتها وطرائق تعبيرها عن الواقع.

(د) **اللغة والتنظير السينمائي**: بوصفها ضربا من الإبداع الرمزي، كان لابد للتنظير السينمائي من أن يلتقي بالتنظير الرمزي الأم، ونقصد به التنظير اللغوي. وكما تخلص تنظير اللغة على يد دي ـ سوسير من كل ما

هو خارجها، كذلك فصل كريستيان ميتز ـ في محاولته الجادة لتأسيس علم سينمائي خالص ـ بين الشق السينمائي المحض، وما هو خارج السينما من تكنولوجيا، وتنظيم، وعلم نفس، وعلم اجتماع، واقتصاد وخلافه (203:69). ويتخذ التنظير السينمائي طريقه صوب السيميوطيقا، فليس هناك خير منها مدخلا للتنظير الرمزي، بصفتها علم المعنى. تسعى سيميوطيقا السينما إلى أن تبني نموذجا شاملا قادرا على أن يفسر كيف يشتمل الفيلم على المعنى؟ وكيف ينتقل هذا المعنى إلى المشاهدين؟ وتسعى سيميوطيقا السينما ـ كذلك ـ إلى الكشف عن السمات والأنماط التي تعطي لكل فيلم، أو لكل نوع من الأفلام، خصائصه المميزة (203:69).

ما إن يعبر المنظر السينمائي بوابة السيميوطيقا؛ حتى يجد نفسه وجها لوجه مع اللغة، أكثر فروع السيميوطيقا نضجا وأهمية، وقدرة على نقل المعنى. وهكذا، يصبح الهدف التنظيري منصبا على وضع معجم سينمائي يحدد مفردات اللغة السينمائية ومعانيها، وعلى وضع نحو للغة السينما، يحدد أنماط تتابع أحداث الفيلم وتحديد دور كل منها. وكما جرى بالنسبة إلى علم النص، سرعان ما اكتشف علم السينما أن اللغة وحدها لا تكفي، ولابد للسينما من لغة خاصة بها، تتجاوز اللغة الإنسانية، إلى ما هو أعم وأشمل. ويجد منظرو فن السينما ضالتهم في نظرية المعلومات، فمادة الفيلم، لدى كريستيان ميتز، ليست هي الواقع ذاته، ولا تكنيكات المونتاج، بل مادة الفيلم ـ في حقيقة الأمر ـ هي الرسائل التي ينقلها الفيلم إلى المشاهد من خلال الشفرة الخاصة بلغة السينما (ومن أشهر الأمثلة على هذه الشفرات: استخدام تساقط أوراق النتيجة دلالة على مضي الزمن، واستخدام الألحان الموسيقية الموحية لتوليد الشعور بالرعب أو باقتراب وقوع حدث معين، أو تصرف ما تقوم به إحدى شخصيات الفيلم).

(هـ) **علاقة فن السينما بتكنولوجيا المعلومات:** كان المعمار هو موضع التقاء الفن مع تكنولوجيا الثوابت، ونقصد بها هندسة الإنشاءات وغيرها. أما السينما، فهي موضع التقاء الفن مع التكنولوجيا ذات الطابع الدينامي المتدفق، والتي تمثل تكنولوجيا المعلومات ذروة التقائها. وكما نقلت تكنولوجيا الصناعة المسرح إلى السينما، تسعى تكنولوجيا المعلومات ـ حاليا ـ إلى نقل السينما إلى عالم الوسائط المتعددة. وهنا تكمن الأهمية الخاصة للتنظير

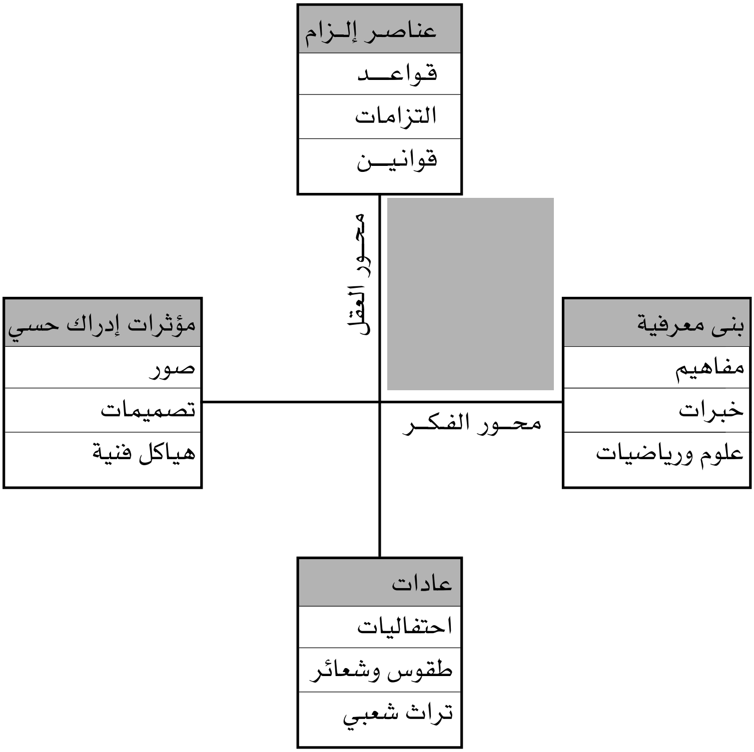
السينمائي في عصر المعلومات. فلم يعد هذا التنظير ضربا من الرفاهية المعرفية، أو أداة لممارسة النقد السينمائي، بل هو البداية نحو جماليات الوسائط المتعددة. ولا شك في أن مونتاج الفيلم، وقدرته على تجسيد السيناريوهات المتوازية والمتقاطعة والمتلاقية، يعد أقرب الفنون لتجسيد مفهوم اللاخطية، أبرز خصائص فنون عصر المعلومات علاوة على ذلك، يمثل تحويل الروايات إلى أفلام مجالا خصبا لدراسة علاقة السرد النصي، بالسرد المرئي، من أجل الوصول إلى جماليات متوازنة، متحررة من مركزية الكلمة ومحورية الأدب.

9 : 2 : 8 الفكر وفن المسرح : منظور معلوماتي

(أ) **عن أنواع المسرح وتوجهاته:** إذا كان الشعر هو ديوان العرب، فالمسرح هو مدرسة أهل الإغريق. لقد كان المسرح مصدرا أساسيا لتوليد المعرفة في الماضي، وقد شكل خطابه المعرفي بعقول عدة، فبينما يعب عقله الدرامي من جميع مصادر المعرفة: يخاطب الآلهة أو يخاطب الكائنات، ويجادل الأفكار والرؤى، ويحاور الشاهد والغائب، يمرح عقله الأول دون قيد في خرافة الأسطورة، ويصول ويجول عقله الراهن في دنيا الواقع حائرا بين تناقضات هذا الواقع، طارحا تصوراته بشأنها. وربما، عما قريب يحاور المسرح عقل الآلة صنيعة تكنولوجيا المعلومات، بعد أن تعاظم دور هذا العقل في صياغة الواقع المعاصر.

وتعددت مدارس المسرح، وتتالت موجات طلائعه وتجاربه، فكانت للمسرح توجهاته التاريخية، والسيريالية والمسقبلية والرمزية والعبثية، كل توجه منها يدعي السيطرة على ما عداه من أجناس مسرحية. ومثله مثل فن السينما، استعصى فن المسرح على التنظير الدقيق، ربما يرجع ذلك إلى تعدد أنواعه: مسرح الفنانين ـ مسرح الحركة ـ مسرح الشعائر ـ مسرح العرائس ـ مسرح التقليد والإيماءة ـ مسرح الأعياد ـ مسرح الطقوس ـ مسرح القصص الدينية. ومن المتوقع أن يزداد الأمر صعوبة بظهور أنواع جديدة من المسرح في عصر المعلومات.

(ب) **عن لغة المسرح الخاصة:** ساد المسرح الأوروبي طابع الحوار،



الشكل (9 : 1) بوصلة مصادر المعرفة الإنسانية.

والإيحاءات التعبيرية وأداء الفنانين المقنن. لذا، كان الحوار، أو فكر المؤلف، هو وسيط المسرح إلى الفلسفة والعلم. وهكذا، توارت أهم خاصية تميز المسرح عن سائر الفنون، ونقصد به عنصر الأداء الحي. ومن هنا، تبرز علاقة التنظير المسرحي بفنون عصر المعلومات التي يسودها الطابع الأدائي التفاعلي. والأمل معقود على تكنولوجيا المعلومات، كي ترد الاعتبار لعناصر فن المسرح التي طغت عليها لغة الحوار، وتشمل هذه العناصر الصورة والأداء والبناء المسرحي والكورال وتتالي المشاهد، وخلافه. وكما يرى مؤرخو المسرح ونقاده، لا مخرج لأزمة المسرح، ومركزيته الأوروبية، ومحورية حواره، إلا بشحنة أداء قوية تهب عليه من مسارح شرق آسيا، مثله في ذلك مثل الموسيقى الغربية، التي تنتظر هي الأخرى ـ كما أسلفنا ـ شحنة إيقاعية

تأتيها من قبائل أفريقيا ودويلات جزر الكاريبي. يفسر ذلك: لماذا يستعير المسرح التجريبي من مسرح الكابوكي الياباني، والجينجو الصيني، والكاثاكالي الهندي (305)، حيث يخفت الحوار ليبرز الأداء الحركي والإيماءة وطقوس الشعائر الدينية؟

مدار الأمر، أن المسرح، مثله مثل الشعر والموسيقى والسينما، يحاول الإفلات من قيد اللغة، سعيا الى توسيع نطاق التعبير الإنساني، وللحديث بقية في الفقرة القادمة الخاصة بفن الأداء الحركي.

(ج) **عن التقاء المسرح بتكنولوجيا المعلومات:** تلتقي تكنولوجيا المعلومات مع معرفة المسرح، بشكل مباشر، من خلال مسرح ما بعد الحداثة، الذي يتبنى مفهوم إعادة التدوير recycling، أي البناء على ما سبق تقديمه على المسرح، أو في فنون الأداء الأخرى. ولابد أن يجد تشظي المعلومات، بصورة أو بأخرى، طريقه إلى مسرح ما بعد الحداثة، من خلال إعادة استخدام التراث ممزوجا بتراث الفنون الأخرى، لتفقد بذلك المسرحية ـ هي الأخرى ـ خطيتها، ويتوارى الحوار إلى الخلف، ليكسر ذلك احتكار الممثل، ناقل الحوار فيما مضى، من أجل إتاحة فرصة أكبر لمشاركة الجمهور. ولكن دعنا نتساءل هنا: هل سيفقد المسرح بذلك وظيفته الأصلية في التعبير عن الواقع؟ أم سيستعيد المسرح وظيفته التي أخذها على عاتقه منذ نشأته الإغريقية؟ وتتداعى الأسئلة: ما حدود المسرح في نقل المعرفة؟ وما علاقته بالدين والسلطة، وبالاقتصاد وبمؤسسات المجتمع المدني؟ كل ما نخشاه أن يغيب المسرح عن الساحة في خضم صراعات الحاضر، وتحت ضغوط فنون الميديا، ليغيب معه دوره المحوري في صراع القوى الرمزية والاجتماعية الأخرى.

9 : 2 : 9 الفكر وفن الإيقاع الحركي : منظور معلوماتي

(أ) **بوصلة التكامل المعرفي:** أجل ... يحتاج فن الرقص هو الآخر، مثله مثل الفنون، إلى معرفة، معرفة لإبداعه، ومعرفة لتذوقه، ومعرفة لمزجه مع فنون الأداء الأخرى. ولنستدع إلى مخيلتنا ـ على سبيل الاستهلال والتدليل ـ صورة مبدع الرقص الأمريكي الحديث الذي حدثونا عنه، وهو يراقب الحشرات تحت المجهر، يبحث في حركاتها عن «موتيفات» حركية جديدة

لتصميم رقصاته. والآن إلى صميم علاقة الأداء الحركي بالمعرفة، ومدخلنا إليها هو البوصلة ذات الاتجاهات الأربعة التي حددها فيتجنشتاين عن تكامل المعرفة الإنسانية الشكل (9:أ) لقد استلهم فيلسوف اللغة، في بوصلته الرباعية تلك، ثنائية الفكر والفعل لأرسطو، حيث يمثل المحور الأفقي محور الفكر، في حين يمثل المحور الرأسي محور الفعل (233: 57).

تمثل محاور البوصلة الأربعة مصادر المعرفة الإنسانية المختلفة. على المحور الأفقي شرقا، تقع البنى المعرفية من مفاهيم وخبرات، ومعارف علمية، وتقع غربا، مؤثرات الإدراك الحسي من صور وتصميمات وهياكل فنية. على المحور الرأسي شمالا، تقع عناصر الإلزام من قواعد وقوانين وواجبات والتزامات، وجنوبا تقع المعرفة من خلال مزاولة العادات من احتفاليات وطقوس وشعائر وتراث شعبي.

لقد كان تركيز تعليمنا حتى الآن على الجزء الشمالي الشرقي، من بوصلة التكامل المعرفي (الجزء المظلل في الشكل). فقد اعتدنا أن نتعلم من المفاهيم والمعارف النظرية، ومن خلال الأوامر والالتزام بالقوانين والأعراف. لقد حان لنا أن نكتشف الأجزاء الثلاثة الأخرى لبوصلة التكامل المعرفي. يعني ذلك أن نزاول اكتساب المعرفة مع خلال إبداع الفنون وتذوقها، وكذلك من خلال ممارسة الطقوس وأنشطة التراث الشعبي. ألم يسبق لنا أن تعلمنا شعائر الدين وروحانياته من خلال ممارستنا للطقوس الدينية؟ ألم نتعلم أيضا، من خلال ممارسة الطقوس العسكرية مبادئ القتال، والضبط والربط، واحترام الأوامر، والتضحية وتحمل المسؤولية؟ من هنا، تبرز أهمية الأداء الحركي، كمصدر للمعرفة، بصفته نوعا من الطقوس، لا مجرد حركات جسدية خالية من المعنى.

(ب) **نحو مفهوم جديد للرقص:** لقد ابتذلنا الرقص، ونزعنا عنه وظيفته الأصلية الكامنة في صوفية طقوسه، التي تخلصنا من مادية الجسد وننشد من خلالها التسامي والتعالي. وحتي فن الباليه، لم يهمنا فيه الا جماله الشكلي، وحصرنا أداءه في أبجدية حركية محدودة، تصل إلى حد الملل أحيانا. هذا هو ما يسعى إليه الرقص الحديث، عندما راح يستعير من رقص الهنود واليابنيين والزنوج، تعبيراته وإيماءاته ورصانته وحيويته.

(ج) **صلة فن الأداء الحركي بتكنولوجيا المعلومات:** تبرز صلة فن الأداء

الحركي بتكنولوجيا المعلومات ما إن ننظر إلى هذا الفن بصفته وسيلتنا لكي نعيد علاقتنا بأجسادنا، تلك العلاقة التي لا ترد إلى أذهاننا إلا مقرونة بالأمور الصحية، وبممارسة تمارين اللياقة البدنية. لقد ضيقنا الخناق على الجسد، إلى حد أن ابتذلناه في وظيفته المباشرة. إن تكنولوجيا المعلومات، وعوالم الواقع الخائلي، ستمكن الإنسان من التخلص من قيود جسده، ليمرح منطلقا في عوالم الرمز كما يتخلص رواد الفضاء من أثر الجاذبية الأرضية. ولنتذكر صيحة إيزادورا دنكان، راقصة الباليه الأميركية الشهيرة: «دعوا الجسد ينطلق»، ولنأسَ على مصير نيجيسكي، عبقري الرقص التشيكي الفذ، الذي كان يقفز طائرا في الهواء، وكأنه قد تخلص بالفعل من أثر الجاذبية، لينتهي به ولعه بالرقص الرفيع إلى تلك النهاية التراجيدية، فينقلوه ـ وهو في أوج تألقه ـ من خشبة المسرح إلى مصحة الأمراض العقلية، عساه يجد في «عالمها الخائلي» ما عجز عن العثور عليه في عالمه الواقعي.

لقد أظهر فن الرقص الحديث حساسية مفرطة لروح عصر المعلومات، سواء أكان الرقص على موسيقى التكنو في مراقص الشباب، أم على أنغام الموسيقى الطليعية في المسرح التجريبي، ففي الحالين، يسهل على الفرد ملاحظة هذا الطابع المتقطع للرقص، أو «التشظي الحركي»، إن جاز التعبير، على إيقاعات مفاجئة متدفقة، تذكرنا بتدفق نبضات المعلومات. إن لغة الرقص ـ بلا منازع ـ هي أقدر اللغات على التعبير عن فجائية التقطع تلك، ثنائية التنقل بين «الصفر والواحد»، بلغة أهل المعلومات.

علاقة الفكر بالفنون (المنظور العربي)

(أ) **هل ثمة علاقة:** لا نخفي على القراء أننا كنا على وشك الإحجام عن تناول علاقة الفكر بالفنون، من المنظور العربي، تحت انطباع أن ضمور فكرنا وفننا، في أيامنا هذه، لابد أن يعني ضمورا أشد فيما يخص العلاقة بينهما، ولكننا أدركنا ـ على التو ـ مدى الإجحاف في هذا بما أبدعه سلفنا العظيم في مجال معرفة الفنون والإبداع، وما أضافه محدثينا من مثل مصطفى سويف. وسنكتفي هنا باستعراض لأهم إنجازات السلف، في معرفة الموسيقى ومعرفة التشكيل.

(ب) مساهمة السلف في علوم الموسيقى: نلخص ـ هنا ـ في نقاط أهم مساهمات السلف في علوم الموسيقى(*7):

- كان ابن سينا في موسوعة الشفاء والنجاة سباقا في وصف تعدد الأصوات (البوليفونية) قبل أن يعرفه الغرب بمئات السنين. ويعتبر ابن سينا أيضا رائدا من رواد التدوين الجدولي، حيث درس العلاقة بين أوضاع يد العازف على عنق الآلة الموسيقية، وطبيعة الأصوات التي تصدرها.

- مثلت أبحاث الكندي في طبيعة الأصوات فتحا في علم الموسيقى، باكتشافه السلم المعدل، وتحديده لنطاق الذبذبات للأصوات الموسيقية، وهو السلم الذي عرفه الغرب بعد ذلك بقرون عدة. وتعد رسالة الكندي الشهيرة في التأليف الموسيقي، وفي ترتيب النغم الدال على طبائع الأشخاص وفي الإيقاع، سبقا حقيقيا في علوم الموسيقى وصنعتها.

- أما الفارابي، صاحب كتاب الموسيقى الكبير، أشهر كتاب في تاريخ الموسيقى، فهو أول من تحدث عن التنافر، وتعدد المقامات، وتعدد الأصوات.

- وهل لنا ان نغفل زرياب، وتجاربه الرائدة على خامات الأصوات، والمدى الصوتي للمغني، ومعهده في قرطبة الذي كان كعبة الدارسين في كل أوروبا، وكذلك ما سجله إخوان الصفا في رسائلهم في الضروب والإيقاعات.

لقد أسهمت هذه الذخيرة من بحوث السلف العظيم بقدر كبير في تأسيس علاقة العلم بالموسيقى، خاصة في مجال رياضيات وفيزياء الأصوات. وتميزت ـ كذلك ـ بربط الجوانب العلمية بالتطبيق العملي، وبتكنولوجيا صناعة الآلات. ولا يناظر هذا الثراء المعرفي، إلا قصور دراساتنا الحالية سواء في المعرفة الموسيقية الحديثة، أو تناول تراثنا الموسيقي.

(ج) **عن أهمية تراثنا الموسيقي**: لقد أصبح لزاما علينا المحافظة على مواردنا الموسيقية، فلدينا تراث هائل في المقامات الموسيقية، بينما يشكو الغرب من فقر شديد في المقامات التي أهدانا تراثنا الموسيقي منها المئات، بل هناك من يقول إن عددها تجاوز الألف [30]. ولكن معظمها، ويا للأسف، ما بين ضائع، أو مفقود، أو مشوه أو مهمل. ومقاماتنا الموسيقية المستخدمة بالفعل مهددة بالانقراض. من المئات إلى فترة العشرينيات، (في عصر سيد

درويش وعبدالوهاب ورياض السنباطي وإخوان الرحبانية) إلى أن أصبحت في عصرنا الحديث أقل من عشرة مقامات متداولة حاليا. إن علينا أن نعيد بناء منظومة مقاماتنا الموسيقية كما أحصاها لنا صفي الدين الأموي الذي نظمها في سلاسل مترابطة ومنتظمة. إن لم نقم نحن بذلك، فسوف يقوم به غيرنا بالاستعانة بتكنولوجيا المعلومات، والمعروفة بقدرتها الفائقة على ترميم «المخلفات الموسيقية» وإعادة بنائها.

على الدرجة نفسها من الأهمية علينا، أن نشرع من فورنا في إجراء تجاربنا على مزج تراثنا الموسيقي والغنائي، فنحن لم نكتشف إلى الآن على سبيل المثال: ماذا يمكن أن يتولد عن مزج غناء المغرب وغناء الجزيرة العربية، وغناء الخليج وغناء الشام، وغناء مصر وغناء السودان. بل علينا ـ أيضا ـ أن نمد نطاق تجاربنا في المزج الموسيقي والغنائي، لندرس العلاقة بين موسيقانا العربية وتراث الموسيقى الفارسية والتركية.

(د) **فن التشكيل:** هناك من يزعم أن ليس هناك فن إسلامي بالمعنى الصحيح للكلمة، وليس هناك طراز غالب يميز الفن الإسلامي، ويحاول البعض تفتيت وحدة الفن الإسلامي، فتاج محل ليس إسلاميا بل مغوليـ، وقصر الحمراء هو ـ في الأصل ـ مغربي. أما الزخرفة العربية، فترمى بالرتابة الميكانيكية والإفراط الهندسي، وأنها متخمة باللغو التشكيلي. بل هناك من يتمادى في غيه، زاعما أن تكرار الزخارف العربية، هو صدى لميل الفكر العربي للتكرار والاجترار. وسنكتفي هنا ببعض ملاحظات عابرة عن علاقة فن الزخرفة العربية بتكنولوجيا المعلومات.

- تمثل الزخرفة تطبيقا عمليا لمفهوم التوليد الرياضي، وهو أحد المفاهيم الأساسية في كثير من العلوم الحديثة، مثل اللسانيات والبيولوجيا الجزيئية.
- تؤكد الرسومات الزخرفية مفهوم اللانهائية والانتشار غير المحدود، وهو الآخر أحد المفاهيم العلمية الأساسية.
- يمتاز فن الزخرفة بطابعه التجريدي المحض، وهو ما يتسق مع الطابع الرمزي الذهني لفنون عصر المعلومات.

9 : 2 : 10 اللغة والإبداع الفني : منظور معلوماتي (الطرح العام)

(أ) **عن صلة اللغة بالإبداع:** لا توجد جماعة بلا لغة، ولا توجد ـ كذلك

ـ جماعة بلا فن، ذلك ما خلصت إليه الأنثروبولوجيا الرمزية، تأكيدا، على الصلة الوثيقة بين اللغة والفن. ولكل فرع من فروع الإبداع الفني ـ كما أشرنا سلفا ـ لغته الخاصة به.

وترد على أسماعنا عبارات من قبيل : فصاحة موسيقى بيتهوفن، وبلاغة الفيلم السينمائي، ومعاجم الشعر، واستعارة الشكل، وأبجدية المعمار. وأضافت تكنولوجيا المعلومات لمستها المجازية، فكما أن هناك نظما آلية لإعراب الجمل، تُطور ـ حاليا ـ نظم آلية لإعراب الأشكال والأفلام، أي تحليلها إلى عناصرها التركيبية الأولية، وتحديد العلاقات الوظيفية بين هذه العناصر.

وحيث إن اللغة قدأصبحت نهجا أساسيا للتنظير العلمي، يجري تطبيقه على مجالات معرفية متعددة ومتباينة، فمن الأولى أن تصبح اللغة نهجا عاما يمكن تطبيقه على الفنون كافة، فاللغة ـ في كثير من جوانبها ـ أقرب إلى الفن منها إلى العلم.

وتكمن صلة اللغة بالإبداع في قدرتها على توليد عدد لا نهائي من التراكيب النحوية والمعاني المجازية. والشعر ـ كما يقول أرسطو ـ لا يقص علينا ما حدث، بل ما كان ممكنا أن يحدث. بقول آخر، إن الشعر، من خلال أداة اللغة، يولد الممكن ويمتد صوب اللانهائي.

(ب) هل اللغة قيد على الإبداع؟ كل الأشياء ـ كما يقول كافكا ـ تبدي مقاومة شديدة لأن تصاغ في صورة كلمات. تلك شكوى الأديب. أما الشاعر فعلاقته باللغة أشد تأزما، فنجد ت . إس. اليوت، في إحدى قصائده، يعبر عن معاناته الشديدة مع اللغة، وكيف تحده الكلمات في انطلاقة نظمه. وشاعرنا يوسف الخال قد اصطدم ـ هو الآخر ـ بجدار اللغة، فجاء ديوانه «الولادة الثانية» سجلا لمعركته في الإفلات من قبضتها. إن اللغة تكتشف ـ وهي في أوج تألقها في حضرة الشعر ـ مواضع عجزها، وحاجتها الماسة إلى تفجير معانيها السائدة وأساليبها النمطية. تشير جميع الدلائل إلى أن تكنولوجيا المعلومات، ستقوم بدور العامل المساعد في بلورة العلاقة بين اللغة والإبداع، حيث تمثل نظم معالجة اللغة آليا، أحد عناصر البنى التحتية لمنظومة الإبداع، في حين تمثل فنون اللغة نبعا لا ينضب من التحديات اللغوية التي ستدفع بالبحث اللغوي إلى مشارف جديدة غير مسبوقة.

اللغة والإبداع الفني (المنظور العربي)

(أ) **اللغة أملنا في إحياء الإبداع:** اللغة أملنا في إحياء إبداعنا الفني، وإبدعانا الفني ـ بدوره ـ أملنا في إحياء اللغة. وفنوننا اللغوية من أدب وشعر، هي أهم فنوننا بلا منازع، حيث موسيقانا في ضمور، وفنون المسرح وأداء الإيقاع الحركي أكثر ضمورا، وفنون التشكيل لدينا مازالت مقصورة على النخبة. أما فن المعمار، فيعاني من تبعية جمالية وتكنولوجية شديدة. وحسم العلاقة بين لغتنا وإبداعنا، شرط أساسي لحسم العلاقة بين إبداعنا وديننا، وذلك لما للنص الديني من أهمية بالغة في منظومة العقائد والقيم.

وتراثنا اللغوي، هو أعلى مواردنا التراثية. وربما لايدانيه في ذلك إلا تراث المعمار. وكما أشرنا سلفا، تعتمد فنون عصر المعلومات على إعادة استخدام التراث، ونجاحنا في هذه المهمة يتوقف ـ بصورة أساسية ـ على مدى فهمنا لعلاقة تراث اللغة بالإبداع الفني.

(ب) **الإبداع الفني أملنا في إحياء اللغة:** تحيا اللغة من خارجها لا من داخلها، تحيا باستخدامها، وبإبداع الجماعة الناطقة بها. سنكتفي هنا ببعض أمثلة عن : كيف يمكن للإبداع أن يساهم في انتشال لغتنا من أزمتها الراهنة:

- لقد طغى صرفنا على نحونا، وبينما يشكو غيرنا أن البحث اللغوي لديهم مازال أسير الجملة، لم يتجاوزها بعد إلى مستوى النص، يزعم الكاتب أننا مازلنا أسرى الكلمة، لم نحسم بعد قضايانا اللغوية على مستوى الجملة. من هنا، يأتي دور نظرية الأدب من حيث تناولها للنص، ككل، واقتراحنا في هذا الصدد، أن تكون هذه النظرية مدخلا أساسيا لتنظيرنا اللغوي، وذلك بهدف الانقضاض على المشكلة من مستوى أعلى، مستوى النص هنا، يحرر اللغة العربية من سجن الكلمات، ويعيد للمعنى مكانته، سواء في التنظير للغة العربية أو في طرائق تعليمها وتعلمها.

- من المعروف، أننا قد أغفلنا الوظائف الاتصالية للغة، وهي الوظائف التي تزداد أهمية بفعل المتغير المعلوماتي، ومما لا شك فيه، أن اهتمامنا بفن المسرح، سيعطي دفعة قوية لتنمية الوظائف الحوارية للغة.

- ونحن نشكو أيضا من نقص شديد في دراسة ظاهرة المجاز، وتناول هذا القصور من منظور الشعر، سيكمننا من معالجة الظاهرة بصورة أشمل

وأعمق.

- لم تحظ ظاهرة التنغيم والإيقاع الصوتي اللغوي بالاهتمام الجدير به، خاصة وقد زادت أهميتها في نظم توليد الكلام وفهمه آليا. ولا شك في أن دراسة علاقة الموسيقى باللغة، ستوفر الخلفية النظرية لتناول هذه الظاهرة. وغني عن القول، إنه لا يمكن لنا تحقيق هذه المهام البحثية دون الاستعانة بتكنولوجيا المعلومات، فهي أملنا الوحيد في تعويض تخلفنا في مجال البحث اللغوي والإبداعي.

9 : 2 : 11 الدين والإبداع الفني: منظور معلوماتي (الطرح العام)

(أ) **الدين باعث على الفن:** كان الدين ـ دوما ـ باعثا على الفن، فقد اكتسب المصري القديم فنه من عقيدته، وأبدعت فنون التشكيل والنحت روائعها في رحاب الدين، ونشأ المسرح ـ أيضا ـ في أحضانه، فقد كان المسرح الإغريقي، أقدم المسارح، ذا طابع ديني. ومازالت طقوس الدين واحتفالياته مصدر إلهام للفن الدرامي الحديث. وكانت نشأة الأدب ـ أيضا ـ ذات علاقة وثيقة بمعتقدات البشر، حيث زخرت أساطيره بأحاديث الآلهة وأخبار ممالكهم وخوارقهم.

لقد سعى فن مصر الفرعونية إلى تأكيد فكرة الخلود، في حين أكد فن الهنود على وحدة هذا الوجود، وانشغل فن أهل الصين واليابان بجمال الطبيعة، بينما انشغل الفن الإغريقي بجمال الإنسان وكماله الجسماني. وجاء الفن الإسلامي (47:112)، يبجل التوحيد الإلهي وينشد الجمال المطلق.إن تجريدية الزخرفة الإسلامية، واختزالية رسوم الفراعنة وبساطة كتل تماثيلهم، والجلال الذي توحي به هذه التجريدية وتلك البساطة، تأكيد على سمو القيم الروحية التي سعت هذه الفنون إلى تجسيدها.

وكما كان الدين مصدر إلهام للفن، أوفى الفن بدينه للدين. فكان خادما وفيا للمعابد والطقوس والرموز المقدسة. وما أن ترك خدمة الدين، حتى راح هائما على وجهه، يبحث عمن يرعاه، منتقلا من رعاية القصور إلى رعاية أصحاب الأموال، حتى آل أمره ـ أخيرا ـ إلى أن أصبح تحت رحمة أصحاب الفضل من مانحي الهبات.

(ب) **عن صراع الدين مع الفن:** أظهرت كنيسة العصور الوسطى العداء

للفن، بصورة أقل ضراوة من عدائها للعلم. فقد كان صراعها مع الفن على جبهة الأخلاق، في ظل اعتقاد أن الفن مصدر تقويض للأخلاق وتهديد للمبادئ السامية. وشتان الفرق بين صراع الدين مع الفن، ذي الأساس الأخلاقي، وصراعه مع العلم. حيث الصراع على سلطة المعرفة، وكسر احتكار الكنيسة لها، بما يقوض موقف المؤسسة الدينية، ويهدد حقوقها الإلهية. لقد أدان بعض المسيحيين الأوائل الشعر لارتباطه بالماضي الوثني، سندهم في ذلك اتهام أفلاطون للشعر، ووصفه الشعراء بالكذابين، فهم يتكلمون عن آلهة وثنية، أي عن كائنات ليس لها وجود (101: 160) ونترك للقراء أن يروا ما يتراءى لهم من أوجه التشابه، بين ما ذكرناه آنفا، وما يثار عن موقف بعض أهل الدين لدينا من شعر الجاهلية. أما وجهة نظر المذهب البروتستانتي إلى الفن، فتعكسها مواقف مارتن لوثر، المصلح الديني الألماني، وجون كالفان المصلح السويسري، من فن الموسيقى، الذي كان شاغل البروتستانتية الأخلاقي، خلافا للمسيحية الناشئة التي انشغلت بالشعر. ودعنا نلخص هنا ما أورده جوليوس بورتنوي في كتابه «الفيلسوف والموسيقى» في هذا الشأن (71: 156) كان مارتن لوثر يعزف الموسيقى، ويستمتع بغناء الأناشيد الجريجورية والقداسات، وقد ورث عن بعض أسلافه الكاثوليكيين موقفهم المتساهل من الأغاني الدنيوية، وأكد في تعاليمه على دور الموسيقى في تقويم سلوك المؤمن، ودعا إلى أن يحصل كل طفل بروتستانتي على تعليم موسيقي، ويعد مارتن لوثر، صاحب التراتيل اللوثرية، ضمن المؤلفين الموسيقيين وهو صاحب المقولة الشهيرة: على المعلم أن يغني، وإلا لن أنظر في وجهه.

أما كالفان فقد أخذ على عاتقه تقويض نظريات مارتن لوثر في الموسيقى، بل واتسع هجومه ليشمل التشكيل أيضا، فقد كان يخشى أن تؤدي هذه الفنون إلى تحويل أفكار المؤمنين عن الهدف الحقيقي للدين. وهكذا، أخذ المتعصبون الدينيون وأعداء البابوية في سويسرا، يهاجمون الكنائس والأديرة، ويحطمون آلات الأرغون، ويمحون رسوم المذابح والجدران، حتى لا يخلط المؤمن بين الرمز التصويري وما يمثله الرمز بالفعل. ومرة أخرى، نترك للقراء أن يروا ما يتراءى لهم من أوجه التشابه بين ما أوردناه هنا، وما يثار عن موقف بعض أهل الدين لدينا من الموسيقى والتشكيل.

الدين والإبداع الفني (المنظور العربي)

(أ) **خصومة مفتعلة:** فنوننا محاصرة بدائرة محكمة من الخصومات المفتعلة، ولم يخرج من هذه الدائرة الخبيثة، إلا فن المعمار، ربما لكونه فنا عمليا ذا طابع نفعي تفرضه الضرورة الحياتية، ولولا ذلك، لكان له نصيبه ـ هو الآخر ـ من فكر التحريم ودعاوي التكفير، خاصة، وقد ابتعد معمارنا كثيرا، في حداثته المستوردة، عن أصوله الإسلامية. إننا لم نحسم إلى اليوم قضايانا الخلافية حول علاقة الدين بالعلم، غير أن موقف بعض أهل الدين لدينا من الفن أكثر حدة بلا شك، وانحسار العلم في أوطاننا لا يجعل منه خصما مثيرا لتيارات الفكر الديني المتطرفة، وهو ما يجعل من الفن متنفسها الوحيد لممارسة صرامتها ورقابتها وغوايتها. وهكذا، وجد فننا العربي نفسه وحيدا في معركة غير متكافئة، أمام قوى تفوقه عدة وجماهيرية، بلا سند من علم يؤازره، ومن دون أهمية اقتصادية تبرره مثل تلك التي تحظى بها السياحة على سبيل المثال. ولا يجد الفن من يدافع عنه في معركته الضارية تلك، سوى بعض أصوات تأتي ـ على استحياء ـ من داخل المؤسسات الثقافية الرسمية، التي التزم معظمها بالانضباط، في إطار سياسة عامة تتحاشى ـ ما وسعها الجهد ـ الصدام مع التيارات الدينية المتطرفة. يضاعف من أزمة الفن العربي، ضعف المنظمات غير الحكومية، وعزوف الفنان نفسه، عن خوض المعركة على جبهة الفكر الديني المعادي للفن، معطيا الأولوية لمعركته مع القوى السياسية، وربما مؤثرا السلامة أيضا. ومازال معظم فنانينا لا يجيدون لعبة العمل الجماهيري والإعلامي، وأحيانا ما يؤدي هذا إلى استفزاز لا مبرر له، فتورط في معارك تكتيكية على حساب المواقف الإستراتيجية.

إن عصر المعلومات، عصر صناعة الثقافة والإبداع، يفرض علينا مراجعة شاملة لعلاقة ديننا مع الفنون على اختلاف فروعها وتوجهاتها.

(ب) **ضرورة تجديد أساليب دفاعنا عن الفن:** لقد بات لزاما على خطابنا الثقافي المدافع عن الفن أن يحدد إستراتيجياته وتكتيكاته وأولوياته. فلم يعد كافيا أن نظل نردد: «إن الله جميل يحب الجمال»، وأن ديننا يحتفي بالتنوع الثقافي بدليل نزول القرآن على سبعة أحرف، كلها كافٍ شافٍ. ولم يعد كافيا ما قيل في مقام تأكيد اختلاف الأدب عن علوم الوسائل، من أنه

يدرس لنفسه، ويقصد به ـ قبل كل شيء إلى تذوق الجمال الفني، فدور الفن في عصر المعلومات أكثر بكثير من تذوق الجمال لكونه مصدرا أساسيا للمعرفة، بجانب وظيفته التربوية والأخلاقية. ويقترح الكاتب ـ هنا ـ مداخل أساسية عدة لتجديد خطابنا الثقافي بصدد موقف ديننا من الفن:

- **تبني المدخل المعرفي للفن:** وقد كان هذا ضمن الدوافع الرئيسية من وراء توسع الدراسة الحالية في تناول المعرفة الكامنة وراء الفنون. إن المعرفة ماز الت تحظى بتقدير أفضل من قبل تيارات الفكر الديني المختلفة، وعلى خطابنا الثقافي، أن يركز على أن إهمالنا الفن يعني عدم تكامل معرفتنا، أهم موارد عصر المعلومات. ودعنا نطرح جانبا ما يراه البعض من ضرورة حسم الخلافات المقامة بين ديننا والفكر، قبل حسم خلافاته مع الفن.

- **مدخل وحدة الفنون، وتكامل العلوم والفنون:** وإبراز أهمية هذه الوحدة وذلك التكامل تربويا وثقافيا، بل اقتصاديا أيضا. إن وحدة الفنون مفهوم أساسي، ذو صلة وثيقة بتكنولوجيا الوسائط المتعددة، والتي تعد ـ بدورها ـ مقوما أساسيا لاقتحامنا العوالم الرمزية والفضاء الرمزي المعلوماتي وعوالمه الخائلية.

- **المدخل الاقتصادي:** وذلك بتوجيه النظر إلى أهمية الفنون في إقامة صناعة ثقافية عربية.

- **التوافق بين الدين، وفنون عصر المعلومات:** حيث تدنو هذه الفنون من الرمزية، وتميل إلى التعامل مع المجرد وغير المادي.

- **إعادة طرح أن «ثقافاتنا تقوم على النص»:** حيث أساء فهم البعض لهذا المفهوم، إلى إغفال ما دون النص، وهو ما يمثل عائقا أمام ثقافة عصر المعلومات، التي تلعب فيها الصورة دورا رئيسيا.

- **إبراز اتساع وظائف الفن:** فالمسرح تربية، والشعراء أداة لتطوير اللغة، والعمارة لها بعد اجتماعي ورنين سياسي، والأدب ونظريته من ضمن الوسائل الرئيسية لتحليل الخطابات السارية في المجتمع، وبالتالي فهم أداء المجتمع ككل.

- **الفن كوسيلة للتربية الأخلاقية:** وسيصعب علينا استيعاب الجوانب الأخلاقية المتعددة التي يطرحها المتغير المعلوماتي، دون تفهم علاقة العلم والفن مع الأخلاق، ومع ديننا بالتالي.

خلاصة: لا يمكن لنا العيش في عصر المعلومات بأنصاف أمخاخنا، وفي ظل ثنائية ثقافية طاحنة. لقد جعلنا فكرنا وفننا في خدمة معتقداتنا، وحان الوقت أن نجعل معتقداتنا ـ وهي أقدر ما تكون على ذلك ـ باعثا على تجديد فكرنا وفننا.

9: 2: 12 التربية والإبداع الفني (الطرح العام)

لاشك في أن تعليم الإبداع أكثر صعوبة من تعليم التفكير العلمي، ولا يمكن حصره في التعليم الرسمي، بتنظيماته ومناهجه وبطء تجاربه. تحتاج فنون عصر المعلومات، ذات الطابع الرمزي الذهني، إلى تنمية التوجه عبر التخصصي، وإلى اندماج المعرفتين الفنية والعلمية، وتوثيق علاقة كلتيهما بتكنولوجيا المعلومات. يتطلب كل هذا بيئة تعليمية مغايرة، سواء من حيث تأهيل المدرسين وتقويم أداء الطلبة، أو من حيث موارد المادة التعليمية، أو وسائل الإيضاح السمعية والبصرية، وموارد تكنولوجيا التعليم الأخرى.

التربية والإبداع الفني (المنظور العربي)

إن تربية الإبداع الفني لدينا، توازي ـ في أهميتها ـ تربية الإبداع العلمي، إن لم تكن ـ في بعض جوانبها ـ أكثر منها أهمية، نظرا إلى أن فرصتنا في الإبداع الفني، تفوق ـ بكثير ـ فرصتنا في الإبداع العلمي، يتطلب منا ذلك القيام بمهام عاجلة عدة، على رأسها:

- إنشاء معاهد متخصصة في فنون الكمبيوتر.
- توعية مبدعينا بتطبيقات تكنولوجيا المعلومات في مجالات الفنون المختلفة.
- ربط المدارس والمعاهد بمراكز الفنون.
- إدراج التذوق الفني ضمن مناهج الدراسة في جميع مراحل التعليم.
- إحياء المسرح المدرسي فقد ثبت أن المسرح كان ـ وسيظل ـ من أهم وسائل التربية (73: 117).

9: 2: 13 الإعلام والإبداع الفني (الطرح العام)

يلعب الإعلام الجماهيري دورا رئيسيا في دعم الإبداع الفني، ويشمل ذلك على سبيل المثال لا الحصر:

- تنمية التذوق الفني لدى الجماهير.
- إلقـاء الأضـواء على المبدعين من أجل تشجيعهم على مداومة الجهد الإبداعي.
- يعد الإعلام منفذا تسويقيا رئيسيا لإنتاج الإبداع الفني.
- إقامة همزة الوصل بين ثقافة العامة وثقافة النخبة، بهدف الارتقاء بالأولى، وجعل الثانية أكثر وعيا بمسؤولياتها تجاه جماهيرها.

وقد أتاحت الإنترنت وسيطا جديدا لإعلام الفنون، سيتيح فرصا عدة لم تكن متاحة من قبل، بغرض تعميق التذوق الفني من خلال تفاعل المتلقي إيجابيا مع الأعمال الفنية.

الإعلام والإبداع الفني (المنظور العربي)

علاوة على المهام المذكورة في طرحنا العام بخصوص دعم الإعلام للإبداع الفني هناك مهام إضافية على إعلامنا العربي القيام بها في هذا المجال:

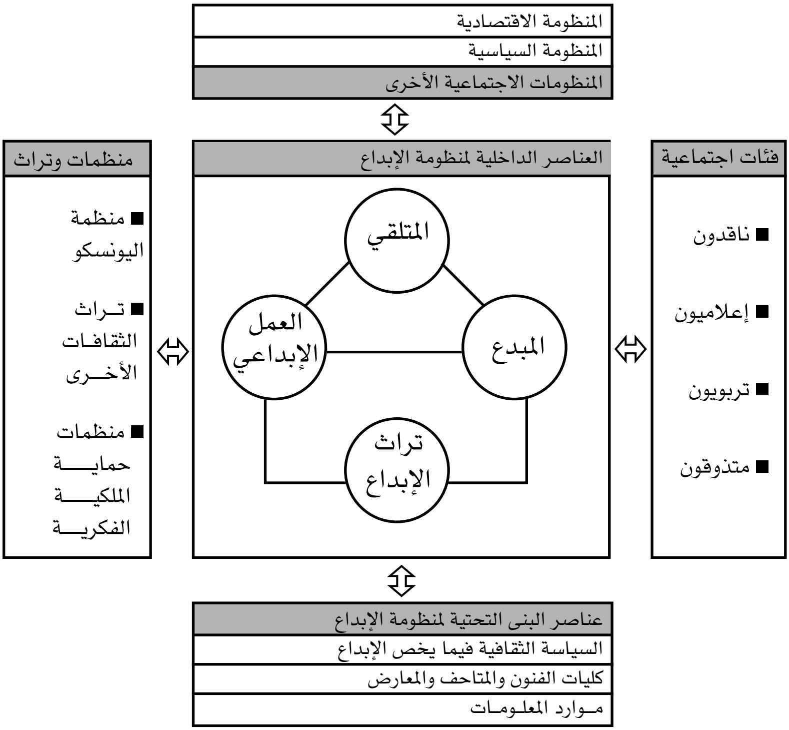
- التركيز على ربط الفنون بالعلوم.
- التصدي للخصومة المفتعلة بين ديننا والفنون المختلفة.
- تشجيع الإبداع الفني القائم على مزج التراث العربي والإسلامي.
- إبراز دور الإبداع الفني في صناعة الثقافة، وأهمية هذه الصناعة في عملية التنمية.
- إعطاء مساحة إعلامية أكبر لمبدعينا، من أجل تشجيعهم على المشاركة في عملية التنمية الاجتماعية، ونقد السياسات القائمة، والتصدي لتناقضات الواقع الاجتماعي.

إن علينا أن نستغل تكنولوجيا الوسائط المتعددة في عرض الإنتاج الإبداعي، وتنمية التذوق الفني، وعرض هذا الإنتاج في سياقات ثقافية أوسع.

9 : 3 منظومة الإبداع الفني

9 : 3 : 1 الاطار العام للمنظومة

يوضح الشكل (2:9) الإطار العام لمنظومة الإبداع، ويشمل المكونات الرئيسية التالية:



الشكل (2:9) الاطار العام لمنظومة الابداع الفني

- العلاقات الخارجية التي تربط منظومة الإبداع بخارجها.
- العناصر الداخلية لمنظومة الإبداع، وتشمل العناصر التالية: المبدع ـ العمل الإبداعي ـ المتلقي. وقد رأينا أن نضيف إلى هذه العناصر الثلاثة عنصرا رابعا وهو عنصر تراث الإبداع، وذلك نظرا لأن فنون عصر المعلومات ستركز بصورة أساسية على إعادة توظيف التراث، وهذا يعني أن التراث سيصبح في كثير من الأحيان بمنزلة وسيط بين المبدع وعمله الإبداعي. وكما يوضح الشكل، الشكل (9: 2) الإطار العام لمنظومة الإبداع الفني

فقد وضعنا المتلقي على قائمة عناصر المنظومة، وذلك تجاوبا مع التوجه نحو محورية المتلقي، والانتقال من جماليات المبدع إلى جماليات المتلقي.

- عناصر البنى التحتية لمنظومة الإبداع، وتشمل السياسة الثقافية فيما يخص الإبداع الفني، ومؤسسات تعليم وتأهيل المبدعين من معاهد فنون

ومراكز متخصصة في فنون الكمبيوتر، وكذلك المتاحف والمعارض بالإضافة إلى موارد المعلومات اللازمة للإبداع الفني، وتشمل، ضمن ما تشمل: ذخائر النصوص الأدبية، وبنوك الصور والموسيقى، والأرشيف السمعي ـ البصري للتراث الإبداعي.

سنتناول فيما يلي المكونين الأولين.

9 : 3 : 2 العلاقات الخارجية لمنظومة الإبداع (الطرح العام)

(أ) **علاقة منظومة الإبداع بالمجتمع ككل:** الفن ذو صلة وثيقة بمجتمعه، فالفن باعث على الحياة، والحياة مجددة للفن. وبالنسبة إلى بودلير فالعالم المحسوس، مخزن للصور والإشارات وقاموس للأشكال، يستخلص الفنان من توافقاتها رنينا غير متوقع (9:51). وفي المقابل، يسعى الفنان إلى تغيير العالم، وإعادة النظام إليه. عندما يستشري فيه فساد النظم وأهواء السياسة والتجارة، وطيش العقول المغامرة.

والفنان هو بمنزلة قرون الاستشعار لمجتمعه، فهو أول من يستشعر قدوم المحن والكوارث الاجتماعية، فنرى جوته يكتشف مبكرا مدى التناقض بين الحلم العظيم بالتطور الحر والعالمي للإنسان، وواقع المجتمع البورجوازي ذاته (9 : 52). واستشعر بيكاسو وقوع أسبانيا في محنة الفاشية، وقد توقع شينوا أتشيبي الروائي النيجيري انهيار نظام الحكم في بلاده قبل وقوعه بسنوات عدة[*8].

ولا يتوانى الفن في إعلان اعتراضه على تناقضات مجتمعه، فنرى التشكيل يلجأ إلى التشويه، والمسرح إلى العبث، والأدب إلى ضد الأدب، وتنزوي العمارة في الوظيفة المحضة والزخرفة الشكلية، حتى تتفجر هذه العمارة ساخطة، تحطم انتظامية أنساقها القديمة كما فعلت الموسيقى من قبلها، ويخرج الشعر من دوامة سيرياليته وغيبوبة رومانتيكيته ليناضل مع ثوار أمريكا اللاتينية، ويدفع بابلو نيرودا حياته فداء لذلك.

وتختلف طليعة الفنون التي تتصدى للمواجهة المجتمعية من زمن إلى آخر، فكان المسرح ـ في زمن الإغريق ـ هو برلمانهم السياسي. وكم من مرة، قاد الشعر فيها مجتمعه بالعاطفة والحكمة، قبل ظهور الفكر والفلسفة. وكانت السينما طليعة فرنسا الثقافية، في فترة الثلاثينيات (سينما سواد

الشعب في فرنسا).

تأخذ علاقة الفن بمجتمع المعلومات أبعادا عدة، تنفذ إلى أعماق أكثر غورا، سواء على جبهة الفن، أو جبهة المجتمع. وتتجلي هذه التغيرات أكثر ما تتجلي فيما يخص علاقة الفن بالمنظومة الاقتصادية.

(ب) **علاقة منظومة الإبداع بمنظومة الاقتصاد:** تأتي منتجات الإبداع الفني على قائمة منتجات صناعة الثقافة، خاصة فيما يتعلق بالموسيقى والسينما والتشكيل، ويضغط الاقتصاد ـ بشدة ـ على جميع عناصر منظومة الإبداع: إبداعا وإنتاجا وتوزيعا وتلقيا. فعولمة الثقافة تنمي الطلب على إبداع ذي طابع استهلاكي، غزير الإنتاج، وذلك عن طريق إعادة استخدام موادإبداعية تراثية أو سابقة، وتطرح شبكة الإنترنت نفسها، كبديل مفضل لتوزيع منتجات الإبداع، خاصة في مجال الموسيقى.

ونظرا إلى أن معظم فنون عصر المعلومات كثيفة التكنولوجيا، فقد صارت في حاجة إلى تمويل ضخم، حتى كاد الفن أن يصبح ـ هو الآخر ـ مؤسسيا، مثله في ذلك مثل العلم. في ضوء ذلك، على الفنان ان يواجه خياره المصيري، ما بين استقلاليته، وحاجته إلى تمويل خارجي لدعم إنتاجه الإبداعي، وإلا ظل تحت رحمة الهبات والحسنات، حتى اقترح البعض إنشاء وكالة لغوث الفنانين. لقد فقد الأغنياء التقليديون حماسهم في رعاية الفن والفنانين، وأصبحت رعاية الفن فرعا من فروع العلاقات العامة والتسويق للشركات الاقتصادية العملاقة، ولم تعد ثلاثية: المعرض ـ الجاليري ـ المتحف، فيما يخص الفن التشكيلي على سبيل المثال، هي الهيكل الاقتصادي الأساسي لتسويق منتجاته. إن النمط الاقتصادي ـ السياسي لصناعة السينما في هووليود ينتشر في كل اتجاه، من تعليب سلع الموسيقى وتوزيعها، إلى تصنيع أعمال الفولكلور اليدوية بأسلوب إنتاج الجملة.

(ج) **علاقة منظومة الإبداع بمنظومته السياسية:** برعت السياسة في استخدام سلاح الفن لتوجيه وعي جماهيرها، وفي فرض الالتزام على الفن كي يبقى في إطار الأيديولوجية السائدة. وسينما ألمانيا النازية وروسيا الستالينية مثالان واضحان على استغلال الفن سياسيا وأيديولوجيا. وموقف حراس الأيديولوجية الستالينية من المصورين التجريديين الروس معروف للجميع. في ظل العولمة، تتجاوز علاقة الإبداع الفني بالسياسة حدود

السياسات الداخلية. من أوضح الشواهد على ذلك، ما تقوم به الولايات المتحدة ـ حاليا ـ من استغلال ثقلها السياسي لحماية إنتاجها الفني عالميا، سواء من خلال منظمة التجارة العالمية، أو باستخدام وسائل ضغط أخرى، اقتصادية وسياسية.

(د) **علاقة منظومة الإبداع بمنظوماته في الثقافات الأخرى:** يمثل توجه المزج بين الفنون المحور الرئيسي لعلاقة منظومة الإبداع بمثيلاتها في الثقافات الأخرى. وتسري هذه العلاقة من خلال ثلاثة مسارات رئيسية هي:

- **المسار الأكاديمي:** ويشمل البحوث الخاصة بالفن المقارن، ووضع نظرية عامة للتراث الإنساني.

- **المسار الاقتصاي:** ويتناول ميزان المدفوعات الرمزي ـ إن جاز التعبير ـ بين الثقافات المختلفة، من يقترض ممن؟ وتتناول ـ كذلك ـ الأمور المتعلقة بالملكية الفكرية المشاعة الخاصة بالفنون الشعبية.

- **المسار الإبداعي:** ويشمل المحاولات الإبداعية لمزج الإنتاج الفني، والتراث الإبداعي ما بين الثقافات، وتطوير الأساليب التكنولوجية لدعم عمليات المزج الفني.

(هـ) **علاقة منظومة الإبداع بالفئات الاجتماعية:** تحتاج فنون عصر المعلومات إلى توطيد العلاقة بين منظومة الإبداع، والفئات الاجتماعية المختلفة، حتى يمكنها استيعاب النقلة النوعية في مجال الإبداع الفني، من أمثلة ذلك:

- **النقاد**: وهم في حاجة إلى اكتساب المعارف الجديدة، المرتبطة بالطابع الرمزي الذهني، وإلى إلمام كاف بالأبعاد التكنولوجية للفنون، خاصة تكنولوجيا الوسائط المتعددة، علاوة على استخدام الأساليب الكمية في تقويم الإنتاج الفني.

- الإعلاميون، وهم في حاجة إلى تأهيل خاص على الطرق الجديدة لعرض الإنتاج الفني، والقائمة على التفاعل ومشاركة جمهور المتلقين.

- التربويون: وهم في حاجة إلى توعيتهم بأهمية الفنون في التكامل المعرفي، وتربية الأخلاق، وانعكاس ذلك على مواد المناهج ومنهجيات تقديمها.

العلاقات الخارجية لمنظومة الإبداع (المنظور العربي)

(أ) **علاقة منظومة الإبداع بمنظومة الاقتصاد**: يواجه الإبداع الفني العربي موقفا غاية في الصعوبة على جبهة الاقتصاد. فمن حيث التمويل، لا يمثل الإنتاج الإبداعي مجالا جذابا للاستثمار العربي. أما على مستوى التوزيع، فمن المتوقع أن يواجه إنتاجنا الإبداعي صعوبات جمة في تسويقه عالميا نظرا لقيود الجات. وعما قريب سيشهرون في وجوهنا أسلحة قياسيات نظم الأيزو، وربما يضيفون إليها معاداة السامية والمقاطعة الإسرائيلية.

وقد أشرنا في الفصل السابع إلى أن إنتاجنا التليفزيوني والسينمائي قد بات مهددا بالانقراض بفعل حركة الاستيراد المتزايد للإنتاج الأجنبي. إن علينا أن نتصدى لظاهرة الإنتاج الإبداعي الضخم، وذلك بتنمية الإنتاج الفني غزير الإبداع لا كثيف التكنولوجيا. من ناحية أخرى، لا يجد مبدعنا الفني من يرعاه إلا من خلال هبات منح التفرغ التي لا تغني من جوع، خاصة وقد اقتص الإعلام التليفزيوني من دور الفن كسلاح في يد السلطة، مما جعلها أكثر عزوفا عن تقديم الدعم المالي إليه.

على صعيد آخر، تحتاج متاحفنا إلى تمويل خارجي لتحديثها تكنولوجيا وتنظيميا، وتحويلها إلى مراكز إشعاع ثقافي يعيد بناء التاريخ إلكترونيا، ويعرض مخلفات هذا التاريخ في سياقات معرفية أشمل وأعمق.

(ب) **عن علاقة منظومة الإبداع بالمنظومة السياسية**: تمارس الأيديولوجية الدينية ضغوطا شديدة على الإبداع العربي، بدرجة تحول بينه وبين قيامه بإحداث النقلة النوعية إلى فنون عصر المعلومات، ومازالت مساهمة مؤسساتنا الثقافية في سياسات التنمية محدودة للغاية. وينطوي ذلك على تناقض جوهري، مع كون الثقافة قد أصبحت هي محور عملية التنمية.

إن قيادتنا السياسية في حاجة إلى مزيد من التوعية بدور الإبداع في اقتصاد مجتمع المعلومات، حتى يتولد لديها الدافع إلى تقديم الدعم اللازم له.

(ج) **علاقة منظومة الإبداع بالفئات الاجتماعية**: مازالت فنون عصر المعلومات غائبة عن أذهان معظم فئاتنا الاجتماعية، حتى على مستوى

النخبة. والنقاد لدينا مازالوا أسرى الجماليات التقليدية، وغير مدركين لانعكاسات الإنترنت على عملية الإبداع الفني. أما التربويون، فقد ترسخت لديهم مفاهيم خاطئة عن أهمية الفن، وهو ما يحتاج منا إلى نوع من التربية العلاجية لتخليصهم من هذا الداء المعرفي الخبيث.

وعلى إعلاميينا أن يدركوا مسؤولياتهم في التصدي للهجمة الشرسة، التي تشنها الأيديولوجية الدينية على منظومة إبداعنا الفني، وتجديد أساليب دفاعهم عن الفن وفقا لما سبق لنا اقتراحه.

9 : 3 : 3 المبدع الفني (الطرح العام)

(أ) **دور جديد**: المبدع هو ضمير مجتمعه، ورمز إرادته، والشاهد على عصره، والمعبر عن ثقافته، والمتكلم باسم جماعته. وقد تغير دوره عبر العصور، من خادم للقصور إلى مناضل ثوري يطالب بسقوط عروشها، ومن ناقش الأحجار وعازف الألحان ومجمل الأسقف والجدران، إلى الباعث على الأفكار والحاث على التغيير وموقظ الهمم. لم تعد عملية الإبداع ـ كما يقول جارودي ـ مجرد انفعال أو أوهام، بل عملية واعية تهدف إلى خلق صورة جديدة للواقع (80: 288). إن مهمة المبدع الفني أن ينجز فنا يساهم في صنع المعرفة، ويفجر الطاقة الخلاقة لدى متلقيه، ويعاونه في إدراك حقائق واقعه، ويدعوه إلى المساهمة في العملية الإبداعية، ويستحثه على المشاركة في العمل الجماعي والنضالي. ويأتي عصر المعلومات، وعولمته، ليلقي أعباء إضافية على كاهل المبدع الفني، فقد أصبح ـ ضمن مسؤولياته ـ فضح أساليب السلطة في استخدام الأسلحة الرمزية، والكشف عن الأشكال الجديدة لاستغلال الإنسان معلوماتيا وإعلاميا. يضاف إلى ما ذكر ضرورة مساهمته في الدعوة إلى ثقافة السلام، والمشاركة في صياغتها، والاحتفاء بالتنوع الثقافي، والمحافظة على تراث ثقافته وتراث الإنسانية جمعاء، والمشاركة في التجارب الفنية لمزج التراث الإبداعي عبر الثقافات والحضارات.

ومع صعوبة التنبؤ في عصر المعلومات، وعجز البصيرة العلمية عن تصور المستقبل القريب، بل الوشيك أيضا، تبرز أهمية دور الإبداع الفني

في توقع هذا المستقبل. فمن خلال سبله المبتكرة للوصول إلى الحقائق مباشرة، يمكن للإبداع الفني ان ينفذ ببصيرته مخترقا غيوم الاحتمالات، مستخلصا الغايات من وسط شواش الظواهر، ومتاهة الرؤى المتضاربة.

(ب) **تحديات جسام:** تنتظر المبدع الفني تحديات جسام في ظل المتغير المعلوماتي، سواء فيما يتعلق بإنتاج العمل الإبداعي، أو علاقته بمتلقيه ومموليه. فعلى جبهة الإنتاج الإبداعي، على الفنان أن يسرع في تأهيل نفسه معرفيا ومعلوماتيا، تلبية لمطالب فنون عصر المعلومات ذات الطابع الذهني، وعلى إبداعه أن يبحث عن الجديد دوما، لكي يظل متقدما على هذه التكنولوجيا ذات القدرة الفائقة على إعادة إنتاج ما سبق إبداعه.

وفيما يخص دعوة متلقيه إلى المشاركة في العملية الإبداعية، على الفنان أن يتوارى ـ عمدا ـ إلى الخلف، جاعلا من عمله الإبداعي مصدر جذب لهذا المتلقي، يدعوه إلى أن يتفاعل معه، ويضيف إليه.

على صعيد آخر، ونظرا لسرعة إيقاع عصر المعلومات، لن تكون لدى المبدع رفاهية الوقت ليرجئ تجاوبه مع الأحداث الجارية انتظارا لنضجها ورسوخها. لقد بات لزاما عليه أن يضع هوائياته الحساسة على أهبة الاستعداد لالتقاط ما يجب التقاطه، قبل أن يضيع في خضم الحياة الهادرة في عصر المعلومات.

(ج) **المبدع الفني وتكنولوجيا المعلومات:** يمكن النظر إلى علاقة تكنولوجيا المعلومات بالمبدع الفني من عدة زوايا، نلخصها على الوجه التالي:

- تكنولوجيا المعلومات كأداة لزيادة إنتاجية المبدع: حيث توفر له العديد من الأدوات لإعداد عمله، ومعاونته في إخراجه واختباره. فعلى سبيل المثال، توفر المعلوماتية للمؤلف الموسيقي نظما آلية لتحرير النوتة الموسيقية، واكتشاف أخطائها، بل يمكن للكمبيوتر، من خلال مولدات الموسيقى الإلكترونية electronic music synthesizer، أن يصاحب المبدع الموسيقي، أولا بأول، أثناء وضعه لمؤلفه، يعزف معه ألحانه فور انتهائه من تحريرها، مما يكسب عملية الإبداع طابعا تفاعليا ديناميا.

- **تكنولوجيا المعلومات كبديل للمبدع الفني:** حيث تسعى نظم الذكاء الاصطناعي إلى محاكاة صميم عملية الإبداع ذاتها، فهناك ـ على سبيل المثال ـ محاولات لاستخلاص خصائص أسلوب الفنان التشكيلي من قلب

لوحاته، ثم برمجة هذا الأسلوب بحيث يمكن إنتاج أعمال تشكيلية أخرى تحاكي الأسلوب نفسه. تمثل عملية إنتاج هذا العمل الإبداعي ـ في نظر البعض ـ تهديدا مباشرا للفنان، في حين يرى البعض فيها فرصة لتخليد اسمه، إذ سمحت بمداومة إنتاج أعمال فنية بأسلوبه نفسه بعد مماته.

- **تكنولوجيا المعلومات كوسيط بين المبدع الفني وعلمه الإبداعي:** لكي نوضح المقصود بذلك، دعنا نورد هنا ما قاله فيكتور فازاريلي، عبقري التجريد الهندسي المجري، عن سر إبداعه، يقول فازاريلي: «أنا لا أرسم، لكني أضع معادلة اللوحة». تمثل مقولة فناننا المجري الغاية القصوى التي يصبو الفن الذهني إلى تحقيقها، ونعني بذلك أن ترقى عملية الإبداع الفني إلى مستوى الذهنية الخالصة، حيث ينفصل المبدع عن الصورة النهائية لعمله الإبداعي، لتصبح مهمته ـ في النهاية ـ منحصرة في توصيف برنامج الكمبيوتر الذي يولد اللوحة أو التمثال، أو القطعة الموسيقية.
- **تكنولوجيا المعلومات كوسيلة لنشر العمل الإبداعي:** وذلك من خلال الإنترنت أساسا، أو باستخدام أقراص السي ـ دي.

المبدع الفني (المنظور العربي)

يمارس مبدعنا الفني مهامه المضنية في مناخ خانق للإبداع، غير محتف به، حائرا ما بين تراث ثقافته وثقافة عصره، وما بين متطلبات إنتاجه، ومطالب حياته وأمنه. غير أن ذلك لا يعفيه من الوفاء بمهامه العاجلة التي يفرضها عليه المتغير المعلوماتي، والتي تشمل على سبيل المثال لا الحصر:

- اكتساب المهارات اللازمة لاستخدام تكنولوجيا المعلومات في مجال تخصصه.
- البحث عن إنتاج فني كثيف الإبداع، لا كثيف التكنولوجيا، نظرا لعدم توافر مصادر التمويل، أو الوسائل التكنولوجية، أو كليهما.
- تحديث عتاده المعرفي، تلبية لمطالب فنون المعلومات ذات الطابع الذهني.
- التصدي لمحاولات نهب موارد التراث الفني، سواء من الداخل أو من الخارج، فهي بمنزلة الرصيد الإستراتيجي لإبداعنا الفني.
- بلورة دور الإبداع الفني في مواجهة الغزو الثقافي المصاحب لظاهرة العولمة.

- استعادة جمهوره الذي سلبته منه أجهزة الإعلام الجماهيري.
- الشروع، من فوره، في التجارب الفنية لاستخدام تكنولوجيا الواقع الخائلي، وهي مازالت في مرحلة بدايتها.

9 : 3 : 4 العمل الإبداعي الفني (الطرح العام)

يتسم العمل الإبداعي لفنون عصر المعلومات بسمات أساسية عدة، يمكن تلخيصها على الوجه التالي:

- **الطابع الذهني**: يكشف لنا فن عصر المعلومات عما تحدث عنه فيثاغورث بشأن تناغم أنساق الأرقام، ويتوق هذا الفن حاليا إلى استكمال المسيرة التي بدأها فنانون عظام، من مثل سيزان وبيكاسو وإم سي ايشر في فن التشكيل، وباخ وهندل وتيليمان في فن الموسيقى. وقد قدم لنا ألبرتو إيكو تجربة رائعة لفن الأدب الذهني، عندما مزج أدبه الروائي بمعرفة علوم اللسانيات وعلم الدلالة. نحن في لهفة ننتظر فنا ينفذ إلى الجمال المستتر وراء المعادلات والمتتاليات والسلاسل الرمزية، يظهر لنا مغزى الجمال في التقاء الأفكار والمفاهيم، وحوار النظري مع العملي، ويجسد ما يعنيه الفرق بين محدودية البنى المعرفية ورحابتها. إن ذهنية الفن تختلف اختلافا جوهريا عن ذهنية العلم، فالفن الذهني لا يحث على الفهم، بل يهيء الذهن لتوقع المستقبل. ولا جدال في أن العالم الخائلي هو البيئة المثالية لممارسة الفنون الذهنية حيث يحرر المبدع مع جميع القيود.

- **الطابع التفاعلي الدينامي**: الذي يعطي المتلقي فرصة التحكم في العمل الإبداعي، كأن يغير من إيقاع الموسيقى، أو من باليتة الألوان المستخدمة في العمل التشكيلي، أو من نسب المنحوتات وأوضاعها. لم يعد هدف العمل الفني هو مجرد التذوق أو التأويل أو إثارة المشاعر الوجدانية، فالهدف منه حاليا هو المشاركة.

خلاصة: ان إبداع الفن التفاعلي يكمن في قدرته على التوليد والتغير الدينامي لا حثه على التأويل وإثارة الحس الوجداني.

- **الطابع المزجي**: الذي يمزج بين أنساق الفنون المختلفة، وكذلك بين التراث الفني عبر الثقافات والحضارات. لقد أصبحت قابلية المزج أحد الشروط الأساسية لفنون عصر المعلومات، وأي عمل فني يفتقد هذه

الخاصية الأساسية مآله إلى الاندثار. إن مبدع عصر المعلومات يقدم عمله الإبداعي على هيئة شظايا قابلة للاندماج مع شظايا فنية غيرها، ولم تعد مسؤوليته تقديم عمله في صورة فنية نهائية مكتملة، في صورة كتاب أو فيلم أو مقطوعة موسيقية كما كان عليه الأمر في الماضي. إن الفن المزجي هو أمضى الوسائل في إقامة الحوار بين ثقافات الشعوب، والتمهيد لثقافة السلام بالتالي.

- **الطابع الخائلي**: حيث سينحو العمل الفني صوب التخلص من المادية dematerialization، ليرسم الفنان التشكيلي في فراغ ثلاثي الأبعاد، ويؤلف المبدع بالموسيقي بلا آلات، وتعزف الموسيقى بلا عازفين وينحت النحات بلا مواد. من جانب آخر، قد نحتاج إلى سينما وثائقية جديدة لا تسجل الواقع المادي الفعلي، بل تسجل ما يجري في عوالم الفضاء الرمزي. وما يجري بها من أحداث، هي عرضة للضياع بسبب فورية الإعلام وتدفق المعلومات بصورة يصعب ملاحقتها.

- **سقوط الحواجز بين أجناس الفنون**: ستتلاشى تدريجيا الحواجز الفاصلة ما بين الفنون بفعل التوجه المعرفي الذي يعمل على زيادة تجريدها والتقارب فيما بينها بالتالي. فمن المتوقع أن يقترب الرسم الثلاثي الأبعاد من فن النحت، وأن تعمل موسيقية الشعر على تكثيف الحوار بين الشعر والموسيقى، وأن تضيق التفاعلية المسافة الفاصلة بين الأدب والمسرح، في الوقت نفسه الذي تقرب فيه أدائية المسرح بينه وبين فن الرقص. إن فنون عصر المعلومات تتميز بدرجة عالية من السيولة، يصعب الفصل فيها بين ما يجري في دنيا العالم الحقيقي، وما تزخر به عوالم الرمز الخائلية ،وواقعية العالم الخائلي وسيرياليته.

- **الطابع غير الخطي**: يطرح الفن جانبا سردية الرواية البلزاكية، ومسرحية الحبكة الأرسطية وخطية النغم، في سبيل إنتاج فن يقيم إبداعه من أبجديات شظايا النصوص والحوار والمشاهد، وتنافرات النغم، ويوفر للمتلقي مداخل عديدة لإعادة بناء هذا الموزاييك الرمزي في صور لانهائية غير محددة.

إن فن عصر المعلومات سينتج أعمالا فنية ليس لها بدايات أو نهايات محددة، وروايات تفاعلية متعددة المسارات، وأفلاما متعددة النهايات.

العمل الإبداعي الفني (المنظور العربي)

لا يعني كون فنون عصر المعلومات كثيفة التكنولوجيا عدم قدرة المبدع العربي على استحداث أعمال فنية، أقل استخداما للتكنولوجيا، لكنها لا تقل عنها روعة وإبداعا. فعندما لم تكن التكنولوجيا متاحة لأهل الشرق في اليابان والصين، أبدع فنانوهم فنا رمزيا راقيا، استلهمه بيكاسو نفسه من أجل انتشال فن التشكيل الغربي من انطباعيته والارتقاء به إلى مستوى الإدراك الذهني لا الحسي فقط وها هي موسيقى الراي الجزائرية وموسيقى الصلصا[*9] الكوبية، تشق طريقها إلى الموسيقى العالمية.

على صعيد آخر، فإن إكساب أدبنا العربي طابع العالمية كي يساهم في حوارنا الثقافي مع الغير، يتطلب ضرورة الاهتمام بالترجمة من العربية إلى اللغات الأجنبية، فكما قيل: عمل غير مترجم عمل غير مكتمل.

9 : 3 : 5 المتلقي (الطرح العام)

(أ) فن جديد يعني متلقيا جديدا: افترضت فنون ما قبل عصر المعلومات متلقيا سلبيا ينصت إلى الموسيقى، ويصغي الى الشعر، ويشاهد الأشكال، ويحوم حول كتل المنحوتات. لقد تعاملت فنون الماضي مع حواس المتلقي أساسا، فكان أن ركزت الانطباعية على خداع البصر، وركز علم الجمال على عمليات الإدراك البصري والسمعي، في حين ركزت السيريالية على المبدع فقط وأغفلت المتلقي، حيث انشغلت بنقل ما يدور في لاوعي المبدع إلى دنيا الظاهر. لقد حاول بعض المبدعين في الماضي مناوشة عقل المتلقي، وحثه على إمعان الذهن فيما يسمعه أو يشاهده. ولكن تظل هذه المبادرات على مستوى الحد الأدنى من التفاعل الذهني. تسعى فنون عصر المعلومات إلى مخاطبة عقل المتلقي بصورة سافرة، إن هذه الاستثارة العقلية هي نقطة البدء لرحلة طويلة من أجل تحويل المتلقي السلبي إلى متأمل عقلي ثم متفاعل إيجابي، فمبدع مشارك، عساه في النهاية أن يستقل بنفسه كمبدع مكتمل. لقد أصبح لكل فن نسخته التفاعلية، فهناك موسيقى تفاعلية، وسينما تفاعلية، ورواية تفاعلية ومسرح تفاعلي، وشعر تفاعلي، ورقص تفاعلي. إن فن عصر المعلومات يفتح ذراعيه للمتلقي كي يتفاعل معه، يدعوه كي يحرك المنحوتات، ويتحاور مع الشاعر، ويتحكم في إيقاع

الموسيقى، ويرقص مع الراقص، ويشارك الممثل أداءه، بل ويعيد تشكيل فراغات المعمار أيضا.

(ب) **المتلقي، وتكنولوجيا المعلومات**: لقد بات المتلقي، مثله مثل المبدع، في حاجة إلى دعم من تكنولوجيا المعلومات في جوانب عدة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

- تنمية ذائقته الفنية بتوفير الخلفية المعرفية اللازمة لتذوق الفنون بصورة أعمق.

- عرض الأعمال الإبداعية في سياقات أشمل، كأن نعرض أعمال بيكاسو التكعيبية التحليلية مقرونة بأعمال براك شريكه في هذه المدرسة الفنية، وأعمال سيزان الذي خرجت من ثنايا فنه هذه المدرسة، لتتطرق بعدها إلى التوجه التحليلي للعلم الذي كان من ورائها، وربما أيضا إلى أثر الفن التكعيبي على تصميمات الديكور والأزياء والتصميم الصناعي.

المتلقي (المنظور العربي)

لا يخفى على أحد ضمور التذوق الفني لدى المتلقي العربي، لقد تضافرت العوامل التربوية والاقتصادية، مع الإعلام وطابعه الدعائي الاستهلاكي، في محاصرة تذوقه في نطاق ضيق للغاية، استبعدت فيه معظم مجالات الفن الرفيع حتى على مستوى الطبقات القادرة. وكمعظم الأمور المتعلقة بتأهيل الإنسان العربي ثقافيا، تحتاج عملية تنمية تذوقه الفني إلى جهد مضاعف على مستويين: علاجي وتحديثي، نلخص فيما يلي أهم خصائص فن عصر المعلومات، مقرونة بعوائق تذوقه من منظور المتلقي العربي، وكذلك الفرص المتاحة للعلاج والتحديث.

- **الطابع الذهني**: وأهم عائق في سبيل تذوقه هو نقص الثقافة العلمية، وضعف المهارات الذهنية لدى المتلقى العربي، وغياب مفهوم التكامل المعرفي الذي يقوم عليه الفن الذهني لعصر المعلومات، خاصة وأن مبدعنا العربي مازال يفتقد الوسائل التي تساعده على نقل رسالته الفنية بصورة مؤثرة. ربما نحتاج، لمواجهة ذلك، إلى عمل نماذج للفن الذهني ذات طابع تعليمي باستخدام تكنولوجيا الوسائط المعقدة، وذلك بهدف تقديم المعرفة بصورة أكثر وضوحا ومباشرة، والأخذ بيد المتلقي حتى يستطيع استيعاب المستويات

الأعقد للفن الرمزي. يرتبط بذلك ـ أيضا ـ خلق نوعية جديدة من النقاد الفنيين القادرين على تنمية وعي جماهيرهم جماليا، ومعرفيا. على صعيد آخر، يمكن أن يؤدي الفن الذهني إلى اتساع الهوة بين فنون النخبة وفنون العامة، الأمر الذي يتطلب إنتاج أعمال فنية تلبي المستويات الذهنية المختلفة، فلكل فئة اجتماعية فنها الذهني. ويمكن استغلال تكنولوجيا المعلومات والإنترنت لمساعدة المتلقي العربي على بناء مكتبته الفنية الخاصة، والتي لابد وأن تشمل ـ بجانب الأعمال الفنية ذاتها ـ موارد المعلومات اللازمة لتذوقها.

- **الطابع التفاعلي:** وأهم عائق أمامه ـ بلا شك ـ هو،النزعة السلبية المترسخة وما أدت إليه من عزوف عن المشاركة. يحتاج ذلك من مبدعنا الفني إلى استحداث طرائق مبتكرة سهلة الاستخدام من أجل كسر رهبة التكنولوجيا لدى متلقيه، وتشجيعه على التفاعل مع العمل الإبداعي، كأن يتضمن العمل ـ مثلا ـ جانبا إرشاديا في صورة نماذج ايضاحية عن طر ق التفاعل مع العمل الفني، او جولة مخططة guided tour يقوم خلالها المتلقي لاستعراض الجوانب المختلفة للعمل الفني التفاعلي تحت توجيه العمل الفني، بدون تفاعل من جانب المتلقي أو بأقل قدر منه.

- **الطابع المزجي:** تبرز هنا مشكلة النطاق المحدود من الأجناس الفنية التي اعتاد المتلقي العربي التعامل معها، وهو ما يحد ـ بشدة ـ من نطاق المزج المتاح أمام المبدع العربي. ولكن يجب ألا يمنع ذلك من إبداع مزجي باستخدام المتاح من أنساق الرموز، كالمزج بين الشعر والزخرفة العربية ومقامات الموسيقى العربية، أو بين الأدب والمعمار الإسلامي والغناء العربي. إن أمام المبدع العربي فرصة نادرة لاستخدام الفن المزجي لـ«تسريب» أجناس فنية جديدة لم يعتدها المتلقي العربي من قبل.

والمزج الفني ـ كما أشرنا سابقا ـ لن يقتصر على المزج ما بين تراثنا وإنتاجنا الإبداعي فقط، بل سيتجاوز ذلك إلى فنون الثقافات والحضارات الأخرى. إن ذلك لابد أن يحدث دون أن يفقد المتلقي العربي اعتزازه بمكانة ثقافته وسط الثقافات الأخرى الممتزجة والمتنافسة.

9 : 3 : 6 تراث الإبداع: (الطرح العام)

أصبح تراث الفنون من أهم موارد الإبداع في تكنولوجيا المعلومات ذات

القدرة الفائقة على التجدد، وإعادة الإنتاج والتوظيف، وذلك بفضل تكنولوجيا الوسائط المتعددة. وتتفاوت أجناس الفنون من حيث قدرتها على استغلال الموارد التراثية، فبينما بنى المسرح مجده على إعادة توظيف التراث، نجد أن استغلال السينما للتراث سيظل محدودا في وقتنا الراهن، لكونها فنا حديثا، ولكن ذلك لم يمنع من ظهور بعض محاولات جادة لإخراج الأفلام القديمة في ثوب جديد.

لا يعني لجوء الفن إلى التراث أنه فن تقليدي مقلد، فالفن الطليعي يمكن أن يكون تراثيا، ولم تكن هذه المقولة صادقة قدر ما هي الآن بالنسبة لفنون عصر المعلومات، التي راحت تنقب في كل موضع عن مناهل إبداعية تخرج الفن من أزمته الحالية، وتتيح له استغلال الإمكانات الهائلة التي توفرها تكنولوجيا المعلومات، ولا يعني استخدام التراث التقليد أو النقل الميكانيكي أو كولاج القص واللزق، إن إعادة توظيف التراث إبداعيا لا تتم إلا بتقطير هذا التراث حتى نستخلص رحيقه المعرفي، ونكشف عن مواضع روعته ومصادر أصالته. إن الغاية القصوى هي الوصول إلى لغة تراثية عالمية على مستوى من التجريد يسمح بانصهار الفنون ووحدتها وتكامل معرفتها، عندئذ ـ فقط ـ يحق لنا الحديث عن حوار الثقافات على مستوى الإبداع الفني.

(أ) **المستوى الاول**: استخدام المبدع لتراث ثقافته في مجال تخصصه الفني، ومن أمثلة ذلك: لجوء نجيب محفوظ لتاريخه الفرعوني، ونيكوس كازانتزاكس لأساطير سلفه من أهل الإغريق، وماركيز التراث الشعبي لقرى أمريكا اللاتينية،

(ب) **المستوى الثاني**: استخدام المبدع للتراث العالمي في مجال تخصصه، ومثالنا على ذلك ما قام به جيمس جويس، في إعادة توظيف الأسطورة الإغريقية.

(ج) **المستوى الثالث**: استخدام المبدع الفني تراث الثقافات المختلفة في مجال تخصصه، ومثالنا هنا هو ما قام به بيكاسو الذي أعاد الصلة أولا بالفن الروماني المسيحي، والفن البيزنطي في أسبانيا، الذي أورثه إياه الجريكو بجدارياته. وتوغل بيكاسو في متحف السلالات البشرية فراح ينهل من تراث القبائل الأسترالية والإفريقية والقبائل الأمريكية قبل كولمبوس (80:91).

(د) **المستوى الرابع:** حيث يقوم المبدع الفني بتجاوز نطاق تخصصه الفني، وكذلك نطاق تراثه، ومثالنا هنا الشاعر سان جون بيرس، لقد أراد هذا الشاعر التشيكي العظيم أن تنبثق من كلمات شعره، على حد تعبير روجيه جارودي ـ حضارة مثالية جديدة نابعة من كل عهود التاريخ العظيمة، حضارة تعكس كل تاريخ الإنسان وكل مكتسباته ومآثرة وكل أبعاد العظمة الإنسانية. تحقيقا لهدفه، راح بيرس ينقب في كل المأثورات والأديان، وفي كل الطقوس والأساطير، وفي كل مؤسسات الإنسان وحضارته، وجمع بين أطراف هذه المسيرة البطولية في ملحمة واحدة عن آثارها، وعن معالم ماضيها التليد (82:80).

في النهاية، تجدر الإشارة إلى أن هذه المستويات الأربعة لم يقصد بها تصنيف تراتبي في درجة الإبداع الفني، فكل من هذه المستويات يفجر في المبـدع طاقـات غير محدودة لا يمكن إخضاعها لأي فرع من التصنيف أو التقنين.

تراث الإبداع (المنظور العربي)

تراثنا الإبداعي أهم مواردنا الرمزية في عصر المعلومات بلا منازع. ولزاما علينا أن نقوم بأرشفته، وتحليله، ورقمنته، وربطه بالسياق الثقافي والحضاري الأشمل، وذلك بالإضافة إلى ضرورة حمايته من الاندثار، ضد محاولات النهب والسرقة والتشويه، وما أكثر أساليبها الإلكترونية المتاحة حاليا.

(أ) **مبدعنا العربي والتراث:** من أبرز الأمثلة هنا، وأروعها، هو ما قامت به عبقرية المعمار العراقية زهاء حديد، وبناياتها التي تبدو عائمة في الهواء، حتى وصفوا معمارها بالبساط السحري. وهو وصف لا يروق لها، لكونه يركز على النواحي الشكلية، لقد نفذت زهاء حديد ببصيرتها المعمارية، وخلفيتها في دراسة الرياضيات، إلى المعاني المجردة للعمارة العربية والإسلامية، وربطت بين سخاء الطبع، والفطرة الإنسانية، وبين سخاء المكان ورحابته.

لقد استخلصت زهاء حديد من تراث العمارة الإسلامية أبجدية خاصة بها، يتحاور، من خلالها، فناء الدار المنفتح مع الهواء الطلق، والغرف المنغلقة مع المساحات المفتوحة، لقد أخرجت زهاء حديد العمارة الحديثة من رتابتها

وبرودة وظيفتها، لترد لها رونقها وجمالها وروحانياتها (141).

لقد امتزج تراث العمارة عبر الثقافات المختلفة في روائع زهاء حديد، بصورة يتعذر معها ـ على حد قولها ـ أن تحدد ما هو سومري ـ في أعمالها ـ أو ما هو بابلي، أو عربي، أو إسلامي، وما هو من عمارة الحداثة العالمية. وفي مجال الموسيقى، يعتبر أبو بكر خيرت ممثلا لتيار القومية الواعية، حيث استعان بالتراث الشعبي والألحان الشائعة. مثل تلك لسيد درويش ووضعها في قالب سيمفوني أوركسترالي.

(ب) **المبدع العالمي وتراث إبداعنا:** لقد تجاوز تراثنا الإبداعي حدود ديارنا، خاصة في مجالات العمارة والخط العربي والزخرفة العربية، فنرى ماتيس يستخدم موتيفات الخط العربي، وفازاريلي يستلهم الزخرفة العربية، في حين يحاكي معمار مدينة البندقية والمعمار الأسباني الحديث سمات العمارة الإسلامية. ولاشك في أن لجوء المبدع العالمي لتراث إبداعنا سيتزايد مع حركة العولمة ومحاولتهم التخلص من المركزية الأوروبية.

(ج) **عن إهمال تراثنا الإبداعي:** لم نأل جهدا في إهدار تراث إبداعنا، من تراث عمارة الفاطميين إلى مقامات الموسيقى وأرشيف السينما. ناهيك عما بددناه من تراث وثائقنا دينية وغير دينية. وليس لدينا متحف للمسرح أو التراث الفلكلوري.

تشهد على ذلك متاحف باريس وبرلين ولندن. لقد تضافرت فوضى أرشيف المحفوظات، والمياه الجوفية، والحرائق(*10) وإضرام النيران عمدا بهدف تغطية السرقات، لقد تضافرت كل هذه العوامل منفردة ومجتمعة، تهدد تراث إبداعنا بالاندثار.

وتجدر الإشارة هنا إلى ما قامت به مؤسسة الملك فيصل في إقامة أرشيف مزود بأحدث الوسائل الألكترونية لحفظ الوثائق وترميمها واسترجاعها، وإلى ما تقوم به دار الكتب المصرية حاليا من جهد لصيانة كنوز وثائقها. لقد أقامت بعض البلدان العربية أرشيفات للسينما. ولكن يظل أرشيف السينما العربية مهددا، خاصة وأن مادة السليولوز الخام لها عمر افتراضي، مما يستوجب ضرورة إعادة تسجيلها. وقد نمى لعلم الكاتب أن هناك مشروعا في مصر لأرشفة تراث السينما ألكترونيا ورقميا. ولا شك في أن التليفزيون ـ كما يقول سمير فريد ـ قد ساهم في إحياء تراثنا

السينمائي. وهو يؤكد على ضرورة أن يشمل أرشيف السينما بجانب الأفلام، الدراسات النقدية وسير النجوم والمخرجين، وتسجيلات المهرجانات السينمائية (131).

كلمة ختام

وفي النهاية ليكن سؤال البداية: من أين نبدأ؟

قناعة الكاتب: أن البداية في التربية .. والمدخل إليها هو اللغة، وركيزة كلتيهما هي الثقافة، ثقافة تكامل المعرفة وصدق الإيمان، وكلاهما رهن بتوافر الحرية.

القاهرة

2000/11/11

الحواشي

(*1) من مقالة بعنوان «الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق» بقلم أحمد الحسيني هاشم ــــ الأهرام ــ 1999/4/22.

(*2) الرنين الصوتي هو المقابل العربي لمصطلح sonorous image.

(*3) قام بهذه التجربة الموسيقي الروسي ألكسندر سكريايين.

(*4) كان من أسباب ظهور موسيقى تصويرية محلية هو ملاحقة الأداء للموسيقى العالمية بصورة، شبه بوليسية.

(*5) راجع الفقرة 4 : 2 : 2 من الفصل الرابع، والفقرة 8 : 3 : 3 من الفصل الثامن لمزيد من التفصيل.

(*6) الجدير ذكره أن مصطلح «الكورال» أخذ من رواية جيمس جويس «يقظة فينجن».

(*7) انظر: المعجم الشامل للموسيقى العالمية، الجزء الثاني، إعداد حسام الدين زكريا ـ الهيئة العامة للكتاب، القاهرة (تحت الطبع).

(*8) روايته بعنوان: Things fall apart.

(*9) موسيقى راقصة شاعت في بلدان أمريكا اللاتينية، تعزفها فرقة موسيقية ضخمة، وهو ما أدى إلى تسميتها بكلمة «الصلصا» الإسبانية ذات الأصل العربي.

(*10) حريق دار الأوبرا المصرية، وكذلك حريق أرشيف السينما، والمسافر خانه.

المصادر

المصادر العربية

1 - إبراهيم، حيدر: إشكالية الحركة الأصولية في الوطن العربي في «العولمة»، ص 307 ـ 334، مركز البحوث العربية ـ القاهرة 1999.

2 - إبراهيم، محمد علي: وعود الحداثة وإخفاقات ما بعدها، دراسة حالة لعلم اجتماع الأدب في «قضايا فكرية»، قضايا فكرية للنشر والتوزيع ـ القاهرة ـــ أكتوبر 1999.

3 - أبو المجد، أحمد كمال: حول ندوة الحوار القومي ـ الديني في «الحوار القومي ـ الديني»، ص 48 ـ 54، مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت 1989.

4 - أبو زيد، نصر حامد: نقد الخطاب الديني، مكتبة مدبولي ـ القاهرة 1995.

5 - أبو سنة، زينب: تأثر شعراء الترك باللغة العربية في «الأدب العربي والعالمية»، ص 53، المجلس الأعلى للثقافة ـ القاهرة 1999.

6 - أحمد، أحمد عطية: مناهج البحث في التربية وعلم النفس، الدار المصرية اللبنانية ـ القاهرة 1999.

7 - أحمد، عاطف: نقد العقل العربي: قراءة في التكوين والبنية، في «قضايا فكرية»، ص 63 ـ 88، قضايا فكرية للنشر والتوزيع، القاهرة ـ يوليو 1995.

8 - أردلان، نادر: عمارة الواجهة المائية في الخليج في «عالم الفكر»، ص 59 ـ 74، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت 1998.

9 - أركون، محمد: ترجمة وتعليق: هاشم صالح: أين هو الفكر الإسلامي المعاصر؟، دار الساقي ـ بيروت 1993.

10 - أركون، محمد: ترجمة وتعليق: هاشم صالح: تاريخية الفكر العربي الإسلامي، المركز الثقافي العربي ـ بيروت 1998.

11 - إڤيتش، ميلكا: ترجمة: سعد عبدالعزيز مصلوح ـ وفاء كامل فايد: اتجاهات البحث اللساني، المجلس الأعلى للثقافة ـ القاهرة 2000.

12 - الأخضر، العفيف: ضرورة تدمير عوائق الفكر التقليدي السحري المعرفية في «قضايا فكرية»، ص 29، قضايا فكرية للنشر والتوزيع، القاهرة يوليو 1995.

13 - الأسود، شعبان الطاهر: علم الاجتماع السياسي، الدار المصرية اللبنانية ـ القاهرة 1999.

14 - البحراوي، سيد: التبعية الذهنية في النقد العربي الحديث في مصر في مجلة «قضايا فكرية»، قضايا فكرية، للنشر والتوزيع ـ القاهرة يوليو ـ 1995.

15 - البشري، طارق: حول العروبة والإسلام في «الحوار القومي ـ الديني»، ص 31 ـ 41، مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت 1989.

16 - البنا. جمال: الإسلام دين العالمية لا العولمة في «الإسلام والعولمة»، ص 139 ـ 152، الدار القومية العربية ـ القاهرة 1999.

17 - البهنسي، عفيف: ما بعد الحداثة والتراث في العمارة العربية الإسلامية في «عالم الفكر»، ص 75 ـ 108، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت 1998.
18 - البوطي، محمد سعيد رمضان ـ تيزيني، طيب: الإسلام والعصر تحديات وآفاق، دار الفكر ـ دمشق 1998.
19 - الترابي، حسن وآخرون: الإسلام، الديموقراطية، الدولة، الغرب، دار الجديد ـ بيروت 1995.
20 - التويجري، عبدالعزيز بن عثمان: آفاق مستقبل الحوار بين المسلمين والغرب، إسيسكو ـ سلا المملكة المغربية 1997.
21 - التويجري، عبدالعزيز بن عثمان: الحوار والتفاعل الحضاري من منظور إسلامي، إسيسكو ـ سلا ـ المملكة المغربية 1997.
22 - الجابري، محمد عابد: بنية العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت 1987.
23 - الجابري، محمد عابد: عشر أطروحات، في «العرب والعولمة»، ص 297 ـ 308، مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت 1998.
24 - الجابري، محمد عابد: حول الحوار القومي ـ الديني في «الحوار القومي ـ الديني»، ص 69 ـ 74، مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت 1989.
25 - الجادرجي، رفعت: إشكالية العمارة والتنظير البنيوي في «عالم الفكر»، ص 9ـ 28، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت 1998.
25* - الجليند، محمد السيد: «معالم النهوض في القرن القادم» في «الإسلام والعولمة»، الدار القومية العربية ـ القاهرة 1999.
26 - الجمال، راسم محمد: الاتصال والإعلام في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت 1991.
27 - الحسن، يوسف: الحوار الإسلامي المسيحي، منشورات المجمع الثقافي ـ أبو ظبي 1997.
28 - الحمد، تركي: الثقافة العربية في عصر العولمة، دار الساقي ـ بيروت 1999.
29 - الخفاجي، عصام: ملاحظات حول العولمة الدولة والقومية في «العولمة»، ص 377 ـ 380، مركز البحوث العربية ـ القاهرة 1999.
30 - الخميسي، فتحي: سقوط المفردات الموسيقية العربية (المقامات) في «عالم الفكر» ص 177ـ 200، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت 1998.
31 - الخولي، أسامة: الثقافة العلمية في الوطن العربي: هل من جديد؟ في «مستقبل الثقافة العربية» ص 141 ـ 166، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ تونس 1998.
32 - الدجاني، أحمد صدقي: عن العروبة والإسلام وقضايا المستقبل في «الحوار القومي ـ الديني»، ص 55 ـ 68، مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت 1989.
32* - الخولي، يُمنى طريف: القطيعة المعرفية والفكر العربي المعاصر في «قضايا فكرية»، ص 239، قضايا فكرية للنشر والتوزيع ـ القاهرة، يوليو ـ 1995.
33 - عبدالدائم، عبدالله: نحو فلسفة تربوية عربية، مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت 1991.
34 - الراضي، سمير بن جميل: الإعلام الإسلامي: أسسه وطبيعته في «وسائل الاتصال الحديثة»، 21 ـ 34، إسيسكو ـ سلا ـ المملكة المغربية 1996.
35 - الرشيد، يوسف عبدالقادر: الموسيقى العربية ومتطلبات العصر في «عالم الفكر»، 201 ـ 283، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت 1998.

36 - الزبيدي، عبداللطيف: فرائد أبي الزبائد درة الأدب الساخر في عصر المساخر ـ دبي 1993 .
37 - السباخي، عمر: آفة التخصص، ـ جريدة الأهرام 2000.
38 - السكري، عادل: نظرية المعرفة من سماء الفلسفة إلى أرض المدرسة، الدار المصرية اللبنانية ـ القاهرة 1999.
39 - الشبيني، محمد: أصول التربية، دار الفكر العربي ـ القاهرة 2000.
40 - الشريف، نور: السينما ضحية مبكرة للعولمة في «العولمة»، ص 68ـ 79، دار جهاد للطباعة والنشر والتوزيع ـ القاهرة 1999.
41 - العالم، محمود أمين: العولمة... وخيارات المستقبل في «قضايا فكرية»، ص 9 ـ 34، قضايا فكرية للنشر والتوزيع ـ القاهرة، أكتوبر ـــ 1999.
42 - العالم، محمود أمين: دفاع عن الخصوصية اللغوية في «قضايا فكرية»، ص 9 ـ 12، قضايا فكرية للنشر والتوزيع ـ القاهرة، مايو ـــ 1997.
43 - العسكري، سليمان: نحن والعام 2000 في العربي «وزارة الإعلام ـ الكويت 2000.
44 - العفيف، الباقر: حقوق الإنسان في فكر الإسلاميين، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان ـ القاهرة 2000.
45 - الفقي، مصطفى: تجديد الفكر القومي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة 1999.
46 - القراي، عمر: حقوق المرأة بين المواثيق الدولية وفكر الحركات الإسلامية في «حقوق المرأة بين المواثيق الدولية»، ص 7، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان ـ القاهرة 1999.
47 - الكردي، محمد علي: الأدب العربي بين العالمية والعولمة في «الأدب العربي والعالمية»، ص 74، المجلس الأعلى للثقافة ـ القاهرة 1999.
48 - المسدي، عبدالسلام: العولمة والعولمة المضادة، كتاب سطور ـ القاهرة 1998.
49 - المسيري، عبدالوهاب: العولمة والشرق أوسطية في «الإسلام والعولمة»، ص 83 ـ 90، الدار القومية العربية ـ القاهرة 1999.
50 - المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة: الإستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي، إسيسكو ـ المغرب 1997.
51 - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم : الإعلام العربي حاضرا ومستقبلا، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ تونس 1987.
52 - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم : الثقافة العربية وثقافات العالم: حوار الأنداد، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ تونس 1999.
3 - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم : الثورة التكنولوجية ووسائل الاتصال العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ تونس 1991.
54 - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم : الخطة الشاملة للثقافة العربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ تونس 1996.
55 - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم : المحور الأول للسياسات الثقافية والاتصالية في الوطن العربي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ تونس 1999.
56 - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم : حقوق المؤلف في الوطن العربي، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ تونس 1999.

57 - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: دراسة مشروع إنشاء قناة فضائية ثقافية عربية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ تونس 1998.
58 - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم : وسائل الاتصال الحديثة وأثرها المجتمعات الإسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ تونس 1996.
59 - الميلاد، زكي ـ الربيعو، تركي علي: الإسلام والغرب الحاضر والمستقبل، دار الفكر ـ بيروت 1998.
60 - النجعي، علي محمد : تنمية مؤسسات الإعلام الإسلامية في «وسائل الاتصال الحديثة»، ص 253 ـ 268، إسيسكو ـ سلا، المملكة المغربية 1996.
61 - النحاس، هاشم: نجيب محفوظ على الشاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة 1990.
62 - النفيسي، عبدالله فهد : التراث وتحديات العصر، شركة الربيعان للنشر والتوزيع ـ الكويت 1986.
63 - النقيب، خلدون حسن: العولمة تلصيقات على مجتمع مهشم، القاهرة 1998.
64 - الهيئة القبطية الإنجيلية للخدمات الاجتماعية: حق الاختلاف، دار الثقافة ـ القاهرة 1999.
65 - اليونسكو: التعليم ذلك الكنز المكنون، مركز مطبوعات اليونسكو بالقاهرة ـ القاهرة 1999.
66 - إمام، السيد: تحليلات جاكبسون الشعرية في «إضاءة»، ص 128 ـ 144، دار سما للنشر ـ القاهرة 2000.
67 - أمدي ـ هابت، مايكل: دور الإعلام في العالم الثالث في «نظام الإعلام المقارن»، ص 141 ـ 160، الدار الدولية للنشر والتوزيع ـ القاهرة 1991.
68 - أمين، سمير: مناخ العصر، سينا للنشر ـ مؤسسة الانتشار العربي ـ القاهرة 1999.
69 - اندرو، دادلي: ترجمة: جرجس فؤاد الرشيدي: مراجعة: هاشم النحاس: نظريات الفيلم الكبرى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة 1987.
70 - بدران، شبل: التربية والأيديولوجية، ج. ج. تانسيفت ـ الدار البيضاء 1991.
71 - بغورة، الزواوي: الحاضر بديل للحداثة وما بعد الحداثة في «قضايا فكرية»، قضايا فكرية للنشر والتوزيع، القاهرة ـــ أكتوبر 1999.
71* - برتنوي، جوليوس: ترجمة فؤاد زكريا، مراجعة حسين فوزي: الفيلسوف والموسيقى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة 1974.
72 - بكري، جمال: عمارة ما بعد الحداثة في «قضايا فكرية»، ص 351 , 354، قضايا فكرية للنشر والتوزيع، القاهرة - أكتوبر 1999.
73 - بندق، مهدي: المسرح وتحولات العقل العربي، المجلس الأعلى للثقافة ـ القاهرة 1998.
74 - بوبر، كارل: ترجمة: أحمد مستجير: بحثا عن عالم أفضل، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة 1999.
75 - بورجا، فرانسوا: ترجمة: د. لورين زكرى: الإسلام السياسي، دار العالم الثالث ـ القاهرة 1992.
76 - تايلور، فيليب: ترجمة: سامي خشبة: قصف العقول، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، «سلسلة عالم المعرفة»، العدد 256 ـ الكويت 2000.
77 - الجمعية المصرية لنشر المعرفة والثقافة العالمية: نظم الإعلام المقارنة، الدار الدولية للنشر والتوزيع ـ القاهرة 1991.

78 - تركستاني، أحمد بن سيف الدين: السياسات الوطنية للاتصال في البلدان الإسلامية: التخطيط والتنفيذ في «وسائل الاتصال الحديثة»، 231 ـ 250، إسيسكو ـ سلا ـ المملكة المغربية 1996.
79 - توفيق، مجدي: اللغة والصورة في «إضاءة»، ص 32 ـ 55، دار سما للنشر ـ القاهرة 2000.
80 - جارودي، روجيه: واقعية بلا ضفاف، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة 1998.
81 - جراي، جون: ترجمة أحمد فؤاد بلبع: الفجر الكاذب، المجلس الأعلى للثقافة ـ القاهرة 2000.
82 - جلال، شوقي: الترجمة في العالم العربي والواقع والتحدي، المجلس الأعلى للثقافة ـ القاهرة 1999.
83 - حافظ، صبري: الأدب والأزهر في «الإبداع من نوافذ جهنم».
84 - حافظ،صبري: الثقافة العربية المعاصرة في الغرب: تحولات الصورة وتناقضاتها في «الأدب العربي والعالمية»، ص 17 ـ 19، المجلس الأعلى للثقافة ـ القاهرة 1999.
85 - حماد، محمود: طبيعة الإعلام الإسلامي بين المكونات الذاتية والوافدة والواقع في «وسائل الاتصال الحديثة»، 35 ـ 60، إسيسكو ـ سلا ـ المملكة المغربية 1996.
86* - حنفي، حسن: الفكر العربي المعاصر، الجذور والثمار في «قضايا فكرية»، ص 210 ــ 208، قضايا فكرية للنشر والتوزيع ـ القاهرة يوليو ـــ 1995.
86** - حنا، نيللي: اللغة العامية وأنماط التحديث، في قضايا فكرية، ص 117 ـ 120، قضايا فكرية للنشر والتوزيع، القاهرة ـــ أكتوبر 1999.
87 - خشبة، سامي: مصطلحات فكرية، المكتبة الأكاديمية ـ القاهرة 1994.
8 - ـ لمعي، إكرام: الخطاب الديني في مصرفي «الدين وحقوق الإنسان: مقارنة تاريخية واجتماعية»، ص 59 ـ 70، دار الثقافة ـ القاهرة 1999.
89 - داود، عبد الغني: حسن فتحي وفن العمارة من أجل الإنسانية في «عالم الفكر»، ص 29 ـ 58، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت 1998.
90 - درويش، أحمد: تحديات العولمة وحتمية التحديث في وسائل الإرسال والتلقي الأدبي في «الأدب العربي والعالمية»، ص 56، المجلس الأعلى للثقافة ـ القاهرة 1999.
91 - دسوقي، السيد: العولمة وقضايا التقنية في «الإسلام والعولمة»، ص 61 ـ 69، الدار القومية العربية ـ القاهرة 2000.
92 - رامبال، كلديب.: في العالم الثالث في «نظام الإعلام المقارن»، ص 209 ـ 234، الدار الدولية للنشر والتوزيع ـ القاهرة 1991.
92* - رضا، محمد جواد: العرب والتربية والحضارة، مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت 1987.
93 - زحلان، انطوان: العولمة والتطور التقاني في «العرب والعولمة»، ص 77 - 201 ، مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت 1998.
93* - زكريا، حسام الدين: التذوق الموسيقي، منشورات جماعة الكتاب والفنانين (الأتيليه) ـ الإسكندرية 1996.
94 - زيدان، يوسف: الترجمة في التراث العربي في «الترجمة في الوطن العربي»، ص 37 ــ 68، مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت 2000.
95 - ستيس، ولتر: ترجمة: إمام عبدالفتاح إمام: الدين والعقل الحديث، مكتبة مدبولي ـ القاهرة

. 1998

96 - سعدييف، أرثور ـ سلوم، توفيق: الفلسفة العربية الإسلامية، دار الفارابي ـ بيروت 2000.

97 - شاهين، بهاء: شبكة الإنترنت، العربية لعلوم الحاسب ـ القاهرة 1996.

98 - شعبان، سعد: استخدامات مبهرة للأقمار الصناعية في «الإعلام العلمي والثقافة العلمية»، ص 00 ـ 68، المجلس الأعلى للثقافة ـ القاهرة 1994.

99 - شمو، علي محمد: الاتصال الدولي والتكنولوجيا الحديثة، دار القومية العربية للثقافة والنشر ـ القاهرة 1998.

100 - شوقي، أحمد: مغزى القرن العشرين، المكتبة الأكاديمية ـ القاهرة 1999.

101 - شيفر، جان ماري: ترجمة: فاطمة الجيوشي: الفن في العصر الحديث، منشورات وزارة الثقافة ـ دمشق 1996.

102 - شيللر، هربرت أ. ترجمة: عبدالسلام رضوان: المتلاعبون بالعقول، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، «سلسلة عالم المعرفة» العدد 243 ـ الكويت 1999.

103 - طاش، عبدالقادر: مسؤولية الصحافة الإسلامية في ترشيد مسيرة الصحوة في «وسائل الاتصال الحديثة»، ص 73 ـ 84، إسيسكو ـ سلا ـ المملكة المغربية 1996.

104 - عبد الحافظ، مجدي: البيولوجيا واللغة ـ مقارنة فلسفية في «قضايا فكرية»، ص 33 ـ 48، قضايا فكرية للنشر والتوزيع، القاهرة - مايو 1997.

104* - عبدالرحمن، أحمد: العولمة وجهة نظر إسلامية في «الإسلام والعولمة»، الدار القومية العربية ـ القاهرة 1999.

105 - عبدالرحمن، عبدالهادي: سلطة النص، سينا للنشر ـ مؤسسة الانتشار العربي ـ لندن ـ بيروت ـ القاهرة 1998.

106 - عبدالرحمن، عواطف: الإعلام العربي وقضايا العولمة، العربي للنشر والتوزيع ـ القاهرة 1999.

107 - عبد الغني، مصطفى: الجات والتبعية الثقافية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة 1999.

108 - عبد الفضيل، محمود: جائزة نوبل في الاقتصاد بين «الفقر والجوع» و «المضاربات المالية» في «الجديد في الاقتصاد» دار الهلال ـ القاهرة 1999.

109 - عبد الفضيل، محمود: مصر ورياح العولمة، دار الهلال ـ القاهرة 1999.

110 - عبدالله، إسماعيل صبري: العرب والكوكبة، في «العرب والعولمة»، ص 361 ـ 386، مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت 1998.

111 - عبده ، مصطفى: الإسلام يحرر الفن، مكتبة مدبولي ـ القاهرة 1999.

112 - عبده، مصطفى: المدخل إلى فلسفة الجمال، مكتبة مدبولي ـ القاهرة 1999.

113 - عبده، مصطفى: فلسفة الأخلاق، مكتبة مدبولي ـ القاهرة 1999.

114 - عبده، مصطفى: فلسفة الجمال ودور العقل في الإبداع الفني، مكتبة مدبولي ـ القاهرة 1999.

115 - عزمي، يحيى: أضواء على السينما التجريبية، صندوق التنمية الثقافية ـ القاهرة 1993.

116 - عصفور، جابر: التنوع البشري الخلاق، المجلس الأعلى للثقافة ـ القاهرة 1997.

117 - عصفور، جابر: نظريات معاصرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة 1998.

118 - علي، جعفر عبدالسلام: قواعد وضوابط الشريعة الإسلامية في النشاط الإعلامي في «وسائل الاتصال الحديثة»، ص 183 ـ 176، إسيسكو ـ سلا -المملكة المغربية 1996.
119 - علي، نبيل: العرب وعصر المعلومات، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، «سلسلة عالم المعرفة»، العدد 184ـ الكويت 1994.
119* - علي، نبيل: اللغة العربية والحاسوب، دار غريب للنشر ـ القاهرة 1988.
120 - علي، نبيل: صورة الثقافة العربية والحضارة العربية والإسلامية على الإنترنت، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ـ الشارقة 1998.
121 - عمار، حامد: الجامعة بين الرسالة والمؤسسة، مكتبة الدار العربية للكتاب ـ القاهرة 1996.
122 - مدبولي، محمد عبدالخالق: الشرعية والعقلانية في التربية، الدار المصرية اللبنانية ـ القاهرة 1999.
123 - عيد، رجاء: لقاء الحضارات في الرواية العربية في «النقد الأدبي»، ص 56 ـ 77، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة 1998.
124 - غزولي، فريال: ما بعد الكولونيالية وما وراء المسميات في «قضايا فكرية»، ص 383 ـ 398، قضايا فكرية للنشر والتوزيع، القاهرة - أكتوبر 1999.
125 - غليون، برهان: اغتيال العقل، مكتبة مدبولي ـ القاهرة 1990.
126 - غليون، برهان: نحو تجديد إشكاليات الفكر العربي المعاصر: من نقد التراث إلى نقد الحداثة في «قضايا فكرية»، ص 121 ـ 136، قضايا فكرية للنشر والتوزيع، القاهرة - أكتوبر 1999.
127 - غليون، برهان ـ أمين، سمير: ثقافة العولمة وعولمة الثقافة، دار الفكر ـ دمشق 1999.
128 - فتحي، إبراهيم: خصوصية الرواية العربية في «النقد الأدبي»، ص 23 ـ 26، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة 1998.
129 - فرج، نبيل: مصادرة الإبداع في «الإبداع من نوافذ جهنم»، ص 257 ـ 282، رياض الريس للكتب والنشر ـ لندن ـ بيروت 1995.
130 - فرجاني، نادر: العرب في مواجهة إسرائيل: القدرات البشرية والتقنية، مقالة تحت النشر.
131 - فريد، سمير: مشاكل البحث في تاريخ السينما العربية في «السينما التسجيلية في مصر إلى أين»، المجلس الأعلى للثقافة ـ القاهرة 19ـ 22ـ 2000.
132 - فضل، صلاح: بلاغة الخطاب وعلم النص، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، «سلسلة عالم المعرفة» العدد 164ـ الكويت ـ أغسطس 1992.
133 - قرقر، مجدي: الآثار الضارة للعولمة في «الإسلام والعولمة»، «سلسلة عالم المعرفة»، ص 70 ـ 74، الدار القومية العربية ـ القاهرة 1999.
134 - كويلش، فرانك: ترجمة: حسام الدين زكريا: مراجعة: عبدالسلام رضوان، ثورة الإنفوميديا، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، «سلسلة عالم المعرفة» العدد 253، الكويت ـ يناير 2000.
135 - لبيب، سعد: وسائل الاتصال الحديثة وتأثيرها على المجتمع في «وسائل الاتصال الحديثة»، ص 141 ـ 154، إسيسكو ـ سلا ـ المملكة المغربية 1996.
136 - ليونتن، د. س. ترجمة: مصطفى إبراهيم فهمي: البيولوجيا كأيديولوجية (عقيدة DNA)، المكتبة الأكاديمية ـ القاهرة 1997.

136* - مبروك، محمد إبراهيم: الصراع الأيديولوجي الكامن وراء العولمة، في «الإسلام والعولمة»، الدار القومية العربية ـ القاهرة 1999.

137 - مجموعة من الكتاب: ترجمة: علي سيد الصاوي: مراجعة وتقديم: الفاروق زكي يونس: نظرية الثقافة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، «سلسلة عالم المعرفة» العدد 223 ـ الكويت 1997.

138 - مارتين، هانس بيتر ـ شومان، هارالد: ترجمة: عدنان عباس علي: مراجعة وتقديم: رمزي زكي: فخ العولمة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب «سلسلة عالم المعرفة»، العدد 238 ـ الكويت 1998.

139 - محجوب، ياسر عثمان محرم: العمارة الإسلامية في عصر المعلومات، في «ندوة العمارة الإسلامية»، ص 103 ـ الإمارات 1994.

140 - محسن، نجاح: مدخل إلى الفلسفة، الفتح للإعلام العربي ـ القاهرة 1998.

141 - محمد، عارف - زهاء حديد: ظاهرة عربية في العمارة العالمية في «عالم الفكر»، 1999.

142 - حمد، أحمد حسن: الإعلام من المنطلق الغربي إلى التأصيل الإسلامي في «وسائل الاتصال الحديثة»، ص 61 ـ 72، إسيسكو ـ سلا ـ المملكة المغربية 1996.

143 - مرسي، محمد منير: تاريخ التربية في الشرق والغرب، عالم الكتب ـ القاهرة 1993.

144 - موسى، عبدالله: هاجس الحداثة في الفكر العربي المعاصر في «قضايا فكرية 63 ـ 67»، قضايا فكرية للنشر والتوزيع، القاهرة - أكتوبر 1999.

145 - مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية: التقرير الإستراتيجي العربي، مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية ـ القاهرة 2000.

146 - مستجير، أحمد: مشاكل الترجمة العلمية: في «الإعلام العلمي والثقافة العلمية ». ص 27 ـ 30، المجلس الأعلى للثقافة ـ القاهرة 1994.

147 - مغيزل، جوزف: حول الحوار القومي ـ الديني في «الحوار الأدبي ـ الديني»، ص 81 ـ 105، مركز دراسات الوحدة العربية ـ بيروت 1989.

148 - مناع، هيثم: ملاحظات مقتضبة في «حقوق الإنسان في فكر الإسلاميين»، ص 103 ـ 106، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان ـ القاهرة 2000.

149 - منصور، أشرف حسن: نقد هابرماس لتيار ما بعد الحداثة في «قضايا فكرية»، ص 455 ـ 468، قضايا فكرية للنشر والتوزيع، القاهرة - أكتوبر 1999.

150 - نام، سانوو: وسائل الإعلام الترفيهية في العالم الثالث في «نظام الإعلام المقارن»، ص 295 ـ 318، الدار الدولية للنشر والتوزيع ـ القاهرة 1991.

151 - نجيب، عز الدين: الثوابت والمتغيرات في حركة الفن المصري المعاصر في مجلة «قضايا فكرية»، قضايا فكرية للنشر والتوزيع ، القاهرة ـ يوليو 1995.

152 - نشرة إعلامية: إسرائيل الآن، مركز الإعلام الإسرائيلي ـ القدس 1995.

153 - هاليداي، فريد: ترجمة: أحمد مستجير: الإسلام وخرافة المواجهة، مكتبة مدبولي ـ القاهرة 1997

154 - هوبزباوم، ايريك ترجمة: هشام الدجاني: عصر النهايات القصوى وجيز القرن العشرين ـ الجزء الأول، وزارة الثقافة ـ دمشق 1997.

155 - هوبكنز، نيكولاس: الاعتبارات البيئية وبدائل النظم الاجتماعية في مصر في «العولمة»، ص

291 ـ 306، مركز البحوث العربية ـ القاهرة 1999.
156* - هويدي، فهمي: الإسلام والديموقراطية، مركز الأهرام للترجمة والنشر ـ القاهرة 1993.
156** - هويدي، فهمي: انكسار أمة لا أزمة لغة ـ جريدة الأهرام بتاريخ 1999/8/3.
157 - يسين، السيد: العولمة والطريق الثالث، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة 1999.

المصادر الأجنبية

200. Adrain, Robert, Media culture, in http://www.t0.or.at/~redrain/TEXTS/memesis-e.html, The World Wide Web.

201. Agre, Phil. NSF-information, Technology, Culture and Social Institutions in http://www.tao.ca/wind/rre/02.html, The World Wide Web.

202. Apple, Michael, 1997, The new technology: is it part of the solution or part of the problem in education?, in Hawisher Gail E., and Selfe, Cynthia L., eds., Literacy Technology And Society, pp. 160-178, Prentice Hall, Inc., The United States of America.

202*. Arias. Mortimer, 1993, Mutuality in Global Education, in Evans, Alice Frazer and Evans, Robert A. and Roozen, David A, eds. The Globalization of Thechnological Education, pp 338-365, Orbis Books, New York.

203. Arizpe, Lourdes, 1996, The power of culture in UNESCO, The power of culture - conference report, pp 19-28, Netherlands Development Assistance, Amsterdam B.V.

204. Azuma, Hiroshi, 1998, Japanese Collectivism and Education, in Paris, Scott G. and Wellman, Henry M., eds., Global Prospects for Education, pp 261-308. American Psychological Association, Washington. D.C.

205. Baca, Santiago Jimmy. 1996, Coming into language, in Dock, Julie Bates, ed., The Press Of Ideas-Reading for Writers on Print Culture and the Information Age, Bedford Books, The United States of America.

206. Baghdady, Maroun, Documentary Movie Making in Lebanon: Daring, Ambitious, and A plenty of prizes, in http://www.mit.edu.8001/activities/lebanon/leb_movie.html, The World Wide Web,

207. Barlow, John Perry, 1996, Selling wine without bottles: the economy of mind on the Global net, in Leeson, Lynn Hershman, ed., Clicking in hotlinks to a digital culture, pp. 148-172, Bay Press, The United States of America.

208. Bin Talal, Elhassan, 2000, Overcoming the barriers, in Forum 2000 / Process of World Integration-Alternative Visions Prague castle, Kingdon of Jordan.

209. Bloom, Alan, 1999, Diversity, canons and cultures, in Hancock, Ralph C., ed., America, The West and Liberal Education, pp. 35-54, Rowman and Littlefield Publishers, The United States of America.

210. Bloomberg, Criag L., 1993, Implications of Globalization for Biblical understanding, in Evans, Alice Frazer and Evans, Robert A and Roozen, David A., eds, The Globalization of Theological Education pp. 213-228, Orbis Books, New York.

211. Calcutt, Andrew, 1999, White Noise - An A-Z of the contradictions in Cyberculture, St. Martin's Press. New York.

212. Campbell, Jeremy, 1982, Grammatical Man - Information, Entropy, Language, And life, Simon and Schuster, Inc., New York.

213. Carnevale, Peter J. and Probst, Tahira M., Conflict on the internet in Kiesler, Sara, ed., Culture of the internet, pp. 233-255, Lawrence Erbaum Associates, Publishers, New Jersey.

214. Cashmore, Ellis, and Rojk, Chris, eds., 1999, Dictionary of Cultural Theorists, Edward Arnold Publishers Ltd, New York.

215. Cavalli-Sforza and Luigi Luca, 2000, Genes, Peoples, and Languages, NorthPoint Press, The United States of America.

216. Clark Nigel, 1996, Earthing the ether: the alternating currents of ecology and cyberculture, in Sardar Ziauddin and Ravetz Jerome R. eds., Cyberfutures - Culture and Politics on the Information Superhighway, pp. 90- 110, New York University Press, New York.

217. Collins Jim, 1995, Architecture of Excess-Culture Life in the Information Age, Routledge, New York.

218. Connor, Steven, 1989, Postmodernist Culture, Blackwell Publishers, Oxford.

219. Crain Stephen, Language and the brain, in file://D/transfer/trans/Brain.html.

219*. Crawford James, International perspectives on language politics, in http://ourworld. compuserve. com/homepages/JWCRAWFORD/LLPT6.html.

220. Crawford, Walt and Gorman, Michael, Coping with electronic information, in Dock, Julie Bates, ed., The Press Of Ideas-Reading for Writers on Print Culture and the Information Age, pp. 588-598, Bedford Books, The United States of America.

221. Cronberg, Tarja, 1997, Reshaping the Danish information society, in Kubicek, Herbert and Dutton, William H., eds., The Social Shaping of Information Super-highways, pp. 117-132, St. Martin's Press, New York.

222. Danto, Arthur C., 1998, Criticism, philosophy, and the ends of taste, in Horowitz, Gregg and Huhn, Tom, eds., The Wake of Art, pp. 1-56, Overseas Publishers Association, Amsterdam B.V.

223. Davenport, Glorianna, Indexes are "out", Models are "in", in Mit Media Lab.

223*. Dauder Rayman, 1995, Ideological Deviation and Ethical Protection, in Mayor, Federico and Forti, Augusto eds., Science and Power, pp. 115-136, UNESCO Publishing, France.

224. Demetrios, Eames, Power of Tens Interactive-When documentary movie meets multimedia, in http://‘vww2.gol.com/users/dersot/Pwte.html, The World Wide Web.

225. Dessauer, John P., 1996. Cultural pluralism: and the book world, in Dock, Julie Bates ed., The Press Of Ideas-Rending for Writers on Print Culture and the Information Age, pp. 372 376. Bedford Books, The United States of America.

226. Dinkla, Soke, 1996, From participation to interaction: toward the origins of interactive art, in Leeson, Lynn Hershman ed., Clicking in Hotlinks to a Digital Culture. pp. 279-290, Bay Press,

The United States of America.

227. Douglass, Fredrick, 1996, Learning reading, learning freedom, in Dock, Julie Bates, ed., The Press Of Ideas-Reading for Write's on Print Culture and the Information Age, pp. 130-135, Bedford Books, The United States of America.

228. Dutton, William H., 1997, Multimedia Visions and reality, in Kubicek. Herbert - Dutton, William H. eds., The Social Shaping of Information Super-highways, pp. 133-156 St. Martin's Press, New York.

229. Eco, Umberto, 1996, The future of literacy, in Dock, Julie Bates, ed., The Press Of ideas-Reading for Writers on Print Culture and the Information Age, pp. 537-545, Bedford Books. The United States of America.

230. Egan, Kieran, 1997, The Educated Mind - How Cognitive Tools Shape our Understanding, The University of Chicago Press, The United States of America.

231. Escobar, Arturo, 1996, Welcome to cyberia: notes on the anthropology, in Sardar Ziauddin and Ravetz Jerome R. eds., Cyberfutures - Culture and Politics on the Information Superhighway, pp. 111-137, New York University Press, New York.

232. Euben, J. Peter, 1997, Corrupting Youth - Political Education, Democratic Culture, and Political Theory, Princeton University Press, New Jersey.

232*. Ferrarotti, Franco, 1995, The Industrial Revolutions and the new assets of science, technology and power, in Mayor, Federico and Forti, Augusto eds., Science and Power, pp. 47-69, UNESCO Publishing, France.

233. Finch, Henry Le Roy, 1995, Wittgenstein, Element Books, Inc., The United States of America.

234. Finkelstein, Barbara and Pickert, Sarah and Mahoney, Tracy and Barry, Douglas. 1998 Discovering Culture in Education-An approach to Cultural Education Program, Evaluation, ERIC Clearinghouse on Assessment and Evaluation, The United States of America.

235. Fisher, Jeffery, 1997, The postmodern paradiso: Dante, Cyberspace and the technosophy of cyberspace, in Porter, David, ed., Internet Culture, pp 111-132, Routledge, New York.

236. Forti, Augusto, 1995, Knowledge and science as a source of power: The birth of modern science, in Mayor, Federico and Forti, Augusto eds, Science and Power, pp. 23-31, UNESCO, Publishing, France.

237. Fuller, Timothy, 1999, Liberal Education in the confines of the liberal tradition, in Hancock, Ralph C., ed., America, The West, and Liberal Education. pp. 27-34, Rowman and Littlefield Publishers Inc., The United States of America.

238. Gates, Bill, 1996, The Road Ahead, Penguin Books, The United States of America.

239. Gillespie, Michael Allen, 1999, Liberal education and the idea of the west, in Hancock, Ralph C. ed, America, The West, and Liberal Education, pp. 7-26, Rowman and Littlefield Publishers Inc, The United States of America.

240. Girour, Henry and Lankshear, Colin and McLaren, Peter and Peters, Michael, 1996, Counter

narratives Cultural Studies and Critical Pedagogies in Postmodern Spaces, Routledge, The United States of America.

241. Glenn, Jerome Clayton, 1989, Future Mind: Artificial Intelligence - Merging the Mystical and the Technological in the 21st Century, Acropolis Books ltd, Washington. D.C.

241*. Gonzalez, Justo L., 1993, A Historical Survey, in Evans, Alice Frazer and Evans, Robert A. and Roozen, David A. ed., The Globalization of Theological Educational, pp. 13-32, Orbis Books. New York.

242. Gromala, Diana, 1996, Pain and subjectivity in Virtual Reality, in Leeson, Lynn Hershman, ed., Clicking in hotlinks to a digital culture, pp. 222-237, Bay Press, The United States of America.

243. Hanafi, Hassan, 1995, Islam in The Modern World, The Anglo-Egyptian Bookshop, Cairo.

244. Hancock, Ralph C., 1999, America, The West, and Liberal Education, in Hancock, Ralph C, ed., America, The West, and Liberal Education, pp 1-7, Rowman and Littlefield Publishers, Inc., The United States of America.

245. Herman, Edward S. and McChesney, Robert W., 1997 The Global Media - The New Missionaries of Corporate Capitalism, Cassell and Continuum, The United States of America.

246. Rotzer, Floran, 1996, Attack on the brain: reflections on neurotechnology, in Leeson, Lynn Hershman, ed., Clicking in hotlinks to a digital culture, pp. 194-209, Bay Press, The United States of America.

247 *. Hiebert, Paul G., 1993, Globalization as evangelism, in Evans, Alice Frazer and Evans, Robert A and Roozen, David A., ed., The Globalization of Theological Education, pp. 6477, Orbis Books, New- York.

247**. Hofstadter, Douglas R., 1979, Godel, Esher, Bach: An Eternal Golden Brand, Vintage Books, The United States of America.

247***. Huybregts, Riny and Riemsdijk, Henk Van, 1982, Noam Chomsky on The Generative Enterprise, Fortis Publications, The United States of America.

248. IBRT Translation/ Documentation Ltd., 1999, Israel Yearbook and Almanac, IBRT Translation Documentation Ltd., Jerusalem.

249 Institute of International Relations, 1998, Culturelink, Institute for International Relation Publications, The Republic of Croatia.

250*. Israel Information Centre, 1997, Israel Von A-Z (in German), Israel Information Center, Jerusalem.

250 **. James, Jeans, 1968, Science and Music, Dover Publications, Great Britain.

251. Jessup, Emily, 1997, Feminism and computers in composition instruction, in Hawisher, Gail E. and Selfe, Cynthia L., eds., Literacy, Technology, And Society, pp. 199-211, Prentice Hall, Inc., The United States of America.

252. kalil, Thomas A., 1997, The Clinton-Gore national Information infrastructure initiative, in Kubicek, Herbert and Dutton, William H., eds., The social shaping of information superhighways, pp. 45-60, St Martin’s Press, The United Slates of America.

253. Karraker, Roger, 1997, Highways of the mind or toll roads between information castles?, in Hawisher, Gail E. Selfe, Cynthia L., eds., Literacy, Technology, And Society, pp. 477-487, Prentice Hall, Inc., The United States of America.

254. Kay, Alan C., 1997, Computers, Networks and education, in Hawisher, Gail E. and Selfe, Cynthia L, ed, Literacy Technology And Society, pp. 150-159, Prentice Hall, Inc., The United States of America.

255. Kedzie, Christopher K., A Brave New World or a New World Order, in Kiesler, Sara, ed. Culture of the internet, pp. 209-232. Lawrence Erlbaum Associates, Publishers, New jersy.

256. Kellner, Douglas. Globalization and the post modern turn, in http://www.GSEis.ucla.edu/courses/ed253a/dk/globpm.html, The World Wide Web.

257. Kellner, Douglas, Intellectuals and new Technologies, in http://www.GSEis.ucla.edu/courses/ed253a/dk/int.html, The World Wide Web.

258. Kellner, Douglas, Hollywood and society, encyclo art [encl.], http://www.GSEis.ucla.edu/courses/ed253a/MCKellner/HOLSOC.html, The World Wide Web.

259. Kellner, Douglas, 94 media society; city lights [art], in http://www.GSEis.ucla.edu/courses/ed253a/MCKellner/CSFS.html, The World Wide Web.

260*. Kellner, Douglas, Cultural studies and FS: McGuigan reader [cta], in http://www.GSEis.ucla.edu/courses/ed253a/MCKellner/CSFS.html, The World Wide Web.

260**. Kellner, Douglas, 1996 symposium on MEDIA CULTURE, in http://www.GSEis.ucla.edu/courses/ed253a/MCKellner/MCSYM.html, The World Wide Web.

260***. Kellner, Douglas, Marxism & the information Superhighway, in http://www.GSEis.ucla.edu/courses/ed253a/dk/ML&CP.html, The World Wide Web.

260****. Kellner, Douglas, Media literacy and Critical Pedagogy, in http://www.GSEis.ucla.edu/courses/ed253a/dk/ML&CP.html, The World Wide Web.

261. Kinney, Jay, 1996, Is there a new political paradigm lurking in cyberculture?, in Sardar, Ziauddin and Ravetz, Jerome R., eds., Cyberfutures - Culture and Politics on the Information Superhighway. pp. 138-153, New York University Press, New York.

262. Kittler, Friedrich A., 1997, Media theory after poststructuralism, in Johnston, John, ed., Literature media information systems, pp. 1-26, Overseas Publishers Association, Amsterdam B. V.

263. Kliensteuber, Hans J., 1997, Crippled digitalization-Superhighways or one-way streets? The case of German digital television, in Kubicek, Herbert-Dutton, William H. ed., The social shaping of information superhighways, pp. 79-96, St. Martin's Press, New York.

264. Knutsson, Karl Eric, 1998, Culture and Human Development, The Royal Academy of Letters, History and Antiquities, Sweden.

265. Kraut, Robert E. and Attewell, Paul, 1997, Media use in global corporation: electronic mail and organizational knowledge, in Kiesler, Sara, ed. Culture of the internet, pp. 323-342, Lawrence Erlbaum Associates, Publishers, The United States of America.

266. Lanier, Jaron, 1996, The consequences of untruth, in Leeson, Lynn Hershman ed., Clicking in hotlinks to a digital culture, pp 43-53, Bay Press, The United States of America.

267. Lechte, John, ed., 1994, Fifty key contemporary writers, Routledge, The United States of America.

267*. Lesher William E., 1993, Meanings of Globalization, in Evans, Alice Frazer and Evans, Robert A. and Roozen, David A., eds., The Globalization of Theological Educational, pp. 33-63, Orbis Books, New York.

268. Levinson, Paul, 1999, Digital Mcluhan - a guide to the information millennium, Routledge, Great Britain.

269. Levy, Pierre, 1997, Collective Intelligence - Mankind's Emerging World in Cyberspace, Plenum Trade The United States of America.

270. Li, Xiao-Ming, 1996, "Good Writing", In Cross-Cultural Context, State University of New York Press, The United States of America.

271 Lightfoot, Sara Lawrence, 1983. The Good High School-Portraits of Character and Culture. Basic Books, Inc., The United States of America.

272. Lipsitz, George, 1997, Class and consciousness, in Kumar, Amitava, ed., Class Issues Pedagogy, Cultural Studies, and the Public Sphere, pp. 9-21, New York University Press, The United States of America.

273. Lubbers, Ruud F.M., Globalization: 2x2, in http://www.globalize.org/publications/newmedia.html, The World Wide Web.

274. Leotard, Jean-François, 1984 The Postmodern Condition: A report on knowledge, The University of Minnesota Press, The United States of America.

275. Nuecherterlien, James, 1999, The religious university and liberal education, in Hancock, Ralph C., ed., America, The West, and Liberal Education, pp. 145-152, Rowman and Littlefield Publishers, Inc, The United States of America,

276. Maes, Pattie, 1996, Artificial life meets entertainment: lifelike autonomous agents, in Leeson, Lynn Hershman, ed., Clicking in hotlinks to a digital culture, pp. 210-221, Bay Press, The United States of America.

276*. Marmkjaer, Kisten, ed., 1991, The Linguistic Encyclopedia, Routledge, The United States of America.

277. Mander, Jerry, The dark side of globalization: what the media are missing, in http://www.geocities.com/hens/Acropolis/1232/global.html, TheWorld Wide Web.

278. Manovich, Lev, 1996, The labour of perception, in Leeson Lynn, Hershman ed., Clicking in hotlinks to a digital culture, pp. 183-193, Bay Press, The United States of America.

279. Max, D. T., 1996, The end of the book? in Dock, Julie Bates, ed., The Press Of Ideas-Reading for Writers on Print Culture and the Information Age, pp. 546-557, Bedford Books, The United States of America.

280. Mayers, Marvin K., 1987, Christianity Confronts Culture, Zondervan Publishing House, The United

States of America.

281. Mayor, Federico, 1995, Science and power today and tomorrow, in Mayor, Federico and Forti, Augusto eds., Science and Power, pp. 136-170, UNESCO Publishing, France.

282. McKibben, Bill 1993, The Age of Missing Information, The Penguin Group, New York.

283. Meeks, M. Douglas, 1993, Global economy and the globalization of theological education, in Evans, Alice Frazer and Evans, Robert A. and Roozen, David A., eds., The Globalization of Theological Educational, pp 247-262, Orbis Books New York.

284. Mehta, Michael D. and Plaza Dwaine E., 1997, Pornography in cyberspace, an exploration of what's in USENET, in Kiesler, Sara, ed., Culture of the internet, pp. 53-67, Lawrence Erlbaum Associates, Publishers, The United States of America.

285. Melrod, George, 1996, Digital unbound, in Dock, Julie Bates cd., The Press Of Ideas-Reading for Writers on Print Culture and the Information Age, pp 570-580, Bedford Books, The United States of America.

286. Minsky, Merven, 1985, The society of mind, Simon and Schuster Inc., New York.

287. Murphy, John D., 1997, Virtual time computer-mediated distance learning versus the carnegie model. in Hawisher, Gail E. and Selfe, Cynthia L, eds., Literacy, Technology, And Society, pp. 239-244, Prentice Hall, Inc., The United States of America.

288. Nash, Gary B. and Crabtree, Charlotte and Dunn, Ross E., 1997, History on Trial - Cultural Wars and the Teaching of the Past, Alfred A. Knolpf, Inc., The United States of America .

289. Negroponte, Nicholas, 1995, Being Digital, Hodder and Stoughton, Great Britain.

290. Nelkin, Dorothy, 1995, Selling Science - How the Press Covers Science and Technology, W. II. Freeman and Company, New York.

291. Newsweek, 1999, A new breed of Thinking computers.

292. Niebel, Michael, 1997, The action plan of the European commision, in Kubicek, Herbert and Dutton, William M., eds., The social shaping of information superhighways, pp. 61-68, St. Martin's Press, New York.

293. Ong, Walter J., 1996, Print, space, and closure, in Dock, Julie Bates, ed., The Press Of Ideas Reading for Writers on Print Culture and the Information Age, pp. 52-64, Bedford Books, The United States of America.

294. Pandian, Jacob, 1991, Culture, Religion, and The Sacred Self, Prentice Hall, Inc., New Jersey.

295. Petersen, Julie, 1997, Sex and the cybergirl, in Hawisher, Gail E. and Selfe, Cynthia I., ed., Literacy, Technology, And Society, pp. 359-360, Prentice Hall, Inc., The United States of America.

295*. Pinker, Steven, 1994, The Linguistic Instinct, The Penguin Press, England.

296. Pimentel, Ken and Teixeira, Kevin, 1995, Virtual Reality - Through the New Looking Glass, McGraw-Hill, Inc., The United States of America .

297. Platt, Michael' 1999, The young, the good and the west, in Hancock, Ralph C., ed., America, The West, and Liberal Education, pp. 83-144, Rowman and Littlefield Publishers, Inc., The United

States of America.

298. Poster, Mark, 1997, Cyberdemocracy: internet and the public sphere, in Porter, David, ed., Internet Culture, pp. 201-218, Routledge, New York.

299. Postman, Neil, 1992, Technopoly - The Surrender of Culture to Technology, Vintage Books, The United States of America.

300. Powell, Corey S., Science Goes to the Movies, in http://www.scientificamerican.c...rations/ 102196explorations.html, The World Wide Web.

301. Purves, Alan C., 1998, The Web of Text and the Web of God An Essay on the Third Information Transformation, The Guilford Press, The United States of America.

302 Ravetz, Jerome R., 1996, The microcybernetic revolution and the dialectics of ignorance, in Sardar, Ziauddin and Ravetz, Jerome R., eds., Cyberfutures - Culture and Politics on the Information Superhighway, pp 42-60, New York University Press, New York.

303. Read, Herbert, 1960, Art Now - An introduction to the theory of modern painting and sculpture, Faber and Faber Limited, Great Britain.

304*. Rosen, Stanley, 1999, Conservatism, liberalism, and the curriculum: Notes on the American dilemma, in Hancock, Ralph C., ed., America, The West, and Liberal Education, pp 69-82, Rowman and Littlefield Publishers, Inc., The United States of America.

304**. Salkie, Raphael, 1990. Linguistics and Politics, Unwin Hyman Ltd., Great Britain.

305*. Sardar, Ziauddin, 1996, Alt.civilizations.faq: cyberspace as the darker side of the west, in Sardar, Ziauddin and Ravetz. Jerome R, eds., Cyberfutures - Culture and Politics on the Information Superhighway, pp. 14-41, New York University Press. New York.

305**. Schechmer, Richard, 1997, Theatre for Tomorrow. in The Unesco courier, pp. 6-11, UNESCO, France

306. Schofield, Janet W. and Davidson, Ann and Stocks, Janet E. and Futoran Gail, The internet in school: a case study of educator, and its precursors, in Kiesler, Sara, ed., Culture of the internet, pp. 361-384, Lawrence Erlbaum Associates, Publishers, The United States of America.

307. Schrieter, Robert J., 1993, Globalization as cross cultural dialogue. in Evans, Alice Frazer and Evans, Robert A. and Roozen, David A., eds., The Globalization of Theological Education, pp. 122-133, Orbis Books, New York.

308. Sircello, Guy, 1978, Mind and Art, Princeton University Press, New Jersey.

309. Smith, Jane I., 1993, Globalization as ecumenical/interfaith dialogue, in Evans, Alice Frazer and Evans, Robert A. and Roozen. David A., eds, The Globalization of Theological Education, pp 90-121, Orbis Books, New York.

310. Sobchack, Vivian, 1996, Democratic franchise and the electronic frontier, in Sarda, Ziauddin and Ravetz, Jerome R., eds., Cyberfutures - Culture and Politics on the Information Superhighway, pp. 77-89, New York University Press, New York.

311. Somerville, C. John, 1999, How the News Makes IJs Dumb - The Death of Wisdom in an

Information Society, Intervarsity Press, The United States of America.

312. Spacek, Thomas R., 1997, Flow much interoperability makes a NII?, in Kubicek, Herbert Dutton and William H., eds., The social shaping of information superhighways, pp. 69-78, St. Martin's Press, The United States of America.

313. Spencer, George, 1996, Microcybernetics as the metatechnology of pure control, in Sardar, Ziauddin and Ravetz, Jerome R., eds., Cyberfutures - Culture and Politics on the Information Superhighway, pp. 61-76, New York University Press, New York.

314. Sterling, Bruce, 1997, Opening statement to the house subcommitie on telecommunications and finance, in Hawisher, Gail E and Selfe, Cynthia L., eds.. Literacy, Technology, And Society, pp. 497-500, Prentice Hall. Inc, The United States of America.

315. Strassmann, Paul A., 1997, information systems and Literacy, in Hawisher, Gail E and Selfe, . Cynthia L., eds., Literacy, Technology, And Society, pp 134-141, Prentice Hall, Inc, The United States of America.

316. Stratton, Jon, 1997, Cyberspacc and the globalization of culture, in Porter, David, eds., Internet Culture, pp. 253-276, Routledge, New York.

317. Stromfeldt, Mette, 1996, Window dressing, in Leeson Lynn Hershman, ed., Clicking in hotlinks to a digital culture, pp 140-147, Bay Press. The United States of America.

318. Tabbi, Joseph, 1997, Reading, Writing, Hypertext: Democratic politics in the virtual classroom, in Porter, David, ed., Internet Culture. pp. 233-252, Routledge, New York.

319. Thompson, John B., 1995, The Media and Modernity - A Social Theory of The Media, Stanford University Press, California.

320. Thorngate, Warren, 1997, Box: more that we can know the attentional economics of internet use, in Kiesler, Sara, ed., Culture of the internet, pp 296-302, Lawrence Erlbaum Associates Publishers, The United States of America.

321. Timollinson, John, 1991, Cultural Imperialism. The John Hopkins University Press, Baltimore-Maryland.

322. UNESCO. 1997, World communication report, Unesco Publications, France.

323. UNESCO. 1997, World Information Report 97/98, Unesco Publications, France.

324 UNESCO 1998, World Science Report 98, Unesco Publications, United Kingdom.

325. Walsh, John P. and Todd, Bayma, 1997, Computer networks and scientific Work, in Kiesler, Sara ed., Culture of the internet? pp. 385-406, Lawrence Erlbaum Associates, Publishers, The United States of America.

326. Wasko, Janet, 1994, Hollywood in The Information Age, University of Texas Press, Great . Britain

327. Watson, Russel, 1997, When words are the best weapon, in Hawisher, Gail E. and Selfe, Cynthia L, eds., Literacy, Technology, And Society, pp. 545-550, Prentice Hall, Inc, The United States of America.

328. Wiener, Jon, 1998, National Security" and freedom of information the John Lennon FBI files, in

Theoharis, Athan G., ed., A culture of Secrecy-The Government versus The People's Right to know, pp. 83-97, University Press of Kansas, The United States of America.

329. Wilbur, Shawn P., 1997, An archaeology of cyberspace virtuality, community, identity, in Porter, David, ed., Internet Culture, pp. 5-22, Routledge, New York.

330. Williams, Robin, 1997 The social shaping of information and communications technology, in Kubicck, Herbert and Dutton, William H. ed, The social shaping of information superhighways, pp. 299-338, St. Martin's Press, The United States of America.

331. Winner, Langdon, 1997, Myth information, in Hawisher, Gail E. arid Selfe, Cynthia L., eds., Literacy, Technology, And Society. pp. 42-57, Prentice Hall, Inc, The United States of America.

332 Wresch, William, 1996, Disconnected - Haves and Have-Nots in the Information Age, Rutgers University Press, The United States of America.

333. Young et al., luke, 1997, Academic computing in the year 2000, in Hawisher, Gail E. and Selfe, Cynthia L., cd., Literacy, Technology, And Society, pp. 248-261, Prentice Hall, Inc, The United States of America.

المؤلف في سطور:

د. نبيل علي

* نال درجة الدكتوراه في هندسة الطيران العام 1971م.

* يعمل منذ 30 عاما ـ ولا يزال ـ في مجال الكمبيوتر ونظم المعلومات: برمجة وتصميما وإدارة وبحثا.

* عمل سابقا مديرا للحاسب الآلي بمصر للطيران، ونائب مدير المركز العربي للكمبيوتر، ومدير الشبكة القومية للمعلومات في مصر.

* صاحب فكرة مشروع كمبيوتر صخر، والعالمية للبرامج، ومدير مشروع تأسيسها ومصمم ما يزيد على30 برنامجا، منها برنامج القرآن الكريم.

* تخصص ـ منذ عشر سنوات ـ في بحوث اللغويات الحاسوبية بهدف تطبيق أساليب الذكاء الاصطناعي على معالجة اللغة العربية بالكمبيوتر.

* صاحب كتاب «اللغة العربية والحاسوب»، أول كتاب يتناول هذه القضية في المكتبة العربية.

* مؤلف كتاب «العرب وعصر المعلومات»، سلسلة «عالم المعرفة»، العدد 184

الكتاب القادم

إندلاعات النار

تاريخ الكيمياء المثير من السيمياء إلى العصر الذري

تأليف: كاتي موب / هارولد جولدوايت

ترجمة: د. فتح الله الشيخ

مراجعة: شوقي جلال

هذا الكتاب

يتناول هذا الكتاب واحدة من أدق إشكاليات العصر وأكثرها مدعاة للجدل والحوار، ألا وهي «ثقافة عصر المعلومات»، وذلك على أساس من المعرفة النظرية والخبرة العملية في مجال صناعة الثقافة. يطرح الكتاب الثقافة من منظور هندسي، كمنظومة شاملة مكونة من منظومات فرعية عدة هي: الفكر الثقافي - اللغة - التربية ـ الإعلام ـ الإبداع الفني ـ القيم والمعتقدات.

وتتطرق الدراسة إلى علاقة الثقافة بالمنظومات المعرفية الأخرى، وآليات شروطها الاجتماعية، وطرائق إغنائها بصيغ جديدة تكشف عن قلقها الوجودي الخصب، ومحتواها العلمي ـ التكنولوجي الدينامي. ولا غرو في ذلك، فلقد شهد عالمنا المعاصر ثورات كبيرة على جميع الصعد، أسهمت ـ لاشك ـ في تبديل خرائطه، وتوسيع دلالاته، وتغيير أنساقه ونظمه، الأمر الذي يفتح الباب أمام مقترب جديد يسعى إلى تقديم نظرة مغايرة لطبيعة الثقافة، وتعدد مستويات خطابها، ويؤسس ـ من ثم ـ لتوجه نقدي يهدف إلى تغيير الكثير من المفاهيم التي سادت خطابنا الثقافي الراهن.

إن الميزة الحقيقية لهذا الكتاب، أنه يزيح النقاب، للمرة الأولى، عن ملامح المشهد الثقافي ـ المعلوماتي، من منظور عربي، يتوخى الدراسة الجادة للفكرة والمحتوى، بعيدا عن هيمنة الأيديولوجيا، ونزعات الانكفاء على الذات.

لقد طرح الكتاب كثيرا من الأسئلة التي أفرزتها ثقافة عصر المعلومات، وبادر إلى اقتراح إجابات مبتكرة للعديد منها.